

مُقَدِّمَاتُ ابْنِ خَلْدُونَ

وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمّى
ذِيوَالرَّبِيعِ تَدْرُؤُ الخَيْرِ فِي تَارِيخِ العَرَبِ وَالسُّبْرِ
وَمِنْ عَاوِلِهِمْ مِنْ ذَوِي السَّاءِ اللُّكْبَرِ

مُتَالِفٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور
سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس
الاستاذ خليل شحادة

طبعة مُسْتَكْمَلَةٌ وَمُقَارَنَةٌ مَعَ عِدَّةِ نَسَخٍ
وَمَخْطُوطَاتٍ وَمُدْتَلَةٌ بِحَوَاشِيٍّ وَشُرُوحٍ وَتَمْتَّازُ
بِفَهَارِسٍ لِلْمَوْضُوعَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ الجُغْرَافِيَّةِ

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للنشر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكسيف - صرب: (٧٠٦) / ١

تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣

فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤



بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف والكتاب

كلمة الناشر

العلامة ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ — ٣٣٢م ، ينحدر من أصل أندلسي أشبيلي ، تلقى العلم على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس .

وإذا كان في شبابه اجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه فقد اتيح له الاتصال هناك بالوزير لسان الدين ابن الخطيب خلال فترة نفيه مع سلطانه إلى المغرب وقد توطدت بين الرجلين صداقة متينة ظهرت بوضوح في تلك الترجمة التي افردها له ابن الخطيب في كتابه «الاحاطة في أخبار غرناطة» بعد عودته الى وطنه قال فيه :

... مفخر من مفاخر التخوم المغربية — أي ابن خلدون — شرح البردة شرحاً بديعاً دل على غزارة حفظه وتقن ادراكه ولخص كثيراً من كتب — ابن رشد وعلق للسلطان أبي سالم في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازي ، وألف كتاباً في الحساب ، وشرع في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوّه في الكمال^(١) .

وإذا كان ابن خلدون انغمر في حياة سياسية حافلة سواء في بلاط المرينيين بفاس أو الحفصيين في تونس فإنه اعتزل السياسة وأثر الانطواء بعد مقتل صديقه ابن الخطيب في سجنه فقد ملّ السياسة وانسحب من الحياة العامة واختلى أربع سنوات ٧٧٦ — ٧٨٠هـ في قلعة بني سلامة في ولاية وهران غربي الجزائر وفي تلك الخلوة كتب «مقدمة» والتي اشتهرت بمقدمة ابن خلدون والتي قال عنها هو : «سالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحضت زبدتها وتألّفت نتائجها ، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة» .

وعاش ابن خلدون بعد ذلك مدة طويلة ارتحل خلالها الى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية ، في مصر عدة مرات ، وتصادف أيضاً وجوده في دمشق عندما حاصرها المغولي ، تيمورلنك . وتمكن من الخروج قاصداً تيمورلنك ، متوسلاً إليه انقاذ المدينة . وبعدها

(١) يشير بذلك الى كتاب الخلل المرموقة في اللمع المنظومة لابن الخطيب وهو الفية في أصول الفقه .

عاد ابن خلدون الى مصر وتوفي فيها سنة ٨٠٨ هـ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » وكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر » وهو كتابنا هذا الذي نقدم له .

يتألف الكتاب من سبعة أجزاء وجزء ثامن للفهارس الجزء الأول منه : مقدمة ابن خلدون المشهورة والتي تضمنت نظريته في التاريخ على أنه فرع من الفلسفة وأنه لا بد من تحليل الحوادث التاريخية وذلك بدراسة طبائع البشر والعمران وأنظمة الحكم والسلطان واستقصاء عللها وأسبابها لفهم التاريخ واستخلاص منه العبر وتناول في بقية الاجزاء الستة التالية أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول المشاهير منذ بدء الخليقة الى عصره ، ثم أخبار البربر وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة والمشرق عامة من الملك والدول .

والجزء الثامن فهارس عامة .

وقد تفردت هذه النسخة بتعليقات وشروحات معتمدة على المقارنة بين كل النسخ المتوافرة بالاضافة الى المراجع العديدة لضبط النص والأحداث والأسماء حيث لاحظنا تحريف في الأسماء ناجم عن الأسماء الأعجمية والبربرية وغيرها كما يعود الاضطراب الى أخطاء النساخ والناقلين وقد ضبطنا هذه الأسماء وأشرنا في الهوامش اليها كما وردت في مختلف النسخ واستعنا لذلك بتاريخ ابن الأثير « الكامل في التاريخ » وتاريخ الطبري كما استعنا بمكتبة الدكتور سهيل زكار فيما يخص تاريخ شمال افريقية .

كما لاحظنا اضطراباً في نقل النص أحياناً وأحياناً أخرى عمد المؤلف الى ترك أمكنة بيضاء ليعود الى إملائها فيما بعد ولكن الموت عاجله قبل ذلك كما أن بعض النساخ أحياناً يترك فراغاً مكان الكلمة التي لا يفهمها أو غير المقروءة ولا يعود اليها وعمدنا الى ملأ الفراغ ما أمكن من النسخ الأخرى وأشرنا اليه في الهوامش .

كما وجدنا بعض الفصول قد حذف من نسخة ووجد في نسخة أخرى وبالعكس لذلك أضفنا هذا النقص الحاصل بحيث تخرج هذه الطبعة كاملة متكاملة .

وأضفنا اليها جزءاً خاصاً يحتوي على فهارس للأسماء والقبائل والمدن والاماكن .
هذه النسخة الجليدة نضعها بين أيدي القراء الكرام آملين أن يجدوا فيها ما يتوخون من الدقة شاكرين لكل من ساهم معنا وقدم لنا العون والله من وراء القصد .

٢٥ جمادى الآخرة ١٤٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ
خَلْدُونَ الْحَضْرَمِيُّ وَقَفَّهُ اللَّهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ ، وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ ، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى وَالنُّعُوتُ ، الْعَالِمِ فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَا تَظْهَرُهُ النُّجُومُ أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ ،
الْقَادِرِ فَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ ، أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسْماً^(١)
وَاسْتَعْمَرْنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأَمَّا وَيَسِّرْ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقَسِّمْنَا ، تَكُنْفُنَا الْأَرْحَامَ
وَالْبَيْوتُ ، وَيَكْفُلْنَا الرِّزْقَ وَالْقُوتُ ، وَتَبْلِينَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتُ ، وَتَعْتَوِرُنَا الْأَجَالَ
الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالشُّبُوتُ ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ،
وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ ، الَّذِي تَمَحَّضَ لِفَضَالِهِ الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ ،
وَيَتَّبَعِينَ زُحْلُ وَالْيَهْمُوتُ^(٢) ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ

(١) أي نفوساً ، والله باريه النسم أي خالق النفوس (قاموس) .

(٢) قوله اليهموت هو التون أي الحوت الذي على ظهره الأرض السابقة ويسمى أيضاً لوتيا كما في المزهرة
وروح البيان واللجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي مر في الفلك السابع يوماً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في
حاشيته على البيضاوي ١ هـ في أول سورة نون اليهموت بفتح اللثاء التحمية وسكون الهاء ، وما لشهر من أنه بالياء
للموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان قاله نصر البهريني أقره المصحح الثاني .

البعيد والصيت ، والشمل الجميع في مظاهرتيه ولعدوهم الشمل الشتيت ، صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالإسلام جدّه المبخوت . وانقطع بالكفر حبله المبتوت ، وسلم كثيرا .

أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركايب والزحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال^(١) ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو^(٢) فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غصها الإختقال ، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرؤا الأرض حتى نادى بهم الإرتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخلق .

وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم وأتبعوها ، وأذوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح في الغالب قليل ، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق في الأدميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض طويل ، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانة ، والباطل ينفذ بشهاب النظر شيطانه ، والناقل إنما هو يملئ وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل .

(١) جمع قيل ، والقيل الملك وقيل ، هو الرئيس دون الملك الأعلى .

(٢) نما الخبر أو الحديث ، ارتفع وذاع .

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا ، وجمَعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا ، والذين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة المعتبرة ، واستفروا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة ، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عددة الأناميل ؛ ولا حركات الغواميل ، مثل ابن إسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير ، المتميزين عن الجماهير ، وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغز ما هو معروف عند الأثبات . ومشهور بين الحفظة الثقات ، إلا أن الكفاة اختصتهم بقبول أخبارهم ، واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم ؛ والتأقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم . فللمنران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار .

ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك ، لعموم الدولتين صدر الإسلام^(١) في الآفاق والممالك ؛ وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والتارك ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم ، والأمر العمم^(٢) . كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد ، فقيّد شوارذ عصره ، واستوعب أخبار أفعه وقطره ، واقتصر على تاريخ دولته ومصره ، كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدولة التي كانت بالقيروان .

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ، وتليد الطبع والعقل و بليد ، ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذي منه بالمثال ، ويندهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال ، فيجلبون^(٣) الأخبار عن الدول ،

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة ، لعموم صدر الإسلام والدولتين (أي دولة بني أمية

والدولة العباسية) .

(٢) امر عمم ، تام ، عام (لسان العرب) .

(٣) بمعنى يجمعون .

وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى ، صَوْرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا ، وَصَفَاحًا
 انْتَضَيْتْ مِنْ أَعْمَادِهَا ، وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتَلَادَهَا ^(١) ، إِنَّمَا هِيَ
 حَوَادِثٌ لَمْ تُعَلِّمْ أَصُولَهَا ، وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُفْتَبِّرْ أَجْنَاسَهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولَهَا ، يَكْرَهُونَ
 فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمَتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا ، اتِّبَاعًا لِمَنْ عَنِي مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَائِنِهَا ،
 وَيُغْفَلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيْوَانِهَا ، بِمَا أَعُوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا ،
 فَتَسْتَعِجِمُ ^(٢) صُحُفَهُمْ عَنْ بَيَانِهَا ، ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدُّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا
 مَحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا ، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَائِيَّتِهَا ، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ
 الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا ، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا ، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا ، فَيَبْتَقِي
 النَّاطِرُ مُتَطَلِعًا بَعْدَ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا ، مُفْتَشًّا عَنْ أَسْبَابِ
 تَزَاوُلِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا ، بِإِحْسَانٍ عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُلِهَا ، حَسْبَمَا نَذَكَّرُ ذَلِكَ كَلِمَةً
 فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْتِصَارِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْاِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ
 الْمُلُوكِ وَالْاِئْتِصَارِ ، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ
 بِحُرُوفِ الْفَنَاءِ ^(٣) ، كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَمَنْ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ
 مِنَ الْهَمَلِ ، وَلَيْسَ يُفْتَبِّرُ لِبَوْلَاهُ مَقَالَ ، وَلَا يَعُدُّ لَهُمْ ثُبُوتَ وَلَا اِنْتِقَالَ ، لَمَّا أَذْهَبُوا
 مِنَ الْفَوَائِدِ ، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ ، وَسَبَّرْتُ عَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ
 مِنْ سِنَةِ الْعَقْلَةِ وَالنُّوْمِ ، وَسَمِيتُ التَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الْمَفْلِسُ أَحْسِنُ السُّوْمِ ^(٤) ،
 فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا ، رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا ،
 وَفَصَّلْتُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْاِعْتِبَارِ تَابًا تَابًا ، وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوْلِيَةِ الدُّوَلِ وَالْإِمْرَانِ عِلَلًا
 وَأَسْبَابًا ، وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ ، وَمَلَأُوا

(١) أي قديمها وحديثها .

(٢) أسعجيم الكلام ، أصبح مبهما .

(٣) اسم العلامات تدل على الأعداد (قاموس) .

(٤) السوم ، طلب الشراء (لسان العرب) .

أَكْنَافِ الصُّوَاحِي مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ، وَمَنْ
سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ، وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ، إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ
بِالْمَغْرِبِ مَا وَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَشَوَاهُمَا، حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ
مَا عَدَاهُمَا، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلَهُ مِنْ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا، فَهَدَّيْتُ مَنَاجِيَهُ
تَهْدِيًّا، وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيًّا، وَسَلَكْتُ فِي تَرْجِيهِ وَتَنْبِيهِ
مَسْلَكًا غَرِيًّا، وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاجِيِ مَذْهَبًا عَجِيْبًا، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً
وَأَسْلُوبًا. وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَغْرُضُ فِي الْاجْتِمَاعِ
الْإِنْسَانِي مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مَا يَمْتَعِكُ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا، وَيَعْرِفُكَ كَيْفَ
دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا؛ حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ
مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَبُّتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ.

المُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ.

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَانِ وَذَكَرَ مَا يَغْرُضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِدَلِكِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ.

الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا
الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ الْإِلْمَاعِ بِنَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلَ النَّبِطِ
وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَالْفَرَسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبْطِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ

الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَانَةٍ وَذَكَرَ أَوْلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ
وَمَا كَانَ بِيَدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمَلِكِ وَالدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتْ الرِّخْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ
لِاجْتِنَاءِ^(١) أَنْوَارِهِ، وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ؛ وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي
دَوَابِيهِ وَأَسْفَارِهِ؛ فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِتِلْكَ الدِّيَارِ، وَدَوْلِ
التُّرْكِ فِيمَا مَلَكَوهُ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَأَتَّبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ، وَأَدْرَجْتُهَا

(١) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ لِاجْتِنَاءِ.

في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي ، ومُلوك الأمصار والضواحي ،
سالكاً سبيل الإختصار والتلخيص ، مُفتدياً بالمرام السهل من العويص ، داخلاً من
باب الأسباب على العموم إلى الإختبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة
استيعاباً ، ودلّل من الحكم النافذة صعباً ، وأعطى لحوادث الدُول عللاً وأسباباً ،
فأصبح للحكمة صواناً . وللتاريخ جزاباً .

ولما كان مُشملاً على أخبار العرب والبربر ، من أهل المدين والنوهر ، والإلماع
بمن عاصرهم من الدُول الكُبرى ، وأفصح بالذكري والعبر ، في مُبتدأ الأحوال ومما
بعدها من الخبر ، سَمِيَهُ كتاب العبر ، وديوان المُبتدأ والخبر ، في أيام العرب
والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر ، ولم أترك شيئاً في أولية
الأجيال والدُول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحوال ، في القرون
الخالية والملي ، وما يعرض في العمران من دُوله وملة ، ومدينة وحلة ^(١) ، وعزة
وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب وإضاعة ، وأحوال مُتقلبة مُشاعة ،
وبذور وحضر ، وواقع ومُنظر ، إلا واستوعبت جملة ، وأوضحت براهينه وعلله ،
فجاء هذا الكتاب فداً بما صُممته من العلوم الغربية ، والحكم المخجوية القريبة ،
وأنا من بعدها موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، مُعترف بالمعجز عن المضاء ، في
مثل هذا القضاء ^(٢) ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المُتسعة الفضاء ، في
النظر بعين الانتقاد لا بعين الإرتضاء ، والتعمد ^(٣) لما يفتشرون عليه بالإصلاح
والإغضاء ، فالبضاعة بين أهل العلم مُزجاة ، والاعتراف من اللوم منجاة ،
والحسنى من الإخوان مُرتجاة ، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه
الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل .

وبعد أن استوفيت علاجه ، وأنزت مشكاته للمستبصرين وأذكنت سراجة .

(١) العلة ، القرية مجازاً ، ومعناها في الأصل ، القوم النازلون في مكان ما .

(٢) بمعنى ، هذه القضايا .

(٣) تفهده ، ستر ما كان منه .

وأوضحَتْ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمُنْهَاجَهُ ، وَأَوْسَعَتْ فِي فَضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدْرَتْ
 سِيَاجَهُ ، أُنْحَفَتْ بِهَذِهِ النُّسخَةِ مِنْهُ ^(١) خِزَانَةٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْمُجَاهِدِ ،
 الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ ، الْمُتَحَلِّيِّ مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ ^(٢) ، وَلَوْثِ ^(٣) الْعَمَائِمِ ، بِحُلَى الْقَانِتِ
 الزَّاهِدِ ، الْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشُّوَاهِدِ ، بِأَجْمَلِ
 مِنَ الْقَلَائِدِ ، فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ ، الْمُتَنَاوِلِ بِالْفَرْعِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ ، وَالْحِجْدِ الْمُوَاتِي
 الْمُسَاعِدِ ، وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالثَّالِدِ ، ذَوَائِبِ مُلْكِهِمُ الرَّاسِي الْقَوَاعِدِ ، الْكَرِيمِ
 الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ ، جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ ، وَنَاطِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ
 وَالشُّوَارِدِ ، وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فِي فَضْلِ الْمَذَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ
 النَّاقِدِ ، وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاقِدِ ، النَّيِّرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ ، نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ
 الْمَرَّاشِدِ ، وَنِعْمَتِهِ الْعُذِيَّةِ الْمَوَارِدِ ، وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَّاصِدِ لِلشُّذَائِدِ ، وَرَحْمَتِهِ
 الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ ، الَّتِي وَسَعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ) ، وَاسْتِقَامَةَ الْعَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ

(١) قوله انحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله انحفت
 وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمس لهُ الكف الذي يلوح بعين الاستبصار فتونة . ويلحظ بمبارك الشريفة
 معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضا الوجود : واجلت نظري ليل
 التمام والهجود . بين التهايم والنجود . في العلماء الركع والسجود . والخلفاء أهل الكرم والوجود . حتى وقف
 الاختيار بساحة الكمال . وطافت الأفكار بموقف الآمال . وظفرت أيدي الساعي والاعتماد . بمننتي المعارف
 مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانخت مطي الأفكار في عرصاتها .
 وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها . وانحفت بديوانها مقاصير إيوانها . واطلعت كوكبا وقادا في أفق خزانها
 وصوانها . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره . ويعرفون فضل المذاريك الإنسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا
 السلطان الامام للمجاهد . الفاتح الماهد . إلى آخر التعموت المذكورة هنا ثم قال الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب
 العالمين أبو العباس أحمد ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير
 المؤمنين . أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين . من أئمة الموحدين الذين جدوا الدين . ونهجوا السبل
 للمبتدئين . ومحو أثر البغاة المسفين من الجسمة والمتدين . سلالة أبي الحفص والفاروق . والنسبة النامية على
 تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتألهي . من تلك الأشعة والبروق . فأوردته من مودعها إلى العلي بحيث مقر
 الهدى . ورياض المعارف خضلة الندي . إلى اخر ما ذكر هنا الا أنه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة
 مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة إلى المشرق الخ .

(٢) التيمية : خريزة رقطاء تنظم في السير ، ثم يعقد في العنق . وهي التمام والتسيم . عن ابن جنبي
 وقيل ، هي قلادة يجعل فيها سبور وعود . وحكي عن ثعلب ، تمت الولود . علق على التمام (لسان العرب) .
 (٣) لوث ، غضب العمامة .

وَالْعَوَائِدِ ، وَذَهَبَتْ بِالْخَطُوبِ الْأَوَائِدِ . وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رُؤُوقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ ، وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُنْبِطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ . (أمير المؤمنين) أَبِي فَارِسِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعْظِمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَغْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرَيْنَ ، الَّذِينَ جَدُّدُوا الدِّينَ ، وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ ، وَمَحَوْا آثَارَ الْبَغَاةِ الْمُفْسِدِينَ ، أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ ، (وَتَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ) .

وَبَعَثْتَهُ إِلَى خِزَانَتِهِمُ الْمُوقَفَةَ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرْوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَارِسَ حَاضِرَةَ مُلْكِهِمْ وَكُرْسَى سُلْطَانِهِمْ ، حَيْثُ مَقَرَّ الْهُدَى ، وَرِيَاضَ الْمَعَارِفِ خَضَلَةَ النَّدَى . وَفَضَاءَ الْأَسْرَارِ الرُّبَائِيَّةِ فَسِيحَ الْمَدَى ، وَالْإِمَامَةَ الْفَارَسِيَّةَ الْكَرِيمَةَ^(١) الْعَزِيزَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَنْظُرُهَا الشَّرِيفَ ، وَفَضَلَهَا الْفَنَى عَنِ التَّعْرِيفِ ، تَبَسُّطَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِهَادًا ، وَتَنْفَسَ لَهُ فِي جَانِبِ الْقَبُولِ أَمَادًا ، فَتَوَضَّحَ بِهَا أُدْلَةَ عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا ، فَفِي سَوْفِهَا تَنْفَقُ بَضَائِعُ الْكُتَابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعَكِّفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ ، وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ وَالْأَلْبَابِ ، وَاللَّهُ يُوَزِّعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا ، وَيُوفِّرُنَا حُطُوطَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا ، وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِينَدَانِهَا الْمُحَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا ، وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا ، وَمَا أَوْيَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا ، لِبُوسِ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهِتِهَا ، بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ وَشُبُهَاتِهَا ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) قوله الفارسية أي النسوبة إلى أبي فارس للتقدم ذكره ١ هـ .

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض
للمؤرخين

من المغالط وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو
يوقفنا^(١) على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم . والأنبياء في سيرهم . والملوك
في دولهم وسياساتهم . حتى تيم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين
والدنيا فهو محتاج إلى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت يفضيان
بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأختار إذا اعتمد فيها
على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال
في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم
يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيراً ما وقع
للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم
فيها على مجرد النقل عتاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها
ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة
في الأختار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إخفاء
الأغداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطيئة
الهدر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

(٢) بمعنى بطلنا . وهي لغة ضميعة .

وهذا كما نقل المشعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مضر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يتعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبعدها إذا اضطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفتين وشيء من جوانبه لا يشمر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بغض عمال مملكة فارس يقال إنه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير وقع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف^(١) قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف وعن عائشة والزهرري فإن جموع رستم الذين زحف بهم سعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً كلهم متبوع وأيضاً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لانتسح نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قوتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخبير من الحجاز على ما هو المعروف.

(١) هو سيف بن عمر الأسدي من جامعي تواريخ الأمم والدول.

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يضر بن قاهت بفتح الهاء وكسرهما ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نَسَبُهُ في التوراة والمدَّةُ بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مِضْرَ مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبيعين نفساً وكان مقامهم بمِضْرَ إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويتعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيالٍ إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبيعد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن يشا بن عوفيد (ويقال ابن عوفد) ابن باعز (ويقال بوعز) بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب (ويقال حميناذاب) بن رم بن حصرون (ويقال خسرون) بن بازس (ويقال بيرس) بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف فرُبما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبيعد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً.

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته^(١) كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم وفي أيام سليمان (عليه السلام) ومملكه كان غنفاً دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكفاة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إخفاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد

(١) المقربات، جمع مقربة، وهي من الخيل التي يقرب مملعها ومریطها لكرامتها.

وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْإِعْرَابِ فَإِذَا اسْتَكْشَفَ أَصْحَابُ
الدَّوَابِّ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتَنْبَطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بِضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ
وَاسْتَجْلَيْتْ عَوَائِدُ الْمُتَرْفِينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ
النَّفْسِ بِالْفَرَائِبِ وَسُهُولَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ وَالْعَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى
لَا يَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ وَلَا عَمْدٍ وَلَا يَطَالِبُهَا فِي الْخَبْرِ بِتَوْسِطِ وَلَا عَدَالَةٍ
وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيْشٍ فَيُرْسِلُ عَنَانَهُ وَيَسِيمُ فِي مَرَاتِعِ الْكُذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ
آيَاتِ اللَّهِ هِزَاءً^(١) وَيَشْتَرِي لَهْوَ الْخَدِيثِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةٌ
خَاسِرَةٌ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مَلُوكِ
الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهِمُ بِالْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ^(٢) وَالْبَرْبَرِ
مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِيشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ مَلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ
لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَثَخَنَ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي
سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ حِينَ سَمِعَ رِطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأَخَذَ هَذَا الْإِسْمَ عَنْهُ
وَدَعَا بِهِ مِنْ حِينِيذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمَيْرٍ
فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ^(٣) وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبُ الطَّبْرِيِّ
وَالجَرَجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيْلِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حِمَيْرٍ
وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً أَنَّ ذَا الْإِذْغَارِ مِنْ مَلُوكِهِمْ
قَبْلَ أَفْرِيقِيشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ
ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرُّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
فِيهِ مَسْلِكاً لِكَثْرَةِ الرُّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَأْسَفَ مِنْ مَلُوكِ الْفُرْسِ الْكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلِكُ الْمُوصِلِ وَأَذْرَبِيحَانَ

(١) وفي بعض النسخ هُزُوءاً .

(٢) كذا المشهور بدون تشديد الباء . وقد تشددت الباء . (أفريقيّة) في معجم البلدان لياقوت الحموي .

(٣) صنهاجة بفتح الصاد كما هي معروفة في المغرب . وبكسر الصاد كما وردت في ألف .

وَلَقِيَ التُّرُكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَخَذَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعُدَ ذَلِكَ أَغْرَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّغَدِ مِنْ بِلَادِ أُمَّمِ التُّرُكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ فَمَلَكَ الْأَوَّلُ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَتَّخَذَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعاً بِالْغَنَائِمِ وَتَرَكَوَا بِلَادَ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَهَمَّ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةٍ فَدَرَسَهَا^(١) وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ .

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصُّحَّةِ عَرَبِيَّةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلْطِ وَأَشْبَهَ بِأَحَادِيثِ الْقِصَصِ الْمَوْضُوعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ التَّبَايِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَقَرَارَهُمْ وَكُرْسِيِّهِمْ بِصَنْعَاءَ الْيَمَنِ . وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَائِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ الْهَائِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مَصُورِ الْجُغْرَافِيَا فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقاً مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالْمَسْلُوكِ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ يَتَلَكَّ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةَ وَكُنْعَانَ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلِكُ الْعَمَالِقَةِ مِصْرَ وَمَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يَنْقُلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَايِعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا مَلَكَوْا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضاً فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزُودَةُ وَالْعُلُوقَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ اخْتَجَّجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنَّعْمِ وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوقَةِ عَادَةً وَإِنْ تَقَلُّوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَفِي لَهُمُ الرُّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةَ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

(١) درس الأثر . بمعنى معناه (لسان العرب) .

تَهِيْجُهُمْ فَتَحْضُلُ لَهُمُ الْمِيْرَةُ بِالْمُسَالْمَةِ فَذَلِكَ اُبْعَدُ وَاَشَدُّ اِمْتِنَاعًا فَذَلَّ عَلَى اَنْ هَذِهِ
الْاَخْبَارُ وَاِهِيَةٌ اَوْ مَوْضُوْعَةٌ .

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِي الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى
كثْرَةِ سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرْقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقَرَى ^(١) فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ
عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغُرَابِيَةِ تَتَوَفَّرُ الشَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ
التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعُ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أُبْعَدُ وَأَمَمُ فَارِسَ
وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعِيَةَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ
وَلَا بِلَادَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيْرَةِ وَالْجَزِيْرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ
ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِدْعَارِ مِنْهُمْ وَكِيكَاوَسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَيْعِ الْأَصْغَرِ أَبِي
كَرْبٍ وَيَسْتَأْسِفُ مِنْهُمْ أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطُّوَيْفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ
بَعْدِهِمْ بِمَجَاوِزَةِ ^(٢) أَرْضِ فَارِسَ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبْتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ
أَجْلِ الْأَمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُوْدَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ
فَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاِهِيَةٌ مَدْخُوْلَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيْحَةً النُّقْلِ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا
فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيْحٍ وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ
وَالْخَزْرَجِ أَنَّ تَبْعًا الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ
التُّرْكِ وَالتَّبْتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا يُوْجِبُهُ لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَثْقَنَ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ
ذَلِكَ وَتَأْمَلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرُضْهَا عَلَى الْقَوَانِيْنِ الصَّحِيْحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِيْصُهَا بِأَحْسَنِ
وَجْهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

فصل

وَأُبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَغْرَقَ فِي الْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيْرِ سُورَةِ « وَالْفَجْرِ »

(١) بمعنى : الأشخاص الذين يطوفون في البلاد (قاموس) .

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة ، وأما مجاوزة أرض فارس .

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) فَيَجْعَلُونَ لِقِظَةِ إِرَمَ
 اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيِ أَسَاطِينٍ وَيَنْقَلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ
 عَوْصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمَلِكُ
 لَشَدَادٍ وَذَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصَفَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِأَبْنَيْنِ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي
 صَحَارَى عَدَنَ فِي مَدَّةِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعِمِائَةَ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ
 قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزُّبُرْجِدِ وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ
 وَالْأَنْهَارُ الْمَطْرُودَةُ^(١) وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى
 مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذَلِكَ
 الطَّبْرِيُّ وَالثَّقَالِبِيُّ وَالزَّمْخَشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقَلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 قَلَابَةَ^(٢) مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدِرَ
 عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ مَعَاوِيَةَ فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَيْفِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ
 ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمَ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيرٌ عَلَى
 حَاجِبِهِ خَالَ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالَ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ التَفَّتْ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ
 فَقَالَ هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ.

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبْرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ
 وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ
 مُتَعاقِبًا وَالْأَدْلَاءُ تَقْصُ طَرِيقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبْرٌ
 وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْإِحْتَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرَسَتْ فِيمَا دُرَسَ مِنْ
 الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا أَنْ ظَاهَرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءٍ
 عَلَى أَنْ قَوْمٌ عَادَ مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذَا بَانَ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ
 عَلَيْهَا أَهْلَ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحْرِ مَزَاعِمَ كُلِّهَا أَشْبَهَ بِالْجِرَافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمَفْسَّرِينَ

(١) الجارية.

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي وكنيته أبو قلابة وهو من التابعين (معجم الأدباء).

على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا
 العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد
 إرم على الإضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه
 بالأقاصيص الموضوعية التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات
 والأفهام هي عماد الأخمية بل الخيام وإن أريد بها الأساطين فلا بدع في
 وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لأنه بناء خاص
 في مدينة معينة أو غيرها وإن اضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيحة
 إلى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار وأي ضرورة إلى هذا
 المخيل البعيد الذي تمحلت^(١) لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزعه
 كتاب الله عن مثلها ليغدها عن الضعة.

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد
 للبرامية من قصة العباسية أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاة وأنه لكلفه
 بمكانهما من متاعرتيه إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً
 على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسية تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شفها
 من حبه حتى واقعا (زعموا في حالة السكر) فحملت ووشى بذلك للرشيد
 فاستغضب وهيئات ذلك من منصب العباسية في دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت
 عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء
 الأمة من بعده. والعباسية بنت محمد المهدي ابن عبد الله أبي جعفر
 المنصور بن محمد السجاد ابن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله بترجمان
 القرآن ابن العباس عم النبي (ﷺ) ابنة خليفة أخت خليفة مخوفة بالملك
 العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الأمة ونور الوحي ومهبط

(١) تحمل للشيء بمعنى احتال في طلبه. وفي العبارة اضطراب. والتصويب «الذي تحمل لتوجيهه
 بأمثال هذه الحكايات»

الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد بيداوة العروبية وسداجة^(١) الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتب الفواحش فأين يُطلب الصون والغفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء^(٢) إذا فقدت من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشرف قریش وغايتها أن جذبت دولتهم بضعبه وضع أبيه واستخلصتهم ورفقتهم إلى منازل الأشراف وكيف يسوع من الرشيد أن يضر إلى موالى الأعاجم على بُعد همتيه وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظراً المنصف وقاس العباسية بآبنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسية والرشيد من الناس.

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واختجافهم^(٣) أموال الجبائية حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعث صيتهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها^(٤) بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واختاروها عن سواهم من وزارة وكتاية وقيادة وحجاية وسيف وقلم. يقال إنه كان يدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالزجاج لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج

(١) بمعنى الوضع الصحيح الطبيعي الذي لم تشبه شائبة (قاموس) .

(٢) في جميع النسخ المطبوعة الذكاء بالذال، وفي النسخة الباريبية المخطوطة، الزكاء بالزيم وهو

الأصح بمعنى الصلاح.

(٣) احتجف الشيء: استخلصه وحازه. والأصح استعمال كلمة احتجافهم. واحتجف الشيء أي جذبه.

ولكن ابن خلدون يعتمد استعمال الكلمات الفريدة.

(٤) جمع حطة بضم الخاء وهي بمعنى الامر. واما بالكسر كما أوردها محقق لجنة البيان العربي

بمعنى « المكان المخطط لعماره » فليس لها معنى في هذا المقام.

مِنْ عَشِيهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ
 وَعَظَّمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَانْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَانْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوهُ وَخَصَّصَتْ لَهُمُ
 الرِّقَابَ وَقَصَّرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالَ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُومِ هَذَا يَا الْمُلُوكِ
 وَتَخَفُ الْأَمْرَاءَ وَتَسْرَبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّرْلِفِ وَالِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ
 وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعَظَمَاءِ الْقِرَايَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ الْمِنْنَ وَكَسَبُوا^(١) مِنْ
 بِيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْتَدِمِ وَفَكَوَا الْعَانِي^(٢) وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يُمدِّحْ بِهِ خَلِيفَتَهُمْ وَأَسْنَوْا
 لِعَفَائِهِمْ^(٣) الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاتِ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الصَّوَاحِي وَالْأَمْصَارِ
 فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسْفَوْا الْبَطَانَةَ وَأَحْقَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَعْضُوا^(٤) أَهْلَ الْوِلَايَةِ
 فَكَشَفَتْ لَهُمْ وَجُوهُ الْمُنَافِسَةِ وَالْحَسَدِ وَذُبَّتْ إِلَى مَهَادِهِمُ الْوَثِيرِ مِنَ الدُّوَلَةِ عَقَارِبُ
 السَّمَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَحْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ
 تَعْطِفْهُمْ لَمَّا وَقَرَ فِي نَفْسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقِرَايَةِ
 وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِيءَ الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ
 وَكَانَ الْحَقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ . وَانْتَهَى بِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى
 كِبَائِرِ الْمَخَالَفَةِ كَقَضِيَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ
 عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ الْمُلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزُّكِّيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى
 الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ
 الرَّشِيدِ بِحَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ
 إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ
 سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ حُرْمًا^(٥) لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِرِزْعِهِ وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ
 فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَطِنَ وَقَالَ أَطْلَقْتَهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ

(١) يتمدى فعل كسب بنفسه إلى مفعول ثانٍ . وهو هنا بمعنى كسب فلاناً ما لا أي اناله (قاموس) .

(٢) العاني ، الأسير .

(٣) أسنوا الجوائز ، أي اجزلوها . والعفاة جمع عافٍ . وهو طالب للعروف .

(٤) ثقال كلمة غص للطعام . واستعملها هنا ابن خلدون للغيظ على التشبيه .

(٥) أي لحرمة دماء أهل البيت .

الاسترخسان وأسرهما في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم
 وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم ودَهَبَتْ سلفاً ومثلاً للآخرين
 أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر
 مُمَهِّد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوِض الرُّشيد عمَّ جدّه داود بن
 علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقيد في محاوراة
 الأضمعي للرُّشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تنفهم: أنه إنما قتلتهم الغيرة
 والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من
 البطانة فيما نسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتخريك
 حفاظيه لهم وهو قوله :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا بِمَا نَجِدُ
 وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ

وإن الرُّشيد لما سمعها قال : « إني والله إني عاجز » حتى بعثوا بأمثال هذه
 كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .
 وأما ما تموه له الحكاية من معاقرة الرُّشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان
 فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء . وأين هذا من حال الرُّشيد وقيامه بما يجب
 لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء
 ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري
 وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة
 على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها . حكى الطبري وغيره أنه كان
 يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يفرغ عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن
 أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ
 « ومالي لا أعبد الذي فطرني » وقال والله ما أدري لم ؟ فما تمالك الرُّشيد أن
 ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك

وَالْقُرْآنَ وَالذِّينَ وَلِكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا وَأَيْضاً فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّدَاجَةِ بِمَكَانٍ
لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلْفِهِ الْمُنتَحِلِينَ لِذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدٌ
زَمَنٌ إِنَّمَا خَلْفُهُ غَلَاماً وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالذِّينِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ
وَبَعْدَهَا وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ الْمُوطَّأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ
يَبْقَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعِ أَنْتَ لِلنَّاسِ
كِتَاباً يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ وَوَطْئَةَ لِلنَّاسِ
تَوَطُّةً قَالَ مَالِكٌ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنَةُ الْمَهْدِيِّ أَبُو
الرُّشَيْدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوةِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا
وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يَبَاشِرُ الْخِيَاطِينَ فِي إِزْقَاعِ^(١) الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَتَكَفَ
الرُّشَيْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ كُسُوةَ هَذِهِ الْعِيَالِ غَامَنَا هَذَا مِنْ
عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ
فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرُّشَيْدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَبُوْتِهِ وَمَا رَبِّي عَلَيْهِ مِنْ
أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ
حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنْ الْكُزْمُ
شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَالرُّشَيْدِ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى شَيْخِ^(٢) مِنْ
اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ بِالْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ
وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ . وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ
بَخْتِشُوعِ الطَّبِيبِ حِينَ أَحْضَرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ
الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ الرُّشَيْدُ وَارْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَةٌ حَتَّى غَايَبَتْ
يَتَنَاوَلُهُ فَاعْتَدَّ ابْنُ بَخْتِشُوعِ لِلْإِعْتِدَارِ ثَلَاثَ قَطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ
إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالبُقُولِ وَالبُّوَارِدِ وَالحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً

(١) الأصح أن يقول في رفع الخلقان أو في ترويعها . والخلقان الثياب البالية (قاموس) .

(٢) الشيخ من كل شيء ، معظمه . أعلاه ووسطه ومنه حديث عبادة . يوشك أن يرى الرجل من شيخ

المسلمين أي من وسطهم . وقيل : من سرائرهم وعليتهم (قاموس)

مُثَلِّجًا وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ
 خَلَطَ السَّمَكُ بِغَيْرِهِ أَوْلَمَ يَخْلُطُهُ وَقَالَ فِي الثَّلَاثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتِيشُوعَ وَدَفَعَهَا
 إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا انْتَبَهَ الرَّشِيدُ وَأَخْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ . أَخْضَرَ الثَّلَاثَةَ الْأَقْدَاحَ
 فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتْ وَوَجَدَ الْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ
 رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ
 الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِخَسِيسِ أَبِي
 نُوَاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ انْتِهَاكِهِ فِي الْمَعَاوِرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ
 نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ^(١) وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ فَلَا
 سَبِيلَ إِلَى انْتِهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَحِثُّ يَوَاقِعَ
 مَحْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ كُلَّهُمْ بِمَنْحَاةٍ مِنْ
 ارْتِكَابِ السَّرْفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مَتَنَائِلِهِمْ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ
 حَشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَفَارِقُوهَا بَعْدَ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ
 الْإِبَاحَةِ إِلَى الْخَطَرِ وَعَنِ الْجِلَّةِ إِلَى الْخُرْمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبِيرِيُّ
 وَالْمَسْمُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا
 كَانُوا يَتْرَكُونَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسِّيُوفِ وَاللَّجَمِ وَالسَّرُوجِ
 وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةِ أَحَدَثِ الرُّكُوبِ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ
 بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ ؟ وَتَبَيَّنَ
 ذَلِكَ بِأَتَمِّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهَمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاةِ كَمَا نَشْرَحُ
 فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ
 قَرِيبَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ
 يَمَاقِرُ الْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكَّرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ ^(٢) فَذَفَنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنَشِدُونَ عَلَى
 لِسَانِهِ :

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

(١) يقصد به مذهب أبي حنيفة .

(٢) الشرب ، الدين يشربون معاً . جمع شارب (قلموس) .

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ
 وَحَالَ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيدَ
 وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا
 كَانَتْ خَلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثُبَّتْ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَتَقَلُّ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ
 وَحُسْنِ عَشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَلِكَ لَيْلَةَ عَطْشَانٍ فَقَامَ يَتَحَسُّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ
 يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ وَثُبَّتْ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيُّنَ هَذَا مِنْ
 الْمَعَافَرَةِ وَأَيضًا فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ ^(١)
 وَذَكَرَ الْمُرْزِيُّ الْعَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْخُ فِيهِ قَدْخٌ فِي
 جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبَرُهُ ^(٢) الْمَجَانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْعُلَمَاءِ بُهْتَانًا عَلَى اللَّهِ
 وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحْبَابِ الْقِصَاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ
 افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخَلْتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ
 وَالذِّينِ مُنْزَهًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لَابْنُ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ
 اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا ؟ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَتَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ
 الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَتُهُ مِثْلَهُ بِتَكْذِيبِ
 بَاغٍ وَجَاسِدٍ وَقَالَ أَيضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا
 كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقْفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ
 مِنَ اللَّهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرَمَى بِمَا رَمَى بِهِ ابْنُ حَبَّانٍ فِي
 الثَّقَاتِ وَقَالَ لَا يُسْتَعْلَى بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصُحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ
 الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعَقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِضْهَارِ
 الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلِ فِي بَيْتِهِ بُوْرَانَ وَأَنَّهُ عَشَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ
 بِسَيْكِكِ بَغْدَادَ فِي زُنْبِيلٍ ^(٣) مُدَلِّيٍّ مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقٍ وَجَدَلُ مَغَارَةَ الْقَتْلِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . والتصويب . وخرج عنه الترمذي في كتابه الجامع .

(٢) الأصح . ما ينبره به الجان . وفي بعض النسخ . (ما يشبه الجان) .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ ولعلها عشر على زنبيل . أو بمعنى زل . أي لم ينتبه للزنبيل فوقع فيه .

مِنَ الْحَرِيرِ فَاعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ فَاهْتَرَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسِ شَأْنِهِ كَذَا
 وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَنْضِيدِ ابْنَيْتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ
 النَّفْسَ وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلْلِ الشُّورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةٌ الْجَمَالِ فَتَانَةٌ
 الْمَحَاسِنِ فَحَيْثُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخَمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى
 أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ انْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيَّنَ
 هَذَا كُلَّهُ مِنْ حَالِ الْأُمَامِونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعَلَمِهِ وَأَقْنَعَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
 مِنْ آبَائِهِ وَأَخَذَهُ بِسِرِّ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْمِلَّةِ وَمَنَاطِرَتِهِ الْعُلَمَاءِ وَحَفْظِهِ
 لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصْحُحُ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَاقِ
 الْمُسْتَهْتَرِينَ ^(١١) فِي التَّطَوُّافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَعَشْيَانِ السَّمْرِ سَبِيلِ عِشَاقِ
 الْأَعْرَابِ وَأَيَّنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ يَدَارِ أَبِيهَا
 مِنَ الصُّونِ وَالْعَفَافِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كِتَابِ الْمَوْرُخِينَ مَعْرُوفَةٌ
 وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثُ بِهَا الْإِنْهَمَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْمُحْرَمَةِ وَهَتَكَ قِنَاعِ
 الْمُخَذَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لِدَاتِهِمْ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ
 كَثِيرًا مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْيَاءِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ
 الدَّوَابِّينِ وَلَوْ اتَّسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ
 الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ غَذَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأَمْرَاءِ
 مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ
 وَلَا يَلِيْقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدَّبِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَرَبِّيسَ الْمُغْنِينَ فِي زَمَانِهِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَّا تَأْسَيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ
 أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنْاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ غَذْلِي وَأَعْرَضَ
 وَاللَّهِ يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَوْرُخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي
 الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ مِنْ نَفْسِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

(١١) المستهتر، الشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت أباطيله، هـ قاموس.

عَلَيْهِمْ وَالطَّمَن فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يَفْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لَفَقَتْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَزَلُّماً إِلَيْهِمْ بِالْقَدْحِ فِيمَنْ نَاصِبِهِمْ وَتَفَنُّناً فِي الشَّمَاتِ بِعَدُوِّهِمْ حَسَبَمَا تَذَكَّرُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَفْتَلُونَ عَنِ التَّفَطُّنِ لَشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدِلَّةِ الْأَخْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ .

فَأَيْتَهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُخْتَسِبِ لَمَّا دَعِيَ بِكِتَابَةِ لِلرُّضِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبْرَهُ وَعَلِمَ تَحْوِيمَهُ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمُهَدِّيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ خَشِياً عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَارَا بِمِصْرَ وَأَنْهَمَا خَرَجَا مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي زِيِّ التُّجَّارِ وَنَمِيَ خَبْرُهُمَا إِلَى عَيْسَى التُّوشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلِبِهِمَا الْخَيْالَةَ حَتَّى إِذَا أُذْرِكَا خَفِيَ خَالَهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيِّ فَأَقْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ . وَأَنَّ الْمُقْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِيَةِ أَمْرَاهُ أَفْرِيْقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِثْرَارَ أَمْرَاهُ سِجْلَمَاسَةَ بِأَخِذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْكَاهُ الْعَيْوُنِ فِي طَلِبِهِمَا فَعَثَرَ الْيَشْعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِثْرَارَ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ .

هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِيَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقُّ الْأَبْلَةِ (١) وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيَزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرَ الْبَسَاسِيرِيَّ مِنْ مَوَالِي الدُّيْلِمِ الْمُتَغَلِبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُعَاضِبَةِ حَرَّتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاهُ الْعَجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْصُونَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ

(١) يقال ، الأمر بيننا شق الأبله . والأبله هي الخوصه أي ورقة الدوم وهي شجرة تشبه النخلة . وذلك لأنها تؤخذ فتشق طولاً على السواء . وللمنى أنهم قاسموا بني العباس أعمالهم . وفي نسخة لجنة البيان العربي « شق الأبله » وهو تحريف .

مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ لِدَعْوِي فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي انْتِحَالِ الْأَمْرِ وَاعْتَبِرْ خَالَ
الْقَرْمَظِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي انْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ وَظَهَرَ سَرِيعًا
عَلَى حُبِّهِمْ وَمَكْرَهُمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِيِّينَ
كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مَهْلَةٍ :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تُخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعْلَمُ
فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مَائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَمُضَلَّاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَدْفِنَهُ وَمَوْقِفَ الْخَجِيجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ
ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أُمَّةٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ
فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَارًا بَعْدَ
ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَغْصَانِهِمْ
يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَلَفٍ قَبْلَهُمْ مِنْ
الْأَيْمَةِ وَلَوْ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَغْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْإِنْتِصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ
البَدْعَةِ لَا يُلْبَسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبَّهُ فِي بَدْعَتِهِ وَلَا يُكْذَبُ نَفْسُهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ .

وَالْحَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ
يَجْنَحُ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ وَيَتَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ
دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ
تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا
تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (١) وَقَالَ ﷺ لِفَاطِمَةَ يَعْطُهَا يَا فَاطِمَةُ اْعْمَلِي فَلَنْ
أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوْ اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ
يَضْدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالٍ لِيُظَنُّوا الدُّوَلِ
بِهِمْ وَتَحَتَ رَقَبَةٍ مِنَ الطَّغَاةِ لِتَوْفُرِ شِيعَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ

(١) سورة هود آية ٢٦ .

خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالَتُهُمْ بِالِاخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرِفُونَ كَمَا
قِيلَ .

فَلَوْ تَسَّالَ الْأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا ذَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سَمِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ جَدَّ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ
سَمْتَهُ بِذَلِكَ شَيْعَتُهُمْ لَمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ خَذْرًا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ
شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّغْنَ فِي نَسِبِهِمْ وَأَزْدَلُّوا بِهَذَا الرَّأْيِ
الْقَائِلِ ^(١) لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأَمْرَاءَ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلِّينَ
لِخُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوِمَةِ
وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلِبَهُمْ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبُرْزِ الْكُتَامِينَ شَيْعَةَ
الْعُبَيْدِيِّينَ وَأَهْلِي دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بِنَفْسِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ
وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى
وَإِبْنُ الْبَطْحَاوِيِّ وَمِنَ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدِ الْإِسْفَرَائِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصَّنَمِرِيُّ وَإِبْنُ
الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبْيُورْدِيُّ وَأَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ النُّعْمَانِ فَصِيحَةَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ
الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ
شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لَمَا اشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبِيهَا شَيْعَةَ
بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَنَقَلَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا
وَعَوَهُ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ .

وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ الْأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَإِبْنِ مِزْرَارٍ
بِسِجِلْمَانَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسِبِهِمْ فَالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ ^(٢) بِنَسَبِ
أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالِدَوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ سَوْقٍ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بِضَائِعِ الْعُلُومِ
وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحِكْمِ وَتُخَدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَمَا

(١) أي الضعيف أو الخاطيء .

(٢) أقعد . بمعنى أكفأ .

نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَّةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدَّوْلَةُ عَنِ التُّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ وَالْأَفْنِ (١)
 وَالسُّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ السُّهْجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْرُ (٢) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ نَفَقَ فِي سَوْقِهَا الْإِبْرِيزُ
 الْخَالِصُ وَاللُّجَيْنُ (٣) الْمُصْفَى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَعْرَاضِ وَالْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ
 الْعَرَبِ النَّبْغِيِّ وَالْبَاطِلِ نَفَقَ الْبَنَهْرُجُ وَالرَّائِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَسْطَاسَ نَظَرِهِ وَمِيزَانَ
 بَحْثِهِ وَمُلْتَمَسِهِ .

وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ
 إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمْ) الْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَيَعْرُضُونَ تَغْرِيبَ الْحَدِّ بِالتَّظَنُّنِ فِي
 الْجَمَلِ الْمُخَلَّفِ عَنِ إِدْرِيسِ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَحَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ
 مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِضْهَارَهُ فِي الْبَزْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ
 الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ وَأَنَّ حَالِ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ
 خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ يَتَأْتَى فِيهَا الرِّيبُ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَمْرَأَى مِنْ
 جَارَاتِهِمْ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ لِتَلَاصِقِ الْجُدْرَانِ وَتَطَامِنُ (٤) الْبُنْيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ
 بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ
 أَوْلِيَائِهِمْ وَشَيْعَتِهِمْ وَمُرَاقِبَتِهِمْ مِنْ كَافِيَتِهِمْ وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَّةً عَلَى
 بَيْعَةِ إِدْرِيسِ الْأَضْفَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَأَتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رَضَى وَإِصْفَاقٍ (٥) وَبَايَعُوهُ عَلَى
 الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَخَاصُوا دُونَهُ بِحَارِ الْمَنَائِيَا فِي حُرُوبِهِ وَعَزَوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ
 بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيْبَةِ أَوْ قُرَعَتْ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ

(١) الأفن ، ضعف الرأي .

(٢) قوله ولم تجر بضم الجيم ، أي لم تمل .

(٣) اللجين ، الفضة .

(٤) اطمانت وتطامنت ، انخفضت (لسان العرب) .

(٥) واصفقت يده بكذا أي صادفته ووافقته . وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الموافقة وهو ضعيف .

والأصح عن رضا وصدق من صفق ، أي ضرب يده على يده (لسان العرب) .

عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَلًّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
أَقْتَالِهِمْ^(١) وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عَمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةَ وَوَلَاتِهِمْ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخِ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى
الْأَغْلَبِيَّةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ فَلَمْ يَظْفُرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى
الْمَغْرِبِ فَتَمَّ امْرَأَةٌ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ
مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيْسَةِ التُّشَيْعِ لِلْعُلُوِيَّةِ وَإِذْهَانِهِ^(٢) فِي نَجَاةِ
إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَقَاتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّخِيلِ عَلَى قَتْلِ
إِدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْحَقَّاقُ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيَهُ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ
وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَلَهُ الشَّمَاخَ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ^(٣) وَوَقَعَ خَبْرُ
مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ لَمَّا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوِيَّةِ
بِالْمَغْرِبِ وَاقْتِلَاعِ جُرْثُومِهَا وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْجَمَلِ الْمُخَلَّفِ لِإِدْرِيسَ فَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا^(٤) وَإِذَا بِالِدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ وَالشَّيْعَةَ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ
وَدَوَّلْتُهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ
وَكَانَ الْفُشْلُ وَالنَّهْرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ
مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبِرْزَبِرِ
عَلَيْهِ إِلَّا التَّخِيلُ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَمِنْدَ ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغْلَبِيَّةِ
بِأَفْرِيقِيَّةِ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ وَحَسَمَ الدَّاءَ الْمَتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَاقْتِلَاعَ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ^(٥) مِنْهُمْ يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الصَّامُونَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ
خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْإِغْلَابِيَّةُ عَنْ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ وَلِمِثْلِهَا مِنَ الزَّبُونِ^(٦)

(١) جمع قتل وهو العدو للمقابل .

(٢) بمعنى الغش .

(٣) بمعنى أهلكه .

(٤) كذا في جميع النسخ . وأظن أنها محرفة عن كلاله أي الوارث الذي ليس بولد للميت ولا والده .

(٥) بمعنى تمتد وترسخ .

(٦) يقال للناقة إذا كان من عاداتها أن تدفع حالبها عن حلبها ، « زبون » (لسان العرب) وقد استعملت

هنا بمعنى الأشخاص الذين يدافعون عن الملوك . وإن كان هذا الاستعمال ضعيفاً . وقد تكررت هذه العبارة بنصها
عدة مرات في تاريخ ابن خلدون . لذلك لا يمكننا أن نقول أن ابن خلدون قصد بها كلمة سواها .

على ملوكهم أخوج لما طرق الخلافة من انتزاه^(١) ممالك العجم على سديتها
وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتضريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها
وجبايتها وأهل خطبتها^(٢) وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم .

خليفة في قصص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما تقول البتة

فخشى هؤلاء الأمراء الأغالية بواذر السعائيات وتلوا بالمعاذير فطوراً
باختقار المغرب وأهله وطوراً بالإزهاج بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه
من أعقابه يخاطبونهم يتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكتة في تحفيهم
وهذا ياهم ومرتفع جباياتهم تغريصاً باستفحاله وتحويلاً باستبداد شوكتيه وتغظيماً
لما دفموا إليه من مطالبته ومزاسيه وتهديداً بقلب الدعوة إن الجئوا إليه وطوراً
يطعنون في نسب إدريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضاً لشأنه لا يبالون
بصدقه من كذبه لبعد المسافة وأمن عقول من خلف من صنية بني العباس
وممالكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم
حتى انقضى أمر الأغالية ففرعت هذه الكلمة الشفاء أسمع الغوغاء وصر عليها
بعض الطاعنين أذنة واعتدتها ذريعة إلى النيل من خلفهم عند المناقبة . وما لهم
قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون
وإدريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش .

على أن تنزیه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان فالله سبحانه
قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ففراش إدريس طاهر من الدنس ومنزلة
عن الرجس يحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثميه وولج الكفر من
بأيه وإنما أطنبت في هذا الرد سداً لأنواب الریب ودفعاً في صدر الحاسد لما

(١) بمعنى الوثوب .

(٢) الخطة . الأرض . والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليحجرها ويبنى فيها وذلك إذا أذن

السلطان (لسان العرب) وعنى بها ابن خلدون هنا : بالوطنين المشرفين على أعمال الخطط

سَمِعْتَهُ أَذْنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقَلَهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ
 مُؤَرَّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ النَّبِيِّ وَأَرْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلْفِهِمْ وَالْأَ
 فَالْمَحَلِّ مُنْزَعَةً عَنْ ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفَى الْعَيْبَ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبَ لِكُنْيِ
 جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَكْثَرَ
 الطَّاعِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمْ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَمِرٍ إِلَى أَهْلِ النَّبِيِّ أَوْ
 دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ وَالْأَجْيَالِ
 مِنْ أَهْلِ الْإِفَاقِ فَتَعَرَّضُ التُّهْمَةُ فِيهِ .

وَمَا كَانَ نَسَبُ بَنِي إِدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ
 قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ إِذْ هُوَ
 نَقْلُ الْأُمَّةِ وَالْحِجَلِ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْحِجَلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيَّتْ جَدَّهُمْ إِدْرِيسَ
 مَخْتَطًا فَارِسَ وَمُؤَسَّسًا مِنْ بِيُوتِهِمْ وَمَسْجِدَهُ لِصُوقِ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ مُنْتَضَى
 بِرَأْسِ الْمَأْدَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
 حُدُودَ التُّوَاتِرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعَيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى
 مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ
 لِسَلْفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْرُوفٍ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ
 وَلَا نَصِيفَهُ ^(١) وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُتَمَتِّعِينَ إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَخْضَلْ لَهُ أَمْثَالُ
 هَذِهِ الشُّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ خَالَتُهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَتَبَوُّنَ مَا بَيْنَ
 الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالتَّسْلِيمِ فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَيْقِهِ وَوَدَّ كَثِيرَ مَنْهُمْ
 لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سُوقَةٌ وَوُضْعَاءٌ ^(٢) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى
 الْعِيَادِ وَأَرْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبُهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّعْنِ الْفَائِلِ وَالْقَوْلِ الْمَكْدُوبِ تَعَلُّلًا
 بِالمَسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الْإِحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي

(١) قوله : « لا يبلغ قد أخذهم ولا نصيفه » مثل يكنى به عن ضعة مكانة شخص بالنسبة لشخص آخر .
 (٢) قوله : « ووضعاء بضم الواو جمع وضع »

المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه
مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن .

وكبرأؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الحوطي بن
محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت
هناك والسلكون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبا
نذكرهم عند ذكر الإدارة إن شاء الله تعالى ويلحق بهذه المقالات الفاسدة
والمذاهب الفاسدة ما يتناوله ضعفه الرأي من فقهاء المغرب من القدرج في الإمام
المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام
بالتوحيد الحق والنهي على أهل التبعية قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك
حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من أتسايه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء
على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم
مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه مشبوع الرأي
مسموع القول موطؤ العقب نفسوا ذلك عليه ^(١) وغضوا منه بالقدرج في مذاهبه
والتكذيب لمدعياته وأيضاً فكانوا يؤنسونه ^(٢) من ملوك المتونة أعدائه تجلته
وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة والتهال الديانة فكان
لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى
قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعه لهم وخرّبوا لعدوهم وتقموا على المهدي ما جاء
به من خلافهم والتشريب ^(٣) عليهم والمناصبة ^(٤) لهم تشيماً للمتونة وتعصباً لدولتهم
ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل تقم على أهل
الدولة ما تقم من أحوالهم وخالف اجتهادهم فقهاؤهم فنأدى في قومه ودعا إلى

(١) أي حسده .

(٢) بمعنى يعلمون .

(٣) التشريب كالتأنيث والتعير والاستفشاء في اللوم (قاموس) .

(٤) ناصبه مناصبة ، عاداه وقاومه .

جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَاقْتَلَعَ الدُّوْلَةَ مِنْ أَسْوَْلِهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةُ
 وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزُّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُخَصِّيهَا
 إِلَّا خَالِقَهَا وَقَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 بِإِتْلَافٍ مُبْهِمٍ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّمْعُصِبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ
 وَذَالَتْ بِالْعَدُوَّتَيْنِ مِنَ الدُّوْلِ وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَضْرِ (١) وَالصَّبْرِ عَلَى
 الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَطِّ وَالْمَتَاعِ فِي
 دُنْيَاةٍ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَخَادَعُ عَنْ تَمَتِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي
 مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَخْضَلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي
 عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَضَاهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةَ اللَّهِ
 الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَلَا تَفْعُضُهُ (٢) حُجَّةٌ لَهُمْ
 مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ ادِّعَاءٌ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى بَطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ
 مُصْتَفُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنْ الرُّئُوسَةُ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا
 هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَضْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ
 الْمَضَامِدِ وَذَانُوا بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِتْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَانِيَّتِهِ مِنْ هِرْعَةَ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي
 دَعْوَتِهِ فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النِّسْبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا الْمُهْدِيَّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا اتَّبَعَهُ
 النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ أَتْبَاعَهُمْ لَهُ بِعِصِيَّةِ الْهَرِغِيَّةِ وَالْمَضْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا
 وَرُسُوحَ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النِّسْبَ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ
 عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النِّسْبَ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ
 جِلْدَةٌ هُوَ لَاءٌ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ الْإِنْتِسَابُ الْأَوَّلُ فِي عِصِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ
 أَهْلِ الْعِصَانِيَّةِ وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيرًا إِذَا كَانَ النِّسْبَ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ قِصَّةَ عَرْفَجَةَ
 وَجَرِيرِ فِي رِئَاسَةِ بَيْحِلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةَ مِنَ الْأَزْدِ وَلَيْسَ جِلْدَةٌ بَيْحِلَةَ حَتَّى
 تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرِ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ تَتَفَهَّمُ مِنْهُ وَجْهَ

(١) بمعنى الامتناع عن النساء .

(٢) عضده : بكر الضاد ، بمعنى أعانه وكان له عضداً (لسان العرب) .

الْحَقُّ وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصُّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالِإِطْنَابِ فِي
 هَذِهِ الْمَغَالِطِ فَقَدْ زَلْتُ أَقْدَامَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْحُفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
 الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ وَعَلَقْتُ أَفْكَارَهُمْ وَنَقَلْتُ عَنْهُمْ الْكُفَاةَ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ
 الْقِيَّاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضاً كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَأَنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ
 حَتَّى صَارَ فَنُ التَّارِيخِ وَاهِيَا مُخْتَلِطًا وَنَاطِرُهُ مَرْتَبِكًا وَعُدُّ مِنْ مَنَاجِي الْعَامَّةِ فَإِذَا
 يَخْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ
 الْأُمَمِ وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السَّيْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ
 الْأَحْوَالِ وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ
 بَيِّنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمُتَفَقِّحِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَّامِ عَلَى أَصُولِ
 الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ
 بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبْرِهِ وَحِينِيذٍ يَعْزُضُ خَبَرَ
 الْمُنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مَقْتَضَاهَا كَانَ
 صَحِيحًا وَإِلَّا زَيْفَهُ وَاسْتَفْنَى عَنْهُ وَمَا اسْتَكْبَرَ الْقَدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى
 انْتَحَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ
 ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا الشَّرْفِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً^(١) وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُ وَمَنْ
 لَا رُسُوحَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمَلَهُ وَالخَوْضُ فِيهِ وَالتَّطَفُّلُ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ
 الْمَرْعِيُّ بِالْمَهْمَلِ^(٢) وَاللَّبَّابُ بِالْقَشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ
 الْغَلَطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبْدُلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ يَتَبَدَّلُ
 الْأَعْصَارُ وَمُرُورُ الْأَيَّامِ وَهُوَ ذَاكَ دَوِيٌّ شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابِ
 مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَتَّنُ لَهُ إِلَّا الْآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ
 وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جُ مَسْتَقَرٌّ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ
 عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ

(١) المجهولة ، ما يحملك على الجهل (قاموس) .

(٢) هو مثل جيد لاختلاط الجيد بالقيح .

وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَنْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْدَوْلِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي
قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَّةَ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرْيَانِيِّونَ وَالنَّبَطُ
وَالْتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ وَكَانُوا عَلَى أحوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دَوْلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ
وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ^(١) وَلِغَايَتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جَنْسِهِمْ
وَأحوَالِ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ
وَالْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأحوَالُ وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا
وَأَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّةٍ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأحوَالُ
أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارِفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلْفُ عَنِ
السُّلْفِ ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شِيدُوا وَعَزَّهُمْ وَمَهْدُوا
مُلْكُهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلَ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالتَّبَرُّبِ
بِالْمَغْرِبِ وَالفَرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَّةٌ وَانْقَلَبَتْ أحوَالٌ وَعَوَائِدُ نَسِي
شَانِهَا وَأَغْفَلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأحوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ
تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يَقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ
الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْرَعُوا إِلَى^(٢) عَوَائِدِ
مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفَلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ
الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ
وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ
مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا
دَامَتِ الأُمَّةُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ
وَالْأحوَالِ وَاقِعَةً . وَالْقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ غَلِطَ غَيْرَ
مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْفَقْلَةِ عَنِ قُصْدِهِ وَتَفْرُجُ بِهِ^(٣) عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ

(١) صنائع : جمع صناعة . وجمع صنيعه بمعنى الإحسان (قاموس) .

(٢) وفي بعض النسخ (لا بد وأن) وهو تركيب غير فصيح وقد استعمله ابن خلدون كثيراً في كتابه
والأصح استعمال « لا بد أن . . . » وفرع إلى معنى : لجأ إلى .

(٣) بمعنى ترجع به .

السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها
 فيجربها لأول وهلة على ما عرّف ويقيسها بما شهده وقد يكون الفرق بينهما كثيراً
 فيقع في مهواة من الغلط فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج
 وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية
 البعيدة من اغتزاز أهل العvisية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم^(١)
 فيشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب
 التي ليسوا لها بأهل ويعدونّها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع
 ورُبما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون
 استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الإسلام
 والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلاً لما سمع من
 الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب
 والعvisية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على
 معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي إذ هو كتابهم المنزل على
 الرسول منهم وبه هذا ياتهم والإسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين
 الأمم وشرفوا فبحرصون على تبليغ ذلك وتفسيه للأمة لا تصدّهم عنه لأئمة الكثير
 ولا يزعمهم غايل الأنفة وبشهد لذلك بعث النبي ﷺ كبار أصحابه مع وفود
 العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث في ذلك من
 أصحابه العشرة فمن بعدهم فما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها
 الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثرت استنباط
 الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون
 يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع
 والحرف كما يأتي ذكره في فضل العلم والتعليم واشتغل أهل العvisية بالقيام

(١) الجذم ، الأصل (قاموس) .

بِالْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ لِعَلِمٍ مِنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ
أَنْوُفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّي لِلتَّعْلِيمِ وَاخْتَصَّ ائْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَظْمِقِينَ
وَصَارَ مُنْتَحَلُهُ مُحَقَّرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمَلِكِ وَالْحِجَاجِ بْنِ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ
مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانَهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةُ قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ
مَا عَلِمْتَ وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ
لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا
مَا يَتَوَهَّمُ الْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ
الرُّئَاسَةِ فِي الْحُرُوبِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوَسَ الْهَمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ
يَحْسَبُونَ أَنَّ الشَّانَ خِطَّةُ الْقَضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ

يَابْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ ^(١) هِشَامِ الْمُسْتَبِيدِ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ
بِأَسْبِيلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قَضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَتَقَطُّونَ
لَمَّا وَقَعَ فِي رُتَبَةِ الْقَضَاةِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا نَبَّيْنَهُ فِي فَضْلِ الْقَضَاةِ مِنَ الْكِتَابِ
الْأَوَّلِ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَابْنِ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلُ عَصِيَّتَيْهَا وَكَانَ مَكَانَهُمْ فِيهَا مَعْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لَمَّا نَالُوهُ مِنَ
الرُّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاةِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاةُ فِي الْأَمْرِ
الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ ^(٢) الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ
وَأَنْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي الطَّوَائِفِ ^(٣) وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَائِمَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَقْلُدُ إِلَّا
لِمَنْ لَهُ الْغِنَى ^(٤) فِيهَا بِالْعَصِيَّةِ فَيَنْفَلِطُ السَّمْعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ
مَا هِيَ وَأَكْثَرَ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْفَلِطِ ضَعْفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . وأظننا تحريف من الناسخ وصوابها (حاجب هشام) وهشام هذا هو
أحد ملوك الأندلس . وكان ابن أبي عامر حاجباً له .

(٢) بمعنى جماعة الدولة .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ والغالب أنه تحريف عن « صوائف » وهي غزوات الصين .

(٤) كذا بالأصل في جميع النسخ ولا معنى لها هنا والصحيح : الغناء . بمعنى الاجزاء والكفاية .

لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارِ بَعِيدَةٍ بِفَنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ
عَنْ مَلَكِيَةِ أَهْلِ الْعَصِيَّاتِ^(١١) مِنَ الْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أُنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَالذَّرِيْعَةُ
إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالتَّنَاصُرُ مَفْقُودَةٌ بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرِّعَايَا الْمُتَخَاذِلِينَ
الَّذِينَ تَعْبُدُهُمُ الْقَهْرُ وَرَثِمُوا لِلْمُدَلَّةِ^(١٢) يَحْسَبُونَ أَنْ أُنْسَابُهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ
الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْعُلْبُ وَالتَّحْكُمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَّصِدِينَ
لِذَلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصِيَّةِ وَدَوْلَتِهِمْ بِالْعُدْوَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغْلُبُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فِي ذَلِكَ
وَيُخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ . وَمِنْ هَذَا النَّبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ
وَنَسَقِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاءَهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَةَ
وَخَاجِيَتَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي الدَّوَلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفْطَنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ
وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَصْعُونَ تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَائِهَا مُتَشَوِّفُونَ
إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسَجُوا عَلَى مَنَوالِهِمْ حَتَّى فِي
اضْطِنَاعِ الرُّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخُطَطِ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ
وَدَوَابِهِمْ وَالْقَضَاءِ أَيْضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَا
لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَتْ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ
وَوَقَفَ الْفَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي

(١١) العصية بفتح العين التمصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره
منسوبة إلى العصبة محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا
المعنى ممدوحة وأما العصية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل
على عصبية فهي تمصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام
نسبة إلى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً وفي الفتاوي
الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه
في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعى إلى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة
لمرتكبه . قاله الأستاذ أبو الوفا .

(١٢) في التاموس ، يقولون ، « هو رؤوم للضم أي ذليل راضي بالخسف » وهذه العبارة قليلة الاستعمال .
والأصح ، رثموا المذلة بمعنى الفوها .

قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم إنما حملتهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمتم آثارهم وعفت^(١) على الملوك أخبارهم كالحجاج وبنو المهلب والبرامكة وبنو سهل بن نوبخت وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الألفاظ بأبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك . ولندكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الأحوال العامة للأفان والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس يفرّدونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والأفان لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نجلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجنات والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والمعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال لأن الأمم والأجيال لعهد لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القديم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيراً من محاسن

(١) عفا عليه ، زاد (قاموس) .

الْعُمْرَانِ وَمَخَاهَا وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ هَرَمَهَا وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا فَقَلَّصَ مِنْ
 ظِلَالِهَا وَقَلَّ مِنْ حُدُودِهَا وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاشِي وَالْأَضْمِحْلَالِ
 أَمْوَالُهَا وَانْتَقَضَ عُمْرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ فَخَرِبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدَرَسَتْ
 السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعُفَتِ الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ
 وَكَأَنِّي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمَقْدَارِ عُمْرَانِهِ
 وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكُوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْحُمُولِ وَالْإِنْقِیَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ وَاللَّهِ
 وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ
 وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدًا وَنَشَأَ مُسْتَأْنَفَةً وَعَالَمٌ مُخَدَّدٌ فَاجْتَنَحَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ
 لِأَهْلِهَا وَيَقْفُو مَسَلِكَ الْمَسْعُودِي لِعَضْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَبِدِي بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنْ
 الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَاكِرٌ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمْكِنُنِي مِنْهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ
 إِذَا صَرِيحًا أَوْ مُنْذِرًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلْوِيحًا لِإِخْتِصَاصِ قَضِي فِي التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ
 وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأَمَمِهِ وَذَكَرَ مَمَالِكِهِ وَدَوْلَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَفْطَارِ لِعَدَمِ اطِّلَاعِي
 عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأَمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَقِي كُنْهَ مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ
 وَالْمَسْعُودِي إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رَحْلَتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَعَ
 أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ وَمَرْدُ الْعِلْمِ كُلِّهِ
 إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْإِعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ
 عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ وَأَنْجَحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَنَحْنُ آخِذُونَ بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رَمَنَاهُ
 مِنْ أَعْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ
 مَقْدَمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا
 هَذَا .

إَعْلَمُ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدَ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ
 الْخَارِجَةِ مِنَ الْخَنْجَرَةِ تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصُّوْتِ بِقَرْعِ اللَّهَّاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ

الْحَنَكِ وَالْخَلْقِ وَالْأَضْرَاسِ أَوْ بِقَرَعِ الشُّفَتَيْنِ أَيْضًا فَتَتَغَايَرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَابِ
بِتَغَايَرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مَتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ
الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَلَيْسَتْ الْأَمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ فَقَدْ
يَكُونُ لِأَمَّةٍ مِنْ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأَمَّةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ
هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعَشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفَتْ وَنَجِدُ لِلْعَبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي
لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالْتُرْكِيُّ وَالْبَرْبَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ لِأَنَّ مِنْ
الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ اضْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمُ الْمَشْمُوعَةَ
بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ الْفَاءِ وَبَاءِ وَجِيمِ وَزَايٍ وَطَبَاءِ إِلَى
آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعَشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ
مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ وَرُبَّمَا يَرَسُمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ
الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ
لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ
وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا
اضْطِلَاحِ أَوْضَاعِنَا اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا
لَأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فَاضْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أُضَعَّ ذَلِكَ
الْحَرْفُ الْعَجَمِيُّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَنِفَانِيهِ لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِئُ بِالنُّطْقِ
بِهِ بَيْنَ مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَتَحْضُلُ تَأْدِيَتُهُ وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رِسْمِ أَهْلِ
الْمُضْحَفِ حُرُوفِ الْإِسْمَامِ كَالضَّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ فَإِنَّ النُّطْقَ بِضَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ
مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الضَّادِ وَالزَّايِ فَوَضَعُوا الضَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ وَدَلَّ ذَلِكَ
عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ
حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرْبَرِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا
وَالجِيمِ أَوْ الْقَافِ مِثْلَ اسْمِ بَلَكِينٍ فَأَضَعَهَا كَافًا وَأَنْقَطَظَهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ
أَسْفَلٍ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ
الْكَافِ وَالجِيمِ أَوْ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبَرِ وَمَا جَاءَ مِنْ

غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ أَضَعُ الْحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لَفْتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعَا
لِيَعْلَمَ الْقَارِءُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ
الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنِ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ
لَفْتِنَا وَعَمِّرْنَا لُغَةَ الْقَوْمِ فَأَعْلَمُوا ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ (١)

(١) يعتبر ابن خلدون أول من حاول استخدام العلوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وتسخيرها لدراسة التاريخ . غير أنه لم يجد من يخلفه في الإسلام إلى أن جاءت المؤثرات الحديثة تؤثر في العالم الإسلامي وقد جاءت بالفشل حتى اليوم كل محاولة لمعرفة المثال الذي احتذاه ابن خلدون في تفكيره ومن المحتمل أنه كانت في بيئته ، شمالي إفريقيا وفي إسبانيا ، أفكار تناقش أمامه بشكل أولي . غير أنه لا جدال في إبداعه الأساس . وقد ذكر إبداعه بقوة إذ قال « ونحن ألهمنا الله إلى ذلك الهاماً ، واعتدنا على علم بين بكرة وجهينة خيره ، فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنعماه ، فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتني شيء من إحصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء » ويؤيد صدق قوله تواضعه الواضح . ثم أنه ليس هناك ميرور للريية بابن خلدون عندما يقول ان مصادر الهامه هي أصول الفقه وكتب الآداب . فهو يقول « وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الحاكم والوازع . ومثلاً يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وشأن العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع والقتل أيضاً مفسد للنوع وإن الظلم مؤذن بخراب العمران . . . ولا شك أن أعظم ما قام به ابن خلدون هو تطبيق الأفكار السياسية والاجتماعية المبعثرة على التاريخ الذي يعتبره القوة الحية التي تربط الماضي بالحاضر بعملية واحدة مستمرة . فالإنسان والبيئة والجهود الفردية والتنظيمات الاجتماعية كلها مادة أولية للتاريخ . حسب تحليل ابن خلدون العميق رغم تصفه أحياناً . وتحليل ابن خلدون هذا رغم إمكان تفسيره على ضوء أسسه الإسلامية ، إلا أنه أقرب إلى التوقف الفذ منه إلى مجرد وقفة عادية في مجرى علم التاريخ الإسلامي . (علم التاريخ عند المسلمين ص ١٦٥ - ١٦٦ . فرانز روزنتال) .

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البذو والحضر
والتقلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من
العلل والأسباب

إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو
عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس
والمصبيات وأصناف التقلبات للبشر بفضيهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من
الملك والدول ومراتبها وما ينتج له البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش
والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال . ولما
كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه . فمنها التثبيات لآراء
والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من
التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نخلة
قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين
بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب وتقلبه . ومن الأسباب
المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى
التفديل والتجريح . ومنها الدهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف
القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب .
ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها
الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التليس والتضنع
فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتضنع على غير الحق في نفسه . ومنها تقرب الناس

فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلُّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالشَّاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ
 الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيضُ الْإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَالْأَنْفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الشَّاءِ
 وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهِ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاعِبِينَ فِي
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى
 جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمُرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ
 ذَاتًا كَانَ أَوْ فِعْلًا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيمَا يَعْضُرُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا
 كَانَ السَّمِيعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي
 تَمْحِصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصُّدْقِ مِنَ الْكُذِبِ وَهَذَا أُبْلَغُ فِي التَّمْحِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 يَعْضُرُ وَكَثِيرًا مَا يَعْضُرُ لِلْسَامِعِينَ قُبُولَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقَلِبُونَهَا وَتَوَثَّرَ عَنْهُمْ
 كَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ
 وَكَيْفَ اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الرُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ
 الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَائِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبُنْيَانِ فَفِرَّتْ
 تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ خَرَجَتْ وَعَايَنْتَهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ
 خِرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ اتِّخَاذِهِ التَّابُوتِ الرُّجَاجِيِّ وَمُضَادَمَةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ
 بِجُرْمِهِ وَمَنْ قَبِلَ أَنَّ الْمَلُوكَ لَا تَحْمِلُ أَنْفُسُهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ ^(١) وَمَنْ اعْتَمَدَهُ
 مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِهَ وَأَنْتَقَاضِ الْعَقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ
 إِتْلَافُهُ وَلَا يَنْظُرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ ^(٢) ذَلِكَ طَرَفَةٌ عَيْنٌ وَمَنْ قَبِلَ أَنَّ الْجِنُّ
 لَا يُعْرِفُ لَهَا صُورًا وَلَا تَمَائِيلَ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشْكِيلِ وَمَا يُذَكَّرُ
 مِنْ كَثْرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ وَالتَّهْوِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا
 قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ الْوُجُودِ أُبَيِّنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ
 وَهُوَ أَنَّ الْمُنْغَمَسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ
 وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقَلْبَتِهِ فَيَفْقَدُ صَاحِبَهُ الْهَوَاءَ الْبَارِدَ الْمُعَدَّلَ لِمِزَاجِ الرُّقَّةِ وَالرُّوحِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ التَّرَرُ أَيِ بَعْنَى تَعْرِيزِ النَّفْسِ لِلْهَلَاكِ .

(٢) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَمَقْتَضَى السِّيَاقِ ، أَغْرَرَهُ .

القلبي وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاكِ أَهْلِ الحَمَامَاتِ إِذَا أَطْبَقَتْ (١) عَلَيْهِمْ
 عَنِ الهَوَاءِ البَارِدِ وَالمُتَدَلِّينَ فِي الأَبَارِ وَالمَطَامِيرِ العَمِيقَةِ المَهْوَى إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا
 بِالعَفْوَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا الرِّيحُ فَتُخْلِجْهَا فَإِنَّ المُتَدَلِّيَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحَيْثُ وَبِهَذَا
 السَّبَبُ يَكُونُ مَوْتُ الحُوتِ إِذَا فَارَقَ البَحْرَ فَإِنَّ الهَوَاءَ لَا يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رَيْبِهِ إِذْ
 هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَالمَاءُ الَّذِي يُعَدُّهُ بَارِدٌ وَالهَوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ فَيَسْتَوِلِي
 الحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلَاكُ المَضْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ
 الأَخْبَارِ المُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ المَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي تَمَثَالِ الرِّزْوَرِ الَّذِي بِرُومَةِ تَجْتَمِعُ
 إِلَيْهِ الرِّزَارِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ وَانظُرْ
 مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ المَجْرَى الطَّبِيعِيِّ فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ . وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ البَكْرِيُّ فِي
 بِنَاءِ المَدِينَةِ المُسَمَّاةِ ذَاتِ الأَبْوَابِ تُحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى
 عَشْرَةِ آفِ بَابٍ وَالمُدُنُ إِنَّمَا اتَّخَذَتْ لِلتَّحْصَنِ وَالإِعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي وَهَذِهِ خَرَجَتْ
 عَنِ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حُصْنٌ وَلَا مُعْتَصَمٌ وَكَمَا نَقَلَهُ المَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي
 حَدِيثِ مَدِينَةِ النُّخَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا نُخَاسٌ بِصُخْرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ ظَفَرَ بِهَا
 مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ فِي غَزْوَتِهِ إِلَى المَغْرِبِ وَأَنَّهَا مُغْلَقَةٌ الأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ
 أسْوَارِهَا إِذَا أُشْرَفَ عَلَى الحَائِطِ صَفَقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثِ
 مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ خَرَافَاتِ القُصَاصِ وَصُخْرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ قَدْ نَقَضَهَا (٢) الرُّكَّابُ
 وَالأَدْلَاءُ وَلَمْ يَقْفُوا لِهَذِهِ المَدِينَةِ عَلَى خَبَرِئِمْ إِنَّ هَذِهِ الأَحْوَالُ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلِّهَا
 مُسْتَحِيلٌ عَادَةً مُنَافٍ لِلأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ المُدُنِ وَاخْتِطَاطِهَا وَأَنَّ المَعَادِنَ غَايَةَ
 المَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي الأَبْنِيَّةِ وَالخُرْتَمِيِّ (٣) وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ
 مِنَ الإِسْتِحَالَةِ وَالبُعْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَمَحِيصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ العُمُرَانِ
 وَهُوَ أَحْسَنُ الوُجُوهِ وَأَوْثَقُهَا فِي تَمَحِيصِ الأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَابِقُ

(١) بِعَمْنَى دَامَتْ .

(٢) نَقَضَ المَكَانَ ، نَظَرَ جَمِيعَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتَعَرَّفَهُ (قَامُوسٌ) .

(٣) الخُرْتَمِيُّ بِالنُّصَمِ أُنَاثُ البَيْتِ (قَامُوسٌ) .

على التمهيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك
الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل
والتجريح ولقد عدا أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مثل قول اللفظ وتأويله
بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار
الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية^(١) أوجب الشارع العمل بها حتى حصل
الظن بصحتها وتيسل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط. وأما الأخبار عن
الوقائع فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في
إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الإنشاء
مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون
في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع
البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبيعه وما
يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا
قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني
لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران
علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزويفه وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى
به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب
الأول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري
والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال
لذاته^(٢) واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً.
واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة اشتر
عليه البحث وأدى إليه الغوص وليس من علم الخطاية إنما هو الأقوال المقنعة

(١) انشائية نسبة إلى انشاء وهو الذي يشمل الأمر والنهي وما شاكل وهو قابل للخبر ويقال جملة انشائية

في مقابل جملة خبرية .

(٢) أي ما يلحق للمجتمع من العوارض والأحوال لذاته .

النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ
 الْمَدْنِيَةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدْنِيَّةُ هِيَ تَذْيِيرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى
 الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ لِيُحْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوعِ وَبِقَاوَةِ فَقَدْ
 خَالَفَ مَوْضُوعَهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنِّيْنِ اللَّذَيْنِ رَبَّمَا يُشْبِهَانِيهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطٌ
 النَّشْأَةَ وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَذْرِي الْفِعْلِيَّتِيهِمْ عَنْ
 ذَلِكَ وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا
 فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالْحُكَمَاءُ فِي أُمَّةِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ
 الْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومِ الْفَرَسِ الَّتِي أَمَرَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمُخَوَّهَا عِنْدَ
 الْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومِ الْكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا
 وَتَنَائِيحِهَا وَأَيْنَ عُلُومِ الْقَبِيطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ
 خَاصَّةً لِكُلِّبِ الْمَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لَفْتِهِمْ وَأَقْتِنَادِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ
 وَبَدَلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ تَقَفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ
 مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً يَضِلُّحُ أَنْ يَبْحَثَ عَمَّا يَغْرُضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجِبَ أَنْ
 يَكُونَ بِإِعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ يَخْصُهُ لَكِنَّ الْحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا
 لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ
 كَانَتْ مَسْأَلَةٌ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَضْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ
 ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ». وَهَذَا الْفَنُّ الَّذِي
 لَاحَ لَنَا النَّظْرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسْأَلَتَ تَجْرِي بِالْغَرَضِ لِأَهْلِ الْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ
 وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسْأَلَتِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالطَّلِبِ مِثْلَ مَا يَذْكُرُهُ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ فِي
 إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْحَاكِمِ
 وَالْوَزَاعِ ^(١) وَمِثْلَ مَا يَذْكُرُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ فِي بَابِ إِثْبَاتِ اللُّغَاتِ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ
 إِلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ التَّعَاوُنِ وَالْاجْتِمَاعِ وَتَبْيَانِ الْعِبَارَاتِ أَحْفُ وَمِثْلُ
 مَا يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي تَغْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ الزَّنَا مُخْلَطٌ لِلْأَنْسَابِ

(١) الوازع ج وزعة ووزاع ، من يدبر أمور الجيش . الزاجر . (قاموس)

مُفْسِدٌ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الْقَتْلَ أَيْضاً مُفْسِدٌ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الظُّلْمَ مُؤَذِّنٌ بِخَرَابِ العُمُرَانِ المُفْضِي
لِفَسَادِ النُّوعِ وَعَظِيمٌ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ المَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى
المُحَافَظَةِ عَلَى العُمُرَانِ فَكَانَ لَهَا النُّظَرُ فِيمَا يَعْرُضُ لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هَذَا فِي
هَذِهِ المَسَائِلِ المُمَثَّلَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضاً يَفْعُ إِلَيْنَا القَلِيلُ مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ
لِحُكَمَاءِ الخَلِيقَةِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفُوهُ فَمِنْ كَلَامِ المُوْبِدَانِ (١) بَهْرَامُ بْنُ بَهْرَامٍ فِي
حِكَايَةِ النُّبُومِ الَّتِي تَقَلَّبَهَا المَسْعُودِيُّ . « أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّ المَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا
بِالشَّرِيعَةِ وَالقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا
بِالمَلِكِ وَلَا عِزٌّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلْمَالِ إِلَّا
بِالعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالعَدْلِ وَالعَدْلُ المِيزَانُ المَنْصُوبُ بَيْنَ الخَلِيقَةِ
نَضَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ المَلِكُ » . وَمِنْ كَلَامِ أَنُوشِروَانَ فِي هَذَا المَعْنَى بِعَيْنِهِ
« المَلِكُ بِالجُنْدِ وَالجُنْدُ بِالمَالِ وَالمَالُ بِالخَرَاجِ وَالخَرَاجُ بِالعِمَارَةِ وَالعِمَارَةُ
بِالعَدْلِ وَالعَدْلُ بِإِصْلَاحِ العُمَالِ وَإِصْلَاحِ العُمَالِ بِاسْتِقَامَةِ الوُزَرَاءِ وَرَأْسُ الكُلِّ
بِاقتِنَادِ المَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَاقْتِنَادِهِ عَلَى تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكَهُ .
وَفِي الكِتَابِ المَنْسُوبِ لِأرسطُو فِي السِّيَاسَةِ المُتَدَاوِلِ بَيْنَ النَّاسِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا
أَنَّهُ عَظِيمٌ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطَى حَقُّهُ مِنَ البُرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ فِي ذَلِكَ
الكِتَابِ إِلَى هَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَقَلَّبْنَا عَنْ المُوْبِدَانِ وَأَنُوشِروَانَ وَجَعَلْنَا فِي الدَّائِرَةِ
القَرِيبَةِ الَّتِي أَعْظَمَ القَوْلُ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ : « العَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاحَةُ الدَّوْلَةِ الدَّوْلَةُ
سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ السُّنَّةُ السُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا المَلِكُ المَلِكُ نِظَامٌ يَفْضُدُهُ الجُنْدُ
الجُنْدُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ المَالُ المَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ الرُّعِيَّةُ الرُّعِيَّةُ عَيْبِدٌ يَكْفِيهِمُ العَدْلُ
العَدْلُ مَالُوفٌ وَبِهِ قِوَامُ العَالَمِ العَالَمُ بُسْتَانٌ » ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الكَلَامِ . فَهَذِهِ ثَمَانُ
كَلِمَاتٍ حِكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَارْتَدَّتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا
وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَمَعَّنُ طَرَفُهَا فَخَرَّ بِعَثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا

(١) اللويدان فقيه الفرس وحاكم الجوس (قاموس)

تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَضْلِ الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصْفِاحِ وَالتَّفْهِيمِ عَشْرَتِ فِي
أَثْنَانِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى بَيْنًا بِأَوْعَبٍ ^(١) بَيَانٍ
وَأَوْضَحَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ أَطْلَعْنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَغْلِيمِ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةِ مُؤَبَّدَانِ
وَكَذَلِكَ تَجَدَّدَ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يُسْتَطَرَّدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ
مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هَذَا غَيْرِ مَبْرَهَنَةٍ كَمَا بُرْهَنَاهُ إِنَّمَا يُجْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى
الْخَطَابِيَّةِ فِي أَسْلُوبِ التَّرْسُلِ وَبِلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوْمُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ
الطَّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبُؤْبَةِ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا
وَمَسَائِلِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يُضَافِ فِيهِ الرَّمِيَّةُ وَلَا أَضَابَ الشَّاكِلَةَ ^(٢) وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا
أَوْضَحَ الْأَدْلَةَ إِنَّمَا يَبُوتُ الْبَابَ لِلْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ
كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكَمَاءِ الْفَرَسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرٍ وَالْمُؤَبَّدَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ
عَنْ دَانِيَالٍ وَهَرْمَسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَابِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا وَلَا
يَرْفَعُ الْبُرَاهِينَ الطَّبِيعِيَّةَ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ تَقَلُّ وَتَرْكِيْبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوْاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوْمٌ
عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ يُضَافِ فِيهِ وَلَا تَحَقَّقَ قَضَاهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهُ إِلَى
ذَلِكَ إِلْهَامًا وَأَعَثَرْنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا بَيْنَ نُكْرَةٍ وَجُهَيْنَةٍ خَبْرَهُ ^(٣) فَإِنْ كُنْتُ قَدِ
اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَيَّرْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْعَاءَهُ فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ وَهَدَايَةٌ
وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْضَائِهِ وَاسْتَبْتَهْتُ بِغَيْرِهِ فَلِنَّاظِرِ الْمُحَقِّقِ إِضْلَاحَهُ وَلِيَّ الْفَضْلِ
لَأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورَهُ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ
الآنَ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ فِي
الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهِ بُرْهَانِيَّةٍ يَتَضَعُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ
الْخَاصَةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتَرْفَعُ الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ

(١) أوعب ، ايماياً الشيء أخذته بأجمعه (قاموس) .

(٢) الرميّة ، ما يرمى من حيوان . والشاكلة ، الوجهة والطريقة والمعنى في الجملتين لم يصب الغرض .

(٣) في بعض النسخ ، جعلنا سن بكره وجُهَيْنَةٌ خَبْرَهُ وهو مثل يطلق على من يأتي بالخبر الصادق

واليقين . وفيه إشارة إلى المثل المشهور « وعند جبهينة الخبر اليقين » .

مُتَمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتِصُّ بِهَا فَيُنْهَى الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشُرْفَ بَيُوضِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحَكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ دُونَ ذَلِكَ ^(١) مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّخْلِ وَالْجَرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فَيُطْرَقُ إِلَيْهَا لَمْ يَكُنْ يَفْكَرُ وَرَوِيَّةٌ وَمِنْهَا السَّمْعِيُّ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْتِمَالُ فِي تَخْصِيصِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَاكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْإِقْتِمَارِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَذَا إِلَى الْبَحْسِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى : « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَمِنْهَا الْعُمَرَانُ وَهُوَ السَّاكِنُ وَالتَّنَازُلُ فِي مِضْرٍ ^(٢) أَوْ حِلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمَرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّوْاحِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحِلَالِ الْمُنْتَجِعَةِ فِي الْقَفَارِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضْرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمُدُنِ وَالْمَدَرِ ^(٣) لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحْصُنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أُمُودٌ تَغْرَضُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ عَرُوضاً ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ أَنْ حَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمَرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذَكَرَ الْقَبَائِلَ وَالْأَمَمِ الْوَحْشِيَّةَ . وَالثَّلَاثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالرَّابِعُ فِي الْعُمَرَانِ الْحَضْرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعُلُومِ وَاكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدَّمْتُ الْعُمَرَانَ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ وَكَذَا تَقْدِيمُ الْمَلِكِ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعَاشِ فَلِأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كِمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكِمَالِيِّ وَجَعَلْتُ

(١) يظهر أن هنا عبارة ساقطة من جميع النسخ لأن الكلام غير مستقيم . وفي نسخة لجنة البيان العربي

عبارة بين قوسين وهي « ولا يشبهه في ذلك » .

(٢) مضر ج امصار . أي البلد أو المدينة .

(٣) اللذر . سكان القرى والأمصار والعرب تسمى القرية المدرة (قاموس) .

الصَّنَاعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ يَبْغِضُ الْوَجْوهَ وَمِنْ حَيْثُ الْعُمَرَانُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ .

الباب الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري وَيَعْبَرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ
الإنسان مَدِينِي بِالطَّبِيعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي اضْطِرَاحِهِمْ
وَهُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصْحُ
حَيَاتِهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى التَّمَسُّكِ بِفِطْرَتِهِ وَيَمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ
عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ
الْغِذَاءِ غَيْرَ مُوفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمْكِنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ
يَوْمٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْضُلُ إِلَّا بِعِلَاجِ كَثِيرٍ مِنَ الطَّخَنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبِيخِ وَكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَخْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينِ وَالآبِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتِ
مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاحُورِي وَهَبَ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَهُوَ أَيْضًا
يَخْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ وَالْحِصَادِ
وَالدَّرَاسِ الَّذِي يُخْرَجُ الْعَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّبُّلِ وَيَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآبِ
مُتَعَدِّدَةً وَصِنَاعَاتٍ كَثِيرَةً أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَقِي بِذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ
يَبْغِضِيهِ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الْقُدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْضَلَ
الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْضُلُ بِالتَّعَاوُنِ قَدْرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ
وَكَذَلِكَ يَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ
لأنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَةَ بَيْنَهَا جَعَلَ

حُطُوطٌ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ
 مَثَلًا أَكْثَرُ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفَيْلِ
 أَضَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعُدْوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانَاتِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 عَضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ
 ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مُهَيَّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تُحْصَلُ لَهُ
 الْآلَاتُ الَّتِي تُنَوِّبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدَّفَاعِ مِثْلَ الرَّمَاكِ
 الَّتِي تُنَوِّبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ وَالنَّزَاسِ^(١)
 النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ^(٢) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ
 مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تَقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ
 سِوَمَا الْمُفْتَرِسَةِ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحَدَهُ بِالْجُمْلَةِ وَلَا تَفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا
 بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَمَا
 لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غَدَاةٌ وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ لَمَّا رَكِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغَدَاةِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ
 السَّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ وَيَعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ
 الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغَدَاةِ وَالسَّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ
 فِي بَقَائِهِ وَحَفِظَ نَوْعَهُ فَإِنَّ هَذَا الْاجْتِمَاعَ صُرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْأَلَمُ يَكْمَلُ
 وَجُودَهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنَ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى
 الْعُمُرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضِعًا لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ إِثْبَاتِ الْمَوْضُوعِ فِي قَبْلِهِ
 الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لَمَّا تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ
 الْمُنْطَقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ
 الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ الشَّرْطَاتِ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ بِفَضْلِهِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا
 الْاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمُرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَنْدَفِعُ

(١) جمع ترس وهو ما يلبس على الجسم لانتقاء السهام والسيوف (قاموس) .

(٢) القاسية والصلبة .

بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طَبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ السَّلَاحُ الَّتِي
جَعَلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُنَّ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُنَّ لِأَنَّهَا
مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا يَكُونُ
مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَالْهَامَاتِيهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ
وَاحِدًا مِنْهُنَّ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِنَّ الْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى
غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً
وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي
النَّحْلِ وَالْجِرَادِ لِمَا اسْتَقْرَى فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالِاتِّقَادِ وَالِاتِّبَاعِ لِرَبِّيسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا
مُتَمَيِّزٌ عَنْهُنَّ فِي خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ
وَالْهِدَايَةِ لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَتَزِيدُ
الْفَلَسَفَةُ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانَ حَيْثُ يَحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا
خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ فَيَقَرُّونَ هَذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ
الْوَازِعِ ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرَعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي
بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ
هَذَا يَتَّبِعُ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ انْتِكَارٍ وَلَا
تَرْيِيفٍ وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمَّ
مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرُضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْفَضِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ
وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَثَارُ
فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةِ فِي الشَّمَالِ
وَالْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ
لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وُجُوبِ النُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مَدْرَكَةُ الشَّرَعِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ
السُّلْفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ .

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه
من الأشجار^(١) والأنهار والأقاليم

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ
كَرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ
جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمُرَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ
الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ
وَأَمَّا النَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكَوْلُ يَطْلُبُهُ
بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ
وَأَنَّ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةِ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي
انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النُّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةِ إِحَاطِ
الْعُنْصُرِ الْمَائِيِّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا
لِبَلَايَةِ بِنْفِجِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْقِيَانُوسَ أَسْمَاءَ أُعْجَمِيَّةٍ وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ
الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ
مِنْ عُمُرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ
أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كَرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى

(١) ورد بالأصل في جميع النسخ الأشجار وهو تحريف . وفي النسخة الباريسية المخطوطة . البحار وهو
الصحيح لأن البحث في هذه المقدمة مستفيض عن البحار ولا يكاد يكون للأشجار به ذكر .

حَظَّ الإِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى حَظِّ كُرْوَيْ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 الْمَاءِ الْعُنْصُرِيِّ الَّذِي بَيْنَهُمَا سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ
 الْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضاً بِقَطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ
 الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النُّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقْلُ
 وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَحَظُّ الإِسْتِوَاءِ يُقْسِمُ
 الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ وَأَكْبَرُ حَظِّ فِي كُرَّتِهَا
 كَمَا أَنَّ مَنْطِقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ حَظِّ فِي الْفَلَكَ وَمَنْطِقَةُ الْبُرُوجِ
 مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَالذَّرَاجَةُ مِنَ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخاً
 وَالْفَرَسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَالذَّرَاجَةُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعاً وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ
 شَعِيرٍ مُصْفُوفَةٍ مُلْتَصِقٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهراً لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّتِي
 تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتَسَامِتُ حَظُّ الإِسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
 الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ حَظِّ الإِسْتِوَاءِ أَرْبَعُ
 وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبُرْدِ وَالْحُمُودِ كَمَا كَانَتْ
 الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلِّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نَبَّيْنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ
 الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ
 وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرَّمَالِ مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ
 زُخَارِ^(١) مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودِ
 وَهَيْئَةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الطَّوْلِ فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ
 أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ

(١) وردت في بعض النسخ روجار وهو الصحيح وروجار هو ملك صقلية وقد ألف له الشريف الإدريسي
 كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وقد طاف الإدريسي في بلاد الروم واليونان ومصر والمغرب وفرنسا
 وجزيرة بريطانيا وقد دعاه الملك روجار إلى زيارة صقلية فرسم له ما عاينه من البلاد على كرة من فضة . وقد
 ازدهرت العلوم في أيام الملك روجار لاحتكاك الثقافتين العربية واليونانية في بلاده (قاموس) .

الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم
منقسم بمشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن
أحواله وأحوال عمرانه . وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج من جهة المغرب في
الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضيق في عرض اثني عشر
ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسخ
إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف
فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبداه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة
الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية^(١) ثم برقة إلى
الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم
رومة ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا
البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقرطش وقبرص
وصقلية وميورقة وسردانية قالوا . ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من
خليجين . أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضيقاً في عرض
رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسخ في عرض أربعة
أميال ويمر في جزيره ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة
عرضها ستة أميال فيمد بحر نبطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى
ناحية الشرق فيمر بأرض هرقله وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل
من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك ويزجان والروس . والبحر
الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة^(٢) يخرج من بلاد الروم
على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد
البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلانية على ألف ومائة ميل من مبداه وعلى خافته من

(١) كانت تطلق قديماً على المغرب الأدنى أي تونس وما يليها .

(٢) هو بحر الادرياتيك . نسبة إلى شعوب البنادقة الذين توطنوا على سواحلها ودعوا ببنادقة نسبة إلى

مدينة البندقية (فينيسيا اليوم) .

الْبِنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَّمٌ وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبِنَادِقَةِ . قَالُوا وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ أَيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بَحْرٌ
 عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِباً
 إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنْجِ وَإِلَى بِلَادِ بَابِ
 الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَرَسِيخٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الصِّينِيِّ وَالْهِنْدِيِّ
 وَالْحَبَشِيِّ ^(١) وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرَبْرِ الْيَمِينِ ذَكَرَهَا امْرُؤُ
 الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرَبْرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ ثُمَّ بَلَدٌ مَقْدُشُوثٌ ثُمَّ بَلَدٌ
 سَفَالَةٌ وَأَرْضُ الْوَاقِ وَاقٍ وَأُمَّمٌ أُخْرَى لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ
 الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السُّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَخْفَافِ
 وَرَبِيدٍ وَغَيْرِهَا ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نَهَائِيهِ وَبَعْدَهُمُ الْحَبَشَةُ . قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ الْحَبَشِيُّ بِخَرَانِ أَخْرَانٍ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نَهَائِيهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبْدَأُ
 مُتَّصِيقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْجِراً إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمَغْرِباً قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْقَلْزَمِ
 فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِيِ عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى
 بَحْرَ الْقَلْزَمِ ^(٢) وَبَحْرَ السُّوَيْسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلَاثُ مَرَاكِلَ
 وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَدَّةٌ ثُمَّ مَدِينُ وَأَيْلَةُ وَقَارَانُ عِنْدَ
 نَهَائِيهِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ سَوَاحِلُ الصُّعَيْدِ وَعَيْذَابُ وَسَوَاكِينُ وَزَيْلَعٌ ثُمَّ بِلَادُ الْحَبَشَةِ
 عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَأَخْرَهُ عِنْدَ الْقَلْزَمِ يَسَامِتُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَيَبْتَنُّهُمَا نَحْوُ
 سِتِّ مَرَاكِلَ وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتَمَّ
 ذَلِكَ ^(٣) . وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجَ الْأَخْضَرَ ^(٤) يَخْرُجُ

(١) هو المحيط الهندي .

(٢) بحر القلزم ، اسم أطلقه العرب سابقاً على البحر الأحمر وسمي نسبة إلى مدينة (قلزيمه) بالقرب

من السويس . (المتجدد) .

(٣) هنا شرح للدكتور علي عبد الواحد وافي . في طبعه دار «الجنة البيان العربي» نقلها بنصها «تم

ذلك بعد وفاة ابن خلدون بنحو أربعة قرون ونصف قرن عن طريق قناة السويس . وكلام ابن خلدون يدل على أن توصيل هذين البحرين أحدهما بالآخر مشروع قديم فكر فيه الملوك في الإسلام ومن قبل الإسلام . وفي الحق أن

مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنَ الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ
 يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى
 أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ
 الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكُرْمَانَ وَفَارِسَ وَالْأَبْلَةَ وَعِنْدَ نَهَائَتِهِ مِنْ جِهَةِ
 الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشُّخْرَ وَالْأَحْقَافَ عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَفِيمَا بَيْنَ
 بَحْرِ فَارِسَ وَالْقَلْزَمِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ
 الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ وَتَقْضِي إِلَى
 الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مَيْلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَالِكَ الْكُوفَةُ
 وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيَوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمَّمُ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ
 وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ
 وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ
 عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ . قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرًا آخَرَ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ طَوْلُهُ أَلْفٌ مَيْلًا فِي
 عَرْضِ سِتْمِائَةِ مَيْلًا فِي غَرْبِيهِ أَذْرَبِجَانَ وَالدَّيْلَمَ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمَ
 وَفِي جَنُوبِيهِ طَبْرِسْتَانَ وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللَّانِ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ
 الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا
 أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ وَدَجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيخُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ
 فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ الْقَمَرِ وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ
 تَخْرُجُ مِنْهُ عَيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ
 أَنْهَارٌ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بُحَيْرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ

تاريخه يبدأ من العهد الفرغوني نفسه ويقال ان أول ملك من الفراعنة فكر في حفر القناة هو سنوبرات الثالث
 الذي يفكر أولياء الأمور في مصر الآن في إقامة تمثال له في بور سعيد .

(٤) هو الخليج الفارسي .

مَرَّاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ
الشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ التُّوْبَةِ ثُمَّ بِبِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شَعَبِ
هُنْتَقَارِيَّةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ
الإسكندرية وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصَّيْدُ مِنْ شَرْقِيَّةِ وَالْوَاخَاتُ مِنْ غَرْبِيَّةِ
وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَمَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضَفْتَيْهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بِلَادِ
أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجَزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلَطِيَّةِ
إِلَى مَنبَهِجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفَيْنِ ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ
الْبَصْرَةِ وَوَأَسْطَ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ
كثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدُؤُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطِ
مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيحَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ
فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خَلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْبَصْرَةِ وَتَنْفُضِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ وَهُوَ فِي
الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا
بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوْلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ عُدُوتِي الْفُرَاتِ وَقِبَالَ
أَذْرَبِيحَانَ مِنْ عُدُوتِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جِيحُونَ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلْخِ فِي الْجَزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
الإقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عَيُونَ هُنَاكَ كَثِيرَةٌ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارِزْمَ فِي الْجَزْءِ
الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ
مَسِيرَةُ شَهْرِ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصُبُّ نَهْرُ فَرْعَانَةَ وَالشَّاشُ الْآتِي مِنَ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى
غَرْبِي نَهْرُ جِيحُونَ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ وَخُوَارِزْمَ وَعَلَى شَرْقِيَّةِ بِلَادِ بُخَارَى وَتَرْمِذَ
وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرْعَانَةَ وَالخَزَلِجِيَّةَ وَأَمَمُ الْأَعَاجِمِ
وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِطَلِيمُوسَ فِي كِتَابِيهِ وَالشَّرِيفَ فِي كِتَابِ رُوحَارِ وَصَوَّرُوا فِي
الجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ

مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطَوِيلِهِ وَلَأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ
الْبُرْبَرِ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي
وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةَ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَّ مِنَ الْأَقَالِيمِ
الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمُرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمُرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ
وَالرَّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأُمَّمٌ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأُنَاسِيَهُمَا
لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا
يَخْلَافُ ذَلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَّمَهَا وَأُنَاسِيَهَا تَجُوزُ
الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجَاوِزُ الْحَدَّ عَدْدًا وَالْعُمُرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ
الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ وَقَلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحُ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ
سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ
وَالسَّابِعِ . فَتَقُولُ إِنَّ قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَا الْفَلَكَ
دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ
وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ الشَّمْسِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْبَيْتَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ
مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةٌ يَوْمِيَّةٌ يَحْرُكُ بِهَا سَائِرُ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ
الْحَرَكَةُ مَخْسُوسَةٌ وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ
وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي

السُرْعَةِ وَالْبَطْءِ وَمَمَرَاتِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تَوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ
الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةٌ فَلِكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِأَثْنِي عَشَرَ بُرْجًا
وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مَقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ
مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ
نِصْفَ مَائِلٍ عَنِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفَ
مَائِلٍ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى
الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌ وَاحِدٌ يُسَامَتُ دَائِرَةُ
مُعَدِّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَيَسْمَى خَطَ الْإِسْتِوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُ
بِالرُّضْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السُّبْعَةِ وَالْعُمُرَانِ كُلُّهُ فِي
الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنِ آفَاقِ هَذَا الْمَعْمُورِ بِالتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى
أَرْبَعِ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهَذَاكَ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ وَهُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى
الْأَفْقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى الْأَفْقِ وَبَقِيَتْ
سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأَفْقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ تَحْتَ الْأَفْقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ
وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسِّتِينَ إِلَى التَّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ
لَا يَحْضُرَانِ مُتَتَرَجِّحِينَ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْضُرُ التَّكْوِينُ فَإِذَا شَمَسَ
تَسَامَتِ الرُّؤُوسُ عَلَى خَطِ الْإِسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ
إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الْجُذْيِ وَيَكُونُ نِهَائَةً مَائِلًا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَرْبَعًا
وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأَفْقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ
سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مُتَسَاوِيهِ
الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِبِ عَرْضَ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ
عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ
السَّرْطَانِ وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْأَفْقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجُذْيِ لِانْحِرَافِهَا
إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الْإِسْتِوَاءِ كَمَا قُلْنَا فَلَا يَزَالُ الْأَفْقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ

أبعد الشماليَّة وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس وذلك حيث يكون عرض البلية
أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن
معدّل النهار في أفق الاستواء ارتفع باارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً فإذا
ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامته ولا تزال في
انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس عن
المسامته كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين
لأفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر. ثم إن الشمس عند المسامته
وما يقاربها تبعث الأشعة قائمة وفيما دون المسامته على زوايا منفرجة وحادة وإذا
كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلماذا
يكون الحر عند المسامته وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لأن الضوء سبب الحر
والتسخين.

ثم إن المسامته في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل
والميزان وإذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس
السرطان والجدي إلا إن صعدت إلى المسامته فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلج على
ذلك الأفق وتطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا
ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض أربع وعشرين
فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقرب من إلحاحها في خط الاستواء وإفراط
الحر يفعل في الهواء تخفيفاً وينسأ يمنع من التكوين لأنه إذا فرط الحر جفت
المياه والرطوبة وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات إذ التكوين
لا يكون إلا بالرطوبة ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض
خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامته فيصير الحر إلى الاعتدال أو
يميل عنه ميلاً قليلاً فيكون التكوين ويتزايد على التدرج إلى أن يفرط البرد في
شدته لقلّة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد بيد أن

فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لأن الحر أسرع تأثيراً في التخفيف من تأثير البرد في الجمد فذلك كان العمران في الإقليم الأول والثاني قليلاً وفي الثالث والرابع والخامس متوسطاً لا عندال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر إذ لا تخفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الرربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم . ومن هنا أخذ الحكماء خلاه خط الاستواء وما وراءه وأورد^(١) عليهم أنه معذور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية إنما أذاهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلية وهو كذلك فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً . وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي عمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين^(٢) ولما امتنع المعتدل لغيبية الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيردده النقل المتواتر والله أعلم . ولترسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب روجار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره .

(١) أورد عليه الخبير : قسه (قاموس) .

(٢) جاء كشف أستراليا وأميركا والقسم الواقع جنوب خط الاستواء من أفريقيا مؤيداً لرأي ابن رشد .

ومبينا فساد ما كان يعتقد حينئذ من قلة العمران جنوب خط الاستواء (عن طبعة لجنة البيان العربي) .

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إِغْلَمَ أَنَّ الْحُكَمَاءَ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ يُسَمُّونَ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا إِقْلِيمًا فَانْقَسَمَ الْمَعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهِ عَلَى هَذِهِ السَّبْعَةِ الْأَقْلِيمِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَخَذَ مِنَ الْمَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى طَوْلِهِ . فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَارٌ مِنَ الْمَرْبِ إِلَى الْمَشْرِقِ مَعَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِحُدُودِهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ هُنَاكَ إِلَّا الْقِفَارُ وَالرَّمَالُ وَبَعْضُ عِمَارَةٍ إِنْ صَحَّتْ فِيهِ كَلَا عِمَارَةٍ وَنِيلِيهِ مِنْ جِهَةِ شِمَالِيهِ الْإِقْلِيمُ الثَّانِي ثُمَّ الثَّلَاثُ كَذَلِكَ ثُمَّ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ وَهُوَ آخِرُ الْعُمُرَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ وَرَاءَ السَّابِعِ إِلَّا الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ كَالْحَالِ فِيمَا وَرَاءَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَّا أَنَّ الْخَلَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ أَقْلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْخَلَاءِ الَّذِي فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ . ثُمَّ إِنْ أَرْمَنَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَتَفَاوَتُ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ بِسَبَبِ مَيْلِ الشَّمْسِ عَنْ دَائِرَةِ مَعْدَلِ النَّهَارِ وَارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ عَنْ أَقَائِمِهَا فَيَتَفَاوَتُ قَوْسُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِذَلِكَ وَيَنْتَهِي طَوْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ لِلَّيْلِ وَبِرَأْسِ السَّرطَانِ لِلنَّهَارِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِمَّا يَلِي الشَّمَالِ فَيَنْتَهِي طَوْلُ النَّهَارِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ السَّرطَانِ وَهُوَ مُنْقَلِبُهَا الصُّبْحِيِّ إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَمِثْلُهُ أَطْوَلُ اللَّيْلِ عِنْدَ مُنْقَلِبِهَا الشَّمْسِيِّ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ وَيَبْقَى لِلْأَقْصَرِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا يَبْقَى بَعْدَ الثَّلَاثِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ مِنْ جُمْلَةِ أَرْبَعِ وَعَشْرِينَ السَّاعَاتِ الزَّمَانِيَّةِ لِمَجْمُوعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهِيَ دَوْرَةُ الْفَلَكَ الْكَامِلَةُ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِمَّا يَلِي الشَّمَالِ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً

وَنَضْفِ سَاعَةً فِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خُمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خُمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنَضْفِ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهَذَاكَ يَنْقَطِعُ الْعُمْرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتٌ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا يَنْضَفِ سَاعَةً لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَتَزَايِدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُوزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبُعْدِ . وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا تَبَيَّنَ سَمَتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمَتُ رَأْسِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سِوَاةً يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَقْصَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَعْيَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغْرَافِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ فِي طَوِيلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذَكِّرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَنَحْنُ الْآنَ نُوَجِّزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَذَكِّرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا وَنَحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ الَّذِي أَلْفَهُ الْعُلُوِّي الْأَدْرِيْسِيُّ الْحَمُودِيُّ لِمَلِكِ صِقْلِيَّةٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ وَهُوَ زَخَارُ بْنُ زَخَارٍ^(١) عِنْدَمَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةٍ بَعْدَ خُرُوجِ صِقْلِيَّةٍ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ وَكَانَ تَالِيْفَهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَجَمَعَ لَهُ كِتَابًا جَمَّةً لِلْمُسْعُودِيِّ وَابْنِ خَرْدَازِيهِ وَالْحَوْقَلِيِّ وَالْقُدْرِيِّ وَابْنِ إِسْحَاقِ الْمَنْجَمِيِّ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرَهُمْ وَبَدَأَ مِنْهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِمَنْهٖ وَفَضْلِهِ .

الإقليم الأول ، وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد وليست في بساط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرّت بها في أواسط هذه المائة وقتلواهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض

(١) روجار الثاني .

أَسْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللُّسَانَ
الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ خَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَنَّهَمْ يَخْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ
الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ الْمَعْرُ وَقَتَالَهُمْ بِالْحِجَارَةِ
يَزْمُونَهَا إِلَى خَلْفٍ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ
تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ
سَفَرَ الشُّفْنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ وَمَعْرِفَةُ جِهَاتِ مَهَابِهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوَصَّلُ إِذَا
مَرَّتْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُ وَعَلِمَ
حَيْثُ يُوَصَّلُ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ حُودِي بِهِ الْقَلْعُ مَخَازِنًا يَحْمِلُ الشَّيْنَةَ بِهَا عَلَى قَوَائِنَ
فِي ذَلِكَ مُحْصَلَةٌ عِنْدَ النَّوَاتِيَةِ ^(١) وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ الشُّفْنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ
الَّتِي فِي حَاقَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَفِي عُدُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ
عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابِ الرِّيَّاحِ وَمَمَرَاتِهَا
عَلَى اخْتِلَافِهَا مَمَّا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسْمَوْنَهَا الْكِنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَغْتَمِدُونَ فِي
أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ الشُّفْنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ
عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَدْ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْهَذَا الْبَحْرِ
وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْحَرَةِ الْمَمَانِعَةَ لِلشُّفْنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا
أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُنْعَكِسَةَ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتَحُلَلُّهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا
وَصَعِبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيهِ مَصَبُ النَّيْلِ
الْآتِي مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نَيْلَ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولِيكَ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ مَدِينَةٌ سَلَا وَتَكْرُورُ
وَعَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْمَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أُمَّةِ السُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تَسَافِرُ
تُجَّارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ
الْمُلْتَمِسِينَ وَمَفَاوِزَ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِ هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ

(١) بالعامة : الملاحون .

« لِمَلَمٌ » وَهُمْ كَفَارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاعِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتُّكْرُورُ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيْعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ غَامَةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعَجَمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ الْغِيَاثِيَّ وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مَهْيَاةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِزَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهِ بِلَادِ السُّودَانِ كُلِّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ تَوَاتٍ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَزْكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ يُعْرَفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ رُوحِ الْجَانِّ إِنَّ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وُلْدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِي فِي شَرْقِيٍّ هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ بَلَدٌ (كُوكُو) عَلَى نَهْرٍ يَنْبَعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَاكَ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَكَانَ مَلِكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذَرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ وَفِي جَنُوبِيٍّ بَلَدٌ كُوكُو بِلَادِ كَاتَمِ^(١) مِنْ أُمَّمِ السُّودَانِ وَيَعْدُهُمْ وَنَعَارَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شِمَالِيٍّ وَفِي شَرْقِيٍّ بِلَادِ وَنَعَارَةَ وَكَاتَمِ بِلَادِ زَعَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِأَرْضِ النَّوْبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلٌ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الشَّمَالِ وَمَخْرُجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَاخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْوِهِ وَفِي كِتَابِ الْمَشْتَرِكِ لِيَأْقُوتَ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عَيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بُحَيْرَةٍ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ

(١) كاتم وليس كاتم ، بكسر التون من بلاد البربر بأقصى الغرب في بلاد السودان وقيل كاتم صنف من

السودان . (معجم البلدان)

وَاِحْدَةٌ فِي أَشْفَلِهَا جَبَلٌ مُفْتَرَضٌ يَشُقُّ الْبُحَيْرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقَسِمُ مَاوُهَا
 بِقِسْمَيْنِ فَيَمُرُّ الْغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُغْرِبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
 وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا
 وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةَ مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ عِنْدَ
 الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَرَشِيدٌ وَدَمِيَاطٌ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بُحَيْرَةِ مُلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ
 فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ
 الْوَاخَاتِ إِلَى أَسْوَانَ وَحَاضِرَةُ بِلَادِ النُّوبَةِ مَدِينَةٌ دَنَقَلَةٌ وَهِيَ فِي غَرْبِيِّ هَذَا النَّيْلِ
 وَبَعْدَهَا عُلُوَّةٌ وَبِلَاقٌ ^(١) وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجِنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاجِلٍ مِنْ بِلَاقٍ فِي
 الشَّمَالِ وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النُّوبَةِ فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيْلُ
 وَيَصُبُّ فِي مَهْوَى يَبْعِيدُ صَبًّا هَائِلًا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِكِبُ بَلْ يَحْوِلُ الْوَسْطُ
 مِنْ مَرَائِكِبِ السُّودَانِ فَيُحْتَمَلُ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى بَلَدِ أَسْوَانَ قَاعِدَةٌ الصُّعَيْدِ إِلَى فَوْقِ
 الْجِنَادِلِ وَبَيْنَ الْجِنَادِلِ وَأَسْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً وَالْوَاخَاتُ فِي غَرْبِهَا عَدْوَةٌ النَّيْلِ
 وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ
 النُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَزَعَمُوا
 أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذَا
 النَّيْلِ . وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ
 نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَنْعَمُرُ عَائِمَةٌ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْتَقَى فِيهِ عُمُرَانٌ
 إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَقَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهَى إِلَى الْآفِ جَزِيرَةٌ أَوْ
 فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ
 بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيمَا
 بَيْنَ الْبُخْرَيْنِ الْهَابِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهَمَا بَحْرٌ قَلْزَمٌ

(١) بِلَاقٌ ، هِي - بِلَاقٌ .

وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشُّحْرِ^(١) فِي شَرْقِيَّتِهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذَكُرُهُ فِي الْإَقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ فَبَلَدُ زَالَعٍ مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتِ الْبَجَّةِ^(٢) فِي شِمَالِي الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَاقِي فِي أَعَالِي الصُّعَيْدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقَلْزَمِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالَعٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلِيجٌ بَابِ الْمَنْدَبِ يَضِيقُ الْبَحْرَ الْهَابِطَ هُنَالِكَ بِمَزَاخِمَةِ جَبَلِ الْمَنْدَبِ الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي طَوْلِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً فَيَضِيقُ الْبَحْرَ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ الْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَكَبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيباً مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَذَلِكَ وَقِبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيهِ مَجَالَاتُ الْبَجَّةِ مِنْ أُمَّمِ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ شَرْقِيهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ تَهَائِمُ الْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدُ عَلِيٍّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالَعٍ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ قَرْيٌ بَزْبَرٌ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيَّتِهَا بِلَادُ الزَّنْجِ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ الْوُقُوقِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإَقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ مِنْ أَكْثَرِهَا جَزِيرَةُ سَرْنَدِيْبَ مَدُورَةَ الشَّكْلِ . وَبِهَا الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرَفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَحْتَفُّ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِيَّتِهَا جَزَائِرُ الْوُقُوقِ وَمِنْ شَرْقِيَّتِهَا جَزَائِرُ السِّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرَ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطَّيْبِ

(١) الشحر ، ساحل اليمن وقيل الساحل ما بين عدن وعمان .

(٢) ويقال أيضاً البجاة وأما زالع فهي زيلع ، مجموعة قبائل تسكن ما بين النيل والبحر الأحمر .

وَالْأَفَاوِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِيَّةِ وَفِيهِمْ
مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَبِهِذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أحوَالِ الْعُمَرَانِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا
وَعَلَى الصُّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ
كُلُّهَا فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ بِلَادُ زَبِيدَ وَالْمَهْجَمِ وَتِهَامَةَ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بِلَادُ صَعْدَةَ مَقَرُّ
الإِمَامَةِ الزُّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيمَا بَعْدَ
ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ وَفِي شَمَالِيَّهَا صَنْعَاءُ وَبَعْدَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَخْقَافِ وَظَفَّارِ
وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتِ ثُمَّ بِلَادُ الشَّخْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ .
وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي انْكَشَفَ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ
الْوَسْطَى وَيُنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي
بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدِينَةِ الشَّهِيرَةِ خَانِكُو وَقِبَالَتَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ وَقَدْ
تَقَدَّمَ ذَكَرَهَا وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ
بِعَمَلِهِ وَفَضْلِهِ .

الإِقْلِيمِ الثَّانِي ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَقِبَالَةَ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذَكَرَهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنْوَرِيَّةَ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي
أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ زَعَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نَسْتَرِ
مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزِ تَسْلُكُ فِيهَا التُّجَّارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا مَجَالَاتُ الْمُكَلَّمِينَ مِنْ صِنَهَاجَةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ
كَزُولَةَ وَلَمْتُونَةَ وَمَسْرَاتَةَ وَلَمْطَةَ وَوَرِيكَةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فِرْزَانَ
ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارَ^(١) مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ ذَاهِبَةٌ إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي
الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وُدَّانَ وَعَلَى
سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتِرِيَّةَ وَتُسَمَّى الْوَأَحَاتِ الدَّاخِلَةَ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ

(١) وفي بعض النسخ اركار .

بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ ثُمَّ يَغْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ الصَّعِيدِ خَافَاتُ النَّيْلِ
 الدَّاهِبِ مِنْ مَبْدَاهِ فِي الإِقْلِيمِ الأوَّلِ إِلَى مَضِيَّهِ فِي الْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ
 الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزِينَ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيهِ وَعَلَيْهِ
 مِنْ أَعْلَاهُ بِلْدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ خَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصِ ثُمَّ إِلَى صُولِ
 وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَاكَ عَلَى شِعْبَيْنِ يَنْتَهِي الأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّاهُونِ
 وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ
 صَحَارَى عِيذَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ
 الْقَلْزَمِ الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَفِي عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلْمَلَمَ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ فِي وَسْطِ الْحِجَازِ مَكَّةَ شَرْقَهَا
 اللَّهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةَ تَقَابِلُ بِلْدَ عِيذَابَ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ .
 وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ نَجْدِ أَعْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَتَبَالُةُ وَجَرَشُ إِلَى عَكَازِ
 مِنَ الشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ
 بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ
 وَمَأْرَبَ ثُمَّ أَرْضُ الشُّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ
 الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ
 شَرْقِيهِ وَجُوفِيهِ قِطْعَةً مُثَلَّثَةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ الشُّحْرِ ثُمَّ
 تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عَمَانَ . ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي
 الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ قِطْعَةً مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الأُخْرَى فِي
 السَّادِسِ وَيَعْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الأَعْلَى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَاكَ بِلَادُ السَّنْدِ إِلَى بِلَادِ
 مَكْرَانَ وَيَقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبْرَانَ وَهِيَ مِنَ السَّنْدِ أَيْضاً فَيَتَّصِلُ السَّنْدُ كُلَّهُ فِي الْجَانِبِ
 الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحُولُ الْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الأَيْبِي
 مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى
 سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ بَلْهَرَا وَتَحْتَهَا الْمَلْتَانُ بِلَادُ الصَّنَمِ

الْمُعْظَمُ عِنْدَهُمْ . ثُمَّ إِلَى أَسْفَلَ مِنَ السُّنْدِ . ثُمَّ إِلَى أَعَالِي بِلَادِ سَجِسْتَانَ . وَفِي الْجُزْءِ
 الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِيَّةِ بَقِيَّةِ بِلَادِ بَلَهْرَا مِنَ الْهِنْدِ . وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْقَنْدَهَارِ . ثُمَّ
 بِلَادُ مَنِيْبَارَ وَفِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتِهَا فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ
 أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِلَادُ الْقَنْوُجِ مَا بَيْنَ قَشْمِيرِ الدَّاخِلَةِ
 وَقَشْمِيرِ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْإِقْلِيمِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ
 الْهِنْدِ الْأَقْصَى وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى الْعَاشِرِ وَتَبْقَى
 فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شَيْغُونُ ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ
 الصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَةُ
 التَّوْفِيقِ وَهُوَ وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .

الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثُ ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِيهِ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ
 وَعَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنْ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيَّةِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى
 الشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلُ مِنَ الْبُرْبُرِ أُمَّمٌ لَا يُخَصِّصُهُمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا
 يَأْتِي ذِكْرُهُ وَفِي الْقِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
 مِنْهَا رِبَاطٌ مِائَةٌ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سَوْسُ وَنُولُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرُغَةَ ثُمَّ
 بِلَادُ سَجِلْمَاشَةَ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَخْرَاءِ نَسْتَرِ الْمَفَازَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي
 وَهَذَا الْجَبَلُ مُطَّلٌ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ وَهُوَ قَلِيلٌ الثَّنَائِيَا وَالْمَسَالِكِ فِي
 هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَاذِي مَلُوتِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ
 يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنْهُ أُمَّمٌ الْمُصَامِدَةُ ثُمَّ هَنْتَانَةُ ثُمَّ تَيْمَنْكُ ثُمَّ كَدْمِيُوهُ ثُمَّ
 مَشْكَوْرَةُ وَهُمْ آخِرُ الْمُصَامِدَةِ فِيهِ ثُمَّ قَبَائِلُ صِنْهَاكَةَ وَهُمْ صِنْهَاجَةَ وَفِي آخِرِ
 هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَاتَةَ وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيَّةِ جَبَلِ أُوْرَاسَ وَهُوَ
 جَبَلٌ كُنَامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمَّمٌ أُخْرَى مِنَ الْبِرَابِرَةِ نَذَكْرَهُمْ فِي أَمَاكِينِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ جَبَلُ
 دَرَنْ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيَّةِ مُطَّلٌ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيَّةِ فِيهِ

النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَاشِ وَأَغْمَاتٍ وَتَادِلًا^(١) وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَاشِ بِلَادُ فَاسٍ وَمَكْنَسَاةٌ وَتَارَا وَقَصْرٌ كَثَامَةٌ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عَرَفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلْدَانُ أُصَيْلَا وَالْعَرَايِشُ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتَهَا تُلْمَسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بَلَدٌ هَنِينٌ وَوَهْرَانٌ وَالْجَزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي النَّاحِيَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَشْرُقًا فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرَ يَمِيدٍ اتَّفَسَّحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ

الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلَادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيَّتِهَا بِلَادُ بَجَايَةَ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمُرْتَفَعًا إِلَى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بَلَدٌ أُشِيرَ ثُمَّ بَلَدٌ الْمَسِيلَةَ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسُكْرَةَ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاسِ الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَعْمُرُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ فَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبِيَّتُهَا كُلُّهَا مَفَاوِزُ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدٌ عَدَامَسٌ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ وَدَانَ الَّتِي يَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْمَغْرِبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسِ وَتَبَسَّةٌ وَالْأَوْبَسُ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ بُونَةُ ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيْقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونَسَ ثُمَّ السُّوسَةَ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةَ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْخَرِيدِ تَوَزُّرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْرَاوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّوَاكِحِ مَدِينَةُ الْفَيْرَوَانَ وَجَبَلُ وَسَلَاتٍ وَسَيْبِلَةُ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ

(١) كذا في جميع النسخ وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه تادله.

كُلِّهَا شَرْقًا بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِلَازِئِهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلٌ دُمُرٌ وَتَقَرَّةٌ مِنْ قَبَائِلِ هَوَازَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابِلَةِ غَدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَانَ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا فِيهِ جَبَلُ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَسْمَى هُنَالِكَ طَرْفَ أَوْثَانَ وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِيهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُصَاقِقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْعَرَبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَانَ . وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زُوَيْلَةَ ابْنِ خَطَّابٍ ثُمَّ رِمَالٌ وَقَفَّارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْعَرَبِ مِنْهُ بَلَدٌ سَرَتْ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ خَلَاءٌ وَقَفَّارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَايَةُ ثُمَّ بَرْقَةٌ عِنْدَ مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةٌ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتٌ هَيْبٌ وَرَوَاحَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ صَحَارَى بَرْزِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةٌ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاجِحَ طَرْفَهُ الْأَعْلَى وَيَبْتَقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قَفَّارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْفَيُومِ وَهِيَ عَلَى مَضَبٍ أَحَدَ الشَّعْبَيْنِ مِنَ النَّيْلِ ^(١) الَّذِي يَمُرُّ عَلَى اللَّاهُونَ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَيَصُوبُ فِي بُحَيْرَةِ فَيُومِ ^(٢) وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا الشُّهْرَةَ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ اقْتِرَاقًا ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ شَطْنُوفٍ وَزَفْتِي وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قَرْمِطٍ بِشَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُوبُ

(١) يقصد به بحر يوسف الذي يأخذ مياهه من نرعة الإبراهيمية عند ديروط . ويمر بمديريات أسوط والنيا وبنى سويف والقيوم (عن نسخة لجنة البيان العربي) .
(٢) يقصد بها بحيرة قارون . وهي المشهورة في التاريخ باسم « بحيرة موريس » (عن نسخة لجنة البيان العربي) .

جَمِيعُهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَضَبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ
 وَعَلَى مَضَبِ الْوَسْطِ بَلَدُ رَشِيدَ وَعَلَى مَضَبِ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمَشِقَاطَ وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ
 وَبَيْنَ هَذِهِ السَّوَاخِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَخْشُوءَةٌ عَمْرَانًا وَقَلْبًا (١)
 وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ
 بَحْرَ الْقَلْزَمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِهِ مُبْتَدِئَةٌ
 مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنْ
 أَنْعَاطِهِ فِي الْجُزْءِ طَوِيلَةٌ فَيَنْتَهِي فِي الطَّرْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هَذِهِ
 الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ فَارَانَ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدِينِ ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ
 هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 عَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيَّةِ عَلَيْهَا الْفُرْمَا وَالْعَرِيشُ وَقَارِبَ طَرْفِهَا بَلَدُ الْقَلْزَمِ فَيَضَاقُ
 مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غَرْبِيِّ هَذَا الْبَابِ
 فَحْصَ التِّيهِ أَرْضُ جَرْدَاءَ لَا تَنْبِتُ كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ
 مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قُصَّةُ الْقُرْآنِ وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ
 الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قَبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا
 نَذَكْرُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرْفِ الْمُتَضَاقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ
 وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانَ وَبَيْنَهُمَا طَرْفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ
 فِي أَنْعَاطِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ
 الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاخِلِ الشَّامِ فِيهِ شَرْقُهُ غَزَّةَ ثُمَّ
 عَسْقَلَانَ وَبِأَنْحَرَابٍ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى الشَّمَالِ بَلَدٌ قَيْسَارِيَّةَ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدٌ عَكَاءَ ثُمَّ
 صُورَ ثُمَّ صَيْدَاءَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ
 السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ

(١) وفي بعض النسخ خلجاء جمع خليج . والفلج الشق في الأرض الزراعة (قاموس)

الْقَلْزَمُ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ
وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ فَبِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ
الْعُقْبَةَ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدْفُنُ
الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ
مِنْ شَمَالِ الْعُقْبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ
الْحَجْرِ وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتَيْمَاءَ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رِضْوَى
وَخُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزَمِ صَحْرَاءُ
تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأَزْدُنُ ثُمَّ طَبْرِيَّةٌ وَفِي
شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الْعُورِ إِلَى أَدْرُعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ
الْحِجَازِ . وَعِنْدَ مُنْعَطِفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ
مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَبَيْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَقْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا
وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكُ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمَصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ
الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطِعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكُ وَحِمَصَ بَلَدٌ تَدْمُرُ وَمَجَالَاتُ
الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَغْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ
نَجْدِ وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْمَرْجِ وَالصُّمَّانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرَ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي
أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلَدُ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَعَايِضُ الْفَرَاتِ . وَفِيمَا
بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ الْبُصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَادَانَ وَالْأَبْلَةَ
مِنْ أَسْفَلِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَادَانَ نَهْرُ دِجْلَةَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ
بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفَرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَادَانَ
وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِقَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَّصِيقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي
شَرْقِيَّهِ وَضَيْقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ مُضَاقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدُوتِهَا الْغَرِيبِيَّةُ مِنْهُ
أَسْفَلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرَ وَالْإِحْسَاءَ وَفِي غَرْبِهَا أَخْطِيبُ وَالصُّمَّانُ وَبِقِيَّةِ أَرْضِ الْيَمَامَةِ
وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ

على طرفٍ قد امتدَّ من هذا البحرِ مُشرقاً ووراءَهُ إلى الجَنُوبِ في هذا الجُزءِ جِبَالُ القَفَصِ مِنْ كَرْمَانَ وَتَحْتَ هِرْمِزٍ عَلَى السَّاحِلِ بِلَدِ سِيرَافٍ وَنَجِيرَمَ عَلَى سَاحِلِ هَذَا البَحْرِ وَفِي شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ هَذَا الجُزءِ وَتَحْتَ هِرْمِزٍ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَ أَبَجَرْدَ وَنَسَا وَاصْطَخَرَ وَالشَّاهِجَانَ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ البَحْرِ بِلَادُ خُودِشْتَانَ وَمِنْهَا الأَهْوَاؤُ وَتَشْتَرُ وَصَدَى وَسَابُورُ وَالسُّوسُ وَرَامَ هِرْمِزَ وَعَيْرُهَا وَأَرْجَانَ وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُودِشْتَانَ وَفِي شَرْقِيهِ بِلَادُ خُوزِشْتَانَ جِبَالُ الأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِينُهُمْ وَمَجَالَتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتَسْمَى الرُّسُومُ . وَفِي الجُزءِ السَّابِعِ فِي الأَعْلَى مِنْهُ مِنَ المَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ القَفَصِ وَيَلِيهَا مِنَ الجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كَرْمَانَ وَمَكْرَانَ وَمِنْ مَدِينَتِهَا الرُّودَنُ وَالشَّيرِجَانُ ^(١) وَجِيرَفَتُ وَيَزْدَشِيرُ وَالبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كَرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ ^(٢) فِي طَرَفِ هَذَا الجُزءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي المَشْرِقِ عَنِ بِلَادِ كَرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ ^(٣) فِي الجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهِسْتَانَ فِي الشَّمَالِ عِنَّا وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كَرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هَذَا الجُزءِ المَفَاوِزُ العَظْمَى القَلِيلَةُ المَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا وَمِنْ مَدِينِ سِجِسْتَانَ بَسْتُ وَالطَّاقُ وَأَمَّا كُوهِسْتَانَ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَكُوهِسْتَانَ آخِرُ الجُزءِ . وَفِي الجُزءِ الثَّامِنِ مِنَ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الحَلِجِ مِنَ أُمَّمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ الهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا . وَفِي الشَّمَالِ عَنِ هَذِهِ المَجَالَاتِ جِبَالُ الغُورِ وَبِلَادِهَا وَقَاعِدَتُهَا عَزْنَةُ فَرُضَةُ الهِنْدِ وَفِي آخِرِ الغُورِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أُسْتَرَابَادُ ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْباً إِلَى آخِرِ الجُزءِ . بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خِرَاسَانَ وَبِهَا سُفْرَايْنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنُجُ وَمَرُؤُ الرُّودِ وَالطَّلِيقَانُ وَالجُوزْجَانُ وَتَنْتَهِي خِرَاسَانَ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ

(١) لم نعر على شيرجان في معجم البلدان ولكن وجدنا سرجان ونعتقد أنها المقصودة .

(٢) هي مدينة أصفهان اليوم .

(٣) ذكرها ياقوت الحموي في معجمه « كوهستان » .

جِيحُونَ . وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيهِ مَدِينَةُ بَلْخِ وَفِي شَرْقِيهِ
 مَدِينَةُ تَرْمِذَ وَمَدِينَةُ بَلْخِ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جِيحُونَ
 مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارِ فِي حُدُودِ بَدَخْشَانَ مِمَّا يَلِيهِ الْهِنْدُ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا
 الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مُغْرَبًا إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى
 هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ
 إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بَحِيرَةِ خَوَازِرْمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكَّرَهُ وَيَمُدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ
 فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ عَظِيمَةً مِنْ بِلَادِ الْخَتَلِ
 وَالْوُخْشِ مِنْ شَرْقِيهِ وَأَنْهَارًا أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتْمِ مِنْ شَرْقِيهِ أَيْضًا وَجَوْفِي الْجَبَلِ
 حَتَّى يَتَسَّعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ^(١) لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمَدَّةِ لَهُ نَهْرُ
 وَخْشَابَ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ التَّبْتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ
 مُغْرَبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا
 الْجُزْءِ يَفْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَيَذْهَبُ
 مُشْرِقًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا
 الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبْتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ
 التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخَتَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلِكٌ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 جَعَلَ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سُدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ فَإِذَا خَرَجَ
 نَهْرُ وَخْشَابَ مِنْ بِلَادِ التَّبْتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ
 يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جِيحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخِ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِبًا إِلَى
 التَّرْمِذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْعُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 نَهْرِ جِيحُونَ بِلَادَ النَّاسَانَ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي الْعُدُوةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ
 الْخَتَلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَيَحُدُّهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتْمِ تَخْرُجُ
 مِنْ طَرَفِ خُرَاسَانَ غَرْبِي نَهْرِ جِيحُونَ وَتَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفَهَا
 بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَلْفَهُ بِلَادُ التَّبْتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ كَمَا قُلْنَا فَيَتَّصِلُ

(١) بمعنى لا مثيل له .

عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَعْقِبَ وَيَمُرُّ نَهْرُ جَيْحُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْهَارِ أُخْرَى
تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمُذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ
وَنَهْرٌ بَلُخٌ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتِّمْ مَبْدَأَهُ عِنْدَ الْجَوْزَجَانَ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ وَعَلَى
هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ أَمَدٍ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي شَرْقِيهِ النَّهْرُ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ الصُّغْدِ
وَأَسْرُ وَشَنَّةٌ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فِرْعَانَةٍ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَكُلُّ
بِلَادِ التُّرْكِ تَحْوِزُهَا جِبَالُ الْبَتِّمْ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّنَبِتِ
إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِيَّهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي
أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالاً عَنْ بِلَادِ التَّنَبِتِ بِلَادُ الْخَزَلِجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ
الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِيَّهَا أَرْضُ فِرْعَانَةٍ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً
وَمِنْ شَرْقِيَّهَا أَرْضُ التُّغْرُغَرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي
الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعاً بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ التُّغْرُغَرِ ثُمَّ شَرْقاً
عَنْهُمْ بِلَادُ خِرْخِيرٍ مِنَ التُّرْكِ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي الشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ
خِرْخِيرٍ بِلَادُ كَتْمَانَ مِنَ التُّرْكِ وَقِبَالَتِهَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَةُ الْيَاقُوتِ فِي وَسْطِ
جِبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنَفَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسْلَكَ وَالصُّغُودُ إِلَى أَغْلَاهُ مِنْ خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي
الغَايَةِ وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ
النَّاحِيَةِ بِمَا يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ فِيمَا وَرَاءَ
خُرَّاسَانَ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكِ أُمَّةٌ لَا تُحْصَى وَهُمْ طَوَاعِنُ رَحَالَةٍ أَهْلُ إِبِلِ
وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنَّتَاجِ وَالرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ
وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ النَّهْرِ نَهْرُ جَيْحُونَ وَيَغْزُونَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ ^(١)
بِالْمَجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقِيْقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَّاسَانَ وَالْهِنْدِ
وَالْعِرَاقِ

الإقليم الرابع . يتصل بالثالث من جهة الشمال . والجزء الأول منه في غربيه

(١) الذين يدينون بالجوسية .

قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي
 الْجَنُوبِ مَدِينَةٌ طَنْجَةٌ وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ فِي خَلِيجِ مُتَضَائِقٍ بِمَقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ
 الْخَضْرَاءِ شَمَالًا وَقَصْرِ الْمَجَازِ وَسِنَّةَ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيجٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ
 الْأَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَيُسَمَّى هَذَا
 الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيُّ أَيْضًا وَفِيهِ جَزَائِرٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا فِي جِهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةٌ ثُمَّ
 مَا يَزِيدُ ثُمَّ مَرْتَقَةٌ ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ صِقْلِيَّةٌ وَهِيَ أَكْثَرُهَا ثُمَّ بَلُونَسُ ثُمَّ أَقْرِيطَشُ ثُمَّ
 قَبْرُصُ كَمَا نَذَرْنَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْبِنَادِقَةِ
 يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ
 يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا
 مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي الشَّمَالِ مُتَضَائِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَّةِ
 السُّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى
 بَحْرِ نِيطَشُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ كَمَا نَذَرْنَا ذَلِكَ فِي أَمَاكِنِهِ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ وَيَنْفَسِحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ . يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ
 قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةٌ طَنْجَةٌ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا مَدِينَةٌ
 سِنَّةٌ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قِطَاوُونَ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
 شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّلَاثِ وَأَكْثَرَ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ الْخَلِيجِ مِنْهُ
 وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ أَوْلَاهَا
 طَرِيفٌ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ
 الْخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةٌ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ^(١) ثُمَّ الْمِرْيَةُ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا

(١) وفي بعض النسخ المنكب .

وَعَلَى مَقَرِّيَّةٍ مِنْهُ شَرِيشٌ ثُمَّ لَبْلَةٌ وَقَبَالَتْهَا فِيهِ جَزِيرَةٌ قَادِسٌ فِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشٍ
وَلَبْلَةٌ إِسْبِيلِيَّةٌ ثُمَّ أُسْتَجَّةٌ وَقَرْطَبَةٌ وَمَدِيْلَةٌ ثُمَّ غِرْنَاطَةٌ وَجِيَانٌ وَأُبْدَةٌ ثُمَّ وَاْدِيَاشُ
وَبَسْطَةٌ وَتَحْتَهَا هَذِهِ شَتْتَمَرِيَّةٌ وَشَلْبٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهُمَا
بَطْلِيُوسٌ وَمَارْدَةٌ وَيَا بَرَّةٌ ثُمَّ عَافِقٌ وَبَرْجَالَةٌ ثُمَّ قَلْعَةٌ رِيَاخٌ وَتَحْتَهَا هَذِهِ أُشْبُونَةٌ عَلَى
الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ بَاخَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَتْتَرِيْنٌ وَمَوْزِيَّةٌ عَلَى النَّهْرِ
الْمَذْكُوْرُ ثُمَّ قَنْطَرَةُ السَّيْفِ وَيَسَامِتُ أُشْبُونَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ
الْمَغْرِبِ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِيْهِ فَيَنْتَهِيْ إِلَى مَدِيْنَةِ سَالِمٍ
فِيْمَا بَعْدَ النَّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَهَا هَذَا الْجَبَلُ طَلْبِيْرَةٌ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُوْرَةِ ثُمَّ طَلْبِيْلَةٌ ثُمَّ
وَادِي الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِيْنَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ هَذَا الْجَبَلِ فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُشْبُونَةَ بَلَدٌ
قَلْمَرِيَّةٌ وَهَذِهِ غَرْبِي الْأَنْدَلُسِ . وَأَمَّا شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
مِنْهَا بَعْدَ الْمَرْيَةِ قَرْطَاخَةَ ثُمَّ لَفْتَةٌ ثُمَّ دَانِيَّةٌ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةٌ إِلَى طَرْطُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي
الشَّرْقِ . وَتَحْتَهَا شَمَالًا لِيُوْرَقَةُ وَشَقُوْرَةُ تَنَاحِمَانِ بَسْطَةٌ وَقَلْعَةٌ رِيَاخٌ مِنْ غَرْبِ
الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرْسِيَّةٌ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةُ تَحْتَهَا بَلَنْسِيَّةٌ شَمَالًا ثُمَّ شَقْرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةُ ثُمَّ
طَرْكُوْنَةُ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَهَا هَذِهِ شَمَالًا أَرْضٌ مِنْجَالَةٌ وَرِيْدَةٌ مُتَآخِمَانِ لِشَقُوْرَةِ
وَطَلْبِيْلَةَ مِنَ الْغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَهَا طَرْطُوشَةُ وَشَمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنِ
مَدِيْنَةِ سَالِمٍ قَلْعَةٌ أَيُّوبٌ ثُمَّ سِرْقَسْطَةٌ ثُمَّ لَارْدَةٌ ^(١) آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا . وَالْجُزْءُ
الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَمَرَ الْمَاءِ جَمِيْعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيهِ فِي الشَّمَالِ فِيْمَا بَقِيَتْهُ
جَبَلُ الْبُرْنَاتِ وَمَعْنَاةُ جَبَلُ الشَّنَايَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ الطَّرْفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ
جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
مُنْخَرِفًا عَنِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تَنْفُضِي ثَنَايَاهَا
إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ وَتَسْمَى أَرْضٌ عَشْكَوْنِيَّةٌ وَفِيهِ مَدِيْنَةُ خَرِيْدَةٌ وَقَرْقُوشُونَ وَعَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِيْنَةُ بَرْشَلُوْنَةُ ثُمَّ أَرْبُوْنَةُ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي عَمَرَ

(١) مَكْنَا فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ وَفِي نَسْخَةِ لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ لِارَادَةِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة
سردانية^(١) وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها ستمائة ميل
وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازرد ومسيني وهذه
الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أغدوش ومالطة . والجزء
الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية
منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيزدة والشرقية من بلاد البنادقة .
والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها
غير مسكون كما في الثالث والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية
الشمالية وجزيرة أقریطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق
منه . والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب
والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع
الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء وينتهي في الجانب الشرقي من الجزء
قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه وفي
النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى
آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى
بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس ويجوز من عند
منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة
المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر
الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثانياً تسمى الدروب
وهي التي تفضي إلى بلاد الأزمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين
جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام
معرض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل

(١) أي سردانية .

البحر بلد أنطراطوس^(١) في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث وفي شمال أنطراطوس جبلتة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الحواني وهو للحميشية^(٢) الإسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى مضياب^(٣) وهو قبالة أنطراطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية^(٤) في الشمال عن حصن وفي الشمال وفي مضياب بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أدنة ثم طرسوس آخر الشام ويخاذيها من غرب الجبل قيسرين ثم عين زربة^(٥) وقبالة قيسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا . وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينطف ها بطلاً إلى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيخاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويحوز عن نهر جيحان ثم ينطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة

(١) أي طراطوس .

(٢) أظن أنه يعني الحاشون الإسماعيلية .

(٣) ورد ذكرها في معجم البلدان مضياب أو مضياف كما تعرف اليوم أما مضياب فهي محرقة .

(٤) كذا ذكرها ياقوت بياء مفتوحة غير مشددة وتعرف في أنحاء بلاد الشام بياء مشددة وفتح اللام

وتسكين الميم .

(٥) ذكرها ياقوت « عين زربي » .

وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطَفُ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى جَبَلِ
 السُّلْسِلَةِ فَمِنْ جَنُوبِهَا الرَّافِضَةُ وَالرَّقَّةُ ثُمَّ حُرَّانُ ثُمَّ سُورُجُ وَالرَّهَّا ثُمَّ نَصِيبِينَ ثُمَّ
 سَمِيسَاطُ وَأَمْدُ تَحْتَ جَبَلِ السُّلْسِلَةِ وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضاً آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ
 شَرْقِيهِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفُرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَرْضِ جَنُوباً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ
 الْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِي سَمِيسَاطُ وَسُرُوجُ وَيَنْحَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّافِضَةِ
 وَالرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةَ فِي شَرْقِ أَمْدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إِلَى
 الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ
 غَرْبِيهِ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى
 قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَا بَطْنًا مِنْ جَنُوبِ
 الْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا انْتَهَى إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ
 مُغْرَباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فِيهِ الْغَرْبِيَّةُ مِنْ
 جَنُوبِهَا مَخْرَجُ الْفُرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا الْفُرَاتُ فَأَوَّلُ
 مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدْوَلٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ
 فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَفُوضُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ يَبْعِيدُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى
 الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلٌ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ
 جَنُوباً وَيَنْقُصُ صَفِينِ فِي غَرْبِيهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا
 بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَيْبَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعاً فِي جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فَيَفُوضُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الْحَيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنْ
 الرَّحْبَةِ مُشْرِقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهَا
 ثُمَّ يَضُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ . وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هَذَا
 الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِيتَ وَيَنْتَهِي إِلَى

الْحَدِيثَةُ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ
وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ
بِالْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَزْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ
الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَحَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارَسَ
عِنْدَ عِبَادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِمَا بَغْدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ
وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ بَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ
الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانَ قِبَالَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا
وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ
جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بَلَدٌ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدٌ حُلُوانَ وَصَيْمَرَةَ^(١)
وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الْجُزءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقًا إِلَى
آخِرِ الْجُزءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
الصُّغْرَى بَلَدٌ خَوْنِجَانَ مِنَ الْعَرَبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلَدُ
الْهَلُوسِ وَفِي وَسْطِهَا بَلَدٌ نَهَاوَنْدَ وَفِي شَمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ
وَالدَّيْنُورَ شَرْقًا عِنْدَ آخِرِ الْجُزءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةِ قَاعِدَتُهَا
الْمَرْاعَةُ وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينُ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابُ
الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ جِهَةِ الشَّرْقِ
بِلَادُ أَذْرَبِيجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيْزُ وَالْبَيْدَقَانَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ
قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخُزُرِ وَفِي الْجُزءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ
وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ وَفِيهَا هَمْدَانَ وَقَرْوِينَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا
هُنَالِكَ أَصْبَهَانَ وَيَحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ
الثَّالِثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي
شَرْقِيَّةِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَنْهَبُ

(١) ورد في بعض النسخ صميرة وهو تحريف.

هَذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا
 الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانَ ثُمَّ قُمْ وَيَنْعَطِفُ
 فِي قُرْبِ النُّصَفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَباً بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا
 وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ
 وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرَ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
 هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنْبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَرْوِينَ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ
 الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادَ
 طَبْرَسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْمَةَ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النُّصَفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ
 وَعِنْدَ أَنْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَفْتِهِ مُشْرِقًا وَبِأَنْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى
 الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا
 الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهِمَا بِلَادَ جَرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هَذَا
 الْجَبَلِ قِطْمَةَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي
 شَرْقِي قَاشَانَ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدٌ أُسْتَرَابَادُ وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ
 شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنْبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ
 بَلَدٌ نَيْسَابُورَ ثُمَّ مَرُّوا الشَّاهِجَانَ آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِي جَرْجَانَ بَلَدٌ مَهْرَجَانَ
 وَخَازِرُونَ وَطُوسَ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا
 وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجُزْئَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَفَاوِزُ مُعْطَلَةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ
 مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيهِ نَهْرٌ جِيحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَمِنْ غُدُوتِهِ
 الْغَرْبِيَّةِ رَمَمٌ ^(١) وَأَمَلٌ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالجُرْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ خَوَازِمَ
 وَيُحِيطُ بِالزَاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أُسْتَرَابَادُ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ رَمَ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ ثَانِيهِ . جَمَعَ رَمُومٌ وَمَعْنَاهَا مَحَالُ الْإِكْرَادِ وَمَنَازِلِهِمْ . بَلْفَةُ أَهْلِ

فَارَسَ . وَهِيَ مَوَاضِعُ بِفَارَسَ (مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ) .

قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيهِ وَيُحِيطُ بِهَذِهِ الزَّاوِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ
وَالجُوزَخَانَ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ البُتْمِ كَمَا ذَكَرْنَا هُنَاكَ وَفِي شَرْقِي نَهْرِ جِيخُونَ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بَخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ
سَرْدَارَا وَأَشْنَةُ ^(١) وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي الشَّمَالِ عَنِ سَمَرْقَنْدِ وَسَرْدَارِ
وَأَشْنَةُ أَرْضُ إِيْلَاقٍ ^(٢) ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنِ إِيْلَاقِ أَرْضِ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا
وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْعَانَةَ وَيَخْرُجُ
مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى
أَنْ يَنْصَبَ فِي نَهْرِ جِيخُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقٍ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ
مِنْ تَخُومِ بِلَادِ التُّبَّتِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرْعَانَةَ وَعَلَى
سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلٌ جَبْرَاغُونَ يَبْدَأُ مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْخَرِفًا
إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي
الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ وَفَرْعَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ
وَيَبِينُ نَهْرَ الشَّاشِ وَطَرْفِ هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ فَازَابَ وَيَبِينُ وَبَيْنَ
أَرْضِ بَخَارَى وَخُورَزْمَ مَقَاوِزَ مُعْطَلَّةَ وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ
خَجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدٌ إِسْبِيحَابَ وَطِرَارَ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ
بَعْدَ أَرْضِ فَرْعَانَةَ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزَلِجِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّمَالِ
وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكِيْمَاكِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا
آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وَهَذِهِ الْأُمَّمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ . انْتَهَى .

الإِقْلِيمُ الْخَامِسُ : الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ لِسُرُوشَنَةَ وَفِي مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ . اشْرُوشَنَةَ .

(٢) فِي الْمَشْرُوقِ قِطْعَةٌ مِثْلُهَا فِي الشَّمَالِ لَاحِقَةٌ بِهَا وَهُوَ بِكسرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ بَعْدَهَا .

وَشَرْقِهِ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ
وَالسَّابِعِ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِقْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ
مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا يَقِئُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ
كَأَنَّهَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فَمِنْهَا مِنْ بَقِيَّةِ عَرَبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيورُ عَلَى
الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلْمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةٌ
وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنْكَةَ أَيْلَةٌ آخِرُ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسْتَالِيَّةٍ ^(١) شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةٌ
شَقُونِيَّةٌ وَفِي شِمَالِهَا أَرْضُ لِيُونِ وَبِرْغَشْتُ ^(٢) ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيْقِيَّةٍ إِلَى
زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضَّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَنْتِيَّاقُو وَمَعْنَاهُ
يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةٌ شَطْلِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ
وَشَرْقًا عَنْ قَسْتَالِيَّةٍ وَفِي شِمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَبَنْبَلُونَةٌ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشِمَالًا وَفِي
عَرَبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْتَالَةَ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِرْغَشْتِ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ
الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضَّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قَرْبِ وَيَتَّصِلُ
بِهِ وَيَطْرَفُ الْبَحْرُ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّصِلَ فِي
الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجْرًا ^(٣) عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ
جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَائِيَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تَفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْفَرَنْجِ فَمِنْهَا مِنْ
الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةٌ وَأَرْبُونَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةٌ وَقَرْقَشُونَةٌ
وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شِمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا
الْمُنْكَشَفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ
الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ
بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدٌ نِيُونَةٌ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ
الْجُزْءِ أَرْضٌ بَنْطُونِ مِنَ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ

(١) قستالة

(٢) برغش (معجم البلدان)

(٣) يصير مانعاً

مِنْهُ أَرْضُ عَشْكَوْنِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بِنْتُو وَبِرْعَشْتِ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا فِي شَرْقِ بِلَادِ
 عَشْكَوْنِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةً أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضَّرْسِ
 مَائِلَةٌ إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادَ عَشْكَوْنِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةٌ فِي جُودِ مِنَ الْبَحْرِ
 وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنُودَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلٌ نَبْتِ جُونِ
 وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْعُونَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنُودَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرَ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِيهِ
 نَيْشٌ وَفِي شَرْقِيهِ مَدِينَةُ رُومَةَ الْعُظْمَى كُرْسِيٌّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنِ الْبَابَا
 بَطْرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي الضَّخْمَةِ وَالنِّيَاكِلِ الْهَائِلَةِ وَالْكِنَائِسِ الْعَادِيَّةِ ^(١)
 مَا هُوَ مَعْرُوفٌ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى
 الْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ يَبْلَاطُ النُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةٌ بَطْرُسَ وَبُولَسَ مِنَ الْخَوَارِيصِ
 وَهُمَا مَذْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَقْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَعَلَى
 هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةَ بِلَادُ نَابِلِ ^(٢) فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ
 مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قَلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي
 هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَقْرَبًا وَمَخَازِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَانْتَهَى إِلَى نَحْوِ
 الثَّلَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَايَةَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ
 الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جُودِ
 بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِيهِ بِلَادُ
 قَلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِيْرِدَةَ فِي جُودِ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُودِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيهِ

(١) نسبة إلى عاد .

(٢) نابولي .

خَلِيجُ الْبِنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ
 مُخَادِيًا لِأَخْرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ
 يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرُبُ مَعَهُ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ
 قِبَالَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيهِ فِي بِلَادِ إِنْكَلَايَةَ مِنْ أُمَّمِ اللَّمَّانِيِّينَ كَمَا نَذَرْنَا وَعَلَى هَذَا
 الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ هَذَا الْجَبَلُ مَا دَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبِنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى
 الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ . وَفِي الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
 مُضْرَسَةٌ كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضَرْسَيْنِ مِنْهَا
 طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُونَ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا
 إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى
 سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ عَنِ قُرْبِ
 مُشْرِقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشٍ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضُ الرَّابِعِ قِبَلَهُ وَالسَّادِسُ بَعْدَهُ مِنَ
 الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَرْنَا وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ
 مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيُّ الْقِيَاصَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ
 وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ
 الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا
 اتِّدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ وَأُظْنَهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكَمَانَ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَوْرَصَةُ وَكَانَتْ
 مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَعَلَيْهِمْ عَلَيْهَا الْأَمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكَمَانَ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَنُوبِيهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادُ عَمُورِيَّةِ وَفِي شَرْقِيِّ عَمُورِيَّةِ نَهْرُ قَبَاقِبِ الَّذِي يَمُدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ
 هُنَاكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى
 مَمْرِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَهُنَاكَ فِي غَرْبِيهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرُ
 جِيحَانَ غَرْبِيَّةِ الذَّاهِبِينَ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَاكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دَجَلَةَ

الدَاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي مُوَارَاتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَعْدَادَ وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ
 الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دَجَلَةَ بِلَدِّ مِيَاْفَارِقِينَ
 وَنَهْرُ قَبَاقِبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هَذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا
 أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قَلْنَا وَآسَافِلَهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالاً وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ
 نَهْرُ قَبَاقِبِ أَرْضُ عَمُورِيَّةَ كَمَا قَلْنَا وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي
 الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دَجَلَةَ وَالْفُرَاتِ وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلِقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُورِيَّةَ
 مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبِ وَهِيَ غَرِيضَةٌ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بِلَدُّ خَرْشَنَةَ وَفِي
 الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نَيْطِشِ الَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .
 وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَعَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ
 يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بِلْدَانُ أَرْدُنَ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي
 شَمَالِهَا تَفْلَيْسُ وَدَبْيَلُ وَفِي شَرْقِ أَرْدُنَ مَدِينَةُ خَلَاطُ ثُمَّ بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِأَنْحِرَافِ
 إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ وَمِنْ هُنَاكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا
 هُنَاكَ بِلَدُّ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِيَّ جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمَى وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ
 السَّادِسِ مِنْهُ وَيَتَاخَمُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ
 الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدْرَبِيجَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقاً بِلَادُ أَرْدَبِيلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ
 بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بِحَرِ
 طَبْرَسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكَمَانَ وَيَبْدَأُ
 مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ
 الْغَرْبِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبِلَدِّ مِيَاْفَارِقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ أَمْدٍ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فِي آسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَاكَ يَتَّصِلُ
 بِجَبَلِ اللَّكَّامِ كَمَا مَرَّ وَيَبْنِي هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَائِيَا كَالْأَنْوَابِ
 تُقْضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَنَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْأَنْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ
 طَبْرَسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَنْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَنْوَابِ فِي

الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيَّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةٍ وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَدْرِيَجَانَ
 الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادَ الزَّابِ ^(١) مُتَّصِلَةً إِلَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ
 الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضاً مِنْ بَحْرِ نَيْطِشِ الَّذِي يَمُدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ
 ذِكْرُهُ وَيَحْتَفُ بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ نَيْطِشِ بِلَادِ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدٌ أُطْرَابَزِيدَةَ ^(٢)
 وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ
 شَرْقاً إِلَى جَبَلِ حَاجِزِ بَيْنِهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صَوْلٍ وَوَرَاءَ هَذَا
 الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَآخِرُ الْجُزْءِ شَمَالاً . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةُ
 كُلِّهِ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا
 هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرِسْتَانَ وَجِبَالَ الذِّئِلَمِ إِلَى قَرْوِينَ وَفِي غَرْبِيَّ تِلْكَ الْقِطْعَةِ
 مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا
 الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضاً وَيُنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ
 زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أُثْلِ ^(٣) فِي هَذَا الْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتُ لِلْغَزَمِ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ يَحِيطُ
 بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ
 وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلْقَى بَحْرَ طَبْرِسْتَانَ فَيَحْتَفُ بِهِ دَاهِباً مَعَهُ إِلَى
 بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيَفَارِقُهُ وَيَسْمَى هُنَاكَ جَبَلِ سِيَاءَ
 وَيَذْهَبُ مُغْرَباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوباً إِلَى الْجُزْءِ
 السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَهَذَا الطَّرْفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اغْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ

(١) لا بد أن الزاب محرفة فالزاب تقع في الجزائر ولا صلة لها بالمنطقة التي يتكلم عنها ابن خلدون .

(٢) كفا في جميع النسخ وفي معجم البلدان . أما اليوم فتسمى طرابزون .

(٣) هو نهر أورال .

أرض السريبر وأرض الخزر واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع
خافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي . والجزء الثامن من هذا الإقليم
الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة
خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة
من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها
أربعمائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه
جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بأخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة
عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة
وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها
من الجانبين . وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب
بلاد الغز وشرقي بلاد الكيمائية ويخف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا
المحيط بيناجوج وماجوج يفترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعطف
أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم
الرابع قبله واختم هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف
مغرباً في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا
ببلاد الكيمائية ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغرباً
إلى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر
بلاد الكيمائية ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً
إلى الشمال وذهب على سمنه إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس وفيه السد هنالك
كما نذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية
الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب وهي من بلاد ياجوج وماجوج وفي
الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض ياجوج وماجوج متصلة فيه كله إلا قطعة من
البحر غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبيه إلى شماله إلا القطعة التي يفضلها إلى جهة

الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قُوتِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَأَرْضٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الإقليم السادس . فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واشتدَّ شرقاً
مع الناحية الشماليَّة ثمَّ ذهب مع الناحية الشرقيَّة إلى الجنوب وانتهى قريباً من
الناحية الجنوبيَّة فأنكشَفَ قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخله بين
الطرفين وفي الزاوية الجنوبيَّة الشرقيَّة من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح
طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانيَّة وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية
الجنوبيَّة الشرقيَّة من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مرَّ ذكرها في
الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس . والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل
البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي
من شرق أرض بريطانيَّة في الجزء الأول واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال
من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك
قطعة من جزيرة أنكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم
و بقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من
هذا الجزء بلاد أرمندية وبلاد أفلاش متصليين بها ثم بلاد إفرنسيَّة جنوباً وغرباً
من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقاً عنها وكلها لأمم الإفرنجية وبلاد اللمانيين في
النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد أنكلانية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض
لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشماليَّة الشرقيَّة أرض
أفريرة وكلها لأمم اللمانيين . وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربيَّة
بلاد مرانيَّة في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقيَّة بلاد أنكووة
في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء
الرابع ويمرُّ مغرباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف
الغربي . وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جنولوية وتحتها في الشمال بلاد

الرُوسِيَّة وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلُوطٌ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ غَرْباً إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي النُّصْفِ
الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةِ بِلَادِ جُزْمَانِيَّةِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ فِي
بَحْرِ نِيطُشٍ فَيَقَعُ قُطَيْعَةً مِنْ بَحْرِ نِيطُشٍ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
وَيَمُدُّهَا الْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي الزَّوَايَةِ بَلَدٌ مَسِينَاةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
السَّادِسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطُشٍ يَتَّصِلُ مِنَ الْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشْرِقاً فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طُولِ
أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مَيْلٍ مِنْ مَبْدَأِهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مَيْلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي
النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ
عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطُشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلِقَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ
الْأَلْبَانِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطُشٍ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطُشٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ غَرْباً
أَرْضُ تَرَخَانَ وَشَرْقاً بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ
مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرَخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ
الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ فِي
غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطُشٍ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلاً إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَيَبْنِي آخِرَ
الْجُزْءِ شَمَالاً بِلَادُ قَمَانِيَّةِ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحاً إِلَى الشَّمَالِ بِمَا انْحَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ
بَقِيَّةُ بِلَادِ الْأَلْبَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ
الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَلْفَارَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرِ يَجُوزُهَا هُنَاكَ
قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاكُوهِ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ
بَعْدَ مَفَارِقِهِ مَغْرَباً فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي
الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَارَهُ جَبَلُ سِيَاةٍ بَعْدَ مَفَارِقِهِ

بَحْرَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِّ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْباً وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ
مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاةٍ فِي
النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ
شُخْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَّةُ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا
أَرْضُ الْجَوْلُخِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْباً وَالْأَرْضُ الْمُتْنِنَةُ وَشَرْقُ الْأَرْضِ
الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُتْنِنَةِ مَبْدَأُ
نَهْرِ الْأَثَلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَمَمْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَقْصَبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي
الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنْ
الْأَرْضِ الْمُتْنِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى
آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّابِعِ
فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ
مَغْرَباً غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الإقْلِيمِ
السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدْوَلٌ يَذْهَبُ مَغْرَباً وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطَشَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ
وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ
الإقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاةٍ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ
الْخَزَرِّ وَيَخْرُجُ إِلَى الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ
طَبْرَسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ .
وَالْجُزْءُ التَّاسِعُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَقَشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ
قَفْجَاقُ وَبِلَادُ الشُّرْكَسَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْضُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ
قَوْعِيَا الْمَحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بَيِّنًا مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ فِي شَرْقِ الإقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ
مَعَهُ إِلَى آخِرِ الإقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيَفَارِقُهُ مَغْرَباً وَيَانْحَرِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ
فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا
الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هَهُنَا

السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الإقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّاسِعِ مِنْهُ فَيْمُرُ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَاكَ مُغْرَبًا إِلَى الإقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي غَرْبِيهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ الثَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبْرِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَزْدَاقَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا أَنَّ الْوَاتِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السُّدَّ انْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَرَعَا وَبَعَثَ سَلَامًا التَّرْجُمَانَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبْرِهِ وَوَضَفِهِ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ بِلَادٌ مَأْجُوجٌ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

الإقْلِيمُ السَّابِعُ ، وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلٍ قَوْيَا الْمُحِيطِ بِمَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٌ . فَالْجُزْءُ الأوَّلُ وَالثَّانِي مَغْمُورَانِ بِالمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَلِتْرَا الَّتِي مُعْظَمُهَا فِي الثَّانِي وَفِي الأوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٍ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الإقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةٌ اثْنِي عَشَرَ مِيلاً وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةٌ رَسْلَانِدَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَاكَ مُتَّصِلٌ أَرْضٌ فُلُونِيَّةٌ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّالِثِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهِ وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَيْسِحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فُلُونِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةٌ بَرْعَاقِبَةٌ (وَفِي نَسْخَةِ بَوَاقِعَةٍ) مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ

الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبَهُ مُنْكَشِفٌ وَفِي غَرْبِهِ أَرْضٌ قِيَمَازَكٌ مِنَ
 التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادٌ طُسْتٌ ثُمَّ أَرْضٌ رَسْلَانٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَهِيَ دَائِمَةٌ
 التُّلُوجِ وَعُمْرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ
 وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادٌ
 الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ قَوْقِيَا
 كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ
 بَحْرٍ نِيطِشٌ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمَى مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ
 وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ (وَفِي نَسْخَةِ
 التُّرْكَمَانِ) إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلٌ
 بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ وَفِي وَسْطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةٌ عَثُورٌ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ
 فِي النَّوَاحِيِ الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي
 شَرْقِ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ
 الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الرَّأْوِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَلْفَارِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بَلْفَارِ مُنْعَطَفُ نَهْرٍ
 أَثَلُ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ فِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلٌ
 قَوْقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ
 أَرْضِ يَحْنَاكٌ مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ وَكَانَ مَبْدُؤُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبِ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُتَبَتَّنَةِ
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قَوْقِيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ
 غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ

الأرض المُنْتَبَهَةِ وَفِي شَرْقِهَا الأَرْضُ المَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ العَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي
الأرضِ يَعِيدُ المَهْوَى فَسِيحَ الأَقْطَارِ مُتَمَتِّعِ الوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَبَدَّلُ عَلَى عُمْرَانِهِ
بِالدُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّيْرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيءُ وَتُخْفَى وَرُبَّمَا رُبِّيَ فِيهَا نَهْرٌ يُسَمَّى مِنَ
الجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الجُزْءِ البِلَادُ الخَرَابُ المَتَاخِمَةُ
لِلسُّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قُوقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الغَرْبِ وَفِي الجُزْءِ التَّاسِعِ

مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فِي الجَانِبِ الغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخَ وَهَمْ قَفَجَقُ يَجُوزُهَا جَبَلٌ قُوقِيَا
حِينَ يَنْعَطِفُ مِنَ شَمَالِهِ عِنْدَ البَحْرِ المُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الجَنُوبِ
بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ
وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الجُزْءِ أَرْضَ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى البَحْرِ قَلِيلَةَ العُرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ
مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ . وَالجُزْءُ العَاشِرُ غَمَرُ البَحْرِ جَمِيعَهُ . هَذَا آخِرُ الكَلَامِ عَلَى
الجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ^(١) .

(١) جاء في سورة آل عمران الآية ١٩٠ قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
آيات لأولي الألباب » وقوله تعالى في سورة الروم الآية ٢٢ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم
واللسانكم إن في ذلك آيات للعالمين » .

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر
والكثير في أحوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَنْدَرِجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ مُعْتَدِلًا فَالْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ ^(١) الْعُمْرَانِ وَالَّذِي خَافَتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ يَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِيهِ بِلِ الْوَحْيَانَاتِ وَجَمِيعِ مَا يَتَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمَتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ وَسُكَّانِهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَذْيَانًا حَتَّى النُّبُوتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعَثَتْ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبَيْوتَ الْمُنْجَذَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْمَقَةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَتَنَاغَوْنَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمُ الْمَعَادِنَ الطَّبِيعِيَّةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالنِّصَّةِ وَالْحَدِيدِ

(١) أعدل مشتقة من عدل وليس لها معنى والأصح . أكثر اعتدالا

وَالنَّحَاسَ وَالرَّصَاصَ وَالْقَصْدِيرَ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَرِيزَيْنِ
 وَيَبْغِدُونَ عَنِ الْإِنْحِرَافِ فِي غَايَةِ أَحْوَالِهِمْ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ
 وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّينِ وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرَّبَ مِنْهَا مِنْ
 الْفَرَنْجِيَّةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُمْ فِي هَذِهِ
 الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلُ هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ
 الْجِهَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ
 فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاوَهُمْ بِالطَّيْنِ وَالْقَصَبِ وَأَقْوَانِهِمْ مِنَ
 الدُّرَّةِ وَالْعِشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْزَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ الْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ
 عَرَايَا مِنَ اللَّبَاسِ وَقَوَاكِيهَ بِلَادِهِمْ وَأَدَمَهَا غَرِيبَةٌ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى الْإِنْحِرَافِ
 وَمَعَامِلَاتِهِمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يَقْدَرُونَهَا
 لِلْمَعَامِلَاتِ وَأَخْلَاقَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ حَتَّى لَيَسْتَقِلَّ عَنْ
 الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكُهُوفَ وَالْعِيَاضَ وَيَأْكُلُونَ
 الْعِشْبَ وَأَنَّهُمْ مَتَوَحِّشُونَ غَيْرَ مُسْتَأْسِنِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا الصَّقَالِيَّةُ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْإِعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرَجِيَّتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ
 عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ وَيَبْغِدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي
 الدِّيَانَةِ أَيْضاً فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةِ إِلَّا مَنْ قَرَّبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ
 الْإِعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِثْلُ الْحَبَشَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنُّصْرَانِيَّةِ
 فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكُرُودِ
 الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي
 الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنُّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَّمِ الصَّقَالِيَّةِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالتُّرْكِ مِنَ
 الشَّمَالِ وَمِنْ سِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَالَّذِينَ
 مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ
 قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ

يُوجَدُ اليَمَنُ وَحَضْرَمَوْتُ وَالْأَحْقَافُ وَبِلَادُ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا بِلَيْهَا مِنْ جَزِيرَةِ
الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْحِجَازُ مِنْ
الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنْ
الْيَبْسِ وَالْإِنْجَرِافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ الْإِغْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ
الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَائِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ
هُمُ وَوَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ اخْتَصَمُوا بِلُؤُنِ السُّودَانِ لِدَعْوَةِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي
لُؤُنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرَّقِّ فِي عَقْبِهِ وَيَتَقَلَّبُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ
الْقِصَاصِ وَدَعَاءِ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السُّودَانِ وَإِنَّمَا
دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَوَلَدُهُ عَبِيداً لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ السُّودَانِ إِلَى حَامِ
غَفْلَةٌ عَنِ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ
وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مِرْجَاحِ هَوَائِهِمْ لِلْحَرَارَةِ
الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً
إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَتَطْوُلُ الْمَسَامَتَةُ غَائِمَةُ الْفُضُولِ فَيَكْثُرُ الضَّوُّ لِأَجْلِهَا وَيَلْحَقُ
الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا
يَقَابِلُهُمَا مِنَ الشَّمَالِ الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سَكَانَهُمَا أَيْضاً الْبَيَاضُ مِنْ
مِرْجَاحِ هَوَائِهِمْ لِلْبَرْدِ الْمُفْرِطِ بِالشَّمَالِ إِذِ الشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مِرْأَى
الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمَسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرَبَ مِنْهَا فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا
وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ غَائِمَةُ الْفُضُولِ فَتَبْيِضُ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ ^(١) وَيَتَسَبَّحُ ذَلِكَ
مَا يَقْتَضِيهِ مِرْجَاحُ الْبَرْدِ الْمُفْرِطِ مِنْ زُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَصُهُوبَةِ الشُّعُورِ
وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّلَاثُ فَكَانَ لَهَا فِي الْإِغْتِدَالِ
الَّذِي هُوَ مِرْجَاحُ الْمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْإِغْتِدَالِ غَايَةً لِنَهَائِيَّتِهِ فِي
التَّوَسُّطِ كَمَا قَدْ مَنَّاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ الْإِغْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مِرْجَاحُ
أَهْوِيَّتِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّلَاثُ وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمِثْلِ هَذَا

(١) كلمة ليست من الفصحى وعنى بها شدة البياض .

قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى
الْإِنْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرَفَةً وَأَهْلِهَا كَذَلِكَ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَالْأَوَّلُ
وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسُّوَادِ وَالسَّابِعِ لِلْبُرْدِ وَالْبِيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ
الْإِفْلِيِّينِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانِ أَسْمَاءً مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأَمَمِ
الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسُّوَادِ وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ مَكَّةَ وَالْيَمَنَ وَالزَّنَجِ
بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرَ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِيٍّ أَسْوَدٍ
لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرُّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوْ
السَّابِعَ الْمُنْحَرَفَ إِلَى الْبِيَاضِ فَتَنْبِضُ أَلْوَانُ أَغْفَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الْأَيَّامِ
وَبِالْعَكْسِ فَيَمُنُّ يَسْكُنُ مِنَ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُ أَلْوَانُ أَغْفَابِهِمْ
وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي أَرْجُوزِيهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا
وَالصُّقْلِبُ اكْتَسَبَتِ الْبِيَاضَا حَتَّى غَدَّتْ جُلُودَهَا بِيَاضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِإِعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبِيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ
اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ عَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى إِعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ
وَإِعْتِبَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالصُّقَالِبَةِ وَالطُّغْرُغُرِ وَالْحَزْرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ
الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ
وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْإِعْتَدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ
الطَّبِيعِيَّةِ لِلإِعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّئَاسَاتِ
وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبُوتَاتُ وَالْمُلُوكُ وَالذُّوُلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ
وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ
الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَجْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ
السُّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأَمَمِ بِسِمَاتِهَا وَسِعَارِهَا

حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ
 وَارْتَابُوا فِي الْوَأْنِمْ فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ
 أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ يَافِثٍ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةَ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُنتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ
 وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهَذَا الرَّغْمُ وَإِنْ صَادَفَ
 الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطْرَدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنْ
 تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانَ وَالْحَبْشَانَ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ . وَمَا
 أَذَاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلْطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ
 وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ
 وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَرَسِ وَيَكُونُ بِالْحِجَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبْشَةِ وَالصَّقَالِيَةِ
 وَالسُّودَانَ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشُّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
 أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ حِجَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ
 شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فَلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نِخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجَدَتْ
 لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ
 وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعَمَ الرَّؤُوفَ الرَّحِيمَ .



المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيح موصوفين بالخمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والشور هي انتشار الروح الحيواني وتفشييه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفضية للهواء والبخار مخلطة له زائدة في كميتها ولهذا يجد المنتشي من الفرح والشور مالا يعبر عنه وذلك بما يدخل بخار الروح في القلب من الحرارة العزيزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفسي الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالفناء الناشء عن الشور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويحيء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعبته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد الثلول والجبال الباردة وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي

هوائها لأنها غريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مضر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أوقات سنتهم ولا شهرهم وعمامة ماكلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقيين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يزرأ^(١) شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تغليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر وأخلاقهم

إعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنايت واعتدال الطينة ووقور العمران وفيها الأرض الحرّة التي لا تثبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل

(١) أن ينقص .

أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء
المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفتقدون الحبوب
والأدم جملة وإنما أعديت لهم وأقواتهم الألبان واللحوم ومثل العرب أيضا الجائلين في
القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأخايين
وتحت ربة من حاميتها وعلى الإقلال لقله وجدهم فلا يتوصلون منه إلى سد
الخلة^(١) أو دونها فضلا عن الرغد والخضب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم
على الألبان وتعضهم من الحنطة أحسن معاض وتجدهم مع ذلك هؤلاء الفقادين
للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول
المنغمسين في العيش فالقواتهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أنم وأحسن وأخلاقهم
أبعد من الانحراف وأذنانهم أثقب في المعارف والإذراكات هذا أمر تشهد له
التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين
المثلثين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة
الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة
تنشأ عنها بعد-أفطارها في غير نسبة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال
من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يضعد إلى
الدماغ من أبحررتها الرديئة فتجيء البلاة والغفلة والانحراف عن الاعتدال
بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمها
والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأزياق والمراعي
الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها
وتناسب أعضائها وحدة مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والجمار
والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك إلا لأجل أن الخضب في
التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها

(١) الفقر والحاجة (قاموس)

أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك في
الادميين أيضاً فإننا نجد أهل الأقاليم المخصصة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم
والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن
البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على
الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالاً
في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم والبر
مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن حاملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل
الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم مالا يوجد لغيرهم وكذا
أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار فإن الأمصار وإن
كانوا أكثرين مثلهم من الأدم ومخصيين في العيش إلا أن استعمالهم إياها بعد
العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظتها ويرق قوامها
وعامة ماكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون^(١) السمن من بين الأدم لتفاهته
فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويحف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات
الردية فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار أطف من جسوم البادية المحشنيين في
العيش وكذلك تجد الممؤدين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم
غليظة ولا لطيفة . واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال
الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه
بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وأقبالاً على العبادة من أهل الترف
والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدين والأمصار لما يعمها من القساوة
والفقلة المتصلة بالإكثار من اللحم والأدم ولباب البر ويختص وجود العبادة
والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء
المخصيين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر

(١) لا يكثر من استعمال السمن ولا يلتزمونه في أدمهم

والأمصار إذا نزلت بهم السنون^(١) وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل بربارة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يتلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل أفريقيا لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الخضب المتعودين للأدم والسمن خصوصاً تكتسب من ذلك أفعالهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تتجاوز حدّها فإذا خولف بها العادة بقلّة الأوقات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المآل والآنكماش وهو ضعيف في الغاية فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعةً لأنه من المقاتل فالحالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث للأحق. وأما المتعودون لقلّة الأدم^(٢) والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدّها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا تقع في معاهم تبدل الأغذية بيس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخضب وكثرة الأدم في المأكّل وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية واثلافاً أو تركها إنما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاءً ولأعمه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به ذاء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع^(٣) وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التمدّي والملاءمة فيصير غذاءً مألوفاً بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللين والبقل عوضاً عن الحنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك

(١) السنون ، ج السنة ، الجذب والقحط (قاموس) .

(٢) في بعض النسخ ، اما المتعودون للعبة وترك الأدم والعبية شهوة اللين (قاموس) .

(٣) قال في القاموس اليتوع كصور أو تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطوع والمشهور منه سبعة الشيرم واللاعبة والعرطنيا والماهدانه والمازريون والفجلشت والعشر وكل اليتوعات إذا استعملت في غير وجهها اهلكت .

غذاءً واشتغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على
الجوع والاستغناء عن الطعام كما يُنقل عن أهل الرياضيات فإننا نسمع عنهم في
ذلك أخباراً غريبةً يكاد يُنكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس
إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد
الجوع بالتدرج والرياضة فقد حصل ذلك عادةً طبيعياً لها وما يتوهمه الأطباء
من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعةً وقطع
عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسب المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه
الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدرجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما
يفعله المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك وهذا التدرج ضروري حتى في الرجوع
عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعةً خيف عليه الهلاك وإنما
يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدرج ولقد شاهدنا من يضرب على الجوع أربعين
يوماً وصلاً وأكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه
امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ
سنتين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن
ماتتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على خليب شاة من المعز يلتزم
نذيتها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس
عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك. واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار
الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها وإن له أثراً في الأجسام
والمقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بأثار الأغذية التي تحصل
عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذيين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان
تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون
بالبن الإبل ولحومها أيضاً مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والإختمال والقدرة
على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل

فِي الصَّحَّةِ وَالْعِلَاطِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَّةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ
 فَيَشْرَبُونَ الْأَنْعَامَ لِاسْتِطْلَاقِ بَطُونِهِمْ غَيْرَ مَخْجُوتِيَّةٍ كَالْمَخَنْظَلِ قَبْلَ طَبِيخِهِ
 وَالذَّرِّيَّاسِ وَالْقَرْيَبِيِّينَ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ
 الرَّقِيقَةُ أَمْعَاءُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَّةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ
 طَرْفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِيَّةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَّةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ
 الْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِيَ بِالْحُبُوبِ الْمُطْبُوحَةِ فِي بَعْرِ
 الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ يَبْضُهَا ثُمَّ حَضَنْتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَكْثَرَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
 يَسْتَعْتُونَ عَنْ تَغْذِيَّتِهَا وَطَبِيخِ الْحُبُوبِ يَطْرَحُ ذَلِكَ الْبَقْرَ مَعَ الْبَيْضِ الْمُحَضَّنِ
 فَيُجِيءُ دَجَاجَهَا فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْأَثَارَ مِنَ
 الْأَغْذِيَّةِ فِي الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً أَثَاراً فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضَّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ
 وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ
 وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُحَلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وُجُودِ ذَلِكَ
 الْجِسْمِ وَاللَّهِ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .



المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اضْطَمَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَلَّهْمُ بِخَطَايِهِ وَفَطَّرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيَّنَّ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيَحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِحُجْرَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى السَّنَنِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُغَيَّبَةِ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسَاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَغْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ ﷺ «أَلَا وَآنِي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصَّدَقَ لِمَا يَتَّبِعُونَ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تُوَجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيظٍ كَأَنَّهَا غَشِيَتْ أَوْ إِغْمَاءٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِعْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرُّوحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنِ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَنْزَلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا بَسَمَاعَ دَوِيِّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةٌ شَخْصٌ يُخَاطَبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا الْقِيَّ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ «وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَنْصَمُ^(١) عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ» وَيَذَرُكَ أُنْثَاءَ ذَلِكَ مِنْ

(١) ينصم عني ، يفارقني

الشدة والغط ما لا يعبر عنه ففي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة^(١)
 وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينصم عنه وإن جبينه
 ليتفصد عرقاً وقال تعالى «إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً» ولأجل هذه الغاية في تنزل
 الوحي كان المشركون يزعمون الأنبياء بالجنون ويقولون له ربي أوتايح من الجن
 وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال ومن يضل الله فما له من
 هاد. ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاة ومجانبة
 المذمومات والرّجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن
 المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو
 غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه
 حتى استتر بإزاره ودعي إلى مجتمع وليمه فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى
 أن طلعت الشمس ولم يخضر شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إن
 بجبلته يتنزه عن المذمومات المستكرهه فقد كان ﷺ لا يقرب البصل
 والثوم ف قيل له في ذلك فقال إني أناجي من لا تتأجون وانظر لما أخبر
 النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فجأته وأرادت اختباره
 فقالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت إنه ملك وليس
 بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه
 فيها فقال البياض والخضرة فقالت إنه الملك يعني أن البياض والخضرة من ألوان
 الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك. ومن علاماتهم
 أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة
 على صدقه ﷺ بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن
 حاله وخلقته وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى
 الإسلام أخضر من وجد يبلده من قریش وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله فكان

(١) الحديث «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل بشدة» رواه ابن عباس.

فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِهِ يَا مُرَّكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعَفَافِ إِلَى
آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهَوْنِي وَسَيَمْلُكَ مَا تَحْتَ قَدَمِي
هَاتَيْنِ وَالْعَفَافِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقَلُ ^(٧) هُوَ الْعِصْمَةُ فَانظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ
وَالدُّعَاءَ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ يَخْتَجِ إِلَى مُعْجَزَةٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ مِنْ عِلْمَاتِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ عِلْمَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي
الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثُرُوءِهِ مِنْ قَوْمِهِ
اسْتَدْرَكَ الْحَاكِمَ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرْقَلِ لِأَبِي سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ
قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرْقَلُ وَالرُّسُلُ تَبْعَتْ فِي
أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنِ أَدَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَبْلُغَ
رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُنْمِ مَرَادَ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ عِلْمَاتِهِمْ أَيْضًا وَقُوعُ
الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَعْمَالٌ يَعْجَزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسَمِعْتِ بِذَلِكَ
مُعْجَزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي
كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافَ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ
بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَقَعَتْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالُ
الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ وَلَيْسَ
لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مُنْزِلَةَ الْقَوْلِ
الضَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجَزَةُ
الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الْخَوَارِقِ وَالتَّحْدِي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْءًا مِنْهَا وَعِبَارَةً
الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ وَالتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ
بَيْنَهَا وَبَيْنِ الْكِرَامَةِ وَالسُّخْرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا
إِنْ وَجَدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا
هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ وَعَيْرُهُ وَقُوعُ

(٧) قوله الذي أشار إليه هرقل الظاهر أبو سفيان .

الْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَاراً مِنَ الْإِلْتِبَاسِ بِالنُّبُوَّةِ عِنْدَ التَّحَدِيِّ بِالْوَلَايَةِ وَقَدْ أَرْنَانَا
 الْمُبَايَرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَّحَدَى بِغَيْرِ مَا يَتَّحَدَى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لَبْسَ عَلَى أَنْ النُّقْلَ عَنِ
 الْأَسْنَادِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْكَارِ لَأَنَّ تَقَعَّ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ
 بِنَاءٌ عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ
 الْكِرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا
 وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيساً فَهِيَ مُحَالٌ أَمَا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلَأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ
 الْمُعْجِزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةُ
 ضَلَالَةً وَالتَّصْدِيقُ كِذْباً وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ وَانْقَلَبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ
 فَرْضِ وَقُوعِهِ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُمَكِّناً وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ فَلَأَنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً
 وَالْهُدَايَةَ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ
 النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِيجَابِ الذَّاتِيِّ وَقُوعِ
 الْحَوَادِثِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ الْحَادِثَةِ مُسْتَنْدَةً أُخيراً
 إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ
 ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعُنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ وَالنَّبِيُّ
 عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّضْرِيْفِ ^(١) فِي الْأَكْوَانِ مِنْهَا تَوَجُّهُ إِلَيْهَا وَاسْتِجْمَاعُ لَهَا بِمَا جَعَلَ
 اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاءَ كَانَ لِلتَّحَدِيِّ أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ
 شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ
 النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْتَزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ
 دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُشْكَلِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحَدِيُّ جِزْأً مِنَ الْمُعْجِزَةِ
 وَلَمْ يَصِحَّ فَارِقاً لَهَا عَنِ السَّحْرِ وَالْكَرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّحْرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ
 عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ مَضْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَلَا يَلْمُ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ
 فَأَعْمَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ

(١) صرفه في الأمر . فوض الأمر إليه (قاموس)

كَالصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَالنُّفُودِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِخْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ
 وَالطَّيْرَانِ فِي السَّمَاءِ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ
 الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَضْرِيْفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ
 وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي
 طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا
 وَأَوْضَحَهَا دِلَالَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي
 الْعَالَمِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ
 وَالْقُرْآنَ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيِ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ
 إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةٌ لِاتِّعَادِ الدَّلِيلِ
 وَالْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَاتَى مِنَ الْآيَاتِ
 مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَخِيَا أَوْحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ
 أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ الْمِثَالِيَّةِ فِي
 الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ الْوَحْيِ كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحًا فَكَثُرَ
 الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأُمَّةُ .



ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من
المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إعلم . أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها
على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان
بالأكوان واشتخالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا
تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى وأولاً عالم العناصر
المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً
بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً
ويستحيل بعض الأوقات والصاعد منها الطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم
الأفلاك وهو الطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك
الحس منها إلا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها
وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين
كيف ابتداء من المعادن ثم النباتات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج آخر
أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الخشائش وما لا تذركه وآخر أفق
النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخلزون والصدف ولم
يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الإتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها

مُسْتَعِدًّا بِالِاسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ ^(١) لِأَن يَصِيرَ أَوَّلَ أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانِ
وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعُهُ وَانْتَهَى فِي تَدْرِيجِ التَّكْوِينِ إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوِيَّةِ
تَرْتَفَعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ ^(٢) الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ وَالْإِذْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى الرُّوِيَّةِ
وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ الْإِنْسَانِ بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ
فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَنَوِّعَةً فِيهِ عَالَمُ الْحِسِّ آثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ
وَالْعُنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ آثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ النُّمُوِّ وَالْإِذْرَاكِ تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا
مَوْثِرًا مَبْنِيًّا لِلْأَجْسَامِ فَهَوُورُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمَكُونَاتِ لَوْجُودِ اتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي
وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمَحْرَكَةُ وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ وُجُودِ آخَرَ يُعْطِيهَا
قُوَى الْإِذْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتَهُ إِذْرَاكًا صَرَفًا وَتَعْقُلًا مَخْصُصًا
وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ لِلِانْسِلَاحِ مِنْ
النَّبْشِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ لِيَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتًا مِنَ الْأَوْقَاتِ فِي لَمَحَّةٍ
مِنَ اللَّمَحَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمَلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدَ وَيَكُونُ
لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَهَا فِي
الِاتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ بِهِ
الْمَدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعْقُلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ
الْأَعْلَى مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَمُكْتَسِبَةٌ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَيْنِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ
الْحَوَادِثِ مَوْجُودٌ فِي تَعْقُلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ
الْمُحَكَّمِ فِي الْوُجُودِ بِاتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقَوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ
غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَأَنَّهُ وَجْمِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُفْتَرَقَةٌ
آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقَوَاهَا أَمَا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرَّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ
وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَافِعًا وَأَمَا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِذْرَاكِ مُرْتَبَةً

(١) وفي بعض النسخ، القريب وليس لها أي معنى هنا، والمرجح أنها محرفة عن كلمة غريزي.

(٢) كذا في جميع النسخ ما عدا نسخة لجنة البيان العربي، القردة وهي منسجمة مع سياق معنى العبارة

وَمُرْتَقِيَةٌ إِلَى الْقُوَّةِ الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمَفْكْرَةِ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقَوَى الْحِسَّ
الظَّاهِرَةَ بِآلَتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ
الْمُشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ الْمَحْسُوسَاتِ مُبْصِرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ
وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارْتَقَتْ قُوَّةُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَجِمُ عَلَيْهَا فِي
الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ إِلَى الْخِيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تَمَثَّلُ الشَّيْءَ
الْمَحْسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ فِي
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنَ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ مَقْدَمَةٌ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرَةٌ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخِيَالُ
إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي الْمَتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعِدَاوَةِ زَيْدٍ
وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذَّنْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِنْدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا
مَتَخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَالْحِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ فِي
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنَ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرَةٌ لِلأَخْرَى ثُمَّ تَرْتَقِي
جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنَ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا
حَرَكََةُ الرُّؤْيِيَّةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعْقُلِ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لَمَّا رَكِبَ فِيهَا مِنَ
النُّزُوعِ لِلتَّخْلُصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْمَادِ الَّذِي لِلبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي
تَعْقُلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي
إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِيهِ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ
بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اِكْتِسَابِ بَلْ
بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأَوَّلَى فِي ذَلِكَ .

أصناف النفوس البشرية

إِنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ ، صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبِيعِ عَنِ الْوُصُولِ
فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخِيَالِيَّةِ وَتَرْكِيْبِ
الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينٍ مَحْضُورَةٍ وَتَرْتِيْبِ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ
الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصَدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلِّهَا خِيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ

هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْدِئِهِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَالْيَهُ تَنْتَهِي مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسُخُ أَقْدَامُهُمْ . وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْعِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ الرَّوْحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْذَادِ لِذَلِكَ ، فَيَتَسَّعُ نِطاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ وَيَسْرُحُ فِي فِضَاءِ الْمُشَاهَدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا نِطاقٌ مِنْ مُبْدِئِهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السُّعَادَةِ فِي الْبُرْزُخِ .

الوحي

وَصِنْفٌ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَمْحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ وَيَخْضُلُ لَهُ شَهُودُ الْمَلَائِكَةِ فِي أَفْقِهِمْ وَسَمَاعُ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ وَالْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهِيَ خَالَةُ الْوَحْيِ فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَجِلَّةً صَوَّرَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَائِقِهِ مَا دَامُوا مَلَائِكِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ بِمَا رُكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالْإِسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَاذِرُونَ بِهَا تِلْكَ الْوَجْهَةَ وَرُكُزَ فِي طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تُكْشِفُ بِتِلْكَ الْوَجْهَةِ وَتُسَبِّغُ نَحْوَهَا فَهَمَّ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى شَاءُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لَا بِاِكْتِسَابٍ وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَأَنْسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوا فِي ذَلِكَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّونَهُ ، وَعَاجَوا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزَلًا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّلْبِيغِ لِلْعِبَادِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمَزٌ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي الْقِيَمِ إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيَّ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَقِي مَا يَقُولُهُ وَالتَّلْقِي مِنَ الْمَلَكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ

مَا أَلْفِي عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ
 بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعًا فَيُظْهِرُ كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَخِيًّا لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللَّغَةِ
 الْإِسْرَاقُ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُولَى وَهِيَ حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى
 مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ الْمَلِكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ
 الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ
 النَّبِيُّ ﷺ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَقَالَ : كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟
 فَقَالَ : « أحياناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَنْقُصُ عَنِّي وَقَدْ
 وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ » وَأَمَّا كَانَتْ
 الْأُولَى أَشَدَّ لِأَنَّهَا مُبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَيَعْسُرُ بَعْضُ
 الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ مَا سِوَاهُ
 وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلْقِي يَسْهَلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَمَا يُعْرَجُ إِلَى
 الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصاً الْأَوْضَحَ مِنْهَا وَهُوَ إِذْ ذَاكَ الْبَصَرُ وَفِي
 الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأُولَى بِصِيغَةِ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَّةِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ
 الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجِيءَ التَّمْثِيلِ لِحَالَتِهِ الْوَحْيِي فَمَثَّلَ الْحَالَةَ الْأُولَى
 بِالْدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارَفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَعْيَ يَتَّبَعُهُ غَبٌّ
 انْقِضَائِهِ فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ وَانْفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي
 الْمُطَابِقِ لِلانْقِضَاءِ وَالانْقِطَاعِ وَمَثَّلَ الْمَلِكَ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَّةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ
 وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ يُسَاوِقُهُ الْوَحْيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَاعْلَمْ
 أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ وَشَدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى :
 « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » وَقَالَتْ عَائِشَةُ : « كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ
 شَدَّةً » ^(١) وَقَالَتْ : « كَانَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَنْقُصُ عَنْهُ وَإِنْ
 جَبِينَهُ لَيَنْقُصُ عِرْقًا » . وَلِذَلِكَ كَانَ يَخْذُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطِيظِ

(١) رواه ابن عباس وليست عائشة .

مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبٌ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَّرْنَا مَفَارِقَةَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ
 الْمَلَكِيَّةِ وَتَلْقَى كَلَامَ النَّفْسِ فَيُخَدِّثُ عَنْهُ شِدَّةً مِنْ مَفَارِقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهَا وَأَسْلَاحَهَا
 عَنْهَا مِنْ أَقْفَاهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخِرِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْفَطْمَى الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ
 الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ « فَعَطَّيْنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا
 بِقَارِئٍ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ». كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يُفْضَى الْإِعْتِيَادُ بِالتَّدرِيجِ فِيهِ
 شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزُلُ نُجُومِ الْقُرْآنِ
 وَسُورِهِ وَأَيَّ حِينٍ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَأَنْظَرَ إِلَى مَا نَقَلَ فِي نَزُولِ
 سُورَةِ بَرَاءةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نَزَلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ
 بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يَنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَقْتٍ وَيَنْزَلُ
 الْبَاقِي فِي حِينٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرَ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي
 الطُّوْلِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تَنْزَلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثِّرِ
 وَالضُّحَى وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا . وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُعَيِّرُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ
 مِنَ السُّورِ وَالآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْضَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ .

الكهانة

وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي
 جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَاداً لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ
 الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَخْضَلُ مِنْ ذَلِكَ لَمَحَّةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنْ
 ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَخْضَلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنْ
 التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَاماً أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ
 انْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةِ اقْتِرَابٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ
 كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ مُوجُوداً فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمَ الْعَقْلِيَّ
 وَإِنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتْبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ نَقْضَانِ الضَّدِّ عَنْ ضِدِّهِ
 الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَانُ مَا بَيْنَهُمَا

فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمَ الوجودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ البَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ
العَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الفِكْرِيَّةَ بِالإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَنْعَشُهَا النُّزُوعُ لِدَلِكِ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ
بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يَعُوقُهَا العَجْزُ عَنِ ذَلِكَ تَشَبُّهُتْ بِأُمُورِ جَزَائِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ
كَالأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ الكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ
فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الإِحْسَاسَ أَوْ التَّخَيُّلَ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ
وَيَكُونُ كَالْمُشَيِّعِ لَهُ وَهَذِهِ القُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ لِدَلِكِ الإِذْرَاقِ هِيَ الكَهَانَةُ وَلَكُونِ
هَذِهِ النُّفُوسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ الكَمَالِ كَانَ إِذْرَاقَهَا فِي الجَزَائِيَّاتِ
أَكْثَرَ مِنَ الكُلِّيَّاتِ وَلِدَلِكِ تَكُونُ المُخَيَّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ القُوَّةِ لِأَنَّهَا أَلَّةُ الجَزَائِيَّاتِ
فَتَنْفِذُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ بِقَظْمَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةٌ عَتِيدَةٌ تُخْضِرُهَا المُخَيَّلَةُ
وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرْآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الكَاهِنُ عَلَى الكَمَالِ فِي إِذْرَاقِ
المَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنَ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هَذَا الصَّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينُ
بِالكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السُّجْعُ وَالْمُؤَاوَنَةُ لِيَسْتَعْلَمَ بِهِ عَنِ الحَوَاسِّ وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ
عَلَى ذَلِكَ الإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَهْجَسُ فِي قَلْبِهِ عَنِ تِلْكَ الحَرَكَةِ وَالَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذَلِكَ
الأَجْنَبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتَمَّمُ
نَقْضَهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيِّ عَنِ ذَاتِهِ المُدْرَكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مَلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ الصِّدْقُ
وَالكُذْبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مُؤْتَوَقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا
عَلَى الظُّفْرِ بِالإِذْرَاقِ بَرَعِمِهِ وَتَمْوِيحِهَا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السُّجْعِ هُمُ
المَخْصُوصُونَ بِاسْمِ الكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مِثْلِهِ « هَذَا
» مِنْ سَجْعِ الكُهَّانِ « فَجَعَلَ السُّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنِ خَالِهِ بِالأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الأَمْرُ؟ قَالَ :
« يَأْتِيَنِي صَادِقًا وَكَاذِبًا » فَقَالَ : « خَلِطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ » يَعْنِي أَنَّ النُّبُوَّةَ حَاصَّتْهَا
الصِّدْقُ فَلَا يَفْتَرِيهَا الكُذْبُ بِخَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَلَ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالمَلَأِ الأَعْلَى مِنْ
غَيْرِ مُشَيِّعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيِّ وَالكَهَانَةُ لَمَّا احتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى

الإِسْتِعَانِيَّةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الأَجْنِبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِذْرَاكِهِ وَالتَّبَسُّتِ بِالإِذْرَاكِ الَّذِي
 تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفَهُ الكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوءَةً
 وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الكَهَانَةِ حَالَةَ السُّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السُّجْعِ أَخْفُ مِنْ سَائِرِ
 المُغْفِيَّاتِ مِنَ المَرْتَبَاتِ وَالمَسْمُوعَاتِ وَتَدُلُّ خِفَّةُ المَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الإِتِّصَالِ
 وَالإِذْرَاكِ وَالبُعْدِ فِيهِ عَنِ العَجْزِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الكَهَانَةَ
 قَدْ انْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ النُّبُوءَةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجِيمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهْبِ بَيْنَ يَدَيْ
 البَغْتَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي القُرْآنِ وَالكَهَانِ إِنَّمَا
 يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتِ الكَهَانَةُ مِنْ يَوْمِئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ
 دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الكَهَانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نَفْسِهِمْ أَيْضًا كَمَا
 قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَالآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ
 وَهُوَ مَا يَتَمَلَّقُ بِخَبَرِ البَغْتَةِ وَلَمْ يَمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ
 الإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيْ النُّبُوءَةِ فَقَطْ وَلَقَدْ عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ
 الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ المَدَارِكَ كُلَّهَا تَحْمَدُ فِي زَمَنِ النُّبُوءَةِ كَمَا تَحْمَدُ الكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ
 عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ لِأَنَّ النُّبُوءَةَ هِيَ النُّورُ الأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ يَدَيْ النُّبُوءَةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَهَكَذَا كُلُّ نُبُوءَةٍ
 وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ النُّبُوءَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعِ فَلَكَيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ ذَلِكَ الوَضْعِ تَمَامُ
 تِلْكَ النُّبُوءَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقَصَ ذَلِكَ الوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِي وُجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ
 ذَلِكَ النُّوعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ
 ذَلِكَ الوَضْعُ الكَامِلُ يَقَعُ الوَضْعُ النَاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ الكَاهِنِ إِثْمًا وَاحِدًا أَوْ
 مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَانْقَضَتِ الأَوْضَاعُ الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ
 تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَلَا يَوْجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ وَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ بَعْضَ الوَضْعِ الفَلَكَيِّ
 يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ . فَلَمَّا لُغِيَ الوَضْعُ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ
 العَالِيَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا . لِأَنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الأَثَرَ

ناقصاً كما قالوه . ثم إن هؤلاء الكُهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق
النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر
اليوم ومعقوبية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصددهم عن ذلك
ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيتمعون في العناد كما وقع
لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمه
وغيرهم فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وقع
لطليحة الأسيدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار
الشاهدة بحسن الإيمان .

الرؤيا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من
صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة
بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد
الجسمانية والمدارك البدئية وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر
فتقتبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها فإن
كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلصه
فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التفسير وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه
عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تفسير لتخلصه من المثال والخيال والسبب في وقوع
هذه المحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه^(١) حتى
تصير ذاتها تعقلاً مخصاً ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية
مدركة بغير شيء من الآلات البدئية إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع

(١) في نسخة لجنة البيان العربي عبارة بين قوسين وهي (ولا بد من تخلصها من البدن ومداركه) وهذه
الجملة غير واردة في جميع النسخ الأخرى وهي متممة لمعنى الجملة التي قبلها . ولا يستقيم المعنى بدونها .

الْمَلَائِكَةُ أَهْلُ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ شَيْءٌ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ
 وَلَا غَيْرِهِ فَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ
 وَمِنْهُ عَامٌ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادٌ
 بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمَخْضَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ
 هَذَا الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّراً فِي خَالَاتِ الْوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ
 الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ يَكُونُ ^(٩) شَيْباً بِحَالِ النَّوْمِ شَبْهاً بَيْنَا وَإِنْ
 كَانَ جَالِ النَّوْمِ أَذْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلَأَجْلِ هَذَا الشَّيْبِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا
 جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ سِتِّينَ
 وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُوداً بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ
 بِدَلِيلِ ذِكْرِ السِّتِّينَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ
 فِي رِوَايَةِ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَئِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ
 سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ
 مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامٌ يَعْبُدُ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ
 أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لغيرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ
 الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا
 ذَكَرْنَاهُ أَوْلاً عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْإِسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى
 الْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفَطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُوَ
 الْإِسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَاماً فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ
 بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ
 حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَلْبِيٌّ لَهُمْ فَتَعَرَّضَ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
 مَا تَشْهَدُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتَذَرُكَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لِمَحَّةٍ يَكُونُ فِيهَا الظُّفْرُ

(٩) وردت هذه الكلمة في نسخة لجنة البيان العربي فقط وهي غير موجودة في جميع النسخ ولا يستقيم

المعنى بدونها.

بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم ينبق من النبوة إلا
المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل
الصالح أو ترى له وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك
أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار
لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس
وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر
الأفعال البدنية ويرتفع لطيفة إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التي في
بطونه فالنفس الناطقة إنما تترك وتغفل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما
اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح
الحيواني من بين المواد البدنية صار محلاً لأنار الذات المباشرة له في جسمانيته
وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطة وقد كنا قد علمنا أن
إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس وإدراك بالباطن وهو
القوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها
الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية
كانت معرضة للوسن والفشل بما يدرکها من التعب والكلال وتغشى الروح
بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة
وإنما يكون ذلك بانخناس^(١) الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه
إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يفشى البدن من البرد بالليل فتطلب
الحرارة الفريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشبعة
مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو
بالليل فإذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة وحفت
عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها

(١) انخناس : تأخر وانقباض وتغلف (قاموس) .

بالتزكيب والتخليل وصور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من
 المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس
 الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة
 إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإذراكها الروحاني لأنها
 مفطورة عليه وتفتس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ
 الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة
 والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتزكيب والتخليل في صور
 الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام . وفي الصحيح
 أن النبي ﷺ قال : « الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من
 الشيطان » وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية
 إلى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل
 والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشتبها من النوم وهي
 خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل
 كل واحد من الإنساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مزارا غير واحدة وحصل
 له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد وإذا جاز ذلك في عالم النوم
 فلا يمتنع في غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل
 حال والله الهادي إلى الحق بيمينه وفضله .

فصل : ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا إنما هو من غير قصد ولا قدرة
 عليه وإنما تكون النفس متشوقة لذلك الشيء فيقع يتلك اللمحة في النوم لأنها
 تقصد إلى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضيات
 ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه ويسمونها
 الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سهاها حالومة الطباع التام
 وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهي

« تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا غادس^(١) » ويذكر حاجته فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم . وحكي إن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليالٍ في ماكله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباعك التام فسأله وأخبره عما كان يتشوف إليه وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مرآة عجيبة وأطلقت بها على أمور كنت أتشوف عليها من أخوالي وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يخبرها وإنما هذه الحالومات تحدث استغداداً في النفس لوقوع الرؤيا فإذا قوي الاستغداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستغداد ما أحب ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له فالقدرة على الاستغداد غير القدرة على الشيء فأعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم الخبير .

فصل : ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها وإنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمزايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والخبوب من الجنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقي على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك الثائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم عن هذه الإذراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم تأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإذراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة إلى الفعل

(١) ليس لهذه الكلمات أي معنى في اللغات التي نعرفها وربما تكون لأسماء بعض الجن .

بالبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُدْرَكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ وَصُورَةٌ هَذِهِ
النَّفْسُ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الإِدْرَاكِ وَالتَّعْقُلِ فِيهِ تَوَجَّدَ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ
مُسْتَعِدَّةٌ للإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الكُلِّيَّةِ وَالجُزْئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نَشْوَها وَوُجُودُها بِالْفِعْلِ
بِمُصَاحِبَةِ البَدَنِ وَمَا يَعُودُها يَبْرُودُ مُدْرَكَاتِها المَحْسُوسَةِ عَلَيْها وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ
الإِذْرَاكِاتِ مِنَ المَعْنَايِ الكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْضُلَ لَهَا الإِدْرَاكِ
والتَّعْقُلُ بِالْفِعْلِ فَيَتِمُّ ذَاتُها وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالنَّهْيُولِيِّ وَالصُّورُ مُتَعاقِبَةٌ عَلَيْها بِالإِدْرَاكِ
وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الإِدْرَاكِ الَّتِي لَهَا مِنْ
ذَاتِها لَا يَنُومُ وَلَا يَكْشِفُ وَلَا يَغْيِرُها وَمَا وَذَلِكَ أَنَّ صُورَتِها الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِها وَهِيَ
الإِدْرَاكِ وَالتَّعْقُلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدَ بَلٍ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ الكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُها بِالْفِعْلِ
حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ البَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الإِدْرَاكِ إِذْرَاكِ بِأَلَاةِ الجِسْمِ تُوَدِّيهِ إِلَيْها
المَدَارِكُ البَدَنِيَّةُ وَإِذْرَاكِ بِذَاتِها مِنْ غَيْرِ واسِطَةٍ وَهِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالإِنْفِاسِ فِي
البَدَنِ وَالْحَوَاسِ وَبِشَوَاعِلِها لِأَنَّ الحَوَاسِ أَبَدًا جاذِبَةٌ لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فَطَرَتْ
عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الإِدْرَاكِ الجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْغَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ إِلَى البَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ
حِجَابُ البَدَنِ لِحَظَّةٍ إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلإِنْسَانِ عَلَى الإِطْلَاقِ مِثْلَ النُّومِ أَوْ
بِالْخَاصِيَّةِ المَوْجُودَةِ لِبَعْضِ البَشَرِ مِثْلَ الكَهَانَةِ وَالطَّرِيقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ مِثْلَ أَهْلِ
الكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الذُّوَاتِ الَّتِي فَوْقَها مِنَ المَلَأِ لِمَا بَيْنَ أَفْئِها
وَأَفْقِهم مِنَ الإِتْصَالِ فِي الوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَا قَبْلَ وَتِلْكَ الذُّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ وَهِيَ إِدْرَاكِ
مَحْضٌ وَعَقُولٌ بِالْفِعْلِ وَفِيها صُورُ المَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُها كَمَا مَرَّ فَيَتَجَلَّى فِيها شَيْءٌ
مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَتَقْتَبِسُ مِنْها عُلُومًا وَرُبَّمَا دَفَعَتْ تِلْكَ الصُّورُ المُدْرَكَةَ إِلَى الخَيَالِ
فَيُصَرِّفُها فِي القَوْلِباتِ المُعْتَادَةِ ثُمَّ يَرْجِعُ الجِسْمَ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا مُجْرَدًا أَوْ فِي قَوْلِها
فَتُخْبِرُ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الإِدْرَاكِ الغَيْبِيِّ . وَلنَرْجِعْ إِلَى
مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاظِرُونَ فِي الأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ مِنَ المَرَايَا
وَطَسَاسِ المِيَاهِ وَقُلُوبِ الحَيَوانِ وَأَكْبَادِها وَعِظَامِها وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالحِصَى وَالنُّوَى

فَكَلَّمَهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكُتَّابِ إِلَّا أَنَّهُمْ أضعفُ رتبةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَاهِنَ
لَا يَخْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرِ مَعَانَاةٍ وَهَوْلَاءِ يُعَانُونَهُ بِإِحْصَارِ الْمَذَارِكِ
الْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفَهَا الْبَصْرُ فَيَعْكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى
يَبْتَدُوهُ مَذْرُكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مَشَاهِدَةَ هَوْلَاءِ لَمَّا يَرُونَهُ هُوَ فِي
سَطْحِ الْمِرْآةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرْآةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ
عَنِ الْبَصْرِ وَيَبْتَدُو فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرْآةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ
هِيَ مَذَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لَمَّا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيِ أَوْ إِثْبَاتِ
فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمِرْآةُ وَمَا يُدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا
يُدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوْعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ
نَفْسَائِي لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصْرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمَذْرُكُ النَّفْسَائِي لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ
مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَعْضُ لِلنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَالنَّاطِرِينَ
فِي الْمَاءِ وَالطُّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هَوْلَاءِ مَنْ يَشْغَلُ الْحِسَّ بِالْبُخُورِ
فَقَطُّ ثُمَّ بِالْمَغْرَائِمِ لِلِاسْتِعْذَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ وَيَزَعْمُونَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الصُّورَ
مُتَشَخِّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهَا بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ
وَعَيْبَةَ هَوْلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ أَبُو الْغَرَائِبِ . وَأَمَّا الزُّجْرُ وَهُوَ
مَا يَخْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْعَيْنِ عِنْدَ سُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالْفِكْرُ
فِيهِ بَعْدَ مَعْيَبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنْ
مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةَ كَمَا قَدَّمْنَا قُوَّةً فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا
بِمَا رَأَى أَوْ سَمِعَهُ فَيُوْدِيهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا . كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ
رُكُودِ الْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ
فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الْمَجَانِينُ فَنَفْسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعْلُقِ بِالْبَدَنِ لِإِسْفَادِ
أَمْرَجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَفْرَقَةٍ فِي الْحَوَاسِّ
وَلَا مُنْعَمَسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النِّقْصِ وَمَرْضِهِ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى

التعلُّقُ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ تَتَشَبَّهُ بِهِ وَتَضَعُفُ هَذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا فَيَكُونُ
عَنْهُ التَّخَيُّطُ فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَيُّطُ إِذَا لَفْسَادِ مِرَاجِهِ مِنْ فُسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمَرَاحِمَةِ
مِنَ النَّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حِسِّهِ جَمَلَةٌ فَأَذْرَكَ لَمَحَّةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ
وَأَنْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّورِ وَصَرَفَهَا الْخِيَالُ وَرُبَّمَا نَطَقَ عَنْ لِسَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ
غَيْرِ إِزَادَةِ النُّطْقِ وَإِذْرَاكَ هُوَ لَا كَلِمَةٌ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ لِأَنَّهُ لَا يَخْضَلُ لَهُمُ
الْإِتِّصَالُ وَإِنْ فَقَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَخْبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَا مِنْ
ذَلِكَ يَجِيءُ الْكُذِبُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِكِ وَأَمَّا الْعَرَاْفُونَ فَهُمُ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَذَا الْإِذْرَاكِ
وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَيَسْلُطُونَ الْفِكْرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ
فِيهِ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِيءِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِذْرَاكِ
وَيَدْعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَذَا تَخْصِيلُ هَذِهِ الْأُمُورِ وَقَدْ
تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْمَسْمُودِي فِي مَرُوجِ الذَّهَبِ فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً وَيَظْهَرُ مِنْ
كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ يَمِيداً عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ فَيَنْقَلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ
غَيْرِ أَهْلِهِ وَهَذِهِ الْإِذْرَاكَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ الْبَشَرِ فَقَدْ كَانَ
الْعَرَبُ يَفْزَعُونَ إِلَى الْكُهَّانِ فِي تَعْرِيفِ الْحَوَادِثِ وَيَتَنَاقَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي الْخُصُومَاتِ
لِيَعْرِفُوهُمْ بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِذْرَاكِ غَيْبِهِمْ وَفِي كِتَابِ أَهْلِ الْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ
مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شِقُّ بْنُ أُنْمَارِ بْنِ نِزَارٍ وَسَطِيحُ بْنُ مَازِنِ بْنِ غَسَّانٍ وَكَانَ يَنْدَرُجُ
كَمَا يَنْدَرُجُ الثُّوبُ وَلَا عَظَمَ فِيهِ إِلَّا الْجَمْحَمَةُ وَمِنْ مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ عَنْهُمَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ وَمَا أُخْبِرَ بِهِ مُلْكُ الْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ وَمُلْكُ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ
وَمَشْهُورِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي قَرَيْشٍ وَرُؤْيَا الْمُؤَبَّدَانِ الَّتِي أَوْلَاهَا سَطِيحٌ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ
بِهَا كِسْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ النُّبُوَّةِ وَخَرَابِ مُلْكِ فَارِسٍ وَهَذِهِ كُلُّهَا
مَشْهُورَةٌ وَكَذَلِكَ الْعَرَاْفُونَ كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ
فَقُلْتُ لِعَرَاْفِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطِيبٌ
وَقَالَ الْآخَرُ

جَعَلْتُ لِعَرَاْفِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَاْفِ نَجْدِ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

فَقَالَ شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا حَمَلْتَ مِنْكَ الضُّلُوعَ يَدَانِ (١)

وَعَرَافُ الِيمَامَةِ هُوَ رِبَاحُ بِنِ عَجَلَةَ وَعَرَافُ نَجْدُ الْأَبْلَقِ الْأَسَدِيِّ . وَمِنْ هَذِهِ
الْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَالتَّبَاسِيهِ بِالنُّوْمِ مِنْ
الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا
يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِيءِ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْإِخْتِبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ
كَأَنَّهُ مُجْبُورٌ عَلَى النُّطْقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْمُقْتُولِينَ
عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَيْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ بَعْضِ
الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ
عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ . وَذَكَرَ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ
فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ أَدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنْ مَمْلُوءٍ بِدَهْنِ السَّنْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا
يُغْذَى بِالتَّيْنِ وَالْجَوْزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ
فَيُخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ فَيَحِينُ يَحْفُ عَلَيْهِ النِّهَاقُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ
عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاقِيرِ أَعْمَالِ السُّحْرَةِ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ
عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ وَمِنْ النَّاسِ . مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمُدْرِكِ الْغَيْبِيِّ
بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَانَةٍ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ مَحْوِ
آثَارِهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْدِيَتِهَا بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ
ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ
ذَهَبَ الْحِسُّ وَحِجَابُهُ وَأَطْلَقَتِ النَّفْسُ عَلَى الْمُغْفِيَاتِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ
السُّحْرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاقُ عَلَى الْمُغْفِيَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي
الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِإِلَادِ الْهِنْدِ
وَيُسَمُّونَ هُنَالِكَ الْجُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ
فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَذْمُومَةِ

(١) أي لا نستطيع أن نشفيك من الحب الذي تحمله ضلوعك

وَأِنَّمَا يَقْصُدُونَ جَمْعَ الْبَهْمَةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ لِيَخْضَلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ
الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ التَّغْذِيَّةِ بِالذِّكْرِ فِيهَا
تَبْمٌ وَجَهْتَهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عَزَيْتْ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَخْضَلُ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لَهُوَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُوداً مِنْ أَوَّلِ
الْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِذَا قَصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوَجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقْصِدِ التَّصَرُّفِ
وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ : « مَنْ
أَتَرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي ^(١) » فَهُمْ يَقْصُدُونَ بِوَجْهَتِهِمُ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ
سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَخْضَلُ فَبِالْعَرَضِ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٍ مِنْهُمْ
يَفْرِمُنَهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَخْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ
مَعْرُوفٌ وَيَسْمُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا وَمَا
يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى
إِنْكَارِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ الْإِسْفَرَايْنِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدِ الْمَالِكِيُّ فِي
آخِرِينَ ^(٢) فِرَاراً مِنَ التَّيْبَاسِ الْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ
التَّفَرُّقَةِ بِالتَّحْدِي فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
« إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ وَإِنْ مِنْهُمْ عَمْرٌ » وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّخَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفَةٌ
تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ » وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ
زَنْبِيمٍ كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفَتْوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ
الْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَكٍ وَهَمَّ بِالْإِنْهَرَامِ وَكَانَ بِقَرْبِهِ جَبَلٌ يَتَّخِذُ إِلَيْهِ فَرَفِعَ لِعَمْرٍ
ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَةَ وَهُوَ
بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَةً هُنَالِكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ

(١) أي اشرك بالله بمعنى ان الله له ثان.

(٢) استعمال غير صحيح . وقد استعمله ابن خلدون في مواضع متفرقة من كتابه والصحيح : آخرون .

عائشة ائنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها^(١) من أوسق^(٢) التمر من حد يقته ثم نبهها على جذاذه لتحوزه^(٣) عن الورثة فقال في سياق كلامه « وإنما هما أخواك وأختاك » فقالت « إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ » فقال « إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية » فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يتقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى إنهم يقولون إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حالة ما دام فيها حتى يفارقها والله يزرقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق .

ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم بهاليل^(٤) معنوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق^(٥) مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المعانيب عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب ورُبما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتیه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخلصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله

(١) نحلها ، أعطاه . ولكن هنا تعني خضها . والأصح أن يقول أنحلها .

(٢) أوسق ، ج وشق ، وهو وزن ستين صاعاً أو خمل بعير .

(٣) لتختص به .

(٤) بهاليل ، ج بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . والمعنى الشائع لكلمة بهلول هو الخترة .

(٥) أهل الذوق : (الذين يتاح لهم أن ينوقوا حلاوة المعرفة الإلهية) .

لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدِ
لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِيفِيِّ الَّذِي
هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى
شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رَبُّمَا يَلْتَسِسُ خَالَ هَؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ
الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَيَلْتَجَقُونَ بِالْبَهَائِمِ وَلَكَ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٌ مِنْهَا أَنْ
هَؤُلَاءِ الْبَهَائِلِ لَا تَجِدُ لَهُمْ وَجْهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ
وَالْمَجَانِينِ يَعْزُضُ لَهُمُ الْجُنُونُ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَارِضٍ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا
عَرِضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَيِّبَةِ وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي
النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنٍ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْمَجَانِينُ
لَا تَصَرَّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ أَنْتَهَى بِنَا الْكَلَامِ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ .

وَقَدْ يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ ^(١) لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبِيَّةٍ عَنِ الْحَسِّ
فَمِنْهُمْ الْمُتَخَيِّمُونَ الْقَائِلُونَ بِالذَّلَالَةِ النُّجُومِيَّةِ وَمَقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكَ وَأَثَارِهَا
فِي الْعُنَاصِرِ وَمَا يَخْصُلُ مِنَ الْإِمْتِزَاجِ بَيْنَ طِبَاعِهَا بِالتَّنَاطُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ
الْمِزَاجِ إِلَى الْبُهْوَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَخَيِّمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ
حَدْسِيَّةٌ وَتَخَيُّمَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأثيرِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْبُهْوَاءِ مَعَ مَزِيدِ
حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ النَّاطِرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَ بَطْلِيمُوسُ
وَنَحْنُ نَبِينُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثَبَّتَ فَعَايَتَهُ حَدْسٌ وَتَخَيُّمٌ
وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ
وَتَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَوَّهَا خَطَّ الرُّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا
عَمَلَهُمْ وَمَخْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ
تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الرُّوْجِيَّةِ وَالْفِرْدِيَّةِ وَاسْتَوَاتِبِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ

(١) كنا في جميع النسخ والكلمة ضعيفة والأصح أن يقال: قد يظن البعض أن هنا من يدرك الغيب.

فتسجم العبارة كلها.

شكلاً لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً وإن كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سفود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم وكانت البروج اثنا عشر النبي للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً^(١) ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنتجوا من ذلك فناً حادوا به فن النجامة ونوع فضائه إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس وهذه إنما مستندة أوضاع تحكيمة وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتهما ويختجون بقوله ﷺ « كان نبي يخط فمَنْ وافق خطه فذاك » وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لأن معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمَنْ وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطرأ ثم يطرخون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما

(١) في بعض النسخ : حظوظاً .

قَابَلَهَا مِنَ الشَّكْلِ الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ
أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُؤَلَّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِإِغْتِبَارِ
مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً
أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُؤَلَّدُونَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا
كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ الْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخَرَ
السُّتَّةَ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ
بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ وَالْإِمْتِزَاجِ وَالذَّلَالَةَ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ
تَحْكُمًا غَرِيبًا وَكَثْرَتِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْعَمْرَانِ وَوَضِعَتْ فِيهَا التَّالِيفُ وَاشْتَهَرَ فِيهَا
الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّخْقِيقُ الَّذِي
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَصَبَ فِكْرِكَ أَنْ الْغَيْبُ لَا تُدْرِكُ بِصِنَاعَةِ الْبَيِّنَةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى
تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ الْمُفْطَوْرِينَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ
الرُّوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْمُتَمَجِّمُونَ هَذَا الصَّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزَّهْرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ
دَلَالَةُ الزَّهْرَةِ بِرُغْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ
كَانَ النَّاطِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصِيَّةِ وَقَصَدَ بِهِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ
النَّقِطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحِسِّ لِتَرْجِعَ النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحِطَّةِ
مَا . فَهَوَ مِنْ بَابِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشَّفَافَةِ
كَمَا ذَكَرْنَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِهِهِ الصَّنَاعَةَ وَأَنَّهَا
تَفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَذَرُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ
الَّتِي فِطَرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ
يَعْتَرِيهِمْ خُرُوجٌ عَنْ خَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتَشَاؤِ وَالْتِمَطُّطِ وَمَبَادِيءِ الْغَيْبِيَّةِ عَنِ
الْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وَجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تَوْجِدْ لَهُ
هَذِهِ الْعَلَامَةَ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيقِ ^(١) كَذِبِهِ .

(١) ترويح

فصل

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَضَعُونَ قَوَانِينِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَذَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ الَّذِي يُحَاوَلُ عَلَيْهِ الْعُرَافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطٌ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَعَ بِهِ الْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ النَّيْمِ وَهُوَ مَذْكَورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تُحَسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ الْمُصْطَلِحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أُبْجَد^(١) مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى

(١) حساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد هو أن لكل حرف من الحروف الهجائية رقماً خاصاً على

النحو الآتي :

أولاً : على طريقة المغاربة وهي الطريقة التي عنها ابن خلدون وسار عليها :

ا ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ث ت خ ذ ظ غ ش
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

ثانياً : على طريقة المشارقة وهي الطريقة المشهورة في مصر والعراق وسورية وغيرها من البلاد العربية

الأخرى :

ا ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

ويستعمل حساب الجمل هنا النجمون والذين يتعاطون تاريخ الاحداث التاريخية والوفيات والولادات

وما شاكل

الألف أحاداً وعشرات ومئين وألوفاً فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فأحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح من كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الإسمين فإن كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب وإن كانا معاً فردين فالمطلوب هو الغالب ويقال هنالك نيتان في هذا العمل اشتهاً بين الناس وهما :

أرى الزوج والأفراد يسمو أقلها وأكثرها عند التحالف غالب
ويغلب المطلوب إذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع وهي (ا) الدالة على الواحد وهي ، (ي) الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و (ق) الدالة على المائة لأنها واحد في مرتبة المئين و (ش) الدالة على الألف لأنها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف لأن الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي (ايقش) ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي (ب) الدالة على اثنين في الأحاد و (ك) الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و (ر) الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة

فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبْجَدٍ وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نَهَائِيَّةً
عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ أَيْقَشُ بِكَرِ جَلَسَ دَمَتُ هَنْثٌ وَصَخٌ زَعْدٌ حَفِظَ طَضَعٌ مُرْتَبَةٌ عَلَى
تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ أَيْقَشُ
وَالْإِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرٍ وَالثَّلَاثَةِ لِكَلِمَةِ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ طَضَعٌ
فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الْإِسْمِ بِتِسْعَةِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ
هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا
مِنْ حُرُوفِ الْإِسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا
هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْإِسْمِ الْآخِرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَالسُّرِّيَّ
هَذَا بَيِّنٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ يَطْرَحُ تِسْعَةً إِنَّمَا هُوَ وَوَاحِدٌ
فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا أَحَادٌ فَلَا
فَرْقَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا إِثْنَانٌ وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ
وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثِمِائَةُ وَالثَّلَاثَةُ الْأَلْفِ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتِ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي
دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجَعَلَتِ الْحُرُوفُ الدَّالَّةَ عَلَى أَصْنَافِ الْعُقُودِ فِي كُلِّ
كَلِمَةٍ مِنَ الْأَحَادِ وَالْعِشْرَاتِ وَالْمِئِينَ وَالْأَلُوفِ ^(١) وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا
نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاءَ ذَلِكَ عَلَى الْأَحَادِ أَوِ الْعِشْرَاتِ أَوِ الْمِئِينَ فَيُؤَخَذُ عَدَدُ كُلِّ
كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قَلَّمْنَا هَذَا هُوَ الْعَمَلُ
الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شِيُوخِنَا يَرَى أَنَّ
الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي
الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاءَ وَهِيَ أَرْبَعٌ يَسْتَقْكُ جَزَلَطُ
مِدْوَسٌ هَفٌ تَحْدَنُ عَشٌّ خَعٌ نَضَطٌ تِسْعَ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا

(١) قوله الألو ف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه (الهوري في
طبعة بولاق) وعلق د. علي عبد الواحد وافي على قولهوري: « وقد أورد ابن خلدون كلمة الألو ف
بالجمع للمشكلة مع قوله الأحاد والعشرات والمئين. وإن لم يكن في الحروف الألف واحد. »

عَدَّهَا الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِي وَالرُّبَاعِي وَالشَّنَائِي وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلٍ
مُطْرَدٍ كَمَا تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَيْوُخُنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ
السِّمِيَاءِ وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعُبَّاسِ بْنِ الْبَنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ
الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصْحَبُ مِنَ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ائِقْشِ وَاللَّهِ
يَعْلَمُ كَيْفَ ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكٌ لِلغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرْسَطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لِمَا
فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّحُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ
أَهْلِ الرُّسُوحِ ١ هـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَائِنِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعَمُونَ
الزَّايِرَجَةَ الْمُسَمَّاءَ « بِزَايِرَجَةِ الْعَالِمِ » الْمَعْرُوفَةَ إِلَى أَبِي الْعُبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ
السَّنِيْتِي مِنْ أَغْلَامِ الْمُتَّصِفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَكَشِ وَلَقَبَهُ
أَبِي يَنْقُوبَ الْمَنْصُورَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنَ
الْخَوَاصِ يُوَلِّعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْعُوزِ فَيَحْرُضُونَ بِذَلِكَ
عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ . وَصُورَتِهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ
فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرٌ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْعُنَاصِرِ وَالْمَكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ
مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا إِثْمٌ الْبُرُوجِ وَإِنَّمَا
الْعُنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهَا وَحُطُوطٌ كُلُّ قِسْمٍ مَازَةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأُوتَارَ وَعَلَى كُلِّ
وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فَمِنْهَا بِرُشُومٍ ^(١) الزَّمَامُ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ
أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحُسَابِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْقَبْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْعُبَّارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي
دَاخِلِ الزَّايِرَجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ
جَدْوَلٌ مُتَكَثَرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوِيلًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي
الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطَّوْلِ جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةٌ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ

(١) قوله برشوم أي موضوعة بضم الراء جمع رشم بالثين للمعجمة ١ هـ . ومعنى رشم ، كتب . والرشم
الكتابة والشكل . ومعنى رسوم الزمام : أشكال الأعداد المستعملة في الغرب . ورشوم العبار : أشكال الأرقام الهندية
المصطلح عليها في الشرق .

وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبِ خَالِيَةِ الْبُيُوتِ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةَ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتِ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَخَافَاتُ الزَّائِرِجَةِ أُنْيَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطُّوَيْلِ عَلَى رُيُوتِ اللَّامِ الْمَنْصُوتِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّائِرِجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْفَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّائِرِجَةِ بَيِّنَةٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَابِ أَهْلِ الْحَدَثَانِ ^(١) بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْجِيلِيَّةٍ كَانَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْمَثُونِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيِّنَةِ .

سؤال عظيم الخلق حزت فُضُنْ إِذَنْ غَرَابِ شَكَّ ضَبْطُهُ الْجِدُّ مَثَلًا

وَهُوَ الْبَيِّنَةُ الْمُتَدَاوِلُ عَنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّائِرِجَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَعُوهُ حُرُوفًا ثُمَّ أَخَذُوا الطَّالِعَ لِذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَدَرَجَاتِهَا وَعَمَدُوا إِلَى الزَّائِرِجَةِ ثُمَّ إِلَى الْوَتْرِ الْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَا رَأَى إِلَى الْمَرْكَزِ ثُمَّ إِلَى مَحِيطِ الدَّائِرَةِ قِبَالَةَ الطَّالِعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَالْأَعْدَادَ الْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحِسَابِ الْجُمْلِ وَقَدْ يَنْقَلِبُونَ أَحَادِثًا إِلَى الْعَشْرَاتِ وَعَشْرَاتِهَا إِلَى الْمِئِينَ وَبِالْعَكْسِ فِيهَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عَنْدَهُمْ وَيَضْعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتْرِ الْمُكْتَنَفِ بِالْبُرْجِ الثَّلَاثِ مِنَ الطَّالِعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى الْمَحِيطِ وَيَقْلِبُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى ثُمَّ يَقْطَعُونَ حُرُوفَ الْبَيِّنَةِ الَّتِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عَنْدَهُمْ وَهُوَ بَيِّنَةُ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ الْمُتَقَدِّمُ وَيَضْعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّالِعِ فِي أَسِّ الْبُرْجِ وَأَسْهُ عَنْدَهُمْ هُوَ بَعْدَ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ الْأَسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ عَنْدَهُمْ الْبَعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ ثُمَّ

(٢) أي إنه من كبار المحدثين والمخبرين عما يخبره الغيب من أحداث الدهر وشؤون المستقبل .

يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ الْأَسَّ الْأَكْبَرَ وَالذُّورَ الْأَصْلِيَّ وَيُدْخِلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ
مِنْ ذَلِكَ فِي بَيِّنَاتِ الْجَدُولِ عَلَى قَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ
وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيَسْقِطُونَ أُخْرَى وَيَقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ الْبَيْتِ
وَيَنْقَلِبُونَ مِنْهُ مَا يَنْقَلِبُونَ إِلَى حُرُوفِ السُّؤَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ
بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَدْوَارَ وَيَخْرِجُونَ فِي كُلِّ ذَوْرٍ الْحَرْفَ الَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ
الذُّورُ وَيَعَاوِدُونَ ذَلِكَ بِعَدَدِ الْأَدْوَارِ الْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ فَيَخْرِجُ آخِرَهَا حُرُوفَ
مُتَقَطِّعَةً وَتَوَلَّفَ عَلَى التَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى وَزْنِ الْبَيْتِ
الَّذِي يُقَابَلُ بِهِ الْعَمَلُ وَرَوِيهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ ابْنِ وَهَيْبِ الْمُتَقَدِّمِ حَسْبَمَا نَذَكُرُ
ذَلِكَ كُلَّهُ فِي فَضْلِ الْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الزَّايِرِجَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ
الْحَوَاصِ يَتَهَفَّتُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ
مِنْ مُطَابَقَةِ الْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ فِي تَوَافُقِ الْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يُدْرَكَ بِأَمْرِ صِنَاعِيِّ الْبَتَّةِ وَإِنَّمَا الْمُطَابَقَةُ
الَّتِي فِيهَا بَيِّنُ الْجَوَابِ وَالسُّؤَالِ مِنْ حَيْثُ الْإِنْفَاهَامُ وَالتَّوَافُقُ فِي الْخِطَابِ حَتَّى يَكُونَ
الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ
الْمُجْتَمِعَةِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالذُّخُولِ فِي الْجَدُولِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ
الْأَعْدَادِ الْمَفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجَدُولِ بِذَلِكَ وَطَرَحُ أُخْرَى وَمَعَاوِدَةُ
ذَلِكَ فِي الْأَدْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرُ
مُسْتَنَكِرٍ وَقَدْ يَقَعُ الْإِطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ
مَعْرِفَةُ الْمَجْهُولِ فَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ
الْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقُ لِحُصُولِهِ سَيِّمًا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تَفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى
الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى
يُنَسَّبُونَ هَذِهِ الزَّايِرِجَةَ فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلسُّنِّيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ
عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَلِعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ

وَالْمَعَانَاةُ^(١) الْعَجِيبَةُ وَالْجَوَابُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسُرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَنْظُرُ
لِي إِنَّمَا هُوَ الْمَقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَلِهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَنْدُلُ
عَلَيْهِ أَنَا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَشَقَطُوا فِيهَا الْمَقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ
يَخْرُجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّضْدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتَقُودُهُ إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيُنْكَرُ صِحَّتَهَا
وَيَعْسِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخْيِيلَاتِ وَالْإِيهَامَاتِ وَأَنْ صَاحِبَ الْعَمَلِ بِهَا يُثْبِتُ حُرُوفَ
الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظُمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْثَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ
الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونَ ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَيْتِ وَيُوهَمُ أَنَّ الْعَمَلَ جَاءَ عَلَى
طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهَذَا الْحُسْبَانُ تَوَهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ
بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ وَلَكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ
مُدْرِكٍ إِنْكَارٌ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَاحِبٍ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ
عِنْدَ مَنْ يَبَاشِرُ ذَلِكَ مِنْ لَهْ ذِكَاةٍ وَحَدْسٍ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي
هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ
بِمِثْلِ هَذَا مَعَ خِفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَعَرَائِيهَا فَلْنَذْكُرْ مَسْئَلَةً مِنَ الْمَعَايَاةِ يَتَضَحَّ لَكَ بِهَا
شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خَذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ
ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ ثُمَّ اجْمَعْ الْفُلُوسَ الَّتِي أَخَذْتَ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ
كُلَّهَا طَيْرًا بِسِعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ فَكَمْ الطَّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ
تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ
الْوَاحِدِ ثَمَانِيَّةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ الثَّمَنَ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخَرَ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ
فَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ طَيْرًا عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَّةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى
بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُودَةِ أَوْلَى وَعَلَى سِعْرِهِ اشْتَرَيْتَ بِالدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ فَأَنْتَ تَرَى

(١) كذا في جميع النسخ . . . ولعلها محرفة عن (المعايَاة) وهو الالتيان بكلام لا يهتدى كله هكذا يقتضي

كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي يَبَيِّنُ أَعْدَادَ الْمَسْئَلَةِ وَالْوَهْمَ أَوَّلَ مَا يُلْقِي إِلَيْكَ هَذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَأَقِعَاتِ الْخَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوْ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تَعْلَمْ أَسْبَابَ وَقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتَ لَهَا خَبْرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهِيَ غَيْبٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَالْأَعْمَالُ الْوَأَقِعَةُ فِي الزَّائِرَةِ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ الْفَاطِظِ السُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِنْبَاطَ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ وَالْجَوَابِ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ الْفَاطِظِ وَتَرَكَيبِهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمَطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مَخْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ يَعْلَمُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في

ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

إِغْلَمُ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نِجَلَتِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَخْصِيلِهِ وَالْإِتْدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَنَشِيطٌ قَبْلَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِي فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفُلْحَ مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنْتَحِلُ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْقَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّخْلِ وَالذُّودِ لِنَتَاجِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِ فَضْلَاتِهَا وَهَؤُلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفُلُحِ وَالْحَيَوَانِ تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ
إِلَى الْبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَسَّعٌ لِمَا لَا يَتَسَّعُ لَهُ الْحَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْمُدُنِ ^(١) وَالْمَسَارِحِ
لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَؤُلَاءِ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ وَكَانَ حِينِيذُ
اجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعَمْرَانِهِمْ مِنَ الْقَوْتِ وَالْكَيْنِ وَالذَّفَاءِ إِنَّمَا
هُوَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ وَيَحْصُلُ بُلْغَةَ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْمَعْجَزِ
عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ثُمَّ إِذَا اسْتَمَعْتَ أَحْوَالَ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَحِّلِينَ لِلْمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ

الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى وَالرَّفَةِ دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السُّكُونِ وَالذَّعَةِ وَتَعَاوَنُوا فِي الزَّرَائِدِ عَلَى
الضَّرُورَةِ وَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّائِقِ فِيهَا وَتَوَسَّعَ الْبُيُوتِ وَاخْتِطَاطِ
الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِلتَّحْضُرِ ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالَ الرَّفَةِ وَالذَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ
مَبَالِغَهَا فِي التَّائِقِ فِي عِلَاجِ الْقَوْتِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطْبَإِخِ وَانْتِقَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ فِي
أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَالذَّبْيَاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُوحِ وَاحْكَامِ وَضْعِهَا
فِي تَنْجِيدِهَا ^(٢) وَالْإِنْتِهَاءِ فِي الصَّنَائِعِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا
فَيَتَّخِذُونَ الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَيَجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاءَ وَيَعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فِي
تَنْجِيدِهَا وَيَخْتَلِفُونَ فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فَرَّاشٍ أَوْ آتِيَةٍ أَوْ
مَاعُونٍ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْبُلْدَانِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ
يَنْتَحِلُ فِي مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّجَارَةَ وَتَكُونُ مَكَاسِيهِمْ أَنْصَى وَأَرْفَهُ
مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشِهِمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ
تَبَيَّنَ أَنَّ أَحْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا .

(١) الفدان : ج فدان ، مزرعة (منجد)

(٢) ترتيبيها وترتيبها .

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمْ الْمُنْتَجِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ
الْفُلُحِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ
وَالْمَسَاكِينِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ
يَتَّخِذُونَ الْبَيْوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنْجِدَةٍ إِنَّمَا
هُوَ قَضْدُ الْأَسْتِظْلَالِ وَالْكَيْنَ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ^(١) وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ
فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا يِعْلَاجُ أَوْ يَغْيِرُ عِلَاجَ الْبَيْتَةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ
مِنْهُمْ فِي الزَّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفُلُحِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الطَّغْنِ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ
وَالْقَرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرْبَرِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ
وَالْقَفْرِ فَهُمْ طَغْنٌ فِي الْأَغْلِبِ لِازْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَحَ بِهِمْ وَيُسَمُّونَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُبْعَدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِإِفْقَادِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرْبَرِ وَالشُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكَمَانِ
وَالصَّقَالِيَّةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ طَغْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ
مَسَارِحَ التَّلْوْلِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَعْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي
الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ وَوُجُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ^(٢) وَالتَّقَلُّبُ فَضْلُ الشِّتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فَرَارًا مِنْ أَدَى
الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلْبًا لِمَا خَصَّ النَّجَاحِ فِي رَمَالِهِ إِذَا الْإِبِلُ أَصْعَبَ الْحَيَوَانَ فِصَالًا

(١) الغور، ما انحدر واطمأن من الأرض وجمعها مغاور ومغارات. وهذا مقتضى السياق. وقد استعمل

ابن خلدون الغيران بهذا المعنى. والأصح مغاور أو مغارات.

(٢) يقال: أملح الماء، صار «ملحاً» بعد أن كان عذبا (قاموس).

وَمَخَاضاً وَأَخْوَجَهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّفءِ فَاضْطَرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْمَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمْ
 الْحَامِيَّةُ عَنِ التَّلْوِيلِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي الْفَقَارِ نَفْرَةً عَنِ الضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ
 النَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ
 وَالْمَفْتَرَسِ مِنَ الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ طُغُونُ الْبَرْبَرِ وَرِزَانَةُ
 بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّرْكُمَانَ وَالتُّرْكُ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْمَةً وَأَشَدُّ
 بَدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُونَ بِالْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ فَقَطُّ وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشِّيَاهِ
 وَالتَّبَرِّ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْعُمُرَانِ وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وان البداية أصل العمران
 والأمصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدُوَ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَمَّا
 فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرْفِ وَالْكَفَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ
 أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِيِّ وَالْكَفَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَضَلَّ
 وَالْكَفَالِيَّ فَرَحَ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدُوُّ أَضَلُّ لِلْمَدُنِّ وَالْحَضَرَ . وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ
 مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَفَالِ وَالتَّرْفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيَّ
 حَاصِلاً فَخُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ قَبْلَ رِفْعَةِ الْحَضَارَةِ وَلِهَذَا نَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي
 إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرِحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاشِ الَّذِي يَخْصُلُ لَهُ بِهِ
 أَحْوَالُ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدَّعَةِ وَأَمَكَّنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ
 الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَالْحَضَرِيِّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَدَايَةِ إِلَّا لِضُرُورَةِ تَدْعُوهُ
 إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرِهِ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدُوَّ أَضَلُّ لِلْحَضَرَ

وَمَتَّقَدَمَ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوْلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ
الَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى
أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَمَّهْمَةٌ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ مُتَّفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ قَرُبُ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ
أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ
وُجُودَ الْبَدْوِ مُتَّقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُدُنِ
وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة

وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ
عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ ﷺ « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ
فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيهِ أَوْ يَمَجْسَانِيهِ » وَيَقْدَرُ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخَلْقَيْنِ
تَبَعْدُ عَنِ الْآخَرِ وَيَضَعُبُ عَلَيْهَا كِتْسَابُهُ فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ
الْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَعِبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ إِذَا
سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يَفْعَلُونَ مِنْ فَنُونِ الْمَلَادِ وَعَوَائِدِ
التَّرَفِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوْنَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ
مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ وَالشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ
لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجَدُّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ
يَقْدَعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفُحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كِبَرَائِهِمْ وَأَهْلٍ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ
عَنْهُ وَازِعُ الْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذْتَهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوءِ فِي التَّظَاهِرِ بِالْفُؤَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا
وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِي

الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم
 على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل
 الحضرة أقل بكثير فمهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء
 الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو
 ظاهر وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد
 ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل
 الحضرة والله يحب المتقين ولا يفترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من
 قول الحجاج لسلمة بن الأكوخ وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له
 ارتدذت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو
 فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع
 النبي ﷺ حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويخرسونه
 ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية لأن أهل مكة يمسهم من عصبية
 النبي ﷺ في المظاهرة والحراسة مالا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد
 كان المهاجرون يستعينون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب
 الهجرة وقال ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة « اللهم
 أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » ومعناه أن يوقفهم لملازمة
 المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب
 الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه وقيل أن ذلك كان خاصاً بما
 قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلية المسلمين وأما بعد الفتح
 وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنيته بالعضمة من الناس فإن الهجرة
 ساقطة حينئذ لقوله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح » وقيل سقط إنشاؤها ممن
 يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها ممن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون
 على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الأفاق وانتشروا ولم

يَبْقَى إِلَّا فَضْلَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجْرَةٌ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسَلْمَةَ حِينَ سَكَنَ
 الْبَادِيَةَ ارْتَدَدَتْ عَلَى عَقْبَيْكَ تَعَرَّبْتُ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ بِالْإِشَارَةِ
 إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ الَّذِي قَدَّمْنَا وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَرَّبْتُ إِشَارَةٌ
 إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلْمَةَ بِإِنْكَارِ مَا الزَّعْمَةُ مِنَ
 الْأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ
 خَزِيمَةَ^(١) وَعِنَاقِ أَبِي بُرَيْدَةَ^(٢) أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ السُّكْنَى
 بِالْمَدِينَةِ فَقَطَّ لِعَلِمِهِ بِسُقُوطِ الْهُجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلْمَةُ بِأَنَّ اغْتِنَامَهُ لِأَذْنِ
 النَّبِيِّ ﷺ أَوْلَى وَأَفْضَلُ فَمَا أَثَرَهُ بِهِ وَاخْتِصُّهُ إِلَّا لِمَعْنَى عَلَيْهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ
 فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمُومَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَمَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهُجْرَةِ إِنَّمَا
 كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِرَاسَتِهِ لَا لِمَذْمُومَةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ
 عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمُومَةِ التَّعَرُّبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضار

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْفُوا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالذُّعَاةِ
 وَانْفَعَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ
 وَالحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي
 تَحُوطُهُمْ وَالحِرْزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةٌ^(٣) وَلَا يَنْفَرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ
 غَارُونَ^(٤) أَمْنُونَ ، قَدْ أَلْفُوا السَّلَاحَ وَتَوَالَّتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنزِلَةَ

(١) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من أصحاب رسول الله ﷺ وقد جعل شهادته بشهادة رجلين .
 (٢) العناق ، أم الأنثى من ولد للفر قبل استكمالها السنة . وقد أجاز النبي ﷺ لأبي بردة ابن نيار
 خاصة أن يضحي بها . قصد ابن خلدون فهو استثناه الخصوصيات من عموم الأحكام . لما ورد بشأنها في
 أحاديث الرسول ﷺ
 (٣) هيمة ، الصوت المرعب والمخيف .
 (٤) غارون ، مطمئنون .

النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مشواهم حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبُعدهم عن الحامية وانتبادهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمداغمة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يعملون السلاح ويتلفثون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غزراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات^(١) والهنيمات ويتفردون في القفر والبيداء مذلين بيأسهم وإثمين بأنفسهم قد صار لهم الناس خلقاً والشجاعة سجية يجمعون إليها متى دعاهم داع أو اشتتفرهم صارخ وأهل الحضرم منها خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه وأضله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً ومملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الأدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء .



(١) يتوجسون ، يتسمعون . النبات ، الأصوات الخفية .

الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة

منهم

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكٌ أَمْرَ نَفْسِهِ إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَمْرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ
النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنْ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكَهٍ غَيْرِهِ ، وَلَا
يُبْدُ فَإِنْ كَانَتْ الْمَلَكَهَ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يُعَانِي مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدَّ كَانَ النَّاسُ
مِنْ تَحْتِ يَدَيْهَا مُدْلِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَالثَّقِينِ بِعَدَمِ الْوَارِعِ حَتَّى
صَارَ لَهُمُ الْإِذْلَالُ حِجْلَةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْمَلَكَهَ وَأَحْكَامَهَا بِالْقَهْرِ
وَالسُّطُورَةِ وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسُرُ حِينَئِذٍ مِنْ سُورَةِ بَأْسِهِمْ وَتَذْهَبُ الْمَنْعَةُ عَنْهُمْ لَمَّا يَكُونُ
مِنَ التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَهَبَةِ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
عَنْ مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةَ بِنْتُ حُوْبَةَ سَلَبَ الْجَالِنُوسَ وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ
أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ وَكَانَ اتَّبَعَ الْجَالِنُوسَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلْبَهُ فَأَنْتَزَعَهُ مِنْهُ
سَعْدٌ وَقَالَ لَهُ هَلَّا أَنْتَظَرْتُ فِي اتِّبَاعِهِ إِذْنِي وَكُتِبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ
تَعَمَّدَ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ ^(١) وَبَقِيَ عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَزْرِيكَ
وَتَكْسِرُ فَوْقَهُ ^(٢) وَتَفْسِدُ قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَلْبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ
فَمُذْهِبَةٌ لِلْبَاسِ بِالْكَلْبِيَّةِ لِأَنَّ وَقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْ نَفْسِهِ يُكْسِبُهُ الْمَذَلَّةَ
الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سُورَةِ بَأْسِهِ بِلا شَكِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً
وَأَخَذَتْ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا أُثِرَتْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ لِمَرْبَاهُ عَلَى الْمَخَافَةِ وَالْإِنْقِيَادِ

(١) بمعنى فاسى شدائد الحرب .

(٢) تشبط همته .

فَلَا يَكُونُ مُدَلًّا بِبَأْسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ ^(١) أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْسًا
مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْأَحْكَامَ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ لَدُنْ مَرَبَاهِمُ
فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعْلُومِ وَالذِّيَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا
وَلَا يَكَادُونَ يَنْدَفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ
الْمُنْتَجِلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخِذِ عَنِ الْمَشَايخِ وَالْأَيْمَةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي
مَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالنَّبِيَّةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَخْوَالُ وَذَهَابُهَا بِالْمِنْعَةِ وَالبَأْسِ . وَلَا تَسْتَنْكِرُ
ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ
بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ
عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِعَهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمَّا تَلَّى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَلَمْ
يَكُنْ يَتَّعِلِمُ صِنَاعِيًّا وَلَا تَأْدِيبَ تَعْلِيمِيًّا إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَأَدَابُ الْمُتَلَقَّاتِ نَقْلًا
يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سُورَةُ
بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تُخْدِشْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالحَكْمِ قَالَ عَمْرُ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ الشَّرْعَ لَا أَدَّبَهُ اللَّهُ » حِرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِعَ لِكُلِّ أَحَدٍ
مِنْ نَفْسِهِ وَبِقِينَا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ
وَأَخَذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَارِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ
وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ تَقَصَّتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَأْسِ
فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ لِأَنَّ الْوَارِعَ فِيهَا
ذَاتِيٌّ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مِمَّا تَوَثَّرُ فِي أَهْلِ الْخَوَاصِرِ فِي
ضَعْفِ نَفْسِهِمْ وَخَضِ ^(٢) الشُّوْكَةَ مِنْهُمْ بِمَعَانِيَّتِهِمْ فِي وِلْدَانِهِمْ وَكِبُولِهِمْ وَالبَدْوِ بِمَغْزَلِ
مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالأَدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ
أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالتَّمَعِّلِينَ « أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدَّبِ أَنْ
يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ » نَقَلَهُ عَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي

(١) المتوحشين من العرب : بمعنى البدو أو سكان البادية .

(٢) انكسار الشوكة .

وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدءِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْفَطْرِ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنَ الْفَطْرِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ .

الفصل السابع

في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » وَقَالَ « فَالْتَمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخَلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمِلَ فِي مَرَعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدُئِهِ الْإِقْتِدَاءُ بِالذِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَخْلَقَ الْبَشَرَ فِيهِمُ الظُّلْمَ وَالْعُدْوَانَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدْ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَضُدَّهُ وَارَعَ كَمَا قَالَ :

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّدَ دَا عَفَا فَعِلْمَةٌ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمَدَنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَامُ وَالذُّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالِمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيُدْفَعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْعُقْلَةِ أَوْ الْعِرَّةِ لَيْلًا أَوْ الْمَعْجَزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ اِزْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الذُّوْلَةِ عِنْدَ الْإِسْتِعْدَادِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَنْزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَفَّرَ فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجَلِّيَةِ وَأَمَّا جَلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَبْذُرُ عَنْهَا مَنْ خَارِجَ حَامِيَةِ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفَتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَضُدُّ دِفَاعَهُمْ وَذِيَادَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا غَضَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبَهُمْ إِذْ نَعْرَةٌ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ

عِبَادِهِ مِنَ الشُّفْقَةِ وَالنُّعْرَةِ^(١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي الطَّبَائِعِ
 الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاوُذُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمَ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا
 حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يَسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِنْ أَكَلْنَا الذَّنْبَ وَنَحْنُ
 عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوَّانَ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ
 وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أُنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ
 الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْبَغِي النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ خَيْفَةً وَاسْتِيحَاشًا
 مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ
 يَلْتَهُمْ مِنْ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ
 فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلِكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ
 بُلُوعُ الْعَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتَمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَّبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِعْصَاءِ
 وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعُصْبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا أَيْضًا فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ
 عَلَيْكَ بَعْدَ وَاللهِ الْمَوْفُوقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَمِنْ صِلَتِهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ
 غَضَاضَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ وَيَبُودُ لَوْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ
 الْمَعَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ النِّسْبُ الْمُتَوَاصِلُ
 بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جَدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِلْتِحَامُ كَانَتْ الْوُضُلَةُ
 ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمَجْرَدِهَا وَوُضُوحَهَا وَإِذَا بَعُدَ النِّسْبُ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرِيبًا

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والنعير، الصراخ والصياح في حرب أو شر (قاموس) والمعنى هنا التعصب

لذوي الأرحام ونجدتهم.

تَنُوسِي بَعْضَهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شَهْرَةٌ فَتَحْمِلُ عَلَى النُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَاراً مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحِلْفُ إِذْ نَعْرَةٌ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَوَلَايِهِ وَحَلْفِهِ لِلْأَلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ اهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيْبِهَا أَوْ نَسَبِيَّهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لَحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيْباً مِنْهَا وَمِنْ هَذَا تَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «اتَّعَلَمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ» اِبْتِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَفْتَى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوُضْعَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِراً وَاضِحاً حَمَلَ النَّفْسُ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَا وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفٌ فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَانِناً وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ الْمُنْهَبِيِّ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجِهَالَةٌ لَا تُضِرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَأَنْتَفَتِ النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَضِيَّةَ فَلَا مَنَفَعَةَ فِيهِ جِئِنْبِذِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنسا يوجد للمتوحشين في القفر من

العرب ومن في معانهم

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنْ نَكْدِ الْعَيْشِ وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا الصُّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشَهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ وَتِنَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرِعَايَتِهَا مِنْ شَجَرَةٍ

(١) الاصول أن يقول مجاناً أو مجونا.

وَتَنَاجِيَهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشُّطْفِ وَالسَّغْبِ (١) فَصَارَ لَهُمُ الْفَأُ وَعَادَةٌ
وَرَبِيتٌ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِلَّةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ
يَسَاهِمَهُمْ فِي خَالِهِمْ وَلَا يَأْتِسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ
إِلَى الْفِرَارِ مِنْ خَالِهِ وَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُ فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ
أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ
وَكَيْنَانَةَ وَتَيْفِيفَ وَبَنِي أَسَدٍ وَهَذَيْلَ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُرَاعَةَ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطْفِ
وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ
وَالْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةٌ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرْفٌ فِيهَا
شُوبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالتَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْيَحْضِبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ
حَمِيرٍ وَكَهْلَانَ مِثْلَ لُحْمٍ وَجَدَامَ وَعَسَّانَ وَطَبِيٍّ وَقَضَاعَةَ وَإِنَادَ فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ
وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَبَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ بِيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ
وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجْمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى
النَّسَبِ فِي بِيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ (٢) فَقَطْ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى
عَنْهُ « تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبِطِ السُّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ
قَرِيَّةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا لِحَقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ أَهْلَ الْأَرْيَافِ مِنَ الْإِزْدَحَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى
الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيْبَةِ فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ
فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ قَنْسَرِينَ جُنْدٌ دِمَشْقَ جُنْدٌ الْعَوَاصِمِ
وَأَنْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرُ النَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ
لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عَرَفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى
النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْحَوَاضِرِ مَعَ الْعَجْمِ وَغَيْرِهِمْ

(١) السغب، الجوع مع التغب.

(٢) بمعنى أن المحافظة على النسب محصورة في العرب سكان البداية والأرياف أو كما يعنى بهم ابن

خلدون (العرب التوحشون).

وَقَسَدَتِ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَقَفَدَتْ ثَمَرَتَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ فَاطْرَحَتْ ثُمَّ تَلَاثَتِ الْقَبَائِلُ
وَدَثِرَتْ فَدَثِرَتْ الْعَصِيَّةُ بِدَثُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنْ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ تَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ
بِقَرَابَةِ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجُنَايَةِ أَصَابِهَا فَيُدْعَى بِنَسَبِ
هَؤُلَاءِ وَيُقَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْقَوْدِ^(١) وَحَمَلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا
وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا
جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ
بِطَوْلِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ
مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْمَجْمُوعِ .
وَانظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ
بَيْحِلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْتَمَةَ لَمَّا وُلِّدَ عَمْرٌ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِغْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا
لَزِيْقَ أَيُّ دَخِيْلٍ وَلَصِيْقٍ وَطَلَبُوا أَنْ يُؤَلَّى عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عَمْرٌ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ
عَرْفَجَةَ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلِحَقَّتْ
بِهِمْ وَانظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَيْحِلَةَ وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايُ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى
تَرْتَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَامْتَدَّ الزَّمَنُ
لَتَنَوَسَى بِالْجُمْلَةِ وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَنْهَبٍ فَافْهَمَهُ وَاعْتَبِرْ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ
وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَاللَّهُ الْمُؤْتَمِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ
وَكَرَمِهِ .

(١) القود : القصاص في القتل .

الفصل الحادي عشر (١)

في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

إعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام فبيهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقرين أو الأبعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصاب في النسب العام والنقرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالقلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصاب ليتفقد القلب بها ويتم الرئاسة لأهلها فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل القلب عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصاب الأخرى النازلة عن عصابتهم في القلب لما تمت لهم الرئاسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعها لما قلناه من سر القلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط القلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية وإبائه أولى ليطابق كلام أول

الفصل ١١٢ هـ قاله نصر الهوريني.

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك ان الرئاسة لا تكون إلا بالقلب والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصباتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بقلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لريق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلباً عليهم البتة وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عبده الأول من الإلتصاق وليس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرئاسة قبل هذا الإلتحام أو لأحد من سلفه والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبث واحد تعين له الغلب بالعصبية فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرفت فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الإلتصاق من الرئاسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الإلتصاق والرئاسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلتهجون بها إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رئاستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد

مِنْهُمْ لِحَقِّ جَدِّهِمْ بِنَبِيِّ عَامِرِ نَجَاراً يَضَعُ الْحِرْجَانَ^(١) وَأَخْتَلَطَ بِهِمْ وَالتَّحَمَ بِنَسَبِهِمْ
حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَارِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ الْقَوِيِّ بْنِ
الْعَبَّاسِ بْنِ تَوْجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رُغْبَةً فِي هَذَا النَّسَبِ
الشَّرِيفِ وَغُلَطاً بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةِ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولَ أَحَدٍ مِنْ
الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ ذَوَلَّتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعُلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنْ
الْأَدَارِسَةِ وَالْمَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعُلَوِيِّينَ ؟
وَكَذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَانَ مُلُوكِ تَلْمَسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ
الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ دَهَاباً إِلَى مَا اشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ
بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِيَّيْنِ أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيُّ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ
إِدْرِيسٍ أَوْ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحاً فَغَايَةُ الْقَاسِمِ هَذَا
أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيراً بِهِمْ فَكَيْفَ تَبِمَ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ
وَإِنَّمَا هُوَ غُلَطٌ مِنْ قَبْلِ اسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ
مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذَلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةَ إِنَّمَا كَانَ
بِعَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِادِّعَاءِ عُلُوِّيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ
عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهَرُ حَتَّى يَتَّعَدَّ عَنِ الرَّدِّ
وَلَقَدْ بَلَّغْنِي عَنْ يَغْمَرَسَانَ بْنِ زِيَانَ مُؤْتَلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ
بِلُغَتِهِ الزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَمَا الدُّنْيَا وَالْمَلِكُ فَبَلَّغْنَا هُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَا
نَفْعُهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا
الْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدِ شَيْخِ بَنِي يَزِيدَ مِنْ رُغْبَةٍ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شَيْخِ بَنِي يَدْلَشَانَ مِنْ تَوْجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمِ
وَالزُّوَادَةَ شَيْخِ رِيَّاحِ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ الْبُرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مَهْنَا أَمْرَاءَ طَبِيسَ
بِالْمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ
مَانِعَةٌ مِنَ ادِّعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَا بَلْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج يفتحان نعش الموتى . هـ .

النَّسَبِ وَأَقْوَى عَضِيَّتِهِ فَاعْتَبَرَهُ وَاجْتَنَبَ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هَذَا الْبَابِ
إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ الْمُوَحِدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ الرَّئَاسَةِ فِي
هَرِثْمَةَ قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا رَأْسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالذِّينِ وَدُخُولِ قِبَائِلِ
الْمَضَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهِ عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل العصبية
ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ وَمَعْنَى التَّيْتِ أَنْ يَعُدَّ الرَّجُلُ فِي
آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكَورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَاءٌ وَالْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةٌ فِي أَهْلِ
جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ تَجَلَّةِ سَلْفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَالنَّاسُ فِي نَشَاتِهِمْ
وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ ﷺ « النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي
الإِسْلَامِ إِذَا فَهَّمُوا » فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ
وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصْبِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَالتَّنَاصُرُ فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصْبِيَّةُ مَرهُونَةً وَالْمَنْسَبُ
فِيهَا زَكِيٌّ مَخْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنْ
الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَضْلَيْينِ فِي أَهْلِ الْعَصْبِيَّةِ لَوْجُودِ ثَمَرَةِ
النَّسَبِ وَتَفَاوُتِ الْبُيُوتِ فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصْبِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ
لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَرُخِرْفَ مِنَ الدُّعَاوَى
وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يُعَدُّ سَلْفًا فِي
خِلَالِ الْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ وَهَذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ
الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدُ الْآبَاءِ لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ

بِالْمَجَازِ لِعِلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ الْمُتَعَايِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسْبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ
الْمَعْنَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمُشْكِكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ
شَرْفٌ أَوَّلٌ بِالْعَصْبِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ
وَيَخْتَلِطُونَ بِالْعَمَارِ وَيَتَّقَى فِي نَفُوسِهِمْ وَسَوَاسِ ذَلِكَ الْحَسَبِ يُعَدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ
أَشْرَافِ الْبَيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ الْعَصْبِيَّةِ جَمَلَةٌ وَكَثِيرٌ
مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بَيُوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مَوْسُوسُونَ بِذَلِكَ
وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَكْثَرِ بَيُوتِ
الْعَالَمِ بِالْمَنْبِتِ أَوْلَا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلْفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِالْعَصْبِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا أَنَاهُمْ اللَّهُ بِهَا مِنْ
الْمَلِكِ الَّذِي وَعَدَّهُمْ بِهِ ثُمَّ أَنْسَلَخُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعٍ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكَنَةُ
وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَانْفَرَدُوا بِالِاسْتِعْبَادِ لِلْكَفْرِ الْأَفَا مِنْ السُّنِينِ وَمَا زَالَ
هَذَا الْوَسْوَاسُ مُضَاجِبًا لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا مِنْ نَسْلِ يُوْشَعَ هَذَا مِنْ
عَقِبِ كَالِبِ هَذَا مِنْ سِنِطِ يَهُودًا مَعَ ذَهَابِ الْعَصْبِيَّةِ وَرُسُوحِ الذَّلِّ فِيهِمْ مُنْذُ أَحْقَابِ
مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُتَقَطِّعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ الْعَصْبِيَّةِ
يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَنْدِيَانِ . وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشَيْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْحَسَبَ فِي
كِتَابِ الْخِطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ ^(١) وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ
قَدِيمٍ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قَدَمُ
نَزْلِهِمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يُرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِيلُ غَيْرِهِمْ عَلَى الْقَبُولِ
مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ فَقَطُّ مَعَ أَنَّ الْخِطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ
مَنْ تَوَثَّرَ اسْتِمَالَتُهُ وَهَمَّ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَيْتَةَ فَلَا يَلْتَفَتُ إِلَيْهِ
وَلَا يَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْحَضَرِ بِهَذِهِ الْمَشَابِيهِ
إِلَّا أَنْ ابْنَ رُشَيْدٍ رَبَّنَا فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يُمَارِسُوا الْعَصْبِيَّةَ وَلَا أَنْسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي

(١) المعلم الأول هو أرسطو . أما المعلم الثاني فهو الفارابي .

أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم يُراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم.

الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم
لا بأنسابهم

وذلك أنا قدّمنا أن الشرف بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اضطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو اشترقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالى والمضطنعون بنسبهم في تلك العصبية وليسوا جلدتها كأنها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رقاً أو مولى اصطناع وحلف^(١) وليس نسب ولادته ينافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سريها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبه في ولايتهم واصطناعهم لا يتجاوزة إلى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم فإنهم إنما يشرفون بالرُسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى إلى موالى الأتراك في دولة بني العباس وإلى بني برمك من قبلهم وبني توبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المعجد والأصالة بالرُسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالى كل

(١) مولى الرق هو العبد يعتقه سيده فيصبح ولاؤه له. ثم يرثه إذا مات ولم يترك غصبة. ومولى

الحلف، الرجل الحر الأصل يتخذ له مولى بعقد صريح. فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه.

دَوْلَةٌ وَخَدَمَهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَايَتِهَا وَالْأَصَالَةَ فِي
 اضْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحَلُّ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْفَى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي
 أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نَسَبُهُ وَوَالِيهِ وَاضْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا
 الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرْفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعَهُ
 نَسَبُ وِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ الْإِضْطِنَاعِ فِيهَا
 وَالتَّرْبِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ
 وَاضْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأُولَى لِدَهَابِ عَصِيَّتِهَا وَانْتَفَعُ بِالثَّانِيَةِ لَوْجُودِهَا وَهَذَا
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفَرَسِ مِنْ سَدَنَةِ بَيْتِ النَّارِ
 عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وِلَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرْفُهُمْ
 مِنْ حَيْثُ وَلَا يَسْتَمُّ فِي الدَّوْلَةِ وَاضْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا فَوَهُمْ تَوَسَّسُوا بِهِ النَّفْسُ
 الْجَامِحَةُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا « وَإِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ »
 وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

إِعْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُعْضَرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ
 وَالْمَكُونَاتُ مِنَ الصُّغُرِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ
 بِالْمَعَانِيَةِ وَكَذَلِكَ مَا يَعْزُضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ
 تُدْرَسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَعْزُضُ لِلْأَدْمِيِّينَ فَهِيَ
 كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ
 لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاظَةً عَلَى السَّرْفِ فِيهِ
 وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئِاسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضُّعْفِ

وَالْإِتِّدَالِ وَعَدَمِ الْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنْ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنٌ كُلُّ
 مُحَدَّثٍ ثُمَّ إِنَّ نَهَائَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آيَةٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بَنَائِهِ
 وَمَحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ
 فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ عَنْ
 الْمَعْنَى لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الثَّلَاثُ كَانَ حِطُّهُ الْإِقْتِنَاءَ وَالتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَرَ عَنِ الثَّانِي
 تَقْصِيرَ الْمُقَلِّدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ
 الْخِلَالَ الْخَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَاحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمُ أَنْ ذَلِكَ الْبُنْيَانُ لَمْ يَكُنْ بِمَعَانَاةٍ وَلَا
 تَكْلُفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجِبَ لِيَهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النِّشْأَةِ بِمَجْرَدِ اتِّسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِضَايَةٍ وَلَا
 بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ التَّجَلُّةِ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حَدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا
 وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطُ فَيَرْتَابُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَثُوقًا
 بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنْ اسْتِثْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الْإِسْتِثْبَاعَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا
 التَّوَاضُّعُ لَهُمْ وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْغَضُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ
 وَيَدْبُلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْسَبِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ
 لِلْإِدْغَانِ لِعِصِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَا بَعْدَ الثُّبُوقِ بِمَا يَرْضُونَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هَذَا
 وَتَدْبُو فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي الْمُلُوكِ وَهَكَذَا فِي بِيُوتِ الْقَبَائِلِ
 وَالْأَمْزَاءِ وَأَهْلِ الْعِصِيَّةِ أَجْمَعِ ثُمَّ فِي بِيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذَا انْحَطَّتْ بِيُوتُ نَشَأَتْ
 بِيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى
 اللَّهِ بِعَزِيزٍ » (١) وَاشْتِرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ وَالْأَقْدَى يَدْتَرُّ النَّبْتُ
 مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ
 فِي انْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ وَاعْتِبَارُ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قَبْلِ الْأَجْيَالِ الْأَرْبَعَةِ بَارٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمَقَلَّدٌ
 وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقْلٌ مَا يُمْكِنُ وَقَدْ اعْتَشِرَتْ الْأَرْبَعَةُ فِي نَهَايَةِ الْحَسَبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ
 وَالثَّنَاءِ قَالَ ﷺ « إِنَّمَا الْكُرَيْمُ ابْنُ الْكُرَيْمِ ابْنُ الْكُرَيْمِ ابْنُ الْكُرَيْمِ يُوسُفُ بْنُ

(١) سورة فاطر الآية ١٦ و ١٧

يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ « إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ طَائِقٌ ^(١) غَيْرُ مُطَالِبٍ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرُّوَابِعِ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابِ غَايَةٌ فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْفَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةً رُؤْسَاءُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ فَالْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفِزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسِ وَآلِ ذِي الْجَدْنِ بَيْتُ شَيْبَانَ وَآلِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كُنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْمَنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَاتِيهِ مِنَ النُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَتَنَزَّهُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيْتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الدُّبْيَانِ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ الْيَمَنِيِّ وَهَذَا كُلُّهُ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْآبَاءِ نَهَايَةٌ فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إِغْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّلَاثَةِ ^(٢) لَا جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخِرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ

(١) طائق ، قادر

(٢) ورد هذا العنوان في المقدمة الخامسة .

بِاخْتِلَافِ الْأَعْضَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا الْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا ^(١) النَّعِيمَ وَالْفُؤَادِ عَوَائِدِ الْخِصْبِ فِي
 الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ ، نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ
 وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ بِدَوَاجِنِ الطُّبَاءِ وَالْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْحُمُرِ إِذَا زَالَ
 تَوْحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ الْأَدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاضِ ^(٢)
 وَالشَّدَّةِ حَتَّى فِي مَشِيَّتِهَا وَحَسَنِ أَدِيمِهَا وَكَذَلِكَ الْأَدَمِيُّ الْمُتَوْحُّشُ إِذَا أُنْسَ وَأَلْفَ
 وَسَبِيهَ أَنْ تَكُونَ السُّجَايَا وَالطُّبَائِعَ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ الْغُلْبُ
 لِلْأَمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أُغْرِقَ فِي الْبِدَاوَةِ
 وَأَكْثَرَ تَوْحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التُّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَا فِي الْقُوَّةِ
 الْعَضِيَّةِ وَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضْرَمٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ حِمِيرٍ وَكَهْلَانِ السَّابِقِينَ إِلَى
 الْمُلْكِ وَالنَّعِيمِ وَمَعَ رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافِ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضْرَمٌ فِي
 بَدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ الْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ الْعَيْشِ وَغَضَارَةِ ^(٣) النَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتْ
 الْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي التُّغْلِبِ فَغَلِبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهَذَا خَالُ بَنِي
 طَيْءٍ وَبَنِي غَامِرِ بْنِ صَفْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي
 بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضْرَمٍ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ
 خَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى
 الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خَصِبًا دُونَ الْحَيِّ الْآخَرَ فَإِنَّ
 الْحَيَّ الْمُتَبَدِّيَّ ^(٤) يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَا فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي
 خَلْقِهِ .

(١) تفنقوا ، تنعموا .

(٢) الانتهاض ، القيام بالأمر .

(٣) الغضارة ، النعمة والخصب (قاموس) .

(٤) المتبدي ، المقيم في البادية .

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأننا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدمنا أن الادميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم ينزع بغضهم عن بغض فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم يتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة لأن الرئاسة إنما هي سُودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السُودد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركة لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه نبوتات مفترقة وعصبيات متعدّدة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبعمها وتلتجم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى والأوقع الإفتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع « ولولا دفع الله الناس بغضهم لبغض لبغضت الأرض »^(١) ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبيعتها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظراً ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكّم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة في هزمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبية استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبية انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المسخّذ وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كرامة ولتيني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك إما بالاستبذاد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبئناه وقفت في مقامها إلى أن يقضى الله بأمره .

الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بغض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخضب في نعمتهم وخضبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون^(١) فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبايه إنما همتهم النعيم والكسب وخضب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني

(١) شركته في البيع والميراث والأمر. أشركه . إذا صرت له شريكاً (قاموس) .

وَالْمَلَأْسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَالتَّائِقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيشِ وَالتَّرَفِ
 وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ وَتَضَعُفُ الْعَصِيَّةُ وَالبَسَالَةُ
 وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ البُسْطَةِ وَتَنَشَأُ بِنُوهُمُ وَأَغْفَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ
 التَّرَفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنَكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ
 فِي الْعَصِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي
 الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصِيَّةُ فَيَأْذَنُونَ بِالْإِنْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرِ
 تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَاقُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ
 وَالتَّرَقِّي فِي النِّعَمِ كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلِبُ وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ
 قَصُرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالِبَةِ وَالتَّهْمَتُهُمُ الْأَمَمُ سِوَاهُمْ فَقَدْ
 تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانتقياد إلى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالتَّنْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ
 وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا فَمَا رَتَمُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوْلَى أَنْ
 يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمُقَاوِمَةِ وَالتَّطَالِبَةِ وَاعتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مَلِكَهَا كَيْفَ
 عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا : « إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
 مِنْهَا » ^(١) أَيْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ
 مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا غَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ : « اذْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتِلَا » ^(٢) وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أَنْسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوِمَةِ

(١) سورة المائدة الآية ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية ٢٤

وَالْمُطَالِبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ (١) وَمَا يُؤَثِّرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْتِقَادِ وَمَا رَثَمُوا مِنَ الدَّلِّ لِلقَبْطِ أَخْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَضِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا قَرِيبَتَهُمْ بِحُكْمِ مِنَ اللَّهِ قَدْرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَفْغِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالِبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعْنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيِّبِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمُرَانَ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَضَى الْقُرْآنُ لِغَلْطَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ مَقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيُظْهِرُكَ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التَّيِّبِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدَّلِّ وَالْقَهْرِ وَالقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَضِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ التَّيِّبِ جِيلٌ آخَرَ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَضِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالِبَةِ وَالتَّمَلُّبِ وَيُظْهِرُكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشَأَةُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحَ دَلِيلٌ عَلَى شَأْنِ الْعَضِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمَقَاوِمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالِبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْفَضْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أُعْطُوا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفْسُ الْأَيُّبَةُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَتْهُ عَنِ الْقَتْلِ وَالتَّلْفِ وَأَنَّ عَضِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَضِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْتِقَادُ لِلدَّلِّ وَالْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي شَأْنِ الْحَرِثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ الْمِحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الدَّلُّ »

(١) جاء ختام هذه القصة في القرآن الكريم بقوله تعالى « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون

في الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين . (سورة المائدة) .

فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذَّلَّةِ ^(١) هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ الْمَغَارِمَ مِنْ خَلْقِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِثْقَةٍ مِنْ الدُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدُّهْرَ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّ زِنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحْشُ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَا اسْتَتَبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ ذُوْلَةٌ وَانظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ بَرَّازُ مَلِكِ الْبَابِ لِعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أُطْلِعَ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرُ بَرَّازُ أَمَانَةَ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعْرِي ^(٢) مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجَزَيْتَنَا إِلَيْكُمْ النُّصْرَ لَكُمْ وَالْقِيَامَ بِمَا تَحِبُّونَ وَلَا تَدُلُّونَا بِالْحِزْبِيَّةِ فَتَوْهُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَاعْتَبِرْ هَذَا فِيمَا قُلْنَا ه إِنَّهُ كَافٍ .

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لَمَّا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا ه وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقُوَى الْخَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبَ وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةٌ لَا لِلْخَيَوَانِ فَإِذَا خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تَنَاسَبُ السِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ إِذِ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَضَلُّ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصِيَّةُ وَالشَّيْرُ وَفَرْعٌ يَتَمَّمُ وَجُودَهُ وَيَكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ

(١) لأن المشتغلين بالزراعة كانوا يدفعون غالباً الخراج للدولة . وهناك حديث شائع على السنة العامة ، « إذا غضب الله على قوم أسكنهم القرى أو للزارع » وهو مثل قديم سببه أن الدولة العثمانية التي كانت تحكم على بلادنا كان جل اعتمادها على الضرائب الزراعية .

(٢) صعر : صعراً وجهه . مال إلى أحد الشقين (قاموس) .

مَتَمَّاتِهِ كَوْجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظَهُورِهِ عَزِيَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ
وَجُودَ الْعَصِيَّةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ
وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ يَا أَهْلَ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنَهَائَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ
وَأَيْضًا فَالسياسةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كِفَالَةٌ لِلْخَلْقِ وَخِلَافَةٌ لِلَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ
وَأَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ
الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَقُدْرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمَقْدَرُهُمَا إِذَا لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ
الْعَصِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْنَسَتْ مِنْهُ خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي
خَلْقِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةِ الْخَلْقِ وَوَجَدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةَ لِذَلِكَ . وَهَذَا
الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصْحُ مَبْنَى فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوَجُودِ الْمُلْكِ
لِمَنْ وَجَدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلْبِ عَلَى
كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأَمَمِ فَوَجَدْنَا هُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ
عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكُلِّ ^(١) وَكَسْبِ
الْمُعْتَمِدِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ
وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يُحَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ
فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ
وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْمَشَايخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي
إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَدُّلِ ^(٢) فِي أَحْوَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ لِلْحَقِّ
وَالْتَوَاضُعَ لِلْمَسْكِينِ وَاسْتِمَاعَ شَكْوَى الْمُسْتَعِيثِينَ وَالتَّذَرُّعَ بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ
وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَافِيَ عَنِ الْفُتْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لِيَدِيهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا
سَانَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَةَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مُنَاسِبٌ

(١) الكل، اليتيم، من لا يقدر على القيام بشؤون نفسه (قاموس)

(٢) التبذل، ترك التزين والتجهيز بالهيئة الحسنى على جهة التواضع (قاموس)

لِعَصَبِيَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدَى فِيهِمْ وَلَا وَجَدَ عَثَا مِنْهُمْ وَالْمُلْكُ أَنْسَبُ الْمَرَاتِبِ
وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأَذَّنَ لَهُمْ بِالْمُلْكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ وَبِالْعَكْسِ
مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَذْمُومَاتِ
وِانْتِحَالِ الرِّذَائِلِ وَسُلُوكِ طَرَفِهَا فَتَفْقَدَ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا تَزَالُ فِي
انْتِقَاصٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعْمًا عَلَيْهِمْ فِي
سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا »^(١)
وَاسْتَقْرَى ذَلِكَ وَتَتَبَعَهُ فِي الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ تَجَدُّ كَثِيرًا مِمَّا قَلْنَا وَرَسَمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاعْلَمْنَا أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَاقَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ أَلْوُ الْعَصَبِيَّةِ
وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُمْ بِالْمُلْكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ
وَأَصْنَافِ التُّجَّارِ وَالغُرَبَاءِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ
الْعَصَبِيَّاتِ وَالْمَشَائِرِ لَمَنْ يُنَاهِضُهُمْ فِي الشَّرَفِ وَيَجَادُ بِهِمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ
وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرَّغْبَةَ فِي الْجَاهِ أَوْ
الْمُخَافَةَ مِنْ قَوْمِ الْمُكْرَمِ أَوْ التَّمَنَّى بِمِثْلِهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ
تَتَّقَى وَلَا جَاهٌ يُرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَمَحَّضُ الْقَضْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ
لِلْمَجْدِ وَانْتِحَالِ الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ
أَقْبَالِهِ^(٢) وَأَمْثَالِهِ ضَرْوِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنَظَرَاتِهِ وَإِكْرَامَ الطَّارِئِينَ
مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ
وَالْعُلَمَاءُ لِلجَاهِ فِيهِمْ فِي إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالتُّجَّارِ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعْمَ الْمَنْفَعَةُ
بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالغُرَبَاءُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْإِنْصَافِ
وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ انْتِمَاؤَهُمْ لِّلسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ
الْمُلْكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأَذَّنَ بِوُجُودِهَا فِيهِمْ لَوْجُودِ عَلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ

(١) سورة الاسراء الآية ١٦

(٢) اقتال ج قتل بكسر القاف ، العدو - الصديق - القرن . النظر هنا تعني النظر (قاموس)

مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلَ الْمُلْكِ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَأَعْلَمْتَ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَارْتَقَبْ زَوَالَ الْمُلْكِ مِنْهُمْ « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ » وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفتوس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب^(١) ووزناتة^(٢) ومن في معناهم من الأكراد والتزكمان وأهل اللثام من صنهاجة وأيضا فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتاقون^(٣) منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أقيهم بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية وانظر ما يخكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا تقوى عليه أهله إلا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فقال : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »^(٣) واعتبر ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبايعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير

(١) يعني ابن خلدون العرب المتوحشون الذين ذكرهم في مواضع عدة .

(٢) يمتاشون منه .

(٣) سورة الصف الآية ٩

العرب من الأمم وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا إلى الملك طفروا من الإقليم الأول ومجالاتهم منه في جوار السودان إلى الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأمم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية « والله يُقدر الليل والنهار »^(١) وهو الواحد القهار لا شريك له .

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من

عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم فبتعين منهم المتأشرون للأمر الحاملون سرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجدد أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وعرفوا في بحر الترف والغضب واستغبنوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقى الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبغدهم عن الترف وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غضاءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واستقت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتقلب السياسي (شعر)

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الإنعكاس

(١) سورة الزمل الآية ٢٠

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيَّةُ الْآخِرِينَ مَوْفُورَةٌ وَسُورَةٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مَحْفُوظَةٌ
 وَشَارَتْهُمْ فِي الْغَلْبِ مَعْلُومَةٌ فَتَسْمَوُ أَمَالَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ
 الْغَالِيَةِ مِنْ جِنْسِ عَصِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمُنَارَعَةُ لِمَا عَرَفَ مِنْ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى
 الْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَفَقُّ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضاً مُنْتَبِداً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ
 فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ مُلِحْتاً فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرَ
 عَشَائِرِهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا « وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » ^(١) وَاعْتَبِرْ هَذَا
 بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ مَلِكُ عَادِ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ
 بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ
 التَّبَابِغَةُ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْأَذْوَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا
 الْفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكَيْنِيَّةِ مَلِكٌ مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ
 بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِالْإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ
 الرُّومِ وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكِنَانَةَ الْمُلُوكِ الْأُولَى مِنْهُمْ
 رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمَلْثَمِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مِنْ بَقِيَّ مِنْ شُعُوبِ زَنَاقَةَ وَهَكَذَا سُنَّةَ
 اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ
 وَالْمُلُوكِ يُخْلِقُهُ التَّرَفُ وَيَذْهَبُهُ كَمَا سَنَذَكُرُهُ ^(٢) بَعْدَ فَإِذَا انْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا
 يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصِيَّتِهِمْ الَّتِي عَرَفَ لَهَا التَّسْلِيمَ وَالْإِنْقِيَادَ
 وَأَوْنَسَ مِنْهَا الْغَلْبَ لِجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي النُّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ
 تَفَاوُتَ الْعَصِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النُّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ
 فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ
 فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْجَيْلِ إِلَى الْجَيْلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ
 كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمَمِ وَالِدَوْلِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ
 أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ اخْتِقَاباً .

(١) سورة الزخرف آخر الآية ٢٥ .

(٢) ذكر ابن خلدون هذا في الفصلين ١٦ و ١٨ وعلمه غير ترتيب الفصول فكان هذا الفصل سابقاً للفصلين المذكورين ثم أصبح لاحقاً . ولم ينتبه ابن خلدون إلى هذه الكلمة ليحذفها أو يبدلها .

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما
لنظره بالكمال بما وقر^(١) عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس
لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاد
فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله
أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلت من
العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى
المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل
وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً
وما ذلك إلا لإعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب
على أهله زئ الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا
كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاعتداء
خط كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالة فإنك تجدهم يتشبهون
بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في
الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه
من علامات الاستيلاء والأمر لله . وتأمل في هذا سر قولهم العائمة على دين الملك

(١) وقر، يؤقر وقارة وقاراً الرجل . كان زيناذا وقار (المنجد) .

فإنه من بآيه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاغتياد الكمال
فيه اغتياد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه
وتعالى التوفيق .

الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يخلص في النفوس من التكاثر إذا ملك أمرها
عليها وصارت بالاستعباد آله لسواها وعالته عليهم فيقصر الأمل ويضعف التماس
والإعتماد إنما هو عن حدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية
فإذا ذهب الأمل بالتكاثر وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية
ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسيهم ومساعيهم
وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خصد^(١) الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلوبين
لكل مغلوب وطعمة لكل آكل وسواء كانوا جصلوا على غايتهم من الملك أم لم
يخلصوا . وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبيعته بمقتضى
الاستخلاف الذي خلق له والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه
تكاثر حتى عن شيع بطئيه وري كبيده وهذا موجود في أخلاق الأناسي . ولقد
يقال مثله في الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الأدميين
فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء
والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما
فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال إن سعداً
أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة وثلاثون

(١) خصد : خضد العود ، كسره ولم يبين

أَلْفَا رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا
وَدَبَّرُوا كَأَن لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحَسَّبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَطَلَمٌ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٌ شَمَلَهُمْ فَمَلَكَةُ
الإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمَتْ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آتَةً
لِغَيْرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُدْعَى لِلرِّقِّ فِي الْعَالِبِ أُمَّهُ السُّودَانِ لِتَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةَ فِيهِمْ وَقَرَّبَهُمْ
مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ كَمَا قُلْنَا أَوْ مَنْ يَرْجُو بِإِنْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرِّقِّ حُصُولَ
رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَلُوجِ^(١) مِنَ الْجَلَالِقَةِ
وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْتِفُونَ مِنَ الرِّقِّ لِمَا
يَأْمَلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثُ يَنْتَهَبُونَ مَا قَدَرُوا
عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مَغَالِبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجِعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى
الْمُرَاحِفَةِ وَالْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَغْقِلٍ أَوْ مُسْتَضْعَبٍ عَلَيْهِمْ
فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُتَمْتِنَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ
الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْشِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمْ الْهَضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ
الصَّعَابَ وَلَا يَحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَمَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفَقْدَانِ الْحَامِيَةِ
وَضَعْفِ الدَّوْلَةِ فِيهِ نَهَبَتْ لَهُمْ وَطَمَعَتْ لِأَكْلِهَا يَرُدُّونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزُّخْفَ
لِسَهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغْلِبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْأَيْدِي
وَأَنْحِرَافِ السِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمُرَانَهُمْ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
لَا رَبَّ غَيْرُهُ.

(١) الملوج . بمعنى كفار العجم .

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَخَشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوْحُشِ وَأَسْبَابِيهِ فِيهِمْ فَضَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِلَّةٌ وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلَذُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَعَايَةُ الْأَخْوَالِ الْعَادِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرَّخْلَةُ وَالتَّغْلِبُ ^(١) وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنُضْبِهِ أَثَافِي الْقَدْرِ فَيَنْقَلِبُونَ مِنَ الْمَبَانِي وَيَخْرُبُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعْدُونَهُ لِدَلِكِ وَالْخَشْبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّدُوا ^(٢) بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبَيْوتِهِمْ فَيَخْرُبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِذَلِكَ فَضَارَتْ طَبِيعَةُ وَجُودِهِمْ مُنَافِيَةٌ لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَضَلُّ الْعُمْرَانِ هَذَا فِي خَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حُدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ انْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّغْلِبِ وَالْمَلِكِ بَطَلَتْ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَلَانَّهُمْ يَكْلِفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرُونَ لَهَا قِيَمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَضَلُّ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتْ الْأَعْمَالُ وَضَارَتْ مَجَانًا ضَعُفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَأَنْقَبِضَتِ الْأَيْدِي عَنْ الْعَمَلِ وَابْتَدَعَرُ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدَفَاعِ بَعْضِهِمْ

(١) بمعنى التثقل.

(٢) عمد السقف، دعائمه وركائزه.

عَنْ بَعْضِ إِنْمَا هُمْ مِنْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْهِيدِ أَمْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَعْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَبَانِيَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِشْهَالِ الْعَرَمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْعَرَضِ فَتَبْقَى الرُّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى ^(١) دُونَ حُكْمِ وَالْفَوْضَى مَهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنْ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَضْلِ وَأَيْضًا فَهْمٌ مُتَنَافِسُونَ فِي الرُّئَاسَةِ وَقِيلَ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى كَرَاهِيَّتِهِ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأَمْرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرُّعِيَّةِ فِي الْجَبَانِيَةِ وَالْأَحْكَامِ فَيَتَسَدَّدُ الْعُمَرَانُ وَيَنْتَقِضُ . قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَاقِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحِجَاجِ وَأَزَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ : « تَرَكْتَهُ يَظْلِمُ وَحَدَهُ » وَأَنْظَرَ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَعَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ عُمْرَانَهُ وَأَقْفَرُ سَاكِنَتُهُ وَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالَيْمَنَ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانَهُ الَّذِي كَانَ لِلْفَرَسِ أَجْمَعَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةٌ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لِحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بِسَائِطَةِ خَرَابًا بِكُلِّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ كُلِّهِ عُمَرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَائِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهِ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

(١) ومما يعزى إلى سيدنا علي :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية
أو أثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَخُلُقِ التَّوْحُشِ الَّذِي فِيهِمْ أَضَعَبُ الْأُمَمِ انْقِيَاداً بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنْفَةِ وَبُعْدِ الْهَيْمَةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرَّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا
كَانَ الدِّينُ بِالنَّبُوءَةِ أَوْ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكَبِيرِ
وَالْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهَّلَ انْقِيَادَهُمْ وَاجْتِمَاعَهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ
لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنْفَةِ الْوَازِعِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي
يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتُ الْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا
وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعَهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولاً لِلْحَقِّ وَالْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلِكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا
مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمُنْهَبِيِّ لِقَبُولِ
الْخَيْرِ بِنَقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ
وَسُوءِ الْمَلِكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي الْفَقْرِ وَأَغْنَى
عَنْ حَاجَاتِ التَّلَوُّلِ وَحُبُوبِهَا لِإِعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخَشَوْنَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَغْنَوْا عَنْ
غَيْرِهِمْ فَصَعِبَ انْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوْحُشِ وَرَأْسِهِمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ

غالباً للفضيلة التي بها المدافعة فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك
 مراعاتهم^(١) لئلا يختل عليه شأن عصبته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة
 الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر والألم تستقيم سياسته
 وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما
 سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فإذا ملكوا أمة من الأمم
 جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام
 بينهم ورُبما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات
 وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعاً ورُبما يكون باعثاً بحسب الأعراس
 الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتتمو المفاسد
 بذلك وتقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي
 بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرّب سريعاً شأن الفوضى كما قدمناه
 فبعثت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب
 طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم
 وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في
 الإملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح
 العمران ظاهراً وباطناً وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم .
 كان رستم^(٢) إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كيدي يعلم
 الكلاب الآداب ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين
 فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة بيغديهم عن
 الإنقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من
 جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وأمحي رسمها انقطع الأمر جملة
 من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك

(١) عدائهم وهجرائهم .

(٢) رستم هو قائد جيوش الفرس في معركة القادسية .

وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَدَوْلٍ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ وَالتَّبَاعَةَ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَخْضَلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ غَلَبَ عَلَى الدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَعَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيْبٌ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَّمْنَا وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمَرََانَ الْبَادِيَةَ نَاقِصَ عَنْ عُمَرَانِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ لِأَنَّ الْأُمُورَ الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبَدْوِ . وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورَ الْفَلْحِ وَمَوَادِّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَّنَاعُ فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَارٍ وَخَيْطِاطٍ وَحَدَائِدٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي الْفَلْحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مَفْلُ الْزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلَايِهِ الْبَانَا وَأُوبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعْوِضُونَهُمْ عَنْهُ بِالْدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ إِلَّا أَنْ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِّ وَحَاجَةٌ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ ^(١) وَالْكَمَالِيِّ فَهَمَّ مُخْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي الْبَادِيَةِ وَلَمْ يَخْضَلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا اسْتِيْلَاءٌ عَلَى الْأَمْصَارِ فَهَمَّ مُخْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَضَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمِصْرِ مُلْكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ الْمُلْكِ

(١) بمعنى الضروري .

وَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمِضْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةِ وَنَوْعِ اسْتِئْذَانٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى
الْبَاقِينَ وَالْأَنْتَقَاصِ عُمْرَانَهُ وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسُّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ
إِمَّا طَوْعاً يَبْدِلُ الْمَالَ لَهُمْ ثُمَّ يُبَدِّي لَهُمْ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِضْرِهِ
فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ وَإِمَّا كَرْهاً إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى
يَخْضَلُ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ
لِذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمْ وَرَبِّمَا لَا يَسْعَهُمْ مَفَارِقَةُ تِلْكَ النُّوَاجِحِ إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى
لَأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبُنْدِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ الْبُيُوتِ
هُؤُلَاءِ مَلْجَأٌ إِلَّا طَاعَةَ الْمِضْرِ فَهِنَّ بِالضَّرُورَةِ مَقْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ قَاهِرٌ فَوْقَ
عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ.



الباب الثالث من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والمناعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من الثغرة والتدامر^(١) واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه . ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدئية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفاً وهذا الأمر يعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مزباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة إنما يذكرون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه

(١) تدامر القوم . حض بعضهم بعضاً على القتال .

وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يضعب على النفوس الانتقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للفرزية وأن الناس لم يألّفوا ملكها ولا اعتادوه فإذا اشتقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيبت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانتقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عناية بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالي والمضطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنيه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والتürk والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الأولياء على التواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلاق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة وكذا صنهاجة

بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدُّوْلَةُ
مُنْقَلَصَةَ الظَّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ وَالْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيْقِيَّةٍ وَرُبَّمَا انْتَرَى (١) يَتَلَكَّ
الثُّغُورَ مِنْ نَارِعِهِمُ الْمَلِكِ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانَ وَالْمَلِكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ حَتَّى
تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدُّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُؤَخِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ

فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذًا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى
مُلُوكُ الطَّوَاتِبِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا حِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدُّوْلَةِ
وَانْتَرَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ
الدُّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ الْمَلِكِ وَلَبَسُوا شَارْتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ
أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبٍ وَلَا قَبَائِلٍ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمْ ذَلِكَ
كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ .

مِمَّا يَزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُغْتَصِمٍ فِيهَا وَمُغْتَصِدٍ
أَلْقَابَ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ

فَانْتَضَمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ وَالطَّرَاءَ (٢) عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ
أَهْلِ الْعُدُوَّةِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ اقْتِدَاءً بِالدُّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي
الْإِسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدُّوْلَةِ فَكَانَ
لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنْ
الْمَلِكِ عَلَى نِسْبَةِ الدُّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَارَ إِلَيْهِمْ
الْبُحْرُ الْمُرَابِطُونَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَاسْتَبَدُّوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ
مَرَازِكِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهِدِهِ
الْعَصِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ الدُّوْلَةِ وَحَمَايَتُهَا مِنْ أَوْلِيَّهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ
الدُّوْلِ بِإِطْلَاقِ هُمْ الْجُنْدِ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الْإِهْلَةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي

(١) بِمَعْنَى تَوَشَّجٍ . وَالْأَصَحُّ تَنْزَى .

(٢) بِمَعْنَى الَّذِينَ اتُّوا مِنْ أَمَاكِنٍ أُخْرَى .

سَمَاءُ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوْلِيَّهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِي النَّصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصَّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدُّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقَ جِدَّتَهَا وَرَجُوعَهَا إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَعْدِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دَوَلَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَأَنْقِرَاضِ عَضْبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ يَقْطُرُهُ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُوْدٍ وَابْنِهِ الْمُظْفَرِ أَهْلُ سِرْقَسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَضْبِيَّةِ شَيْءٌ لِاسْتِيْلَاءِ التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبْدًا بِالْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْإِسْتِبْدَادِ مِنْذُ عَهْدِ الدُّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَضْبِيَّةِ فَهِيَ لِذَلِكَ لَا يَنَازِعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُرْتَرِقَةِ فَاطْلُقِ الطَّرْطُوشِيَّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْذُ أَوَّلِ الدُّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَضْبِيَّةِ فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَافْتَهَمْ سِرَّ اللَّهِ فِيهِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَةً مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَضْبِيَّةٍ غَلَبٌ كَثِيرٌ عَلَى الْأُمَّمِ وَالْأَجْيَالِ وَفِي نَفُوسِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ إِذْغَانٌ لَهُمْ وَانْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبَتِ عِزِّهِ اسْتَمَلُّوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعَنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوَلَهُ الْأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ ^(١) وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ بِاصْطِفَائِهِمْ لِرَتَبِ الْمُلْكِ وَخَطِطِهِ مِنْ وَرَاةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةِ ثَغَرٍ وَلَا

(١) أعياص، ج عيص، الأصل بمعنى أنهم يرجون انتقال الملك إليه من أصوله أي من أبائه وأجداده.

يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَضْبِيَّتِهِ وَأَنْقِيَادًا لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ
وَلِقَوْمِهِ مِنْ صَبْغَةِ الْغَلْبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةَ إِيْمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الإِدْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ
رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزَلَتْ الأَرْضُ زَلْزَالَهَا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلأَدَارِسَةِ بِالمَغْرِبِ
الأَقْصَى وَالْعَبِيدِيِّينَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ وَمَضَرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى القَاصِيَةِ
وَابْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ الخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي العَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوْلَا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ
فَخَرَجُوا بِالقَاصِيَةِ مِنَ المَغْرِبِ وَدَعَوْا لَأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ البَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ
أُخْرَى فَأَوْرُبَةُ وَمَعْلِلَةُ لِلأَدَارِسَةِ وَكَتَامَةُ وَصُنْهَاجَةُ وَهَوَارَةُ لِلْعَبِيدِيِّينَ فَشِيدُوا دَوْلَتَهُمْ
وَمَهْدُوا بِعَضَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ العَبَّاسِيِّينَ المَغْرِبِ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيْقِيَّةً
وَلَمْ يَزَلْ ظُلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظُلُّ العَبِيدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكَوا بَصْرَ وَالشَّامَ
وَالْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ شَقَّ الأَبْلَمَةَ وَهؤلاءِ البَرَابِرَةُ القَائِمُونَ
بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا
يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صَبْغَةِ المُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ
وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الغَلْبِ لِقَرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ فَلَمْ يَزَلْ المُلْكَ فِي أَعْقَابِهِمْ
إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ العَرَبِ بِأَسْرَها وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين

أما من نبوة أو دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ المُلْكَ إِنَّمَا يَحْضُلُ بِالتَّغَلُّبِ وَالتَّغَلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالعَضْبِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
الأَهْوَاءِ عَلَى المُطَالِبَةِ وَجَمْعِ القُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مِنَ اللهِ فِي إِقَامَةِ
دِينِهِ قَالَ تَعَالَى « لَوْ أَنْفَقْتُ مَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » وَسِرُّهُ أَنَّ

القلوب إذا تذاغت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعممت الدولة كما تبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه .

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدها

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والدل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعة وثلاثين ألفاً في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزمهم وغلبوهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف^(١) عليهم إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار

(١) يشف ، يزيد .

وَالِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا خَالَتْ صِبْغَةَ الدِّينِ
 وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْعُلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصْبِيَّةِ وَخَدَهَا دُونَ زِيَادَةِ
 الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدُّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ
 عَلَيْهَا الدِّينَ غَلِبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصْبِيَّةٍ مِنْهَا وَأَشَدَّ بِدَاوَةَ
 وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةٍ لَمَا كَانَتْ زَنَاتُهُ أَبَدِيًّا ^(١) مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ
 تَوْحُشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدُّعْوَةُ الدِّيْنِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبَسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ
 قُوَّةُ عَصْبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلِبُوا عَلَى زَنَاتِهِ أَوْلًا وَاسْتَتَبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصْبِيَّةِ
 وَالْبِدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّيْنِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ وَعَلِبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَرَعَوْهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهَذَا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ وَفِي
 الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » وَإِذَا كَانَ هَذَا
 فِي الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِخَرْقِ الْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تَخْرُقَ لَهُ الْعَادَةُ
 فِي الْعُلْبِ بِغَيْرِ عَصْبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا لِابْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ الصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ
 النَّعْلَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِ ذَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِالْمُرَابِطِينَ
 قَبِيلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ فَاسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلًا لِشُغْلِ لِمَتُونَةٍ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ
 الْمُوَحِّدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبٌ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلِثْ حِينَ
 اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَدْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَقِيلِهِ

(١) أبدى من البداوة وأبدى أفضل التفضيل من بدا ومعناها أشد بدواة.

يُحْضِنُ أَرْكَشَ^(١) وَأَمَكْنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةِ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثُّوَارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُتَلَثِّلُونَ^(٢) بِهِمْ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَالذَّهْمَاءِ وَيُعْرَضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَا زُورِينَ^(٣) غَيْرَ مَا جُورِينَ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ ﷺ: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ » وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالذُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزْخَرْحَخُهَا وَيَبْدُمُ بِنَاءِهَا إِلَّا الْمُطَالَبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَضِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَا وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَضَائِبِ وَهُمْ الْمُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ ، لَكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى الْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ « وَاللَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَرَ بِهِ الْإِنْفِرَادُ عَنِ الْعَضِيَّةِ فَطَاحَ فِي هَوَاةِ الْهَلَاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَلَبِّسِينَ بِذَلِكَ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعَوَّقَهُ الْعَوَائِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ الْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمَرَ اللَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاةٍ وَإِعَانَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ائْتِدَاءِ هَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الْمِلَّةِ بِيَعْتَدَادِ حِينٍ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ^(٤) وَقَتَلَ الْأَمِينَ وَأَنْبَطَ الْعَامُونَ بِخُرَاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضِيِّ مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ

(١) لم نعثر على حصن أركش في معجم البلدان وكذلك في المرجع التي بين أيدينا وربما هناك تعريف بالاسم وهو حصن أركون . وهو حصن منيع في الأندلس وموقعه ينسجم مع سياق الحديث عن المرابطين بالأندلس .

(٢) وفي بعض النسخ التشبيون .

(٣) الأصح موزورين .

(٤) هو طاهر بن الحسين ، كان قائداً لجيش المأمون زمن الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وقد خرج

وَجِهَ التَّكْبِيرَ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلَعَ طَاعَةَ الْمَأْمُونِ وَالِاسْتِبْدَالَ مِنْهُ وَبُوعَ
 إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرْجُ^(١) بِنَغْدَاةٍ وَأَنْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ^(٢) بِهَا مِنْ
 الشُّطَارِ^(٣) وَالْحَرْبِيَّةِ^(٤) عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصُّوْنِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَأَمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ
 مِنْ نَهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا غَلَانِيَّةً فِي الْأَسْوَاقِ وَاسْتَعْدَى^(٥) أَهْلَهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَغْدُوهُمْ
 فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْمَسَاقِ وَكَفَّ عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِنَغْدَاةٍ رَجُلٌ
 يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّرْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
 فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ
 مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بِنَغْدَاةٍ يُعْرَفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ
 وَيُكْنَى أَبَا جَاتِمٍ وَعَلَّقَ مَضْخَمًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ
 وَوَضِيحٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ وَأَتَاخَذَ الدِّيَّوَانَ وَطَافَ بِنَغْدَاةٍ
 وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ^(٦) لِأَوْلِيكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ
 الدُّرْيُوسِ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ
 الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
 الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى
 بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُوسُوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ
 مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَعْنَى أَمْرِهِمْ وَمَالِ أحوَالِهِمْ
 وَالَّذِي يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ هَوَاءٌ إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ وَإِمَّا التَّنْكِيلُ
 بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَخَذُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةَ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ

(١) الفتنه.

(٢) الزعرة ج زعر وفي العامية ازعر وزعران وهم ذوي الأخلاق السيئة. (قاموس).

(٣) اللصوص والمجرمين.

(٤) هو نهب مال الإنسان بأجمعه. وفي الحديث الحارب المشطح أي الفاصب الناهب. الذي يعزى

الناس ثيابهم.

(٥) طلب النجدة والعون.

(٦) المحافظة أي منع المحافظة عليهم.

الضَّاعِينَ^(١) وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ
وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَجِلِينَ لِمِثْلِ هَذَا
تَجِدُهُمْ مُوسُوسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَبِّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةَ امْتِلَآتٍ
بِهَا جَوَانِحُهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ
هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ
مِنَ الْهَلَكَةِ فَيَسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُخْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسْوَأِ عَاقِبَتِهِ مَكْرَهُمْ وَقَدْ
كَانَ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التَّوْبَذْرِيَّ عَمَدٌ إِلَى
مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلْبِيسًا عَلَى الْعَامَّةِ
هُنَاكَ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَدِيثَانِ بِأَنْتِظَارِهِ هُنَاكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ
أَصْلُ دَعْوَتِهِ فَتَهَافَّتَ عَلَيْهِ طَوَائِفٌ مِنْ عَامَّةِ الْبَرْبَرِ تَهَافَّتَ الْفَرَاشُ ثُمَّ خَشِيَ
رُؤْسَاؤُهُمْ اتِّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمُصَامِدَةِ يَوْمُئِذٍ عَمْرُ السُّكْسِيوِيِّ مَنْ
قَتَلَهُ فِي فِرَاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي عِمَارِهِ أَيْضًا لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ
وَادْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَةَ الْأُرْدُلُونَ مِنْ سَفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَعْمَارِهِمْ^(٢)
وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عُنُوةً . ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظَهْوَرِ
دَعْوَتِهِ وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْعَلَطُ فِيهِ مِنَ الْعَفْلَةِ عَنِ
اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأَخْرَى أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ يَبُوءَ
بِأَيْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا
مَعْبُودَ سِوَاهُ .

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها
والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد

(١) الكذابين .

(٢) اغمارهم ، أحداثهم الذين لم يفقهوا الأمور بعد .

مِنْ تَوْزِيْعِهِمْ حِصْصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالشُّعُورِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا
 لِحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَدُوِّ وَإِمْنَاءِ أَحْكَامِ الدُّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جَبَايَةِ وَرَدَعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا
 تَوَزَّعَتِ الْعَصَابُ كُلُّهَا عَلَى الشُّعُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَادِ عِدْدِهَا وَقَدْ بَلَغَتْ
 الْمَمَالِكُ حَيْثُ يُدْ إِلَى حَدِّ يَكُونُ تُغْرَأُ لِلدُّوْلَةِ وَتَحْمَأُ لَوَطْنِهَا وَنَطَاقًا لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا فَإِنْ
 تَكَفَّلَتِ الدُّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا
 لِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ وَالْمَجَاوِرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدُّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ
 التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ السُّبُحَةِ وَمَا كَانَتْ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدِ عِدْدُهَا فِي تَوْزِيْعِ
 الْحِصْصِ عَلَى الشُّعُورِ وَالنَّوَاحِي بَقِيَ فِي الدُّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْعَايَةِ حَتَّى
 يَنْفَسِحَ نَطَاقُهَا إِلَى عَايَتِهِ وَالْعِلْمَةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَضْبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى
 الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَضْدُرُّ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدُّوْلَةُ فِي
 مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الطَّرْفِ وَالنَّطَاقِ وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النَّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْعَايَةُ
 عَجِزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنِ الْأَشْعَةِ وَالْأَنْوَارِ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرْكَزِ وَالدُّوَائِرِ
 الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النُّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي
 التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ
 الْأَمْرِ جُمْلَةً فَحَيْثُ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدُّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا
 يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنَّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُ لَوَقْتِهَا فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي
 تَنْبَعُثُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلِكَ انْهَزَمَ جَمِيعُ الْأَطْرَافِ وَانظُرْ هَذَا فِي
 الدُّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَتْ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ فَلَمَّا غَلِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ
 فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجْرَدُ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ
 ذَلِكَ الدُّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَتْ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَغَلِبَتْهُمُ الْمُسْلِمُونَ
 بِالشَّامِ تَحَيَّرُوا إِلَى مَرْكَزِهِمْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمْ
 يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَانظُرْ أَيْضًا شَأْنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ
 الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَابَتُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ

وَمَضَرَ لِأَسْرَعِ وَقَبِثَ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالشُّعُوبِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَّةً
وَنَفَدَ عَدَدَهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيْعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتُوحَاتِ بَعْدَ وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَلَمْ
يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ
حَالُ الدَّوْلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ وَعِنْدَ
نِفَادِ عَدَدِهِمْ بِالتَّوْزِيْعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيْلَاءُ سُنَّةَ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها
في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ إِثْمًا يَكُونُ بِالْعَصِيْبَةِ وَأَهْلِ الْعَصِيْبَةِ هُمُ الْحَامِيَّةُ
الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ
الْعَامَّةِ قَبِيْلَتَهَا وَأَهْلُ عَصَائِجِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكِ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا
أَوْسَعَ لِذَلِكَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلْفَ اللهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ
وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرَ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرَةَ
أَلْفٍ مِنْ مَضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَرِجْلِ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى
الْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلْبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ جَمِيٌّ وَلَا
وَزْدٌ^(١) فَاسْتَبِيحَ جَمِيَّ فَارِسَ وَالرُّومِ أَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيْمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ لِيُعْهِدَهُمُ
وَالْتُرْكَ بِالْمَشْرِقِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةَ وَالتَّبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْقُوطَ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطُّوا مِنَ
الْحِجَازِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التُّرْكَ بِأَقْصَى الشَّمَالِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى
الْأَقَالِيْمِ السَّبْعَةِ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ قَبْلَهُمْ

(١) للمقل والملجأ (قاموس).

لَمَا كَانَ كِتَابَةُ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَمِنْ الْمَصَامِدَةِ كَانَتْ
دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكَوا أَفْرِيْقِيَةَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ
دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ الْمَصَامِدَةِ قَصُرَ مَلِكُهُمْ عَنِ مَلِكِ الْمُوَحِّدِينَ
لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنِ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ اعْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ
لِهَذَا الْعَهْدِ لِزَنَاتَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ . كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعُ
نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْغَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ
مَلِكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرَّفْعِ وَكَثْرَةَ
التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ الْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ الْمَلِكِ يَكُونُ
اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طَوْلُ أَمْدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمَرَ الْحَادِثِ مِنْ
قُوَّةِ مِزَاجِهِ وَمِزَاجِ الدَّوْلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَضِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ الْعَضِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ الْمِزَاجُ
تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمْدُ الْعُمُرِ طَوِيلًا وَالْعَضِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَا
وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ
مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا يَبْعِدُ عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نِقْصٍ يَبْقَى فَلَا بُدَّ
مِنْ زَمَانٍ فَتَكْثُرُ أَرْزَامَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنِقْصٍ
وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدَّوْلِ لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ
الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ ^(١) . وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ
وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَنْهَاجَةَ دَوْنَهُمْ
مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مَعْرِزِ الدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيْقِيَةَ لِئَلَيْكِينَ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
وِثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ اسْتِيْلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعِ وَخَمْسِينَ
وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاهَزَتْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَكَذَا نَسَبُ
الدَّوْلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ .

(١) هناك تشويش في معنى العبارة وربما تكون العبارة يتساوى في ذلك بنو العباس أهل المركز وبنوا

أمية المستبدون بالأندلس.

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وِرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوَىٰ غَضَبِيَّةٌ تَمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْاِتِّقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ غَضَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ غَضَبِيَّةٍ مَعْنُ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَانظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ فَإِنْ سَاكِنَ هَذِهِ الْأَوْطَانَ مِنْ الْبَرْبَرِ أَهْلِ قَبَائِلَ وَعَضَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُعْنِ فِيهِمُ الْعَلْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي كَانَ لِابْنِ أَبِي سَرْجٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِفْرَنْجِيَّةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الثُّورَةَ وَالرَّذَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ الْإِثْمَانُ ^(١) مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثُّورَةِ وَالخُرُوجِ وَالْأَخِذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ ارْتَدَّتِ الْبَرْبَرِيَّةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وَلَايَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيْقَةَ مُفْرَقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ الْخَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْإِنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ يَتَلَكَّ الصِّفَةَ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَّتَهَا مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالْكَافَةِ ذَهْمَاءَ أَهْلِ مَدَنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَمَانِعٌ وَلَا مَسَاقٍ ^(٢) وَالْبَرْبَرِيُّ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُخَصَّى وَكُلُّهُمْ بَادِيَّةٌ وَأَهْلُ عَصَائِبٍ وَعَشَائِرٍ وَكُلَّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ عَادَتْ الْأُخْرَى مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرَّذَّةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطْنِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ

(١) البخ في العدو، أكثر في القتل والجرح وورد في الآية ٦٧ من سورة الأنفال « ما كان لنبي أن يكون

له أسرى حتى يشخن في الأرض »

(٢) مخالف وفي الآية ٤ من سورة الحشر « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله »

قَبَائِلِ فِلِسْطِينَ وَكَنْعَانَ وَبَنِي عِيصُو وَبَنِي مَدْيَنَ وَبَنِي لُوطَ وَالرُّومَ وَالْيُونَانَ
وَالْعَمَالِقَةَ وَأَكْرِيكِشَ وَالنَّبِطَ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُخْصَى كَثْرَةً
وَتَنوعًا فِي الْعَصِيَّةِ فَصَعَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ
وَاضْطِرَابَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا عَلَى
سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَلِكٌ مُوطَّدٌ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ إِلَى أَنْ غَلِبَهُمُ الْفَرَسُ
ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبِعَكْسِ هَذَا أَيْضًا
الْأَوْطَانَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْعَصِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا
لِقَلَّةِ الْهَرَجِ وَالْإِنْتِقَاصِ وَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةَ فِيهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي
مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خَلَّتْ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصِيَّاتِ كَأَنَّ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ
مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا قَلْنَا فَهَلْكَ مِصْرَ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالرُّسُوحِ لِقَلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ
الْعَصَائِبِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرِكِ وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ
عَلَى الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَنْتَقِلُ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِتٍ وَالْخِلَافَةُ مُسْمَاةٌ
لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ يَبْغَدَادَ وَكَذَا شَأْنُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ عَصِيَّةَ ابْنِ
الْأَحْمَرَ سُلْطَانُهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقَوِيَّةٍ وَلَا كَانَتْ كَرَاتٍ ^(١) إِنَّمَا يَكُونُ أَهْلُ
بَيْتِ مِنْ بِيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بَقُوا مِنْ ذَلِكَ الْقَلَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ
الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ وَمَلَكَهُمْ التَّبَرُّزِيُّ مِنْ لِمْتُونَةَ وَالْمَوْحِدِينَ
سَمُّوا مِلِكْتَهُمْ وَثَقَلَتْ وَطَأْتَهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْرَبَتِ الْقُلُوبَ بَغْضَاءَهُمْ وَأَمَكْنَ الْمَوْحِدُونَ
وَالسَّادَةَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ ^(٢) فِي سَبِيلِ الْاسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى
شَأْنِهِمْ مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضْرَةِ مَرَاكِشَ فَاجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ
الْقَدِيمَةِ مَعَادِنُ مِنْ بِيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمَنْبِتُ عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضُ
الشَّيْءِ وَرَسَخُوا فِي الْعَصِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُودٍ وَابْنِ الْأَحْمَرَ وَابْنِ مَرْدَنِيشَ وَأَمْثَالِهِمْ فَفَقَامَ
ابْنُ هُودٍ بِالْأَمْرِ وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ

(١) متتالية ومتتابعة.

(٢) الاسم الذي أطلقه عرب الأندلس على ملك الفرنج في البرتغال وقشتالة.

على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واشتغل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب إفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناول بعضا من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلية العصائب بالأندلس وإنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يحيز إليه البحر من أعيناص زناتة فصاروا معه عصابة على المشاغرة والرباط ثم سما لصاحب من ملوك زناتة أملا في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعيناص عصابة ابن الأحمر على الإمتناع منه إلى أن تأمل^(١) أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابها لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدأه بعصاية إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلية العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين.

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصابات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تُصيرها جميعا في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبية القائمة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلّفها وتُصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها

(١) ترسخ وتأصل.

وَتِلْكَ الْعَضِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمِ أَهْلِ بَيْتِ وَرِثَانَةِ فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَضِيَّاتِ كُلِّهَا لِعَلْبِ مَنْبِيئِهِ لِحَمِيمِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبَرِ وَالْأَنْفَةِ فَيَأْتِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِمْ وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَّامِ « لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ^(١) فَتُجَدِّعُ حِينَئِذٍ أَنْوْفَ الْعَضِيَّاتِ وَتَفْلُحُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحَكُّمِ وَتَقْرَعُ عَضِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرَكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَذْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّلَاثِ عَلَى قَدْرِ مَمَانَعَةِ الْعَضِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوَلِ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِيَدَيْ أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاسَتُهَا وَنَعَمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوِزُونَ ضُرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ النَوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٍ فِي تَخْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَيَتَفَاخِرُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلبَسِ الْأَنْبِقِ وَرُكُوبِ الْفَارَةِ ^(٢) وَيُنَاقِضُ خَلْفَهُمْ فِي ذَلِكَ سَلْفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفَهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٢) الفارة في الفرس والبرفون والحمار ، الجيد السير .

الغاية التي للدولة إلى أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه
والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب
والملك وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهر يئسني ويئسها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلمونها في طلبه وآثروا
الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمسكين
والملايس فينبون القصور ويحرون المياه ويفرسون الرياض ويستمتعون بأحوال
الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في أحوال الملايس والمطاعم
والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا
يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى
أعلم.

الفصل الثالث عشر

في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف
والدعة

اقبلت الدولة على الهرم

وبيانته من وجوه . الأول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومنها كان
المجد مشتركاً بين العصابة وكان سعيهم له واحداً كانت هممهم في التغلب على

الغير والذَّب عن الحوزة^(١) أسوة في طموحها وقوة شكائِمها ومرماهم إلى العز جَمِيعاً
يَسْتَطِيعُونَ المَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤَثِّرُونَ الهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الوَاحِدُ
مِنْهُمْ بِالمَجْدِ قَرَعَ عَصِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَاسْتَأَثَرَ بِالأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ
الغَزْوِ وَفَسَلَ رَبُّحُهُمْ وَرَمَوْا^(٢) المَذَلَّةَ وَالإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رَبِي الحِيْلُ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى
ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ العَطَاءِ أَجْراً مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الحِمَايَةِ وَالمَعُونَةِ
لَا يَجْرِي فِي عَقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقُلْ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى المَوْتِ فَيَصِيرَ ذَلِكَ وَهَذَا
فِي الدَّوْلَةِ وَخُضْداً مِنَ الشُّوكَةِ وَتَقَبُّلِ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالهَرَمِ لِفَسَادِ العَصِيَّةِ
يَذْهَبُ النَّاسُ مِنْ أَهْلِهَا . وَالوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ المُلْكِ تَقْتَضِي التَّرْفَ كَمَا
قَدَّمَاهُ فَتَكْتَثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أُعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ
فَالفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالمُتَرَفُّ يَسْتَفْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرْفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ
المُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْضَرَ العَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسُّهُمُ الحَاجَةُ وَتَطَالِبُهُمْ
مُلُوكُهُمْ بِخَضِرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الغَزْوِ وَالحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَليجَةً^(٣) عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمْ
العُقُوبَاتِ وَيَنْتَرِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأَثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤَثِّرُونَ بِهِ
أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيَضْعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنِ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعَفُ صَاحِبُ
الدَّوْلَةِ يَضْعِفُهُمْ وَأَيْضاً إِذَا كَثُرَ التَّرْفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقْصِراً عَنِ حَاجَاتِهِمْ
وَنَفَقَاتِهِمْ اِحْتِاجُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى
يَسُدَّ خَلْلَهُمْ^(٤) وَيُزِيحَ عِلْلَهُمْ وَالجِبَايَةِ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ
زَادَتْ بِمَا يُسْتَعْدَتْ مِنَ المَكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُوداً فَإِذَا وَرَعَتِ
الجِبَايَةَ عَلَى الأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَّثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَّثَتْ مِنْ تَرْفِهِمْ
وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ الحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الأَعْطِيَاتِ ثُمَّ يَعْظُمُ

(١) الدفاع عن الناحية .

(٢) أحبوا وألقوا .

(٣) الوليعة : البطانة والخاصة ومن يتخذها الانسان معتمداً عليه من غير أهله (قاموس) .

(٤) الخلل : الوهن في الأمر والرقعة في الناس (قاموس) ولعل الكلمة محرفة من كلمة الخلة وهي

الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحماية وثالثاً ورابعاً إلى أن
 يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة وتتجاسر
 عليها من يجاوزها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن
 الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في
 النفس من ألوان الشر والسفسفة^(١) وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب
 منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك وطيلاً عليه ويتصفون بما يناقضها
 من خلال الشر فيكون علامة على الإذبار والإنقراض بما جعل الله من ذلك في
 خليقته وتأخذ الدولة ميادى العطب وتتضعع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة
 من الهرم إلى أن يقضى عليها. الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما
 ذكرناه وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألواً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن
 العوائد كلها وإيلافها فتزبي أجيالهم الحادثة في غصارة العيش ومهاد الترف
 والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة
 البأس وتعود الإفتراس ودكوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة
 من الحضرة إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد
 شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم ثم لا يزالون
 يتلوثون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم
 وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئاً
 فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً
 على حامية أخرى إن كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف
 لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبية ورُبما يحدث في الدولة إذا
 طرقتها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير
 جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على

(١) الرديء من كل شيء.

مَعَانَاةَ الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشُّطْفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدُّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاهُ
 أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ
 غَالِبَ جُنْدِهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مَلُوكُهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْعَمَالِيكِ الْمَجْلُوبِينَ
 إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَضْبَرَ عَلَى الشُّطْفِ مِنْ أَبْنَاءِ
 الْعَمَالِيكِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُّوا فِي مَاءِ النِّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظَلَمَهُ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ
 الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَاتِهِ وَالْعَرَبِ
 وَيَسْتَكْبِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرِكُ أَهْلَ الدُّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ الدُّوْلَةَ بِذَلِكَ عُمْرًا
 آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل الرابع عشر

في أن النولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَاءُ وَالْمُنْجَمُونَ مِائَةً
 وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْقَمَرِ الْكُبْرَى عِنْدَ الْمُنْجِمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمُرُ فِي كُلِّ جِيلٍ
 بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَانَاتِ
 مِائَةً تَامَةً وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سِتِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أُدْلَةُ الْقِرَانَاتِ عِنْدَ
 النَّاطِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمِلَّةِ مَا بَيْنَ السُّتَيْنِ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا
 يَزِيدُ عَلَى الْعُمُرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّوَرِ النَّادِرَةِ وَعَلَى
 الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ عَادٍ
 وَثَمُودَ . وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ الدُّوْلَةَ
 فِي الْغَالِبِ لَا تَعْمُو أَعْمَارُ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمُرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمُرِ
 الْوَسْطِ فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ سَنَةً هُوَ أَيْتِهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى « حَتَّى إِذَا
 بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » ^(١) وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمُرُ الْجِيلِ

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التَّيْبِ الَّذِي وَقَعَ فِي نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمُقْصُودَ
بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ الْأَحْيَاءِ وَنَشَأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَغْنَهُوا الدَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَذَلَّ
عَلَى اعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي عُمُرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمُرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمُرَ
الدَّوْلَةِ لَا يَغْدُو فِي الْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَلْوَاعِي خَلْقَ الْبِدَاوَةِ
وَحُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَطْفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ فَلَا
تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدَّثَهُمْ مَرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ
لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ خَالَهُمْ بِالْمَلِكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ
وَمِنَ الشَّطْفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْحِصْبِ وَمِنَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ
وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السُّعْيِ فِيهِ وَمِنَ عِزِّ الْإِسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ فَتَنَكَّسَتْ سُورَةُ
الْعَصِيَّةِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَتَوَسَّسَ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمْ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ
يَمَا أَدْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا اغْتِرَازَهُمْ وَسَعْيِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ
وَمَرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسْمَعُهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ
مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ أَوْ عَلَى
ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ فَيَنْسُونَ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْحُشُونَةَ كَأَن لَمْ
تَكُنْ وَيَفْقِدُونَ خِلَاوَةَ الْعِزِّ وَالْعَصِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمُ التَّرَفُ
غَايَتَهُ يَمَا تَبْتَقُوهُ^(١) مِنَ النِّعَمِ وَغَضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنَ
جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ الْمُخْتَجِعِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ الْعَصِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَنْسُونَ
الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزُّبِّيِّ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ
وَحُسْنِ الثَّقَافَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النَّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ
الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ فَيَخْتَجِعُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ
بِسَوَاهِمِ مِنْ أَهْلِ التَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي وَيَضْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ
الْغِنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبُ الدَّوْلَةُ يَمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةُ
أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسْبِ فِي الْجِيلِ الرَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ تَبْتَقُوهُ أَي تَتَمَمُوا بِهِ (قَامُوسٌ) وَتَبْتَقُوهُ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ .

كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبِرْهَانٍ طَبِيعِيٍّ
كَافٍ ظَاهِرٍ مُبِينٍ عَلَى مَا مَهْدِنَاهُ قَبْلَ مِنَ الْمَقَدَّمَاتِ فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ الْحَقِّ إِنْ
كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ الثَّلَاثَةُ عُمُرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَا مَرَّ
وَلَا تَعْدُو الدُّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَذَا الْعُمُرَ بِتَقْرِيْبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ
آخَرَ مِنْ فِقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا مُسْتَوَلِيًّا وَالطَّالِبُ لَمْ يَخْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ
جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَانِعًا « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ » فَهَذَا الْعُمُرُ لِلدُّوْلَةِ بِمِثَالِيَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزْيِيدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ
إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمُرَ الدُّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً
وَهَذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْآبَاءِ فِي عُمُودِ النَّسَبِ الَّذِي
تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السِّنِّينِ الْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبَّتْ فِي عَدَدِهِمْ وَكَانَتْ
السَّنُونَ الْمَاضِيَةَ مِنْذُ أَوْلَاهُمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَعَدِّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السِّنِّينِ ثَلَاثَةً مِنَ الْآبَاءِ
فَإِنْ نَفَدْتَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نَفُودِ^(١) عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ
فَقَدْ غَلَطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السِّنِّينِ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي الْغَالِبِ
صَحِيحًا « وَاللَّهِ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوْلِ فَإِنَّ الْعَلْبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصِيْبَةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ النَّاسِ وَتَعُودِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ
الْبِدَاوَةِ فَطُورُ الدُّوْلَةِ مِنْ أَوْلَاهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعَهُ الرِّفَّةُ وَاتَّسَعَ الْأَخْوَالُ

(١) الأصح أن يقول نفاذ عددهم .

وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرَفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَفْعَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ
 مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ
 فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّنَاقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا
 وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَأَدِ وَالتَّنَعُّمِ بِأَحْوَالِ
 التَّرَفِ وَمَا تَتَلَوْنَ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طُورُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَلِكِ يَتَّبِعُ طُورَ الْمَدَاوَةِ
 ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ الرُّفَةِ لِلْمَلِكِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ أَيْدًا يُقَلِّدُونَ فِي طُورِ الْحَضَارَةِ
 وَأَحْوَالِهَا لِلدُّوَلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ . وَمِنْهُمْ فِي الْعَالِمِ يَأْخُذُونَ .
 وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَعْدَمُوا بَنَاتِهِمْ
 وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حَكَمِي أَنَّهُ قَدَّمَ لَهُمْ
 الْمُرَقَّقُ ^(١) فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَفْعَلُوهُ
 فِي عَجِينِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَفْعَلُوهُمْ فِي
 مَهَنَتِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهْرَةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ
 أَفَادَهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ
 وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَّغُوا الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطُورِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ فِي
 الْأَحْوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَابِخِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ
 وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرَيْمِيِّ ^(٢) وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَايِمِ
 وَلِيَالِي الْأَعْرَاسِ فَاتُّوا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَانظُرْ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ
 وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَدَّلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ
 الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خِطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِعَمِّ الصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّفِينِ وَمَا أَنْفَقَ
 فِي أَمْلاكِهَا ^(٣) وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عَرَسِهَا تَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ
 الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَشَرَ يَوْمَ الْأَمْلاكِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَنَشَرَ عَلَى

(١) العيز المرقوق .

(٢) اردأ اللثاع .

(٣) املاكها ، زواجها .

الطبقة الأولى منهم بتأدق المسك ملتوثة على الرقاع بالصياغ والعقار مسوغة لمن
 حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أذاه إليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة
 الثانية بدر^(١) الدنانير في كل بذرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر
 الدراهم كذلك بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن
 المأمون أعطاهما في مهرها ليلة زفافها ألف خصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في
 كل واحدة مائة من وهو رطل وثلاثان^(٢) وبسط لها فرشاً كان الحصير منها
 منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبانواس
 كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر:

كان صفري وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب
 وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلاً مدة عام
 كامل ثلاث مرات في كل يوم وقني الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه
 الزيت وأوعز إلى التواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من
 بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات^(٣)
 الممدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله
 وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن سام في كتاب الذخيرة
 وابن خيآن بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة
 لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاصتهم^(٤) وسداجتهم يذكر أن الحجاج
 أولم في اختتان بغض ولديه فاستخضر بغض الدهاقين^(٥) يسأله عن ولايم الفرس
 وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بغض مرازبة
 كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة

(١) بدر، ج بذرة وهي عشرة آلاف درهم.

(٢) قوله وثلاثان الذي كتب في اللغة أن المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلاثان.

(٣) الحراقات جمع حراقة سفينة فيها مراسي نار يرمى بها العدو أو ه مختار.

(٤) نضارتهم.

(٥) اسم فارسي يطلق على رئيس القرية وأصحاب العقارات الكبيرة.

أزبعا على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائة بصحافها ووصفاتها فقال الحجاج : « يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس » ^(١) وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبنية وكذلك كانت . ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبدأوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والمبديين من بعدهم ما علمت من أعمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بأفريقية وكذا بني طفج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالمراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في الممران « والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التنازل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع وريبت أجيالهم

(١) إن طبيعة الحجاج البسوية أبت التصنع والتكلف فأمر غلامه بذيح الجزر والطعام الناس .

فِي جَوْ ذَلِكَ النِّعِيمِ وَالرُّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدْدًا إِلَى عَدْدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ
 الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجَيْلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأُخِذَتِ الدُّوْلَةُ فِي
 الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلْ أَوْلِيكَ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدُّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِيهَا
 لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ
 الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرْعُ بِالرُّسُوحِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَأْسُ وَلَا تَبْقَى الدُّوْلَةُ عَلَى خَالَهَا مِنْ
 الْقُوَّةِ . وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدُّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ . كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا
 لِعَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارَبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَقَحْطَانٍ وَلَمَّا بَلَغَ
 الشَّرَفَ مَبَالِغَهُ فِي الدُّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي
 وَالصَّنَائِعِ بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدْدُ إِلَى أضعافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازِلَ عُمُورِيَّةً لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي
 تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدْدِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبًا إِذَا اعْتَبِرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي
 الشُّعُورِ الدَّائِيَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ شَرِيْرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِي
 وَالْمُضْطَّعِينَ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنَ عُبَيْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ
 الْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانِ وَإِنَابٍ فَانظُرْ مَبَالِغَ هَذَا الْعَدْدِ
 لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ الرُّفَةِ وَالنِّعِيمِ الَّذِي حَصَلَ لِلدُّوْلَةِ وَزَيْدِي فِيهِ
 أَجْيَالُهُمْ وَالْأَقْدَادُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ .

الفصل السابع عشر

فِي أَطْوَارِ الدُّوْلَةِ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَخَلْقِ أَهْلِهَا بِاخْتِلَافِ الْأَطْوَارِ
 اعْلَمْ أَنَّ الدُّوْلَةَ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَّحِدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ
 بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ فِي الطَّوْرِ الْآخَرَ لِأَنَّ
 الْخُلُقَ تَابِعَ بِالطَّبِيعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتِ الدُّوْلَةِ وَأَطْوَارِهَا لَا تَعْدُو فِي
 الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظُّفْرِ بِالْبَغْيَةِ وَغَلْبِ الْمُدَافِعِ وَالْمَمَانِعِ

والإستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب
 المعجذ وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفردونهم بشيء لأن
 ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تنزل بعد بحالها. الطور
 الثاني طور الاستبذاد على قومه والانفراد، دونهم، بالملك وكنجهم عن التطاول
 للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باضطناع الرجال
 واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجذع أتوف أهل عصبته وعشيرته
 المقاسمين له في نسبة الضارين في الملك يمثل سببه فهو يدافعهم عن الأمر
 ويصددهم عن موارده ويرددهم على أعقابهم، أن يخلصوا إليه حتى يقر الأمر في
 نصابه ويفرد أهل بيته بما ينبت من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل
 ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم
 على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الأقارب لا يظاهرة على
 مدافعتهم إلا الأقل من الأبعد فيركب صبغاً من الأمر. الطور الثالث طور
 الفراغ والدعة لتخصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تخصيص المال
 وتخليد الآثار وتبعد الصيت فيستفرغ وسعة في الجباية وضبط الدخل والخروج
 وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشديد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار
 المتسعة والنياكل المرتفعة وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبت
 المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أخوالهم بالمال والجاه
 واعتراض^(١) جنوده وإذرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر
 أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكمتهم^(٢) وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول
 المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبذاد من أصحاب
 الدولة لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بأرائهم بانون ليعزم موضعون الطرق
 لمن بعدهم. الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا

(١) بمعنى استعراض جنده.

(٢) سلاحهم.

فَانْعَمَ بِمَا بَنَى أَوْلُوهُ سَلْمًا لِأَنْظَارِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقْلَدًا لِلْمَاضِيْنَ مِنْ سَلْفِهِ
فَيَسْبَعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طَرَفَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الْإِقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ
فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرُهُ وَأَنَّهْمُ أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجِيدِهِ . الطُّورُ
الْعَامِسُ طَوْرُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا
جَمَعَ أَوْلُوهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادِ وَالْكَرَمِ عَلَى بَطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَاضْطِنَاعِ
أَخْدَانِ السُّوءِ . وَخَضْرَاءُ الدَّمَنِ ^(١) وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقْبِلُونَ
بِحَمْلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ
وَصَنَائِعِ سَلْفِهِ حَتَّى يَضْطَعِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضِيْعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ
مِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مَبَاشَرَتِهِ وَتَفَقَّدَهُ فَيَكُونُ مُخْرَبًا لِمَا كَانَ
سَلْفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطُّورِ تَخْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ
الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزْمِنُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ
بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نَبَّيْنَهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي نَسَرَدَهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوْلًا وَعَلَى
قَدْرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا الْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ
قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ
بِالتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةُ الْجَوَانِبِ كَثِيرَةٌ الْمَمَالِكِ وَالرُّعَايَا
كَانَ الْفَعْلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحَشِرُوا مِنْ أَفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ
هَيَاكِلِهِ إِلَّا تَرَى إِلَى مَصْنَعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا .

(١) (بمعنى الجميل في مظهره . الوضع في مخبره وفي الحديث « وإياكم وخضراء الدمن » قالوا ، وما
خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال « المرأة الحسناء في النبت السوء ») .

وَانظُرَ بِالمُشَاهَدَةِ إِيْوَانَ كِشْرَى وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الفَرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرُّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيْبِهِ فَتَكَاهَدَ^(١) عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ العَجْزُ وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيُخَيِّىَ بِنَ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَانظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنٍ مَا بَيْنَ الهَدْمِ وَالبِنَاءِ فِي السُّهُولَةِ . تُعْرَفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنُ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَانظُرْ إِلَى بِلَاطِ الوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقَرْطَبَةَ وَالقَنْطَرَةَ الَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الحَنَائِيَا لِجَلْبِ المَاءِ إِلَى قَرْطَابَةَ فِي القَنَاةِ الرَّايكِيَّةِ عَلَيْهَا وَآثَارُ شَرْشَالِ بِالمَغْرِبِ وَالأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الأَثَارِ المَائِلَةِ لِلِعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ فِي القُوَّةِ وَالضُّعْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الأَنْعَالَ لِلأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالهِنْدَامِ^(٢) وَاجْتِمَاعِ الفَعْلَةِ وَكَثْرَةِ الأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شِيدَتْ تِلْكَ الهَيْكِلُ وَالمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَتَوَهَّمُهُ العَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ الأَقْدَمِينَ عَنِ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ البَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ بَوْنٌ كَمَا نَحْدُ بَيْنَ الهَيْكِلِ وَالأَثَارِ وَلَقَدْ وَلَعَ القُضَاصُ بِذَلِكَ وَتَعَالَوْا فِيهِ وَسَطَرُوا عَنْ عَايِدِ وَثُمُودَ وَالعَمَالِقَةَ فِي ذَلِكَ أَخْبَاراً عَرِيقَةً فِي الكَذِبِ مِنْ أَغْرِبِيَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عَوْجِ بَنِ عِنَاقِ^(٣) رَجُلٍ مِنَ العَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطَوْلِهِ يَتَنَاوَلُ السَّمَكِ مِنَ البَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ وَيَزِيدُونِ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ البَشَرِ الجَهْلِ بِأَحْوَالِ الكَوَاكِبِ لِمَا اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الحَرَّ هُوَ الضُّوءُ وَأَنَّ الضُّوءَ فِيمَا قَرَبَ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرُ لِانْعِمَاسِ الأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ الأَرْضِ بِمُقَابِلَةِ الأَضْوَاءِ فَتَضَاعَفَ الحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ الأَشِعَّةِ المُنْعَكِسَةِ

(١) تَكَاهَدَ ، تَكَفَهَ وَكَابَدَهُ . وَالأَصْحَحُ أَنَّ يَقُولُ تَكَاهَدَهُ .

(٢) الهِنْدَامُ ، التَّنْظِيمُ وَالإِصْلَاحُ .

(٣) قَوْلُهُ ابْنِ عِنَاقِ الَّذِي فِي القَامُوسِ فِي بَابِ الجِيمِ عَوْجُ بَنِ عَوْجِ بِالْوَاوِ وَالمَشْهُورُ عَلَى السُّنَّةِ النَّاسُ عَنُقُ بِالنُّونِ قَالَهُ نَصْرُ البُورِينِي (وَهُوَ رَجُلٌ وُلِدَ فِي مَنْزِلِ آدَمَ . فَعَاشَ إِلَى زَمَنِ مُوسَى . وَذَكَرَ مِنْ عَظَمِ خَلْقِهِ مَا لَا يَصْدُقُهُ) (العقل)

فَلَا حَرَّ هُنَالِكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ مَجَارِي السَّحَابِ وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا
لَا حَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ^(١)

وَكَذَلِكَ عُوجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَاقَةِ أَوْ مِنَ الْكِنَعَانِيِّينَ الَّذِينَ
كَانُوا قَرِيسَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ وَأَطْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجِسْمَانَهُمْ
لِذَلِكَ الْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ
وَجُدِّدَتْ لَمْ تَزَلِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ
بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَضْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مِثَارُ غَلْطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا
آثَارَ الْأَمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوَلِ فِي الْإِجْتِمَاعِ وَالتَّفَاوُنِ وَمَا يَخْصُلُ بِذَلِكَ
وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا يَعْظُمُ هَيَاكِلُهَا
وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلَّاسِفَةِ مَرْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا
التَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جَبَلَةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ
الْكُرَّةِ^(٢) وَنَهَايَةَ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ
الطَّبِيعَةِ فَإِنَّ طُرُوقَ الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِإِنْحِلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةٌ

كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَزِيدَ فَكَانَ الْعَالَمُ فِي أَوْلِيَّةِ نَشَاتِهِ تَامَ الْأَعْمَارُ كَامِلَ الْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ
يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنَقْضَانِ الْمَادَّةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ
يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ الْإِنْجِلَالِ وَانْتِقَاضِ الْعَالَمِ وَهَذَا رَأْيِي لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ كَمَا
تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشَاهِدُ مَسَاكِينَ الْأَوْلِيَيْنِ
وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَخَذْتُوهُ مِنَ الْبُنْيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالذَّبَابِ وَالْمَسَاكِينِ كِدْيَارِ
ثُمُودَ الْمُنْحَوْتَةِ فِي الصُّلْدِ مِنَ الصُّخْرِ يَبُوتًا صِفَارًا وَأَبْوَابِهَا ضَيْقَةً وَقَدْ
أَشَارَ عَلَيْهِ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عَجَنَ بِهِ وَأَهْرَقَ

(١) ثبت للعالم الحديث أن الشمس جسم ملتهب . وأنها محتفظة بالنهابها وحرارتها .

(٢) في بعض النسخ المرة . بمعنى القوة وقال تعالى في آيتي ٥ و ٦ من سورة النجم : « علمه شديد القوى »

ذو مرة فاستوى »

وَقَالَ « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَايدٍ وَمِصْرُ وَالشَّامُ وَسَائِرُ بَقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقاً وَغَرْباً وَالْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ أَمَارِ الدُّوَلِ أَيْضاً خَالَهَا فِي الْأَعْرَاسِ وَالْوَلَايِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وِلِيْمَةِ بُورَانَ وَصَنِيْعِ الْحَجَّاجِ وَابْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ كُلُّهُ .

وَمِنْ أَمَارِهَا أَيْضاً عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نَسَبِهَا وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَسْرَفَتْ عَلَى النَّهْرِمِ فَإِنَّ الْهَيْمَةَ الَّتِي لِأَهْلِ الدُّوَلَةِ تَكُونُ عَلَى نَسَبِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَعَلَيْهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَيْمَةُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدُّوَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِي يَزْنَ لِيُوْفِدَ قُرَيْشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبِيدِ وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرَشٍ ^(١) الْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ امْتِثَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَلَبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةٌ الِيَمَنِ خَاصَّةٌ تَحْتَ اسْتِبْدَادِ فَارِسٍ وَإِنَّمَا حَمَلَةٌ عَلَى ذَلِكَ هِمَّةٌ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ السُّبَايِعَةَ مِنَ الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ وَالغَلْبَ عَلَى الْأَمَمِ فِي الْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الضَّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ أَيْضاً إِذَا أَحَارُوا الْوَفْدَ مِنْ أَمْرَاءِ زَنَاتَةَ الْوَأْفِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالاً وَالْكِسَاءَ تُخَوْتاً مَمْلُوءَةً وَالْحَمْلَانَ ^(٢) جَنَائِبَ عَدِيدَةً .

وَفِي تَأْرِيخِ ابْنِ الرُّيْقِيِّ مِنْ ذَلِكَ أَحْبَابٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ كَانَ عَطَاءُ الْبِرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ وَالنَّفْعَةُ آخِرُ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِذُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مُسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نَسَبِ الدُّوَلِ جَارِيَّةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصَّقْلِيِّ الْكَاتِبِ قَائِدُ جَيْشِ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ اسْتَعَدَّ مِنَ الْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلِ مِنَ الْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا . وَكَذَلِكَ وَجَدَ يَخْطُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَخْمَلُ إِلَى نَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الصَّامُورِيِّينَ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي نَقَلْتُهُ مِنْ جَرَابِ

(١) كَرَشٌ ، وَعَاءُ الطَّيْبِ (قَامُوسٌ) .

(٢) الْحَمْلَانُ ، مَا يَحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الدُّوَابِ فِي الْبَهِيَّةِ خَاصَّةً (قَامُوسٌ) .

الدُّوَلَةُ (غلات السواد) ^(١) سِنَعٌ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحَلَلِ ^(٢) النَّجْرَانِيَّةُ مِائَتًا حِلَّةً وَمِنْ طِينِ الْخَمِّ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا (كَنَكَر) ^(٣) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتْمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (كورد حلة)
 عَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةَ دِرْهَمٍ . (حلوان) ^(٤) أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (الأهواز) خَمْسَةَ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلًا (فارس) سَبْعَةَ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةَ وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عَشْرُونَ أَلْفَ رَطْلًا (كرمان) أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ التَّمْرِ عَشْرُونَ أَلْفَ رَطْلًا (مكران) أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةً وَخَمْسُونَ رَطْلًا (سجستان) أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الثِّيَابِ الْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ الْفَانِيْدِ ^(٥) عَشْرُونَ رَطْلًا (خراسان) ثَمَانِيَةَ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نَقْرِ ^(٦) الْفِضَّةِ أَلْفًا نَقْرَةً وَمِنْ الْبِرَادِيْنِ أَرْبَعَةَ أَلْفِ وَمِنْ الرِّقِيْقِ أَلْفَ رَأْسٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ عَشْرُونَ أَلْفَ ثُوبٍ وَمِنْ الْإِهْلِيلِجِ ^(٧) ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلًا (جرجان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْإِبْرِيْسِمِ أَلْفَ شَقْبَةَ . (قومس) أَلْفَ أَلْفِ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسِمِائَةَ مِنْ نَقْرِ الْفِضَّةِ (طبرستان والروبان ونهاوند) سِتَّةَ أَلْفِ أَلْفِ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ وَمِنْ الْفَرَشِ الطَّبْرِيِّ سِتْمِائَةَ قِطْعَةً وَمِنْ الْأَكْسِيَّةِ مِائَتَانِ وَمِنْ الثِّيَابِ خَمْسِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ الْعِنَادِيْلِ ثَلَاثِمِائَةَ وَمِنْ الْعَجَامَاتِ ثَلَاثِمِائَةَ (الري) اثْنَا عَشَرَ

(١) السواد : كان العرب يطلقونها على الأراضي الزراعية (سواد العراق سواد فارس الخ .)

(٢) الحلال : ج حلة ، فوبان من جنس واحد .

(٣) كئلور في معجم البلدان هكذا ذكرها ياقوت الحموي .

(٤) حلوان ، مقاطعة في العراق وهي غير حلوان مصر وهي في شرقي العراق .

(٥) نوع من الحلوى .

(٦) القطعة المذابة من الفضة أو الذهب .

(٧) ثمر معروف ج اهليلجة .

ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل (همدان) أحد عشر ألف
ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر
ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف
درهم (ماسبدان والدينار^(١)) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهر زور) ستة
آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (الموصل وما يليها) أربعة وعشرون
ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل (اذربيجان)
أربعة آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة
وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف راس ومن العسل اثنا عشر ألف رطل
ومن البزاة^(٢) عشرة ومن الأكسية عشرون (ارمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم
مرتين ومن البسط^(٣) المحفور عشرون ومن الزم خمسمائة وثلاثون رطلاً ومن
المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن
البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون (قنسرين) أربعمائة ألف دينار ومن الزيت
ألف حنبل (دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (الأردن) سبعة
وتسعون ألف دينار (فلسطين) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن
الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون
ألف دينار (برقة) ألف ألف درهم مرتين . (افريقية) ثلاثة عشر ألف ألف
درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون . (اليمن) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون
ألف دينار سوى المتاع . (الحجاز) ثلاثمائة ألف دينار انتهى .

وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف
في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها
بالقناطير خمسمائة ألف قنطار .

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسبدان وربان اه

(٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه

(٣) وفي نسخة القسط وهو عود يتداوى به

وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمُخْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْعَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةٌ
الْأَفَ قِنْطَارَ وَخَمْسِمِائَةَ قِنْطَارًا فِي كُلِّ سَنَةٍ فَاغْتَبِرُ ذَلِكَ فِي نِسْبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ وَلَا تُتَكَرَّرُ مَا لَيْسَ بِمَعْنُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَضْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضِيقُ
حَوْصَلَتَكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ الْمُمْكِنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ
عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ يَبَادِرُ بِالْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْوَالَ الوجودِ
وَالْعُمُرَانَ مَتَفَاوِتَةٌ وَمَنْ أَذْرَكَ مِنْهَا رَتْبَةً سَفْلَى أَوْ وَسْطَى فَلَا يَخْضُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا
فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا اغْتَبِرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةٍ وَالْعَبِيدِيِّينَ
وَنَاسِنَا الصَّحِيحِ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي نَشَاهَدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي
هِيَ أَقْلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا وَهُوَ لَمَّا بَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا
وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا فَالْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا
يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا
مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَفْضِيضِ وَالْمُنَوَّارِ وَفِيهَا الْمَعَانِي وَالْمُشَاهِدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخُذْ
مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُنْقُولَةِ مَرَاتِبِ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَاعْتَبِرْ
ذَلِكَ بِمَا نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظْرَفَةِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْزِينَ رَجُلٌ
مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطُوطَةَ ^(١) كَانَ رَجُلٌ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى
الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي ^(٢) حَاضِرَةَ مَلِكِ
الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهٍ وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ قَيْرُوزْجُوهُ وَكَانَ لَهُ
مِنْهُ مَكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى
الْمَغْرِبِ وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانَ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنْ
الْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ

(١) كان ابتداء رحلته ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهىها سنة ٧٥٤ وهي عجيبية ومختصرها ٧ كراريس ١ هـ .

(٢) كذا في جميع النسخ وتعرف اليوم باسم دلهي .

أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أخصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمانة في ذلك الخقل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر^(١) الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناحى الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وزدار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأزنته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه .

فقال لي الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن وذلك أن وزيراً اغتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنة في ذلك المجلس فلما أذرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفا له أبوه بشيائها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في مخبئه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر ولهذا كثيراً ما يغتري الناس في الأخبار كما يغتريهم الوسواس في الزيادة عند قضي الإغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء فإننا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وبنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه « وقل رب زدني علماً وأنت أرحم الراحمين » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) شكائر من شكر، بمعنى الضروع .

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي
والمصطنعين

إِعْلَمَ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَا بِقَوْمِهِ فَهَمَّ عَصَابَتُهُ وَظَهْرَاؤُهُ
عَلَى شَأْنِهِ وَيَهْمُ بِقَارِعِ الْخَوَارِجِ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقَلَّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ
وَجَبَايَةَ أَمْوَالِهِ لِأَنَّهَا أَعْوَانُهُ عَلَى الْغَلْبِ وَشُرَكَاءُؤُهُ فِي الْأَمْرِ وَمُسَاهِمُونَ فِي سَائِرِ مَهْمَاتِهِ
هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ الثَّانِي وَظَهَرَ الْإِسْتِبْدَادُ
عَنْهُمْ وَالْإِنْفِرَادُ بِالْمَجْدِ وَدَافَعْتَهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَّاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ
أَعْدَائِهِ وَاحْتِاجَ فِي مَدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدَّهُمْ عَنِ الْمَشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ
غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ
وَإِخْصَ بِهِ قُرْبًا وَاصْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيْثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مَدَافِعَةِ
قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّتْبَةِ الَّتِي أَلْفَوْهَا فِي مَشَارِكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَخْصُمُهُمْ بِمَزِيدِ التُّكْرِمَةِ وَالْإِيْثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ
وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوَلَايَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجَبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ
لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ الْقَابِ الْمَمْلُوكَةِ لِأَنَّهَا جِينِيذُ أَوْلِيَاءُؤُهُ
الْأَقْرَبُونَ وَنُصْحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ وَذَلِكَ جِينِيذُ مُؤَدِّنُ الْبَاهْتِضَامِ ^(١) الدَّوْلَةِ وَعَلَامَةٌ عَلَى
الْمَرَضِ الْمَزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءَ الْغَلْبِ عَلَيْهَا.

وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ جِينِيذُ مِنَ الْإِمْتِهَانِ وَعَدَاوَةُ السُّلْطَانِ فَيَضْطَظُّونَ ^(٢)
عَلَيْهِ وَيَتَرَبُّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ

(١) بمعنى رخاوة .

(٢) بمعنى يحقدون عليه .

هذا الداء لأنه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعيد بن أبي وقاص وعبد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بريدة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجال العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجال العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للمعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بقا ووصيف وألمش وبالكناك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي المعجم فتكون الدولة لغير من مهدها والمز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

الفصل العشرون

في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول

إعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الإلتحام بصاحب الدولة يتفاوت قديمهم وحديثهم في الإلتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تنتزل منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً فإنما هو وهمي والمعنى الذي كان به الإلتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمعربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة وإذا حصل الإلتحام بذلك جاءت النعمة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله في الاضطناع فإنه يحدث بين المصطنع ومن اضطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنتزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة

وَأَنَّ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَمَمَرَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ
وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا
أَصْرَحَ لِوَجْهِينَ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمَلِكِ أَسْوَةٌ فِي خَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ
الْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلَ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا
اضْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمَلِكِ مُمَيَّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى . وَلَا أَهْلَ
الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوِلَايَةِ وَالِاضْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ تَمَيُّزِ
الرَّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ خَالَتَهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِتِحَامُ بَيْنَهُمْ
أَضْعَفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أْبَعَدَ وَذَلِكَ أَنْقَصَ مِنَ الْإِضْطِنَاعِ قَبْلَ الْمَلِكِ .

الْوَجْهَ الثَّانِي أَنَّ الْإِضْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يَبْنَعُ عَهْدَهُ عَنِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطَوْلِ
الزَّمَانِ وَيُخْفِي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَتَقَوَّى خَالَ الْعَصْبِيَّةِ
وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَتَقَرَّبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ
النَّسَبِ فَتَضَعُفُ الْعَصْبِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوِلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
الدُّوَلِ وَالرِّئَاسَاتِ تَجِدُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ إِضْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ
لِمُضْطِنَعِيهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ التَّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ أَوْلَادِهِ وَإِخْوَانِهِ
وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ إِضْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَلِكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُضْطِنَعِيهِ لَا يَكُونُ
لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي آخِرِ
عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاضْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ
الْمُضْطِنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقَرَبِ الْعَهْدِ جِيئِذٍ بِأَوْلِيَائِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْقِرَاضِ
فَيَكُونُونَ مُنْخَطِئِينَ فِي مَهَاوِي الضَّعْفِ .

وَأَمَّا يَخْمَلُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ عَلَى إِضْطِنَاعِهِمْ وَالْمُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنِ أَوْلِيَائِهَا
الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَغْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ
وَقَلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأْكِدِ اللَّحْمَةِ مِنْذُ الْعُصُورِ
الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبِيِّ وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ كِبَرَاءِ أَهْلِ نَيْبَتِهِ

فِيحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِرَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِفْعَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عِنْدَ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ قَرِيباً فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجِيدِ وَيَتَّقُونَ عَلَى خَالِيهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّوْلِ فِي أَوَّخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحَدَّثُونَ فَخَدَمَ وَأَعْوَانَ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبَتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَانْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمَنْصِبِ مِنْ وَرَثَائِهِمْ وَخَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي الْأَكْثَرِ وَلايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبَتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلايَةِ بِعَيْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوْلِهِ وَيُؤَنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمَلِكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَرَثَةِ أَبِيهِ وَخَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوزَرِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤَنَسَ مِنْهُ الْإِسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرْبَةً لِلْمَلِكِ فَيَحْتَجِبُ الصَّبِيُّ عَنِ النَّاسِ وَيَعُودُهُ إِلَيْهَا تَرَفُّ أَحْوَالِهِ وَيَسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمَكَّنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عُودَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّفَقَةِ وَخَطَابُ التَّهْوِيلِ وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنْ الْحُلَّ وَالرُّبُطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمَبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيَسْلَمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةَ الرِّئَاسَةِ وَالْإِسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ وَيُؤَثِّرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِابْنِي بُؤْيَيْهِ وَالثُّرَكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

وَقَدْ يَتَفَتَّنُ ذَلِكَ الْمَخْجُورُ الْمُغْلَبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى ^(١) الْخُرُوجِ مِنْ رَبِيعَةِ
 الْحَجَرِ وَالِاسْتِبْدَادِ وَيَرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغْلِبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا
 بِقَتْلِ أَوْ بِرَفْعِ عَنِ الرَّبِيعَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي
 تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقُلْ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي
 الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرْفِ وَنَشَاةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ
 الرُّجُولَةِ وَالْفُؤَادِ أَخْلَاقَ الدَّيَاتِ وَالْأَطَارِ ^(٢) وَرَبَّوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةِ وَلَا
 يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالْأَيْمَةِ وَالتَّنْفُسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ
 التَّرْفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُضْطَمِّنِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمُلْكِ عَلَى
 قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرْوِيٌّ كَمَا قَدِمْنَا وَهَذَا مِنْ مَرَضَانِ
 لَا بُرَّةَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
 وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِهِ مِنْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بَعْضِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ
 وَعَصَبِيَّةٌ الَّتِي اسْتَبَعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةَ الْمُلْكِ وَالغَلْبِ وَهِيَ لَمْ
 تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبِقَاوُهَا وَهَذَا التَّغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ
 مِنْ قَبِيلِ الْمُلْكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمُلْكِ
 وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ انْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنْ
 الْأُمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ يُوهَمُ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ

(١) ليس لها معنى وربما تكون زائدة .

(٢) أطارج ظئر، المرضع، وظئر القصر، ركنه (قاموس)

سُلْطَانِيهِ مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ
وَشَارَاتِهِ وَأَلْقَائِهِ جُهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التَّهْمَةِ بِذَلِكَ .

وَأَنْ حَصَلَ لَهُ الْإِسْتِنْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي اسْتِنْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ
السُّلْطَانُ وَأَوْلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمُعَالِطَ عَنْهُ بِالنِّيَايَةِ وَلَوْ
تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْإِسْتِنْدَادَ
بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِنْعَةً تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادَ فَيَهْلِكُ
لأَوَّلِ وَهَلَبَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ
حِينَ سَمَا إِلَى مَشَارِكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنَعَ بِهِ أَبُوهُ
وَأَخُوهُ مِنَ الْإِسْتِنْدَادِ بِالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَامِسِ الْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ
يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَفَسَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قَرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِّ
الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ
خَرَابٌ دَوْلَةَ الْعَامِرِيِّينَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدُ خَلِيفَتِهِمْ وَاسْتُئِيدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصٍ ^(٢)
الدَّوْلَةَ إِلَى آخِرِهَا وَاخْتَلَّتْ مَرَامِسُ مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الْمَلِكُ مَنْصَبٌ طَبِيعِيُّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ
وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَضُرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا
دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ
يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والتون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره أهلا له كما في

القاموس .

(٢) أعياص ج عيص : منبت خيار الشجر ، ويقال هو من عيص كريم ، أي من أصل كريم (قاموس)

وَيَمَانَعُهُ الْآخِرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْأَنْفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ
التَّنَازُعُ الْمُفْضِي إِلَى الْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُوَدِّي إِلَى الْهَرَجِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَأَذْهَابِ النُّفُوسِ
الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النُّوعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمَحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ
بِقَاؤِهِمْ قَوْصَى دُونَ خَالِمٍ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَأَاعِ
وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكِ الْقَاهِرِ الْمُتَحَكِّمِ وَلَا بُدَّ فِي
ذَلِكَ مِنَ الْعَصِيَّةِ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا
بِالْعَصِيَّةِ وَهَذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصَبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوُهُ الْمُطَالِبَاتُ وَيَخْتَاجُ إِلَى
الْمُدَافَعَاتِ .

وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ
عَصِيَّةٍ فَلَهَا تَحْكُمٌ وَتَغْلِبُ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ
عَصِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ
الْبُعُوثَ وَيَخِمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدَيْهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ
فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِنَايَةِ
الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ يَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ
الْبُرْتَبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعَالِيَةِ بِالْفِيرَوَانَ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ أَيْضاً عَنِ الْإِسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ ، وَالضَّرْبِ
عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضاً مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ يَتِمَّ حَقِيقَتُهُ
وَهُؤُلَاءِ مِثْلُ أَمْرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجَمَّعَتْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيراً
مَا يُوْجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمَتَّسِعَةِ النَّطَاقِ اعْنِي تَوْجِدَ مُلُوكٍ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي
الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صُنْهَاجَةَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَزَنَانَةَ
مَعَ الْأَمْوِيِّينَ تَارَةً وَالْعَبِيدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
وَمِثْلُ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ مِنَ الْفَرَسِ مَعَ الْإِسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ
فَاعْتَبَرَهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهاف الحد مضرٌ بالملك ومفسد له في الأكثر

إِغْلَمَ أَنْ مَضْلَحَةَ الرُّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجَسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عَظَمِ جُثْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودَةِ خَطْبِهِ أَوْ ثِقُوبِ ذَهْنِهِ وَإِنَّمَا مَضْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبِينَ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرُّعِيَّةِ الْقَائِمِ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رِعِيَّةٌ وَالرُّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابَعُهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أُمَّةٍ الْوُجُوهِ فَإِنَّمَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَضْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرًّا عَلَيْهِمْ وَاهْلَاكَ لَهُمْ .

وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرَّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنْقَبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمَلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَافُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسُدَ الدُّوْلَةُ وَيَخْرُبَ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ فَسَدَتِ الْعُصْبِيَّةُ لِمَا قُلْنَا أَوْلَا وَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَصْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سِيَّاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأَشْرَبُوا مَحَبَّتَهُ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَازَرَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ فَهِيَ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَضَلُّ كَبِيرٍ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرُّعِيَّةِ وَإِغْلَمَ أَنَّهُ

قَلَمَّا تَكُونُ مَلَكَ الرَّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقْظًا شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرَّفْقُ فِي الْعَقْلِ وَالْمَتَعَلِّقِ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنَفْوَذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَأَطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِالْمَعِينَةِ فَيَهْلِكُونَ لِذَلِكَ قَالَ ﷺ « سِيرُوا عَلَى سِيرِ أضعفكم » وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قَلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ . وَمَأْخُذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عَمْرٌ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ ، « لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَجْزُ أَمْ لِيخِيَانَةٌ » فَقَالَ عَمْرٌ ، « لَمْ أَعْزَلْكَ لِوَأَحَدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْمَلَ فَضْلُ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ » فَأَخَذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مَفْرُطَ الذِّكَاءِ وَالْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ وَعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ لَمَّا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ التَّقْصِفِ وَسُوءِ الْمَلَكََةِ وَحَمْلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبِيعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذِّكَاءَ عَيْنٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُمُودِ وَالطَّرْفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْمَحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكِرَمِ مَعَ التَّبْدِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَمَا فِي الشُّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَعَبِيرُ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُنْشِيطُنٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الصُّرُورِيُّ لِلْبَشَرِ وَمُقْتَضَاةُ التَّغَلُّبِ وَالْقَهْرِ اللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْعُضْبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْغَالِبِ جَائِزَةً عَنِ الْحَقِّ مُجْحِفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمَلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَيَخْتَلَفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ

المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى
الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة
ويتقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة
من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها « سنة الله في الدين خلوا
من قبل » . فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها
كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت
سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم
دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء . والله يقول
« أَحْسِبْتُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى
السعادة في آخرتهم « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » فجاءت
الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي
هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً
بنظر الشارع . فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإعمال القوة العصبية في
مرغابها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه
بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله « ومن لم يجعل
الله له نوراً فما له من نور » لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم
من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره
قال ﷺ « إنما هي أعمالكم ترد عليكم » وأحكام السياسة إنما تطلع على
مصالح الدنيا فقط « يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا » . ومقصود الشارع بالناس
صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في
أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه
مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو
حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسة هو حمل الكافة على مقتضى

النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكفاية على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فأنهم ذلك واعتبره فيما نوره عليك من بعد والله الحكيم العليم .

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للأمة في قوله تعالى « إني جاعل في الأرض خليفة » وقوله « جعلكم خلائف الأرض » .

ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال « لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ » ولأن الاختلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا . ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك

إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام . وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل . وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه .

قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لأزدياد الأغراض . فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فسادِه وأن إحدى مقدماتِه أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلّم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتخريم الظلم عليه بحكم العقل فادعواؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه .

وقد شدّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم . والواجب عند هؤلاء إنما هو انضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتاج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء مخجوجون بالإجماع . والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتماع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بدم ذلك والنهي على أهله ومرغبة في رفضه . وأعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حطر القيام به وإنما ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفسد مخطورة

وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ كَمَا أَتَى عَلَى الْعَدْلِ وَالنُّصْفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَامِ الدِّينِ وَالذَّبِّ عَنْهُ
وَأَوْجِبَ بِإِزَائِهَا الثَّوَابَ وَهِيَ كُلُّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمَلِكِ .

فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ الدَّمُ لِلْمَلِكِ عَلَى صِفَةٍ وَحَالٍ دُونَ حَالِ أُخْرَى وَلَمْ يَذُمَّ لِذَاتِهِ وَلَا
طَلَبَ تَرْكَهُ كَمَا دَمَ الشُّهُوةُ وَالغَضَبُ مِنَ الْمُكَلِّفِينَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ
لِدِعَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا وَأَمَّا الْمُرَادُ تَضْرِيْفُهُمَا عَلَى مُقْتَضَى الْحَقِّ وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ
وَسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمَا وَهَمَّا مِنْ أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عِنْدَهُ ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمَلِكِ بَعْدَ وَجُوبِ هَذَا
النُّصْبِ ^(١) لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئاً لِأَنَّكُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وَجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَذَلِكَ
لَا يَخْضَلُ إِلَّا بِالْعَصْبِيَّةِ وَالشُّوْكَةِ وَالْعَصْبِيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبِيعِهَا لِلْمَلِكِ فَيَخْضَلُ الْمَلِكُ
وَإِنْ لَمْ يُنْصَبْ إِمَامٌ وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَّرْتُمْ عَنْهُ . وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النُّصْبَ وَاجِبٌ
بِإِجْمَاعِ فَهَوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ
نُصْبُهُ وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصِبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ ، الْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكَفَايَةُ وَسَلَامَةُ
الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ وَاخْتِلَافٌ فِي شَرْطٍ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ
الْقُرَشِيُّ فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنْفِذاً لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ
عَالِماً بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مُجْتَهِداً لِأَنَّ التَّقْلِيدَ تَقْصُ وَالْإِمَامَةَ تَسْتَدْعِي الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَحْوَالِ وَأَمَّا
الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّ الْمَنْصِبَ دِينِيٌّ يَنْظَرُ فِي سَائِرِ الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوْلَى
بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ .

وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ يَفْسُقُ الْجَوَارِحُ مِنْ ارتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ
وَأَمْثَالِهَا وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبِدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ .

(١) أي نصب الامام .

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهِيَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئاً عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاقْتِحَامِ الْحُرُوبِ
بَصِيراً بِهَا كَفَيْلاً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا عَارِفاً بِالْعَصَبِيَّةِ وَأُخُوَالِ الدَّهَاءِ قُوياً عَلَى
مُعَانَاةِ السِّيَاسَةِ لِيَصِحَّ لَهُ بِذَلِكَ مَا جَعَلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ
الْأَحْكَامِ وَتَذْيِيرِ الْمَصَالِحِ .

وَأَيُّ سَلَامَةِ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَطَلَةِ ^(١) كَالجُنُونِ وَالْعَمَى وَالضَّمَمِ
وَالْحَرَسِ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدَهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ كَقَفْدِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ
فَتَشْتَرِطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلَّهَا لِتَأْتِيرَ ذَلِكَ فِي تَعَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جَعَلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ
إِنَّمَا يَشِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ كَقَفْدِ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَشَرَطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ
كَمَالِ وَيُلْحَقُ بِفَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِذِهِ
فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ وَجُوبٍ وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ
وَشِبْهِهِ وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِذِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيْلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ
عِضْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ فَيَنْتَقِلُ النُّظْرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْلِي فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ
وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقْبِضُ يَدَهُ عَنِ
ذَلِكَ وَيُدْفَعُ عِلَّتَهُ حَتَّى يُنْفَذَ فِعْلَ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِاجْتِمَاعِ الصَّخَايَةِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاخْتِجَتْ
قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هُمَا يَوْمئِذٍ بَيْنَعَةَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ
أَمِيرٌ » بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » وَبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ
نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَتَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ
بِكُمْ فَحَجَّجُوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا
هُمَا بِهِ مِنْ بَيْنَعَةَ سَعْدٍ لِذَلِكَ . وَثَبَّتْ أَيْضاً فِي الصَّحِيحِ « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي هَذَا
الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدْلَةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ

(١) تعطيل الرجل إذا بقي لا عمل له . والأسم العطلة وفلان ذو عطلة إذا لم تكن له صنعة يمارسها

(لسان العرب) وقد استعملها ابن خلدون بمعنى فقد الحواس أو تعطيلها .

عَصِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنِّعَمِ وَيَمَا أَنْفَقْتَهُمُ الدُّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجِزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحُلُ وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرِ فِي ذَلِكَ ، مِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِّي وَلِيُّ عَلَيْكُمْ عِنْدَ حَبَشِي دُوْرِيَّةِ » وَهَذَا لَا تَقْوَمُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ وَالْفَرْضِ لِلْمَبَالِغَةِ فِي إِيْجَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ « لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَذِيْفَةَ حَيًّا لَوَلِيْتُهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الظَّنُّ » وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ مَذْهَبَ الصُّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمُفِيدِ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَذَكُرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صِرَاحَةُ النَّسَبِ فَرَأَهُ غَيْرَ مُخْتِاجٍ إِلَيْهِ إِذِ الْفَائِدَةُ فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لَائِمَةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ .

وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِنَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصِيَّةُ قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِي وَالْإِضْمِخْلَالِ وَاسْتِبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ حَالِ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصَحَّحَ الْإِمَامَةُ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سَقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ الشُّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالذِّينِ وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْتِمَاعِ .

وَلْتَتَكَلَّمِ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصُّوَابُ فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ

فَنَقُولُ ، إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدٍ وَحَكْمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا
وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا نَحْنَا عَنْ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ
الشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يَقْتَضِرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوَصْلَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ وَإِنْ
كَانَتْ تِلْكَ الْوَصْلَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكِ بِهَا خَاصِلًا لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ
الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَضْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ
مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اعْتِبَارَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ
وَالْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفِرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ
وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ الْإِلْفَةِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عِضْبَةً مُضَرٌ وَأَصْلُهُمْ وَأَهْلُ
الْقَلْبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ وَالْعَصَبِيَّةُ وَالشَّرْفُ فَكَانَ سَائِرُ
العَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِعَظِيمِهِمْ فَلَوْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ
اِفْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَائِلِ مُضَرٍ أَنْ
يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى الْكُرَّةِ فَتَتَفَرَّقُ الْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ .

وَالشَّارِعُ مُحَدَّرٌ مِنْ ذَلِكَ حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفَعِ التَّنَازُعَ وَالشَّتَاتَ بَيْنَهُمْ
لِيَحْضَلَ اللِّحْمَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ وَتَحْسُنَ الْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ
لَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بِعِضَا الْقَلْبِ إِلَى مَا يِرَازُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ
مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ وَلَا فِرْقَةٍ لَأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا فَاشْتَرَطَ
نَسَبَهُمُ الْقُرَشِيِّ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أُنْبَلُغَ فِي انْتِظَامِ
الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَإِذَا انْتَضَمَتْ كَلِمَتُهُمْ انْتَضَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرٍ أَجْمَعٍ
فَادْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ وَانْقَادَتِ الْأُمَّةُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ
قَاصِيَةَ الْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفَتْوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنْ اضْمَحَلَّ
أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّغْلِبِ عَلَى
بَطُونِ مُضَرٍ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَسِيرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السِّيرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ

الْقَرْشِيَّةُ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالغَلْبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ
 لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِحِيلٍ وَلَا عِضْرٍ وَلَا أُمَّةٍ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِفَايَةِ
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقَرْشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ
 فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أَوْلَى عَصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ عَلَى
 مَنْ مَعَهَا لِعِضْرِهَا لِيَسْتَتَبِعُوا مَنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يَعْلَمُ
 ذَلِكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقَرْشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ
 كَانَتْ عَامَّةً وَعَصِيَّةُ الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَعَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَّةِ وَإِنَّمَا يَخْصُ لِهَذَا
 الْعَهْدِ كُلِّ قَطْرٍ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصِيَّةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ
 تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ
 عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَرْدَهُمْ عَنْ مَضَارِهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ
 لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ ^(١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنَّهِنَّ فِي كَثِيرٍ
 مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ . وَإِنَّمَا
 دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَامِينَ
 عَلَيْهِنَّ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخِطَابُهُنَّ فِيهَا
 بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا
 مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالَفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى
 أَعْلَمُ .

(١) قوله الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إِغْلَمَ أَنَّ الشَّيْعَةَ لُغَةً هُمْ الضَّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ وَيُطْلَقُ فِي عَرَفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ^(١) مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيِّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذْهَبِهِمْ جَمِيعاً مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفُوضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنٌ الدِّينِ وَقَاعِدَةٌ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالِهِ وَلَا تَفْوِيضَهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَغْضُوماً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنْ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤْوِلُونَهَا عَلَى مَقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جِهَابُذَةُ السُّنَّةِ وَلَا تَقَلُّهُ الشَّرِيعَةُ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ يَعِيدُ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةَ .

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيِّ فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاةً فَعَلِيٌّ مَوْلَاةً » قَالُوا وَلَمْ تُطْرَدِ هَذِهِ الْوَلَايَةُ إِلَّا فِي عَلِيٍّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عَمْرٌ « أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ » وَمِنْهَا قَوْلُهُ « أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ » وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمَرَادُ بِأَوْلِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ بِقَوْلِهِ « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وَالْمَرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا كَانَ حُكْمًا

(١) هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام .

فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ « مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى رُوحِهِ وَهُوَ
وَصِيٌّ وَوَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي » فَلَمْ يُبَايِعْهُ إِلَّا عَلِيُّ .

وَمِنَ الْخَفِيِّ عِنْدَهُمْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ
حِينَ أَنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ بِهَا أَوْلَادَ أَبِي بَكْرٍ ثُمَّ أَوْحَى إِلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُ رَجُلًا مِنْكَ أَوْ مِنْ
قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ الْقَارِئَ الْمُبَلِّغَ قَالُوا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ . وَأَيْضًا
فَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ . وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدَّمَا عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ ^(١)
أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرَ بْنَ الْعَاصِ أُخْرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَغْيِينِ عَلِيٍّ
لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرٌ مَعْرُوفٍ وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ
مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَغْيِينِ عَلِيٍّ وَتَشْخِصِهِ . وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ وَيَتَّبِعُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ حَيْثُ لَمْ يَقْدَمُوا عَلِيًّا
وَيُبَايِعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَيَغْمِضُونَ ^(٢) فِي إِمَامَتَيْهَا وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى تَقْلِ
الْقَدْحِ فِيهِمَا مِنْ غَلَاتِهِمْ فَهُوَ مُرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَدَلَّةَ
إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَغْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَضْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقْصَرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا
الْوَضْفَ مَوْضِعَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا يَتَّبِعُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ وَلَا يَغْمِضُونَ فِي
إِمَامَتَيْهَا مَعَ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ
الْأَفْضَلِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ تَقْوِيلُ هَؤُلَاءِ الشَّيْعَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي
وُلْدِ فَاطِمَةَ بِالنُّصِ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُذَكَّرُ بَعْدَ وَهَؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ
الْإِمَامِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَغْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَضَلُّ
عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مِنَ الشُّيُوخِ وَيَشْتَرِطُ أَنَّ
يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ غَالِمًا زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَالْأصحُّ أَنَّ يَقُولُ غَزَاتَيْنِ . مِثْنَى غَزْوَةٍ .

(٢) غَمَضَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ، كَذَبَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ ، عَابَهُ عَلَيْهِ ، وَغَمَضَهُ ، حَقَرَهُ وَاسْتَصْفَرَهُ (قَامُوسٌ) .

الزَيْدِيَّةُ نَسَبَةٌ إِلَى صَاحِبِ الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّنْبُطِيِّ (١) وَقَدْ كَانَ يَنَظُرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامَةِ فَيَلْزِمُهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِمَامًا لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهِ مَذَاهِبُ الْمُفْتَزِلَةِ وَأَخَذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطِيَاءٍ وَلَمَّا نَظَرَ الْإِمَامِيَّةُ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخِينَ وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُونَ مِنْهُمَا رَفْضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَيْمَةِ وَبِذَلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيِّ وَابْنَيْهِ السَّنْبُطِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحْيَاهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ وَهُمُ الْكَيْسَانِيَّةُ نَسَبَةٌ إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَتَبَيَّنَ هَذِهِ الطَّوَائِفُ اخْتِلَافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يُسَمُّونَ الْعَلَاءَةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ فِي الْقَوْلِ بِالْوَهْيَةِ هُوَلَاءُ الْأَيْمَةِ . إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَّرُوا بِصِفَاتِ الْأَلْوَهْيَةِ أَوْ أَنَّ الْإِلَهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَطَ (٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَخَ بِلُغْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلَ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هُوَلَاءِ الْعَلَاءَةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعَيِّنُ لِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُوَلَاءُ هُمُ الْوَاقِفِيَّةُ فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِقِصَّةِ الْخَضِرِ (٣) قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السُّحَابِ وَالرَّعْدُ

(١) السنبطي ، ولد البنت ، ولذلك يطلق على الحسن والحسين ابني الإمام علي (رضي الله عنهم) من فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) بنت رسول الله ﷺ فكل منهما سبط للرسول ﷺ .

(٢) ربما سقط حرف على من الجملة ، بحيث تصبح الجملة « وسخط محمد بن الحنفية على

المختار . . . »

(٣) ورد ذكر هذه القصة في القرآن الكريم « سورة الكهف بين الآية ٦٥ - ٨٥ » .

صَوْتُهُ وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ
أَرْضِ الْحِجَازِ .

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ .

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاهُ
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءُ
فَسَبَطُ سَبَطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاءُ
وَسَبَطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللَّوَاءُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وَقَالَ مِثْلَهُ غُلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ
مِنْ أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيُلَقَّبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابِ
بِذَارِهِمْ فِي الْحِلَّةِ ^(١) وَتَغَيَّبَ حِينَ اعْتَقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ
الزَّمَانِ فَمِثْلًا الْأَرْضَ عَدَلًا يُسَيِّرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التُّرْمُذِيِّ فِي
الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى الْآنِ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ ، وَيَقْفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ
صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ هَذَا السِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فَمَيَّتِفُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ
لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ ثُمَّ يَنْفُضُونَ وَيَزْجَحُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى
ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ
الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ
ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ الْاِسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ
مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ وَعَلَّلَهُ الْمَوَاسِطُ بِالْحِضَابِ ^(٢)
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَصَمَّ يَا صَاحِبَ نَبِكَ عَلَى الشَّبَابِ

(١) المعروف أنه غاب في سامراء ومقامه معروف إلى اليوم .

(٢) قَدَالٌ ، ج قَدَالٌ وَقَدَالَةٌ ، مَا بَيْنَ الْأَذْنَيْنِ مِنْ مُؤَخَّرِ الرَّأْسِ . الْحِضَابُ ، الْحَنَّةُ .

إلى يوم تتوب الناس فيه إلى ذنبيهم قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه إلى أحد إلى يوم الإياب
أدين بأن ذلك دين حق وما أنا في النشور يذي ارتياب
كذلك الله أخبر عن أناس حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فإنهم لا يقولون بها وينطلون
احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى
ابنه أبي هاشم وهؤلاء هم الهاشمية ثم افرقوا فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي
ثم إلى ابنه الحسن بن علي وأخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة
منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد
إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية
الملقب بالسفاح وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور
وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية
القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة
الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر
يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بمصيبة
العمومية وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل
والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه
زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل
وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان
وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن
السطب ويقال له النفس الزكية ، فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر
المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي
فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق

أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كَرَامَاتِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ
 مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسَ الزُّكِّيَّةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ، وَعُمَرُ
 هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّلَاقَانِ فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَسَبِقَ إِلَى
 الْمُعْتَصِمِ فَحَبَسَهُ وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ
 يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ
 مَنْصُورٍ وَتَقَلَّبُوا الْإِمَامَةَ فِي عَقِبِهِ وَإِلَيْهِ انْتَسَبَ دَعْوَى الزَّنْجِ كَمَا نَذَرْنَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ
 آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ إِدْرِيسُ الَّذِي فَرَّ إِلَى
 الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَاكَ وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ إِدْرِيسُ وَاخْتَطَطَ مَدِينَةَ فَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ
 عَقِبُهُ مَلُوكًا بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَرْنَا فِي أَخْبَارِهِمْ. وَبَقِيَ أَمْرُ الزُّيْدِيَّةِ
 بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرِسْتَانَ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ
 زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ
 وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهِدِهِ الدُّعْوَةُ فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ.
 وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ أَخُو
 زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بَطْبَرْسْتَانَ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ الدَّيْلَمِيُّ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ
 وَالْإِسْتِبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِنِعْدَادِ كَمَا نَذَرْنَا فِي أَخْبَارِهِمْ. وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ
 مِنْ عَلِيِّ الرَّضِيِّ ^(١) إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ
 زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا
 فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُواهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ
 وَفِرْقَةٌ سَاقُواهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ لِوُقُوفِهِمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ
 مِنَ الْأَيْمَةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ
 إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَقَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ
 قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا
 قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَيْمَةِ

(١) يقصد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

المستورين لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتير وتكون دعاته ظاهرين
إقامة للحجة على الخلق وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد
المكتوم ابنه جعفر الصادق^(١) وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين
وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة
وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيزوان
والمغرب وملك بنوه من بعده مضر كما هو معروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء
نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام
الباطن أي المستور ويسمون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقالاتهم من الإلحاد ولهم
مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة
الخامسة وملك حصوناً بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك
بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانخرضت . ومقالة هذا الصباح في
دعوته مذكورة في كتاب « الملل والنحل » للشهرستاني . وأما الأثنا عشرية فربما
خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر
الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر فنص على إمامة
موسى هذا . ثم ابنه علي الرضا الذي عهد إليه المؤمن ومات قبله فلم يتم له أمر
ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن العسكري ثم ابنه
محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة
اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه
بكتاب الملل والنحل لابن حزم^(٢) والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله
يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير .

(١) لقب الاسماعيلية جعفر بن محمد المكتوم بلقب جده الثاني جعفر الصادق .

(٢) كتاب ابن حزم اسمه « الفضل في الملل والنحل » وكتاب الشهرستاني « الملل والنحل » .

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصِيَّةِ لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضُرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ الشَّرَائِعَ وَالذِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يَخْلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ إِذِ الْمَطَالِبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدَّمْنَا . فَالْعَصِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبِوُجُودِهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللَّهِ مِنْهَا وَفِي الصَّحِيحِ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّرْعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى اطْرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةً ^(١) الْجَاهِلِيَّةَ وَفَخَرَهَا بِالْإِبَاءِ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وَقَالَ تَعَالَى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ » وَوَجَدْنَا أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ وَنَمَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْخِلَاقِ ^(٢) وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَإِنَّمَا حَضُّ عَلَى الْإِلْفَةِ فِي الدِّينِ وَحَذْرٌ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفِرْقَةِ . وَاعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالَهَا مَطِيئَةٌ لِلْآخِرَةِ وَمَنْ فَقَدَ الْمَطِيئَةَ فَقَدَ الْوُصُولَ . وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيمَا يَنْتَهَى عَنْهُ أَوْ يَدْعُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالَهُ بِالْكُلِّيَّةِ أَوْ اقْتِلَاعَهُ مِنْ أَضْلِهِ وَتَعْطِيلِ الْقَوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَضْرِيْفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِّ جُهْدَ الْإِسْتِطَاعَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا وَتَتَّجِدَ الْوُجْهَةُ كَمَا قَالَ ﷺ « مَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِمْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهُجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » فَلَمْ يَذُمَّ الْعَضْبَ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْعَضْبِ لَفَقَدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارَ لِلْحَقِّ وَبَطَلَ الْجِهَادَ وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَذُمَّ الْعَضْبَ

(١) غبة بضم العين وكسرهما الواحدة المشددة وتشديد اللثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة اه قاموس .

(٢) الخلاق ، النصب الوافر من الخير ، وبكسر الخاء نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

لِلشَّيْطَانِ وَاللَّاعِرَاضِ الذَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لِدَلِكْ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ
فِي اللَّهِ وَهُوَ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ ﷺ وَكَذَا ذُمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ
الْمُرَادُ إِبْطَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ تَقْصًا فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ
تَضْرِيْفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَضَرِّفًا طَوْرَ
الْأَوْامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصِيَّةُ حَيْثُ نَمَّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ » فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ مِجَانٌ مِنْ أَعْمَالِ
الْعُقْلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ
وِإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لِنَبَطْلِ الشَّرَائِعِ إِذْ لَا يَتِمُّ قِوَامُهَا إِلَّا
بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ الْعَلْبُ بِالْحَقِّ
وَقَهْرُ الْكُفَّافَةِ عَلَى الدِّينِ وَمُرَاعَاةُ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ
وَتَضْرِيْفِ الْإِدْمِيئِينَ طَوْرَ الْأَعْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَا ، فَلَوْ كَانَ الْمَلِكُ مُخْلِصًا
فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ
قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ « رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » لِمَا عَلِمَ
مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ . وَلَمَّا لَقِيَ مَعَاوِيَةَ عَمْرُ بْنُ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَهْبَةِ الْمَلِكِ وَزِيَةِ مِنَ الْعَدِيدِ
وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ « أَكِسْرَوِيَّةٌ يَا مَعَاوِيَةُ ؟ » فَقَالَ « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَنَا فِي ثَغْرِ تَجَاهِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مَبَاهِطِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ » فَسَكَتَ وَلَمْ
يَخْطئه لِمَا اخْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَضْدُ رَفْضُ
الْمَلِكِ مِنْ أَضْلِهِ لَمْ يَقْبَعَهُ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وَاتِّحَالِهَا بَلْ كَانَ يُحْرَضُ
عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عَمْرٌ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي
مُلْكِهِمْ مِنْ اِزْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ وَالْعَفْلَةَ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَةَ
مَعَاوِيَةَ بِأَنَّ الْقَضْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةً فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ وَإِنَّمَا قَضْدُهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ

فَسَكَتَ . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصُّحَايَةِ فِي رَفْضِ الْمَلِكِ وَأُخُوَالِهِ وَسَيَّانِ عَوَائِدِهِ حَذْرًا
مِنَ التَّبَاسُطِ بِالْبَاطِلِ فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى
الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهَمُّ أُمُورِ الدِّينِ وَازْتِضَاءُ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكُفَاةِ عَلَى أَحْكَامِ
الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرَ لِلْمَلِكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَطْنَةٌ لِلْبَاطِلِ وَنَحْلَةٌ لِيَوْمِئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ
وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ
حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عَمْرٍو فَاقْتَفَى أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأَمَمَ فَغَلَبَهُمْ
وَأَذَنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِيَايِدِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمَلِكِ فَغَلَبُوهُمُ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ
ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكَوْثُ مُنْبَرِّثُونَ مِنْ
الْمَلِكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طَرَفِهِ وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ الْإِسْلَامِ
وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ الْأَمَمِ عَنْ أُخُوَالِ الدُّنْيَا وَتَرَفَهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمْ
الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ
مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ وَشَطْفِهِ الَّذِي أَلْفُوهُ . فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْفَبَ عَيْشًا مِنْ مَضَرٍ
لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ
وَحُبُوبِهَا لِتُعْجِدَهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِيَمَنِ وَلِيَّتِهَا مِنْ رِبِيعَةٍ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ
إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ
الْعَلْهَزِ وَهُوَ بَرٌّ الْإِبِلِ يَمْهُونَهُ ^(١) بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا
كَانَتْ خَالِ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ عَضِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى
الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ زَحَفُوا إِلَى أُمَّةِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا
مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصَّدَقِ فَابْتَزَوْا مُلْكَهُمْ وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ
فَرَحَرَتْ بِحَارِ الرُّفَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ
ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوْلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عَمْرٍو يَرْقَعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ :

(١) أي يضربونه بالحجارة حتى يرقق.

« يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَيْرِي غَيْرِي » وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَاوَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَمَهِّدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاحِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْحِمْلَةِ وَأَنَّمَا يَأْكُلُونَ الْحِنْطَةَ بِخَالِهَا وَمَكَاسِيَهُمْ مَعَ هَذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ أَتَيْتِي الصُّحَابَةَ الضِّيَاعَ وَالْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ أَلْفٍ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي الْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفٍ ^(١) دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَثْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفِ فَرَسٍ وَأَلْفِ أَمَةِ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلُّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْغَنَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَثْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلْفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيْدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْحِصِّ وَالْأَجْرُ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَفْكَهَا وَأَوْسَعَ فِضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَغْلَاهَا شُرَفَاتٍ وَبَنَى الْمَقْدَادَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةً الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلْفَ يَعْلى بْنُ مَنِيَّةٍ ^(٢) خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ هـ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ . فَكَانَتْ مَكَابِسُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ خَلَالَ لَأَنَّهُا غَنَائِمٌ وَفِيئَةٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا فَإِنَّمَا يَرْجَعُ إِلَى مَا أَسْرَنَّا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْدًا وَتَفَقَّاتُهُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْإِسْتِكْثَارَ غَوْنًا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْحَقِّ وَاتِّسَابِ

(١) وفي بعض النسخ مائة ألف .

(٢) يعلى بن منية أو يعلى بن أمية (أعلام الرجال) .

الدار الآخرة فلما تدرجت الهداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك
التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك
عندهم حكم ذلك الزفة والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل
ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق . ولما وقعت الفتنة بين علي
ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في
محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم
ويتنزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه
باجتهاده في الحق فاقبلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها
بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت
طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن
نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم
يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا
دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع
في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير
مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن
محمد بن أبي بكر « لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخليفة » ولو أراد أن يعهد
إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر
أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة . وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي
هي مقتضى العصبية فالمملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في
مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود
صلوات الله عليهما بمملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به
وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفا من افتراق
الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم . فلو قد عهد إلى

غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن
 بمعاوية غيره فلم يكن ليغيب إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق خاشاً الله
 لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن
 مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبنغي إنما كانوا متحررين لمقاصد الحق
 جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم
 لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والإقتداء وما علم
 السلف من أخوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في الموطأ^(١) بعمل عبد الملك وأما
 مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعد الثم مرفوعة ثم تدرج الأمر في ولد
 عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد
 العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء
 خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان
 عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذهبها فكان ذلك مما دعا
 الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولّى رجالها الأمر
 فكانوا من العدالة يمكّن وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا
 حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الأمر إلى
 بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم
 ظهرياً فتأذن الله بحزبهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم
 والله لا يظلم مثقال ذرة . ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلفهم في
 تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكاه المسعودي مثله في أحوال
 بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال : « أما
 عبد الملك فكان جباراً لا يبالى بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجة
 وأما عمر فكان أغور بين عُمَيان وكان رجل القوم هشام » قال ولم يزل بنو أمية
 ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع

(١) هو كتاب مشهور في الحديث لمالك بن أنس .

تَسْنِمُهُمْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَرَفَضِهِمْ دُنْيَاتِهَا حَتَّى أَقْضَى الْأَمْرَ إِلَى أُنْبَائِهِمُ الْمُتَرَفِّفِينَ
فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَضْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِاسْتِزْرَاجِهِ
وَأَمْنَا لِمَكْرِهِ مَعَ اطْرَاجِهِمْ صِيَانَةَ الْخِلَافَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ
السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُ الدُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمْ النِّعْمَةَ ثُمَّ اسْتَحْضَرَ عَبْدَ اللَّهِ ^(١)
ابْنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ النُّوْبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَا أَيَّامَ السَّفَاحِ قَالَ
أَقَمْتُ مَلِيًّا ثُمَّ أَنَايَ مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ بَسَطْتُ لِي فُرْشَ ذَاتِ قِيَمَةٍ فَقُلْتُ
مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَى ثِيَابِنَا ^(٢) فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ
لِعَظْمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي : لِمَ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ مُحْرَمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي
كِتَابِكُمْ ؟ فَقُلْتُ : اجْتَرَأَ عَلَى ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا قَالَ : فَلِمَ تَطْشُونَ الزَّرْعَ
يَدْوَابِكُمْ وَالْفَسَادَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ ؟ قُلْتُ : فَعَلَّ ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِخَبْلِهِمْ قَالَ :
فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَاجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟ قُلْتُ : ذَهَبَ
مِنَّا الْمُلْكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرْهِ مِنَّا ،
فَاطَّرَقَ يَنْكِيْتُ بِيَدِهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ
رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : « لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نَهَيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُ الدُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ
وَلِلَّهِ نِقْمَةٌ لَمْ تَبْلُغْ غَايَتَهَا فَيْكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِيَلَدِي
فِيئَالِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا الضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ فَتَزُوذُ مَا اخْتَجْتَ إِلَيْهِ وَارْتَحِلْ عَنِ أَرْضِي »
فَتَعَجَّبَ الْمَنْصُورُ وَاطَّرَقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ
كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَارِعَ كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤَثِّرُونَ عَلَى
أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَقْضَتْ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَخَدَّهُمْ دُونَ الْكَافَةِ فَهَذَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي
الْبَادِيَةِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيدُونَ

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيحاً (قاله

نصر)

(٢) فرشنا

المدافعة عنه فأبى ومنع من سلّ السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً
للإلفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه . وهذا عليّ أشار عليه المغيرة
لأول ولايته بإستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على
بيعتيه وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك
فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال ،
« لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من
الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيت أنه أنت » فقال عليّ ، « لا والله بل أعلم أنك
نصحتني بالأمس وعششتني اليوم ولكن منعتني مما أشرت به زائد الحق وهكذا
كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرفع دنيانا بتفريق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع
فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري
الدين ومذاهبه والجزى على مناج الحق ولم يظهر التمييز إلا في الوازع الذي كان
ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومووان وابنه عبد
الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهب
معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بختاً وجرت طبيعة التغلب إلى
غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان
الأمر لو ولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً
فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم
ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم
وبقي الأمر ملكاً بختاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة
الخليفة تبركاً والملك بجميع القايه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك
فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهجة مع العبديين ومغراوة وبني يفرن أيضاً
مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد

وَجَدَتْ يَدُونَ الْمَلِكِ أَوْلَا ثُمَّ التَّبَسَّتْ مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ
انْفَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الْخُلَافَةِ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة^(١)

إِذْ عَلِمَ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَأَنَّ الْمُبَايَعِ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يَسْلَمُ
لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَنْزَعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا
يَكْلِفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمَكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ
جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيداً لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً
مُضَدَّرٌ بَاعَ وَصَارَتْ الْبَيْعَةُ مُضَافَةً بِالْأَيْدِي هَذَا مَذْلُوقُهَا فِي عَرَفِ اللَّغَةِ وَمَعْنُودِ
الشَّرْعِ وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ
وَحَيْثُمَا وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ وَمِنَهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنَهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ
يُسْتَخْلَفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِيعَابُ
أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَقْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا الْوَلَاةَ عَلَيْهِ وَرَأَاهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ
مَا وَقَعَ مِنْ مَخْنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الشَّهْوَرَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ
الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّنْبِلِ أَطْلُقَ عَلَيْهَا اسْمَ
الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازاً لَمَّا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْتِزَامُ
الْأَدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَاقَعُهَا وَعَلَبَ فِيهَا حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عَرَفِيَّةً وَاسْتَفْنَى
بِهَا عَنْ مُضَافَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ لَمَّا فِي الْمُضَافَةِ لِكُلِّ
أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِنْتِزَالِ الْمُنَافِقِينَ لِلرُّئُوسَةِ وَصَوْنِ الْمُنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي الْأَقْلِ

(١) البيعة بفتح الواحدة أما بكسرها على وزن شعبة يسكون الياء فيها فهي معبد التصارى ١٠ هـ

مَنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَاقْبَلْهُمُ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنَ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ عِبْتًا وَمَجَانًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

الفصل الثالثون

في ولاية العهد

إِغْلَمْنَا أَنَا قَدَمُنَا الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهَوَ وَوَلِيَّتُهُمُ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيَقِيمُ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا وَيَتَّقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلُ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرٍ بِمَخْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازَوْهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهْدَ عَمْرٍ فِي الشُّورَى إِلَى السَّنَةِ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَمَوُضُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَقْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَاجْتَهَدَ وَنَظَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ فَاتَرَ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُوَافَقَتِهِ إِثَاءً عَلَى لُزُومِ الْإِقْتِدَاءِ بِالشُّيْخِينَ فِي كُلِّ مَا يَبْعُنُ دُونَ اجْتِهَادِهِ فَانْتَقَدَ أَمْرَ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَلَائِمَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكَرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ .

وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ وَلَا يُشْتَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَخْتَمَلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ

خِلَافاً لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خُصَّصَ التُّهْمَةُ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ يَمِيدُ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِيَّماً إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِثَارِ مَضْلِحَةٍ أَوْ تَوْفِيعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظَّنُّ فِي ذَلِكَ رَأْساً كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَعَلَ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مَرَاعَاةُ الْمَضْلِحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ جِئِنْبُدُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِذْ بَنُو أُمَيَّةَ يَوْمئِذٍ لَا يَرْضُونَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عَصَابَةٌ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْعِلَّةِ أَجْمَعُ وَأَهْلُ الْعَلْبِ مِنْهُمْ فَأَثَرُهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظُنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصاً عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّذِي شَأْنُهُ أَهْمٌ عِنْدَ الشَّارِعِ .

وَإِنْ كَانَ لَا يُظُنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا فَعَدَالَتُهُ وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكَابِرِ الصُّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرِّيبِ فِيهِ فَلْيَسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةَ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مَبَاحاً كَانَ أَوْ مَحْظُوراً كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَنُدُورُ الْمُخَالَفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسَلِيمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالسَّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرُّشَيْدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عَرَفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرَ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِشَارَةُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيكَ الْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدَثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوِزَاعُ دِينِيّاً فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَمَهْدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الَّذِينَ فَقَطُّ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلُّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ . وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتِ الْمَضْيِئَةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ

وَالْوَارِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعَفَ وَاحْتَبَجَ إِلَى الْوَارِعِ السُّلْطَانِيِّ وَالْعِضْبَانِيِّ فَلَوْ عَهْدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصْبِيَّةُ لَرُدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعاً وَصَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ .

سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيّاً وَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ » فَقَالَ ، « لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالْبَيْنِ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالْإِلَى عَلَى مِثْلِكَ » يُشِيرُ إِلَى وَارِعِ الدِّينِ أَفْلاً تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَسَمَاءَ الرُّضَا كَيْفَ انْكَرَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا بِنِعْتِهِ وَبَاتَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْهَرَجِ وَالْخِلَافِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَضْطَلِمَ الْأَمْرَ حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ فَالْمَقْصُورُ تَخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَخْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخْصُهُ لُطْفاً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَضْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التُّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمَكْنَ خَوْفاً مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُلْكِ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا .

فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَطْنُ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلَ بَلْ كَانَ يَغْدُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْعِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفِسْقِ اخْتَلَفَ الصُّحَابَةُ جِينِيذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَى بِنِعْتِهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يُؤْمِئِدُ هِيَ

عِصَابَةٌ بِنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَشْبِعُ عَصِيْبَةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مَقَاوِمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدٍ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهَذَا نَبِيِّهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَوْلُ مُجْتَهَدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَحْرِي الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقْنَا اللَّهَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا تَدْعِيهِ الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَفَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النُّقْلِ وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدُّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنْ عَمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ : « إِنْ أَعْهَدَ فَقَدْ عَهَدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَعْنِي أَبُو بَكْرٍ « وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنَيْهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوَصَّ وَلا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبُهَةٌ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامِيَّةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعَمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفْضُوزَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُشْتَهَرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِنَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا أَقْلًا نَرْضَاهُ لِدِينَانَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَيَذُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامِيَّةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مَهْمًا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصِيْبَةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقُ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمئِذٍ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَخْوَالِ الَّتِي كَانُوا يَشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ

الْمَلَائِكَةَ لِنَضْرِهِمْ وَتَرُدُّدَ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خُطَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتَلَّى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى مَرَاغَةِ الْعَصِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِنْعَةِ الْإِتْقِيَادِ وَالْإِدْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأَحْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُرْتَدِّدَةِ الَّتِي وَجَمُوا مِنْهَا وَدَهَشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْتَدِجًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ ثُمَّ بَفَنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ الصَّبْغَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَذَهَبَتِ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ الْعَصِيَّةِ وَمَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ وَالْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ بِيَمَانِيَّةٍ مِنْ الْمَهْمَاتِ الْأَكْبَدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ مَهْمَةٍ فَلَمْ يَعْمُدْ فِيهَا ثُمَّ تَدْرَجَتْ الْأَهْمِيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَانَ الرِّدَّةِ وَالْمُتَوَحَّاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالْتِرَاكِ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ عَمَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ صَارَتْ النَّيْمُ مِنْ أَهْمِ الْأُمُورِ لِلْأَلْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتَبِرْتَ فِيهَا الْعَصِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَنْشَأُ الْاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا .

وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ شَأْنُ الْخُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الضَّعَايَةِ وَالتَّابِعِينَ فَاعْلَمْ أَنَّ اجْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ الْاجْتِهَادِ فِي الْأَدْلَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُضَافِدْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ فَإِنْ جِهَتْهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِاجْتِمَاعِ فَيَتَقَيُّ الْكُلُّ عَلَى اِحْتِمَالِ الْإِضَايَةِ وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَالتَّابِعِينَ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ فَأَخْرَى يَنْفِي الْخَطَأَ وَالتَّابِعِينَ وَغَايَةَ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الضَّعَايَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلِ دِيْنِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ

وَأَقَمَهُ عَلِيُّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَأَقَمَهُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَوَأَقَمَهُ
 ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَقَمَهُ عَلِيُّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ
 مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بِنِعْمَةِ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ
 مَنْ تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامِ كَسَعِيدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عَمْرٍ
 وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُعْغِيرَةَ بِنِ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَقُدَامَةَ بْنَ مَطْعُونٍ وَأَبِي
 سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ
 وَمُسْلِمَةَ بْنَ مَخْلَدٍ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكْبَابِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي
 الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضاً إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوُضِيَ حَتَّى
 يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُؤَلِّوهُ وَظَنُّوا بِعَلِيِّ هَوَادَةَ فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ
 عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمَمَالَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةَ إِذَا صَرَخَ بِعَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطُّ ثُمَّ
 اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيُّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدْ انْتَعَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ
 مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوَاطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي
 الْمَطَالِبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ
 وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ وَلَمْ
 يَخْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونَ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تَلْزُمُ بِعَقْدِ مَنْ
 تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوُضِيَ فَيُطَالِبُونَ أَوْ لَا
 بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ
 الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَابْنَةُ مُحَمَّدٍ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ
 وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ
 تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ
 اتَّفَقُوا عَلَى انْتِعَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلِزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوُّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ
 إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَأِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصاً طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ

لانتفاضيهما على عليّ بعد البيعة له فيما نقل مع دفع الثأيم عن كل من الفريقين كالشان في الْمُجْتَهِدِينَ وَضَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصَفَيْنَ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُنَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قُدْحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَاثَتُهُمْ مَفْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنَ الْإِنصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْإِخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جَفَاءً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا ارْتَأَوْا بِخَلْقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّبَعْدِ عَنِ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَتَقِيفٍ وَهَذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ فَاسْتَنَكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَعَصُوا بِهِ لَمَّا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُضَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبِيدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كَنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ فَضَارُوا إِلَى الْعُضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّمْرِيزِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالِاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَالتَّطْعَنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَالتَّعَدُّلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَفَسَتْ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ .

بَعَثَ ابْنُ عُمَرَ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى
الْأَمْزَاءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طِعْناً وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنُمُو وَرَمَى الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشَرْبِ
الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّثَهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَّالِ وَشَكُّوا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ
عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَّالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَقَدْ سَعِدُ بْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَغْرُولاً ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَتَقَمُّوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
عَلَى جُرْحَةٍ ^(١) ثُمَّ نَقَلُوا النُّكَيْرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالْاجْتِهَادِ وَهُمْ
أَيْضاً كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْفُجَّاءِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلِبَ النُّصْفَةِ
مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ
وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ
وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلٌ مِصْرَ فَأَنْصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا
بِكِتَابِ مُدَلِّسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لِقُوَّةٍ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَخَلَفَ
عُثْمَانَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكْنَا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَخَلَفَ مَرْوَانَ فَقَالَ لَيْسَ فِي
الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاضَرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ
وَأَنْفَتِحَ بَابَ الْفِتْنَةِ فَلِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ عَذْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِينَ بِأَمْرِ الدِّينِ
وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ .

ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ
لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ
فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسَقَ يَزِيدٌ عِنْدَ الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ
بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدٍ
مُنْتَعِينَ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ لَا سِيَّماً مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَطَنَهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ

(١) ما تخرج به شهادة خصمك أو حجتك .

وَشَوْكِيهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنُّ وَزِيَادَةٌ وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَغَلَطَ يَزِيحُهُ اللَّهُ فِيهَا
 لِأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرٍّ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ
 تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نَسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا
 شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرَ الْوَحْيِ وَتَرَدَّدَ الْمَلَائِكَةَ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ
 فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعَهَا وَنَسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
 الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ
 وَالَّذِينَ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَغْرُولَةٌ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النَّبُوءَةِ وَالْخَوَارِقُ الْمَهْوُولَةُ
 تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَكُنْ كَانَتْ
 وَأَصْبَحَتْ مُضَرٌّ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ
 غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرٍ ذَنْبِيٍّ لَا يُضِرُّهُ الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ
 يَغْلُطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَقَدْ عَذَّلَهُ ابْنُ الْمُبَاسِ
 وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عَمْرٍ وَابْنُ الْخَنْفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا
 غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لَمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ
 وَالْعِرَاقِ وَمِنَ الثَّائِمِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لَمَّا
 يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ النِّهْجِ وَالِدَّمَاءِ فَأَقْضَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ
 وَلَا أَتَمُّوهُ لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْيِيمِ
 هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقَعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ
 وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ
 وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدَ الْخَدْرِيَّ وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ
 سَعِيدٍ وَيَزِيدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمثالَهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قَعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلَا تَعَرَّضَ لِذَلِكَ
 لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ
 وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنْفِيُّ عَلَى شَرْبِ النَّبِيذِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقَتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ

اجْتِهَادِ هَوْلَاءَ وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدَ وَأَصْحَابَهُ وَلَا تَقُولُونَ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا وَلَمْ يُحِزْ هَوْلَاءَ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالِ الْبَغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْئَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ الْمُؤَكَّدَةِ لِنَفْسِهِ وَالْحُسَيْنِ فِيهَا شَهِيدٌ مَثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادِ وَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادِ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ :

إِنَّ الْحُسَيْنَ قُتِلَ بِشَرِّ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطَ حَمَلْتُهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ عَنِ اشْتِرَاطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا رَأَى الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَغَلَطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوَكَةِ أَعْظَمَ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَا يَقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَالْقَوْلُ بِتَعْيِينِ الْخَطَاءِ فِي جِهَةِ مُخَالَفَةِ كَمَا كَانَ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَحِذْهَا هُنَا . وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيْنُ خَطَاؤِهِ فَسَقَهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ اخْتِجَاجَ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعَدُولِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرٍ إِلَى تَبِيعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُمْ مَعَهُ بِالْحِجَازِ مَعَ أَنَّ الْكَثِيرَ^(١) مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ تَبِيعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضَرْهَا أَهْلُ الْعَقِيدِ وَالْحَلَّ كَبِيعَةِ مَرْوَانَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا فِي جِهَةِ مَنِهَمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مَثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَضِيهِ وَتَحْرِيهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السُّلْفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عَرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ

(١) كذا في جميع النسخ ومقتضى السياق . هذا إلى أن الكثير .

بِالْعَدَالَةِ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ « خَيْرُ النَّاسِ قُرْنِي » ^(١) ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ
ثَلَاثًا ثُمَّ يَفْشُو الْكُذِبُ فَجَعَلَ الْخَيْرَةَ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِالْقُرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ
فَأَيُّكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يَشْوِشُ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي
شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالتَّمَسُّ لِهَيْبِ مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَطَرَفَهُ مَا اسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ
بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ تَبَيُّنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقِّ
وَاعْتَمَدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيُقْتَدَى كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ
يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَافْتَمَهُمْ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
وَإِكْوَانِهِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالْيَهُ الْمَلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ
الدُّنْيَا فَصَاحِبِ الشَّرْعِ مُتَّصِفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمُقْتَضَى التَّكْلِيفِ
الشَّرْعِيِّ الَّذِي هُوَ مَا مَوْرٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَبِمُقْتَضَى
رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمُرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ
وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمِلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٍ فِي
حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ .

نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلُ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ ^(٢) أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمَصَالِحِ

(١) (ورد في لسان العرب قول الأزهري ، والذي يقع عندي ، والله أعلم ، ان القرن) هل كل مدة كان فيها . أو كان فيها طبقة من أهل العلم . قلت السنون أو كثر والدليل على هذا قول النبي ﷺ « خيركم قرني . يعني أصحابي ثم الذين يلونهم . يعني التابعين . ثم الذين يلونهم . يعني الذين أخذوا عن التابعين » قال ، وجائز أن يكون القرن لجملة الأمة . وهؤلاء قرون فيها .

(٢) الضمير يعود إلى الله تعالى .

فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ
يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوِظَائِفُ تَابِعَةٍ تَعَيَّنُ
خَطَطًا وَتَتَوَرَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَظَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوِظَافَتِهِ حَسَبَ مَا يَعْتَنُهُ
الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَسْتَمُ بِذَلِكَ أَمْرَهُ وَيَحْسُنُ قِيَامَهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا
الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ
الدِّينِي يَخْتَصُّ بِخَطَطِ وَمَرَاتِبِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ الْآنَ
الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَنَرْجِعْ إِلَى الْخِطَطِ الْمُلْكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ
وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَانَتْهَا الْإِمَامُ
الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ
وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى
الْعُمُومِ .

فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ
الْمُنْدرَجِ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ . وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي
بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَدِينَنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا ؟ فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا
صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ ، مَسَاجِدَ عَظِيمَةً
كثِيرَةً الْعَاشِيَّةَ ^(١) مَعْدَةً لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ . وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ
وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ
يَفُوضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصَبُ لَهَا الْإِمَامَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ
وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْحُسُوفَيْنِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلِ

(١) الذين يزورونها للصلاة .

وَالِاسْتِحْسَانِ وَلِئَلَّا يَفْتَاتَ^(١) الرُّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النُّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِالْوَجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوَجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَضْبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوْلَى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يُقَلِّدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ . وَأَنْظُرْ مَنْ طَعِنَ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَضُّدِهِمْ لِذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا . يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنَّهَمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا . وَكَذَا كَانَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثَارًا بِهَا وَاسْتِعْظَامًا لِرِثَتِهَا .

يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ « قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَا بِي الْأَعْنَ ثَلَاثَةٌ ، صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّأخِيرِ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ وَالتَّبْرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأخِيرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةِ » فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنْ الْغِلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْخِرُونَ بِهَا فِي الْأَخْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ كَالْعَمِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَنْوِينًا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبْسِيِّينَ صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ .

وَأَمَّا الْفَتْيَا فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسُ وَرَدُّ الْفَتْيَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُ لَهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَرَجْرُهَا لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ فَتَجِبُ عَلَيْهِ مَرَاعَاتُهَا لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ النَّاسَ . وَالْمُدْرَسُ الْإِنْتِصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَيْتُهُ وَالْجُلُوسُ لِذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلْسُلْطَانِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنُّظَرُ فِي أَمْرِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِهِ . عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْمُدْرَسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ

(١) يخالفه .

التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ^(١) بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ وَفِي الْأَثَرِ
« أَجْرَاكُمْ عَلَى الْفِتْيَا أَجْرَاكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ » فَلِلْمُلْطَانِ فِيهِمْ لِنَدِكَ مِنَ النَّظَرِ
مَا تُوجِبُهُ الْمَضْلَعَةُ مِنْ إِجَازَةِ أَوْ رَدِّ .

وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْإِخْلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبٌ الْفَضْلِ بَيْنَ
النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْمًا لِلتُّدَاعِي وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ
الْمُتَلَقَّاهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَكَانَ لِنَدِكَ مِنَ وَظَائِفِ الْإِخْلَافَةِ وَمُنْتَدِرًا فِي عُمُومِهَا
وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يَبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ
سِوَاهُمْ . وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوَّضَهُ فِيهِ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَى أَبِي الدُّرْدَاءِ
مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَى شَرِيحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْمَرِي بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ
فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا
بَعْدُ .

« فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْتَمِهِمْ إِذَا أَذَلِّي إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ
تَكَلُّمُ بَعْقٍ لَا نَفَاذَ لَهُ وَأَسْ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعُ
شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا نِيَّاسٌ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ
أَنْكَرَ . وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صَلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا
يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسَ فَرَأَجَمْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ
إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ الْفَهْمُ الْفَهْمُ
فِيمَا يَتَلَجَّلُجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ اعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ وَقَسِّ
الْأُمُورَ بِنظَائِرِهَا وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ
بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ وَأَجْلَى
لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدِّ أَوْ مُجْرَى^(٢) عَلَيْهِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ ، فَيُذِلُّ أَيِ يَتَّقَى بِهِ وَيَعْتَرِ .

(٢) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ ، مَجْرِيًا .

شَهَادَةَ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَايَةٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ
بِالْبَيِّنَاتِ . وَإِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّائِفَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ
الْحَقِّ يُعَظِّمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ .»

إِنْتَهَى كِتَابَ عَمْرٍ وَإِنَّمَا كَانُوا يَقْلُدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ
بِهِمْ لِيَقَامِيهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ اشْغَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفَتْوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ
وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعَظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا
الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقَاعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخَلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقْلُدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوِلَايَةِ وَلَا يَقْلُدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا
كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عِضْرِ الْخُلَفَاءِ الْفَضْلُ بَيْنَ
الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دَفَعُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ
وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَاسْتَقَرَّ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ
الْفَضْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورٍ (١)
الْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُجَانِبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَغْلُوبِينَ وَأَهْلِ السُّفْهِ وَفِي وَصَايَا
الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَرْبِيعِ الْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مِنْ رَأْيِ وَالنَّظَرِ فِي
مَصَالِحِ الطَّرِيقَاتِ وَالْأَبْنِيَّةِ وَتَصْفُحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ الْعِلْمِ وَالْخُبْرَةِ
فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيَحْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ
وِظْفِيَّتِهِ وَتَوَاجِعِ وِلَايَتِهِ . وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيِ النَّظَرَ فِي
الْمَطَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَرِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانَةِ وَنَصْفَةِ الْقَضَاءِ وَتَخْتِاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدِ
وِعَظِيمِ رَهْبَةِ تَقَمُّعِ الظَّالِمِ مِنَ الْخُضَمِيِّينَ وَتَرْجُرُ الْمُتَمَعِّدِي وَكَأَنَّهُ يُمَضِي مَا عَجَزَ
الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْرِيرِ وَاعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ

(١) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ ، أُمُورِ .

وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِحْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمْلِ الْخَصْمَيْنِ عَلَى الصُّلْحِ وَاسْتِحْلَافِ الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي .

وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأُولُونَ يَبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ الْمُهْتَدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَالْمُعْتَصِمُ لِأَخْمَدَ بْنِ دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ الطَّوَائِفِ ^(١) وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ هَذِهِ الطَّوَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مَفْوضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ . وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُهَبِّدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنْ الطَّوَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوَلِ تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ مَجَالًا وَيَفْرَضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيَقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوَدِ ^(٢) وَالْقِصَاصِ وَيَقِيمُ التَّغْرِيزَ وَالتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهَ عَنِ الْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ تَنْوَسِي شَأْنُ هَاتَيْنِ الطَّوَائِفَتَيْنِ فِي الدَّوَلِ الَّتِي تَنْوَسِي فِيهَا أَمْرَ الْإِخْلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمِظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَمَا لَهُ تَفْوِيضٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمَبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مَرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ وَيَقِي قِسْمَ التَّغَارِيرِ وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعًا فَجَمَعَ

(١) ربما تكون محرّفة من الصوائف : أي الغزو أثناء الصيف .

(٢) القود : قتل القاتل بدل القاتيل (منجد) .

ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وَلَايَتِهِ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلَافَةَ دِينِيَّةً وَهَذِهِ الْخِطَّةُ مِنْ مَرَامِسِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْحِلْفِ أَوْ بِالزَّقِّ أَوْ بِالِاضْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثِقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ غَنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الدِّينِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِسِهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمَّلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمَلِكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالتَّبَرُّبَرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الْخِلَافِيَّةُ بَعْدَ انْقِطَاعِهَا بِمَنْحَاهَا وَعَصِيَّتَيْهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نَحَلْتَهُمْ بَيْنَ الْأَمَمِ وَطَرِيقَهُمْ . وَغَيْرُهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لَمَّا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطَّ . فَصَارُوا يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَايَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وَكَانَ أَوْلَيْكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدَّوْلِ مُنْذُ مَبْنِيٍّ مِنَ السَّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتَهَا وَالتَّبَسُّوَا بِالْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعَسْتِهِمْ . وَقَلَّةُ الْمَمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَصَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَةً بِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِقَدِّ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ فَلِحَقِّهِمْ مِنَ الْإِحْتِقَارِ مَا لِحَقِّ الْخَضِرِ الْمُتَنَفِّسِينَ فِي التَّرْفِ وَالذُّعَى . الْبَعْدَاءُ عَنْ عَصِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَّةِ . وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامَتِهَا بِالْمِلَّةِ وَأَخَذَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ . لَمَّا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ إِيشَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَاتِهِمْ . وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا يَتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرَّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ . وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةً وَرَأَاهُ . إِذْ حَقِيقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ

فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حَلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ
عَنْهُمْ ، وَتَلَقَّى الْقِتَاوَى مِنْهُمْ فَتَعَمَّ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ . وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ
فِيهَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ مِنَ الشُّورَى
مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ ﷺ « الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ (١)
وَحُكْمَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَإِلَّا كَانَ يَبْعِدُ
عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى
وَالْحَلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَضِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلِّ أَوْ عَقْدِ أَوْ فِعْلِ أَوْ
تَرْكِ . وَأَمَّا مَنْ لَا عَضِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ
عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اخْتِبَارِهِ فِيهَا ؟ اللَّهُمَّ
إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي الْاِسْتِثْنَاءِ خَاصَّةً . وَأَمَّا
شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ يَبْعِدُ عَنْهَا لِفَقْدَانِهِ الْعَضِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا
وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ الْاِغْتِقَادِ
فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ حِجَّةٍ اِنْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ « الْعُلَمَاءُ
وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا اِحْتَفَّ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا
الشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمَعَامَلَاتِ يَتَضَوَّنَهَا
عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَارِهِمْ وَلَا يَتَصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي
بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلْفُ رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا
الشَّرِيعَةَ اِتِّصَافاً بِهَا وَتَحَقُّقاً بِمَذَاهِبِهَا . فَمَنْ حَمَلَهَا اِتِّصَافاً وَتَحَقُّقاً دُونَ نَقْلِ فَهُوَ مِنَ
الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْوَارِثُ
عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّايِعِينَ وَالسَّلْفِ وَالْاِئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ اِقْتَفَى طَرِيقَهُمْ
وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْاِئِمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ
الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بِصِفَةِ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ

(١) الضمير يعود إلى الناس أو العامة .

شَيْئاً إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ قَضَاءِ
عَصْرِنَا « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ..

العدالة : وهي وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَضْرِيْفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ
الْوِظِيفَةِ الْقِيَامُ عَنِ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمُلاً عِنْدَ
الإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكُتِبَ فِي السَّجَلَاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَاقُهُمْ
وَدِيُونُهُمْ وَسَائِرُ مَعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالتَّبَرُّاءُ
مِنَ الْجَرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكُتْبِ السَّجَلَاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَانْتِظَامِ فُصُولِهَا
وَمِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعَقُودِهَا فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ
مِنَ الْفِقْهِ وَالْأَجْلِ هَذِهِ الشَّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ^(١) عَلَى ذَلِكَ وَالْمَمَارَسَةِ لَهُ
أَخْتَصَّ ذَلِكَ بِنِغْضِ الْعُدُولِ وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْعَدَالَةِ
وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوِظِيفَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي
تَضَفُّعُ أَحْوَالِهِمْ وَالْكَشْفُ عَنْ سَيْرِهِمْ رِعَايَةً لِشَرِطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَهْمَلَ ذَلِكَ
لَمَّا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ فَالْمُهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ ذَرَكَةٌ
وَإِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءِ لِهَذِهِ الْوِظِيفَةِ عُمِتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخْفَى عِدَالَتُهُ عَلَى الْقَضَاءِ
بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأَمْصَارِ وَاشْتِبَاهِ الْأَحْوَالِ وَأَضْطِرَّارِ الْقَضَاءِ إِلَى الْفَضْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ
بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثُوقَةِ فَيَعْمَلُونَ غَالِباً فِي الْوَثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ
الْأَمْصَارِ ذَكَائِكُنْ وَمَضَاطِبُ يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ
الْمَعَامَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ وَصَارَ مَذْلُولٌ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَرَكاً بَيْنَ هَذِهِ
الْوِظِيفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَذْلُولُهَا وَيَبَيِّنُ الْعَدَالَةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ وَقَدْ
يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الحسبة والسكة

إِنَّمَا الْحُسْبَةُ فِيهِ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) المران بكسر الليم التمرن والاعتیاد على الشيء . هـ .

الَّذِي هُوَ فَرَضَ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يُعَيِّنُ لِنَدِكَ مَنْ يَزَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَمَعَّنُ
فَرْضُهُ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيُنْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيُعَزِّرُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى
قَدَرِهَا وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنَعِ مِنَ الْمَضَائِقِ فِي
الطَّرِيقَاتِ وَمَنْعِ الْحَمَالِينَ وَأَهْلِ السُّفْنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحَكْمِ عَلَى أَهْلِ
الْمَبَانِي الْمَتَدَاعِيَةِ لِلْسُّقُوطِ بِهَدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ
وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُعَلِّمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاحِ فِي ضَرْبِهِمُ لِلصُّبْيَانِ
الْمُتَعَلِّمِينَ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُكْمَهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ بَلْ لَهُ النُّظَرُ وَالْحَكْمُ فِيمَا يَصِلُ
إِلَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ إِمضَاءُ الْحَكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا
يَتَعَلَّقُ بِالْعِشِّ وَالتَّدْلِيلِ فِي الْمَعَايِشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا
حَمْلُ الْمُطَاطِلِينَ عَلَى الْإِنصَافِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيِّنَةٌ وَلَا إِنْفَادٌ حَكْمٌ
وَكَأَنَّهَا أَحْكَامٌ يُنَزَّهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ اغْتِرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ
الْوُظُفِيَّةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوْضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَاصِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ
دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي يُؤَلَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظِيْفَةُ السُّلْطَانِ
عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ أَنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأَفْرَدَتْ
بِالْوَلَايَةِ .

وَأَمَّا السُّكَّةُ فَهِيَ النُّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا
يُدَاخِلُهَا مِنَ الْعِشِّ أَوْ النُّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ
إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالِاسْتِجَادَةِ
وَالخُلُوصِ بِرَسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ أُتْخِذَ لِذَلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نَقُوشٌ
خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى الدِّيْنَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ
فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ عِلَامَةً عَلَى جُودِيَّةِ بِحَسَبِ الْعَاقِبَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السُّبْكُ
وَالتَّخْلِيفُ فِي مَعَارِفِ أَهْلِ الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السُّبْكُ وَالتَّخْلِيفُ

في النُقود لا يَفْقُ عِنْدَ غَايَةِ وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْإِجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقٍ أَوْ قَطْرٍ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّخْلِيفِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمَمَائِلِهِ فَإِن تَقَصَّ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفًا وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَبْشَةِ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوِظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفٌ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوِظِيْفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخِرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِينِهَا بَعْدَ وَظِيْفَةِ الْجِهَادِ وَوِظِيْفَةِ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يَمَارِسُونَهُ وَيُدْرَجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا تَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي نَيْبِ الْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِذُقُورِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ أُنْدَرِجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوِظَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمَلِكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد
الخلقاء

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْهُمْ اسْتَقْبَلُوا هَذَا اللَّقْبَ بِكَثْرَتِهِ وَطَوَّلِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدَ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْهَجْنَةِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ الْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هَذَا اللَّقْبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلَهُ

وَكَانُوا يُسْمُونَ قُوَادِ الْبُعُوثِ بِاسْمِ الْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ
يَدْعُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ الْحِجَازِ وَكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ
سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مَغْظَمُ
الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَاتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضَ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ وَاسْتَضَوُّوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ .

يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَا بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِي
وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبُعُوثِ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ
يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا
أَصْنَتِ وَاللَّهِ اسْمُهُ إِنَّهُ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فَدَعَوْهُ بِذَلِكَ وَذَهَبَ لِقِبَالَةَ فِي النَّاسِ
وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرَ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ
ثُمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِاسْمِ الْإِمَامِ نَعْنَاهُ بِالْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ اخْتِ الْخِلَافَةَ
وَتَغْرِيزًا بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ الصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ
وَيَدْعَتُهُمْ فَخَصُّوه بِهَذَا اللَّقْبِ وَلَمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا
كُلُّهُمْ يُسْمُونَ بِالْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي الْخُلَفَاءِ حَتَّى إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ
يُحَوَّلُونَ ^(١) اللَّقْبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ
مَا زَالُوا يَدْعُونَ أُمَّتَهُمْ بِالْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَهَرُوا بِالِدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا الرَّايَاتِ
لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دَعِيَ أَخُوهُ السُّفَاحُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكَذَا الرَّافِضَةُ بِأَفْرَيقِيًّا فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أُمَّتَهُمْ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ بِالْإِمَامِ
حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلَا بِنْتَهُ أَبِي
الْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثِقَ لَهُمُ الْأَمْرَ دَعَوْا مِنْ بَعْدِهَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا
الْأَدَارِسَةُ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَلْقَبُونَ إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَهُ إِدْرِيسَ الْأَضْفَرَ كَذَلِكَ
وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا اللَّقْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ

(١) الأصح أن يقول ، حتى إذا استولوا على الدولة حولوا لقب .

الْحِجَازَ وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَكَزُ الدَّوْلَةِ وَأَهْلَ الْمِلَّةِ
 وَالْفَتْحَ وَازْدَادَ لِدَلِكِ فِي عُنُقِ الْدَّوْلَةِ وَبَدَحَهَا لَقَبَ آخَرَ لِلْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ
 عَنْ بَعْضٍ لَمَّا فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحْدَثَ لِدَلِكِ بَنُو الْعَبَّاسِ
 حِجَابًا لِأَسْمَائِهِمُ الْأَعْلَامَ عَنِ امْتِهَانِهَا فِي أَلْسِنَةِ السُّوْقَةِ وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِتْدَالِ
 فَتَلَقَّبُوا بِالسُّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرُّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ
 فِي دَلِكِ الْعُبَيْدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أَمِيَّةَ عَنْ دَلِكِ بِالْمَشْرِقِ قَتَلْتَهُمْ مَعَ
 الْغَضَاظَةِ وَالسُّدَاجَةِ لِأَنَّ الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تَفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ
 شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْخَضَارَةِ وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلْفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ دَلِكِ بِالْقُصُورِ عَنْ مُلْكِ الْحِجَازِ أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ
 عَنِ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الْعَصِيَّةِ وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ
 مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخِلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ
 مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ
 وَاسْتَهْرَمَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ مِنَ الْحَجْرِ وَاسْتِنْدَادِ الْمَوَالِي وَعَيْشِهِمْ فِي الْخُلَفَاءِ
 بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِنْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسَّمْلِ ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ
 بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَتَسْمَى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِإِدِينِ اللَّهِ . وَأَخَذَتْ
 مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذَهَبٌ لَقْنُ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ . وَاسْتَمَرَّ الْخَالُ عَلَى
 دَلِكِ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنْ
 الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصُّنَائِعِ عَلَى الْعُبَيْدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاهَا عَلَى أَمْرَاءِ
 أَفْرِيقِيَّةَ وَزَنَاتَةَ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أَمِيَّةَ
 وَاقْتَسَمُوهُ وَافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي
 الْإِخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعًا بِاسْمِ السُّلْطَانِ .

فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَخُصُونَهُمْ بِالْقَابِ تَشْرِيفِيَّةً حَتَّى
 يَسْتَشْفَعَرُ مِنْهَا انْقِيَادَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَحَسُنَ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعَضِدِ الدَّوْلَةِ

وَرَكْنَ الدَّوْلَةَ وَمِعَزَ الدَّوْلَةَ وَنَصِيرَ الدَّوْلَةَ وَنَظَامَ الْمَلِكِ وَبَهَاءَ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةَ الْمَلِكِ
وَأَمْثَالَ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبِيدِيُّونَ أَيْضاً يَخْصُونَ بِهَا أَمْرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا عَلَى
الْخِلَافَةِ قَبِلُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنِ الْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْبَاباً مَعَهَا وَعَدُولاً عَنِ
سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنَ الْمُتَعَلِّبِينَ الْمُسْتَبْدِينَ كَمَا قَلْنَا وَنَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَعَاجِمَ
الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَا كَعْبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَاشَتْ
عَصِيئَةُ الْخِلَافَةِ وَأَضْمَحَلَتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمَلِكِ مِثْلَ
النَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةَ عَلَى الْقَابِ يَخْتَصُونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالِ مُشْعِرَةً
بِالْخُرُوجِ عَنِ رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالْإِضْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطُّ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ
الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ نُورُ الدِّينِ . وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْقَابَ
الْخِلَافَةَ وَتَوَزَّعُوهَا لِقُوَّةِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِهَا وَعَصِيئَتِهَا فَتَلَقَّبوها
بِالنَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ وَالْمُظْفَرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرْفٍ ^(١) يَنْعَى
عَلَيْهِمْ :

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدِ
الْقَابِ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ يَلْقُبُونَ بِهَا
لِلتَّنْوِيهِ مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمِعَزِ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ
الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ ثُمَّ بَعَدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا
فَنَسُوا هَذِهِ الْأَلْقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنَ مُلُوكِ مِغْرَاوَةَ بِالْمَغْرِبِ
لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَزِياً عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ
وَالْعَضَاصَةِ . وَلَمَّا مَحَى رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا ^(٢) وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قَبَائِلِ
الْبَرْبَرِ يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينِ مَلِكٍ لِمُتُونَةَ فَمَلَكَ الْعُدَوْتَيْنِ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ
وَالْإِقْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هَمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلاً لِمَرَامِ دِينِهِ

(١) كذا في جميع النسخ واسمه ابن شرف .

(٢) الدست كلمة أعجمية لم ترد في لسان العرب ومعناها صدر البيت أو المجلس والدست من الثياب

ما يكفي حاجة الإنسان (النجد) وقد استعملها ابن خلدون بمعنى المراسم

فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهِرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَةُ الْقَاضِي
أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِسْبِيلِيَّةٍ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِثَابَهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ
فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ ^(١) بَعْدَ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتِشْعَارِ زِيَمِهِمْ فِي لُبُوسِهِ ^(٢) وَرُتْبَتِيهِ
وَخَاطِبَتِهِ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفاً وَاخْتِصَاصاً فَاتَّخَذَهَا لِقَباً وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
دَعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ
الْمُرَاطِبُونَ مِنْ انْتِحَالِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السُّلْفِ فِي
تَرْكِ التَّأْوِيلِ لظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي
مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَسُمِّيَ اتِّبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تَغْرِيفاً بِذَلِكَ النُّكْبَرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ
أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ
هَذَا الْعَالَمِ فَسُمِّيَ بِالْإِمَامِ لِمَا قَلَّنَاهُ أَوَّلاً مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي الْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأَزْدَفَ
بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنْزَعَهُ عِنْدَ اتِّبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلَمَّا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْفَارِ وَالْوَلْدَانِ مِنْ
أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يُؤَمِّدُ بِالْمَشْرِقِ .

ثُمَّ انْتَحَلَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ اللَّقْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ
خُلَفَاءُ بَنِي عُبَيْدِ الْمُؤْمِنِ وَالْأَبِي حَفْصِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا
إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ
أَحَدٍ لِانْتِفَاءِ عَصِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَائِبَهُمْ . وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ
بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَتْ زَنَاتُهُ ذَهَبَ أَوْلَهُمْ مَذَاهِبُ الْبِدَاوَةِ وَالسُّدَاجَةِ وَاتِّبَاعَ لِمَتُونَةٍ فِي
انْتِحَالِ اللَّقْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣) أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي

(١) الأصح أن يقول : فانقلبوا إليه .

(٢) اللبوس ، الثياب والسلاح . قال الله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » قالوا : هي الدرع تلبس في

الحروب (لسان العرب) .

(٣) يتضح من سياق الجملة وما يليها أن الأصح أن يقول : في عدم انتحال اللقب بأمر المؤمنين .

عِنْدَ الْمُؤْمِنِ أَوْلَا وَلِبْنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ الْمَخَارُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّقْبِ
بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ اسْتِثْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَتَثْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ
وَسَمَائِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند
اليهود

إِذْ عَلِمَ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا
وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ
أَيْضًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ
يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَرْعَاهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ وَالْمِلَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمَلِ الْكَافَةِ عَلَى دِينِ
الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا اتَّخَذَتْ فِيهَا الْخِلَافَةَ وَالْمَلِكُ لِتَوَجُّهِ الشُّوكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا
إِلَيْهَا مَعًا . وَأَمَّا مَا سِوَى الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَّةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ
مَشْرُوعًا إِلَّا فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْنيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ
الْمَلِكِ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمَلِكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَالْأَمْرُ غَيْرُ دِينِيٍّ وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ
لَهُمُ الْعَصِيَّةُ لَمَّا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمَلِكِ بِالطَّبَعِ لِمَا قَدَّمَناهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَكْلُفِينَ
بِالتَّغَلُّبِ عَلَى الْأُمَمِ كَمَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي
خَاصَّتِهِمْ .

وَلِذَلِكَ بَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوُ
أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَغْتَنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُمْ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ
الْقَائِمُ بِهِ يَنْسَبُ إِلَى الْكُوهَنِ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ

الصلاة والقربان ويشرطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفيلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومأرب ورياستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحواً من أربعمائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك وضجر بنو إسرائيل من مطالبة الأمم . فطلبوا على لسان شمويل^(١) من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فولي عليهم طالوت وغلب الأمم وقيل جالوت ملك الفيلسطين . ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكة وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين .

ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولاً الأسباط العشرة ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وحرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أذربهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكينانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكنهية فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن

(١) هو صموئيل كما في التوراة

الإستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهننة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي وقتلوا
يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت
المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمتاي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة
ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا في القتل والهدم والتخريب وخرّبوا بيت المقدس
وأجلّوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود
بالجلوة^(١) الكبرى فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك
في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن

ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ
لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه
والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وأمنوا به وأكثرهم
الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلاً إلى الآفاق داعين إلى
ملكه وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القيصرية وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي
انتزع الملك من بني حشمتاي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه^(٢) وكانت هيرودس
ملكهم ملك القيصرية أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن
من أمره وأفترق الحواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين
النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القيصرية ثم كتبوا الإنجيل
الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب
متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان
اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب
يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى
مرقاص^(٣) تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها

(١) الجلوة : زفاف العروس وليس لها معنى هنا والأصح أن يقول الجلاء أو الجلو من جلا

(٢) أي حسدوا المسيح وكذبوه

(٣) وهو مرقص الرسول

وَحَيًّا صِرْفًا بَلْ مَشُوبَةً بِكَلَامِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْخَوَارِيِّينَ وَكُلِّهَا مَوَاعِظٌ وَقِصَصٌ وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جَدًّا وَاجْتَمَعَ الْخَوَارِيُّونَ الرَّسُلُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بِرُومَةَ وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَصَيَّرُوهَا بِيَدِ أَقْلِيمَنْطُسَ تَلْمِيذِ بَطْرُسَ وَكُتِبُوا فِيهَا عَدَدُ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا .

فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ التَّوْرَةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقَضَاءِ وَكِتَابُ رَاعُوثُ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ وَسَفَرُ بَنِيَامِينَ وَكُتِبَ الْمُقَابِيئِينَ لِابْنِ كَرْيُونَ ثَلَاثَةٌ ^(١) وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ وَكِتَابُ أَوْشِيرٍ ^(٢) وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصَّدِيقِ وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُتِبَ ابْنَهُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَتَبَوَّاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ سِتَّةَ عَشَرَ وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارَخَ ^(٣) وَزَيْرِ سُلَيْمَانَ . وَمِنْ شَرِيعَةِ عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَلَقَّاءُ مِنَ الْخَوَارِيِّينَ نَسَخَ الْإِنْجِيلَ الْأَرْبَعِ وَكُتِبَ الْقِتَالِيْقُونَ سِتْعَ رَسَائِلَ وَثَامِنَهَا الْإِبْرِيكْسِيُّ فِي قِصَصِ الرَّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَقْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ وَكِتَابُ أَبُوغَالْمَيْسِ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوْحَنَّا بْنِ زَبْدِي . وَاخْتَلَفَ شَأْنُ الْقِيَاصِرَةِ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِهَا أُخْرَى وَالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَالتَّبْعِي إِلَى أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا . وَكَانَ صَاحِبَ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمِ لِمَرَّاسِيمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرُكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَنْبَغُ نُوَابِةً وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أُمَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأَسْقَفَ أَيْ نَائِبَ الْبَطْرُكِ وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يَقِيمُ الصَّلَوَاتَ وَيُفْتِيهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقَيْسِ وَيُسَمُّونَ الْمُتَقَطِّعَ الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ .

وَأَكْثَرُ خَلَوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ بَطْرُسُ الرَّسُولُ رَأْسَ الْخَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ

(١) وفي التوراة : سفر للمكابيين (بتشديد الميم والكاف) الأول والثاني وليس هناك ثالث . ولم يرد ذكر

ابن كاريون وربما تكون محرفة عن اسم الرجل الذي اختصر أسفار المكابيين واسمه (يس الكريوني) نسبة إلى كريان وهي الاسم القديم لمقاطعة برقة في ليبيا .

(٢) هو سفر استير (التوراة) .

(٣) هو يشوع بن سيراخ (التوراة) .

التلاميذ برومة يُقيم بها دين النصرانية إلى أن قتلَ نيرونَ خامسَ القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس^(١) وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها وجعل معه اثني عشر قساً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من اثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين وافق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيروه أصلاً يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأئمة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يُقدّم عن بلاء واختبار^(٢) من أئمة المؤمنين ودوائهم فبقي الأمر كذلك .

ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقده في المسيح

(١) كذا بالأصل وهو خطأ . لأن اريوس قيس . ولم يتول مطلقاً كرسي البابوية ولا ما يقرب منها . وله مذهب خاص يقول بنفي الطبيعة اللاهوتية للمسيح . ولذلك حكم مجمع نيقية بتجريده من ألقابه الكهنوتية سنة ٣٢٥ م .

(٢) وفي بعض النسخ ملأه واختبار .

وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرْقًا وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النُّصْرَانِيَّةِ كُلِّ عَلَى صَاحِبِهِ فَاخْتَلَفَ
 الْحَالُ فِي الْعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ هِيَ
 فِرْقَتُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهِيَ الْمُلْكِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ اخْتَصَّتْ كُلُّ
 فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكٍ فَبَطْرِكُ رُومَةَ الْيَوْمِ الْمُسَمَّى بِالنَّبَاتَا عَلَى رَأْيِ الْمُلْكِيَّةِ وَرُومَةَ
 لِلْإِفْرَنْجِيَّةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ وَبَطْرِكُ الْمُعَاهِدِينَ بِمِصْرَ عَلَى رَأْيِ
 الْيَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَالْحَبْشَةَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرِكِ مِصْرَ فِيهِمْ
 أَسَاقِفَةٌ يَنْوَبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ .

وَاخْتَصَّ اسْمُ النَّبَاتَا بِبَطْرِكِ رُومَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تُسَمَّى الْيَعْقُوبِيَّةُ بِبَطْرِكِهِمْ بِهَذَا
 الْإِسْمِ وَضَبَطَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِنَاءِ تَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ مِنْ أَسْفَلِ وَالنُّطْقُ بِهَا مُفْخَمَةٌ وَالثَّانِيَّةُ
 مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ النَّبَاتَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجِيَّةِ أَنَّهُ يَخْضَعُهُمْ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ
 يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَخْرُجًا مِنْ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ وَيَتَخَرَّى بِهِ
 الْعَصِيَّةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيُسَمَّوْنَهُ الْإِنْبِرْدُورَ^(١)
 وَحَرْفُهُ الْوَسْطُ بَيْنَ الدَّالِّ وَالظَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ
 فَيُسَمَّى الْمُنَوَّجَ^(٢) . وَاعْلَمْ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِنْبِرْدُورِ وَهَذَا مُلْخَصٌ مَا أوردناه مِنْ شَرْحِ
 هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا النَّبَاتَا وَالْكُوهَنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
 يَشَاءُ .

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابا

إِغْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ

(١) المشهور قديماً إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول (أميرور) ومعناها عندهم ملك الملوك .

(٢) أي أن البابا يضع التاج على رأس الإمبراطور ثم يباركه .

بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِهِ ^(١) فَمَا ظَنُّكَ
 بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ
 عَدُوِّهِمْ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدُوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ
 الْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ الْعُدُوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِضْلَاحِ سَائِلَتِهِمْ ^(٢) وَإِلَى
 حَمَلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعَمَّهُمْ بِهِ الْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَفْقِيدِ
 الْمَعَايِشِ وَالْمَكَائِيلِ وَالْمَوَازِينِ حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظَرِ فِي السُّكَّةِ بِحِفْظِ
 النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْعِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ
 وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَإِنْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ ذَوْنَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ
 مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : « لِمُعَانَاةِ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا
 أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ » ثُمَّ إِنَّ الْإِسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأَوْلِي الْقُرْبَى مِنْ
 أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْإِضْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلذُّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ
 مُجَانَسَةِ خَلْقِهِمْ لِخَلْقِهِ فَتَسِمُ الْمُشَاكَلَةَ فِي الْإِسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ
 أَهْلِ هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » ^(٣) وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينُ فِي
 ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَابِيهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ
 فَيَسْغُلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مَهْمَاتِهِمْ ^(٤) أَوْ يَدْفَعُ النَّظَرَ فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ ^(٥) وَيَعُولُ عَلَى
 كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَأَضْطِلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَتَّرَقَ فِي أَشْخَاصٍ
 وَقَدْ يَتَفَرَّغُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّغُ إِلَى قَلَمِ الرِّسَائِلِ
 وَالْمَخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَانِيَةِ
 وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانَ الْجَيْشِ وَكَالْسَيْفِ يَتَفَرَّغُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ وَصَاحِبِ الشَّرْطِيَةِ

(١) الهيئة الخدمية وجميعها من بكسر الميم.

(٢) أبناء السبيل.

(٣) سورة طه (الآية ٢٩ - ٣٢).

(٤) معنى الجملة : ان الملك يستعين بسيف هذا في شؤون الحرب وقلم ذاك في شؤون الكتابة . وراي

آخر في شؤون السياسة .

(٥) الأصح أن يقول « يدفع النظر إليه في الملك كله »

وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ ثُمَّ اعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِاحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالْدُنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مُتَعَلِّقَةً بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهَ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا اسْتِئْذَانًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانَ أَوْ تَعْوِيضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةَ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مَقْتَدًا وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جَبَايَةِ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ انْسِحَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ إِلَّا أَنْ كَلَّمْنَا فِي وُظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمَقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمَرَاءِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرَدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمَطَالَعَتِهَا هُنَاكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَاللَّهِ الْمَوْفُوقُ .

الوزارة : وهي أم الحِطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتْبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ إِذَا مِنَ الْمُوَازَرَةِ وَهِيَ الْمَعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ الثَّقُلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَالثَّقَالَةَ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانَ وَتَضَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِذَا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ

الْجَمَاعِيَّة وَالْمُطَالِبِيَّة وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارَفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ بِالْمَشْرِقِ
 وَلِهَذَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مَخَاطِبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي أُمُورِ جَبَايَةِ
 الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبُطَةٍ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ
 صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ
 فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ دُونِ الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُسْفِلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهَذَا
 رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَخْجِبُهُ . فَلَا تَعْدُوا أَسْوَأَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ بِوَجْهِهِ . وَكُلُّ
 خِطْبَةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَلِئِذَا تَرَجَّعَ . إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ
 الْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصَّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ
 السُّلْطَانِ دَائِمًا وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَسْوَأِ مُلْكِيهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًا بِبَعْضِ
 النَّاسِ أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَمَرٍ أَوْ وِلَايَةِ جَبَايَةِ
 خَاصَّةٍ أَوْ النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السُّكَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ
 فِي أَسْوَأِ خِطْبَةٍ فَيَكُونُ صَاحِبَهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرُؤُوسَةً
 لِأَوْلِيائِهِ . وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ
 خِلَافَةً فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطْبَةُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنْ
 الْمَعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ
 فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مَهْمَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَخْصُصُ مَعَ
 ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلِ وَأَسْوَأَهَا
 فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيَّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزَيْرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفِظِ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ
 بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عَمَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ
 وَعُثْمَانُ مَعَ عَمْرٍ وَأَمَّا حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْحِسَابِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ
 الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبِيًّا أَمِينِينَ لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ ^(١) وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ فِي
 الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ^(٢) أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ

(١) أي الكتابة .

(٢) أهل الكتاب ، أي النصارى واليهود .

وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُحِيدُونَهُ لِأَنَّ الْأَمِيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي ائْتَمَرُوا بِهَا وَكَذَا
حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلْأَمِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ
وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ
إِنَّمَا هِيَ دِينَ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَلِكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً
فِيَسْتَجَادَ لِخَلِيفَةِ أَحْسَنَهَا لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يَعْبُرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ
وَلَمْ يَتَّقُوا إِلَّا الْعُطْوَ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنِيبُ فِي كِتَابَتِهِ مَتَى عَنْ لَهْ مَنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَّا
مُدَافَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أُبْوَابِهِمْ فَكَانَ مَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا
انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَالْقَابِئَةُ كَانَتْ أَوَّلَ شَيْءٍ يَدِيءُ بِهِ
فِي الدَّوْلَةِ شَأْنَ الْبَابِ وَسَدُّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ بِمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ
الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعَمْرٍ وَعَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَعَمْرٍ بِنِ الْعَاصِي وَغَيْرِهِمْ مَعَ
مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ ازْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمَهْمَاتِ فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ
بِذَلِكَ وَسَمَّوهُ الْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلِيَ حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ « قَدْ وَلَّيْتُكَ
حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ الْمُؤَدَّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي اللَّهِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ فَأَمْرٌ
مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ » ثُمَّ اسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ فَظَهَرَ
الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِثْلَافِهِمْ وَأَطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمَ الْوَزِيرِ
وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْعَوَالِي وَالنَّمِيِّينَ وَاتَّخَذَ لِلسُّجَلَاتِ كَاتِبَ مَخْصُوصَ حَوْطَةَ
عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ
إِنَّمَا اخْتِيجَ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ وَالْكِتَابُ لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانُ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ إِذْ
اللِّسَانُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى خَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتْ الْوِزَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتْبَتِهِمْ يَوْمئِذٍ فِي
سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ فَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًّا فِي أَحْوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمُفَاوَضَاتِ وَسَائِرِ
أُمُورِ الْحِمَايَاتِ وَالْمُطَالِبَاتِ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ وَفَرْضِ الْعَطَاءِ
بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْتَفْعَلَ الْمَلِكُ وَعَظَّمَتْ
مَرَاتِبُهُ وَارْتَفَعَتْ وَعَظَّمَ شَأْنَ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِي إِنْفَادِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي الدَّوْلَةِ وَعَدَتْ لَهَا الْوُجُوهَ وَخَصَّصَتْ لَهَا الرِّقَابَ وَجَعَلَ لَهَا النُّظْرَ فِي دِيْوَانِ الْحِسْبَانِ لِمَا تَخْتَاجُ إِلَيْهِ خَطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَّاتِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتَاجَ إِلَى النُّظْرِ فِي جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ وَأَضْيَفَ إِلَيْهِ النُّظْرَ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النُّظْرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِضَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ وَلِحَفِظِ الْبَلَاغَةِ لِمَا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسِحْلَاتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ^(١) وَدَفَعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعاً لِخَطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمَعَاوَنَةِ حَتَّى لَقَدْ دَعَى جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرَّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا الْجَبَابَةِ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الْإِسْتِبْدَادِ عَلَى السُّلْطَانِ^(٢) وَتَعَاوَزَ فِيهَا اسْتِبْدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُخْتَاجاً إِلَى اسْتِنَايَةِ الْخَلِيفَةِ إِثَاءً لِذَلِكَ لِصَحِّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَتَجِيءَ عَلَى خَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَ فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةٍ تَنْفِيذٍ وَهِيَ خَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِماً عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى وَزَارَةٍ تَفْوِيضٍ وَهِيَ خَالٌ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَبِداً عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَمَرَ الْإِسْتِبْدَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ وَتَمَطَّلَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَوْلِيكَ الْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا الْقَابَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَنكفُوا مِنْ مِشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي اللَّقْبِ لِأَنَّهُمْ خَوْلَ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ وَكَانَ الْمُسْتَبَدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ يُسَمَّى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُخْلِيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْقَابِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْقَابِيهِمْ وَتَرَكَوْا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ اللِّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صِنَاعَةٌ يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ فَاثْمَهَنْتْ وَتَرَفَّعَ الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَجَمٌ وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ فَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ وَاخْتَصَّتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةً

(١) الذِّيَاعُ وَالشِّيَاعُ ، لَيْسَا مِنْ مِصَادِرِ ذَاعٍ وَشَاعَ ، وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ : الذِّيُوعُ وَالشِّيُوعُ .

(٢) أَيِ الْخَلِيفَةِ كَمَا يَبْضَحُ مِنَ الْعِبَارَةِ الْآخِيقَةِ .

على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً واستمر الأمر على هذا ثم
جاءت دولة الترك آخرأ بمصر فقرأوا أن الوزارة قد ابتدئت بترفع أولئك عنها
ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المخجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير
فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة
وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي
اسم الحاجب في مذكوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الحجابة . وأما دولة
بنى أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مذكوله أول الدولة ثم قسموا خطته أضافاً
وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسان المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر في
حوایج المتظلمين وزيراً وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت
يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له
وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل
وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى
آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك
الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت
دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر
هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم . ولما جاءت دولة
الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء
والألقاب وكان اسم الوزير في مذكوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب
السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يخجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود
والداخيلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في
الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا
العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود
الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار

وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِثْبَاعَ كَاتِبِ السَّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ
السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ وَخَالَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهِ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ
يَشَاءُ .

(الحجابة) : قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
وَالْعَبَّاسِيَّةِ يَمَنْ يَخْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُعْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى
قَدْرِهِ فِي مَوَاقِيْتِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةٌ يَوْمًا عَنِ الْخِطِطِ مَرْوُوسَةً لَهَا إِذَا الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ
فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ بِمِصْرَ
مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ الْخِطَّةِ الْعُلَيَّا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ . وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَخْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ
وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي
أَخْبَارِهِمْ كَائِنِ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَابِيهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِسْتِيزَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَصَ
الْمُسْتَبَدُّ بِاسْمِ الْحِجَابِيَّةِ لِشَرَفِهَا فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا
بَدَا فِي مَظَاهِرِ الْمُلْكِ وَأَطْوَارِهِ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرَكُوا
لِقَبِهَا وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ
وَأَسْمَائِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ يَتَعَنُونَ بِهِ السِّيفَ وَالْقَلَمَ
وَيَبْدُلُونَ بِالْحِجَابِيَّةِ عَلَى حِجَابِيَّةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنِ
جَمِيعِهِ لِخِطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرٌ لِهَذَا الْإِسْمِ
لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرَبِّمَا يُوجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا
وَخَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ . وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا الْخَضَارَةُ
الدَّاعِيَّةُ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخِطِطِ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ
عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّتَبِ إِلَّا الْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوْلَى يَخْضُونَ بِهَذَا الْإِسْمِ الْكَاتِبِ الْمُتَصَرِّفِ
الْمُشَارِكِ لِلْسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَائِنِ عَطِيَّةً وَعَبْدَ السَّلَامِ الْكُومِيَّ وَكَانَ لَهُ مَعَ
ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ الْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ

الدولة من الموحدين كائين جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ . وأما بنو أبي حفص بأفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً والتقدم لوزير والرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والمزل وقود المساكين والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الأشرار لأن الكتابة لم تكن من متحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين يداره إلى قهرمان خاص يداره في أخواله يخربها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإضبلات وغيرها وحضر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطبة أرفع الرتب وأوعبها^(١) للخطيب ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطبة الجباية التي كانت سلماً إليه وبأشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد .

وأما دولة زناتة بالمغرب وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها وإن اختصت ببعض البيوت المضطئعين في

(١) بمعنى استيعابها للخطط .

دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيَسْمَى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمَرْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجِنَادَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوْامِرِهِ وَتَضْرِيْفِ عَقُوبَاتِهِ وَإِنزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةٌ صُغْرَى . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَمْرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزَ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانَ وَالسَّجَلُ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبِعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيذُ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعِلَامَةِ كَمَا لِيغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوِظِيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيْفَةِ النَّبِيَاةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةَ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوِظَائِفِ عَلَى الْأَخْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْتَسُهَا وَتَنْفِذُ أَوْامِرَهُ كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَاسِمَ السُّلْطَانِيَّةَ وَكَانَ لَهُ النَّبِيَاةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلِلْحُجَابِ الْحُكْمُ قَطُّ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافِعِ إِلَيْهِمْ وَاجْتِبَارِ مَنْ أَبِي الْإِنْتِقِيَاةَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرَهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النَّبِيَاةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِيَاةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَضْرِيْفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْجِرَايَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوْلِيَةَ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ

الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أوضاعهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مضر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأختيان لأهل الشوكة من رجال الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

ديوان الأعمال والجبايات

إن علم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد يتفصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها . ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أي مجانين بلغه الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقبل ديوان ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شد وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسه يباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مضطاج الدولة وما

قَرَّرَهُ أَوْلُوهَا . وَاعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْوُضَيْفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلَبِ
 وَالْإِسْتِيلَاءِ وَالنُّظَرِ فِي أَغْطَافِ الْمُلْكِ وَفُنُونِ التَّمْهِيدِ . وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي
 الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَا لِي أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَاسْتَكْشَرُوهُ وَتَعَبُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِخْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبَطَ
 الْعَطَاءَ وَالْحَقُوقَ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالدِّيَوَانَ وَقَالَ : « رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ
 يَدُونُونَ » فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهَرَمِرَانُ لَمَّا رَأَهُ يَبْعَثُ الْبِعُوثَ
 بِغَيْرِ دِيَوَانَ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبِيَّةٍ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ فَإِنْ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلُ بِمَكَانِهِ
 وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابَ فَاتَّيَبَتْ لَهُمْ دِيَوَانًا وَسَأَلَ عُمَرُ عَنِ اسْمِ الدِّيَوَانَ فَعَبَّرَ لَهُ
 وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنِ نُوفَلٍ وَجَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ
 وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيَوَانَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ
 مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ
 دِيَوَانَ الْجَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْمُسَيْبِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ
 عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيَوَانَ الْخَرَاجِ وَالْحَبَائِثِ فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
 قَبْلِ دِيَوَانَ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَوَانَ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ وَكُتَّابُ الدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ
 الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرَ مُلْكًا وَانْتَقَلَ
 الْقَوْمُ مِنْ غَضَاةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رُوْنُقِ الْحَضَارَةِ وَمِنْ سَدَاجَةِ الْأُمِّيَّةِ إِلَى حَذَقِ الْكِتَابِيَّةِ
 وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكُتَّابِ وَالْحِسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ
 سَعْدٍ وَالِيَّ الْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ
 ابْتِدَائِهِ وَوَقَّفَ عَلَيْهِ سَرْحُونَ كَاتِبَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ : « اظْلُبُوا
 الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ » . وَأَمَّا دِيَوَانَ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ
 الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَلَقِّنَ ذَلِكَ
 عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
 الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَوَانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ

إلى العَرَبِيَّةِ ففَعَلَ وَرَغِمَ لِدَلِكِ كُتَابِ الْفَرَسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ
دُرُّ صَالِحٍ مَا أَكْثَرَ مِثْلَهُ عَلَى الْكُتَابِ ثُمَّ جَعَلَتْ هَذِهِ الْوُضُوفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ
نُوبَخْتٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُضُوفَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ
الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ أَوْ يَنْبَغِي فِي الْمَالِ فِي الدُّخْلِ وَالْخُرُجِ وَتَمْيِيزِ النُّوَاجِحِ
بِالصَّلْحِ وَالْعُنُوفَةِ وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوُضُوفَةِ لِمَنْ يَكُونُ وَشُرُوطِ النَّظَرِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ
وَقَوَائِنِ الْحِسَابَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَاكَ
وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي نَحْنُ
بِصَدِّهِ الْكَلَامَ فِيهِ وَهَذِهِ الْوُضُوفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَلِكِ بَلْ هِيَ ثَالِثَةٌ أَرْكَانُهُ لِأَنَّ
الْمَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ فَاحْتِاجُ صَاحِبِ الْمَلِكِ
إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيَتَفَرَّدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ
رِئَاسَةِ الْمَلِكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ بَعْدَهُمْ
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ
فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعَمُّبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ وَالْمَعْمَالِ فِيهَا ثُمَّ تَنْفِيذِهَا
عَلَى قَدْرِهَا وَفِي مَوَاقِيْتِهَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا فِي
الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُؤَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا . وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ
شَأْنُ الْجَالِيَّةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبَيْتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ
فِي الْأَنْدَلُسِ مِثْلَ بَنِي سَعِيدِ أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِ عَرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي
الْحَسَنِ فَاسْتَكْفَوْا بِهِمْ فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ
وَدَالُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤَحِّدِينَ ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحِسَابِ وَالْكَتَابِ وَخَرَجَتْ
عَنِ الْمُؤَحِّدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَعْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَفَذَ أَمْرَهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ
تَعَطَّلَ هَذَا الرِّسْمُ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرْوُوسًا لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ وَذَهَبَتْ
تِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مَرْزِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَحِسْبَانُ

القطاع والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظيره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخارج والقطاع هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان . وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان القطاع يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لأنفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبائيات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظيره ويختهد جهده في متابعتهم ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجنيد وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسابان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعياته أو سهمانيه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجنيد فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص . هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره .

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما

في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع
 وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة
 عن المقاصد فصارت الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر
 وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسيه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء
 وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أشرارهم فلما فسد اللسان
 وصارت صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس ربيعة وكان الكاتب
 يضدر السجلات مطلقاً ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو
 طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء
 ويسمى طين الختم ويطبّع به على طرفي السجل عند طيه والضاوية ثم صارت
 السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً
 على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطّة بارتفاع المكان
 عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير
 علامة هذا الكتاب ملغاة بالحكم بعلامة الرئيس عليه يستبدل بها فيكتب صورة
 علامته المعهودة والحكم بعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما
 ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي
 للكاتب ملغى وصورتها ثابتة إبتاعاً لما سلف من أمرها فصارت الحاجب يرسم
 للكاتب إمضاء كتابه ذلك يخط يصنعه ويتخير له من صنع الإنفاذ ما شاء فيتأمر
 الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان
 مستبداً بأمره قائماً على نفسه فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته؛ ومن خطط
 الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه
 وفضله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان
 بأوجز لفظ وأبلغه فيما أن تصدر كذلك وإما أن يخذوا الكاتب على مثالها في سجل
 يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقّع إلى غارضة من البلاغة يستقيم بها

تَوْقِيْعُهُ وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَزِيْمِي
بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا فَكَانَتْ تَوْقِيْعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلْغَاءُ فِي تَخْصِيْلِهَا لِلوَقُوفِ فِيهَا عَلَى
أَسَالِيْبِ الْبُلَاغَةِ وَفَتُونِهَا حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلِّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا
كَانَ شَأْنُ الدُّوْلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخِطَّةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْفَعَ طَبَقَاتِ
النَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبُلَاغَةِ فَإِنَّهُ مُعْرَضٌ لِلنَّظَرِ
فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا يُعْرَضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ
مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْآدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ
إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيْلِ وَتَطْبِيقِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبُلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِي
بَعْضِ الدُّوْلِ مُسْتِنْدَةً إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبِيعُ الدُّوْلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ
مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ الْعَضْبِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَضْبِيَّتِهِ بِخِطِّ دَوْلَتِهِ
وَسَائِرِ رُتْبَتِهِ فَيَقْلُدُ الْمَالَ وَالسُّيْفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ فَأَمَّا رُتْبَةُ السُّيْفِ فَتَسْتَفِيضُ عَنِ
مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْمَالَ وَالْكِتَابَةَ فَيَضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبُلَاغَةَ فِي هَذِهِ وَالْحِسْبَانَ فِي
الْآخَرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ وَيَقْلُدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ
لَا تَكُونُ يَدُ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْعَضْبِيَّةِ غَالِبَةً عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرَفًا عَنِ نَظَرِهِ
كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ
الْإِنْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ عَضْبِيَّةِ السُّلْطَانِ يُعْرَفُ بِالدُّوَيْدَارِ وَتَعْوِيلُ
السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَاسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ
الْبُلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكُتْمَانَ الْأَسْرَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا . وَأَمَّا الشُّرُوطُ
الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَاتِّقَائِهِ مِنْ
أَصْنَافِ النَّاسِ فِيهَا كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى
الْكَتَّابِ وَهِيَ : « أَمَّا بَعْدَ حِفْظِكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطِكُمْ وَوَفَّقَكُمُ
وَأَرْشَدَكُمُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ
وَسَلَامَتِهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمَنْ بَعْدَ الْمُلُوكِ الْمُكْرَمِينَ أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ

سَوَاءٌ وَصَرَفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمُحَاوَلَاتِ إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ
أَرْزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ
وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَخَاسِنَهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا وَيُنْصَحَائِكُمْ يُضْلِحُ اللَّهُ
لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ لَا يَسْتَفِينِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا يُوْجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ
فَمَوْقِعَكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعَ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا
يُبْصِرُونَ وَالسِّنِّيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطَشُونَ فَأَتَمَّتْكُمْ اللَّهُ
بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا تَزْعُ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعَةِ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ
أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَخْمُودَةِ وَخِصَالِ
الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيْهَا الْكُتَابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ
مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ الْكِتَابَ يَخْتِاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَخْتِاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي
مَهْمَاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مَقْدَمًا فِي
مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ مُخِيحًا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ مُؤَثِّرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ كَتُومًا
لِلْأَسْرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ التَّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا
وَالطَّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهُ أَخَذَ
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بِغَرِيْبَةِ عَقْلِهِ وَحَسَنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ مَا يَرُدُّ
عَلَيْهِ قَبْلَ وُجُودِهِ وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيَعُدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ
وَيُنَبِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكُتَابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ
وَتَنَفَّقُوا فِي الدِّينِ وَابْتَدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا
ثِقَافُ السِّنِّيَّةِ ثُمَّ أُجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حَلِيَّةُ كُتُبِكُمْ وَارْوُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا
وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعَيَّنٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو
إِلَيْهِ هِمَّتْكُمْ وَلَا تُضْيِعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كِتَابِ الْخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنِ الْمَطَامِعِ سِنِّيًّا وَدُنْيِيًّا وَتَمَسَّكُوا بِالْأُمُورِ وَمَحَاقِرُهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ
لِلْكُتَابِ وَنَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدُّنَاءَةِ وَارْتَبَاوْا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السُّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا

فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَبِيرَ وَالسَّخْفَ وَالْعَظْمَةَ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ
 إِخْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ
 الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبْلِ مِنْ سَلْفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْظَمُوا عَلَيْهِ وَأَسُوهُ
 حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكَبِيرَ عَنْ مَكْسَبِهِ
 وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظَمُوهُ وَشَاوَرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ
 وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اضْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى
 وَوَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمِدَةٌ فَلَا يَصِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ
 مَذْمُومَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَخْذِرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ فَإِنَّ
 الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْقِرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَسَدٌ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ
 الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ
 عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَقَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنُصِيحَتِهِ وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَذْيِيرِ
 أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالِاضْطِرَّارِ إِلَى
 مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعَرُوا ذَلِكَ وَفَقِّكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالْحَرَمَانِ
 وَالْمُؤَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ وَالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ فَبِعَمَّتِ السَّيْمَةَ هَذِهِ مَنْ وَسِمَ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وَلَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صَيَّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرًا
 فَلْيُرَاقِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤَثِّرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا
 « فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ » ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا
 وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرَمًا وَلِلْفُقَرَاءِ مُؤَفَّرًا وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ أَدَاهُمْ مُتَخَلِّفًا
 وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سِيحَلَاتِ خِرَاجِهِ وَاسْتِقْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا
 صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيُخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حُسْنَهَا وَقُبْحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ
 مِنَ الْحُسْنِ وَاحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَنْهَوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ بِالطَّيْفِ حِيلَةً وَأَجْمَلَ وَسِيلَةً وَقَدْ
 عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا التَّمَسَّ بِمَعْرِفَةِ أُخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ
 رَمُوحًا^(١) لَمْ يَبْهَجْهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شُبُوبًا^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ

(١) كثيرة الرفس

(٢) كثيرة رفع اليدين

مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُونَ قَمَعَ بِرَفْقٍ هَوَاهَا فِي طَرَقِهَا ^(١)
فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطْفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادَهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَائِلُ
لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ يَفْضَلُ أَدَبَهُ وَشَرِيفَ صَنْعَتِهِ
وَلَطِيفَ حِيلَتِهِ وَمَعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُخَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ
سَطْوَتَهُ أَوْلَى بِالرَّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمَذَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي
لَا تُحِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا
الرَّاكِبُ عَلَيْهَا أَلَا فَارْقُوا رَحْمَتَكُمْ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَعَمَلُوا مَا أَمَكَّنَكُمْ فِيهِ مِنَ الرُّوِيَةِ
وَالْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النُّبُوَّةَ وَالِاسْتِثْقَالَ وَالْحَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى
الْمُوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمُوَاخَاةِ وَالشُّفْقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلَا يُجَاوِزُنَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ
فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدْمِهِ وَعَبْرَ ذَلِكَ مِنْ
قُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرَ حَقَّهُ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتِكُمْ خَدْمَةً
لَا تُحْمَلُونَ فِي خَدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفْظَةَ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التُّضْيِيعِ
وَالتَّبْذِيرِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَاكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ
وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ الشَّرْفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذَلِّانِ الرِّقَابَ
وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسَيِّمَا الْكُتَابَ وَأَرْبَابَ الْأَدَابِ وَالْأُمُورِ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى
بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ ^(٢) أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتِكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ
مَسَالِكِ التَّذْيِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةٌ وَأُصْدَقَهَا حُجَّةٌ وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةٌ وَعَلِمُوا أَنَّ لِلتَّذْيِيرِ
أَفَّةً مُتَلَفَةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنِ انْتِقَادِ عِلْمِهِ وَرُويْتَهُ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ
فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكِفَايَةِ مِنْ مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي انْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ
حِجَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَضْلَعَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاعُلِ عَنِ إِكْثَارِهِ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ
تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ
ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانَ أَوْ قَالَ قَائِلًا إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ

(١) بمعنى الضرب.

(٢) الجديد الذي لم تسبق فيه تجربة.

بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بَطْنُهُ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِيلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ
مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلَ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي
خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَغْفَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبْيَابِ مَنْ رَمَى بِالْعَجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى
أَنَّ أَصْحَابَهُ أَغْفَلَ مِنْهُ وَأَحْمَدٌ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ
فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَكَاثِرُ^(١) عَلَى
أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ
لِعَظَمَتِهِ وَالتَّنْذُلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ
مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزِمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ
مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَنُّتُهُ بِهِ تَوْلَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ
الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِزْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَبِيدُهُ
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .»

(الشرطية) : وَيُسَمَّى صَاحِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي. وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ
السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَكَانَ أَضَلُّ وَضَعَهَا فِي
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي خَالَ اسْتِبْدَادِهَا أَوْلَا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ
اسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تَفْرُضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا
وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مَوْجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يَكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ
الْقَرَائِنُ لِمَا تَوَجَّبَهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْإِسْتِبْدَادِ
وَإِسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا
إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ وَالْدَّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ . وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي وَنَزَّهُوا هَذِهِ
الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِنَارَ الْقَوَادِ وَعَظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيدِ فِي

(١) يتعاطف أو يفاخر

طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرئب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة . ثم عظمت نبأهتها في دولة بني أمية بالاندلس ونوعت إلى شرطية كبرى وشرطية صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامّة ونصب لصاحب الكبرى كزيسى بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه فلا يترخون عنها إلا في تضريفه وكانت ولايتها للأكابري من رجال الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجاية .

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامّة وكان لا يليها إلا رجال الدولة الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسدت اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المضطّعين . وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتهما في بيوت مواليتهم وأهل اضطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجال الدولة الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الترك يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الضلالة والمضاء في الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجاميعه مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم .

(قيادة الأساطيل) : وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وأفريقيّة ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم البلمند بتفخيم اللام منقولا من لغة الإفرنجية فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقيّة والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبيّة بلاد البربر كلهم .

مِنْ سَبْتَةَ إِلَى الشَّامِ وَعَلَى غَدَوْتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالصَّقَالِبِيَّةِ وَالرُّومِ إِلَى
 بِلَادِ الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الرُّومِيَّ وَالْبَحْرَ الشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ غَدَوْتِهِ
 وَالسَّاكِنُونَ بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ غَدَوْتِيهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ
 أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةِ الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتِ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجِيَّةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ الرُّومِيَّ وَكَانَتْ أَكْثَرَ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ
 وَالْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَ ^(١) مَنْ أَسَفَ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدْوَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ
 الرُّومِ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا ^(٢) فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكَوْهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى
 الْبِرْتَرِي بِهَا وَاتَّزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمُدُنُ الْخَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجِنَةَ
 وَسَبِيْطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجِنَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْمَسَاكِرِ وَالْعَدَدِ فَكَانَتْ
 هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ السَّاكِنِينَ خَفَافِيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ
 الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا « أَنْ
 صِفْ لِي الْبَحْرَ » فَكَتَبَ إِلَيْهِ « إِنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُوْدٌ عَلَى
 عَوْدٍ » فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ
 افْتَنَاتَ عَلَى عَمْرٍ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ
 بَجِيلَةَ لَمَّا أَغْرَاهُ عَمَانُ فَبَلَمَغَهُ غَزْوُهُ فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنْفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ
 وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مَعَاوِيَةَ أَدْنِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ
 عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِبِدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهْرَةً فِي ثِقَافِيهِ وَرُكُوبِهِ
 وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجِيَّةُ لِمَعَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرِنُوا عَلَيْهِ
 وَأَحْكَمُوا الدَّرَازِيَةَ بِثِقَافِيهِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَّةُ
 الْعَجَمِ خَوْلًا لَهُمْ وَتَحَتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ
 وَاسْتَحْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي خَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أَمَّا وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ

(١) دنا .

(٢) تطموا .

وثقافته واشتدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني
وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر
من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وتغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى
خافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس وأوعز الخليفة عند الملك إلى
حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات
البحرية حرصاً على مراسيم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن
إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضاً في
أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان
فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات
وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين
تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنه فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب .
وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها
وأسطول أفريقية كذلك مثله أو قريباً منه وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن
دعاحس ومرفأها للخط والإقلاع بجاية والمريّة وكانت أساطيلها مجتمعة من
سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من
النواية يدبر أمر حزيه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جزيرته بالريح أو
بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو مختفل أو غرض
سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره
ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه
ثم يسرحهم لوجههم وينتظر إياهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة
الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم
فيه فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وأمنطوا ظهره
للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم وملكوا سائر

الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة وياينة وسردانية وصقلية
وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرس وسائر ممالك الروم والإفرنج وكان أبو القاسم
الشيبي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتقلب بالظفر
والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية
في أساطيله سنة خمس وأربعين وأربعمائة وأرتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك
كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وصارت أساطيلهم فيهم جائنة وذهبة
والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها
من العدو الشمالية فتوقع ملوك الأفرنج وتخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني
الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبديين وانحازت أمم النصارية
بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنج والصقالية
وجزائر الرومانية لا يقدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد
على قريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عذة وعددا واختلفت في طرقه
سلما وحربا فلم تظهر للنصارية فيه ألواح حتى إذا أدرك الدولة العبديية والأموية
الفسل والوهن وطرقها الإغتيال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل
صقلية وأقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة
وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام
وعلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم وعلبوا بني
خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا
المهدية مقر ملوك العبديين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في
المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن
انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبديية
عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك
وتقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا

البخر لهذا العهد مؤفور الأساطيل ثابت القوة لم يتخيفه عدو ولا كانت لهم به
 كربة فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قبادس ومن
 أيديهم أخذها عند المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من
 بلاد العدوتين جميعاً. ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا
 العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد
 أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جزبة من سرويكش
 أسرة النصارى من سواحليها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم
 هلك. وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل
 على السيد بها من بني عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد
 المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمم
 النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت
 أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد
 فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهد
 باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تتابعت
 أساطيلهم بالمقدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد
 استولوا عليه فأمدهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار
 الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحرية وتعدد أساطيلهم فيه وضعف
 المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل فأوفد صلاح
 الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهد من الموحدين رسوله عند
 الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيرز. وكان ملكها من أيديهم وأبقى
 عليهم في دولته فبعث عند الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل
 لتحول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من أمداد النصرانية بثغور
 الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل اليساني يقول في افتتاحه

« فَتَحَ اللهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاحِجِ وَالْمَيَامِينَ » حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَنَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَخَافِيهِمْ عَنْ خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِجِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ إِلَى مَرْسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنُّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ وَعَدَمِ عِنَايَةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا تَعَدَّهُ لِشَأْنِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ مِنْهَا لِلدُّوَلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَاسْتَوْلَتْ أُمَّمُ الْجَلَالَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَاوِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَمَلَكُوا الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ وَاسْتَدَّتْ شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ مَرَامِهِ الْجِهَادِ مِثْلَ عُدَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَسَاطِيلِ لُضْفِ الدُّوَلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدْوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجْعِ النُّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الذُّرِّيَّةِ فِيهِ وَالْمِرَانَ عَلَيْهِ وَالْبَصْرَ بِأَحْوَالِهِ وَعَلَبَ الْأَمَمُ فِي لُجْبِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدُّوَلَةِ تَسْتَحِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتَوْضُحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلُكًا وَبَقِيَّتِ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدُّوَلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةٌ وَالرُّسْمُ فِي مَعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْفُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنَ الْمُشْتَهَرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحَدَثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النُّصْرَانِيَّةِ وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِغْلَمَ أَنَّ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آتَى لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنْ
 الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إِلَى السَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدَّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى
 الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطُ مُنْفَذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسَّيْفُ شَرِيكَ فِي
 الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضَعُفُ عَصِيْبَتُهُمَا كَمَا ذَكَرْنَا وَيقَلُّ أَهْلُهَا بِمَا
 يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَمْنَا فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ
 وَتَقْوَى الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّانُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي
 تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مَرْتَبَةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السَّيْفِ حِينَئِذٍ
 أَوْسَعَ جَاهًا وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينُ صَاحِبُهَا بِغَضِ
 الشَّيْءِ عَنِ السَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمْهَدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هُمَةٌ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ
 الْجَبَايَةِ وَالضُّبُطِ وَمُبَاهَاةِ الدُّوْلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْظُمُ
 الْحَاجَةُ إِلَى تَضْرِيْفِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَعْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَابَتْ نَائِبَةً
 أَوْ دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ^(١) وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي
 هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا
 وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خُلُوتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آتَتْهُ الَّتِي بِهَا يَسْتِظْهَرُ عَلَى تَحْصِيلِ
 ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَالنَّظَرَ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمُبَاهَاةِ بِأَخْوَالِهِ وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ
 حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَعِينِي عَنْهُمْ مُتَعَدِّينَ عَنِ بَاطِنِ السُّلْطَانِ حَاذِرِينَ عَلَى
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ . وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ
 بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَا مِنْ وَصَايَا الْفَرَسِ أَحْوَفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا
 سَكَنَتِ الدُّهُمَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) الفُرْجَةُ : ج فَرْج ، كل منفرج بين شيئين وهنا بمعنى خلل .

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِغْلَمَ أَنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا الْأَبْهَةُ وَالبُدْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بِانْتِحَالِهَا عَنِ الرُّعِيَّةِ وَالبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَنذَكُرُ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ المَعْرِفَةِ « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

الآلة : فَمِنْ شَارَاتِ المَلِكِ اتِّخَاذُ الآلَةِ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ وَالنَّفْحِ فِي الْأَنْبَاقِ وَالقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أرسطو فِي الكِتَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ إِزْهَابُ المَعْدُوِّ فِي الحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ بِالرُّوعَةِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَمَرَ وَجَدَانِيٌّ فِي مَوَاطِنِ الحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أرسطو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ بِبَعْضِ الإِغْتِبَارَاتِ . وَأَمَّا الحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النُّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ يُدْرِكُهَا الفَرْحُ وَالتَّطَرُّبُ بِلا شَكِّ فَيَصِيبُ مِزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَشْهِلُ بِهَا الصُّعْبَ وَيَسْتَمِيئُ فِي ذَلِكَ التَّوَجُّهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ المَعْجَمِ بِانْفِعَالِ الإِبِلِ بِالحِذَاءِ وَالخَيْلِ بِالصُّفِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِئَةً كَمَا فِي الغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَخْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا المَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ تَتَّخِذُ المَعْجَمُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ المَوْسِيقِيَّةَ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بُوْقًا فَيَخْدِقُ المَعْتُونُ بِالسُّلْطَانِ فِي مَوَاقِبِهِ بِالآتِيهِمْ وَيَغْنُونُ فَيُحَرِّكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الإِسْتِمَاتَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ العَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ المَوَكِبِ بِالشِّعْرِ وَيُطَرِّبُ فَتَحِيشُ هَمَّهُ الأَبْطَالَ بِمَا فِيهَا وَيَسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ الحَرْبِ وَيَتَبَيَّعُ كُلُّ قَرْنٍ إِلَى قَرْنِهِ وَكَذَلِكَ زِنَانَةٌ مِنْ أُمَّةِ العَرَبِ يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيُحَرِّكُ بِغِنَائِهِ الجِبَالَ الرُّؤَاسِيَّ وَيَتَّبَعُ عَلَى

(١) قَوْلُهُ مَوْسِيقِيَّةٌ وَفِي نَسْخَةِ المَوْسِيقِيَّةِ وَهِيَ صَحِيحَةٌ لِأَنَّ المَوْسِيقِيَّ بِكسر القافِ بَيْنَ التَّحْتِيئِيْنِ اسْمٌ لِلنِّغَمِ وَالأَلْحَانِ وَتَوَقُّعِهَا وَيُقَالُ فِيهَا مَوْسِيقِيٌّ وَيُقَالُ لِضَارِبِ الآلَةِ مَوْسِيقِيًّا انظُرْ أَوَّلَ سَفِينَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَهَابٍ .

الإشتمانة من لا يظنُّ بها ويسْمون ذلك الغناء تاصو كآيت وأضله كُله فرح
يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعت عن نشوة الخمر بما حدث
عنها من الفرح والله أعلم وأما تكثير الرّيات وتلوينها وإطالتها فالفرض به
التحويل لا أكثر ورّبما تحدث في النفوس من التحويل زيادة في الأقدام وأحوال
النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم . ثم إن الملوك والدول يختلّفون في
اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمتها فأما
الرّيات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة ولم تزل الأمم تعقدّها في مواطن
الحروب والغزوات لعهد النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء . وأما فرغ الطبول
والنفخ في الأتواق فكان المسلمون لأول الملة متحافين عنه تنزهاً عن غلظة الملك
ورفضاً لأحواله واحتقاراً لأبنته التي ليست من الحق في شيء حتى إذا انقلبت
الخلافة ملكاً وتبجحوا بزهرة الدنيا وتعيمها ولا بسهم الموالى من الفرس والروم
أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البدخ والتزرف
فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا للعالمين في اتخاذها تنويهاً بالملك
وأهله فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من
العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في
موكب من أصحاب الرّيات والآلات فلا يميّز بين موكب العامل والخليفة إلا
بكثرة الألوان وقليتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لزيته كالسواد في
رّيات بني العباس فإن رّياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم
ونعياً على بني أمية في قتلهم ولذلك سمو المسودة . ولما افترق أمر الهاشمين
وخرج الطالبيون على العباسيين من كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك
فاتخذوا الرّيات بيضاً وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من
الطالبين في ذلك العهد بالمشرك كالذاعي بطبرستان وذاعي صعدة أو من دعا
إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالفرامطة . ولما نزع المأمون عن لبس السواد

وشعاره في دولته عدل إلى لون الخضرة فجعل رايته خضراء . وأما الاستكثار منها
 فلا ينتهي إلى حد وقد كانت آلة العبيدين لما خرج العزيز إلى فتح الشام
 خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق . وأما ملوك البزير بالمغرب من
 صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من
 الحرير الخالص ملونة واشتمروا على الإذن فيها لعالمهم حتى إذا جاءت دولة
 الموحدين ومن بعدهم من زناة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان
 وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في
 مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين كثير ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك
 فمنهم من يقتصر على سبعة من العدد تبركا بالسنعة كما هو في دولة الموحدين
 وبنو الأحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناة وقد
 بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود
 ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمال
 والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب
 لا يتجاوزون ذلك وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون راية واحدة
 عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشال والجر وهي شعار
 السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية
 يلسانهم . وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون
 لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فإنه خاص
 بالسلطان . وأما الجلافة ذاهبة في الجو صعدا ومعها قرع الأوتار من الطنابير وتنفخ
 الفيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يتلغنا
 عنهم وعن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف
 السيتكم والوانكم « إن في ذلك لآيات للعالمين » .

(السرير) : وأما السريرُ والمنبرُ والتختُ والكرسيُّ فهي أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ مَنْصُودَةٌ لِيَجْلُوسَ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الصُّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَةِ الذَّهَبِ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدُّوَلُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِفْحَالِ وَالتَّرَفِ شَأْنِ الْأُبْهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا. وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدُّوَلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ . وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَعَاوِيَةُ وَأَشَادَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدَنْتُ^(١) فَأَذْنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأُبْهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِيِ بِمَضَرَ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُتَفَوِّقُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي لِيَجْلُوسَ شَأْنَ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامُهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ^(٢) وَفَاءَ لَهُ بِمَا عَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذِّمَّةِ وَاطْرَاحًا لِأُبْهَةِ الْمَلِكِ . ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبْسِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَسِرَةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتُّخُوتِ مَا عَفَا عَنِ الْأَكَاسِرَةِ وَالتَّقْيَاصِرَةِ وَاللَّهِ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

(السكة) : وَهِيَ الْخَتْمُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ الْمُتَعَامِلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَائِعِ حَدِيدٍ يُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الدِّيْنَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ فَتَخْرُجُ رُسُومٌ تَلِكُ النُّقُوشِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ بَعْدَ أَنْ يُعْتَبَرَ عِيَارُ النُّقْدِ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي خُلُوصِهِ بِالسَّبْكِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ بِوَزْنٍ مُعَيَّنٍ صَحِيحٍ يُضْطَلَحُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدَدًا وَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ أَشْخَاصَهَا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزْنًا وَلَفْظُ السَّكَّةِ كَانَ اسْمًا لِلطَّائِعِ وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الْمُتَّخَذَةُ لِذَلِكَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى أُثْرَهَا وَهِيَ النُّقُوشُ الْمَائِلَةُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى ذَلِكَ وَالنُّظَرِ فِي اسْتِيفَاءِ حَاجَاتِهِ وَشُرُوطِهِ وَهِيَ الْوُضُوفَةُ فَصَارَ عِلْمًا

(١) أي سمت والبدن : عظم بدنه بكثرة لحمه . أصبح جسيما (قاموس)

(٢) أي يهجمون على القوقس .

عَلَيْهَا فِي عَزْفِ الدُّوَلِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمَلِكِ إِذْ بِهَا يَتَمَيَّزُ الْخَالِصُ مِنَ
 الْمَغْشُوشِ بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّقُودِ عِنْدَ الْمُعَامَلَاتِ وَيَتَّقُونَ فِي سَلَامَتِهَا الْغِشَّ بِخَتْمِ
 السُّلْطَانِ عَلَيْهَا يَتَلَكَّ النُّقُوشُ الْمَعْرُوفَةُ وَكَانَ مَلُوكُ الْعَجَمِ يَتَّخِذُونَهَا وَيَنْقُشُونَ
 فِيهَا تَمَائِيلَ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا مِثْلُ تَمَثَالِ السُّلْطَانِ لِعَهْدِهَا أَوْ تَمَثِيلِ حُضْنٍ أَوْ
 حَيَوَانٍ أَوْ مَضْنُوعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَ الْعَجَمِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ . وَلَمَّا
 جَاءَ الْإِسْلَامُ أَغْفَلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ الدِّينِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ وَزَنًا وَكَانَتْ دَنَانِيرُ الْفُرْسِ وَدَرَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَرُدُّونَهَا فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِلَى
 الْوَزْنِ وَيَتَصَارَفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَفَاحَشَ الْغِشُّ فِي الدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ لِعَفْلَةِ
 الدُّوَلَةِ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجُ عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَأَبُو الزِّنَادِ
 بِضَرْبِ الذَّرَاهِمِ وَتَمْيِيزِ الْمَغْشُوشِ مِنَ الْخَالِصِ وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَقَالَ
 الْمَدَائِنِيُّ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْفِهَا فِي سَائِرِ النُّوَاحِي سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ
 وَكُتِبَ عَلَيْهَا « اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ » ثُمَّ وَلِيَ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ
 الْمَلِكِ فَجَوَّدَ السُّكَّةَ ^(١) ثُمَّ بَالَعَ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ فِي تَجْوِيدِهَا ثُمَّ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ بَعْدَهُ
 وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنَانِيرَ وَالذَّرَاهِمَ مُضَعَبُ بْنُ الرَّبِيعِ بِالْعِرَاقِ سَنَةَ سَبْعِينَ
 بِأَمْرِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَلِيَ الْحِجَازَ وَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ « بَرَكَتَةُ اللَّهِ »
 وَفِي الْآخَرِ « اسْمُ اللَّهِ » ثُمَّ غَيَّرَهَا الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةِ وَكُتِبَ عَلَيْهَا اسْمُ الْحَجَّاجِ
 وَقَدَّرَ وَزْنَهَا عَلَى مَا كَانَتْ اسْتَقَرَّتْ أَيَّامَ عُمَرَ وَذَلِكَ أَنَّ الذَّرْهَمَ كَانَ وَزْنُهُ أَوَّلُ
 الْإِسْلَامِ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَالْمِثْقَالُ وَزْنُهُ دِرْهَمٌ وَثَلَاثَةُ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ فَتَكُونُ عَشْرَةُ دَرَاهِمٍ
 بِسَبْعَةِ مِثْقَالٍ وَكَانَ السُّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوْزَانَ الذَّرْهَمِ أَيَّامَ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً
 وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عَشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ وَمِنْهَا عَشْرَةٌ فَلَمَّا
 اخْتَبِجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزُّكَاةِ أَخَذَ الْوَسْطَ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا فَكَانَ الْمِثْقَالُ
 دِرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ وَقِيلَ كَانَ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِشِمَانِيَّةِ دَوَانِقَ وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ
 دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَّةَ دَوَانِقَ وَالْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرَ أَنْ يُنْظَرَ الْأَغْلَبُ فِي

(١) وَكَانَتْ الدَّنَانِيرُ تَسْمَى بِالْبَهِيرِيَّةِ نَسَبًا إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ . وَاسْتَهْرَتْ بِجُودِهَا .

التعامل فكان البغلي والطبري اثني عشر دانقاً وكان الدرهم ستة دوانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه . واتخذ فيه كلمات لا صوراً ، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناجيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً وصلاة على النبي وآله . وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعباسيين والأمويين وأما صناعتها فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملاً من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي فيما ينقل ينمت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعتة بذلك المتكلمون بالحدثان من قبيلة المخبرون في ملاحمهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعل أهل المغرب « ذلك تقدير العزيز العليم » .

ولنختم الكلام في السكة يذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيتين وبيان حقيقة مقدارهما .

مقدار الدرهم والدينار الشرعيتين

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق

وَالْأَمْصَارَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعَ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِيحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لِهَيْمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمَقْدَارٍ مُعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرِ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ مُنْذُ صَدَرَ الْإِسْلَامَ وَعَهْدِ الصُّحَابِيَّةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الدَّرْهَمَ الشَّرْعِيَّ هُوَ الَّذِي تَرُنُّ الْعَشْرَةُ مِنْهُ سَبْعَةٌ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَوْقِيَّةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ أَغْشَارِ الدِّينَارِ وَوَزْنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدَّرْهَمُ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَغْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسًا حَبَّةً وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ فَإِنَّ الدَّرْهَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعِ أَجُودِهَا الطَّبْرِيِّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَالْبَغْلِيُّ وَهُوَ ثَمَانِيَّةُ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزَّكَاةَ فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةٍ وَمِائَةِ طَبْرِيَّةٍ خَمْسَةَ دِرَاهِمٍ وَسَطًا وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدَ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَا. ذَكَرَ ذَلِكَ الْخَطَّابُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَالْمَاوَرِدِيِّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالذَّرْهَمُ الشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصُّحَابِيَّةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِيحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَا وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومِي الْمِقْدَارِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُسْتَخْصٍ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا وَزِنْتِهِمَا حَتَّى اسْتَفْخَلَ الْإِسْلَامَ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى تَشْخِيصِهِمَا فِي الْمِقْدَارِ وَالْوَزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كَلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(١) فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذَّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَثَرِ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَأَسَى وَجُودَهَا فَهَذَا هُوَ

(١) مقتضى السياق « وقارن ذلك عبد الملك ... »

الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السُّكَّةِ فِي الدُّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي الدِّيْنَارِ وَالذَّرْهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا الشَّرْعِيَّةِ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصُّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحُقُوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكِّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ الدِّيْنَارِ بِاَثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسْطِ فَهُوَ الَّذِي تَقَلُّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . تَقَلَّ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَدَّوْهُ وَهْمًا وَعَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَلِكَ تَعَلَّمَ أَنَّ الْأَوْقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمُتَعَارَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةً ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

(الخاتم) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوِطَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتَمُ عَلَى الرُّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ قَيْلٍ لَهُ إِنْ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » قَالَ الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَشْطَرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرِيَسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ فَلَمْ يَذْرَكَ قَعْرُهَا بَعْدَ وَاعْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتَمِ بِهِ وَجُوهٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى النَّهَائِيَّةِ وَالْتِمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأُمَرَاءِ وَيُطْلَقُ عَلَى السُّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالذَّنَانُ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى « خِتَامُهُ مِنْكَ » وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنَّهَائِيَّةِ وَالْتِمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحَ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ هُوَ السُّدَادُ لِأَنَّ الْخَمْرَ

يُجْعَلُ لَهَا فِي الدَّنِّ سَدَادُ الطِّينِ أَوْ القَارِ يَحْفَظُهَا وَيَطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبَوْلُغِ فِي وَصْفِ خَمْرِ الخِنَةِ بِأَنَّ سَدَادَهَا مِنَ المِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ القَارِ وَالطِّينِ المَمْعُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَقْرَبِهَا النَّاسِ عَنَّا وَذَلِكَ أَنَّ الخَاتَمَ إِذَا نَقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غَمِسَ فِي مَدَادِ مِنَ الطِّينِ أَوْ مَدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ القَرطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الكَلِمَاتِ فِي ذَلِكَ الصَّفْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا طَبِخَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيْسَ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ المَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَارْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الجِهَةِ اليُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الإِسْتِقَامَةِ مِنَ اليَمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الجِهَةِ اليَمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ مِنَ الجِهَةِ اليُسْرَى لِأَنَّ الخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الخَتْمُ بِهَذَا الخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي المَدَادِ أَوْ الطِّينِ وَوَضْعِهِ فِي الصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ الكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ المَكْتُوبِ وَنَفُودِهِ كَأَنَّ الكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ العَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ العَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْفَى لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الخَتْمُ بِالخَطِّ آخِرَ الكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الخَطُّ عِلَامَةً عَلَى صِحَّةِ الكِتَابِ وَنَفُودِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي المَتَعَارِفِ عِلَامَةً ، وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ الخَاتَمِ الأَصْفِيِّ ^(١) فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ القَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلخُصُومِ أَيَّ عِلَامَتِهِ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْفَذُ بِهِمَا أَحْكَامُهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الخَلِيفَةِ أَيَّ عِلَامَتِهِ . قَالَ الرُّشَيْدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوَزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْوَلَ الخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي » فَكُنِيَ لَهُ بِالخَاتَمِ عَنِ الوِزَارَةِ لَمَّا كَانَتْ العِلَامَةُ عَلَى الرِّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَطَائِفِ الوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى

(١) نسبة إلى أصف . كاتب النبي سليمان عليه السلام .

الْحَسَنَ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيِّنَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ
 اشْتَرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتُ فَهَؤُلَاءِ وَمَعْنَى الْخَتْمِ هُنَا
 عَلَامَةٌ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمِ لَيْسَ فَتَنْتَشِشُ
 فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى الْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ
 السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهَيْنِ آثَارُ الْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتْمَ
 عَلَى الْكِتَابِ أَبِي الْعَلَامَةِ مُعَاوِيَةَ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعُمَرَ بْنِ الزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكَوْفَةِ بِمِائَةِ
 أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةَ وَطَلَبَ
 بِهَا عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عِنْدَ اللَّهِ وَاتَّخَذَ مُعَاوِيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ دِيْوَانَ
 الْخَاتَمِ . ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ تُحَزَمُ أَيُّ جَعَلَ لَهَا
 السَّدَادَ وَدِيْوَانَ الْخَتْمِ عِبَارَةً عَنِ الْكُتُبِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْفَادِ كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتْمِ
 عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيْوَانُ عَلَى مَكَانِ جُلُوسِ هَؤُلَاءِ الْكُتُبِ
 كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكَتُبِ يَكُونُ إِمَّا بِدَسِّ الْوَرَقِ كَمَا فِي عَرَفِ
 كُتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِالصَّاقِ رَأْسِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا فِي
 عَرَفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ أَوْ الْإِلصَاقِ عَلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ
 فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ
 الشَّمْعِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ نُقِشَتْ فِيهِ عَلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ
 وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللُّصْقِ بِخَاتَمِ مَنْقُوشٍ أَيْضًا قَدْ
 عَمِسَ فِي مَدَائِفِ مِنَ الطِّينِ مَعَهُ لِذَلِكَ صَيَّغَهُ أَحْمَرُ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ
 هَذَا الطِّينُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ الْخَتْمِ وَكَانَ يُجَلَّبُ مِنْ سِيرَافٍ فَيُظْهِرُ
 أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ لِلْسَّدَادِ وَالْحَزْمِ
 لِلْكَتُبِ خَاصٌّ بِدِيْوَانِ الرِّسَائِلِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ اخْتَلَفَ
 الْعَرَفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيْوَانَ الْكُتُبِ فِي الدُّوَلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي دُولِ الْمَغْرِبِ
 يَعْدُونَ مِنْ عَلَامَاتِ الْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ لِلِإِصْنِاعِ فَيَسْتَحْيِدُونَ صَوْعَهُ مِنَ الذَّهَبِ

وَيُرْضَعُونَهُ بِالْفُضُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِ وَالزُّمْرَدِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ شَارَةً فِي
عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمِظْلَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ
وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ .

(الطراز) : من أئمة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماءهم أو
علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الدياتج أو
الإنبريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب أحاماً وأسداءً بخيط الذهب أو
ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع
في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك
الطراز قصد التنويه بلايسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه
السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته
وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم
أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اغتاض ملوك الإسلام عن ذلك يكتب أسماءهم مع
كلمات أخرى تجري مجرى القال أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أئمة
الأمور وأقبح الأحوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور
الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز . ينظر في أمور
الصباغ والآلة والحاكمة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومشاركة أعمالهم وكانوا
يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليتهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية
بالأندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم
من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق
نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر
الدول بالجملة ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة
السادسة لم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداخة
التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس

الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر
الدولة طرفاً لم يكن يتلك النباهة وأما لهذا العهد ، فأدركنا بالمغرب في الدولة
المرينية لعنفوانها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم
بالأندلس وأتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالآثر . وأما
دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم
وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يوضع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف
دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب
الخالص ويسمونه المزرکش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه
ويعدّه الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها « والله مقدر
الليل والنهار والله خير الوارثين » .

الفساطيط والسياح

إعلم أن من شارات الملك وتزفه اتخاذ الأختية والفساطيط والغازات^(١) من
ثياب الكتان والصوف والقطن فيباهى بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين
كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر في أول الدولة في
بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين
من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم
تزل العرب لذلك العهد بادين^(٢) إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم
وخروبهم بظعونهم وسائر جليلهم وأحيانهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب
لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الجلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة
الأحياء يعيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك
ما كان عند الملك يحتاج إلى ساقية تحشد الناس على أثره وأن يقيموا إذا ظعن .

(١) مظلة بعامودين

(٢) من البداوة .

وَيَقُلُّ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحَجَّاجَ حِينَ أَشَارَ بِهِ رُوحُ بَنِ زَنْبَاعٍ وَقَضَتْهُمَا فِي إِخْرَاقِ
فَسَاطِيطِ رُوحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ
قِصَّةً مَشْهُورَةً . وَمِنْ هَذِهِ الْوَلَايَةِ تُعْرَفُ رُبِّيَّةُ الْحَجَّاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى
إِرَادَتَهُمْ عَلَى الظُّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بَوَادِرِ السُّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ
الْحَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرُّبِّيَّةِ ثِقَةً يَغْنَاهُ فِيهَا بِعَضْبَتِهِ
وَصَرَامَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالْبُدْحِ وَنَزَلُوا الْمُدُنَ
وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهَرِ الْخَفِّ إِلَى ظَهَرِ
الْحَاظِرِ اتَّخَذُوا لِلسُّكْنَى فِي أَنْفَارِهِمْ ثِيَابَ الْكُتَّانِ يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا بِيُوتًا مُخْتَلِفَةً
الْأَشْكَالَ مُقَدَّرَةً الْأَمْثَالَ مِنَ الْقَوَرَاءِ ^(١) وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمَرْبُوعَةِ وَيَخْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ
مَذَاهِبِ الْإِخْتِفَالِ وَالزَّرِينَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لِلْعَسَاكِرِ عَلَى فَسَاطِيطِهِ وَفَارَاتِهِ مِنْ
بَيْنِهِمْ سِيَّاحًا مِنَ الْكُتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِ
أَفْرَاقِ الْكُتَّانِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقَطْرِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ . وَأَمَّا
فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَاةُ بِالنِّسَاءِ
وَالْوُلْدَانِ إِلَى الْمَقَامِ بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فَخَفَّ لِذَلِكَ ظَهْرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَاحُ بَيْنَ
مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مَعْسَكِرٍ وَاحِدٍ يَحْضُرُهُ الْبَصْرُ فِي
بَسِيطَةٍ زَهْوًا أُنِيقًا لِإِخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدَّوَلِ فِي
بَدْحِهَا وَتَرْفِهَا . وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ وَزَنَاةُ التِّيِ أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ
أَمْرِهِمْ فِي بِيُوتِ سَكْنَاهُمْ قَبْلَ الْمَلِكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقِيَّاطِينَ ^(٢) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ
الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرْفِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ
بَلَّفُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ التَّرْفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ
عُرْضَةً لِلبِّيَّاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ فِيهِ الصُّيْحَةُ وَلِخَفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ

(١) القوراء ، الواسعة .

(٢) القياطين ، المخادع .

وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْإِسْتِمَاتَةَ دُونَهُمْ فَيُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْفِظِ آخِرِ وَاللَّهِ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ .

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شازات الملوك الإسلامي ولم يعرف في غير دول
الإسلام . فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سجاجاً على
المخراب فيحوزة وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه
الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه
اليمني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس
في الصلاة وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال
الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند افتراق الدولة
العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد
ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء
المبيديون ثم ولأئهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد
بالقلمة ثم ملك الموحدين سائر المغرب والأندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة
البدواة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت يخطها من الترف وجاء
أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة
لملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده .
وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة
بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي ﷺ والرضى عن أصحابه
وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعهم بمصر وأول من دعا للخليفة
على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له
عليها فقال اللهم أنصر علياً على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ

عَمَرُو بْنِ الْعَاصِ الْمُنْبَرِ بَلَغَ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مِنْبَرًا تَرْقَى بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ
أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقِيكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثْتُ
الْأَيْهَةَ وَحَدَّثْتُ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَنَاعَ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا فِيهِمَا فَكَانَ الْخُطِيبُ
يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمُنْبَرِ تَنْوِيهَا بِاسْمِهِ وَدَعَاءَ لَهُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مَصْلَحَةَ الْعَالَمِ
فِيهِ وَلَآنَ تِلْكَ السَّاعَةَ مَطْنَةٌ لِلْإِجَانَةِ وَلَمَّا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ مَنْ كَانَتْ لَهُ
دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضَعْهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفَرِّدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ الْحَجْرُ
وَالِاسْتِبْدَادُ صَارَ الْمُتَعَلِّبُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ وَيُشَادُّ
بِاسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَدَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ
السُّلْطَانِ بِالْدَعَاءِ لَهُ عَلَى الْمُنْبَرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحُظِرَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسْمُو
إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ الْمَعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرَّسْمَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي
أَسْلُوبِ الْغَضَاظَةِ وَمَنَاحِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّعَافُلِ وَالْخُشُوعِ وَيَقْنَعُونَ بِالْدَعَاءِ عَلَى
الْإِنْبِهَامِ وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْمُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ
عَلَى هَذَا الْمَنْحَى عَبَاسِيَّةً يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيُّ

تَقْلِيدًا فِي ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَخْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَغْيِينِهِ وَالتَّضْرِيحِ
بِاسْمِهِ يَحْكِي أَنَّ يَغْمَرَسِينَ بْنَ زِيَانَ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي عَبِيدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ
أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى بْنُ أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمَسَانَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى
شُرُوطِ شَرْطِهَا كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمَرَسِينَ تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ
يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاءُوا وَكَذَلِكَ يَغْقُوبُ بْنُ عَبِيدِ الْحَقِّ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي مُرِينَ
حَضْرَةَ رَسُولِ الْمُنتَصِرِ الْخَلِيفَةِ بِتُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَثَالِكُ مَلُوكِهِمْ وَتَخَلَّفَ
بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجُمُعَةِ فَقِيلَ لَهُ لِمَ يَحْضُرُ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لِحُلُوقِ الْخُطْبَةِ
مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِيهِ فَأَذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ
الدُّوَلِ فِي بَدَائَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاظَةِ وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيُونُ سِيَاسَتِهِمْ

وَنظَرُوا فِي أَغْطَافِ مُلْكِهِمْ وَاسْتَمَمُوا شِيَاتٍ ^(١) الْحَضَارَةَ وَمَقَانِي الْبُدْخِ وَالْأَبْهَةِ
 انْتَحَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَتَفَنَّنُوا فِيهَا وَتَجَاوَزُوا إِلَى غَايَتِهَا وَأَنْفَوْا مِنَ الْمُشَارَكَةِ
 فِيهَا وَخَزَعُوا مِنْ ائْتِقَادِهَا وَخَلَوْ دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ بُسْتَانٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ رَقِيبٌ .

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومناهب الأمم وترتيبها

إِغْلَمَ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَأَقَعَتْ فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ
 وَأَضَلَّهَا إِزَادَةَ ائْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَغَضَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلٌ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا
 تَدَامَرُوا لِذَلِكَ وَتَوَافَقَتِ الطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطَلَّبُ الْاِئْتِقَامِ وَالْأُخْرَى تَدَافِعُ كَأَنَّ
 الْحَرْبَ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جَيْلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْاِئْتِقَامِ فِي
 الْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ . وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمَلِكِ
 وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ فَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِزَةِ وَالْعَشَائِرِ
 الْمُتَنَاطِرَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَّةِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ
 كَالْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالتُّرْكَمَانِ وَالْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ
 وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بِيَأْيَدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ آذَنُوهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ
 فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتْبَةٍ وَلَا مَلِكٍ وَإِنَّمَا هَمُّهُمْ وَنُصَبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبَ النَّاسِ عَلَى مَا فِي
 أَيْدِيهِمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ
 الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَنَاعِينَ لِبَطَاعَتِهَا فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّنْفَانِ
 الْأُولَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ وَالصَّنْفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ
 الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ مُنْذُ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٌ بِالرَّحْفِ

(١) ألوان الحضارة .

صُفُوفًا وَنَوْعٍ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ أَمَا الَّذِي بِالرُّخْفِ فَهُوَ قِتَالُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقِبِ
أَجْيَالِهِمْ وَأَمَا الَّذِي بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ
الرُّخْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ الرُّخْفِ تَرْتَبُ فِيهِ الصُّفُوفُ
وَتَسْوَى كَمَا تَسْوَى الْقِدَاحُ أَوْ صُفُوفُ الصَّلَاةِ وَيَمَشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ قُدَمَا ،
فَلِذَلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي الْقِتَالِ وَأَزْهَبَ لِلْعَدُوِّ . لِأَنَّهُ كَالْحَائِطِ
الْمُمْتَدِّ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ لَا يَطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي التَّنْزِيلِ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » أَي يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي
الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ
لَكَ حِكْمَةُ إِجْبَابِ الثَّبَاتِ وَتَحْرِيمِ التَّوَلَّى فِي الرُّخْفِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّفِّ فِي
الْقِتَالِ حِفْظَ النَّظَامِ كَمَا قُلْنَا هُنا فَمَنْ وُلِيَ الْعَدُوَّ وَظَهَرَ فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِ وَبَاءَ بِإِثْمِ
الْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَمَكَنَ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَعَظُمَ
الذَّنْبُ لِعُمُومِ الْمَفْسَدَةِ وَتَعَدَّيْهَا إِلَى الدِّينِ بِخَرْقِ سِيَاحِهِ فَعُدَّ مِنَ الْكِبَائِرِ وَيَظْهَرُ
مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ الرُّخْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ
الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الرُّخْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي الْقِتَالِ
مَصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ الرُّخْفِ كَمَا نَذَكُرُهُ
بَعْدَ . ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُتَشِعَّةِ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ
الْجُيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسَمُّونَهَا كِرَادِيْسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كِرْدُوسٍ صُفُوفَهُ
وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثْرَةَ الْبَالِغَةَ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النُّوَاحِي
اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ الْحَرْبِ وَاعْتَوَرُوا مَعَ
عَدُوِّهِمُ الطَّغْنَ وَالضَّرْبَ فَيُخْشَى مِنْ تَدَافِعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ النُّكْرَاءِ ^(١) وَجَهْلِ
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَتَضَمُّونَ الْمُتَعَارِفِينَ بِبَعْضِهِمْ
لِبَعْضٍ وَيُرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرَبِيسُ الْعَسَاكِرِ

(١) نكزاه الدهر ، شقته ، النكر بفتح النون وضمها ، الدهاء والغلظة . (المنجد)

كُلُّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا التَّرْتِيبَ التَّعْبِئَةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي
أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالدُّوَلَتَيْنِ وَصَدْرَ الْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ عَسْكَرًا
مُنْفَرِدًا يَصُفُّوهُ مُتَمِيزًا بِقَائِدِهِ وَرَأَيْتَهُ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُقَدِّمَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ
نَاحِيَةَ الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ
نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ يُسَمُّونَهُ
السَّافَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِعَهُ الْقَلْبَ
فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْمُحَكَّمُ إِذَا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصْرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
أَكْثَرُهَا الْيَوْمَ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَغْطَاهُ جِالُ الْعَسَاكِرِ فِي
الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الرُّخْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ التَّعْبِئَةِ وَأَنْظُرْ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ
الْمُتَوَحَّاتِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتْ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ الْعَبْدِ الْمَلِكِ
تَتَخَلَّفُ عَنْ رَحِيلِهِ لِبَعْدِ الْمَدَى فِي التَّعْبِئَةِ فَاحْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ
لِذَلِكَ الْحِجَاجِ بْنِ يُوسُفَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي
الدُّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَدْرَكْنَا
دَوْلًا قَلِيلَةً الْعَسَاكِرِ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجِيُوشِ مِنْ
الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا يَجْمَعُهُمْ لَدَيْنَا حَلَّةٌ^(١) أَوْ مَدِينَةٌ وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ
فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِاسْمِهِ وَلِقَبِهِ فَاسْتَعْنَى عَنْ تِلْكَ التَّعْبِئَةِ .

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ
الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخَيْالَةِ فِي كُرِّهِمْ وَقِرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ
ثَبَاتَ الْمُقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلْبِ وَقَدْ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرُّخْفِ أَيْضًا
لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ الْفَرَسُ وَهُمْ أَهْلُ الرُّخْفِ يَتَّخِذُونَ الْفَيْلَةَ فِي الْحُرُوبِ
وَيَحْمَلُونَ عَلَيْهَا أَجْرَاجًا مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالِ الصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ
وَالرَّايَاتِ وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ فَتَبْقَى بِذَلِكَ نَفْسُهُمْ

(١) الحلة : ج خلل وخالل ، كل ثوب جديد أو عموماً الثوب الساتر لجميع البدن والحلة ، الزنبيل

الكبير من القصب . والجللة من الشيء جهته (المنجد) .

ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبمعجوها بالسيف على خراطيمها فنفرت ونكصت^(١) على أعقابها إلى مرابطةها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهمزوا في اليوم الرابع . وأما الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسيرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويخدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم^(٢) جالسا على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطة العرب في سيره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل . وأما أهل الكرك والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرجالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل طعائهم فيكون فئة لهم ويسمونهم المجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل في حروبها وتراه أوثق في الجولة وأمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأتقال والفساطيط يجعلونها ساقفة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف . وكان العرب أول الإسلام كله زحفا وكان العرب إنما يعرفون الكرك والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم . والثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر . ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب . وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبية كراديس مزوان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الجبيري « فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد

(١) أحجبت .

(٢) هو قائد الجيوش الفارسية في معركة القادسية .

العزيز اليشكري ويلقب أبا الذئفاء قاتلهم مزوان بعد ذلك بالكراديس وأبطل
 الصف من يومئذ « انتهى . فتتوسى قتال الزحف بإبطال الصف ثم تتوسى الصف
 وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم
 الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء فلما
 حصلوا على ترف الملوك والفواسكى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقر
 نسوا لذلك عهد الإبل والطعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء في الأسفار
 وحملهم الملوك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخيصة فاقترضوا على الظهر الحامل
 للانتقال^(١) والأبنية وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لأنه لا يدعو
 إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم
 الهيئات^(٢) وتخرم صفوفهم . ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكيده
 في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم
 واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه
 ضرب المصاف ليكون ردها للمقاتلة أمامه فلا بد من أن يكون أهل ذلك الصف
 من قوم متعودين للثبات في الزحف والأجفلوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم
 السلطان والعساكر بإجفاليهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه
 الأمة المتعوده الثبات في الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم المصدق بهم منها
 هذا على ما فيه من الاستماتة بأهل الكفر . وإنهم استخفوا ذلك للضرورة التي
 أريناها من تخوف الإخفال على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات
 في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك
 في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على
 الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من مخالفتهم على المسلمين هذا هو

(١) قوله للانتقال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الخندق الاتي قريبا إذا نزلوا

وضربوا أبنيتهم هـ .

(٢) الأصوات الخيفة .

الواقع لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم . وبلغنا أن أمم الترك لهذا
 العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون
 بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرعون سهامهم
 بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف ردة للذي أمانه أن يكبسهم العدو إلى
 أن يتبها النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة . وكان
 من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون
 للزحف خذراً من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووخشته
 من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة سترأ من غاره
 فإذا تساوا في ذلك أزعج العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يختفرون
 الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم^(١) ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم
 من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا . وكانت للدول في
 أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من
 منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما حرب العمران وتبعه
 ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلية نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله
 خير القادرين . وانظر وصية علي رضي الله عنه وتخریضه لأصحابه يوم صفين
 تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له : « فسووا
 صفوفكم كالبنیان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس
 فإنه أنبى للسيوف عن الهام والتوا على أطراف الرماح فإنه أضون للأسنة وعضوا
 الأبصار فإنه أزبط للجأش وأسكن للقلوب واختموا الأصوات فإنه أطرده للفشل
 وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم
 واستعينوا بالصديق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » وقال الأشر يومئذ
 يحرص الأزد : « عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا

(١) خيامهم

شِدَّة قَوْمٍ مُؤْتَوِرِينَ يَشَارُونَ بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَنُوا عَلَى
 الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِئَلَّا يُسَبِّقُوا بِوَتْرِهِمْ وَلَا يُلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ « وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ
 ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّيرْفِيُّ شَاعِرٌ لِمَثُونَةَ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدُحُ بِهَا
 تَاشِفِينَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيَذْكُرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ
 فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تَنْبَهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا .

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَقَنَّعُ	مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَرْوَعُ
وَمَنْ الَّذِي عَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دَجَى	فَانْفِضْ كُلُّهُ وَهُوَ لَا يَتَرَعَزُغُ
تَفْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا	عَنْهُ وَيَذِمُّهَا الْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضْجِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ	صَنَّحَ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ يَلْمَعُ
أَنْتَى فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةَ	وَالْيَكْمُ فِي السَّرْوَعِ كَانَ الْمَفْزَعُ
إِنْسَانٌ عَيْنٌ لَمْ يُصَيِّهَا مِنْكُمْ	حُضْنَ وَقَلْبٌ أَسْلَمْتَهُ الْأَضْلَعُ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَأَنَّهُ	لِعَقَابِهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةِ	كُلُّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطَلَعُ
يَا تَاشِفِينَ أِقْمِ لِجَيْشِكَ عُدْرَةَ	بِاللَّيْلِ وَالْعُدْرُ الَّذِي لَا يَذْفَعُ

ومنها في سياسة الحرب

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ	كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ قَبْلَكَ تَوْلَعُ
لَا إِنِّي أَذْرِي بِهَا لِكِنَّهَا	ذَكَرَى تَحْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَالْبَسْنَ مِنَ الْحَلْقِ الْمُضَاعِفَةِ الَّتِي	وَصَى بِهَا صَنَّعَ الصَّنَائِعِ تَبَعُ
وَالْهِنْدُوَانِي الرُّقِيقِ فَإِنَّهُ	أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَارَكَّبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً	حُضْنَا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مِدْفَعُ
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً	سَيَّانٍ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ تَتَّبَعُ
وَالْوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَانزِلْ عِنْدَهُ	بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ

وَاجْعَلْ مُنَاجِرَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً وَوَرَاءَكَ الصَّدَقُ الَّذِي هُوَ أَمْنَعُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرِكَ ضَنْكَ فَأَطْرَافُ الرَّمَاكِ تُوَسِّعُ
وَاصْذَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ شَيْئاً فِإِظْهَارُ النُّكُولِ يُضْعَعُ
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاحِ أَهْلَ شَهَامَةٍ لِلصَّدَقِ فِيهِمْ شِيْمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعُ الكَذَابَ جَاءَكَ مُرْجِفاً لَا رَأْيَ لِلْكَذَابِ فِيمَا يَضْعُ

قَوْلُهُ وَاصْذَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ الثَّبِيْتُ مُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عَمْرٌو لَأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ لَمَّا وُلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ اسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعاً حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يُضْلِحُ لَهَا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ ^(١) الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى : « إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوَمِّرَ سَلِيطاً إِلَّا سُرَعْتُهُ فِي الْحَرْبِ وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَن بَيَانِ ضِيَاعِ وَاللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمْرْتُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُضْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ » هَذَا كَلَامُ عَمْرٍو وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ التَّنَاقُلَ فِي الْحَرْبِ أَوْلَى مِنَ الْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّيْرَفِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنْ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيَانِ ^(٢) فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهِ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَلَا وَثُوقٌ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالغَلْبُ مِنْ قِبَلِ الْبَحْثِ وَالِاتِّفَاقِ وَبَيَانِ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجِيُوشُ وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ الْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِثْمًا مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي الْإِرْجَافِ وَالتَّشَانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْمُرتَفِعَةِ لِيَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لِذَلِكَ وَفِي الْكُمُومِ فِي الْعِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ الْأَرْضِ وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى ^(٣) حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ الْعَسْكَرُ

(١) المكيث ، الرزين للثاني (المنجد)

(٢) كلمة البيان ليس لها معنى في هذه الجملة ولعلها محرفة من كلمة بيات كما يقتضيه سياق المعنى .

(٣) يقال ، الحافر بلغ الكدية فلا يمكنه أن يحفر . حفر فاكدى أي بلغ الصلب والكدى الأرض

الصلبة . (المنجد)

دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَفَتُونَ إِلَى النِّجَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ
الْخَفِيَّةُ أَمْوَرًا سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوْلِي
الرَّهْبَ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَحْتَلُّ مَرَاكِزَهُمْ فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا تَقَعُ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ
الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ لِكَثْرَةِ مَا يُعْتَمَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ
فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّأْتِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ « الْحَرْبُ
خُدْعَةٌ » وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ « رَبِّ حَيْلَةٍ أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وَقُوعَ الْغَلْبِ
فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ
هُوَ مَعْنَى الْبُخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْ مِنْ وَقُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأُمُورِ
السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وَمَا
وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ
فِي الْفَتْوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
حَتَّى يَسْتَوْلِي عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزِمُوا مُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ ﷺ فَكَانَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ
سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعُيُونِ . وَقَدْ ذَكَرَ
الطَّرِطُوشِيُّ ، أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ تَفْضَلَ عِدَّةُ الْفَرَسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنْ
الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ
الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرَ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ
سِتَّةٌ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ بِوَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَهُوَ
رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ . وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ الْمُعْتَبَرُ فِي
الْغَلْبِ حَالِ الْعَصْبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ وَفِي
الْجَانِبِ الْآخَرَ عَصَائِبُ مُتَعَدِّدَةٌ لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنْ
التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصْبِيَّةِ تَنْزُلُ كُلُّ عَصَايَةٍ مِنْهُمْ
مَنْزِلَةَ الْوَاحِدِ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصْبَتُهُ
وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ ذَلِكَ فَتَقْتَهُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَصَحُّ فِي الْإِعْتِبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرِطُوشِيُّ وَلَمْ

يَخْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا نِسْيَانُ شَأْنِ الْعَصِيَّةِ فِي حُلَّةٍ وَبَلْدَةٍ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الدَّفَاعَ
وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةَ النَّاشِئَةَ عَنْهُمْ لَا يُعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ
عَصِيَّةً وَلَا نَسْبًا وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ أَوَّلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحِّهِ
إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ مِثْلَ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصِدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ
الْأَسْلِحَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا فَكَيْفَ يُجْعَلُ ذَلِكَ كَفَيْلًا بِالْغَلْبِ وَنَحْنُ قَدْ قَرَّرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ
شَيْئًا مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ مِنَ الْحَيْلِ وَالْخِدَاعِ وَلَا الْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنَ
الرُّعْبِ وَالْخِذْلَانِ الْإِلَهِيِّ فَافْهَمَهُ وَتَفَهَّمْ أَحْوَالَ الْكَوْنِ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .
وَيُلْحَقُ بِمَعْنَى الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ أَسْبَابَهُ خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبِيعِيَّةٌ حَالُ الشُّهْرَةِ
وَالصِّيتِ فَقُلْ أَنَّ تَصَادِفَ مَوْضِعَهَا فِي أَحَدٍ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَالْمُنْتَجِلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَثِيرٍ مِمَّنْ اشْتَهَرَ بِالشَّرِّ وَهُوَ بِخِلَافِهِ
وَكَثِيرٍ مِمَّنْ تَجَاوَزَتْ عَنْهُ الشُّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ تَصَادَفَ مَوْضِعَهَا وَتَكُونُ
طَبَقًا عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشُّهْرَةَ وَالصِّيتَ إِنَّمَا هُمَا بِالْإِخْتِبَارِ وَالْإِخْتِبَارُ
يَدْخُلُهَا الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا التَّعَصُّبُ وَالتَّشْيِيعُ وَيَدْخُلُهَا
الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ بِمَطَابِقَةِ الْحِكَايَاتِ لِلْأَحْوَالِ لِخِفَائِهَا بِالتَّلْبِيسِ وَالتَّصْنُوعِ
أَوْ لِجَهْلِ النَّاقِلِ وَيَدْخُلُهَا التَّقَرُّبُ لِأَصْحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالشَّنَاءِ
وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ وَالنُّفُوسُ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ الشَّنَاءِ وَالنَّاسُ
مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاضِعِينَ فِي
الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَأَيْنَ مَطَابِقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَخْتَلُ الشُّهْرَةُ عَنْ
أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مَطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيِّ فَهُوَ الَّذِي
يُعْبَرُ عَنْهُ بِالْبَحْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِغْلَمَ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلَ الدُّوَلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْوُزَائِعِ كَثِيرَةَ الْجُمْلَةِ وَأَخْرَجَ الدُّوَلَةَ تَكُونُ كَثِيرَةَ الْوُزَائِعِ قَلِيلَةَ الْجُمْلَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ الْوُزَائِعِ لِأَنَّ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ الْحُبُوبِ وَالْمَاشِيَةِ وَكَذَا الْجِزْيَةُ وَالْخَرَاجُ وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تَتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الثَّغْلِبِ وَالْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمَسَامَحَةَ وَالْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ الْجَنَاحِ وَالتَّجَافِيَّ عَنِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْعَفْلَةَ عَنِ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذَلِكَ مِقْدَارُ الْوُظَيْفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوُزَيْعَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْأَمْوَالَ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوُزَائِعُ وَالْوُظَائِفُ عَلَى الرُّعَايَا نَشَطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغَبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ الْإِعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ الْإِعْتِبَاطِ بِقَلَّةِ الْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ الْإِعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوُظَائِفِ وَالْوُزَائِعِ فَكَثُرَتْ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدُّوَلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مَلُوكُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَيسِ وَذَهَبَ سِرُّهُ^(١) الْبِدَاوَةُ وَالسُّدَاجَةُ وَخُلِقَ مِنْ الْإِعْضَاءِ وَالتَّجَافِيَّ وَجَاءَ الْمُلْكُ الْعَفْضُ^(٢) وَالْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَيسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدُّوَلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ التَّحَدُّقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا انْفَعَسُوا فِيهِ مِنَ النِّيمِ وَالتَّرْفِ فَيَكْثُرُونَ الْوُظَائِفَ وَالْوُزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرُّعَايَا وَالْأَكْرَةَ^(٣) وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى شر ولعلها محرفة من كلمة أشر كما يقتضي معنى السياق .

(٢) ج العوض : الشديد القوي (المنجد) .

(٣) الأكرة ج أكار وأكارون ، الحركات (المنجد) .

المَعَارِمُ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْعَةٍ مِقْدَارًا عَظِيمًا لِتَكْثُرَ لَهُمُ الْجَبَايَةُ
 وَيَضَعُونَ الْمَكُوسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَكُرُ بَعْدَئِذٍ تَتَدْرَجُ الزِّيَادَاتُ
 فِيهَا بِمِقْدَارِ بَعْدَ مِقْدَارٍ لِتَدْرَجَ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرْفِ وَكَثْرَةُ الْحَاجَاتِ وَالْإِنْفَاقِ
 بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ الْمَعَارِمُ عَلَى الرِّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرُ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ
 الزِّيَادَةَ تَدْرَجَتْ قَلِيلًا قَلِيلًا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى التَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ
 وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَّتَ عَلَى الرِّعَايَا فِي الْإِعْتِمَارِ لِنَهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نَفْسِهِمْ بِقِلَّةِ النِّفْعِ إِذَا
 قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَعَارِمِهِ وَبَيْنَ ثَمَرَتِهِ وَقَائِدَتِهِ فَتَنْقُصُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنْ
 الْإِعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقُصُ جُمْلَةُ الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ بِنَقْصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعِ مِنْهَا وَزُبْمًا
 يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النِّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْرًا لِمَا
 نَقَصَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْعَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا نَفْعٌ وَلَا فَائِدَةٌ لِكثْرَةِ
 الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْإِعْتِمَارِ وَكَثْرَةِ الْمَعَارِمِ وَعَدَمِ وِفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوعَةِ بِهِ فَلَا تَزَالُ
 الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لِمَا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ
 بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِنَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَيَعُودُ وَيَبَالُ ذَلِكَ عَلَى
 الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَائِدَةَ الْإِعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهَمَّتْ ذَلِكَ عَلِمَتْ أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي
 الْإِعْتِمَارِ تَقْلِيلُ مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ مَا أَمَكَّنَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ
 إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِذْرَاكِ الْمَنْفَعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى « مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَبِيَدِهِ
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » ^(١)

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس أواخر الدولة

اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدْوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةَ الْحَاجَاتِ
 لِعَدَمِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خُرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلًا فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وَفَاءً

(١) سورة يس من الآية الأخيرة.

بأزيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ يدين الحضارة في الترف
وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة
ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة ينفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا
تفي بذلك الجبانية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجبانية لما تحتاج إليه الحماية
من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه ثم
يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويندرك
الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل
الجبانية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب
الدولة أنواعاً من الجبانية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرأ معلوماً على
الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطرب لذلك
بما دعاه إليه طرقت الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية وربما
يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك
باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل. وقد
كان وقع منه بأمصار المشرق في آخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وقرضت
المعارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة
وأعاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى ملى رسمه
يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصار الجريد بأفريقية لهذا
العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم.

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضره بالرعايا ومفسدة للجبانية
إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد

وَالنَّفَقَاتِ وَقَصْرَ الْحَاصِلِ مِنْ جَبَائِئِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَاحْتِاجَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ فَتَارَةً تُوَضَعُ الْمَكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ الرِّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ الْمَكُوسِ إِنْ كَانَ قَدْ اسْتَحْدِثَ مِنْ قَبْلِ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ الْعُمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَامْتِكَالِ^(١) عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ الْحِسَابُ وَتَارَةً بِاسْتِحْدَاثِ التُّجَّارَةِ وَالْفِلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ التُّجَّارَ وَالْفِلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةٍ^(٢) أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ الْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي اكْتِسَابِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ لِاسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مِنْ إِذْرَارِ الْجَبَايَةِ وَتَكْثِيرِ الْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِذْخَالُ الضَّرْرِ عَلَى الرِّعَايَا مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوْلَى مُضَايَقَةَ الْفِلَاحِينَ وَالتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ الْحَيَوَانَ وَالْبَضَائِعِ وَتَبْيِيسِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرِّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي الْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُرَاحِمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقَرُّبُ وَإِذَا رَاقَهُمُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَالَهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى عَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ عَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنْ السُّلْطَانُ قَدْ يَنْتَرِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًا أَوْ بِأَيْسَرٍ ثَمَّنَ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْتَخِصُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ الْفِلَاحَةِ وَمُعْلَمَاتُ كُلِّهِ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ يَسْكُرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَلَّاتِ وَحَصَلَتْ بَضَائِعُ التُّجَّارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا نِفَاقَ الْبِيَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيَكْلِفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ تَاجِرٍ أَوْ فِلَاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضَوْنَ فِي أَثْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ فِي ذَلِكَ نَاضٍ^(٣) أَمْوَالِهِمْ وَتَبْقَى تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عُرُوضًا جَامِدَةً وَيَمْكُثُونَ عَطْلًا مِنَ الْإِدَارَةِ

(١) متك الشيء خطمه وكثره والمعنى هنا مجاز.

(٢) قلة.

(٣) ناض : الدرهم والدينار ويقال استخلصه منه نضاً أي نقداً (المنجد).

التي فيها كسبهم ومعايشهم ورُبما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيسبغون تلك
السِّلَع على كسادٍ من الأسواق بأبخس ثمن . ورُبما يتكرر ذلك على التاجر
والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرّر ويدخل
به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض أمالهم عن السعي
في ذلك جملةً ويؤدي إلى فساد الجبائية فإن معظم الجبائية إنما هي من الفلاحين
والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجبائية بها فإذا انقبض الفلاحون عن
الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبَت الجبائية جملةً أو دخلها النقص المتفاحش
وإذا قايَس السلطان بين ما يحصل له من الجبائية وبين هذه الأرباح القليلة
وجدّها بالنسبة إلى الجبائية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ
عظيم من الجبائية فيما يعانیه من شراء أو بيع فإنه من التبيد أن يوجد فيه من
المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلًا من جهة
الجبائية ثم فيه التعرّض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم فإن الرعايا
إذا قعدوا عن تسمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان
فيها تلافٍ أخوالهم . فافهم ذلك ^(١) وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل
بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة
والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضرب بجيرانه ولا
يتاجر فيحبّ غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخيم التبيد فإنهم لا يشيرون
بخير ولا مصلحة . واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدرُ موجودة إلا الجبائية
وإذرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فنسب
أمالهم وتنشر صدورهم للأخذ في تسمير الأموال وتمميتها فتعظم منها جبائية

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على ذلك في نسخة لجنة البيان العربي فيقول .

(يتفق ما يراه ابن خلدون في صد الأضرار المترتبة على دخول الحكومة مشترية في السوق وعلى اشتغالها
بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين . . . يتفق ذلك مع ما يراه
كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسي . انظر كتابنا في « الاقتصاد السياسي » فصل « للناسفة العرة » . ص
١٩٤ - ٢٠٠ في الطبعة الخامسة) .

السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ فَلَاحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مَضْرُوبَةٌ عَاجِلَةٌ لِلرِّعَايَا وَفَسَادٌ لِلجَبَايَةِ وَتَقْصُصٌ لِلعِمَارَةِ وَقَدْ يَنْتَهِي الْحَالُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ مِنَ الْأَمْزَاءِ وَالْمُتَعَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلَّاتِ وَالسَّلْعِ مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَدِهِمْ وَيَفْرَضُونَ لِذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعَايَا بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فْسَادِ الرِّعْيَةِ وَاجْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَغْنَى التُّجَّارِ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْضُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعاً وَلَا سِيَّامَ مَعَ مَا يَحْضُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلَا مَغْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّمَا أَجْدَرُ بِنُمُو الْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَشْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرْرِ بِتَقْصُصِ جَبَايَتِهِ فَيَتَّبِعِي السُّلْطَانُ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيُعْرَضُ عَنْ سِعَايَتِهِمُ الْمُضْرِبَةَ بِجَبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبِيَّةِ بِمِقْدَارِ غِنَائِهِمْ وَعَضَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ فَرَأَيْتَهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَابِلِينَ لِمَنْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَهُوَ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ^(١) فِي سُهْمَانِهِ مِنَ الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذَلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهَهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جِهَةِ مَخْدُومِيهِمْ وَنَطَاقِهِ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاجِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَضَبِيَّتِهِ

(١) طير واطار المال : قسمه .

فإذا استخلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض
أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل خطوطهم إذ
ذاك لقلّة غنائهم في الدولة بما انكبّ من أعنتهم وصار العوالي والصنائع مساهمين
لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر فينفرّد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو
مُعظمتها ويحتوي على الأموال ويحتجها للنفقات في مهمات الأخوال فتكثر ثروته
وتمتلىء خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته
ودويه من وزير وكتّاب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الأموال
ويتأثّلونها^(١). ثم إذا أخذت الدولة في الهرم يتلاشي العصية وفناء القليل
المعاهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأغوان والأنصار لكثرة الخوارج
والمنازعين والثوار وتوهم الإنقراض فصار خراج لظهرائه وأغوانه وهم أرباب
السيوف وأهل العصيات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك
الجباية لما قد مناه من كثرة العطاء والإنفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى
المال فيتقلص ظلّ النعمة والتزف عن الخواص والحجاب والكتّاب يتقلص الجاه
عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال
وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة
صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى
صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم
فينضلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً ووّاحداً بعد واحد على نسبة رتبهم
وتنكر الدولة لهم ويعود وبأل ذلك على الدولة بفناء حاشيتها وبرجاليتها وأهل
الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المعجّد بعد أن يدعّمه
أهله ويرفّعوه. وأنظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة
وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند

(١) تأثّل المال، اكتسبه وثره.

أَنجَلَالَهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي شَهِيدٍ وَبَنِي أَبِي عُبَيْدَةَ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُرْدٍ
وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ

فصل : وَلَمَّا يَتَوَقَّعُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ
يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرَّتَبِ وَالتَّخْلِصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ
مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى قَطْرِ آخَرَ وَيُرَوْنَ أَنَّهُ أَهْنَا لَهُمْ وَأَسْلَمَ فِي إِنْفَاقِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ
مِنَ الْأَغْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنْ
ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ صَاحِبَ هَذَا الْغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ
نَفْسَهُ فَلَا تُمْكِنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرَفَةً عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمُزَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي
ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَدْمٌ لِمُلْكِهِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ بِمَجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ
يَعْسُرُ الْخَلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ التَّخْفَالِ الدَّوْلَةِ وَضَيْقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَغْرَضُ فِيهَا
مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْمَجْدِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالشَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ
بِطَانَةِ السُّلْطَانِ وَخَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ الرَّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَدْ أَنْ يُخْلَى بَيْنَهُ وَيَبِينُ ذَلِكَ .
أَمَّا أَوْلًا فَلَمَّا يَرَاهُ الْمَلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَخَاشِيَتِهِمْ بَلْ وَسَائِرَ رِعَايَاهُمْ مَمَالِكُ لَهُمْ
مُطْلَبُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنْ الْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ
وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ ، وَغَيْرَةٌ مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ
بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ الْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ مِنْ وَقُوعِهِمْ
بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمَّ يَحْجُجُ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أَيْبَحُ الْحَجِّ
لِأَهْلِ الدَّوَلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ الْأُمُورِ وَرُجُوعِهَا إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا
ثَانِيًا فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّخَافِ عَنِ ذَلِكَ الْمَالِ لِمَا
يُرَوْنَ أَنَّهُ جُزءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يُرَوْنَ أَنَّهُ جُزءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبِ إِلَّا بِهَا وَفِي
ظِلِّ جَاهِهَا ، فَتَحُومُ نَفُوسُهُمْ عَلَى انْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالتَّعَامِيهِ كَمَا هُوَ جُزءٌ مِنَ الدَّوْلَةِ
يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خُلِصَ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قَطْرِ آخَرَ وَهُوَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلُ
فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمَلُوكِ بِذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَنْتَرِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ تَعْرِيفًا أَوْ

بالقهر ظاهراً لما يرون أنه مال الجبائية والدول وأنه مستحق للإنفاق في المصالح
وإذا كانت أغنيهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المتكسبين من وجوه المعاش
فأخرى بها أن تمتد إلى أموال الجبائية والدول التي تجد السبيل إليه بالشروع
والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللخاني تسع أو عاشر
ملوك الحفصيين بأفريقة الخروج عن عهدة الملك والحقا بمصر فراراً من طلب
صاحب الثمور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللخاني الرحلة إلى ثغر
طرابلس يوري يتمهده وركب السفين من هنالك وخلص إلى الإسكندرية بعد
أن حمل جميع ما وجدته بينت المال من الصامت^(١) والدخيرة وباع كل ما كان
بخزائنيهم من المتاع والعقار والجواهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله إلى مصر
ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم
نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل
عليها ولم يبق معاش ابن اللخاني إلا في جراتيه التي فرضت له إلى أن هلك سنة
ثمان وعشرين حسبنا نذكره في أخباره فهذا وأمثلة من جملة الوسواس الذي
يعتري أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المقاطب وإنما يخلصون إن اتفق
لهم الخلاص بأنفسهم وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من
الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرانيات السلطانية أو بالجاه
في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

النفس راغبة إذا رغبها وإذا ترد إلى قليل تقنع
والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم

(١) الأموال النقدية.

الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ الْعُمَرَانِ فَإِذَا اخْتَجَنَ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَاتِ أَوْ فَقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينِيذُ مَا بِأَيْدِي الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَانْقَطَعَ أَيْضاً مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ لِلْأَسْوَاقِ مِنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ الْكَسَادُ حِينِيذُ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ الْخَرَاجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ الْخَرَاجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ وَطَلِبِ النَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ وَوَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالنَّقْصِ لِقَلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينِيذُ بِقِلَّةِ الْخَرَاجِ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أَمْ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدَّخْلِ وَالخُرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَاجْدِرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضاً فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرُّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتَهُ الرُّعِيَّةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُمَرَاءَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَخْصِيلِهَا وَاكْتِسَابِهَا

لَمَّا يَرَوْنَهُ حِينِيذٍ مِنْ أَنْ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا انْتَهَابَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ أَمَالُهُمْ فِي
اِكْتِسَابِهَا وَتَخْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيَهُمْ عَنِ السُّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدْرِ الْاِغْتِنَاءِ وَنَسَبَتِهِ
يَكُونُ انْقِبَاضُ الرُّعَايَا عَنِ السُّعْيِ فِي الْاِكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ الْاِغْتِنَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي
جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقَعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ لِذَهَابِهِ بِالْأَمَالِ جُمْلَةً
بِدُخُولِهِ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ الْاِغْتِنَاءُ يَسِيرًا كَانَ الْاِنْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى
نَسَبَتِهِ وَالْعُمُرَانُ وَوُقُورُهُ وَنَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسُعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ
وَالْمَكَاسِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِزِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيَهُمْ عَنِ
الْمَكَاسِبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمُرَانِ وَانْتَفَضَتِ الْأَحْوَالُ وَابْتَدَعَرُ^(١) النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَّ سَاكِنُ الْقَطْرِ وَخَلَّتْ
ذِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لَمَّا أَنَّهَا صُورَةٌ
لِلْعُمُرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَاذِيهَا صُرُورَةٌ وَانظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَشْعُودِيُّ فِي اخْتِبَارِ
الْفَرَسِ عَنِ الْمُؤَبَّدَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامٍ وَمَا عَرَضَ بِهِ
لِلْمَلِكِ فِي إِنْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ
الْمِثَالِ فِي ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْبُومِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَمِ كَلَامِهَا فَقَالَ
لَهُ : « إِنَّ بُومًا ذَكَرَ يَرُومُ نِكَاحَ بُومٍ أَنْثَى وَإِنَّا شَرَطْتُ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنْ
الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامٍ فَقَبِلَ شَرَطَهَا ، وَقَالَ لَهَا ، إِنَّ دَامَتْ أَيَّامَ الْمَلِكِ أَقَطَعْتُكَ
أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسْهَلُ مَرَامٍ » . فَتَنَّبَهُ الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُؤَبَّدَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ
مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ
وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا
بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ
لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَضْبَةُ الرُّبِّ وَجَعَلَ لَهُ
قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدَتُ إِلَى الصِّيَاعِ فَانْتَرَعْتَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا

(١) بمعنى تفرق.

وَعَمَارَهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُوخِذُ مِنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعَتْهَا الْحَاشِيَةُ وَالْخَدَمُ
وَأَهْلُ الْبَطَالَةِ فَتَرَكَوا الْعِمَارَةَ وَالنُّظْرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يَضِلُّحُ الضِّيَاعُ وَسُومُحُوا فِي
الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْحَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعَمَّارِ
الضِّيَاعِ فَانْجَلُوا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلُّوا دِيَارَهُمْ وَأَوُوا إِلَى مَا تَعَدَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا
فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرُّعِيَّةُ وَطَمِعَ فِي
مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَزَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ
الْمُلْكِ إِلَّا بِهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النُّظْرِ فِي مُلْكِهِ وَانْتَرَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ
أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرَدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحَمَلُوا عَلَى رُسُومِهِمُ السَّالِفَةَ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ
وَقَوِي مَنْ ضَعَفَ مِنْهُمْ فَعَمَّرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْضَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جَبَاةِ
الْخَرَاجِ وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقَطَعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشَحِنَتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى
مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَضَمَ مُلْكُهُ فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ
مُخْرَبٌ لِلْعُمَرَانِ وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَانِ عَلَى الدُّوَلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِخَاصِ . وَلَا
تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْإِعْتِدَاءَ قَدْ يُوْجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ
يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسِبَةِ بَيْنَ الْإِعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ
أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمَرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُتَّسِعَةً بِمَالًا يَنْحَصِرُ
كَانَ وَقُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْإِعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ يَسِيرًا لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّذْرِيجِ فَإِذَا
خَفِيَ بِكثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَعَ الْأَعْمَالُ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرِ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ
تَذَهَبَ تِلْكَ الدُّوَلَةُ الْمُعْتَدِيَّةُ مِنْ أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ وَتَجِيءُ الدُّوَلَةُ الْأُخْرَى فَتُزْفِعُهُ
بِحِدَّتِهَا وَتَجْبُرُ النِّقْصَ الَّذِي كَانَ خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يَشْمُرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَقْلِ
النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حُصُولَ النِّقْصِ فِي الْعُمَرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَقَعَ
لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمَاهُ وَوَبَّالَهُ عَائِدَةٌ عَلَى الدُّوَلِ . وَلَا تُحَسِبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخَذَ الْمَالِ
أَوْ الْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِلِ الظُّلْمِ أَعْمٌ مِنْ
ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مُلْكًا أَحَدًا أَوْ غَضَبَهُ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَالَتُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ

حَقًّا لَمْ يَفْرُضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجَبَاةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا
 ظَلَمَةٌ وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ وَالْمَانِعُونَ لِحَقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ وَخُصَابُ الْأَمْلاكِ عَلَى
 الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ وَوَبَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِخَرَابِ الْعُمُرَانِ الَّذِي هُوَ مَا دَتَهَا
 لِإِذْهَابِهِ الْأَمْوَالِ مِنْ أَهْلِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَخْرِيبِ
 الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فَسَادِ الْعُمُرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ
 الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ الضَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ
 مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا
 بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمُرَانِ . كَانَتْ حِكْمَةُ الْخَطَرِ فِيهِ
 مَوْجُودَةً . فَكَانَ تَخْرِيمُهُ مَهْمًا . وَأَدْلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ . أَكْثَرَ مِنْ أَنْ
 يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضُّبُطِ وَالْحَضَرِ . وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوَضَعَ بِإِزَائِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ مَا وُضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ
 عَلَى اقْتِرَافِهَا مِنَ الزُّنَا وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَبُولَغٌ فِي دَعْوِهِ وَتَكَرُّرِ الْوَعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ
 يَكُونَ الْوَارِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ « وَمَا رَبُّكَ يَظْلَامُ لِلْعَبِيدِ » وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ
 الْعُقُوبَةَ قَدْ وُضِعَتْ بِإِزَاءِ الْجَرَائِيَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ الْمُحَارِبَ زَمَنَ
 جَرَائِيَتِهِ قَادِرٌ فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى
 مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْجِنَايَاتِ فِي نَفْسِ أَمْوَالٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ
 بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ وَأَمَّا نَفْسُ الْجَرَائِيَةِ فَهِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْعُقُوبَةِ .
 الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ : الْمُحَارِبُ لَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّ إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ
 الطَّالِمِ الْيَدِ الْمَبْسُوطَةِ الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فِيهِ الْمُؤَدِّنَةُ بِالْخَرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ
 الْمُحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةَ عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ
 مَوْجُودَةٍ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقَدْرِ الْمُؤَدِّنِ بِالْخَرَابِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى
 مَا يَشَاءُ .

فصل : ومن أشدّ الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال
وتسخير الرعايا بغير حقّ وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في
باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيمه أعمال أهل العمران . فإذا مساعيتهم
وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية
المعتملين في العماره إنما معاشهم ومكاسيتهم من اعتماليهم ذلك فإذا كلفوا العمل في
غير شأنهم واتخذوا سُخرى في معاشهم بطل كسبهم واعتصموا قيمة عملهم ذلك وهو
متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم
بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد أمالهم في العماره وقعدوا عن السعي فيها جملة
فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الاحتكار : وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على
أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع
الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع ورُبما تفرض عليهم تلك
الأثمان على التواحي والتعجيل^(١) فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما
تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحواله الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم
بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان . وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس
أموالهم . وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في
البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكيل والفواكه وأهل الصنائع فيما
يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على
الساعات وتُجحف برؤوس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق
لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح ويتناقل الواردون من الآفاق لشراء
البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته
من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية

(١) وفي بعض النسخ : التراخي والتأجيل .

السُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَكُوسِ عَلَى الْبِيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَا وَتَوَوَّلَ ذَلِكَ إِلَى تَلَاشِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمَرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يُشْمِرُ بِهِ . هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَانًا وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحَرَمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتِضُصَ الدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمُفْضِي إِلَى الْإِنْتِقَاصِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الْمَكَائِسَةَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سِوَا لِأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى انْتِقَاصِ الْعُمَرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْتِسَابِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَعْزُضُ لَهُمْ مِنَ الشَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ الْقَابَا وَوُجُوهاً يُوسِّعُونَ بِهَا الْجَبَانِيَةَ لِيَفِي لَهُمُ الدَّخْلُ بِالْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ الشَّرْفُ يَزِيدُ وَالْخَرْجُ يَسْبِيهِ يَكْثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمُجِي دَائِرَتَهَا وَيَذْهَبَ بِرَسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع والأربعون

في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم

إِغْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ كَمَا قَدَّمْنَا لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ اسْتِبْلَاؤُهَا وَالْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ الْعَصِيَّةِ وَالدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالذِّينِ فَإِنَّهُ يَبْعِدُ عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِعِزِّ الْعَلْبِ فَقَطُّ فَالْبِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْعَلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ فَإِنَّمَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدَوِيَّةً كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى خَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ وَالقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَسَهُولَةِ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْفِرَادِ

يَنْفَسِيهِ عَنِ النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤْنِهِ لِمَا يَكْثُرُ حِينَئِذٍ بِحَاشِيَتِهِ
فَيَطْلُبُ الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَنِيهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْمَنُهُ مِنْ
أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يُقِيمُهُ بِبَنِيهِ لِهَيْدِهِ الْوُضُوعِيَّةَ ثُمَّ إِذَا
اسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ اسْتَحَالَتْ أَخْلَاقُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ
الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ غَرِيبَةٍ مَخْصُوصَةً يَخْتَاجُ مَبَاشِرَهَا إِلَى مُدَارَاتِهَا وَمَعَامَلَتِهَا بِمَا
يَجِبُ لَهَا وَرُبَّمَا جَهَلَ تِلْكَ الْأَخْلَاقَ مِنْهُمْ بَعْضُ مَنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا
لَا يُرْضِيهِمْ فَسَخَطُوا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَأَنْفَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ
الْخَوَاصِّ مِنَ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَبُوا غَيْرَ أَوْلِيَاكَ الْخَاصَّةِ عَنْ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعَايِنَةٍ مَا يَسْخَطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعَقَابِهِمْ فَصَارَ حِجَابٌ آخَرَ
أَخْصُ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ
سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ . وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ
سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ ^(١) . وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَّثَ
لَأَيَّامِ مَعَاوِيَةَ وَعَبِيدَ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءَ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى
عِنْدَهُمُ الْحَاجِبَ جَرِيًّا عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْتِثْقَاقِ الصَّحِيحِ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَجَدَتِ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّرَفِّ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَكَمَلَتْ خُلُقُ الْمَلِكِ عَلَى
مَا يَجِبُ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ أَخْصُ بِهِ وَصَارَ
بِبَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانٍ لِلْعَبَّاسِيَّةِ ، دَارُ الْخَاصَّةِ وَدَارُ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي
أَخْبَارِهِمْ . ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوَلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ
الْحَجْرِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَبْنَاءَ مِنَ

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذه العبارة في نسخة لجنة البيان العربي « فقال ، (هكذا
وردت العبارة في جميع النسخ ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلي
« فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ، ويحجب دونه من سواهم
من الخاصة والعامّة . بينما كان الحجاب الأول يفضي إليهم منه الخاصة ويحجب دونه من سواهم من العامّة
والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا . . . ») وقد سهل هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة « سواهم »
في الجملتين .

الأعقاب وَحَاوَلُوا الْإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِمْ فَأُولَ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبَدُّ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ
 بَطَانَةُ ابْنِهِ وَخَوَاصُّ أَوْلِيَائِهِ يُوْهَمُهُ أَنْ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الْهَيْبَةِ وَفَسَادَ
 قَانُونِ الْأَدَبِ لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيَعُوْدُهُ مَلَابَسَةُ أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ
 بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْكِمَ الْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَاعِيهِ وَهَذَا
 الْحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا أَوَاخِرَ الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَا فِي الْحَجَرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى
 هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ الدَّوْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ الْقَائِمِينَ
 بِالدَّوْلَةِ يُحَاوِلُونَ عَلَى ذَلِكَ يَطْبَعُهُمْ عِنْدَ هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَذَهَابِ الْإِسْتِبْدَادِ مِنْ أَعْقَابِ
 مُلُوكِهِمْ لِمَا رُكِبَ فِي النُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ الْإِسْتِبْدَادِ بِالْمَلِكِ وَخُصُوصًا مَعَ التَّرْشِيحِ
 لِذَلِكَ وَخُصُولِ دَوَاعِيهِ وَمَبَادِيهِ .

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِغْلَمَ أَنْ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثَارِ الْهَرَمِ فِي الدَّوْلَةِ انْقِسَامُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ عِنْدَمَا
 يَسْتَفْجِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبِدُّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ
 بِالْمَجْدِ وَيَنْفَرِدُ بِهِ وَيَأْتَفُ حِينَئِذٍ عَنِ الْمُشَارَكَةِ يَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أَسْبَابِهَا مَا اسْتَطَاعَ
 بِإِهْلَاكِ مَنْ اسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قَرَاتِيهِ الْمُرْشِحِينَ لِمَنْصِبِهِ فَرُبَّمَا ارْتَابَ
 الْمُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَنَزَعُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ حَالِهِمْ
 مِنَ الْإِعْتِزَارِ وَالِاسْتِرَايَةِ وَيَكُونُ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي التَّضَايِقِ وَرَجَعَ عَنِ
 الْقَاصِيَةِ فَيَسْتَبِدُّ ذَلِكَ النَّازِعُ مِنَ الْقَرَاتِيَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَعْظُمُ بِتَرَاجُعِ نِطَاقِ
 الدَّوْلَةِ حَتَّى يَقَاسِمَ الدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادُ وَانظُرْ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَ
 كَانَ أَمْرُهَا حَرِيزًا مُجْتَمِعًا وَنِطَاقًا مُتَمَدِّدًا فِي الْإِتْسَاعِ وَعَضِيئَةً بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَاحِدَةً
 غَالِيَةً عَلَى سَائِرِ مُضَرٍّ يَنْبُضُ عِرْقُ مِنَ الْخِلَافَةِ سَائِرِ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَدْعَةِ
 الْخَوَارِجِ الْمُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بَدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنِزْعَةِ مُلِكٍ وَلَا رِئَاسَةِ وَلَمْ يَتِمَّ

أمرهم لمزاحمتهم الفصيحة القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو
العباس بالأمر. وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأدنت
بالثقل عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام
فاستحدثت بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع إدريس إلى
المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة
واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة ثقلاً فاضطرب الأغلبة في
الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على أفريقية
والمغرب ثم مضر والشام والحجاز وعلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين
أخرتين وصارت الدولة العربية ثلاث دول، دولة بني العباس مركز العرب
وأصلهم وما دئتهم الإسلام، ودولة بني أمية المجديدين بالأندلس ملكهم القديم
وخلافتهم بالمشرق، ودولة العبديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل
هذه الدولة إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً وكذلك انقسمت دولة بني
العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان
والملوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى
بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد
الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب
وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد
واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واختط
القلمة بجبل كتامة حبال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى
واستحدثت ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها
ولم تزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً. وكذلك دولة الموحدين، لما تقلص
ظلمها ناز بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأغقايهم
بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من

أعقابهم الأمير أبو زكرياء يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم
 واستحدث ملكاً بجباية وفسنطينة وما إليها ، أوزته بنيه وقسموا به الدولة قسمين
 ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء
 فيهم وقد ينسب الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أغياص الملك من
 قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك
 صنهاجة بأفريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل خص من حصون أفريقية ثائر
 مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا
 العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم
 بالتزرف والدعة وتقلص ظل الغلب فينقسم أغياصها أو من يغلب من رجال دولتها
 الأمر ويتعدّد فيها الدول والله وارث الأرض ومن عليها .

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبيننا أنها
 تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة
 كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني
 والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي
 والأمور الطبيعية لا تبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في
 السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ
 نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من
 قبله من أهل الدولة وعفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي
 المانعة له من تلافيتها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر

أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزِّي والاختلاط بالناس إذ العوائد حينئذ تمنعه وتتبع عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة ، وحشي عليه غائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبَت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة يذهب أوهام الأبهة فتتدع الدولة يتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالبها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقارنبة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعترض ذلك ولا تفعل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه « ولكل أجل كتاب » .

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال . والخلل إذا طرقت الدولة طرقتها في هذين الأساسين فلنذكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع إلى طروقه في المال والجبانية . وإعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مشتتة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وخذع أتوف أهل

العصبية كان^(١) أول ما يُجَدَعُ أنوفَ عشيرته وذوي قرْباه المَقاسمين له في اسم
 المَلِكِ فَيَسْتَبْدُ في جَدَعِ أنوفهم بما بَلَغَ مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ المَلِكِ وَالْعِزِّ
 وَالغَلْبِ فَيَحِيْطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا التَّرْفُ وَالْقَهْرُ ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى القَتْلِ لِمَا
 يَخْضُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوحِ المَلِكِ لِصَاحِبِ الأَمْرِ فَيَقْلِبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى
 الخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِالقَتْلِ وَالإِهَانَةِ وَسَلْبِ النُّعْمَةِ وَالتَّرْفِ الَّذِي تَعَوَّدُوا
 الكَثِيرِ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ وَتَفْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ العَصِيَّةُ
 الكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ بِهَا العَصَابُ وَتَسْتَشْبِهُهَا فَتَنْحَلُ عُرْوَتَهَا وَتَضَعُفُ
 شَكِيمَتَهَا وَتَسْتَبْدِلُ عَنْهَا بِالبَطَانَةِ مِنْ مَوَالِي النُّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الإِحْسَانِ وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ
 عَصِيَّةً إِلَّا أَنهَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ الشَّدَةِ الشَّكِيمَةِ لِفَقْدَانِ الرَّحْمِ وَالقَرَايَةِ مِنْهَا وَقَدْ
 كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ شَأْنَ العَصِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالقَرَايَةِ وَالرَّحْمِ لِمَا جَعَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ
 فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنِ العَشِيرِ وَالأنْصَارِ الطَّبِيعِيَّةِ وَيُحْسُ بِذَلِكَ أَهْلَ العَصَائِبِ
 الأُخْرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَاسَرُ طَبِيعِيًّا فَيَهْلِكُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
 وَيَتَّبِعُهُمْ بِالقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلُدُ الآخَرَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ ، الأَوَّلِ مَعَ
 مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلِكَةِ التَّرْفِ الَّذِي قَدَّمْنَا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمُ الهَلَاكُ
 بِالتَّرْفِ وَالقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِنْفَةِ تِلْكَ العَصِيَّةِ وَيَفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَثَوَرَتِهَا
 وَيَصِيرُوا أَوْجَزَ عَلَى الحِمَايَةِ وَيَقْلُونَ لِذَلِكَ فَتَقِلُ الحِمَايَةُ الَّتِي تَنْزُلُ بِالأَطْرَافِ
 وَالثُّغُورِ فَتَتَجَاسَرُ الرِّعَايَا عَلَى بَعْضِ الدُّعْوَةِ فِي الأَطْرَافِ وَيَبَادِرُ الخَوَارِجُ عَلَى الدَّوْلَةِ
 مِنَ الأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ الأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ
 بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ القَاصِيَةِ لَهُمْ وَأَمْنِهِمْ مِنْ وَصُولِ الحِمَايَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَدَرَّجُ
 وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَاقُ حَتَّى تَصِيرَ الخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الأَمَاكِنِ إِلَى مَرَكَزِ الدَّوْلَةِ
 وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي الأَصْلِ كَمَا
 قَلْنَا وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْعَانًا لِأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَلِغَلْبِهِمُ المَعْنُودِ
 وَاعتَبِرْ هَذَا فِي دَوْلَةِ العَرَبِ فِي الإِسْلَامِ كَيْفَ انْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الأَنْدَلُسِ وَالهِنْدِ وَالصِّينِ

(١) أي صاحب الدولة.

وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ الْعَرَبِ بِعَضِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ
سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقَ بِقَتْلِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِقَرْطَبَةَ
فَقُتِلَ وَلَمْ يَزِدْ أَمْرُهُ . ثُمَّ تَلَاثَتْ عَضِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِ
فَانْقَرَضُوا . وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا الطَّالِبِيْنَ وَشَرَّدُوهُمْ
فَانْحَلَّتْ عَضِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلَاثَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَبَدَّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ
الْقَاصِيَةِ مِثْلَ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَانْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ ثُمَّ
خَرَجَ بَنُو إِدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبُرْبُرُ بِأَمْرِهِمْ إِذْغَانًا لِلْعَضِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ وَأَمَّا أَنْ
تَصَلَّهْمُ مُقَاتِلَةً أَوْ حَامِيَةً لِلدَّوْلَةِ . فَإِذَا خَرَجَ الدُّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
وَالْقَاصِيَةِ وَتَحْضُلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمُلْكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى
زَادَتِ الدَّوْلَةُ تَقْلُصًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضْعَفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ
مِنْهَا التَّرَفَ فَتَهْلِكُ وَتَضْمَحِلُ وَتَضْعَفُ الدَّوْلَةُ الْمُتَقَسِّمَةَ كُلَّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمَدُهَا بَعْدَ
ذَلِكَ فَتَسْتَفْنِي عَنِ الْعَضِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الضَّبْغَةِ فِي نَفْسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ
صِبْغَةُ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّسْلِيمِ مُنْذُ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَغْفُلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا
وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَقْلُونَ إِلَّا التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَفْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ
الْعَصَائِبِ وَيَكْفِي صَاحِبَتَهَا بِمَا حَصَلَ لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا الْإِجْرَاءَ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ
جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْضُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي النُّفُوسِ غَامَةٌ مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ
يَتَصَوَّرُ غَضِيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمْهُورُ مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ مُخَالِفُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى
التَّصَدِّي لِذَلِكَ وَلَوْ جَهْدَ جُهْدِهِ وَرُبَّمَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ
وَالْمُنَارِعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ التَّسْلِيمِ وَالْإِنْتِقَادِ لَهُمْ فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا
بِمُخَالَفَتِهِ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنِ الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ التَّهَرِجِ
وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ
تَتَلَاشَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْفَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ الْعَادِمِ لِلغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَأَمَّا الْخَلَالُ الَّذِي يَنْطَرِقُ مِنْ حَيْثُ الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا
 تَكُونُ بَدْوِيَّةً كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرَّفِيقِ بِالرَّعَايَا وَالْقَضْدُ فِي النَّفَقَاتِ وَالتَّعَفُّفُ عَنِ
 الْأَمْوَالِ فَتَتَجَانَفَى عَنِ الْإِمْتِنَانِ فِي الْجَبَايَةِ وَالتَّحَذُّلِ وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ
 وَحَسْبَانِ الْعُمَالِ وَلَا دَاعِيَةَ حِينِيذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النَّفَقَةِ فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ
 الْمَالِ ثُمَّ يَخْضُلُ الْإِسْتِيْلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْجِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى التَّرْفِ وَيَكْثُرُ
 الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى
 أَهْلِ الْمِضْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَّاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ
 التَّرْفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرِّعِيَّةِ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ
 مَلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى أَيْمَانِ الْبَيْعَاتِ فِي
 الْأَسْوَاقِ لِإِذْرَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرْفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمُ بِالرَّفِّهِ وَلِمَا
 يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرْفِ فَلَا تَقْبِي بِهَا
 الْمَكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدْ اسْتَفْخَلَتْ فِي الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لَمَنْ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنْ
 الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ
 فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشَبْهِةٍ أَوْ بغيرِ شَبْهِةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى
 الدَّوْلَةِ بِمَا لِحَقَهَا مِنَ الْفَشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَدَاوَى بِسَكِينَةِ
 الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَليجَةً وَتَكُونُ جُبَاةَ الْأَمْوَالِ فِي
 الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكُونِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَع
 لِذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ بِاخْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَفْشُو السَّعَايَةَ
 فِيهِمْ . بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَقْدِ فَتَعْمُمُ النُّكْبَاتُ وَالْمُضَادَرَاتُ وَإِحْدَا
 وَإِحْدَا إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثُرُوتُهُمْ وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيَفْقَدُ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأَيْتِيَّةِ
 وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطَلَمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمُ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا
 سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَةَ وَضَعْفَتْ عَنِ الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ
 فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ حِينِيذٍ إِلَى مَدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَذْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْقَعَ مِنْ

السيف لِقَلَّةِ غِنَائِهِ فَتَعَظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النَّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَغْنَى فِيهَا يَرِيدُ وَيَعَظُمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاجِحِ وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عَرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى أَنْ تَقْضِيَ إِلَى الْهَلَاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ الْكَلَّلِ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَالْأَبْقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحَلَّ كَالذُّبَالِ فِي السَّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زِينَتُهُ وَطَفِيَءَ وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

الفصل الثامن والأربعين

فصل في اتساع الدولة

أولا إلى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها^(١)

قَدْ كَانَ تَقَدَّمَ لَنَا فِي فَضْلِ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ ، وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْ هَذِهِ الْمَقَدِّمَةِ أَنْ كُلَّ دَوْلَةٍ لَهَا حِصَّةٌ مِنَ الْمَمَالِكِ وَالْعَمَالَاتِ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِتَوْزِيعِ عِصَايَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمَايَةِ أَقْطَارِهَا وَجِهَاتِهَا . فَحَيْثُ نَفَدَ عَدَدُهُمْ فَالطَّرْفُ الَّذِي انْتَهَى عِنْدَهُ هُوَ الشُّغْرُ . وَيُحِيطُ بِالدَّوْلَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا كَالنِّطَاقِ . وَقَدْ تَكُونُ النِّهَائِيَّةُ هِيَ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ الْأُولَى . وَقَدْ تَكُونُ أَوْسَعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ عَدَدُ الْعِصَايَةِ أَوْفَرَ مِنَ الدَّوْلَةِ قَبْلَهَا . وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ فِي شِعَارِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَةِ النَّبَاسِ . فَإِذَا اسْتَفْحَلُ الْعِزُّ وَالْقَلْبُ وَتَوَفَّرَتِ النِّعَمُ وَالْأَرْزَاقُ بِدُرُورِ الْجَبَايَاتِ ، وَزَخَرَ بَخْرُ التَّرَفِ وَالْحَضَارَةِ وَنَشَأَتِ الْأَجْيَالُ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ لَطَفَتْ أَخْلَاقُ الْحَامِيَةِ وَرَقَّتْ

(١) تم نقل هذا الفصل عن نسخة (لجنة البيان العربي) وقد علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذا الفصل بقوله ، « هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس عن الطبقات المتداولة في العالم العربي . وقد وضع هذا الفصل في طبعة باريس بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب » وقد نقلنا هذا الفصل حرصاً على أن لا نترك من المقدمة فضلاً لم يذكر برمته . فيجزم قراؤنا من فائدته .

خواشيهم ، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل ، بما يعانونه من
صنث الحضارة المؤدي إلى الإنسلاخ من شعار البأس والرُجولية بمفارقة البداوة
وخشونتها ، وبأخذهم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها ، فيفضي إلى قتل
بعضهم ببعض ، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك
رؤسائهم ، فتفقد الأمراء والكبراء ، وتكثر التابع والمرؤوس ، فيتل ذلك من حد
الدولة ، ويكسر من شوكتها ، ويقع الخلل الأول في الدولة ، وهو الذي من جهة
الجند والحامية كما تقدم . ويساوق ذلك السرف في النفقات بما يعتر بهم من أبهة
العز ، وتجاوز الحدود بالبذخ ، بالمناعة في المطاعم والملابس وتشييد القصور
واستحادة السلاح وارتباط الخيول ، فيقتصر دخل الدولة حينئذ عن خرجها
ويطرق الخلل .

الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والحيابة . ويحصل العجز
والإنتقاص بوجود الخللين . وربما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة
المجاورين والمنازعين ومدافعتهم . وربما اغتر أهل الثغور والأطراف بما
يخسبون من ضعف الدولة ورائهم ، فيصرون إلى الاستغلال والاستبداد بما في
أيديهم من العمالات ، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة فيضيق نطاق
الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها ، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه ،
إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في
المصاية وقلة الأموال والحيابة . فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي
كانت عليها سياسة الدولة من قبل الجند والمال والولايات ، ليخري حالها على
استقامة يتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الحيابة على
الأرزاق ، ومقايسة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال .

والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة . فيحدث في هذا الطور من بعد
ما حدث في الأول من قبل . ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول ، ويقايس

بِالْوِزَانِ^(١) الْأَوَّلِ أَحْوَالَهَا الثَّانِيَةَ ، يَرُومُ دَفْعَ مَفَاسِدِ الْخَلَلِ الَّتِي يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ طَوْرِ
وَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ حَتَّى يَصِيقَ نِطَاقَهَا الْآخَرَ إِلَى نِطَاقِ دُونِهِ كَذَلِكَ ، وَيَقَعُ فِيهِ
مَا وَقَعَ فِي الْأَوَّلِ . فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُغْيِرِينَ لِلْقَوَائِمِينَ قَبْلَهُمْ كَانَتْهُمْ مُنْشِئُونَ
دَوْلَةً أُخْرَى ، وَمُجَدِّدُونَ مُلْكًا ، حَتَّى تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ ، وَتَتَطَاوَلَ الْأُمَمُ حَوْلَهَا إِلَى
التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَإِنْشَاءِ دَوْلَةٍ أُخْرَى لَهُمْ ، فَيَقَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقَوَعَهُ .

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على
الأمم ، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم مما تخولوه من النعم والأرزاق ، إلى أن
انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس . ثم تزايد الترف ، ونشأت الحضارة
وطرق الخلل ، فضاقت النطاق من الأندلس والمغرب يحدث الدولة الأموية
المروانية والعلوية ، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها ، إلى أن وقع الخلاف بين
بني الرشيد ، وظهر دعاة العلوية من كل جانب ، وتمهدت لهم دول ، ثم قتل
المتوكل ، واستبد الأحرار على الخلفاء وحجروهم ، واشتغل الولاة بالعمالات في
الأطراف ، وانقطع الخراج منها ، وتزايد الترف ، وجاء المعتضد فغير قوانين
الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاية الأطراف ما غلبوا عليه ، مثل
بني سامان وراة النهرو وبني طاهر العراق وخراسان ، وبني الصفار السند
وفارس ، وبني طولون مصر ، وبني الأغلب أفريقية ، إلى أن افترق أمر العرب
وغلب العجم ، واستبد بنو بويه والذليل بدولة الإسلام وحجروا الخلافة ، وبقي
بنو سامان في استبدايدهم وراة الشهر ، وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر
والشام فملكوه . ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام
وأبقوا الخلفاء في حجرهم ، إلى أن تلاثت دولهم ، واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر
في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين .
واقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن

(١) قايى بين الأمرين ، قدر وازنه ، عادله وقابله (قاموس)

طولي بن دوشي خان ملك التتر والمغلي حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان
بأيديهم من ممالك الإسلام . وهكذا يتضائق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها
الأول . ولا يزال طورا بعد طور إلى أن تنقرض الدولة . واعتبر ذلك في كل دولة
عظمت أو صغرت . فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الغناء
على خلقه . و « كل شيء هالك إلا وجهه ^(١) » .

(١) من آية ٨٨ من سورة النقص .

الفصل التاسع والأربعون

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

إِغْلَمَ أَنْ نَشَأَ الدَّوْلَ وَبِدَائِئِهَا إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْهَرَمِ وَالْإِنْتِقَاصُ
تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبْدُ وِلَاةَ الْأَعْمَالِ فِي الدَّوْلَةِ بِالْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ
ظِلْمًا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ يَرْتَهُ
عَنْهُ أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْجِلُ لَهُمُ الْمَلِكُ بِالتَّدرِيجِ وَرُبَّمَا يَزِدِحْمُونَ عَلَى ذَلِكَ
الْمَلِكِ وَيَتَفَارِعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ بِهِ وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ
فَضْلُ قُوَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَرِعُ مَا فِي يَدِهِ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ
دَوْلَتُهُمْ فِي الْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلْمًا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَاسْتَبَدَّ بَنُو سَاسَانَ بِمَا وَرَاءَ النُّهْرِ وَبَنُو
حَمْدَانَ بِالْمَوْصِلِ وَالشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ
وَافْتَرَقَ مُلْكُهَا فِي الطَّوَائِفِ الَّذِينَ كَانُوا وَلَاتِهَا فِي الْأَعْمَالِ وَانْقَسَمَتِ دَوْلًا وَمَلُوكًا
أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهَذَا النُّوعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ
الْمُسْتَقِرَّةِ حَرْبًا لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الدَّوْلَةِ
الْمُسْتَقِرَّةِ بِحَرْبٍ وَإِنَّمَا الدَّوْلَةُ أَذْرَكَهَا الْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلْمًا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَعَجَزَتْ عَنِ
الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالنُّوعُ الثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى الدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الْأُمَمِ
وَالْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبُ شَوْكَةٍ
وَعَصَبِيَّةٍ كَبِيرًا فِي قَوْمِهِ قَدْ اسْتَفْجَلَ أَمْرَهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ
بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِعْتِرَازِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ الْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ
وَلِقَوْمِهِ الْإِسْتِيْلَاءُ عَلَيْهَا وَيُمَارِسُونَهَا بِالْمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَزْنُونَ^(١) كَمَا
تَبَيَّنَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) قوله ويزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء . ا هـ

الفصل الخمسون

في ان الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاوله
لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الأطراف إذا
تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في
الأكثر كما قدمناه لأن قضاياهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم والنوع
الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لأن قوتهم
واقية بها فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصية والاعتزاز ما هو
كفء^(١) ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكوز
وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر
بالمناجزة والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأموار
نفسانية وهمية وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك
الأموار الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أرفع ما يستعمل في الحرب وأكثر
ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد
المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق
لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وإن كان الأقربون

(١) الأصح كفه أو كفه أو كفو وقد ورد في لسان العرب « وتقول . الاكفاء له . بالكسر . وهو في
الأصل مصدر . أي لا نظيره . »

مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي طَاعَتِهِ وَمُؤَاظَرَتِهِ إِلَّا أَنْ الْأَخْرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفِشْلُ
 يَتَلَكَّ الْعَقَائِدَ فِي التَّسْلِيمِ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ فَيَحْضُلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكَادُ
 صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ يَرْجِعُ إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَضَحَّ هَرَمُ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَقْرَّةِ فَتَضْمَحِلَّ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثُ مِنْهُمْ الْهَمَمُ لِصَدِيقِ الْمُطَالِبِيَّةِ
 مَعَهُ فَيَقَعُ الظُّفْرُ وَالِاسْتِيْلَاءُ وَأَيْضاً فَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ ^(١) بِمَا اسْتَحْكَمَ
 لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النِّعِيمِ وَاللَّذَاتِ وَاخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ
 فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمْ اِرْتِبَاطُ الْخِيُولِ وَاسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمَ فِيهِمُ الْأُبُهَةُ الْمُلْكِيَّةُ
 وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مَلُوكِهِمْ اخْتِيَاراً وَاضْطِرَّاراً فَيَرْهَبُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَدُوَّهُمْ
 وَأَهْلَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِمَعْرُوفٍ عَنْ ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ
 وَالْخِصَاصَةِ ^(٢) فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ الرَّعْبِ بِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَقْرَّةِ وَيَعْرَمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ
 الْمُسْتَقْرَّةُ مَا خَذَهَا مِنَ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكَمُ الْخَلْلُ فِيهَا فِي الْعَصِيَّةِ وَالْجَبَايَةِ فَيَنْتَهِرُ
 حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ فُرْصَتَهُ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ مُنْذُ الْمُطَالِبِيَّةِ
 سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَأَيْضاً فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ كُلُّهُمْ مَبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ
 بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاجِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَاخِرُونَ لَهُمْ وَمُنَابِذُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ
 هَذِهِ الْمُطَالِبِيَّةِ وَيَطْمَعِيهِمْ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ فَتَتَمَكَّنُ الْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرّاً
 وَجَهراً وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ يُصِيبُونَ
 مِنْهُ غَرَّةً ^(٣) بَاطِناً وَظَاهِراً لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالِبِيَّةِ
 وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكَلُونَ ^(٤) عَنِ الْمَنَاجِرَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ
 وَقَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُقُورِ الْخَلْلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَّ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ
 مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتِ قُوَّتُهُمْ بِمَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ

(١) فِي بَعْضِ النُّسَخِ « كَثِيرَةُ التَّرَفِ »

(٢) الْفَقْرُ وَسُوءُ الْحَالِ

(٣) قَوْلُهُ غَرَّةٌ بِكسر الغين أَي غَفْلَةٌ

(٤) يَجْتَنِبُونَ

أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث همهم يداً واحدة للمناجزة ويذهب ما كان
بث في عزائمهم من التوهلمات وتنشهي المطاولة إلى حدّها ويقع الاستيلاء آخرأ
بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة
بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ
تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور
دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما
انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة
يطاولون حتى اقتطعوا أصهبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد . وكذا العبيديون
أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كمامة من قبائل البربر عشر
سنين ويزيد تطاول بني الأغلب بأفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب
كله وسما إلى ملك مضر فمكثوا ثلاثين^(١) سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها
العساكر والأساطيل في كل وقت ويحيء المدد لمداقتهم براً وبحراً من بغداد
والشام وملكوا الإسكندرية والقيوم والضميد وتخطت دعوتهم من هنالك إلى
الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بمساركه مدينة مضر
واستولى عليها واقتلع دولة بني طنج من أصولها واختط القاهرة فجاء الخليفة بعد
المعز لدين الله فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية وكذا
السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني ساسان وأجازوا من وراء النهر مكثوا
نحواً من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته .
ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر . وكذا
التر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبعة عشر وسماية فلم يتم لهم الاستيلاء
إلا بعد أربعين سنة . وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على
ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه . ثم خرج الموحدون بدعوتهم

(١) كذا في الأصل والواضح من المراجع التاريخية ومنها تاريخ ابن خلدون نفسه ان اللدة هي ستون سنة

وان ثلاثين خطأ .

على لِمَتُونَة فَمَكثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ وَكَذَا بَنُو مَرَيْنَ مِنْ زَنَاتَةَ خَرَجُوا عَلَى الْمُؤَحَّدِينَ فَمَكثُوا يَطَاوُلُونَهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوْلُوا عَلَى فَاسَ وَاقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلُوكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مَحَارِبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدُّوَلِ المُسْتَجِدَّةِ مَعَ المُسْتَقْرَّةِ فِي المُطَالَبَةِ وَالمُطَاوَلَةِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ اسْتِيْلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ لثَلَاثِ أَوْ أَرْبَعِ مِنْ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا اسْتِمَاتَةُ المُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الرُّغْبِ وَالتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ المُقَرَّرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ الدُّوَلِ المُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقْرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ المُتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالمُعْجِزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الأُمُورُ العَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الحادي والخمسون

في وفور العمران اخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدُّوَلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بَدَلَهَا مِنَ الرُّفْقِ فِي مَلِكِيَّتِهَا ^(١) وَالإِعْتِدَالِ فِي إِتْيَالِهَا إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدُّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ المُكَارَمَةِ وَالمُحَاسِنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا البِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ المَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً انْبَسَطَتْ أَمَالُ الرُّعَايَا وَانْتَشَطُوا لِلعُمُرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكثُرُ التَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالتَّدرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الأَقْلِ وَفِي

(١) بمعنى ملكها.

انقضاء الجيلين تُشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن إنه قد مر ذلك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدرج في الأمور الطبيعية ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه إما المجاعات فليقبض الناس أيديهم عن الفلج في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل اختكار الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمرة الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبيته إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاختكار فإذا فقد الاختكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاص^(١) فهلكوا وكان بعض السنوات الاختكار مفقوداً فشمّل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملا بسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المنغم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والفقر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يخصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات

(١) الفقر وسوء الحال (المنجد).

وَيَأْتِي بِالنَّوَاهِ الصَّحِيحِ وَهَذَا أَيْضاً فَإِنَّ الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانَ
أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كِمِصْرَ بِالْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يَقْدَرُ مَا يَشَاءُ^(١)

الفصل الثاني والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْإِجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرْوَرِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى
الْعُمَرَانَ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْإِجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ
وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنِيْدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهِ
إِيمَانَهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلَّغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ
انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابٍ ذَلِكَ الْحَاكِمُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ . فَالْأَوْلَى
يَخْضَلُ نَفْعَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمَرَاعَاتِهِ نَجَاةَ
الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةَ إِنَّمَا يَخْضَلُ نَفْعَهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمَدِينِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا النَّبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ حَتَّى يَسْتَفْتُوا عَنِ الْحُكْمِ رَأْسًا
وَيَسْمُونَ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي يَخْضَلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ « بِالْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ » ،
وَالْقَوَائِنِ الْمَرَاعَاةَ فِي ذَلِكَ « بِالسِّيَاسَةِ الْمَدِينِيَّةِ » وَلَيْسَ مُرَادَهُمُ السِّيَاسَةَ الَّتِي
يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْإِجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ
الْفَاضِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ بَعِيدَةٌ الْوُقُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى حِجَّةِ الْفَرَضِ
وَالْتَقْدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يَرَاعَى

(١) بعد الدراسات الحديثة المتعلقة بحياة الإنسان في المدينة والريف . حيث أن متوسط عمر الإنسان في
الريف يزيد عن مثله في المدينة كثيراً . وهذا يؤكد نظرية ابن خلدون من هذه الناحية . لان مناخ المدينة المشيع
بدخان اللصانع والعاامل والسيارات وغيرها غير مناخ الريف النظيف النقي .

فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحِ السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ
 كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفَرَسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ الْحِكْمَةِ . وَقَدْ اغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعَهْدِ
 الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَحْكَامَ
 الْمُلْكِ مُنْدرِجَةٌ فِيهَا . الْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ
 يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ
 السِّيَاسَةُ الَّتِي يَخْمَلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ الَّتِي لَسَانِ الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ
 وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
 بِحَسَبِ جُهْدِهِمْ فَقَوَائِمُهَا إِذَا مُجْتَمَعَةٌ مِنْ أَحْكَامِ شَرْعِيَّةٍ وَأَدَابِ خُلُقِيَّةٍ وَقَوَائِمٍ فِي
 الْاجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ ، وَأَشْيَاءَ مِنْ مَرَاغَةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيْبَةِ ضَرْوْرِيَّةٍ وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا
 بِالشَّرْعِ أَوْلَا ثَمَّ الْحُكْمَاءُ فِي آدَابِهِمْ وَالْمُلُوكُ فِي سَيْرِهِمْ وَمَنْ أَحْسَنَ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ
 وَأَوْدَعَ كِتَابَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وُلِّاهُ الْعَامُونَ الرَّقَّةَ
 وَمَضَى وَمَا بَيْنَهُمَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٌ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ عَهْدَ إِلَيْهِ فِيهِ وَوَضَاهُ
 بِجَمِيعِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ
 الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ ، وَحَثَّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيمِ بِمَا لَا يَسْتَغْنِي
 عَنْهُ مِلْكٌ وَلَا سَوْقَةٌ . وَنَصَّ الْكِتَابُ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَا بَعْدَ فَعَلَيْكَ
 بِتَقْوَى اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُرَايَلَةَ ^(١) سَخَطِهِ
 وَاحْفَظْ رِعْيَتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالرِّزْمَ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ
 وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ ، وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَالْيَمِّ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ
 أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ مِنْ عِبَادِهِ وَالرِّزْمَ الْغَدْلَ
 فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَخُدُودَهُ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالذَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ
 وَالْحَقْنَ لِدِعَائِهِمْ وَالْأَمْنَ لِسِرِّيهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ وَمُواخِذَكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ
 وَمَوْقِفَكَ عَلَيْهِ وَسَائِلَكَ عَنْهُ وَمُشِيْبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخْرْتَ فَفَرَّغْ لِذَلِكَ فَهَمَكَ

(١) مرأيلة ، بمعنى الابتعاد عن

وَعَقْلِكَ وَبَصْرِكَ وَلَا يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ . وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمَلَاكَ^(١) شَانِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزَمُ بِهِ نَفْسُكَ وَتَنْسَبُ إِلَيْهِ فِعْلُكَ الْمَوْاطَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلِ فِي قِرَائَتِكَ وَتَمَكُّنٍ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهُدِكَ وَتَضَرُّفٍ فِيهِ رَأْيِكَ وَنَيْتِكَ وَاحْتِضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَإِذَا بَ عَلَيْهِمَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ اتَّبِعْ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُتَابَعَةَ عَلَى خَلَاتِقِهِ وَاقْتِفَاءَ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَمِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَاتِّمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أُحِبِّتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَأَثَرِ الْفَقْهِ وَأَهْلِهِ وَالَّذِينَ وَحَمَلْتَهُ وَكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ بِهِ^(٢) فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالطَّلْبَ لَهُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزِدَاؤُ الْمَرْءَ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالَ لَهُ وَدَرَكَ^(٣) لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالنَّهْيَةِ لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنْسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَتَيْنَ نَفْعًا وَلَا أَحْصَى أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ . وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ وَكَذَا فِي دُنْيَاكَ كُلِّهَا . وَلَا تَقْصُرْ فِي طَلْبِ

(١) ملاك . ملاك الأمر . قوامه (المنجد) .

(٢) صحيح العبارة ومقتضى سياق الجملة : « وأثر الفقه وأهله . والدين والعاملين به . وكتاب الله عز

وجل وحملته » .

(٣) وصولاً .

الآخِرَةَ وَالْأَجْرَ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَالسُّنَنَ الْمَعْرُوفَةَ وَمَعَالِمَ الرُّشْدِ وَالْإِعَانَةَ
 وَالْإِسْتِكْثَارَ مِنَ الْبِرِّ وَالسُّعْيَ لَهُ إِذَا كَانَ يُطَلَّبُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتَهُ وَمُرَافَقَةَ
 أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَضْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيَمُخِّصُ مِنَ
 الذُّنُوبِ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصَلِحَ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ فَإِنَّهُ وَاهْتَدِ
 بِهِ تَيْمُّ أُمُورِكَ وَتَزِدْ مَقْدِيرَتَكَ وَتَصْلِحْ غَامَتَكَ وَخَاصَّتَكَ وَأَحْسِنِ ظَنَّنَكَ بِاللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ تَسْتَقِمْ لَكَ رَعِيَّتُكَ وَالتَّمَسَّ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تَسْتَدِيمُ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ
 وَلَا تَتِيهَمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تَوَلَّيَهُ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ فَإِنَّ إِيقَاعَ
 الشُّهْمِ بِالْبُرَاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ أَثْمٌ إِثْمٌ فَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ وَأَطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَأَرْفُضْهُ فِيهِمْ يُعِينُكَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِمْ
 وَرِيَاضَتِهِمْ . وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَغْمَرًا ^(١) فَإِنَّهُ يَكْتَنِي بِالْقَلِيلِ
 مِنْ وَهْنِكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ بِسُوءِ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يَنْقُصُ لِدَاذَةِ عَيْشِكَ . وَاعْلَمْ
 أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةٍ ، وَتَكْتَنِي بِهِ مَا أُخْبِنْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ
 وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا يَنْفَعُكَ حُسْنَ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ وَالرَّافَةَ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْأَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ
 لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ وَحِيَاطَةَ الرُّعِيَّةِ وَالنُّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمَلَ مَوْوَنَاتِهِمْ أَيْسَرَ عِنْدَكَ
 مِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ أَقْوَمٌ لِلدِّينِ وَأَخْيَا لِلسُّنَّةِ . وَأَخْلِصْ نِيَّتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدْ
 بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ تَفَرَّدْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ وَمَجْزِيٌّ بِمَا أَحْسَنَ وَمُواخَذٌ بِمَا
 أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَأَسْلَكَ بِمَنْ
 تَسُوَسُهُ وَتَرَغَاهُ نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ^(٢) . وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ
 الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَا اسْتَحَقُّوه وَلَا تُعْطَلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَهَاوَنَ بِهِ وَلَا تُؤَخَّرْ
 عَقُوبَةَ أَهْلِ الْعَقُوبَةِ فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنَّنِكَ وَاعْتَرِمْ
 عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَتَقُمْ

(١) وفي بعض النسخ وردت هذه العبارة : « ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك مغمدا » .

(٢) وفي بعض النسخ طريقة الأهدى .

لَكَ مُرُوتُكَ . وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَأَوْفِ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزْهُ وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ
وَادْفَعْ بِهَا ، وَأَغْمِضْ عَنِ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ
الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَيْغِضْ أَهْلَ النَّمِيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَأَجَلِهَا ،
تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجِرَاءَةُ عَلَى الْكَذِبِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَأْتِمِ ، وَالزُّورَ
وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتَهَا ، لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا ، لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا
يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ . وَأَخْبِ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصَّدَقِ ، وَأَعِزَّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَأَسْ (١)
الضُّعْفَاءَ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ ، وَالتَّمِيسَ فِيهِ
ثَوَابَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ . وَاجْتَنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورِ ، وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَأَطْهِرْ
بِرَاءَتِكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ (٢) وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ ،
وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهَدَى . وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَأَثِرِ
الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالْمُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ
أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ (٣) عَزَّ
وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَخِذْهُ النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ . وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ
أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةٍ (٤) النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَنْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا
كَفَرُوا نِعْمَ اللَّهُ وَإِحْسَانَهُ وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ . وَدَعْ عَنْكَ
شَرَّ نَفْسِكَ وَلِتَكُنْ دَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدْخِرُ وَتَكْتُمُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ
الرُّعْيَةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ وَالتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِذِمَائِهِمْ وَالْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ . وَاعْلَمْ
أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتَنَزَتْ وَادْخَرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرُّعْيَةِ
وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذْيَةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا
الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَمِدَ فِيهَا الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ . فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ

(١) وفي بعض النسخ واضع الضعفاء .

(٢) وفي بعض النسخ وانعم بالعدل سياستهم .

(٣) وفي بعض النسخ وقلة اليقين لله .

(٤) وفي بعض النسخ جهلة النعمة .

الأموال في عمارة الإسلام وأهله . وَوَفَّرَ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفٍ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَمَهَّدَ مَا يُضْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّبْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ^(١) وَاسْتَوْجِبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خِرَاجِكَ وَجَمَعَ أَمْوَالَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ^(٢) وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ غَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَشْلَسَ لِبَطَاعَتِكَ وَأَطِيبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ^(٣) وَأَجْهَدَ نَفْسَكَ فِيمَا خَدَّدْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلِيُعْظَمَ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَتَيْنَهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْسِيكَ الدُّنْيَا وَعُرُورَهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَتَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ فَإِنَّ التَّهَاوُونَ يُورَثُ التَّقْرِيبُ وَالتَّقْرِيبُ يُورَثُ الْبُورَارَ . وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَارْجُ الثَّوَابَ فِيهِ ^(٤) فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ . وَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ يِزْدَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تَمَّاكِنَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرَحَّمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَّ كُفُورًا وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تَحْمَدَنَّ مَرَائِيًا وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحْسِنَنَّ بِاطِلًا وَلَا تَلَاخِظَنَّ مُضْحِكًا وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تَبَايِنَنَّ رِجَاءً وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا وَلَا تَفْرُطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعَنَّ ^(٥) لِلنِّعَامِ عَيْنًا وَلَا تَفْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا . وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ وَاسْتِعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ وَخُذْ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ . وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرِّفَةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فَسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّخِّ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ

(١) وفي بعض النسخ قرأت النعمة بك .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وكنت بذلك على جباية أموال رعييتك وخراجك أقدر .

(٣) وفي نسخة أخرى ، وطلب نفساً بكل ما أردت .

(٤) وفي نسخة أخرى منه .

(٥) وفي نسخة أخرى ترفع .

كثير الأخذ قليل العطيّة وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك^(١) إلا قليلاً فإن رعبتكم إنما تعقد على محبتكم بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم . وابتدىء^(٢) من صافاك من أوليائك بالإفصال عليهم وحسن العطيّة لهم . واجتنب الشخ وأعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه وإن العاصي بمنزلة خزى^(٣) وهو قول الله عز وجل « ومن يوق شخ نفسه فأولئك هم المفلحون »^(٤) فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيئك^(٥) خطأ ونصيهاً وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً . وتفقد الجند في دواوينهم ومكانتهم^(٦) وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتمهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وأنشراحاً . وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة في غذله وحيطته^(٧) وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزایل مكرهه أحد البائين باستشعار فضيلة^(٨) الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله تعالى نجاحاً وصلاًحاً وفلاحاً . وأعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض . وبإقامة العدل في القضاء والعمل تضح أحوال الرعية وتأمين السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدي حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها . واشتد في أمر الله عز

(١) وفي نسخة أخرى لم يستقم لك أمرك .

(٢) وفي نسخة أخرى ووال .

(٣) وفي نسخة أخرى الخزي .

(٤) أخر آية ١٦ من سورة التغابن .

(٥) وفي نسخة أخرى « في فيئك » .

(٦) وفي نسخة أخرى مكانهم .

(٧) وفي نسخة أخرى وعطيته .

(٨) وفي نسخة أخرى فضل .

وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ (١) وَأَمَضَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ . وَأَقْلَّ (٢) الْعَجَلَةَ وَأَبْعَدَ عَنِ
الضَّرِّ وَالْقَلْقِ وَأَقْنَعَ بِالْقَسَمِ وَأَنْتَفَعَ بِتَجْرِبَتِكَ وَأَنْتَبَهَ فِي صَمْنِكَ وَأَسَدَّدَ فِي مَنْطِقِكَ
وَأَنْصَبَ الْخَضَمَ وَقَفَّ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْحِجَّةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ
مُخَابَاةً وَلَا مُجَامَلَةً وَلَا لَوْمَةً لِأَنَّهُمْ وَثَبْتٌ وَتَأَنُّ وَرَأْبٌ وَأَنْظُرٌ وَتَنْكُرٌ وَتَدْبُرٌ وَأَعْتَبِرْ
وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَارْفُقْ بِجَمِيعِ الرُّعِيَّةِ وَسَلِّطِ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكَ
دَمٍ . فَإِنَّ الدَّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ أَنْتَهَا كَأَلْهَا يَغْيِرُ حَقَّهَا . وَأَنْظُرْ هَذَا
الْخِرَاجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرُّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَأَهْلِيهِ تَوْسِعَةً
وَمِنْعَةً وَلِعُدْوَهُ وَعَدُوَّهُمْ (٣) كِبْتًا وَغَيْظًا وَأَهْلِي الْكُفْرِ مِنْ مَعَادِيهِمْ ذَلًّا وَصَغَارًا فَوَزَعَهُ
بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ
لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِنَفَاةٍ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَّتِكَ
وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ لَهُ . وَلَا تَكْلُفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ . وَاحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ
عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعٌ لِنَفْسِهِمْ (٤) وَالزُّمُّ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ جَعَلْتَ
بِوَلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ لِأَنَّكَ رَاعَيْهِمْ
وَقَيَّمَهُمْ . فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أُعْطَوْكَ مِنْ غَفْوِهِمْ وَنَفَّذْهُ فِي قِيَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ
أُودِهِمْ . وَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَّ الرَّأْيِ وَالتَّذْيِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالجُبْرَةِ بِالْعِلْمِ وَالعَمَلِ (٥)
بِالسِّيَاسَةِ وَالعَفَافِ . وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا
تَقَلَّدْتَ وَأَسْنَدَ إِلَيْكَ فَلَا يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى
أَثَرْتَهُ وَقَمَّتْ فِيهِ بِالْوَاجِبِ اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النُّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحَسُنَ الْأَخْدُوثةُ فِي
عَمَلِكَ وَاجْتَرَرْتَ بِهِ المَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتَ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتِ الخَيْرَاتُ
بِبَيْلَدِكَ وَفُشِّتِ العِمَارَةُ بِنَاحِيَّتِكَ وَظَهَرَ الخُصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خِرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ

(١) النطفة . التلطف بالعيب .

(٢) وفي نسخة أخرى « وأقلل » .

(٣) في بعض النسخ لم ترد هذه الكلمة .

(٤) في بعض النسخ « لألفتهم » .

(٥) في بعض النسخ « والعدل » .

أَمْوَالِكَ وَقَوِيَّتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ
نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ
كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ . فَتَنَافَسَ ^(١) فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئاً تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ
أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُوْرَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِيناً يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ ^(٢)
عَمَلِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ
لَأَمُورِهِ كُلِّهَا . فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أُرِدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ
رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حَسْنَ الدَّفَاعِ وَالصَّنْعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ
عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ البَصْرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ فِيهِ عِدَّتَهُ فَإِنَّهُ رَبُّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ
وَقَدْرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى ^(٣) فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ
وَنَقَصَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ . فَاسْتَعْمِلِ الحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أُرِدْتَ وَبِأَشْرَهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
بِالقُوَّةِ . وَأَكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ . وَأَفْرغْ مِنْ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ
لِعَدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ اللُّغْدَ ^(٤) أُمُوراً وَحَوَادِثَ تُلْهِيكُ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ
الَّذِي أُخْرِتَ . وَاعْلَمْ أَنَّ اليَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أُخْرِتَ عَمَلُهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ
عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَشْقُوكَ ^(٥) ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ . وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ
بِدَنْكَ وَنَفْسِكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَانظُرْ أَخْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي القُضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ
بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى
أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنِ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ البِيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ
الحَاجَةُ وَاحْتَمَلَ مَوُونَتَهُمْ وَأَصْلَحَ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِخَلِيَّتِهِمْ مَساً ^(٦) وَأَفْرِدْ
نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ ^(٧) فِي أُمُورِ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقَارُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ

(١) في بعض النسخ « فتنافس »

(٢) في بعض النسخ « خير »

(٣) في بعض النسخ « وقدره وأتام على ما يهوى »

(٤) في بعض النسخ « الغير »

(٥) في بعض النسخ « فيشقلك »

(٦) في بعض النسخ « منافراً » بمعنى مفاخراً

(٧) في بعض النسخ « بالنظر »

وَالْمُخْتَفِرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلَّ عَنْهُ أَخْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكَّلَ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرَهُمْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُمْ وَحَالَاتِهِمْ^(١) إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُضْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ وَتَعَاوَدَ ذَوِي الْبِئْسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ^(٢) وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ لِيُضْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً . وَأَجْرٌ لِلْأَصْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدْ مَحَمَلَهُ الْقُرْآنُ مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَائِدِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصَبَ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا تَأْوِيهِمْ وَقَوْمًا يَرْفِقُونَ بِهِمْ وَأَطْبَاءٌ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ^(٣) فِي بَيْتِ الْمَالِ . وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ لَمْ يُرْضِيهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وِلَايَتِهِمْ طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرَّفْقِ مِنْهُمْ^(٤) . وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَيَشْغَلُ فِكْرَهُ وَذَهَنَهُ فِيهَا^(٥) مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مُؤَوْنَةٍ وَمَشَقَّةٍ . وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مَخَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقْرُبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ^(٦) وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأُتْرِزْلَهُمْ^(٧) وَجَهَكَ وَسَكَنَ لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بَشْرَكَ وَلَنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ وَاعْطِيفِ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ . وَإِذَا أُعْطِيَتْ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطَيْبِ نَفْسٍ وَالتَّمَاسِ لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا امْتِنَانٍ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالرِّئَاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأَمَمِ

(١) في بعض النسخ « وخالاهم » .

(٢) في بعض النسخ « ويتامهم » .

(٣) في بعض النسخ « مسرف » .

(٤) في بعض النسخ « بهم » .

(٥) في بعض النسخ « ويشغل ذكره وفكره منها » .

(٦) في بعض النسخ « يستقل ما يقربه من الله تعالى . وتلتمس به رحمته .

(٧) في بعض النسخ « وأرهم » .

الْبَائِدَةَ . ثُمَّ اغْتَصِمَ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ
وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتِنَابِ مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا
إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عَمَّا لَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا
تَجْمَعُ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا . وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ
وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِيشَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ
دُخْلَانِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى غَيْبًا فَبِكَ لَمْ تَمْنَعُهُ هَيْبَتِكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ
إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ^(١) . بِمَا فِيهِ مِنَ النُّقْصِ فَإِنَّ أَوْلَكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَانِكَ
وَمُظَاهِرُونَ لَكَ^(٢) . وَانظُرْ عَمَّا لَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَابِكَ فَوْقَتْ لِكُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ
عَمَّا لَكَ وَأُمُورِ الدُّوَلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورَدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصْرَكَ
وْفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَكِرْرَ النَّظَرِ فِيهِ وَالتَّدْبِيرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمُضِهِ
وَاسْتَخِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالَفًا لِذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ وَالتَّشْبِثِ
مِنْهُ وَلَا تَمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ تُوْتِيهِ إِلَيْهِمْ . وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ امِيرِ^(٣) الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى
ذَلِكَ . وَتَقَمَّهِمْ كِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعْمِنْ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ
أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ
رَعِيَّتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَضَى وَلِدِينِهِ نِظَامًا وَأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكِينًا وَلِلْمِلَّةِ
وَالذِّمَّةِ^(٤) عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَتَكَ
وَالسَّلَامَ . وَحَدَّثَ الْإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أَعْجَبَ بِهِ النَّاسَ
وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُورِينَ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ مَا أَنْبَى أَبُو الطَّيِّبِ يَعْني طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ
أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحَفِظَ

(١) في بعض النسخ « في ستر . وإعلامك . . . »

(٢) في بعض النسخ « ومظاهريك » .

(٣) لم ترد هذه الكلمة في بعض النسخ .

(٤) اللمة : الإسلام . وأهل الذمة : أهل الكتاب من يهود ونصارى وقد دخلوا في ذمة الإسلام وحمايتهم .

السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ
فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي النَّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَحْسَنُ
مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثالث والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِذْ عَلِمَ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَمَرِ الْأَعْيَارِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي
آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظَهْوَرِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤَيِّدُ الدِّينَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَتَّبِعُهُ
الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ
الدُّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطٍ ^(١) السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصُّبْحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عَيْسَى
يَنْزِلُ مِنْ بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الدُّجَالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيُسَاعِدُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتُمُّ بِالْمَهْدِيِّ فِي
صَلَاتِهِ وَيَخْتَجُونَ فِي الشَّانِ بِأَحَادِيثَ خَرَجَهَا الْأَيْمَةُ وَتَكَلَّمَتْ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ
وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعْضِ الْأَخْبَارِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةَ
أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ الْاِسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَعْتمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكَشْفِ الَّذِي هُوَ أَضَلُّ
طَرِيقَتِهِمْ . وَنَحْنُ الْآنَ نَذَكُرُ هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّانِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ
فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِنِ وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنَدِ ثُمَّ نَتَّبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ
وَدَأْيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ الصُّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَيْمَةِ
خَرَجُوا أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ التُّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالْبِرْزَالِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِيُّ
وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو يَعْقُبِ الْمَوْصِلِيُّ وَأَسْتَدُّوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصُّحَايَةِ مِثْلَ عَلِيِّ وَابْنِ
عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمَرَ وَطَلْحَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَأُمِّ
حَبِيبَةَ وَأُمِّ سَلْمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ بِنِ إِيَّاسٍ وَعَلِيَّ الْهَلَالِيِّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ

(١) علامات

جزءً بأسانيد رُبَمَا يُعْرَضُ لَهَا الْمُنْكَرُونَ كَمَا نَذَكْرُهُ إِلَّا أَنْ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ
 الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ
 بِغَفْلَةٍ أَوْ بِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ سُوءِ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ
 مِنْهَا وَلَا تَقُولُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ
 فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةٌ وَأَحْسَنُ
 دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثْلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجَدَّدَ مَجَالًا لِلْكَلَامِ فِي أُسَانِيدِهَا
 بِمَا نَقَلَ عَنِ أُثْمَةَ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ .

وَلَقَدْ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نَقَلَ السُّهَيْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ
 لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرِبِهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ
 فِي فَوَائِدِ الْأَخْبَارِ مُسْتَنِدًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَذَّبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَّبَ بِالذَّجَالِ فَقَدْ
 كَذَّبَ ^(١) وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسَبُ وَحَسْبُكَ هَذَا
 غُلُوبًا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنْ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافُ
 عِنْدَهُمْ مُتَّهَمٌ وَضَاعٌ .

وَأَمَّا التُّرْمِذِيُّ فَجَرَّحَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ
 عَاصِمِ بْنِ أَبِي النُّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى
 يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ اسْمُ
 أَبِي . هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ
 فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَلَفْظُ التُّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلًا مِنْ
 أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَفِي لَفْظِ آخَرَ حَتَّى يَلِيَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي
 وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ مُوقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ « فَقَدْ كَفَرَ » .

الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ ،
 وَطَرَقَ عَاصِمٌ عَنْ زُرَّعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلِّهَا صَحِيحَةً عَلَى مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ
 عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنَ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ (انْتَهَى) إِلَّا أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ
 حَنْبَلٍ ، كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ
 يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيهِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ فِي زُرَّ
 وَأَبِي وَإِلَّا يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ كَانَ ثِقَةً إِلَّا
 أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطْبِ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ
 الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِبْنِ زُرَّعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةً فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ
 هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُثَيْمٍ فَقَالَ كُلُّ مَنْ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ الْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ
 مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصَّدِيقِ صَالِحِ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظِ وَاخْتَلَفَ فِيهِ
 قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ خُرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ
 إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ
 رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا
 عَاصِمٌ بْنُ أَبِي النَّجُودِ فِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَّتَ فِي الْفِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ
 الْحَدِيثِ . وَإِنْ ائْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخِينَ أَخْرَجَا لَهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُونًا بغيره
 لَا أَضْلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رَوَايَةِ قَطَنَ بْنِ خَلِيفَةَ
 عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ، « لَوْلَمْ
 يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ
 جَوْرًا » وَقَطَنُ ^(١) بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ مِعِينٍ
 وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعِجْلِيَّ قَالَ ، حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيَعٌ قَلِيلٌ ، وَقَالَ ابْنُ
 مِعِينٍ مَرَّةً ، ثِقَةً شَيْعِيٌّ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ ، كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قَطَنَ
 وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتَبُ عَنْهُ . وَقَالَ مَرَّةً ، كُنْتُ أَمْرُ بِهِ وَأَدَعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ . وَقَالَ

(١) وفي نسخة أخرى فطر بن خليفة .

الدَارِقُطْنِي ، لَا يُخْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ ، مَا تَرَكْتُ الرَّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا
 لِسُوءِ مَذْهَبِهِ . وَقَالَ الْجَرَّجَانِيُّ ، زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَةٍ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ
 إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْمُعْبِرَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ
 شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ التَّنَسِينِيِّ قَالَ ، قَالَ عَلِيُّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ
 الْحَسَنِ إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ
 يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ
 هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ
 هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ الشَّهْرِ
 يُقَالُ لَهُ الْخَارِثُ عَلَى مَقْدَمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّئُ أَوْ يُمَكِّنُ لَالَ مُحَمَّدٍ
 كَمَا مَكَّنْتَ قُرَيْشًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَبَّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ »
 سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ ، هُوَ مِنْ وُلْدِ الشَّيْعَةِ . وَقَالَ
 السُّلَيْمَانِيُّ ، فِيهِ نَظَرٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ ، لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ
 خَطَأً . وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ، صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ . وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْعِيُّ وَإِنْ خَرَجَ عَنْهُ فِي
 الصَّحِيحِينَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ وَرَوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ . وَكَذَلِكَ
 رَوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُعْبِرَةَ . وَأَمَّا السُّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ
 وَهَلَالُ بْنُ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفِ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رَوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ
 عَنْهُ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ^(١) مِنْ
 طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ نَفِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ، « الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ » وَلَفْظُ الْحَاكِمِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ ، « نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ » وَلَمْ يَتَكَلَّمْ
 عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ ، لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ
 نَفِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ مِنْ رَوَايَةِ صَالِحِ

(١) وردت هذه الجملة في نسخة أخرى كما يلي : « وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجة

والحاكم في المستدرک . . . »

أبي الخليل^(١) عن صاحب له عن أم سلمة قال : يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبأيعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال^(٢) أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبأيعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخبيثة لمن لم يشهد غنيمه كلب فيقسم المال ويعمل في الناس سنة نبهم ﷺ ويلقى الإسلام بجرانه على الأرض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة فتبين بذلك المذهب في الإسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وفتادة مدلس وقد عنفته والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع . مع أن الحديث ليس فيه تصريح يذكر المهدي نعم ذكره أبو داود في أبوابه . وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني أجلي الجبهة اثنى^(٣) الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين » هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم : « المهدي منا أهل البيت أشم الأنف اثنى أجلي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يعيش هكذا ويستط يساره واضبعين من يمينه السبانية والإبهام وعقد ثلاث^(٤) » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هـ . وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به إنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلاً وكان يخشى القطان لا يحدث عنه وقال يخشى بن معين : ليس بالقوي وقال مرة : ليس بشيء . وقال أحمد بن حنبل

(١) وفي نسخة أخرى صالح بن الخليل .

(٢) الأبدال ، الأولياء .

(٣) اجلي الجبهة ، واسع الجبهة . اثنى الأنف ، مرتفع أعلاه . محذوب في الوسط .

(٤) وفي نسخة أخرى : « وعقد ثلاثة » .

أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ الْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا^(١) وَكَانَ يَرَى
السَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلَةِ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْآجُرِيُّ : سَأَلْتُ أَبَا
دَاوُدَ عَنْهُ . فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا . وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى
ذَكَرَهُ فَقَالَ : ضَعِيفٌ أَقْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ بَقْتَوَى شَدِيدَةً فِيهَا
سَفَكَ الدَّمَاءَ . وَخَرَجَ التُّرْمُذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ مِنْ
طَرِيقِ زَيْدِ الْعَمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ : خَشِينَا أَنْ
يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيِّ
يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خُمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا » زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قَلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ
سَيِّئٌ ! قَالَ : « فَيَجِيءُ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيْ أَعْطِنِي » قَالَ : « فَيُخْشَوُ لَهُ
فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ » لَفْظُ التُّرْمُذِيِّ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى
مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ : « يَكُونُ
فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَنَعَ وَإِلَّا فَتَسَعَ فَتَنَعَمَ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةٌ لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا
قَطُّ تَوْتَى الْأَرْضِ أَكَلَهَا وَلَا يُدْخِرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ
فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيْ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ . » إِنْتَهَى . وَزَيْدُ الْعَمِيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ
الِدَارُ قُطْنِي وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ
يَزِيدِ الرُّقَاشِيِّ وَفَضْلُ بْنُ عَيْسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ : ضَعِيفٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ
وَلَا يَخْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : لَا شَيْءَ . وَقَالَ مَرَّةً
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : مُتَمَسِّكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ :
بِقَوِيٍّ وَاهِي الْحَدِيثِ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَلِكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ .
وَقَالَ النَّسَائِيُّ : ضَعِيفٌ وَقَالَ ابْنُ عَدِي : غَامَةٌ مَا يَرُويهِ وَمَنْ يَرُوي عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ
عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ شُعْبَةَ لَمْ يَرَوْا عَنْ أَوْعَفٍ مِنْهُ .

وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ التُّرْمُذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ

(١) نسبة إلى حروراء بلدة قرب الكوفة والحروورية فرقة من الخوارج .

حَدِيثُ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَخْشُو
 الْمَالَ خَشْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا » وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : « مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ
 يَخْشُو الْمَالَ خَشْوًا » وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ
 يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ » انْتَهَى . وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَفَعْ فِيهَا ذِكْرَ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلَ
 يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ مِنْهَا . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَغْرَابِيِّ عَنْ أَبِي
 الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ
 السَّاعَةُ حَتَّى تَمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعَدْوَانًا ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ
 يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتُ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا » وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ : هَذَا صَحِيحٌ عَلَى
 شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ
 أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
 « يُخْرَجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ وَتُخْرَجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَيُعْطَى
 الْمَالَ صِحَاحًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ يَعْيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا » يَعْنِي حِجَابًا
 وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ . مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُخْرَجْ
 لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ
 الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ
 وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تَمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيُخْرَجُ رَجُلٌ مِنْ عَمْرَتِي فَيَمْلِكُ
 سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا » وَقَالَ الْحَاكِمُ
 فِيهِ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ
 شَيْخِهِ مَطَرِ الْوَرَّاقِ . وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخْرَجْ لَهُ . وَهُوَ
 ضَعِيفٌ جَدًّا مُتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأَيْمَةِ فِي تَضْعِيفِهِ . وَأَمَّا
 الرَّاوي لَهُ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يُلقَّبُ أَسَدَ السَّنَةِ وَإِنْ قَالَ
 الْبُخَارِيُّ : مَشْهُورٌ الْحَدِيثِ وَاسْتَشْهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ . وَاسْتَحْتَجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ

إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى ، ثِقَّةٌ لَوْلَمْ يُصَنَّفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ . وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ ،
 مُنْكَرُ الْحَدِيثِ . وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاصِلِ عَبْدِ
 الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ
 بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَخْرُجُ
 رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسُنَّتِي يُنْزِلُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا لَهُ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرَجُ
 الْأَرْضُ بِرِكَتِهَا وَتَمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتَ جَوْرًا وَظُلْمًا يَفْعَلُ عَلَى
 هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيَنْزِلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ » وَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ : فِيهِ رِوَاةُ جَمَاعَةٍ
 عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ
 فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنْتَهَى . وَهَذَا الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ
 ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَعْرِفْهُ بِأَكْثَرٍ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 وَرِوَايَةِ أَبِي الصَّدِيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ : إِنَّهُ مَجْهُولٌ . لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ
 حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ فَلَمْ يُخْرَجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ
 السُّنَّةِ . وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ : يُرْوَى عَنْ أَنَسِ
 رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخُرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ
 بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ فَتَيْتَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا رَأَاهُمْ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالَ نَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا
 نَكْرَهُهُ فَقَالَ : « إِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْأَجْرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنْ أَهْلُ بَيْتِي
 سَيَلْفُونَ بَعْدِي بَلَاءٌ وَتَشْرِيدًا وَتَطْرِيدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ
 رَايَاتٌ سَوْدٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَمَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا
 يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا
 فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِيهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ » أَنْتَهَى .

وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ . وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي

زياد زاويه قال فيه شعبته ، كان رفاعاً يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف
 مرفوعة . وقال محمد بن الفضيل : من كبار أئمة الشيعة . وقال أحمد بن
 حنبل : لم يكن بالحافظ وقال مرة : حديثه ليس بذلك . وقال يحيى بن
 معين : ضعيف . وقال العجلي : جازئ الحديث ، وكان بإخيه يلقن : وقال أبو
 زرعة : لئن يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال أبو حاتم : ليس بالقوي . وقال
 الجرجاني : سمعتهم يضعفون حديثه . وقال أبو داود : لا أعلم أحداً ترك حديثه
 وغيره أحب إلي منه . وقال ابن عدي هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب
 حديثه . وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره . وبالجملة فالأكثر على ضعفه .
 وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد
 الله وهو حديث الرائيات . وقال وكيع بن الجراح فيه : ليس بشيء . وكذلك
 قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن
 إبراهيم في الرائيات لو خلف عندي خمسين يمينا أسامة^(١) ما صدقته أهدا مذهب
 إبراهيم ؟ أهدا مذهب علقمة ؟ أهدا مذهب عبد الله ؟ وأورد العجلي هذا الحديث
 في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح . وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه
 من رواية ياسين العجلي عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال
 قال رسول الله ﷺ : « المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة » .

وياسين العجلي وإن قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه
 نظر . وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا . وأورد له ابن عدي في
 الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف
 به . وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال
 للنبي ﷺ « أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله ؟ » فقال : « بل منا بنا
 يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله قلوبهم بعد

(١) في نسخة أخرى ، قامة .

عَدَاوَةٌ بَيِّنَةٌ كَمَا بَيَّنَّا أَلْفَ بَيْنِ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ الشَّرِكِ . « قَالَ عَلِيُّ ، « أُمُومَنُونَ
 أَمْ كَافِرُونَ ؟ » قَالَ ، « مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُهَيْبَةَ وَهُوَ
 ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الْحَالِ . وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرِ الْخَضْرَمِيِّ وَهُوَ أَوْعَفُّ مِنْهُ . قَالَ
 أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، زُوِيَ عَنْ جَابِرٍ مَنَّاكِيرٌ وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ،
 لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ لُهَيْبَةَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ ، « عَلِيُّ فِي
 السُّحَابِ » وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُنْصِرُ سَحَابَةً فَيَقُولُ ، « هَذَا عَلِيُّ قَدْ مَرَّ فِي
 السُّحَابِ » وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ ، « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْضُلُ النَّاسَ فِيهَا كَمَا يَحْضُلُ
 الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سُبُوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمُ الْإِبْدَالَ »^(١)
 يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُفْرَقُ جَمَاعَتُهُمْ حَتَّى لَوْ قَاتَلْتَهُمُ
 الثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمَكْتَبَرُ
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقْلُ يَقُولُ بِهِمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَارَتُهُمْ « امْتِ امْتِ »^(٢)
 يَلْقَوْنَ سَنَعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمَلِكَ فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
 وَيَرْدُّ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الْإِقْتَمَ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ^(٣) هـ .

وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُهَيْبَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي
 الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِمِيُّ فَيَرْدُّ اللَّهُ
 النَّاسَ إِلَى الْإِقْتَمِ الْحِ وَالْيَسِ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لُهَيْبَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ .
 وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ
 مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ ، « كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمُهَيْدِيِّ
 فَقَالَ لَهُ ، هَيْهَاتَ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ
 اللَّهُ اللَّهُ قَتِلْ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَرَعًا^(٤) كَقَرَعِ السُّحَابِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا

(١) الأولياء .

(٢) هذه الكلمة كانت كلمة السر بين أفراد المسلمين في غزوة بدر .

(٣) في نسخة أخرى ، « رايتهم » .

(٤) أي أفواجاً .

يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ لَمْ
يَسْبِقَهُمُ الْأَوْلُونَ وَلَا يُنْذِرُكُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا
مَعَهُ النَّهْرَ . قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ قَالَ ابْنُ الْخَنْفِيَّةِ ، أْتَرِيدُهُ ؟ قُلْتُ ، نَعَمْ . قَالَ ، فَإِنَّهُ
يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخْشَيْنِ ^(١) قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعُهَا حَتَّى أَمُوتَ «
وَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ قَالَ الْحَاكِمُ ، « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ » .
وَأَمَّا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطُّ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارَ الدَّهَبِيِّ ^(٢) وَيُونِسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ
وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ
اِحْتِجَاجًا بَلِ اسْتِشْهَادًا مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَشْيِيعِ عَمَّارِ الدَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثِقَهُ
أَحْمَدُ وَابْنُ مِعِينٍ وَأَبُو حَاتِمِ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ ^(٣) عَنْ
سَفْيَانَ أَنَّ بُشَيْرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عَرْقُوبِيَّةَ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ ، فِي التَّشْيِيعِ .
وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ
الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادِ الْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ، « نَحْنُ وَوَلَدُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْرَةَ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمُهَدَّبِيُّ » . انْتَهَى .
وَعِكْرَمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابِعَةٌ . وَقَدْ ضَعَفَهُ
بَعْضُ وَوَثِقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمِ الرَّازِيُّ ، هُوَ مَدْلَسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصْرَحَ
بِالسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ . قَالَ الدَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ ، لَا نُنْذِرِي مَنْ هُوَ ، ثُمَّ قَالَ
الصُّوَابُ فِيهِ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثِقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي
شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مِعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثُّورِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَى
يُفْتِي فِي مَسَائِلَ وَيُخْطِئُ فِيهَا . وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ ، كَانَ مِنْ فَحَشِ عَطَاوَةٍ فَلَا
يُحْتَجُّ فِيهِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، سَعِيدٌ ^(٤) بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يُدْعَى أَنَّهُ سَمِعَ عَرْضَ

(١) « الجبلان المطيفان بمكة وهما ، أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مشرف وجهه على قعيقان » .

(٢) وفي نسخة أخرى « عمارة الدهني » .

(٣) وفي نسخة أخرى « علي بن المديني » .

(٤) وفي نسخة أخرى « سعد بن عبد الحميد » .

كُتِبَ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ هُنَا يَبْغِضَادَ لَمْ يُحْتَجَّ (١) فَكَيْفَ
 سَمِعَهَا ؟ وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي
 مُسْتَدْرِكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مُؤَوِّفًا عَلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ
 عَبَّاسٍ : لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَقَالَ
 مُجَاهِدٌ : فَإِنَّهُ فِي سِتْرٍ لَا أَدْكُرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ
 أَرْبَعَةٌ مِنَ السَّفَاحِ وَمِنَا الْمُنْذِرُ وَمِنَا الْمَنْصُورُ وَمِنَا الْمَهْدِيُّ » قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ : بَيَّنْ
 لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَفَا عَنْ
 عَدُوِّهِ . وَأَمَّا الْمُنْذِرُ أَرَاهُ قَالَ فَإِنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاطَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ
 الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَإِنَّهُ يُعْطَى النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشُّطْرِمَا كَانَ يُعْطِي
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ
 عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَتَأْمَنُ
 الْبَهَائِمُ السَّبَاعَ وَتَلْقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا » . قَالَ : « قُلْتُ وَمَا أَفْلَادُ كَيْدِهَا ؟ »
 قَالَ : « أَمْثَالُ الْأَسْطُوَانَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » . وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ
 الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ
 وَإِسْمَاعِيلَ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسَلِّمٌ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ .
 وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَقْتَبِلُ عِنْدَ
 كَيْبَرِكُمْ (٢) ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطَّلِعُ الرِّيَاضُ
 السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ » ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ :
 « فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ خَبُوا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ » . ١ هـ .

وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ إِلَّا أَنْ فِيهِ أَبَا قِلَابَةَ الْجَزْمِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ
 أَنَّهُ مُدَلِّسٌ وَفِيهِ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالتَّدْلِيسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنَنْ وَلَمْ
 يُصْرِّحْ بِالسَّمَاعِ فَلَا يَقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعَمِي

(١) وفي نسخة أخرى « لم يحج » .

(٢) وفي نسخة أخرى « كزركم » .

فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِي : « حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا
 أَحَدٌ » وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ . اِنْتَهَى . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ
 جَزْءِ الزَّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهَيْعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرِ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ
 الْمَشْرِقِ فَيُؤْتَبُونَ لِلْمَهْدِيِّ » . يَعْنِي سُلْطَانَهُ . قَالَ الطَّبْرَانِيُّ : تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ
 وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيِّ الَّذِي خَرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ
 لَهَيْعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أضعفُ مِنْهُ وَخَرَجَ الْبِزْرَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ
 وَالتَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَنَعَ وَالْأَقْمَانُ وَالْأَقْسَعُ
 تَنَعَمَ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنَعَمُوا بِمِثْلِهَا تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَلَا تَدْخُرُ الْأَرْضُ
 شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالِ كُدُوسٍ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ » .
 قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبِزْرَارِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَجَلِيُّ زَادَ الْبِزْرَارِيُّ . وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ
 تَابِعُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثِقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حَبَّانَ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ
 فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو
 زُرْعَةَ : لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ : رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ
 مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكُتِبَ
 بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعْفُهُ . وَخَرَجَهُ أَبُو يُعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي
 هُرَيْرَةَ وَقَالَ : « حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى
 يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ :
 وَكَمْ يَمْلِكُ ؟ قَالَ : خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أُدْرِي » .
 وَهَذَا السُّنْدُ غَيْرُ مُخْتَجٍ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بِشِيرُ بْنُ نَهْيِكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ
 لَا يُخْتَجُ بِهِ فَقَدْ اخْتَجَّ بِهِ الشُّيْخَانُ وَوَثِقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ
 لَا يُخْتَجُ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءٌ ^(١) ابْنُ أَبِي رَجَاءِ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ

(١) وفي نسخة أخرى : « إلا أن فيه رجاء » .

أَبُو زُرْعَةَ ثِقَّةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ
 مَرَّةً ، صَالِحٌ . وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا . وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ
 فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قَرَّةَ بْنِ إِيَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ : « لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مَلَكَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا
 مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَكَتْ جَوْرًا
 وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَدْخُرُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ
 سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا » . يَعْنِي سَبْعِينَ . ١ هـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّبِ بْنِ
 الْمُحَرَّمِ ^(١) عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ
 ابْنِ عَمَرَ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
 وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاخَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ
 الْأَنْصَارِ فَأَعْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ »
 وَقَالَ : « سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا فَتَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ
 هَذَا فَتَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ
 يُقْبَلُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمُهَدِيِّ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 عَمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُهَيْعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . ١ هـ .

وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى
 يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فَلَانٌ . ١ هـ . وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ
 ضَعِيفٌ جِدًّا . وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَضْرِيحٌ يَذْكَرُ الْمُهَدِيَّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَنْبَاءِهِ
 وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِثْنَاءً . فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَهَا الْأَيْمَةُ فِي شَأْنِ الْمُهَدِيِّ
 وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ . وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ
 مِنْهُ . وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُتَنَكِّرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الْجُنْدِيِّ عَنْ
 أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، دَاوُدُ بْنُ الْجَبْرِ بْنِ قَعْدَمٍ

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ، « لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ » وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدِ الْجَنْدِيِّ ، إِنَّهُ ثَقَّةٌ ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ ، تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ . وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ ، إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ^(١) كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ^(٢) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ ، فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنْ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ . وَقَدْ قِيلَ « أَنْ لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى » أَي لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْسَى يُحَاوِلُونَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ رَدَّ الْاِخْتِجَاحِ بِهِ أَوْ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ . وَأَمَّا الْمُتَّصِفَةُ فَلَمْ يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْمُجَاهَدَةِ بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتَائِجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضِيَّةِ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْضِيلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَأَدْعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالتَّبْرُءِ مِنَ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّالِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ . وَجَاءَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْبِيَّةَ الْإِمَامَ بِنَوْعٍ مِنَ الْخُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ مِنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعِ التَّنَاسُخِ ، وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيءَ مَنْ يَقْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدْلِينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَفِيهَا وَرَاءَ الْحِسِّ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْخُلُولِ وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضِيَّةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْبِيَّةِ الْأَئِمَّةَ وَخُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ .

وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَأَنَّهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ الرَّافِضِيَّةِ فِي

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : يَرُوي .

الإمام والتُّقْبَاء . وَأَشْرَبُوا أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ وَتَوَعَّلُوا فِي الدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ ، حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَنَدَ طَرِيقِهِمْ فِي لُبْسِ الخُرْقَةِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا الحَسَنَ البَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ العَهْدَ بِالتَّزَامِ الطَّرِيقَةِ . وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالجَنْبِ مِنْ شِيُوخِهِمْ . وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عَلِيٍّ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بَلِ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَةٌ فِي طَرِيقِ الهُدَى وَفِي تَخْصِيصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهم رَاحَةً مِنْ التَّشْيِيعِ قُوَّةً يُفْهَمُ مِنْهَا وَمَنْ غَيْرَهَا مِنَ القَوْمِ دَخَلَهُمْ^(١) فِي التَّشْيِيعِ وَأَنْخَرَطَهُمْ فِي سَبْلِكِهِ . وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضاً القَوْلُ بِالقُطْبِ وَامْتَلَأَتْ كُتُبُ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضِيَّةِ وَكُتُبُ المُتَأَخِّرِينَ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الفَاطِمِيِّ المُتَنْظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمْلِيهِ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْقَنُهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ المُنْجِمِينَ فِي القِرَانَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الكَلَامِ فِي المَلَاحِمِ وَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيْهَا فِي البَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا . وَأَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ هَؤُلَاءِ المُتَصَوِّفَةُ المُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ الفَاطِمِيِّ . ابْنُ العَرَبِيِّ . الحَاثِمِيُّ فِي كِتَابِ (عَقْدَاءِ مُعْرَبٍ) وَابْنُ قَسِيٍّ فِي كِتَابِ (خَلْعِ النُّعْلَيْنِ) وَعَبْدُ الحَقِّ بَنُ سَعِيدٍ وَابْنُ أَبِي وَاصِلٍ^(٢) تَلْمِيذُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ (خَلْعِ النُّعْلَيْنِ) . وَأَكْثَرُ كَلِمَاتِهِمْ فِي شَأْنِهِ أَلْفَاظٌ وَأَمْثَالٌ وَرُبَّمَا يُصْرِّحُونَ فِي الأَقْلِ أَوْ يُصْرِّحُ مَفْسَرُو كَلَامِهِمْ . وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الحَقُّ وَالهُدَى بَعْدَ الصَّلَاةِ وَالعَمَى وَأَنَّهَا تَعَقَّبُهَا الخِلَافَةُ ثُمَّ يَتَقَبَّ الخِلَافَةُ المُلْكُ ثُمَّ يَعُودُ تَجَبُّراً وَتَكَبُّراً وَبَاطِلاً . قَالُوا ، وَلَمَّا كَانَ فِي المَعْهُودِ مِنْ سُنَّةِ اللهُ رُجُوعَ الأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجِبَ أَنْ يَخْبَأَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْحَقُّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ يَخْلَافَتَا ثُمَّ يَتَقَبَّبَا الدُّجْلَ مَكَانَ المُلْكِ وَالتَّسْلُطِ ثُمَّ يَعُودُ الكُفْرُ بِحَالِهِ . يُشِيرُونَ بِهَذَا لِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النُّبُوَّةِ وَالخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالمُلْكِ بَعْدَ الخِلَافَةِ . هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ . وَكَذَلِكَ الوِلَايَةُ الَّتِي هِيَ لِهذا الفَاطِمِيِّ وَالدُّجْلُ بَعْدَهَا كِنَايَةٌ عَنِ خُرُوجِ الدُّجَالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالكُفْرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . فَهِيَ ثَلَاثُ

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى . يَفْهَمُ مِنْهَا وَمَنْ غَيْرَهَا مِمَّا تَقَدَّمَ دَخُولِهِمْ .

(٢) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى . ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ .

مَرَاتِبَ عَلَى نِسْبَةِ الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى . قَالُوا ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ
حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالإِجْمَاعِ الَّذِي لَا يُوهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ يُزَاوِلُ عِلْمَهُ وَحَبُّ أَنْ تَكُونَ
الإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَحْصَى مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، إِمَّا ظَاهِرًا كُنِينِي عِنْدَ الْمُطَلِّبِ
وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِلِ . وَالْأَلَّ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يُلَقَّبْ ^(١) مَنْ
هُوَ آلُهُ .

وَإِنَّ الْعَرَبِيَّ الْحَاتِمِيَّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ « عَنقَاءٌ مُغْرَبٌ » مِنْ تَأْلِيْفِهِ ، خَاتِمَ
الأَوْلِيَاءِ وَكُنِيَ عَنْهُ بِلُبْنَةِ الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبَحَارِيِّ فِي بَابِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ
قَالَ ﷺ : « مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى
إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ لُبْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ » فَيُفَسَّرُونَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ بِاللُّبْنَةِ
حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبَيْتَانَ وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النَّبُوءَةُ الْكَامِلَةُ . وَيُمَثِّلُونَ
الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا بِالنُّبُوءَةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ
حَائِزَ الرَّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ
خَاتِمَةُ النَّبُوءَةِ . فَكُنِيَ الشَّارِحُ ^(٢) عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةِ بِلُبْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ
الْمَذْكُورِ .

وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِمَا . فَهِيَ لُبْنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمْثِيلِ . فَفِي النَّبُوءَةِ لُبْنَةٌ
ذَهَبٌ وَفِي الْوِلَايَةِ لُبْنَةٌ فَضَّةٌ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ الرَّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيَّنَّ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ .
فَيَجْعَلُونَ لُبْنَةَ الذَّهَبِ كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلُبْنَةَ الْفِضَّةِ كِنَايَةً عَنِ هَذَا الْوَلِيِّ
الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَذَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا
نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ
وظَهْرُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ (خ ف ج) مِنَ الْهَجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ
عَدْدَهَا بِحِسَابِ الْجُمْلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقِ سِتِّمَائَةٍ وَالْفَاءُ أُخْتُ
الْقَافِ بِشَمَانِينَ وَالْحِيمُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ ثَلَاثَةٍ وَذَلِكَ سِتِّمَائَةٌ وَثَلَاثٌ
وَسِتِّمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقَرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا انْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلٌ ذَلِكَ

(١) وفي نسخة أخرى ، لم يلقب .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الشارح .

بعض المُقلِّدين لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلَدَهُ وَعَبَّرَ بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلَدِهِ وَأَنَّ
خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ السَّبْعِمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ . قَالَ :
« وَإِذَا كَانَ مَوْلَدُهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمْرُهُ
عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً » قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ
وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ
النَّبِيِّ ﷺ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ » قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ فِي شَرْحِهِ كِتَابَ (خَلْعِ
النُّعْلَيْنِ) الْوَلِيِّ الْمُنتَظَرِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمَشَارِ إِلَى يَوْمِ بِمُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ وَخَاتَمِ
الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ ابْتِغَاءَ رُوحَهُ وَحَبِيبُهُ . قَالَ ﷺ :
« الْعَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ » . وَقَالَ : « عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَزَلْ
الْبُشْرَى تَتَابِعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قُبَيْلِ الْخُمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ وَتَأَكَّدَتْ
وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَاحِجِ بِتَقْرِيْبِ وَقْتِهِ وَازْدِلَافِ زَمَانِهِ مُنْذُ انْقَضَتْ إِلَى هَلُمِّ
جَرًّا » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ : « أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ
وَيَجِدُّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَّةٍ فَيَفْتَحُهَا
وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَقَوَّى
الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلَمُوا الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ دِينَ الْخَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ
الْعَصْرِ وَقْتُ صَلَاةٍ » قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتُ » وَقَالَ
الْكِنْدِيُّ أَيْضًا : « الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمَفْتَحُ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ
جُمْلَةً عَدَدُهَا سَبْعِمِائَةٌ وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَنَعٌ دَجَالِيَّةٌ ^(١) ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى فِي وَقْتِ
صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصَلِّحُ الدُّنْيَا وَتَمُشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ ثُمَّ مَبْلَغٌ ^(٢) مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ مَعَ عَيْسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدَ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ (ق ي ن) دَوْلَةٌ
الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى
فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِي تُسَاوِي هِدَايَتَهُ وَلَا يَتَّهَى وَقِيلَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْسَى وَهَذَا

(١) نسبة إلى دجال .

(٢) وفي نسخة أخرى : ثم يقبض .

مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً يَعْني قَرَشِيًّا » .

وَقَدْ أُعْطِيَ الْوُجُودُ أَنْ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَقَالَ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتُّ وَثَلَاثُونَ وَانْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ وَأَوَّلِ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةَ أَخْدَا بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْبَاقُونَ خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : « إِنَّكَ لَنَدُو قَرْنَيْهَا » يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيَّ إِنَّكَ لَخَلِيفَةٌ فِي أَوْلِيهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا . وَرُبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرُّجْعَةِ . فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . وَقَدْ قَالَ ﷺ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اتَّفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِي يَهْلِكُ قَيْصَرٌ وَيَنْفَقُ كُنُوزُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ : فَنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ .

كَذَا قَالَ ﷺ : « وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بِضْعٌ » وَالْبُضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرٍ وَجَاءَ ذِكْرُ أَرْبَعِينَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ . وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّةُ وَمُدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةَ الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمُ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَصْحَابُ النُّجُومِ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ أَمْرِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكًا » انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « تَرُؤَلُ عَيْسَى يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعَهُ » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجَهْرِ الَّذِي

ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ ، « أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الثُّورِ عَلَى رَأْسِ صَخٍ بِحَرْفَيْنِ الصَّادِ (١) الْمُعْجَمَةِ وَالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ » يُرِيدُ ثَمَانِيَةَ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ نَزَلَ الْمَسِيحُ فَيُخَكِّمُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حُلَّتَيْنِ مُزَعَمَتَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ مُمَصَّرَتَيْنِ وَأَضْعَا كَفَيْهِ عَلَى أُجْنَحَةِ الْمَلَائِكِينَ لَهُ لَمَةٌ كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ كَثِيرٍ حَيْلَانَ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعِ الْخُلُقِيِّ وَإِلَى الْبَيْضِ وَالْحُمْرَةِ . وَفِي آخَرَ ، أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ . وَالْغَرْبُ دَلُؤُ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ . وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا . وَجَاءَ أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُخَشِرَانِ بَيْنَ نَبِيِّنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِئِلٍ ، « وَالشَّيْعَةُ تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ حَدِيثٌ لَا مَهْدِيٍّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٍّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نَسَبَتْهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَسَبَتْهُ عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ إِلَى كَلَامٍ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدْلَةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحَكُّمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيَنْقُضِي الزَّمَانَ وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا تَرَاهُ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نُجُومِيَّةٍ فِي هَذَا انْتَقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ .

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَخَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرَّبَ مِنْ عَضْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطَلِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمْعَنَاءَ مِنْ جَمَاعَةِ أَكْبَرِهِمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِسِيُّ كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا أَبُو يَعْقِي زَكَرِيَاءَ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي

(١) الصاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين . ١٠ هـ . قاله نصر .

يَعْقُوبَ الْمَذْكُورَ هَذَا آخِرُ مَا أَطْلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَضَوِّفَةِ وَمَا
أُوزِدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاعَتِنَا وَالْحَقُّ
الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا تَيْمُّ دَعْوَةٌ مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ
عَضِيَّةِ تَظْهِرُهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ . وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ مِنْ
قَبْلِ الْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَضِيَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَقَرِيشِ أَجْمَعٍ
قَدْ تَلَّسَّتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ وَوَجَدَ أُمَّمَ آخَرُونَ قَدْ اسْتَعَلَّتْ عَضِيَّتَهُمْ عَلَى عَضِيَّةِ
قَرِيشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبَغُ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنِ
وَبَنِي حُسَيْنٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَعَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَضَائِبُ
بَدْوِيَّةٍ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ يَنْلُفُونَ الْأَفَاقَ مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظَهْرُ هَذَا
الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَيُؤَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي
اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَيْمُّ لَهُ شَوْكَةٌ وَعَضِيَّةٌ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى
غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ مِنْ
غَيْرِ عَضِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نَسْبَةٍ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَيْمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمَكِّنُ لِمَا
أَسْلَفْنَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ . وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ وَالْأَغْمَارُ مِنَ الدُّهْمَاءِ مِمَّنْ
لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يَفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ ^(١) ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نَسْبَةٍ وَفِي
غَيْرِ مَكَانٍ ، تَقْلِيدًا لِمَا اسْتَهْرَمَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ
وَأَكْثَرَ مَا يُجِيبُونَ ^(٢) فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ الْعُمَرَانِ مِثْلِ الزَّابِ
بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضَعْفَاءِ الْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رَبَاطًا
بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرَّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُكْتَمِينَ مِنْ كَذَالَةَ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ
أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا عَرَابَةٌ تِلْكَ الْأُمَّمِ وَبُعْدَهُمْ عَنْ يَقِينِ
الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةِ أَوْ قَلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَبَلْغِدِ الْقَاصِيَةَ عَنْ مَنَالِ الدُّوَلَةِ
وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رَبْقَةِ

(١) وفي نسخة أخرى . ولا علم يقيده . فيتحيون .

(٢) وفي نسخة أخرى . يتحيون .

الدَّوْلَةُ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهْرِ وَلَا مَحْضُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا . وَقَدْ يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةِ يَمِيئِهِ^(١) تَمَامَهَا وَسَوَاسِئَ وَحُمَقًا . وَقَتْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ . اخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطٍ مِائَةِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَضَرَ السُّلْطَانَ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَجُلًا مِنْ مُنْتَحَلِي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِالتَّوَيْزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوَزَّرَ مَضْفَرًا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَضِرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَزُولَةٍ وَعَظَمَ أَمْرَهُ وَخَافَهُ رُؤْسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ السُّكْسُوبِيُّ مَنْ قَتَلَهُ نِيَاتًا وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ . وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي غَمَارَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَعَشْرَ الشَّعْبِيِّينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الذُّهْمَاءُ مِنْ غَمَارَةِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عُنُوةً وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْمَةِ فَقَتَلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ . وَاخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورُ بِغَرْبِيَّةٍ فِي مِثْلِ هَذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحَبَ فِي حُجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَدْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ فِي جَبَلٍ تَلْمَسَانَ الْمَطَّلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سَكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا مُعْظَمًا كَثِيرَ التَّلْمِيذِ وَالْخَادِمِ . قَالَ وَكَانَ الرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ . قَالَ وَتَأَكَّدَتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْهَمُ إِنَّمَا جَاءُوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِطَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ وَانْتِحَالِ دَعْوَةِ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ . فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلُ تَلْمَسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِيهِ : ارْجِعُوا فَقَدْ أَرَزَى بِنَا الْغَلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقَتْنَا . وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمَكَافِيَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يَقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنِ مَطَامِعِهِ . وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ

(١) كذا في جميع النسخ وهو تحريف ولا معنى لكلمة يميئه . ومقتضى السياق أن تكون العبارة .

« بدعوة يكون تمامها وسواساً وحمقاً » . وفي نسخة لجنة البيان العربي « بدعوة تمنيه النفس تمامها » .

يَشْرُكُهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ
الْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا
غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ الْوَاحِدِ فَالْوَاحِدِ إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ
الْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ . وَأَكْثَرُ مَا يُغْنُونَ بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ
أَكْثَرَ فَسَادِ الْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ
بِمَا اسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصِّغَةَ الدِّيْنِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَحْكِمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ
إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِقْصَارَ عَنِ الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ
وَاقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاجِي الدِّيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَقْرَبَةِ
وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ . فَتَجِدُ ذَلِكَ الْمُنْتَحِلَ لِلدُّعْوَةِ وَالْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِالسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي
فُرُوعِ الْاِقْتِدَاءِ وَالْاِتِّبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ الْاِغْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالْبَغْيِ وَافْسَادِ السَّابِلَةِ ثُمَّ
الْاِقْتِبَالُ عَلَى طَلِبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ . وَشَتَانُ بَيْنَ طَلِبِ هَذَا الْأَجْرِ
مِنْ إِصْلَاحِ الْخَلْقِ وَمِنْ طَلِبِ الدُّنْيَا فَاتَّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تُسْتَحْكِمُ لَهُ صِغَةً فِي الدِّينِ
وَلَا يَكْمُلُ لَهُ نَزْوَعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ . وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ
الدُّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوَلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ ذُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ انْحَلَّ أَمْرُهُمْ
وَتَلَاشَتْ عَضِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةِ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسْمَى
قَاسِمَ بْنَ مِرَّةَ بْنَ أَحْمَدَ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاخِ
مِنْ بَطْنِ مَنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلَمٍ وَكَانَ يُسْمَى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ
طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبْ أَمْرَ تَابِعِيهِ كَمَا ذَكَرْنَا حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ
ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ سُلَيْمٍ وَرِيَاخِ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهَذِهِ الدُّعْوَةِ
يَسْتَبْهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَلْبَسُونَ فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ اسْمَ السُّنَّةِ وَيَسْوَأُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَ فَلَا
يَسْمُ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انْتَهَى

الفصل الرابع والخمسون

في ابتداء الدول والأمم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى
الجفر

إِغْلَمَ أَنْ مِنْ حَوَاصِّ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمَهُ
مَا يَخْدُتُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سَيِّمًا الْحَوَادِثُ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ
مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مَدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَالتَّطَلُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مُجْبُولُونَ عَلَيْهَا
وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ
الْكُفَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجَدُ فِي الْمَدِينِ
صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَنْتَحِلُونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحَرَضِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ
لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالذِّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرْوِحُ نِسْوَانُ
الْمَدِينَةِ وَصَيَّانَتُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْكَسْبِ
وَالجَاهِ وَالْمَعَاشِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرُّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ
الْمُنْجَمَ وَطَرِيقَ بِالْخَصِيِّ وَالْحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ وَنَظَرَ فِي الْمَرَايَا وَالْمِيَاهِ
وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَةِ فِي الْأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي
الشَّرِيعَةِ مِنْ دَمِ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ
عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وِلَايَةٍ . وَأَكْثَرُ مَا يَغْتَنِي ^(١) بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ فِي
أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ انْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّةِ يُوْجَدُ لَهُمْ
كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنْجِمٍ أَوْ وِلِيِّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يَحْدِثُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَخْدُتُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاْحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدُّوَلَةِ وَعَدَدِ الْمُلُوكِ
فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلَ ذَلِكَ الْحَدَثَانِ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكُفَّانُ

(١) الأصح أن يقول : وأكثر من يعتني .

وَالْعَرَفُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ الْمُلْكِ
وَالدُّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِشِقِّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَضْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ
أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ الْحَبَشَةِ بِلَادَهُمْ ثُمَّ رَجَعَهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكَ وَالدُّوْلَةَ لِلْعَرَبِ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا تَأْوِيلُ سَطِيحٍ لِرُؤْيَا الْمُؤَبَّدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ
الْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ بِظُهُورِ دُوْلَةِ الْعَرَبِ . وَكَذَا كَانَ فِي جَيْلِ التَّبْرَبْرِ كَهَانَ مِنْ
أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ بَنِي يَفْرَنْ وَيُقَالُ مِنْ غَمْرَةَ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلَى
طَرِيقَةِ الشُّعْرِ بِرِطَانِيَّتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ . لِزِنَاتَةِ مِنْ
الْمُلْكِ وَالدُّوْلَةِ بِالْمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْجَيْلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيُّ
وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ
الْهَجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ يَسْتَنِدُ الْجَيْلُ إِلَى خَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا
وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ الْمُتَعَايِينَ فِيهِمْ كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا
يَعْنُونَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ . وَأَمَّا فِي الدُّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى
بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى الْخُصُوصِ
وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ لِأَثَارِ مَنْقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ وَخُصُوصًا مُسَلَّمَةَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَأَمْثَالِهِمَا وَرَبَّمَا اقْتَبَسُوا بَعْضُ
ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ . وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ
كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَايَةِ وَإِذَا كَانَ
مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنْ
فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ » فَهَمُ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرَّتَبِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ الْمَوْهُوِيَّةِ . وَأَمَّا
بَعْدُ صَدْرِ الْمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِضْطِلَاحَاتِ وَتَرَجَمَتْ كُتُبُ
الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . فَأَكْثَرَ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ الْمُنْجِمِينَ فِي الْمُلْكِ
وَالدُّوْلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنَ الْقِرَانَاتِ وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ
الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الْفَلَكَ عِنْدَ حَدُوثِهَا فَلْنَذْكَرُ الْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ

الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين . أما أهل الأثر فلهم في مدة الميل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة وتقص ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك ذليلاً . وسره والله أعلم تفدير الدنيا بأيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى وقد مر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع . وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله ﷺ : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أغني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي : « وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه . » فأما قوله : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فلا يقتضي نفى الزيادة على النصف وأما قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فإنما فيه الإشارة إلى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمدة الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكانت سبعمائة وثلاثة ^(١) أضافه إلى المنتضي من الألف الآخر قبل بعثته فهذه هي مدة

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن الترجمة التركي لم يطابق في قوله ٤٣٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة

الْمِلَّةَ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَقَوَائِدِهَا قُلْتُ :
 وَكُونُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّغْوِيلَ عَلَيْهِ . وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى
 ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السَّيْرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ
 أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيُّ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَخْرَفِ الْمُقْتَعَةَ (الْم)
 وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَبَلَّغَتْ إِخْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقْلَا الْمُدَّةَ وَجَاءَ
 حَيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ : هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟ فَقَالَ (الْمَصُّ) ثُمَّ اسْتَرَادَ
 (الرَّثْمَ) ثُمَّ اسْتَرَادَ (الْمُرَّ) فَكَانَتْ إِخْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ :
 قَدْ لَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لَا نَذَرِي أَقْلِيلًا أُعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ
 وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرَ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أُعْطِيَ عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعِمِائَةَ وَأَرْبَعِ سِنِينَ قَالَ
 ابْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ
 مُتَشَابِهَاتٌ » . ١ هـ . وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ
 دَلَالََةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُّعِ
 وَالتَّوَضُّعِ الَّذِي يَسْمُونَهُ حِسَابَ الْجُمْلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقَدَّمَ الْإِضْطِلَاحَ
 لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيُّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ
 عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَّةً بِالْحِجَارِ عُفْلًا عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ
 شَرِيعَتِهِمْ وَفَقِهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ الْعَوَامُّ
 فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلْسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ . وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي
 حَدِيثَانِ دَوَّلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٌّ فِي حَدِيثِ خُرْجَةِ أَبُو دَاوُدَ
 عَنْ حَدِيفَةَ بْنِ الِیْمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ
 أَبِي مَرْزُبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرُوحَ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدِ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ
 دُوَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَدِيفَةُ بْنُ الِیْمَانِ : وَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَنْسَى أَصْحَابِي أَمْ
 تَنَاسَوْهُ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدٍ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِي الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ
 مِنْ مَعَةٍ ثَلَاثِمِائَةٍ فَضَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاءَ لَنَا بِاسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو

دَاوُدُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ
 إِذَا كَانَ صَحِيحاً فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مَبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى
 يَجُودُ آسَانِيْدُهَا . وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا
 الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَدِيْفَةَ أَيْضاً قَالَ . قَامَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ فِينَا خَطِيْباً فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
 حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ لَاءِ ١٠ هـ . وَلَفِظُ
 الْبُخَارِيِّ ، مَا تَرَكَ شَيْئاً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ
 أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِنَهَارِثُمْ قَامَ
 خَطِيْباً فَلَمْ يَدْعُ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرْنَا بِهِ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ
 مِنْ نَسِيَهُ ١ هـ . وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ
 أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْإِشْتِرَاطِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُ الْمَغْهُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
 عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ
 شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَيْمَةَ اخْتَلَفُوا فِي رَجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْزِيَمٍ فِي ابْنِ فَرُوحَ
 أَحَادِيثُهُ مَنَاقِيْرُ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يُعْرَفُ مِنْهُ وَيُنْكَرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ
 مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ فَإِنَّمَا خَرَجَ
 لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَاداً وَضَعَفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ خَاتِمٍ
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُخْتَجُّ بِهِ . وَأَبُو قَبِيْصَةَ ابْنُ دُوَيْبٍ مَجْهُولٌ . فَتَضَعُفُ هَذِهِ
 الزِّيَادَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شُدُودِهَا كَمَا
 مَرَّ . وَقَدْ يَسْتَنْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَعْفَرِ وَيَزْعَمُونَ أَنَّ
 فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْآثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ
 ذَلِكَ وَلَا مُسْتَنْدِيْدَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ كِتَابَ الْجَعْفَرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدِ الْعَجَلِيَّ وَهُوَ
 رَأْسُ الزُّيْدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ
 الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ وَبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ

مِنْ رَجَالَئِهِمْ عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ
 مَكْتُوباً عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْبٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونَ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَّاهُ
 الْجَعْفَرُ بِاسْمِ الْجِلْدِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَعْفَرَ فِي اللَّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْإِسْمُ
 عِلْماً عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ
 الْمَعَانِي مَرْوِيَةٌ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ . وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ عَيْنُهُ
 وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَاطِدُ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَا يَضَحُّهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السُّنْدُ إِلَى جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعْمَ الْمُسْتَنَدُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رَجَالِ قَوْمِهِ فَهَمَّ أَهْلُ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ
 صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ بَعْضَ قِرَائَتِهِ بِوَقَائِعِ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَّرَ
 يَحْيَى ابْنُ عِمْرَةَ زَيْدٌ مِنْ مَضْرَعِهِ وَعِضَاهُ فَخَرَجَ وَقَتِلَ بِالْجَوْزْجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .
 وَإِذَا كَانَتِ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لِعَظِيمِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْماً وَدِيناً وَأَثَاراً مِنَ النَّبُوءَةِ وَعِنَايَةِ
 مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ لِقُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ
 هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَأَنْظَرُ
 مَا حَكَاهُ ابْنُ الرِّقِيِّ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ
 مُحَمَّدِ الْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَأَمَرَهُ
 بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدَّعْوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمِ لِقَنَهُ أَنْ دَعْوَتَهُ تَمُّ هُنَاكَ وَأَنَّ عَبِيدَ
 اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِفْحَالِ دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ : « بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا
 الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْهَدْيَةِ وَكَانَ
 يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبْرُ بِبُلُوعِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو
 عَبِيدِ اللَّهِ فَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ
 وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ .

وَأَمَّا الْمُنْجَمُونَ فَيَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَا فِي
 الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلِ الْمُلْكِ وَالِدُّوَلِ فَمِنَ الْقِرَانَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ الْعُلُوِّيِّينَ وَذَلِكَ أَنَّ
 الْعُلُوِّيِّينَ زَحَلَ وَالْمُسْتَرِيَّ يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عَشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَفُودُ الْقِرَانُ إِلَى

بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمُثَلَّثَةِ مِنَ التَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخِرِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ
 فِي الْمُثَلَّثَةِ الْوَاحِدَةِ إِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ الثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
 فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثَلَّثَةِ بِإِثْنَتَيْ عَشْرَةَ
 مَرَّةً وَأَرْبَعِ عَوْدَاتٍ فِي مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى التَّثْلِيثِ
 الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثَلَّثَةِ إِلَى الْمُثَلَّثَةِ الَّتِي تَلِيهَا أَغْنَى الْبُرْجِ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ
 الْأَخِيرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثَلَّثَةِ وَهَذَا الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعُلُوَيْنِ يَنْقَسِمُ
 إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ اجْتِمَاعُ الْعُلُوَيْنِ فِي دَرَجَةِ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى
 أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوَيْنِ فِي
 كُلِّ مَثَلَّثَةٍ إِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مَثَلَّثَةٍ أُخْرَى
 وَالصَّغِيرُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوَيْنِ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ وَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ
 آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ ذَقَائِقِهِ مِثَالُ ذَلِكَ وَقَعَ الْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلُ
 دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عَشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ
 وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ الْقِرَانِ
 وَعَوْدَ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى الشَّرَائِبِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا
 وَهَذَا قِرَانٌ وَسْطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى النَّهَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي
 تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ
 الْمُلْكِ وَالذُّوْلَةِ وَانْتِقَالِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ الْمُتَغَلِّبِينَ
 وَالطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالذُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمُدُنِ أَوْ عُمَرَانِهَا
 وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَانَاتِ قِرَانُ النُّحْسَيْنِ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً
 مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبِالْزَّحْلِ وَهَبُوطِ
 الْمَرْيَخِ فَتَعْظُمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَظُهُورِ الْخَوَارِجِ
 وَحَرَكَةِ الْعَسَاكِرِ وَعَضْيَانِ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءِ وَالْقَحْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدَرِ
 السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدَرِ تَنْسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ . قَالَ جِرَاسُ بْنُ

أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلها فالمؤلف النبوي كان عند قران العلويين يبرز العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم ورُبما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الإحكام وذكر شاذان البلخي ، أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين . وقد ظهر كذب هذا القول . وقال أبو معشر ، يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك . وقال خراش ، رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم . وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرانات القسمه إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك يبرز العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من بروج الحوت ومدته ذلك ستمائة وعشرون سنة وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمه أول الحمل وصاحب الجند المشتري . وقال يعقوب بن إسحاق الكندي إن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة . قال ، لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقى إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة . قال ، وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الحمل . قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه . قال خراش (١) .

(١) وفي نسخة أخرى ، جراس .

« سَأَلَ هِرْمِزُ إِفْرِيدَ الْحَكِيمِ عَنْ مُدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوَلَدِهِ مُلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ » فَقَالَ :
« دَلِيلُ مُلْكِهِ الْمُشْتَرِي » وَكَانَ فِي شَرْفِهِ فَيُعْطَى أَطْوَلُ السِّنِينَ وَأَجْوَدَهَا أَرْبَعِمِائَةٌ
وَسَبْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ تَزِيدُ الزُّهْرَةُ وَتَكُونُ فِي شَرْفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَيَمْلِكُونَ
لَأَنَّ طَالَعَ الْقِرَانَ الْمِيزَانَ وَصَاحِبِهِ الزُّهْرَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي شَرْفِهَا فَذَلُّ أُنْهَمُ
يَمْلِكُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَزِيرَهُ بَزْرَجْمَهَرَ الْحَكِيمَ
عَنْ خُرُوجِ الْمَلِكِ مِنْ فَارِسَ إِلَى الْعَرَبِ فَأَخْبَرَهُ : أَنَّ الْقَائِمَ مِنْهُمْ يُوَلِّدُ لِحُمْسٍ
وَأَرْبَعِينَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمُشْتَرِي يَغُوصُ إِلَى الزُّهْرَةِ وَيَنْتَقِلُ
الْقِرَانَ مِنَ السَّهْوَانِيَّةِ إِلَى الْعُقْرَبِ وَهُوَ مَائِيٌّ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَهَذِهِ الْأَدْلَةُ تَقْضِي لِلْمِلَّةِ
بِعِدَّةِ دَوْرِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَبْرُويزَ الْيُوسَ الْحَكِيمَ عَنْ
ذَلِكَ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ بَزْرَجْمَهَرَ . وَقَالَ تَوْفِيلُ الرُّومِيُّ الْمُنْجَمُ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ : إِنَّ
مِلَّةَ الْإِسْلَامِ تَبْقَى مُدَّةَ الْقِرَانِ الْكَبِيرِ تِسْعِمِائَةٌ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإِذَا عَادَ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ
الْعُقْرَبِ كَمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ وَتَغْيِيرِ وَضْعِ الْكَوَاكِبِ عَنْ هَيْئَتِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ
فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَفْتَرَّ الْعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَّخِذَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ . قَالَ
خِرَاشٌ : وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِاسْتِيلَاءِ الْمَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ سَائِرُ
الْمَكُونَاتِ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَقْطَعُ قَلْبَ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ
الْمَرْيَخِ . وَذَلِكَ بَعْدَ مَضِيِّ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَذَكَرَ خِرَاشٌ : أَنَّ مَلِكَ
زَابُلِسْتَانَ بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ بِحَكِيمِهِ ذُو بَانَ اتَّخَفَهُ بِهِ فِي هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ
لِلْمَأْمُونِ فِي الْإِخْتِيَارَاتِ بِخُرُوبِ أَخِيهِ وَبِعَقْدِ اللَّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْظَمَ
حِكْمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلْكِهِمْ فَأَخْبَرَهُ بِانْقِطَاعِ الْمَلِكِ مِنْ عَقْبِهِ وَاتِّصَالِهِ فِي وُلْدِ
أَخِيهِ وَأَنَّ الْعَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ مِنَ الدَّيْلَمِ فِي دَوْلَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَيَكُونُ
مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالَهُمْ ثُمَّ تَظْهَرُ التُّرْكُ مِنْ شِمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَمْلِكُونَ إِلَى الشَّامِ
وَالْفَرَاتِ وَيَسْخَرُونَ وَسَيَمْلِكُونَ بِلَادَ الرُّومِ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ :
مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ : مِنْ كُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحْكَامِ صَصَةَ بْنِ ذَاهِرِ الْهِنْدِيِّ

الَّذِي وَضَعَ الشُّطْرَنْجَ . قُلْتُ وَالتُّرْكُ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَى ظُهُورِهِمْ بَعْدَ الذَّلِيمِ هُمْ
السُّلْجُوقِيَّةُ وَقَدْ انْتَقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقُرْنِ السَّابِعِ . قَالَ خِرَاشٌ ، وَانْتِقَالَ الْقِرَانَ إِلَى
الْمِثْلَةِ الْمَائِيَّةِ مِنْ بُرْجِ الْحَوْتِ يَكُونُ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةً لِيَزْدَجُرَ
وَيَبْعُدَهَا إِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِئَةِ سَنَةً ثَلَاثٌ وَخَمْسِينَ . قَالَ ، وَالَّذِي
فِي الْحَوْتِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِئَةِ . قَالَ ،
وَتَحْوِيلُ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمِثْلَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ
وَسِتِّينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ . وَأَمَّا مُسْتَنَدُ الْمُنْجَمِينَ فِي دَوْلَةِ عَلِيٍّ
الْخُصُوصِ فَمِنْ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ وَهَيْئَةُ الْفَلَكَ عِنْدَ وَقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دَلَالََةً عِنْدَهُمْ عَلَى
حُدُوثِ الدَّوْلَةِ وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمَرَاءِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ وَعَدَدَ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ
وَأَعْمَارِهِمْ وَنَحْلِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي
الْقِرَانَاتِ وَقَدْ تَوَجَّدَ هَذِهِ الدَّلَالََةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَضْعَفِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ ذَالًا عَلَيْهِ فَمِنْ
يُوجَدُ الْكَلَامُ فِي الدَّوَلِ وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ مُنْجَمُ الرَّشِيدِ
وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةَ فِي الْمِئَةِ كِتَابًا سَمَّاهُ الشَّيْخَةَ بِالْجَفْرِ بِاسْمِ
كِتَابِهِمُ الْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَّثَانِ ، دَوْلَةُ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نَهَائِيَّتُهُ وَأَشَارَ إِلَى انْقِرَاضِهَا وَالْحَادِثَةِ عَلَى بَغْدَادَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي انْتِصَافِ
الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِانْقِرَاضِهَا يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمِئَةِ وَلَمْ تَقَفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا
الْكِتَابِ وَلَا رَأْيَانًا مِنْ وَقْفِ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي طَرَحَهَا هَلَكَوْ مَلِكُ
التُّرْكِ فِي دِخْلَةٍ عِنْدَ اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى بَغْدَادَ وَقَتْلِ الْمُسْتَعَصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ وَقَعَ
بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ الْجَفْرَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ
لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ الْمُؤَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةٍ
مَنْ تَقَدَّمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ
الْكِنْدِيِّ مُنْجَمُونَ وَكُتِبَ فِي الْحَدَّثَانِ وَأَنْظَرَ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ
أَبِي بَدِيلٍ مِنْ أَصْحَابِ صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ الرَّبِيعُ وَالْحَسَنُ فِي غَزَاتِهِمَا مَعَ

الرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ فِحْتَتُهُمَا جَوْفَ اللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الدُّوَلَةِ يَعْنِي
الْحَدِيثَانَ وَإِذَا مُدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ ، هَذَا الْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَلَى
الْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ .
قَالَ ، فَمَا الْحِيلَةُ فَاسْتَدْعَيْتُ غَنَبَةَ الْوَرَّاقِ مَوْلَى آلِ بَدِيلٍ وَقُلْتُ لَهُ انسخْ هَذِهِ
الْوَرْقَةَ وَاكْتُبْ مَكَانَ عَشْرِ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ الْعُشْرَةَ فِي تِلْكَ
الْوَرْقَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ مَا كُنْتُ أَشْكُ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كَتَبَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي
حَدِيثَانِ الدُّوَلِ مَنْظُومًا وَمَنْشُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ وَيَأْتِيهِ النَّاسُ
مُتَفَرِّقَةً كَثِيرٌ مِنْهَا وَتُسَمَّى الْمَلَاحِمَ . وَبَعْضُهَا فِي حَدِيثَانِ الْمَلِئَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَبَعْضُهَا
فِي دَوْلَةِ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرِ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ
يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةٌ
إِبْنِ مِرَّانَةَ مِنْ بَحْرِ الطُّوَيْلِ عَلَى زَوْجِي الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتَحْسِبُ
الْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنَ الْحَدِيثَانِ الْعَامِّ فَيُطْلَقُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالَّذِي
سَمِعْنَاهُ مِنْ شَيْخِنَا أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةِ لِمَثُونَةَ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قُبَيْلَ دَوْلَتِهِمْ
وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِيْلَاءَهُمْ عَلَى سَبْتَةَ مِنْ يَدِ مَوَالِي بَنِي حَمُودٍ وَمَلِكِهِمْ لِعُدْوَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمِنَ الْمَلَاحِمِ بِيَدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا قَصِيدَةٌ تُسَمَّى السَّبْعِيَّةَ أَوْلَهَا ،

طَرَبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبٌ وَقَدْ يَطْرَبُ الطَّائِرُ الْمُغْتَصَبُ
وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلْهَرِّ أَرَاهُ وَلَكِنْ لِتَذْكَارِ بَعْضِ السَّبَبِ
قَرِيبًا مِنْ حَفْصِمَائَةِ بَيْتِ أَوْ أَلْفِ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ
الْمُوَحِّدِينَ وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ
بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعَبَةٌ مِنَ الشُّعْرِ الرَّجُلِيِّ مَنْسُوبَةٌ لِبَعْضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ
الْقِرَانَاتِ لِعَضْرَةِ الْعَلَوِيِّينَ وَالنُّحْسِينَ وَغَيْرَهُمَا وَذَكَرَ مِيتَتَهُ قَبِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ
كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوْلُهُ ،

فِي صِغِ ذَا الْأَزْرَقِ لَشَرْفِهِ خِيَارًا فَافْهَمُوا يَا قَوْمَ هَذِي الْإِشَارَا

نجم زحل اخبر بذى العلاما وبئذ الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما وشاش أزرق بدل الفرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي يصلب في بلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي وقتله يا قوم على الفراد

وَأَنْبِيَاءُهُ نَحْوُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْقِرَانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ وَمِنْ
مَلَا حِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضاً قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رِوِيِّ الْبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ
بَنِي أَبِي حَفْصِ تُونَسٍ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَارِ . وَقَالَ لِي قَاضِي
قُسْطَنْطِينِيَّةِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرُ أَبُو عَلِيٍّ بَنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيراً بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ
فِي التَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي : إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَارِ لَيْسَ هُوَ الْخَافِظُ الْأَنْدَلُسِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولُ
الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ تُونَسٍ تَوَاطَأَتْ شَهْرَتُهُ مَعَ شَهْرَةِ الْخَافِظِ
وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هَذِهِ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي
حِفْظِي مَطْلَعُهَا :

عَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ

ومنها .

وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِداً وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيَقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَذْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَّاسَةٌ مُسْتَجَلِبِ

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم .

فَأَمَّا ^(١) رَأَيْتِ الرُّسُومَ امْتَحَتْ وَلَمْ يُرْعَ حَقُّ لِيذِي مَنْصِبِ

(١) قوله فإما رأيت أصله فان رأيت زبدت ما وادغمت في أن الشرطة المحدوف نونها خطأ وفي نسخة فلما

رأيت والأولى هي الموجودة في النسخة التونسية . ١ هـ . قاله نصر .

فَخُذْ فِي التَّرْحُلِ عَنْ تُونِسَ وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَأَذْهَبْ
فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً تُضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمُنْدِيبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصِ هَوْلَاءَ بِتُونِسَ
فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّيْبِرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ
يَقُولُ فِيهَا :

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرَفُ بِالْوَثَابِ فِي نُسخَةِ الأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يَمْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ
وَمِنَ المَلَاحِمِ فِي المَغْرِبِ أَيْضاً المُلَقَّبَةُ المَنْسُوبَةُ إِلَى الهَوْثِنِيِّ^(١) عَلَى لَفَةِ العَامَّةِ فِي
عَرُوضِ البَلَدِ :

دعني بدمعي الهتان	فترت الأمطار ولم تفتتر
واستقت كلها الويدان	وانسى تملى وتقدر
البلاذ كلها تزوي	فأولى ما ميل ما تدرى
ما بين الصيف والشتوي	والعام والربيع تجزي
قال حين صحت الذغوى	دعنى نبيكي ومن عذري
أنادي من ذي الأزمان	ذا القرن اشتد وتمري

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ المَغْرِبِ الأَقْصَى وَالعَالِبِ عَلَيْهَا الوَضْعُ
لأنه لَمْ يَصْحُ مِنْهَا قَوْلٌ إِلا عَلَى تَأْوِيلِ تُحَرَّفَةُ العَامَّةُ أَوْ الحَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنْ
الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِابْنِ العَرَبِيِّ الحَاتِمِيِّ فِي كَلَامِ
طَوِيلِ شِبْهِ الأَلْفَاذِ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ لِتَحَلُّلِهِ إِلَى أَوْفَاقِ عَدَدِيَّةٍ وَرَمُوزِ مَلْغُوزَةٍ
وَأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ تَامِيَةٍ وَرُؤُوسِ مَقْطَعَةٍ وَتَمَائِيلِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ . وَفِي آخِرِهَا
قَصِيدَةٌ عَلَى رُويِّ الأَمِّ وَالعَالِبِ أَنَّهَا كَلَّمَا غَيْرَ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلِ عِلْمِي

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى الهَوْثِنِيِّ .

مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرَهَا وَسَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ هُنَاكَ مَلَاحِمَ أُخْرَى مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ سَيْنَاءَ
وَإِبْنِ عَقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصَّحَّةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَائِنَاتِ
وَوَقِفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضاً عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدِيثَانِ دَوَّلَةِ التُّرْكِ مَنَسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنْ
الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجِرِ بَقِيٍّ وَكُلُّهَا إِنْغَازٌ بِالْحُرُوفِ أُولَاهَا .

مِنْ عِلْمِ جَهْرٍ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ
وَالْوَصْفِ فَافْتَمَهُمْ كَفَعَلَ الْحَادِقِ الْفَطْنِ
لَكِنِّي أَذْكَرُ الْإِنِّي مِنَ الزَّمَنِ
بِحَاءٍ مِيمٍ بَطِيْشٍ نَامٍ فِي الْكُنَنِ
لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَي ذَلِكَ الْمُنَنِ
وَأَذْرِبِيحَانَ فِي مُلْكٍ إِلَى الْيَمَنِ

إِنْ شِئْتَ تَكْسِفُ سِرَّ الْجَهْرِ يَا سَائِلِي
فَافْتَمَهُمْ وَكُنْ وَاعِيَا حَرْفًا وَجَمَلْتَهُ
أَمَا الَّذِي قَبْلَ عَضْرِي لَسْتُ أَذْكَرُهُ
بِشَهْرِ بِيْرَسٍ يَبْتَقِي بَعْدَ خُمُسِيَّتِهَا
شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ
فَمِضْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ
وَمِنْهَا .

الْفَاتِكُ الْبَاتِكُ الْمَعْنِيُّ بِالسِّمَنِ
لَا لَوْ فَاقَ وَنَوْتَ ذِي قَرَنِ
يَبْتَقِي بِحَاءٍ وَأَيْنَ بَعْدَ ذُو سِمَنِ

وَأَلْ بُوْرَانَ لَمَّا نَالَ طَاهِرُهُمْ
لِخَلْعِ سَيْنٍ ضَعِيفِ السَّنِّ سَيْنٌ أَتَى
قَوْمَ شَجَاعٍ لَهُ عَقْلٌ وَمَشُورَةٌ
وَمِنْهَا .

يَلِي الْمَشُورَةَ مِيمُ الْمَلِكِ ذُو اللَّسَنِ

مِنْ بَعْدِ بِيَاءٍ مِنَ الْأَعْوَامِ قَتَلْتَهُ
وَمِنْهَا .

فِي عَضْرِهِ فَتَنٌ نَاهِيكَ مِنْ فَتَنِ
عَارِعٍ عَنِ الْقَافِ قَافٍ جَدٌّ بِالْفَتَنِ
أَبَدْتَ بِشَجْوَعِي الْأَهْلِيْنَ وَالْوَطَنِ
مِنَ الزَّلْزَالِ مَا زَالَ حَاةٌ غَيْرُ مَقْتَبِنِ
هَلَكًا وَيُنْفِقُ أَمْوَالًا بِلَا ثَمَنِ

هَذَا هُوَ الْأَعْرَجُ الْكَلْبِيُّ فَاعِنْ بِهِ
يَأْتِي مِنَ الشَّرْقِ فِي جَيْشٍ يُقَدِّمُهُمْ
بِقَتْلِ دَالٍ وَمِثْلُ الشَّامِ أَجْمَعِهَا
إِذَا أَتَى زَلْزَلَتْ يَا وَيْحَ مِضْرٍ
طَاءَ وَطَاءَ وَعَيْنٌ كُلُّهُمْ حَبَسُوا

يَسِيرُ القَافُ قَافاً عِندَ جَمِيعِهِمْ هَوْنٌ بِهِ إِنَّ ذَاكَ الحِضْنَ فِي سَكَنِ
وَيَنْصَبُونَ أَخَاهُ وَهُوَ صَالِحُهُمْ لَا سَلَّمَ الأَلْفَ سِينٌ لَذَاكَ بُنِي
تَمَّتْ وَلَا يَتَّبِعُهُمُ بِالحَاءِ لَا أَحَدٌ مِنَ السِّنِينَ يُدَانِي المَلِكُ فِي الزَّمَنِ
وَيَقَالُ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى المَلِكِ الظَّاهِرِ وَقُدُومِ أَبِيهِ عَلَيْهِ بِمِصْرَ .

يَأْتِي إِلَيْهِ أَبُوهُ بَعْدَ هُجْرَتِهِ وَطَوِيلِ غَيْبَتِهِ وَالشُّظْفِ وَالزَّرَنِ
وَأَيَّاتُهَا كَثِيرَةٌ وَالعَالِبِ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَ فِي القَدِيمِ كَثِيرٌ
وَمَعْرُوفٌ الإِتِّحَالِ .

حَكَى المَوْزُخُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ المُقْتَدِرِ وَرَاقٌ ذَكِيٌّ يُعْرِفُ
بِالدَّانِيَّ^(١) يَبْلُ الأُورَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطِّ عَتِيقٍ يَرْمِزُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يُعْرِفُ مِثْلَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرِّفْعَةِ وَالجَاهِ كَأَنَّهَا
مَلَاحِمٌ وَيَحْضُلُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيمًا
مُكْرَرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحِ مَوْلَى المُقْتَدِرِ . فَقَالَ لَهُ : هَذَا كِنَايَةٌ عَنْكَ
وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى المُقْتَدِرِ وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يُرِضَاهُ وَيُنَالُهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ
عَلَامَاتٍ يَمُوهُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَدَّلَ لَهُ مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلوَزِيرِ ابْنِ القَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ
عَلَى مُفْلِحِ هَذَا وَكَانَ مَعْرُوفًا فَجَاءَهُ بِأُورَاقٍ مِثْلِهَا وَذَكَرَ اسْمَ الوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ
الحُرُوفِ وَبِعلامَاتٍ ذَكَرَهَا وَأَنَّهُ يَلِي الوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الخُلَفَاءِ وَتَسْتَقِيمُ
الأُمُورُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْهَرُ الأَعْدَاءُ وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى
الأُورَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَاحِمَ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ
جَمِيعَةً إِلَى دَانِيَالٍ فَأَعْجَبَ بِهِ مُفْلِحٌ . وَوَقَفَ عَلَيْهِ المُقْتَدِرُ وَاهْتَدَى مِنْ تِلْكَ الأُمُورِ
وَالعلامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِوِزَارَتِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الجِئِلَةِ العَرِيقَةِ فِي
الكُذِبِ وَالجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَلْفَازِ وَالظَّاهِرِ أَنَّ هَذِهِ المَلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، الدَّانِيَّ .

الْبَاجِرِ بَقِيٍّ مِنْ هَذَا النَّوعِ . وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ شَيْخِ الحَنْفِيَّةِ مِنَ العَجَمِ
بِالدِّيَارِ المَصْرِيَّةِ عَنِ هَذِهِ المَلْحَمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ
وَهُوَ البَاجِرِ بَقِيٍّ وَكَانَ عَارِفًا بِطَرِيقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنَ القَلَنْدَرِيَّةِ المُبْتَدِعَةِ فِي حَلْقِ
اللَّحْيَةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الكَشْفِ وَيَوْمِي إِلَى رِجَالِ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ
وَيُلْفِزُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يَعْينُهَا فِي ضَمْنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرَبِّمَا يَظْهَرُ نَظْمٌ ذَلِكَ فِي
أَنْبِيَاءٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّقَلْتُ عَنْهُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً
وَزَادَ فِيهَا الخُرَاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَشَغِلَ العَامَّةُ بِفِكَ رُمُوزِهَا وَهُوَ
أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ
الخُرُوفِ فِدَلَالَتُهَا عَلَى المُرَادِ مِنْهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النِّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُوهُ فَرَأَيْتُ مِنْ
كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ المَلْحَمَةِ « وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ » وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الباب الرابع

من الكتاب الأول

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الأول

في أن الدول من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك
وَيَبَيِّنُ أَنَّ البِنَاءَ وَالاخْتِطَاطَ المَنَازِلِ إِنَّمَا مِنْ مَنَازِعِ الحَضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
التَّرَفُ وَالدَّعَةُ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ مُتَأَخِّرًا عَنِ البِدَاوَةِ وَمَنَازِعِهَا وَأَيْضًا فَالْمَدُنُ

وَالْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلٍ وَأَجْزَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبَلَاةُ حَتَّى يَكُونَ نَزْوَعُهُمْ إِلَيْهَا اضْطِرَّاراً بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْقِهِمْ إِلَيْهِ مُضْطَهَدِينَ بَعْضُ الْمُلْكِ أَوْ مَرْعَبِينَ فِي الثُّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَفِي بِكَثْرَتِهِ إِلَّا الْمُلْكُ وَالذُّوْلَةُ . فَلَا بُدَّ فِي تَنْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَابِ الْمُدُنِ مِنَ الذُّوْلَةِ وَالْمُلْكِ . ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعَمُرَ الذُّوْلَةُ حِينَئِذٍ عُمُرٌ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الذُّوْلَةِ قَصِيراً وَقَفَ الْحُلُّ فِيهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ الذُّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الذُّوْلَةِ طَوِيلاً وَمُدَّتْهَا مَنْسَحَةً فَلَا تَزَالُ الْمَصْنَعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَارِلُ الرَّحِيْبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ يَتَّبَاعِدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ الْخِطَّةُ وَتَبْعُدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذُرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا . ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمَلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمَقَارِبَةٍ تَجَاوَزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمُرَانِ وَكَذَا حَالُ الْقَيْرَوَانِ وَقَرْطَبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الذُّوْلَةِ الْمُشِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ فِيمَا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَمَا قَارِبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَّةٌ يُمِدُّهَا الْعُمُرَانُ دَائِماً فَيَكُونُ ذَلِكَ حَافِظاً لَوْجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الذُّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَيَعِرَاقَ الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودَ لَهَا الْعُمُرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِدَاوَةِ إِذَا انْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَاتِهَا مِنَ الرَّفْهِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدُّعَى وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسُئَةِ مَادَّةٌ تُفِيدُهَا الْعُمُرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الذُّوْلَةِ خَرْقاً لِسِيَّاحِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمُرَانُهَا شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَبْتَدِعَ^(١)

(١) يبتدع

سَاكِنَهَا وَتَخْرَبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَعْدَادَ وَالْكُوفَةَ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْمَهْدِيَةَ
 وَقَلَمَةَ بَنِي حَمَادٍ بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالَهَا فَتَفَهَّمَهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ
 مُخْتَطِطِهَا الْأُولَى مَلِكًا آخَرَ وَدَوْلَةً ثَانِيَةً يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًا يَسْتَفْنِي بِهَا عَنِ
 اخْتِطَاطِ مَدِينَةِ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ الدَّوْلَةَ سِيَاحَهَا وَتَتَزَايِدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا
 بِتَزَايِدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرْفَعُهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمُرَانِهَا عُمُرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ
 وَالْقَاهِرَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الثاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَلِكُ اضْطَرُّوا لِلِاسْتِيْلَاءِ عَلَى
 الْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنَ الدَّعْوَةِ وَالرَّاحَةِ وَحَطِّ الْأَثْقَالِ
 وَاسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ الْعُمُرَانِ فِي الْبَدْوِ وَالثَّانِي دَفْعُ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَى
 الْمَلِكِ مِنْ أَمْرِ الْمُنَازَعِينَ وَالْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا
 يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مَنَازَعَتَهُمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَانْتِزَاعَ ذَلِكَ الْمَلِكِ الَّذِي سَمَوْا
 إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالِبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نِهَائِيَةٍ مِنَ
 الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ الْمَسَاكِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِمْتِنَاعِ
 وَنِكَائِيَةِ^(١) الْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ الْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ
 لِأَنَّ الشَّوْكََةَ وَالْعِصَابَةَ إِنَّمَا اخْتِيجُ إِلَيْهِمَا فِي الْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ
 الْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ الْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هَوْلَاءِ بِالْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَثِيرِ
 عِصَابِيَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هَذَا الْحَضَنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمُنَازَعِينَ مِمَّا يَفْتُ
 فِي عَضِدِ^(٢) الْأُمَّةِ الَّتِي تَرُومُ الْإِسْتِيْلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكََةَ اسْتِيْلَاتِهَا فَإِذَا كَانَتْ نِيْنُ

(١) نكيت في العمور أي هزيمته وغلبيته (لسان العرب)

(٢) فت في عضده : كسر قوته وفرق عنه اعدائه (قاموس)

أجنايبهم أمصاراً انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا الإنحرام وإن لم يكن هناك مضر استخذثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وخط أثقالهم وليكون شجاً في خلق من يروم العزة والإمتناع عليهم من طوائفهم وعصائهم فتعین أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه .

الفصل الثالث

في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل بإجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوي والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال^(١) وغيره وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانيعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فينخيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويفعل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأحرام عند أهل الدولة المعننين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عياناً وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها

(١) لم نشر على هذه الكلمة في القاموس ولا في لسان العرب . والمعروف الخمل وهو آلة حديدية تستعمل

لرفع الحجارة .

الْعَامَّةُ عَادِيَّةٌ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ عَادٍ لِتَوَلَّيْتَهُمْ أَنْ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعُهُمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظْمِ
 أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرُهُمْ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ نَجِدُ آثَاراً كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ
 تُعْرَفُ مَقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظْمِ أَوْ أَعْظَمَ كَرَبِوَانٍ كِسْرَى
 وَمَبَانِي الْعُمَيْدِيِّينَ مِنَ الشَّيْخَةِ بِأَفْرِيْقِيَّةِ وَالصَّنْهَاجِيِّينَ وَأَثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي
 صَوْمَعَةٍ قَلْعَةٍ بَنَى حَمَادٌ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَغَالِيَةِ فِي جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ وَبِنَاءُ الْمُوَحِّدِينَ
 فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ
 تَلْمَسَانَ وَكَذَلِكَ الْحَنَائِيَا الَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجِنَةَ الْمَاءِ فِي الْقَنَاةِ الرَّكْبِيَّةِ
 عَلَيْهَا مَائِلَةٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالنَّيَاكِلِ الَّتِي نَقَلْتُ إِلَيْهَا أَخْبَارَ أَهْلِهَا
 قَرِيباً وَبَعِيداً وَتَبَيَّنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا رَأْيٌ وَلَعَّ
 بِهِ الْقَضَاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ . وَنَجِدُ بُيُوتَ تَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَنْحُوْتَةً إِلَى
 هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بَيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْحِجَازِيُّ
 أَكْثَرَ السَّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمَكِهَا عَلَى السُّتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ
 لَيُبَالِغُونَ فِيهَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعَمُونَ أَنَّ عَوْجَ بَنِ عَنَاقٍ مِنْ جَبَلِ
 الْعَمَالِقَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيئاً فَيَشْوِيهِ فِي الشَّمْسِ يَزْعَمُونَ بِذَلِكَ
 أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا يَغْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الصُّوءُ
 لِإِنْعِكَاسِ الشُّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ
 وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفُضْلِ
 الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوَلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 وَيُخَيِّمُ مَا يُرِيدُ .

الفصل الرابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقُدْرِ
الْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقُدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهَيْدَامِ
كَمَا قَلْنَا فِيهِ فَيُحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا فِي أَرْزَمِيَّةٍ مُتَعَاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تَبْتَدِئَ
فَيَبْتَدِئُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ . وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ
اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ الْفَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ
وَيَكُونُ مَثِلاً لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ . وَانظُرْ فِي
ذَلِكَ مَا تَقَلُّهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَارْبٍ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَأٌ بَنَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَةَ الْمَوْتِ عَنْ إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا
مَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَةَ وَقَنَاتِهَا الرَّايِكَةِ عَلَى الْحَنَائِمِ الْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرَ الْمَبَانِي
الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكَ
الْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ أَثَرَهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ فِي
إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ يَخَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا . وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آقَارًا
كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَعِجْزُ الدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرَ مِنَ
الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ .
فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ الْهَدْمِ عَلَيْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ
الَّتِي أُسِّسَتْهُ مُفْرَطَةٌ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي
إِيوَانَ كِسْرَى لَمَّا اغْتَرَزَ الرُّشَيْدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي
مَخْبِسِهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَأَثَرُكَ مَثِلاً يُسْتَدَلُّ بِهِ

عَلَى عَظِيمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الْهَيْكَلِ فَاتَّهَمَهُ فِي النَّصِيحَةِ
 وَقَالَ أَخَذْتَهُ النُّعْرَةَ لِلْعَجَمِ وَاللَّهُ لِأَضْرَعْتَهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَأَتَّخَذَ
 لَهُ الْفُؤُسَ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ حَتَّى إِذَا أُذْرِكَةَ الْعَجَزُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ
 وَخَافَ الْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنِ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ
 وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ لَيْثًا يُقَالُ لَيْثًا يُقَالُ عَجَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَضْنَعٍ مِنْ
 مَضَانِعِ الْعَجَمِ فَعَرَفَهَا الرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ
 الَّتِي بِمِصْرَ وَجَمَعَ الْفَعْلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي تَقْيِهِ فَانْتَهَوْا إِلَى جَوْ
 بَيْنَ الْخَائِطِ وَالظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحَيْطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى
 الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذٌ ظَاهِرٌ وَيَزْعَمُ الرَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْحَيْطَانِ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَكَذَلِكَ حَنَايَا الْمُعَلِّقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلَ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى
 انْتِخَابِ الْحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَحِيدُ الصُّنَاعَ حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَايَا فَيُحَاوِلُونَ عَلَى
 هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصُّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ غَضَبِ الرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ
 لَهُ الْمَحَافِلُ الْمَشْهُورَةُ شَهِدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيرًا « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
 تَعْلَمُونَ » .

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة
 اعلم أن المَدْنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ الْأُمَّمُ عِنْدَ حُصُولِ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ التَّرْفِ
 وَدَوَاعِيهِ فَيَتَوَثَّرُ الدُّعَاةُ وَالسُّكُونُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ
 الْقَرَارُ وَالْمَأْوَى وَجِبَ أَنْ يِرَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبُ
 الْمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ الْمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيِرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى

مَنَارِلَهَا جَمِيعاً سِيَاحَ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضَعُ ذَلِكَ فِي مَتَمَنِّجٍ مِنَ الْأَمَكِينَةِ إِمَّا عَلَى
هَضْبَةٍ مُتَوَعَّرَةٍ مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِاسْتِنْدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا
بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرٍ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَضَعُ مَنَائِلَهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا
وَحُصْنُهَا . وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْأَفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ طَيْبُ الْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ
مِنَ الْأَمْرَاضِ . فَإِنَّ الْهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِداً خَبِيثاً أَوْ مُجَاوِراً لِلْمِيَاهِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مُنَافِعاً^(١)
مُتَعَفِّفَةً أَوْ مُرَوِّجَ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ مِنَ مُجَاوِرَتِهَا فَاسْرَعَ الْمَرَضُ لِلْحَيَوَانَ
الْكَاثِرِينَ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ . وَالْمَدُنُ الَّتِي لَمْ يُزَاعَ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ كَثِيرَةٌ
الْأَمْرَاضِ فِي الْعَالِيَةِ . وَقَدْ اشْتَهَرَ بِذَلِكَ فِي قَطْرِ الْمَغْرِبِ بَلَدٌ قَابِسٌ مِنْ بِلَادِ
الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَى الْعَفَنِ بِوَجْهِهِ . وَلَقَدْ
يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ حَدَثَ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ وَتَقَلَّ الْبُكْرِيُّ فِي سَبَبِ خَدْوَتِهِ
أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نَحَاسٍ مَخْتَوِماً بِالرُّضَاصِ . فَلَمَّا فَضَّ خِتَامَهُ
صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى الْجَوْ وَانْقَطَعَ . وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ فِيهِ وَأَرَادَ
بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطُّلُوسَمَاتِ لَوَبَائِهِ وَأَنَّهُ ذَهَبَ سِرُّهُ
بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ وَالْوَبَاءُ . وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَّةِ وَمَبَاحِيثِهِمُ
الرُّكِيكَةِ وَالْبُكْرِيِّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَذْفَعُ مِثْلَ هَذَا
أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ . وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ
الْعَفْنَةَ أَكْثَرَ مَا يُهَيِّئُهَا لِتَعْغِيهِنِ الْأَجْسَامُ وَأَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ رُكُودُهَا . فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا
الرِّيْحُ وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِيناً وَشَمَالاً خَفَّ شَأْنُ الْعَفَنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا
لِلْحَيَوَانَاتِ . وَالْبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِينِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ
ضُرُورَةً وَتَخْدُثُ الرِّيْحُ الْمُتَخَلِّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ
وَالْتَمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءَ مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِناً
رَاكِداً وَعَظُمَ عَفْنُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ . وَبَلَدٌ قَابِسٌ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةً

(١) جمع منقوع : موضع منخفض قليلاً تتجمع فيه المياه فتتحول إلى مستنقع .

مُسْتَجِدَّةُ الْعُمَرَانِ كَثِيرَةٌ السَّاكِنِ تَمْوُجُ بِأَهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمْوُجِ
الْهَوَاءِ وَاضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرٌ عَفْنٌ وَلَا مَرَضٌ وَعِنْدَمَا
خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَفَّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفْنُ وَالْمَرَضُ . فَهَذَا وَجْهُهُ
لَا غَيْرُ . وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وُضِعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ
أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِنِ فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا انْتَقَلَ خَالِهَا عَنْ ذَلِكَ
وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسٍ لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْعَالَمِ فَتَقَهَّمُهُ تَجِدُ مَا قَلَّتْهُ لَكَ . وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَمِرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ
مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عِيُونٌ غَذَبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَاءِ
قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّاكِنِ حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ
مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ . وَمِمَّا يُرَاعَى مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمُدُنِ طِيبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ
صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَوْجِنِ الْحَيَوَانَ لِلنَّتَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا
مِنَ الْمَرَاعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا طَيِّبًا كَانَ ذَلِكَ أَزْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يِعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي
بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضًا الْمَزَارِعُ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ . فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبَلَدِ
بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ أَسْهَلَ فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ
لِلْحَطْبِ وَالْبِنَاءِ فَإِنَّ الْحَطْبَ مِمَّا تَعْمُ الْبُلُودُ فِي اتِّخَاذِهِ لِقُودِ النَّيْرَانِ لِلِاضْطِلَاءِ
وَالطَّبِيخِ . وَالخَشَبُ أَيْضًا ضَرُورِيٌّ لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الخَشَبُ مِنْ
ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضًا قُرْبُهَا مِنَ الْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ
النَّائِيَةِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَانِيَةِ الْأَوَّلِ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا
تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِنِ . وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ غَافِلًا عَنْ حُسْنِ الْإِخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ
إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ . وَلَا يَتَذَكَّرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ
لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمُدُنِ الَّتِي اخْتَطَبُوهَا بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا
الْأَهْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْإِنْبِلِ وَمَا يَضْلُحُ لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا
الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْحَطْبَ وَلَا مَرَاعِي السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظَّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ

كَالْقَيْرَوَانِ وَالْكُوفَةِ وَالْبُضْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا
الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ .

وَمَا يُرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ
بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ مَوْفُورَةَ الْعَدَدِ تَكُونَ صَرِيحًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنْ
الْعَدُوِّ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا
عُمَرَانٌ لِلْقَبَائِلِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعٌ مُتَوَعَّرٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَتْ فِي غَزَاةٍ لِلْبَنِيَّاتِ
وَسَهْلٍ طُرُوقَهَا فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحِيْفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وَجُودِ
الصَّرِيخِ لَهَا . وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلذَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ
الْمُقَاتَلَةِ . وَهَذِهِ كَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا .
وَمَتَى كَانَتِ الْقَبَائِلُ وَالْعَصَائِبُ مُوْطِنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَنْلُغُهُمُ الصَّرِيخُ وَالنَّعِيرُ
وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً الْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِاخْتِطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَعَلَى
أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَيَتَسَوَّأُ مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يَكَايِدُونَهُ مِنْ
وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةَ وَبِجَايَةِ وَبَلَدِ الْقَلِّ عَلَى
صِفْرِهَا فَافْهَمْ ذَلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِي اخْتِصَاصِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بِاسْمِ الشَّغْرِ مِنْ لَدُنِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرَقَةٍ وَأَفْرِيْقِيَّةِ . وَإِنَّمَا اغْتَبِرَ فِي ذَلِكَ الْمَخَافَةَ
الْمُتَوَقَّعَةَ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسَهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ الْعَدُوِّ
لِلْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي الْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضَّلَ مِنَ الْأَرْضِ بِقَاعًا اخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا
مَوَاطِنَ لِعِبَادَتِهِ يُضَاعَفُ فِيهَا الثَّوَابُ وَيَنْمُو بِهَا الْأَجُورُ وَأَخْبَرْنَا بِذَلِكَ عَلَى السَّنَنِ

رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ لَطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْهِيلًا لِمَطَرِقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ . وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَسَبًا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ . أَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . أَمَرَهُ اللَّهُ بِبِنَائِهِ وَأَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجِرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْهُمَ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدَفِنَا بِالْحَجَرِ^(١) مِنْهُ . وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسَلَيْمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . أَمَرَهُمَا اللَّهُ بِبِنَاءِ مَسْجِدِهِ وَنَصَبِ هَيْكَلِهِ وَدَفِنِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَدِدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالِيهِ . وَالْمَدِينَةُ مُهَاجِرٌ نَبِينَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْتِيهَا فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قَرَّةٌ عَيْنٍ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أُنْبِيَتِهِمْ وَعَظْمَةٌ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مَجَاوِرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنْشُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوْلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمَلَ ظَهُورُهَا فِي الْعَالَمِ . فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوْلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا قِبَالَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبْرٌ صَحِيحٌ يُعْوَلُ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ مَخْمَلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجِرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ ابْنَتَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجِرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي نَبْعِ مَاءِ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرِّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمَ بِهَا حَتَّى اخْتَمَلُوهُمَا وَسَكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوَالِي زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَّاحًا مِنَ الرُّدَمِ وَجَعَلَهُ زَرْبًا^(٢) لِنَعْمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ مَرَارًا لِمَزَارَتِهِ مِنَ الشَّامِ

(١) الكعبة . وقال ابن الأثير لمن الحجر هو العائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي .

(٢) زربية المولشي .

أَمَرَ فِي آخِرِهَا بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِإِثْنَيْ إِسْمَاعِيلَ
وَدَعَا النَّاسَ إِلَى حُجِّهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قُبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرَ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ
بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمٍ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى
ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي
إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نَقِلَ أَنَّ التَّبَاعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ
وَتُعَظَّمُهُ وَأَنْ تَبَعًا كَسَاهَا الْمَلَاءُ وَالْوَصَائِلُ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا .
وَنَقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفَرَسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتَقْرُبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا
عِنْدَ الْمُطَلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابَتِهِمْ . وَلَمْ يَزَلْ لِحُرْمَتِهِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهِ
مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ حُؤُولِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خَزَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا
بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةَ إِلَى
قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَوَلَايَةُ خَزَاعَةَ فَعَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ
الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمئِذٍ قَصِيٌّ بَنُ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدُّومِ
وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعْمَشُ :

خَلَفْتُ بِتَوْبِي زَاهِبَ الدُّورِ وَالْتَبَى بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بَنُ جُرْهُمٍ
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيْقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لِذَلِكَ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلشَّقْفِ وَكَانَتْ جَدْرَانَهُ
فَوْقَ الْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لِأَصْفًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ
الْقَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصُرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ اِتِّمَامِهِ فَقَصُرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكَوا
مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَذَارُوهَا بِجِدَارِهِ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ وَبَقِيَ
الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَرَحَفَتْ إِلَيْهِ
جَبُوشُ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُمَيْرِ السُّكُونِيِّ . وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ
وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيْقٌ ، يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَتَصَدَّعَتْ
حَيْطَانُهُ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنْ اِخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ

الصَّحَابَةَ فِي بِنَائِهِ . وَاجْتَحَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، « لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَكَ بَيْنَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا » فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى غَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحْرِي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ^(١) حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي الْفِضَّةِ^(٢) وَالْكِلْسِ فَحَمَلَهَا . وَسَأَلَ عَنْ مَقْطِعِ الْحِجَارَةِ الْأُولِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا اخْتِاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَيْنَيْنِ لِاصْفَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فَرَشَهَا وَأَزْرَهَا بِالرَّخَامِ وَصَاعَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ . ثُمَّ جَاءَ الْحِجَاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقاتِ إِلَى أَنْ تَصُدَّعَتْ حِيطَاتُهَا . ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ بَيْنَ الزُّبَيْرِ شَاوِرَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ . وَيُقَالُ ، إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ . وَقَالَ ، « وَدَدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ مَا تَحَمَّلُ » فَهَدَمَ الْحِجَاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعَ وَشِبْرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أُسَاسِ قُرَيْشٍ وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَخْتِ عَتَبَةَ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ . وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحِجَاجِ فِي الْحَائِطِ صِلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ لِحَمَّةَ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ الْبِنَائَيْنِ . وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إِصْغِ شَيْءِ الصَّدْعِ وَقَدْ لِحِمَ . وَيَعْرَضُ هَهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّادِرِوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أُسَاسِ الْجُدْرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدْرَانَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضُهُ وَهُوَ مَكَانَ الشَّادِرِوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنْ

(١) فِي النسخة الباريسية : السُّتُورُ .

(٢) وَفِي النسخة الباريسية ، القِطْعَةُ وَمَعْنَاهَا الْحِصَّةُ وَهُوَ الْأَصَحُّ .

التَّقْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا لَيْلًا يَقَعُ بَعْضُ طَوَائِفِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتِ الْجُدْرَانُ
كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بَنَى عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي
قَالُوهُ وَلَا مَخْلُصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحِجَابُ هَدَمَ جَمِيعَهُ
وَأَعَادَهُ وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْتِحَامِ مَا بَيْنَ
الْبِنَاءِ يَنْ وَتَمْيِيزِ أَحَدِ الشَّقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ
يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدُّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ
ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ فِيهِ الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى
قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا يَمِيدٌ وَلَا مَحِيصٌ مِنْ هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ
الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فُضَاءً لِلطَّائِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جَدْرٌ أَيَّامَ
النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ
عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعَمْدِ الرَّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ
الْمَنْصُورَ وَابْنَهُ الْمُهَدَّبِيَّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا .
وَتَشْرِيفُ اللَّهِ لِهَذَا الْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ^(١) مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ
جَعَلَهُ مَهْبُطًا لِلرُّوحِي وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَقَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ
وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لغيرِهِ فَمَنْعَ
كُلِّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ
مِنَ الْمَخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحَمَى الْعَائِذُ بِهِ وَالرَّاتِعُ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْآفَاتِ
فَلَا يَرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يَصَادُ لَهُ وَخَشٌ وَلَا يُخْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدُّ الْحَرَمِ الَّذِي
يَخْتَصُ بِهِذِهِ الْحَرَمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْمِيمِ^(٢) وَمِنْ طَرِيقِ
الْعِرَاقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى الشُّبَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطِعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى
بَطْنِ نَمْرَةَ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطِعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ

(١) وفي النسخة الباریسیة : أعظم .

(٢) التَّنْمِيمُ : مَكَانٌ بِمَكَّةَ فِي الْحُلِّ . وَهُوَ بَيْنَ مَكَّةَ وَسَرْفِ عَلَى فَرْسَخَيْنِ مِنْ مَكَّةَ وَقِيلَ أَرْبَعَةٌ . وَبِهِ

مَسَاجِدٌ حَوْلَ مَسْجِدِ عَائِشَةَ وَسَقَايَا عَلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ مِنْهُ يَحْرَمُ الْكَيْوَانُ بِالْعَمْرَةِ (معجم البلدان) .

وَخَبَرَهَا وَتَسْمَى أُمُّ الْقُرَى وَتَسْمَى الْكَعْبَةَ لِغُلُوبِهَا مِنْ اسْمِ الْكَعْبِ . وَيُقَالُ لَهَا أَيْضاً
 بَكَّةٌ قَالَ الْأَضْمِيُّ ، لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءً
 بَكَّةً أَبْدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لِأَزْبٍ وَلاَزِمَ لِقُرْبِ الْمَخْرَجَيْنِ . وَقَالَ النُّعْمِيُّ بِالنَّبَاءِ
 وَبِالْمِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ بِالنَّبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَّمُ مِنْذُ
 عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تَعْظُمُهُ وَالْمُلُوكُ تَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ مِثْلَ كِشْرَى وَغَيْرِهِ
 وَقِصَّةُ الْأَشْيَافِ وَغَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْرَمَ
 مَعْرُوفَةً وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْجَبِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا
 سَبْعِينَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ
 مُكْرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمَائَتِي قِنطَارٍ وَزَنَا وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
 « يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتَ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ » فَلَمْ يَفْعَلْ . ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي
 بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ . هَكَذَا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ . وَفِي الْبُخَارِيِّ يُسْنِدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ ،
 جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ ، « هَمَمْتُ أَنْ
 لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » قُلْتُ ، مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ ؟
 قَالَ ، وَلَمْ ؟ قُلْتُ ، فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ فَقَالَ هُمَا اللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا . وَخَرَجَ أَبُو
 دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذَلِكَ الْمَالِ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطُسِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ
 الْحُسَيْنِ ^(١) بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً حِينَ غَلَبَ
 مَكَّةَ عَمْدٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَبَضَّعُ الْكَعْبَةُ بِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعًا
 فِيهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ
 وَبَطَلَتِ الذَّخِيرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَيْدِ . (وَأَمَا بَيْتُ الْمُقَدَّسِ) وَهُوَ الْمَسْجِدُ
 الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ الصَّابِغَةِ مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ وَكَانُوا يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ الزَّيْتِ فِيمَا
 يَقْرَبُونَهُ يَصُبُونَهُ عَلَى الصُّخْرَةِ الَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دُبِّرَ ذَلِكَ التَّهْنِكَلُ وَاتَّخَذَهَا بَنُو
 إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوها قِبْلَةً لِصَلَاتِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ

(١) وفي النسخة الباريسية ، الحسين بن الحسين .

بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِتَمْلِكِيهِمْ^(١) بَنَيْتَ الْمَقْدِسَ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ آبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ
 وَأَبَاهُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ التِّيهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاتِّخَاذِ قَبَّةٍ مِنْ خَشَبِ السَّنِطِ
 عَيْنَ بِالْوَحْيِ مِقْدَارَهَا وَصَفَتَهَا وَهَيَّا كُلُّهَا وَتَمَائِيلَهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا التَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ
 بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ يَفْنَادُ بِلَيْهَا وَأَنْ يَضَعُ مَذْبِحًا لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي التَّوْرَةِ
 أَكْمَلَ وَضَفَ فَضَعُ الْقَبَّةِ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ
 الْمَضْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنزَلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ وَوَضَعَ الْمَذْبِيحَ
 عِنْدَهَا . وَعَهَّدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونَ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ الْقَبَّةَ
 بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي التِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي الْمَذْبِيحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ^(٢)
 لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا .

وَلَمَّا مَلَكَوا أَرْضَ الشَّامِ أَنْزَلُوها (بَكَلْكَال) مِنْ بِلَادِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مَا بَيْنَ
 قَسَمِ بَنِي يَامِينَ وَبَنِي أَفْرَائِيمَ . وَبَقِيَتْ هُنَالِكَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَنَةً ، سَبْعًا مَدَّةَ
 الْحَرْبِ ، وَسَبْعًا بَعْدَ الْفَتْحِ أَيَّامَ قِسْمَةِ الْبِلَادِ . وَلَمَّا تَوَفَّى يَوْشِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلُوهَا
 إِلَى بَلَدِ شِيلُو قَرِيبًا مِنْ كَلْكَالِ . وَأَذَارُوا عَلَيْهَا الْحَيْطَانَ . وَأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثِمِائَةَ
 سَنَةً ، حَتَّى مَلَكَهَا بَنُو فِلِسْطِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ كَمَا مَرَّ . وَتَغْلَبُوا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ رَدُّوا
 عَلَيْهِمُ الْقَبَّةَ وَنَقَلُوهَا بَعْدَ وَفَاةِ عَالِي الْكُوهِنِ إِلَى نُوفَ . ثُمَّ نَقَلَتْ أَيَّامَ طَالُوتَ إِلَى
 كَنْعَانَ فِي بِلَادِ بَنِي يَامِينَ . وَلَمَّا مَلَكَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلَ الْقَبَّةَ وَالتَّابُوتَ إِلَى
 بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَعَلَ عَلَيْهَا خِيَابًا خَاصًّا وَوَضَعَهَا عَلَى الصُّخْرَةِ . . .

وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقَبَّةُ قَبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى الصُّخْرَةِ بَيْنَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى الصُّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ وَعَهَّدَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ
 سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 وَاتَّخَذَ عُمُدَهُ مِنَ الصُّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ الزُّجَاجِ وَعَشَى أَبْوَابَهُ وَحَيْطَانَهُ بِالذَّهَبِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، ليملكهم .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، ويقربون في الذبح أمامها ويتوجهون .

وَصَاعَ هَيَاكِلَهُ وَتَمَائِيلَهُ وَأُوْعِيَتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَضَعَ^(١) فِيهِ تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاخُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدَ أَبِيهِ دَاوُدَ نَقَلَهُ إِلَيْهَا أَيَّامَ عَمَارَةَ الْمَسْجِدِ . فَجِيءَ بِهِ تَحْمِيلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهَنُوتِيُّوهُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوَضِعَتِ الْقُبَّةُ وَالْأُوْعِيَةُ وَالْمَذْبُوحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ . وَأَقَامَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ خَرِبَهُ بَخْتِ نَصْرٍ بَعْدَ ثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأُخْرِقَ التُّورَةُ وَالْعَصَا وَصَاعُ الْهَيَاكِلِ وَنَشْرُ الْأَحْجَارِ . ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ الْفَرَسِ بِنَاءَ عَزْرِيزْنِي^(٢) بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِغَانَةٍ بِهِمْ مِنْ مَلِكِ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَتْ الْوِلَادَةُ^(٣) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سِبْيِ بَخْتِ نَصْرٍ وَحَدَّ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُودًا دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا .

وَأَمَّا الْأَوَاوِينَ الَّتِي تَحْتَ الْمَسْجِدِ . يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا . عُمُودُ الْأَعْلَى مِنْهَا عَلَى قَوْسِ الْأَسْفَلِ فِي طَبَقَتَيْنِ . وَيَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا إِضْطَبَلَاتُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَإِنَّمَا بَنَاهَا تَنْزِيهًا لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَمَّا يَتَوَهَّمُ مِنَ النَّجَاسَةِ . لِأَنَّ النَّجَاسَاتِ فِي شَرِيعَتِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ . وَكَانَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ظَاهِرِ الْأَرْضِ مَخْشُوعًا بِالتُّرَابِ . بِحَيْثُ يَصِلُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّاهِرِ حَظًّا مُسْتَقِيمًا يَنْجُسُ ذَلِكَ الظَّاهِرَ بِالتَّوَهَّمِ . وَالتَّوَهَّمُ عِنْدَهُمْ كَالْمَحْقُوقِ . فَبَنُوا هَذِهِ الْأَوَاوِينَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ بِعُمُودِ الْأَوَاوِينَ السُّفْلِيَّةِ تَنْتَهِي إِلَى أَقْوَامِهَا وَيَنْقَطِعُ حَظُّهَا . فَلَا تَتَّصِلُ النَّجَاسَةُ بِالْأَعْلَى عَلَى خِطِّ مُسْتَقِيمٍ . وَتَنْزِعُ الْبَيْتَ عَنْ هَذِهِ النَّجَاسَةِ الْمُتَوَهَّمَةِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أُبْلَغَ فِي الطَّهَارَةِ وَالتَّقْدِيسِ .

ثُمَّ تَدَاوَنَتْهُمْ مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي خَشْمَنَائِي مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِبَنِي هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأْتَقُ فِيهِ حَتَّى

(١) وفي النسخة الباريسية ، ليودع .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الولاية .

أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيَطِشُ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَعَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرِبَ
 بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِيَدَيْهِ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالَ مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِيَدَيْهِ النَّصَارَى تَارَةً
 وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمَّهُ هِيلَانَةُ وَارْتَحَلَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي
 طَلَبِ الْخَشْيَةِ الَّتِي صَلَبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رَمَى
 بِخَشْيَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْقَى عَلَيْهَا الْقَمَامَاتِ وَالْقَادُورَاتِ فَاسْتَخْرَجَتْ الْخَشْيَةَ وَبَنَتْ
 مَكَانَ تِلْكَ الْقَمَامَاتِ كَنِيسَةَ الْقَمَامَةِ ^(١) كَانَتْهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ
 مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الرُّبْلِ وَالْقَمَامَاتِ عَلَى الصُّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفَى
 مَكَانَهَا جِزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقَمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ
 الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَخَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ الصُّخْرَةِ فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا الرُّبْلُ
 وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَهُ مِنْ شَأْنِهِ
 مَا أَدْنَى اللَّهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ اخْتَفَلَ
 الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ
 الْإِحْتِفَالِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِلَاطُ الْوَلِيدِ وَالزَّمَّ مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ الْفَعْلَةَ
 وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنْمَقُوهَا بِالْفُسْفُوسِ فَأَطَاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا اقْتَرَحَهُ . ثُمَّ لَمَّا ضَعَفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْخَمْسِمَائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي آخِرِهَا
 وَكَانَتْ فِي مَلَكَ الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءَ الْقَاهِرِ مِنَ الشَّيْعَةِ وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَنْجَةُ
 إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمَلَكَوهُ وَمَلَكَوْا مَعَهُ عَامَةً تُغَوِّرُ الشَّامَ وَبَنَوْا عَلَى الصُّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعْظَمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقْلَّ صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيِّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَالشَّامَ وَمَحَا أَثَرَ الْعَبِيدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ

(١) كذا في جميع النسخ وكذا أوردها ابن الأثير والطبري وتعرف اليوم بكنيسة القيامة .

وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلِبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا
مَلْكُوهُ مِنْ تَغْوِيرِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِنُخُو ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ
الْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ الصُّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى النُّخُو الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ .
وَلَا يَغْرُضُ لَكَ الْإِشْكَالُ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ
أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ : « بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ » قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا ؟
قَالَ : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ
مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيَهُ وَهُوَ يُنْفِصُ عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ . وَأَعْلَمُ
أَنَّ الْمَرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمَرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا
يَتَعَدُّ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ
نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصُّخْرَةِ هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا
لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَضْنَامَ وَالتَّمَائِيلَ حَوْلِي الْكُفْيَةِ وَفِي جَوْفِهَا
وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ
مُدَّةَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وُضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَمَّهِنَّ
فِيهِ حُلٌّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاءُ بِشَرِبَ فِيهَا مِنْ بِنَاءِ
يَشْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ
أَرْضِ الْجِجَارِ ثُمَّ جَاوَزَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ عَسَانَ وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا . ثُمَّ أَمَرَ
النَّبِيُّ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ
وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبَيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ
لِلذِّكْرِ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَرْزُلِهِ وَأَوَاهِ أِبْنَاءِ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ
كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى غَلَّتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ
وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهْمَهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قَبِضَ ﷺ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ

بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ
الْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ
النُّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخْتَدِجٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ
تَقُلُّ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثٍ أُخْرَى تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ
وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ خَالٍ ثَانِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَنَحَ
إِلَيْهَا الْأَمَمُ بِأَقْدَانِهِمْ مِنْ كُلِّ أُوْبٍ فَانظُرْ كَيْفَ تَدْرَجَتْ الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ
الْمُعَظَّمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ اللَّهِ فِي الْكُونِ وَتَدْرِيجَهُ عَلَى تَرْتِيبِ
مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ
يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْوَلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ لِلْأَمَمِ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يُعَظَّمُونَهَا عَلَى جِهَةِ
الدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بَيْتُ النَّارِ لِلْفَرَسِ وَهِيَ كُلُّ يُونَانَ وَبَيْتُ الْعَرَبِ بِالْحِجَازِ
الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِهَا فِي غَزْوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بَيْتًا لَسْنَا مِنْ
ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا
إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ
بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

الفصل السابع

في أن المدن والأمصار بأفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام وكان عمرانها كله بدوياً ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الإفرنجية والمغرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانئهم وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أغرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وإنما تتم المبانئ بها فلا بد من الحدق في تعلمها فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوق^(١) إلى المبانئ فضلاً عن المدين . وأيضاً فهم أهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبية أخرج إلى البدو وإنما يدعوا إلى المدين الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها فلا يدعوا إلى ذلك إلا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران أفريقيا والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقياطن وكئن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لأن العجم ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتباهون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لخممة النسب أقرب وأشد فتكون عصبية كذلك وتترغ بضاجبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المضر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

(١) وفي نسخة أخرى تشوف . وتشوف إلى الشيء . تطلع إليه .

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها
وإلى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي التَّبْرِيرِ بِعَيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أُغْرِقُوا فِي الْبُتُو
وَأَبْعَدُوا عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ
الْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ الْحِضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ
اسْتَعْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ الَّذِينَ أَوَّلُ الْأُمَرَاءِ مِمَّا
الْمُغَالَاةِ أَوْ الْبُنْيَانِ وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهَدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي
بِنَاءِ الْكُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ
فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدُنَّ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيْتَابٍ وَلَا تَطَاوَلُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالزَّمُوا السُّنَّةَ
تَلَزَمَكُمْ الدُّوْلَةَ وَعَهْدَ إِلَى الْوَفْدِ وَتَقَدَّمْ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَزِفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ الْقَدْرِ
قَالُوا ، وَمَا الْقَدْرُ ؟ قَالَ : « لَا يُقَرَّبُكُمْ مِنَ السَّرْفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ » .
فَلَمَّا بَعَدَ الْعَهْدُ بِالَّذِينَ وَالتَّخْرُجُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ
وَالتَّرْفِ وَاسْتُخْدِمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفَرَسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَتَهُمْ إِلَيْهَا
أَحْوَالُ الدُّعَا وَالتَّرْفِ فَحِينَئِذٍ شِيدُوا الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً
بِانْقِرَاصِ الدُّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكثْرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدِينِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً
وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ فَالْفَرَسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آفَافاً مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقُبُطُ
وَالنَّبَطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَايِدِ وَتُمُودِ وَالْعَمَالِقَةِ وَالتَّبَاعَةِ طَالَتْ
أَمَادُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهِيَائِكُلِّهِمْ أَكْثَرَ عَدداً وَأَبْقَى عَلَى
الْأَيَّامِ أَثْراً وَاسْتَبْصِرَ فِي هَذَا تَجَدُّهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمدس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدين كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فإنه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المضر ورداءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمنزل عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا ينالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنايب والأهوية لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيلاً لهم بطبيعتها لأن الرياح إنما تخبت مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدين ولم تكن لها مادة تمد عمراتها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب غضبتهم التي كانت سبباً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن . « والله يخكم لا معقب لحكمه » .

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الأمصار

إِغْلَمَ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتَطَّتْ أَوْ لَا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِينِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْجِيزِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحَيْطَانِ عِنْدَ التَّائِقِ كَالرُّبُجِ^(١) وَالرُّخَامِ وَالرُّبُجِ^(٢) وَالرُّجَاجِ وَالْمُسْنِفَسَاءِ وَالصَّدْفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمئِذٍ بَدْوِيًّا وَالْآتِهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمُرَانُ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ الْآلَاتُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ الصَّنَاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا إِذَا تَرَاجَعَ عُمُرَانُهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَفَقِدَتِ الْإِجَادَةَ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمَعَالَاةِ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقَلُّ الْأَعْمَالُ لِغَدَمِ السَّاكِينِ فَيَقِلُّ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقَلِبُونَهَا مِنْ مَضْنَعٍ إِلَى مَضْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَضَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ الْعُمُرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوْلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تَنْقَلُ مِنْ قُصْرِ إِلَى قُصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوَضًا عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقَرْيِ وَالْمَدَرِّ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قَدَّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

(١) الزلج : الصخور الملين (لسان العرب) .

(٢) الربج : الدرهم الصغير (لسان العرب) وفي النسخة الباريية السجج . الخرز الأسود (لسان العرب) .

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها ونفاق الأسواق
إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مُستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً . فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . وإذا انتدب لتحصيله السنة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد الشبل وسائر مؤن الفلج وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل يعملهم ذلك مقدار من القوت فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات . فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم . فأهل مدينة أو مضر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال وتقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبتهم ضرورة ودعشهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأتق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المضر وخرجه ويحصل اليسار لمنحلي ذلك من قبل أعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب

وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ . وَاسْتَنْبَطَتِ الصَّنَاعُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيمَتَهَا وَتَضَاعَفَ
 الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ الْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ . وَكَذَا فِي
 الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِالتَّرْفِ وَالْغِنَى بِخِلَافِ
 الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ . فَالْمِضْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمُرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ
 بِزِيَادَةِ كَسْبِ وَرَفِيهِ بِعَوَائِدِ مِنَ التَّرْفِ لَا تُوَجَدُ فِي الْآخِرِ فَمَا كَانَ عُمُرَانُهُ مِنْ
 الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرْفِ أَتْبَلَغَ مِنْ حَالِ الْمِضْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى
 وَتَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ . الْقَاضِي مَعَ الْقَاضِي وَالتَّاجِرِ مَعَ التَّاجِرِ وَالصَّانِعِ مَعَ
 الصَّانِعِ وَالسُّوقِيِّ مَعَ السُّوقِيِّ وَالْأَمِيرِ مَعَ الْأَمِيرِ وَالشَّرْطِيِّ مَعَ الشَّرْطِيِّ . وَاعْتَبِرْ
 ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فِاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلَ بَجَايَةِ وَتَلْمَسَانَ وَسَبْتَةَ
 تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا كَثِيرًا عَلَى الْجُمْلَةِ . ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاضِي بِفِاسَ
 أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ . وَكَذَا أَيْضًا حَالُ
 تَلْمَسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوْ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
 الْمَدْرِ^(١) الَّذِيْنَ اعْتَمَلَهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ^(٢) مَعَاشِهِمْ فَقَطُّ وَيَقْضُرُونَ عَنْهَا . وَمَا ذَلِكَ
 إِلَّا لِتَفَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَانَتْهَا كُلُّهَا أَسْوَاقَ لِلْأَعْمَالِ . وَالْخُرُجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى
 نِسْبَتِهِ فَالْقَاضِي بِفِاسَ دَخَلَهُ كِفَاءُ خُرُجِهِ وَكَذَا الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَحَيْثُ الدَّخْلُ
 وَالْخُرُجُ أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهَمَّا بِفِاسَ أَكْثَرُ لِنَفَاقِ سُوقِ^(٣) الْأَعْمَالِ بِمَا
 يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرْفُ فَالْأَحْوَالُ أَضْحَمُ . ثُمَّ هَكَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقَسَنْطِينِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ
 وَبِسُكْرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَا إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُوفِّي^(٤) أَعْمَالَهَا بِضَرُورَاتِهَا
 وَلَا تَعُدُّ فِي الْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرَى وَالْمَدْرِ . فَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ
 الصَّغِيرَةِ ضَعْفَاءَ الْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي

(١) وفي النسخة الباريسية : المدائر

(٢) وفي النسخة الباريسية : ضرورات

(٣) وفي النسخة الباريسية : سائر الأعمال

(٤) وفي النسخة الباريسية : تفي

بِضُرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضَلُ مَا يَتَأْتَلُونَهُ كَسْبًا فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ . وَهَمَّ لِذَلِكَ مَسَاكِينُ
مَحَاوِيَجِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ حَتَّى فِي أحوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالسُّؤَالِ فَإِنَّ
السَّائِلَ يَفَاسُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ السَّائِلِ يَتَلْمَسَانِ أَوْ وَهْرَانَ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسِ
السُّؤَالِ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ الْأَصْحَابِ اثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيرًا مِنْ أحوَالِ
التَّرْفِ وَاقْتِرَاجِ الْمَأْكَلِ مِثْلَ سُؤَالِ اللَّحْمِ وَالسَّمْنِ وَعِلَاجِ الطَّبِيخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونَ
كَالْمَرْبِيَالِ وَالْأَنْبِيَةِ . وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا يَتَلْمَسَانِ أَوْ وَهْرَانَ لَأَسْتَكْرَهَ وَعَنَفَ
وَزَجَرَ . وَيَتَلَفَّنَا لِهَذَا الْقَهْدِ عَنْ أحوَالِ الْقَاهِرَةِ وَمِضْرَ مِنَ التَّرْفِ وَالْفَنَى فِي عَوَالِدِهِمْ
مَا يَقْضَى ^(١) مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى
مِضْرَ لِذَلِكَ وَلَمَّا يَتَلَفُّهُمْ مِنْ شَأْنِ الرَّفْهِ بِمِضْرَ اعْظَمَ مِنْ غَيْرِهَا . وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ
النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيزَادَةِ إِبَارِ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالِ مُخْتَرَنَةِ
لَدِينِهِمْ ^(٢) . وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِبَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ
لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عَمْرَانَ مِضْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ عَمْرَانَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ
فَعَظَمْتَ لِذَلِكَ أحوَالَهُمْ . وَأَمَّا حَالُ الدُّخْلِ وَالخَرْجِ فَمُتَكَافِيَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ
وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ عَظُمَ الخَرْجُ وَبِالعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ وَالخَرْجُ اتَّسَعَتْ
أحوَالُ السَّاكِنِ وَوَسَّعَ المِضْرُ . كُلُّ شَيْءٍ يَتَلَفُّكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَلَا تُنْكِرُهُ وَاعْتَبِرْهُ
بِكثْرَةِ العُمْرَانَ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ المَكَاسِبِ الَّتِي يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا البَدَلُ
وَالإِبَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الحَيَوَانَاتِ العُجْمِ مَعَ بِيُوتِ المَدِينَةِ الوَاحِدَةِ
وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أحوَالُهَا فِي هَجْرَانِهَا أَوْ عَشِيَانِهَا فَإِنَّ بِيُوتِ أَهْلِ النِّعَمِ وَالشَّرْوَةِ
وَالْمَوَائِدِ الخَصِيصَةِ ^(٣) مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَقْنِيَّتِهَا بِنِشْرِ الحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ الفُتَاتِ
فَيَزِدُّهُمْ عَلَيْهَا عَوَاشِي النَّمْلِ وَالخِشَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ
بِطَانًا وَتَمْتَلِيءَ شَيْعًا وَرَبِيًا وَبِيُوتِ أَهْلِ الخِصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءِ الكَاسِدَةِ أَرْزَاقَهُمْ

(١) وفي نسخة أخرى . ما تقضى .

(٢) وفي النسخة الباريسية . لظمو الأموال في تلك الافاق . وإن الأموال مختزنة لديهم .

(٣) وفي النسخة الباريسية . الخصية .

لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَيْبٌ وَلَا يَخْلُقُ بِجَوْهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَأَرَّةٌ
وَلَا هِرَّةٌ^(١) كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ .

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الحَبَّ وَتَغْشَى مَنَازِلَ الكُرَمَاءِ^(٢)

فَتَأْمَلُ سِرَّ اللهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الأَنَاسِيِّ بِغَاشِيَةِ العُجَمِ مِنْ
الْحَيَوَانَاتِ وَفَتَاتِ المَوَائِدِ بِفَضَلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسَهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْدُلُهَا
لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الأَكْثَرِ لَوْجُودِ أمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ اتسَاعَ الأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ
النِّعَمِ فِي العُمُرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

إِغْلَمْ أَنَّ الأَسْوَاقَ كُلَّهَا تُشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ
الأَقْوَاتُ مِنَ الحِنْطِ وَمَا مَعْنَاهَا كَالْبَقْلَاءِ وَالبَصْلِ وَالثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا الحَاجِيُّ
وَالكَمَالِيُّ مِثْلُ الأَدَمِ وَالفَوَاكِهِ وَالمَلَابِسِ وَالمَاعُونِ وَالمَرَكَبِ وَسَائِرِ المَصَانِعِ
وَالمَبَانِي فَإِذَا اسْتَبَحَرَ المِضْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ القُوتِ وَمَا
فِي مَعْنَاهُ وَغَلَّتْ أَسْعَارُ الكَمَالِيِّ مِنَ الأَدَمِ وَالفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ المِضْرِ
وَضَعُفَ عُمُرَانُهُ كَانَ الأَمْرُ بِالعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الحُبُوبَ مِنْ
ضَرُورَاتِ القُوتِ فَتَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا
قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعْمُ اتِّخَاذُهَا أَهْلُ المِضْرِ أَجْمَعُ أَوْ الأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ
المِضْرُ أَوْ فِيمَا قَرَّبَ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ
بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تُسَدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ المِضْرِ فَتَفْضُلُ الأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية وردت هذه العبارة ، « يأوي إلى أسراب بيوتها فأرة ولا هر » .

(٢) وفي النسخة الباريسية : يسقط الطير حيث يلتقط الحب ويغشى منازل الكرماء .

المِصْرُ مِنْ غَيْرِ شَكِّ فَتَرَحُّصُ أَسْعَارِهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السِّنِينَ مِنْ
الْأَفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلَا اخْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لَمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاتِ لِبُدْلَتِ دُونَ
ثَمَنِ وَلَا عَوَضَ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ الْمَرَاقِقِ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا
إِلَيْهَا لَا تَعْمُ بِهَا الْبَلْوَى وَلَا يَسْتَفْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرَ
مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ الْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبِحِرًا مَوْفُورَ الْعُمْرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ تَوَفَّرَتْ
حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَاقِقِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلِّ بِحَسَبِ خَالِهِ فَيَقْصُرُ
المَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى الْحَاجَاتِ قُصُورًا بِالْعَامِ وَيَكْثُرُ المُسْتَمَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي
نَفْسِهَا فَتَرْدِحُمُ أَهْلُ الْأَعْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ الرَّفِهِ وَالتَّرْفِ أَمَانَتَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ
لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ
أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمْرَانِ فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ . الْأَوَّلُ كَثْرَةُ
الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرْفِ فِي الْمِصْرِ بِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ . وَالثَّانِي اعْتِرَازُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ
لِحَدِيثِهِمْ ^(١) وَامْتِنَانُ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ الْمَعَاشِ فِي الْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا . وَالثَّالِثُ
كثْرَةُ الْمُتَرْفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى امْتِنَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مَهْنَتِهِمْ
فَيَبْذُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ أَعْمَالِهِمْ مَرَاخِمَةً وَمُنَافَسَةً فِي الْإِسْتِثْنَارِ
بِهَا فَيَعْتَزُّ الْعُمَّالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحِرْفِ وَتَعْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِصْرِ فِي
ذَلِكَ . وَأَمَّا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ السَّاكِنِينَ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقَلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا
يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوَّةِ فَيَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَخْضُلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ
وَيَخْتَكِرُونَهُ فَيَعَزُّ وَجُودَهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ عَلَى مُسْتَامِهِ . وَأَمَّا مَرَاقِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو
إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بِقَلَّةِ ^(٢) السَّاكِنِينَ وَضَعْفِ الْأَحْوَالِ فَلَا تَنْفَقُ لَدَيْهِمْ سَوْفَةً فَيَخْتَصُّ
بِالرُّخْصِ فِي سِعْرِهِ . وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةٌ مَا يَغْرُضُ ^(٣) عَلَيْهَا
مِنَ الْمُكُوسِ وَالْمَعَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا

(١) وفي نسخة أخرى بخدثهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : لقلة .

(٣) وفي نسخة أخرى : يفرض .

عن التَّبَوُّغَاتِ لِمَا يَمْسُهُمْ^(١) . وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَسْعَارُ فِي الْأَنْصَارِ أَعْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي
 الْبَادِيَةِ إِذَ الْمَكُوسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَعْدُومَةٌ . وَكَثُرَتْهَا^(٢) فِي
 الْأَنْصَارِ لَا سِيَّمَا فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدَخَّلَ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةُ عِلَاجِهَا فِي
 الْفَلْحِ وَيَحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا
 أَلْجَأَهُمُ النَّصَارَى إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّرْعَةِ النَّكِدَةِ النَّبَاتِ
 وَمَلَكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الزَّرَائِكِيَّةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَأَجَوْا إِلَى عِلَاجِ الْمَزَارِعِ وَالْفُتُنِ
 لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَقَلْحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ مِنَ الزُّبَيْلِ وَغَيْرِهِ
 لَهَا مَوْثِقَةٌ وَصَارَتْ فِي فَلَاحِهِمْ نَقَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوهَا فِي سَعْرِهَا . وَاخْتَصَّ قَطْرُ
 الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مُنْذُ اضْطَرَّهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ سَوَاحِلِهَا
 لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَيَخْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بَغْلَاءَ الْأَسْعَارِ فِي قَطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ
 وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهْمٌ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فَلِحَا فِيمَا عَلِمْنَاهُ وَأَقْوَمُهُمْ
 عَلَيْهِ وَقُلُّ أَنْ يَخْلُو مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سَوْقَةٌ عَنْ فِدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلَاحٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ
 أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ أَوْ الطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْفُرَزَةِ الْمُجَاهِدِينَ . وَلِهَذَا
 يَخْتَصُّهُمْ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعَوْلَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ . وَإِنَّمَا
 السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سَعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَا . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ
 مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاةِ مَنَابِتِهِمْ وَطَيِّبِ أَرْضِهِمْ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْمُونُ جُمَّلَةً فِي الْفَلَاحِ مَعَ
 كَثْرَتِهِ وَعَمُومَتِهِ^(٣) فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِلَادِهِمْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ
 وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ » .

(١) وفي نسخة أخرى ، وأبواب أخرى ، وأبواب النصر وللجياه في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وبالعكس كثيرة .

(٣) وفي نسخة أخرى : عمومته .

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمَرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَّمَاهُ وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ . وَتَعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضُرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيْزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِإِزْدِحَامِ الْأَعْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ وَبِالْمَعَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالتَّبَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْمَيْبَعَاتِ وَيُعْظَمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ ^(١) وَالْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بِالْعَةِ عَلَى نِسْبَةِ عُمَرَانِهِ . وَيُعْظَمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضُرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِمْ ^(٢) . وَالتَّبَدُّوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيراً سَاكِناً بِمَكَانٍ كَانِيهِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأْتَلْ كَسْباً وَلَا مَالاً فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِفَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ . وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلْتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ عَوَائِدِ التَّرْفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِ ^(٣) فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنَ الْبَادِيَةِ ^(٤) فَسَرِيعاً مَا يَظْهَرُ عِزُّهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يَقْدَمُ ^(٥) مِنْهُمْ تَأْتَلُ الْمَالِ وَيَحْضُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرْفِ فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ . وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَاةِ عُمَرَانِ الْأَمْصَارِ . وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ .

(١) وفي نسخة أخرى ، الأوقات .

(٢) وفي نسخة أخرى ، مؤنهم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، من أهل البادية .

(٤) وفي نسخة أخرى ، تقدم .

الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقير مثل الأمصار

إِغْلَمَ أَنْ مَا تَوَفَّرَ عُمُرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَمَدَّدَتْ الْأَمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ
اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ . وَالسَّبَبُ
فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَيَّأَتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ بِمَا
يَفْضُلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِينَ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ عَلَى
مِقْدَارِ الْعُمُرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ فِي فَضْلِ
الْمَعَاشِ وَبَيَانِ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ الرِّفْقُ لِنِذَلِكَ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ التَّرْفُ
وَالغِنَى وَتَكْثُرُ الْجَبَانِيَّةُ لِلذَّوْلَةِ بِبِنَاقِ الْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَسْمُخُ سُلْطَانُهَا وَتَتَفَنَّنُ
فِي اتِّخَاذِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ الْأَمْصَارِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ
بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَنَاحِيَةِ الشَّمَالِ كُلِّهَا
وَأَقْطَارِهَا وَرِزَاءِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمُرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْعَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ
دَوْلَتُهُمْ^(١) وَتَمَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَخَوَاصِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ . فَالَّذِي
نُشَاهِدُهُ لِهَذَا الْعَبْدِ مِنْ أَحْوَالِ تِجَارَةِ الْأَمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
بِالْمَغْرِبِ فِي رِفْهِهِمْ وَاتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الْوَصْفُ . وَكَذَا تِجَارَةُ
أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَمَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَأَبْلَغُ مِنْهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ الْأَقْصَى مِنْ عِرَاقِ
الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفْقِ غَرَائِبُ تَسِيرِ الرُّكْبَانِ
بِحَدِيثِهَا وَرُزْمًا تَتَلَقَّى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ . وَيَحْسِبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ الْعَامَّةِ
أَنَّ ذَلِكَ لِرِيزَادَةِ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ أَكْثَرَ بِأَرْضِهِمْ أَوْ لِأَنَّ
ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأَمَمِ اسْتَأَثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَمَعْدِنُ الذَّهَبِ

(١) وفي بعض النسخ : دولهم .

الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ^(١) السُّودَانَ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ أَقْرَبُ .
وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتَّجَارَةِ . فَلَوْ كَانَ
الْمَالُ عَتِيداً مَوْفُوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَسْتَعُونَ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا
اسْتَفْتَنُوا^(٢) عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْحَمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُتَجَمِّعُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ
وَاسْتَعْرَبُوا مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتِّسَاعِهَا وَوَفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بَانَ
عَطَايَا الْكُوكِبِ وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِيدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصْصاً فِي مَوَالِيدِ أَهْلِ
الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ
الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا وَهُمْ إِنَّمَا أُعْطُوا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ النُّجُومِيَّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا
السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَاخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ
وَأَفْطَارِهِ وَكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ تَفِيدُ كَثْرَةَ الْكَسْبِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ فَلِذَلِكَ
اخْتِصُ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ مِنْ بَيْنِ الْأَفَاقِ لَا إِنْ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ الْأَثَرِ النُّجُومِيَّ . فَقَدْ
فَهِمْتُ مِمَّا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَأَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمَرَانِ
الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَاعْتَبِرْ خَالَ هَذَا الرِّفَةِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قَطْرِ
أَفْرِيقِيَّةَ وَبِرْقَةَ لَمَّا خَفَّ سَكْنُهَا^(٣) وَتَنَاقَصَ عُمَرَانُهَا كَيْفَ تَلَاثَتْ أَحْوَالَ أَهْلِهَا
وَأَنْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَضَعَفَتْ جَبَايَاتُهَا فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ
دَوْلَ الشَّيْخَةِ وَصَنَاهَجَةَ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرِّفَةِ وَكَثْرَةِ الْجَبَايَاتِ وَاتِّسَاعِ
الْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ . حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ تَرْفَعُ مِنَ الْفَيْرِوَانِ إِلَى
صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمَهْمَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ جَوْهَرَ الْكَاتِبِ فِي
سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَلْفَ حِمْلٍ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ الْجُنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ
وَنَفَقَاتِ الْعُرَاةِ . وَقَطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ
فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمَوْحِدِينَ مُسْعَةً وَجَبَايَاتُهُ مَوْفُورَةً وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) وفي بعض النسخ : ببلاد .

(٢) وفي بعض النسخ : ولاستفتوا .

(٣) وفي بعض النسخ : ساكنها .

قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَانَ الْبَرْبَرِ فِيهِ
 أَكْثَرُهُ وَتَقَصَّ عَنْ مَعْبُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مَخْشُوسًا . وَكَادَ أَنْ يَلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ
 أَحْوَالِ أَفْرِيْقِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَانُهُ مُتَّصِلًا مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ فِي
 طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَقْصَى وَبَرْقَةَ . وَهِيَ الْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارًا وَخَلَاءَ
 وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ التَّلْوْلِ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ
 وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الخامس عشر

في تأثر العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعْلَمُ أَنَّ تَأْتِلُ الْعُقَارَ وَالضِّيَاعَ الْكَثِيرَةَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمَدَنِ لَا يَكُونُ ذَفْعَةٌ
 وَاحِدَةً وَلَا فِي عَضْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ
 الْأَمْلاكَ الَّتِي تَخْرُجُ قِيَمَتُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرَّفْعِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ .
 وَإِنَّمَا يَكُونُ مِلْكُهُمْ وَتَأْتِلُهُمْ لَهَا تَدْرِيحًا إِذَا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى
 تَتَأَدَّى أَمْلاكَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذَلِكَ ^(١) أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالِهِ
 الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعُقَارَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَةِ وَخَرْقِ السِّيَاحِ
 وَتَدَاعِي الْمِضْرَ إِلَى الْخَرَابِ تَقِلُّ الْعِبْطَةُ بِهِ لِغَلَّةِ الْمُنْفَعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي الْأَحْوَالِ
 فَتَرْخُصُ قِيَمَتُهَا وَتَتَمَلِّكَ بِالْأَثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِالْمِيرَاثِ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ وَقَدْ
 اسْتَجَدَّ الْمِضْرُ شَبَابَهُ بِاسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ
 تَحْضُلُ مَعَهَا الْعِبْطَةُ فِي الْعُقَارِ وَالضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيَمَتُهَا وَيَكُونُ
 لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ . وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ فِيهَا وَيُضَيِّحُ مَا لِكَبْهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ
 الْمِضْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعْيِهِ وَاكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ تَعْجُزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ

(١) وفي نسخة أخرى . كذلك

العقار والضياح فهى غير كافية لمالكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش . والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياح إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء^(١) ليكون مرباهم به ورزقه فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم ورُبما يكون من الولد من يعجز عن التكسب ليضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواماً لخاله . هذا قصد المترفين في اقتنائه . وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا . وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالى^(٢) في جنسه وقيمته في المضر إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على يئعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم .

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمباقة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياح تأمله وأصبح أغنى أهل المضر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به . ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلوه^(٣) في رتبة حكم سلطانى وسبب من المؤاخذه ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الأحكام

(١) وفي النسخة الباريسية ، الضعاف .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، والتمالي . وفي نسخة أخرى المعالي .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، حتى يحصلوه وفي بعض النسخ ، حتى يحصلونها - وحتى محصوله والريفة .

العمرة في الحبل .

السُلْطَانِيَّةَ جَائِزَةً فِي الْغَالِبِ إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ اللَّبِثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا » .
 فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالشَّرْوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْعُمَرَانِ مِنْ حَامِيَّةٍ تَدُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةِ لِلْمُلْكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصِيْبَةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتَطِيلُ هُوَ بِظَلْمِهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ التَّعْذِي . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْجًا يُوْجِهُهُ التَّخَيُّلَاتُ وَأَسْبَابُ الْحُكْمِ ^(١) . وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ زِيَادَةٌ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرِّفَةِ وَتَفَاوُتِ الْأُمَمِ ^(٢) فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ مُنْخَصِرٍ وَتَفَعُّ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ التَّنْفُنِّ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ وَيَخْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهَرَّةَ فِيهِ وَيَقْدِرُ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجَيْلُ بِهَا وَمَتَى انْتَصَلَتْ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ ^(٣) حَذَقَ أَوْلِيَاكَ الصَّنَاعِ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْصَارُ بِطَوْلِهَا وَانْفِسَاحِ أَمْدِهَا وَتَكَرُّرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوحًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِجَارِ الْعُمَرَانِ وَكَثْرَةِ الرِّفَةِ فِي أَهْلِهَا . وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرِّعِيَّةِ وَتَنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَسْعُ أَحْوَالَهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنْ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرِّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية : الحكم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : تفاوت الأمر .

(٣) وفي النسخة الباريسية : الصناعات .

أهلي الدولة ثم في من تعلق بهم من أهل المضرو وهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم
ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر
قنونه وهذه هي الحضارة . ولهذا تجد الأخصار التي في القاصية ولو كانت موقورة
العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف
المدين المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك إلا لمجاورة
السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يتخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى
أن ينتهي إلى الجفوف على البعيد وقد قدمنا أن السلطان والدولة شوق للعالم .
فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه وإذا أبعثت عن السوق اقتصدت
البضائع جملة ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقت ملوكها في ذلك المضرو واحداً
بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً واعتبر ذلك في اليهود لما طال
ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال
المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل
حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم . ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في
الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة . وكذلك
أيضاً القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة
في بلدهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل . فلم
تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن
لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة آلاف من السنين وأعقبهم ملك
مصر . وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن
الكلدانيين والكيانين^(١) والكسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين فلم يكن على

(١) وفي نسخة أخرى : الكينية .

وَجِهَ الْأَرْضَ لِهَذَا الْعَهْدِ أَخْضَرَ^(١) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ . وَكَذَا أَيْضاً رَسَخَتْ
 عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِالْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ فِيهَا لِلْقَوِطِ ثُمَّ
 مَا أَعْقَبَهَا مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةِ الْأَفَا مِنْ السِّنِينَ وَكِلْتَا الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَةً فَاتَّصَلَتْ فِيهَا
 عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ . وَأَمَّا أَفْرِيْقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 مُلْكٌ ضَخْمٌ إِنَّمَا قَطَعَ الْإِفْرَنْجَةُ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ الْبَحْرِ وَمَلَكُوا السَّاحِلَ وَكَانَتْ طَاعَةُ
 الْبَرْبَرِ أَهْلِ الضَّاحِيَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فَكَانُوا عَلَى قَلْعَةٍ وَأَوْفَارِ^(٢) وَأَهْلُ
 الْمَغْرِبِ لَمْ تَجَاوِزْهُمْ دَوْلَةٌ وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْعَثُونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى الْقَوِطِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ
 وَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمَلَكَ الْعَرَبُ أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَلْبَثْ فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ
 إِلَّا قَلِيلاً أَوَّلَ الْإِسْلَامِ وَكَانُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي طَوْرِ الْبِدَاوَةِ وَمَنْ اسْتَقَرَّ مِنْهُمْ بِأَفْرِيْقِيَّةِ
 وَالْمَغْرِبِ لَمْ يَجِدْ بِهِنَّ مِنَ الْحَضَارَةِ مَا يُقَلَّدُ فِيهِ مَنْ سَلَفَهُ إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْغَمِسِينَ
 فِي الْبِدَاوَةِ ثُمَّ انْتَقَضَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعَهْدِ عَلَى مَيْسِرَةِ الْمُطْفِرِيِّ
 أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُرَاجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ وَاسْتَقَلُّوا بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ
 بَايَعُوا لِإِدْرِيسَ فَلَا تَعُدُّ دَوْلَتَهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً لِأَنَّ الْبَرَابِرَ هُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا وَلَمْ يَكُنْ
 مِنَ الْعَرَبِ فِيهَا كَثِيرٌ عَدِيدٌ وَبَقِيَتْ أَفْرِيْقِيَّةٌ لِلْأَغَالِيَةِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَكَانَ لَهُمْ
 مِنَ الْحَضَارَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمُلْكِ وَنِعْمِيهِ وَكَثْرَةِ عُمَرَانِ
 الْقَيْرَوَانِ وَوَرِثَ ذَلِكَ عَنْهُمْ كِتَابَةً ثُمَّ صَنَهَاجَةٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ لَمْ يَبْلُغْ
 أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ وَأَنْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحَضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ
 مُسْتَحْكَمَةٍ وَتَغَلَّبَ بَدْوُ الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّينَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنْ
 حَضَارَةِ الْعُمَرَانِ فِيهَا وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ يُونُسُ فِيمَنْ سَلَفَ لَهُ بِالْقَلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانِ أَوْ
 الْعَهْدِيَّةِ سَلَفٌ فَتَجَدُّ لَهُ مِنَ الْحَضَارَةِ فِي شُؤْنِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدِ أَسْوَالِهِ أَثَارًا مُلْتَبَسَةً
 بِغَيْرِهَا يُمَيِّزُهَا الْحَضْرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا وَكَذَا فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي

(١) الأصح أن يقول ، أكثر حضارة .

(٢) في النسخة الباريسية : وأوفاز . وفي نسخة أخرى : قلعة وافان وفي نسخة غيرها ، قلعة واوفار . وفازج

فازة . بناء من خرق وغيرها تبنى في المساكن .

المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغلبية والشيعة
 وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير
 من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد
 الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق
 ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل
 الأندلس ثم انتقل أهل شرقي الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها
 وبأمصارها من الحضارة آثاراً ومعظمها بثونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله
 المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة
 غمي عليه الخلاء ورجع إلى أعقابه وعاد التزير بالمغرب إلى أديانهم من البداوة
 والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما
 تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر
 بكثرة المترددين بينهم . فتفطن لهذا السرفانة خفي عن الناس . واعلم أنها أمور
 متناسية وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجليل وعظم المدينة أو
 المضر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران
 وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم
 ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفاض السلطان عطاءة وأمواله في
 أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج
 عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى يسار
 الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتة فاعثرتة وتأملة في
 الدول تجده والله يحكم ولا معقب لحكمه .

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وانها مؤذنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالذُّوْلَةَ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّ الْحَضَارَةَ غَايَةٌ
 لِلْبِدَاوَةِ وَأَنَّ الْعُمْرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمَلِكٍ وَسُوقَةٍ^(١) لَهُ عُمُرٌ مَخْسُوسٌ كَمَا
 أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ الْمَكُونَاتِ عُمُرًا مَخْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَقْضُولِ
 وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قُوَّاهُ وَنُمُوِّهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنُ
 الْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ الطَّبِيعَةُ عَنِ أَثَرِ النُّشُوءِ وَالنُّمُوِّ بَرْهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
 الْإِنْحِطَاطِ . فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الْحَضَارَةَ فِي الْعُمْرَانِ أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّ غَايَةَ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا
 وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْفَ وَالنُّعْمَةَ إِذَا حَصَلَا لِأَهْلِ الْعُمْرَانِ دَعَاهُمْ بِطَبِيعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ
 الْحَضَارَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحَضَارَةَ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ التَّفَنُّنُ فِي التَّرْفِ وَاسْتِجَادَةِ
 أَحْوَالِهِ وَالْكَلْفُ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُؤْتَقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمُهَيَّبَةِ
 لِلْمَطَايِخِ أَوْ الْمَلَابِسِ أَوْ الْمَبَانِي أَوْ الْفُرُشِ أَوْ الْإِنِّيَّةِ وَلسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ . وَلِلتَّائِقِ
 فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَائِعٌ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبِدَاوَةِ وَعَدَمَ التَّائِقِ فِيهَا .
 وَإِذَا بَلَغَ التَّائِقُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ الشُّهُوتِ فَتَتَلَوَّنُ النَّفْسُ
 مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٌ لَا يَسْتَقِيمُ خَالِهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا أَمَا دِينُهَا
 فَلَا يَسْتَحْكَمُ صِبْغَةَ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَغْسُرُ نَزْعَهَا وَأَمَا دُنْيَاهَا فَلِكثرةِ الْحَاجَاتِ وَالْمُنَوَّنَاتِ
 الَّتِي تُطَالِبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُعْجِزُ وَيُنْكَبُ^(٢) عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا . وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمِضْرَ
 بِالتَّفَنُّنِ فِي الْحَضَارَةِ تَعَطُّمُ نَفَقَاتِ أَهْلِهِ وَالْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الْعُمْرَانِ فَمَتَى
 كَانَ الْعُمْرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمِضْرَ الْكَثِيرَ الْعُمْرَانِ
 يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِهِ حَاجَتِهِ . ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ الْحَضَارَةَ
 إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدُّوْلَةِ فِي اسْتِفْخَالِهَا وَهُوَ زَمَنٌ وَضَعُ الْمَكُوسِ فِي الدُّوْلِ لِكثرةِ

(١) الرعية

(٢) وفي نسخة أخرى . الكسب

خَرَجَهَا حِينَئِذٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَالْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبَيْعَاتِ بِالْغَلَاءِ لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَةَ
كُلَّهُمْ يَخْتَسِبُونَ عَلَى سَلَمِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ جَمِيعٌ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ
فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِدَلِكِ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا . فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ
الْحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ . وَلَا يَجِدُونَ وَليجَةَ عَنِ ذَلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ
مِنْ أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلَّهَا فِي النُّفَقَاتِ وَيَتَنَابَعُونَ ^(١) فِي
الْإِمْلَاقِ وَالْخَاصَةِ ^(٢) وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ وَيَقِلُّ الْمُسْتَامُونَ لِلْمَبَائِعِ ^(٣) فَتَكْسُدُ
الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ خَالَ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلُّهُ إِفْرَاطُ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ . وَهَذِهِ
مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمُرَانِ . وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ
وَإِحْدًا وَإِحْدًا عَلَى الْخُصُوصِ فَمِنْ الْكُذِّ وَالتَّعَبِ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالتَّلَوْنِ بِالْوَالِيَانِ
الشَّرِّ فِي تَخْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الضَّرَرِ بَعْدَ تَخْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْزٍ آخَرَ
مِنْ الْوَالِيَانِ . فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفِسْقُ وَالتَّشْوِقُ وَالتَّحْيِيلُ عَلَى تَخْصِيلِ
الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ . وَتَنْصَرِفُ النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالنُّغُوصِ
عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى الْكُذِبِ وَالمُقَامَرَةِ وَالْعِشِّ وَالْخِلَاطِيَةِ
وَالسَّرِقَةِ وَالفُجُورِ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّرَبَا فِي الْبَيْعَاتِ ثُمَّ تَجِدُهُمْ لِكثْرَةِ الشَّهَوَاتِ وَالمَلَاذِ
النَّاشِئَةِ عَنِ التَّرَفِ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفِسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالمُجَاهِرَةِ بِهِ وَبِدَاوَعِيهِ وَاطَّرَاحِ
الْحِشْمَةِ فِي الْخَوْصِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَذَوِي الْأَرْحَامِ وَالمَحَارِمِ الَّذِينَ تَقْتَضِي
الْبِدَاوَةَ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ فِي الْإِفْتِدَاعِ بِذَلِكَ . وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالمَكْرِ وَالتَّخْدِيْعَةِ
يَذْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ
الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا لِأَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ . وَيَمُوجُ بَحْرُ
الْمَدِينَةِ بِالسُّفْلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَيَجَارِيهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ
وَوُلْدَانِهِمْ مِمَّنْ أَهْمِلَ عَنِ التَّادِيْبِ وَأَهْمَلْتَهُ الدَّوْلَةُ مِنْ عِدَادِهَا وَغَلَبَ عَلَيْهِ خُلُقُ

(١) وفي نسخة أخرى ، ويتنابعون .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الخاصة .

(٣) وفي نسخة أخرى ، البضائع .

الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات ^(١) وذلك أن الناس بشرٌ متمائلون وإنما
 تفاضلوا وتميزوا بالخلقِ واكتسابِ الفضائلِ واجتنابِ الرذائلِ . فمن استحكمت
 فيه صنعة الرذيلة باي وجيه كان ، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكاء نسيه ولا
 طيب منيته . ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت ودوي الأחסاب والأصالة وأهل
 الدول منطرحين في القمار ^(٢) منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من
 أخلاقهم وما تلوّنوا به من صنعة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة
 تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية
 أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ^(٣) . ووجهه حينئذ إن
 مكاسيهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم
 أحوالهم . وإذا فسدت أحوال الأشخاص وإحداً وإحداً اختل نظام المدينة وخربت
 وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص ^(٤) أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارج
 تأذنت بالخراب حتى أن كثيراً من العامة يتخامى غرس النارج بالدور تطيراً
 به . وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية ^(٥) في النارج وإنما معناه أن البساتين
 وأجزاء المياه هو من توابع الحضارة . ثم إن النارج واللية ^(٦) والسرور وأمثال ذلك
 مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية ^(٧) الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلا
 أشكالها فقط ولا تفرس إلا بعد التفتن في مذاهب الترف . وهذا هو الطور الذي
 يخشى معه هلاك المضر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من
 هذا الباب إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلوّن البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض
 وهو من مذاهب الترف . ومن مفايد الحضارة الإنهماك في الشهوات والاسترسال

(١) وفي النسخة الباريسية : وأبوات .

(٢) جماعة من الناس .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٦ .

(٤) وفي نسخة أخرى : أهل الحواضر .

(٥) وفي نسخة أخرى : خاصة . وفي النسخة الباريسية : طيرة .

(٦) وفي نسخة أخرى : غايات .

(٧) وفي نسخة أخرى : الليم .

فِيهَا لِكَثْرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ الْبَطْنِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَلَاذِ وَالْمَشَارِبِ وَطَيْبِهَا . وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ الْفَرْجِ بِأَنْوَاعِ الْمَنَاجِحِ مِنَ الزُّنَا وَاللُّوَاطِ . فَيُفْضِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النَّوْعِ . إِمَّا بِوَاسِطَةِ اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ . كَمَا فِي الزُّنَا ، فَيَجْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ ابْنَهُ ، إِذْ هُوَ لَيْغِيرُ رَشْدَةٍ ، لِأَنَّ الْمِيَاهَ مُخْتَلِطَةٌ فِي الْأَرْحَامِ ، فَتَفْقَدُ الشَّفَقَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَلَى الْبَنِينَ وَالْقِيَامَ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُونَ . وَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ ، أَوْ يَكُونُ فَسَادُ النَّوْعِ بغيرِ وَاسِطَةٍ . كَمَا فِي اللُّوَاطِ الْمُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ النَّسْلِ رَأْسًا وَهُوَ أَشَدُّ فِي فَسَادِ النَّوْعِ . وَالزُّنَا يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ مَا يُوجَدُ مِنْهُ . وَلِذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ فِي اللُّوَاطِ أَظْهَرَ مِنْ مَذْهَبِ غَيْرِهِ ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَبْصَرَ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَاعْتَبَرَهَا لِلْمَصَالِحِ .

فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَاعْتَبَرَ بِهِ أَنَّ غَايَةَ الْعُمُرَانِ هِيَ الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْقَلَبَ إِلَى الْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي الْهَرَمِ كَالْأَعْمَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ . بَلْ نَقُولُ إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَاصِلَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ الْفَسَادِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِاقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّمِيِّ فِي ذَلِكَ . وَالْحَضْرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِذَا عَجَزَ لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرَفَعًا لِمَا حَصَلَ مِنَ الْمَرْبَى فِي النِّعَمِ وَالتَّرَفِ وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ . وَكَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضَارِ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّمِيِّ فِي ذَلِكَ . وَالْحَضْرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْإِنْسَانِ بِالتَّرَفِ وَالنِّعَمِ ^(١) فِي قَهْرِ التَّأْدِيبِ وَالتَّعَلُّمِ فَهُوَ بِذَلِكَ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ . ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ ^(٢) مِنْهُ الْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا ^(٣) كَمَا قَرَّرْنَا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَإِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْحًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ مِنْ جُنْدِ السُّلْطَانِ إِلَى الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِينَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْبَاسِ بِالتَّرَفِ وَالرِّبِيِّ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، أَسَدَتْ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، وَمَلَكَاتِهَا .

يَتَرَبُّونَ عَلَى الْحِضَارَةِ وَخُلِقَهَا . مَوْجُودُونَ^(١) فِي كُلِّ دَوْلَةٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْحِضَارَةَ هِيَ سِنُ الْوُقُوفِ لِعُمُرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمُرَانِ وَالِدَوْلَةِ^(٢) وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ .

الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ الَّتِي تَكُونُ كِرَاسِيًّا لِلْمَلِكِ تَخْرُبُ بِخَرَابِ الدَّوْلَةِ
وَانْقِرَاضِهَا

قَدْ اسْتَفْرَيْنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِضْرَ الَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخَرَابِ وَلَا يَكَادُ ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ . وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ الْأُولَى أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْبُعْدِ عَنِ التَّحَدُّثِ . وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْجَبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ الدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ النِّفَقَاتُ وَيَقِلُّ^(٣) التَّرْفُ فَإِذَا صَارَ الْمِضْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ التَّرْفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرْفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَتَعَلَّقُ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعًا لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِهِمْ أَوْ كَرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْإِنْقِبَاضِ عَنِ التَّرْفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ الْعَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ لِذَلِكَ حِضَارَةُ الْمِضْرِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرْفِ . وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُ فِي خَرَابِ الْمِضْرِ . الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْهَا يَخْضَلُ لَهَا الْمَلِكُ وَالْإِسْتِيْلَاءُ بِالْغُلْبِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ . وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مَنَافَاةً بَيْنَ أَهْلِ الدَّوَلَتَيْنِ . وَتَكْثُرُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ . وَغُلْبُ أَحَدِ الْمُتَنَافِسِينَ يَذْهَبُ بِالْمُنَافِي الْأَخَرَ فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ

(١) وفي نسخة أخرى ، وهذا موجود .

(٢) وفي نسخة أخرى ، من العمران والدول .

(٣) وفي نسخة أخرى ، يقصر .

السابقة مُنكرة عند أهل الدولة الجديدة ومُستبشعة ومُبيحة . وخصوصاً أحوال
التُرفِ فنفقُد في عِرفهم بِتُكبير الدولة لها حتى تُنشأ لهم بالتدريج عوائد أُخرى من
التُرفِ فتكون عنها حِضارة مُستأنفة . وفيما بين ذلك قُصور الحِضارة الأولى
ونقصها وهو معنى اختلال العُمران في المِصر . الأمر الثالث أن كُل أمة لا بُد لهم
من وطن وهو منشأهم ومنه أولية مُلكهم . وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول
وأُضارة تابعة لأُضار الأول . واتسع نطاق المُلك عليهم . ولا بُد من تَوسُّط
الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فينمُد مكانه عن
مكان الكرسي الأول . وتَهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسُلطان فينتقل إليه
العُمران ويخف من مِصر الكرسي الأول . والحِضارة إنما هي تَوفُر^(١) العُمران كما
قَدَّمناه فننقص حِضارته وتمُدُّته وهو معنى اختلاله . وهذا كما وقع للسُلجوقية في
عُدولهم بِكرسيهم عن بغداد إلى أذربان وللمغرب قبلهم في العُدول عن المَدائن إلى
الكوفة والبصرة . ولبنى العباس في العُدول عن دمشق إلى بغداد ولبنى مرين
بالمغرب في العُدول عن مراكش إلى فاس . وبالجُملة فاتخذت الدولة الكرسي في
مِصر يخل بعُمران الكرسي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بُد فيها من
تتبع^(٢) أهل الدولة السابقة وأُشباعها بتحويلهم إلى قطر آخر يُؤمن فيه غائلتهم على
الدولة وأكثر أهل المِصر الكرسي أشتاع الدولة . إما من الحامية الذين نزلوا به
أول الدولة أو أعيان المِصر لأن لهم في الغالب مُخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع
أصنافهم . بل أكثرهم ناشيء في الدولة فهم شبيعة لها . وإن لم يكونوا بالشوكة
والعِصية فهم بالميل والمُحبة والمُقيدة . وطبيعة الدولة المتحددة نحو آثار الدولة
السابقة فينتقلهم من مِصر الكرسي إلى وطنها المُتمكن في ملكيتها . فيبعضهم على
نوع التفریب والتحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطيف بحيث لا يُؤدِّي إلى
التفرة حتى لا يتقى في مِصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلج والبيارة

(١) وفي نسخة أخرى . بوفور .

(٢) وفي نسخة أخرى . تتبع .

وَسَوَادِ الْعَامَةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتُهَا وَأَشْيَاعَهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِضْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ
 الْمِضْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمَرَانَ . ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ
 أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمَرَانَ آخَرَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلَ فِيهِ حِصَارَةٌ آخَرَى عَلَى قَدْرِ
 الدَّوْلَةِ . وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمِثَالِيَّةِ (مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَاطَّهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ
 عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ) ^(١) وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيَقْتَرِحُهُ فَيُخَرَّبُ ذَلِكَ
 الْبَيْتَ ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا . وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي هِيَ كُرَاسِي
 لِلْمُلْكِ وَشَاهَدِنَاهُ وَعَلِمْنَاهُ « وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » . وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ
 فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ لِلْعُمَرَانَ بِمِثَالِيَّةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ الشُّكْلُ
 الْخَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا . وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ انْتِفَاكُ أَحَدِهِمَا
 عَنِ الْآخَرِ . فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمَرَانَ لَا تَتَّصُرُ وَالْعُمَرَانَ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكَ مُتَعَدِّرٌ لِمَا
 فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدُونِ ^(٢) الدَّاعِي إِلَى الْوَأَزِ فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِذَا الشَّرْعِيَّةُ
 أَوْ الْمُلْكِيَّةُ وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَتَمَكَّنَانِ فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ
 الْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخَلْلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلْلِ الدَّوْلَةِ
 الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوْ الْفَرَسِ أَوْ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بِنِي أُمِّيَّةٍ أَوْ بِنِي الْعَبَّاسِ
 كَذَلِكَ . وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ أُنُو شِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلٍ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ
 مَرْوَانَ أَوْ الرَّشِيدِ فَأَشْخَاصَهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمَرَانَ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبِقَائِهِ وَقَرِيْبَةٌ
 الشَّيْءِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ اخْتِلَالِ لَأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ
 الْعُمَرَانَ إِنَّمَا هِيَ الْعَضْبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ
 تِلْكَ الْعَضْبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَضْبِيَّةٌ آخَرَى مُؤَثَّرَةٌ فِي الْعُمَرَانَ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ
 وَعَظَمَ الْخَلْلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوْلَا « وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ » ^(٣)

(١) وفي نسخة أخرى وردت الجملة كما يلي : « من يملك بيتاً داخله البلى . والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على أوصافٍ مخصوصة على تغيير تلك الأوضاع . »

(٢) وفي النسخة الباريسية (من التعاون)

(٣) وفي نسخة أخرى : والله قادر على ما يشاء . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المِصرِ يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المِصرِ فيقومون عليه ويستنبصون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المِصرِ والحاجة إليه . وما لا تستدعي في المِصرِ يكون غفلاً إذ لا فائدة لمنتحله في الإحتراف به . وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مِصرٍ كالخياط والحديد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفراش والذبايح وأمثال هذه وهي متفاوتة . ويقدر ما تزيد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المِصرِ دون غيره ومن هذا الباب الحماقات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التثمن ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة . وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيحطها ويجري أحوالها . إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفر عنها القومة لقله فائدتهم ومعاشهم منها . والله يقبض وينسط .

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الإلتحام والانتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب وأنه تحصل به العصبية

بعضاً مما تحصل بالنسب . وأهل الأمصار كثير منهم ملتجئون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لهما لهما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصدقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترون شيئاً^(١) وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة^(٢) عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس يطباعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة لخلأ الجؤ من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينزع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالى والشيخ والأخلاف وينذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعضو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أكفائه ليقتص من أغنيتهم ويتبعهم بالقتل أو التعريب حتى يخض منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأضر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والجلس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب بالتهويل ما يشخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل . إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية . وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب^(٣) السداجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث . وقد وقع هذا بأفريقيته لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك . سمو إلى مثلها عند

(١) وفي النسخة الباريسية ، شعباً .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وتقلص الملك عن القاصية .

(٣) وفي نسخة أخرى ، مناهب .

تَقَلَّصَ ظِلَّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْذُ عُفُودِ مِنَ السَّنِينَ فَاسْتَعْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْحَبَايَةِ . وَأَعْطَوْا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ وَصَفْقَةَ مُمْرُضَةَ وَأَقْطَعُوا جَانِبًا مِنَ الْمَلَايِنَةِ وَالْمَلَاظِفَةِ وَالْإِنْتِقَادِ وَهُمْ بِمَعْرِزِلِ عَنْهُ . وَأَوْرَثُوا ذَلِكَ أَغْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَحَدَّثَ فِي خَلْفِهِمْ^(١) مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّجْبُرِ مَا يَحْدُثُ لِأَغْقَابِ الْمُلُوكِ وَخَلْفِهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السُّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى مَحَا ذَلِكَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَانْتَرَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَكْرُهُ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ . وَقَدْ كَانَ مِثْلَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصُّنْهَاجِيَّةِ وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ أَهْلِهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَرَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُؤَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ عَلِيٍّ وَتَقَلَّصَ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارَهُمْ كَمَا نَذَكُرُ فِي أَخْبَارِهِ . وَكَذَا وَقَعَ بِسُنْتَةِ لَأَخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبَيْوَاتِ الْمُرْشِحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْمِصْرِ . وَقَدْ يَحْدُثُ التَّغْلِبُ لِبَغْضِ السُّفْلَةِ مِنَ الْفُجْوَاعِ وَالذُّهْمَاءِ . وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ وَالْإِلْتِحَامُ بِالْأَوْعَادِ لِأَسْبَابٍ يَجْرُهَا لَهُ الْمِقْدَارُ فَيَتَغَلَّبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعَلِيَّةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعِصَايَةِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأمصار

إِعْلَمَ أَنَّ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ أَوْ الْجِيلِ الْغَالِبِينَ عَلَيْهَا أَوْ الْمُخْتَطِّينَ لَهَا وَلِذَلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمِصْرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعْرَابُهُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْعَلْبِ عَلَى الْأَمَمِ وَالذِّينِ وَالْمِلَّةِ صُورَةَ

(١) وفي نسخة أخرى : خلفهم .

لِلوُجُودِ وَلِلْمَلِكِ . وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهٗ وَالصُّورَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْمَادَّةِ وَالَّذِينَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنْ
الشَّرِيعَةِ وَهِيَ يَلْسَانُ الْعَرَبِ لِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَبِيٌّ فَوَجِبَ هَجْرُ مَا سِوَى
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْأَلْسُنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نَهْيِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ عَنِ بَطَانَةِ^(١) الْأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خَبٌ . أَيْ مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ . فَلَمَّا هَجَرَ الَّذِينَ
اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَكَانَ لِسَانُ الْقَائِمِينَ بِالذُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هَجَرَتْ كُلُّهَا فِي
جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ النَّاسَ تَتَعَّ لِلسُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ اسْتِعْمَالُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
مِنْ شُعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ الْعَرَبِ . وَهَجَرَ الْأُمَّمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ
وَالْمَمَالِكِ . وَصَارَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ
وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ الْأَلْسِنَةُ الْعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً . ثُمَّ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ
بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي الدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ
وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضْرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَأَيْضًا فَأَكْثَرَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فِي الْعِلْمَةِ
لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَعْقَابِ الْعَرَبِ الْعَالِكِينَ لَهَا . الْهَالِكِينَ فِي تَرْفِهَا بِمَا كَثُرُوا الْعَجَمُ
الَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ . وَاللُّغَاتُ مُتَوَارِثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ الْأَعْقَابِ عَلَى
حِيَالِ لُغَةِ الْآبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ الْأَعْجَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَسُمِّيَتْ
لُغَتَهُمْ حَضْرِيَّةً مُنْسُوبَةً إِلَى أَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ الْبَدْوِ مِنَ الْعَرَبِ
فَإِنَّهَا كَانَتْ أُعْرِقَ فِي الْعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْعَجَمُ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمْ
بِالْمَشْرِقِ . وَزَنَاتَهُ وَالْبَرْبُرُ بِالْمَغْرِبِ . وَصَارَ لَهُمُ الْمَلِكُ وَالِاسْتِيفَاءُ عَلَى جَمِيعِ
الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ
عِنَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَيْنِ يَهْمَا حَفِظَ الَّذِينَ وَسَارَ ذَلِكَ مَرْجِحًا
لِبَقَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُضْرِيَّةِ مِنَ الشُّعْرِ وَالْكَلامِ إِلَّا قَلِيلًا بِالْأَمْصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ التُّتْرُ
وَالْمَعْمُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَرْجِحُ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ
الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ

(١) وفي نسخة أخرى : رطانة (وهي الأصح مع مقتضى سياق الجملة) .

وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسُّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشَّمَالِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَذَهَبَتْ
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشُّعْرِ وَالْكَلامِ إِلَّا قَلِيلاً يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالْقَوَانِينِ
 الْمُتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامٍ ^(١) الْعَرَبِ وَحَفِظَ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرَهُ اللهُ تَعَالَى لِنَدِكَ . وَرُبَّمَا
 بَقِيَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُضْرِيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ وَبِالْمَغْرِبِ لِبِقَاءِ الَّذِينَ طَلَبُوا
 لَهَا فَانْحَفَظَتْ بِنِعْضِ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا
 عَيْنٌ حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيْسُهُ فِي
 الْمَجَالِسِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا
 مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا دَائِمًا أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ .

الباب الخامس

من الكتاب الأول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله

من الأحوال وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وإن الكسب هو قيمة الأعمال
 البشرية

إِغْلَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِالطَّبِيعِ إِلَى مَا يَقُوْتُهُ وَيَمُوْنُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ
 لَدُنْ نَشُوْهِهِ إِلَى أَشَدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ
 جَمِيعَ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَأَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ : « خَلَقَ

(١) وفي نسخة : علوم .

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ^(١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْفَلَكَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ . وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ . وَيَدُ الْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ
وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ . وَأَيْدِي الْبَشَرِ مُنتَشِرَةٌ فِيهِ مُشْرَكَةٌ فِي
ذَلِكَ . وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَذَا امْتِنَعَ عَنِ الْآخِرِ إِلَّا بِعَوْضٍ . فَالْإِنْسَانُ مَتَى اقْتَدَرَ
عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ طَوْرَ الضَّعْفِ سَعَى فِي اقْتِنَاءِ الْمَكَايِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فِي
تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ بِدَفْعِ الْأَعْوَاضِ عَنْهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَاثْبَتُوا عِنْدَ
اللَّهِ الرِّزْقَ » وَقَدْ يَحْضُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُضْلِحِ لِلزَّرْعَةِ وَأَمْثَالِهِ . إِلَّا
أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكَايِبُ
مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشاً وَمَتَمُولاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ
إِنَّ ذَلِكَ الْحَاصِلَ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ
إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقاً . قَالَ ﷺ : « إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ
مَا أَكَلْتَ فَأَنْبَيْتَ أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي
شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقاً وَالْمُتَمَلِّكُ مِنْهُ
حِينَئِذٍ بِسَعْيِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً . وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً إِذْ لَمْ يَحْضُلْ بِهِ مُنْتَفِعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى
انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً . هَذَا حَقِيقَةٌ مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ
الْمُعْتَرِلُ فِي تَسْمِيَّتِهِ رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصْحُ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يَتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ
لَا يُسَمَّى رِزْقاً وَأُخْرِجُوا الْغُصُوبَاتِ ^(٢) وَالْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً
وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْغَاصِبَ وَالظَّالِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهُدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ .
وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بَسْطِهَا . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالسَّعْيِ فِي الْإِقْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) في النسخة الباريسية ، الغصوبات . ولم ترد بلسان العرب الغصوبات . لذلك من الأصح أن يقول

الغصوبة .

تَنَاوَلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ . قَالَ تَعَالَى : « فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ » وَالسَّعْيُ إِلَيْهِ
 إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِهِ ، فَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ
 وَإِنْ كَانَ مُقْتَنِي مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
 تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْضَلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ انْتِفَاعٌ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ
 مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيَمَةً لِكُلِّ مُتَمَوِّلٍ . وَهُمَا الذُّخِيرَةُ وَالْقِنِيَّةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي
 الْغَالِبِ . وَإِنْ أَقْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ
 فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْرُوفٍ فَهُمَا أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَالْقِنِيَّةِ
 وَالذُّخِيرَةِ . وَإِذَا تَفَرَّرَ هَذَا كُلُّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ الْمُتَمَوَّلَاتِ
 إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَالْمَفَادُ الْمُقْتَنِي مِنْهُ قِيَمَةٌ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقِنِيَّةِ إِذْ لَيْسَ
 هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنِيَّةِ . وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا
 غَيْرُهَا مِثْلَ التَّجَارَةِ وَالْحِيَآكَةِ مَعَهُمَا الْخَشَبُ وَالغَزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فِقِيَمَتُهُ
 أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الصَّنَائِعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيَمَةِ ذَلِكَ الْمَفَادِ وَالْقِنِيَّةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ
 الْعَمَلِ الَّذِي حَضَلَتْ بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْضَلْ قِنِيَّتُهَا . وَقَدْ تَكُونُ مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ
 ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا فَتَجْعَلُ لَهُ حِصَّةً مِنَ الْقِيَمَةِ عَظِيمَةً أَوْ صَغِيرَةً . وَقَدْ تَخْفَى
 مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ اخْتِبَارَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا
 مَلَاخِظٌ فِي أَسْعَارِ الْحُبُوبِ كَمَا قَدَّمْنَا لَكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلْجِ فِيهَا
 وَمَوْتُهُ يَسِيرَةٌ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ أَهْلِ الْفُلْجِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَفَادَاتِ
 وَالْمَكْسَبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مَسْمَى الرَّزْقِ
 وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ . فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ وَالرُّزْقِ وَشُرْحُ مَسْمَاهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا
 فُقِدَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بِانْتِقَاصِ الْعُمُرَانِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ أَوْ تَرَى الْآ
 الْأَمْصَارَ الْقَلِيلَةَ السَّاكِنِينَ كَيْفَ يَقِلُّ الرَّزْقُ وَالْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانُهَا ^(١) أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالًا

(١) وفي النسخة الباريية : تكون اعمالها .

وَأَشَدُّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلَ وَمِنْ هَذَا الْيَابِ تَقُولُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمَرَانَهَا إِنَّهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنْ الْأَنْهَارَ وَالْعُمُونَ يَنْقَطِعُ جَزْيُهَا فِي الْفَقْرِ لَمَّا أَنْ فَوْرَ الْعُمُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاتِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَمَا لَمْ يَكُنْ إِنْبَاتٌ وَلَا إِمْتِرَاءٌ نَضِبَتْ وَعَارَتْ بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَحِفُّ الضَّرْعُ إِذَا تَرَكَ امْتِرَاؤَهُ . وَأَنْظُرُهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تَمُتُّ فِيهَا الْعُمُونَ لِأَيَّامِ عُمَرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخَرَابُ كَيْفَ تَفُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .

الفصل الثاني

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

إِغْلَمُ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ اتِّعَافِ الرِّزْقِ وَالسُّعْيِ فِي تَخْصِيلِهِ وَهُوَ مَغْفَلٌ مِنَ الْعَيْشِ . كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهَذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعًا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَخْصِيلَ الرِّزْقِ وَكَسْبَهُ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ وَاتِّزَاعِهِ بِالِاقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونٍ مُتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَمًا وَجَبَانِيَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانَ الْوَحْشِيِّ بِاقتِرَاسِهِ ^(١) وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى اضْطِيَادًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانَ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فَضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دَوْدِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ فِي الرُّزْقِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ فَلْحًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَتِجَارَةٍ وَخِيَاطِيَّةٍ وَحِيَاكِيَّةٍ وَفَرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ الْإِمْتِهَانَاتِ وَالتَّصْرُفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ

(١) وفي نسخة أخرى : باقتنائه .

وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِذَا بِالتَّغْلِبِ بِهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَازْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا . وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً . فَهَذِهِ وَجْهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : « الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ » . فَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبِ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْجَبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفُضْلِ الثَّانِي . وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فَهِيَ وَجْهُ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فَطَرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَوَّلُ وَجْهِ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبَهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ . وَأَمَّا الصَّنَاعَةُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمَتَأَخَّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُضَرَفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخَّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ . وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى إِدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَمَّا التِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةً فِي الْكَسْبِ فَلَا كَثْرَ مِنْ طَرَفِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحِيلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ لِتَحْصُلِ فَائِدَةِ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ . وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمَكَاسِبَ ^(١) لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أُخِذَ الْمَالُ الْغَيْرُ مَجَانًا فَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من الطبيعي

إِغْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ . وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : المكاسب .

الْمُضَيِّعَ وَلَوْ كَانَ مَأْمُونًا فَضَرَرَهُ بِالتَّضْيِيعِ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ . فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاتَّخَذَهُ قَانُونًا
فِي الإِسْتِكْفَاءِ بِالْخِدْمَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

الفصل الرابع

في ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إِغْلَمَ أَنْ كَثِيرًا مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ فِي الْأَمْصَارِ يَخْرُصُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ
مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَيَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ
مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مَخْتَوِمَةٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَاسِمِ سِحْرِيَّةٍ . لَا يَفُضُّ خِتَامَهَا
ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَشَرَ عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقُرْبَانِ . فَأَهْلُ
الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقِيَّةَ يَزُورُونَ أَنَّ الْإِفْرَنْجَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ
كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي الصُّخْرِ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا . وَأَهْلُ
الْأَمْصَارِ بِالشَّرْقِ يَزُورُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَّمِ الْقَيْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ . وَيَتَنَاقَلُونَ فِي
ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشْبِهُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ مِنْ انْتِهَاءِ بَغْضِ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ
الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلْسَمَهُ وَلَا خَبْرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِالذِّيدَانِ . أَوْ
يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَالْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سَيُوفَهُمْ . أَوْ تَعِمُّدُ بِهِ
الْأَرْضَ حَتَّى يَطْنَهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْهَذَرِ . وَيَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ الْبَرِّ بِرِ
بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا
بِالْأَوْرَاقِ الْمُتَخَرِّمَةِ^(١) الْحَوَاشِي إِثْمًا يَخْطُوطُ عَجْمِيَّةٌ أَوْ بِمَا تُرْجَمُ بِرُغْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ
خَطُوطِ أَهْلِ الدَّفَائِنِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ
بِمَا يَبْتَغُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ وَيَمُوهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الإِسْتِعَانَةِ
بِهِمْ طَلَبُ النِّجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَّامِ وَالْمَقْبُولَاتِ . وَرَبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ

(١) وفي النسخة الباريسية : المختزمة .

يَعْلَمُ غِنَاءَهُ فِيهِ وَيَتَكَلَّمُ بِأَرْزَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ . وَهَذَا كُلُّهُ مُنْدَرِجٌ فِي الْإِمَارَةِ
وَمَعَاشِهَا إِذْ كُلُّهُمْ يَنْسَحِبُ^(١) عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِمَارَةِ وَالْمَلِكُ الْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ
جَدَائِلِهِمْ . وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنْ أَكْثَرَ الْمُتَرْفِعِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ
مَبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنْهَا لِمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ التَّنَعُّمِ وَالتَّرَفِّ فَيَتَّخِذُ
مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ وَيَقْطَعُهُ عَلَيْهِ أَجْرًا مِنْ مَالِهِ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ غَيْرُ مَخْمُودَةٍ بِحَسَبِ
الرُّجُولِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ الثَّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ . وَلِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي الْوُظَائِفِ
وَالخُرُجِ وَتَدُلُّ عَلَى الْعَجْزِ وَالخَنْثِ الَّذِي يَنْبَغِي فِي مَذَاهِبِ الرُّجُولِيَّةِ التَّنَزُّهُ عَنْهُمَا .
إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طَبَاعَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَالُوفِهَا فَهَوَّ ابْنُ عَوَائِدِهِ لَا ابْنَ نَسَبِهِ . وَمَعَ
ذَلِكَ فَالْخَدِيمُ الَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغِنَائِهِ كَالْمَفْقُودِ إِذَا الْخَدِيمُ الْقَائِمُ بِذَلِكَ
لَا يَعْدُو أَرْبَعَ حَالَاتٍ : إِمَّا مُضْطَلَعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِيَدِهِ وَإِمَّا
بِالعَكْسِ فِيهَا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُضْطَلَعٍ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِيَدِهِ
وَإِمَّا بِالعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلَعًا غَيْرَ مُوثُوقٍ أَوْ مُوثُوقًا غَيْرَ
مُضْطَلَعٍ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمُضْطَلَعُ الْمُوثُوقُ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا اسْتِعْمَالَهُ بِوَجْهِ إِذْ هُوَ
بِاضْطِلَاعِهِ وَثِقَتِهِ غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ الرُّتَبِ الدُّنْيَا وَمُخْتَقِرٌ لِمِثَالِ الْأَجْرِ مِنَ الْخِدْمَةِ
لِاقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَعْمَلُهُ إِلَّا الْأَمْرَاءُ أَهْلُ الْجَاهِ الْعَرِيضِ لِعُمُومِ
الْحَاجَةِ إِلَى الْجَاهِ . وَأَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلَعٍ وَلَا مُوثُوقٍ فَلَا
يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ اسْتِعْمَالَهُ لِأَنَّهُ يُخِيفُ بِمَخْدُومِهِ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعًا فَيَضِيعُ عَلَيْهِ لِقَدَمِ
الِاضْطِنَاعِ تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِالْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ .
فَهَذَانِ الصَّنِفَانِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي اسْتِعْمَالِهِمَا . وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا اسْتِعْمَالَ الصَّنْفَيْنِ
الْآخَرَيْنِ ، مُوثُوقٍ غَيْرِ مُضْطَلَعٍ وَمُضْطَلَعٍ غَيْرِ مُوثُوقٍ وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا
مَذْهَبَانِ . وَلِكُلِّ مِنَ التَّرْجِيحَيْنِ وَجْهٌ . إِلَّا أَنَّ الْمُضْطَلَعِ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُوثُوقٍ أَرْجَحُ
لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيَحَاوِلُ عَلَى التَّخَرُّرِ مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدَ الْإِسْطِاعَةِ وَأَمَّا

(١) بِمَعْنَى يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَتْ عَلَى الْجَارِ .

بَعْضِهِمْ نَادِرَةٌ أَوْ غَرِيبَةٌ مِنَ الْأَعْمَالِ السُّحْرِيَّةِ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَعْرِزِلٍ عَنِ السُّحْرِ وَطَرِيقِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ الْأَيْدِي عَلَى الْإِحْتِفَارِ وَالشُّسْرِ فِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مَخَافَةَ الرُّقْبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ الدُّوَلِ . فَإِذَا لَمْ يَعْمُرُوا عَلَى شَيْءٍ زَدُوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطَّلَسِمِ الَّذِي خْتَمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِحْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ . وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْعَالِبِ زِيَادَةٌ عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْفَلْحِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُنْحَرَفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى^(١) الطَّبِيعِيِّ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ عَجْزاً عَنِ السَّعْيِ فِي الْمَكَاسِبِ وَرُكُوناً إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَاكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِتِّغَاءِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ . وَرَبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُرُوجُهَا عَنْ حُدِّ النَّهَائِيَّةِ حَتَّى تَقْصُرَ عَنْهَا وَجُوهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَفِي بِمَطَالِبِهَا . فَإِذَا عَجِزَ عَنِ الْكَسْبِ بِالْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيحَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا التَّمَنِّيَ لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ لِيَفِي لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرَهَا فَيَخْرُصُ عَلَى ائْتِغَاءِ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهَذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَخْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ الْمُتَرْفُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلَةِ وَمَنْ سَكَانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ الْمُتَسَعِّةِ الْأَحْوَالِ مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِإِتِّغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمَسَاءَلَةَ الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَازِهِ كَمَا يَخْرُصُونَ عَلَى الْكِيمِيَاءِ . هَكَذَا بَلَّغْنِي^(٢) عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مَفَاوِضِهِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ الصَّغَارِيَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْمُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ الْبَحْثَ عَنْ تَغْوِيرِ الْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنْ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةِ كُلِّهَا فِي مَجَارِي النِّيلِ وَأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا يَسْتَرِدُّونَهُ أَوْ مَخْتَرِنَا فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الدَّفَاتِرِ الْمُفْتَعَلَةِ

(١) وفي النسخة الباريية، الوجه .

(٢) وفي نسخة أخرى، بيلغنا .

في الإغتنار عن الوصول إليها بحرية النيل تسراً بذلك من الكذب حتى يحصل
على معاشه فيحرص سماع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتخصيل
مبتغاه من هذه كلفاً بشأن السحر متوارثاً في ذلك القطر عن أوليه فعلمهم
السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري^(١) وغيرها. وقصة سحرة فرعون
شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء
المشرق تغطي فيها كيفية العمل بالتفوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي
هذه :

إسمع كلام الصديق من خبير
من قول بهتانٍ ولفظ غرور
إن كنت ممن لا يزي بالزور
حارت لها الأوهام في التدبير
والرأس رأس الشبل في التفوير
في الدلو ينشل من قرار البير
غدة الطلاق اخذ من التكرير
مشي اللبيب الكيس النحرير
تزييعه أولى من التكوير
واقصده عقب^(٢) الذبح بالتبخير
والقسط والبسه بثوب حرير
لا أخضر فيه ولا تكدير
أو أخمر من خالص التخمير

يا طالباً للسر في التفوير
ذغ عنك ما قد صنفوا في كتبهم
واسمع لصديق مقالتي ونصيحتي
فإذا أردت تفور البشر التي
صور كصورتك التي أوقفتها
ويدها ماسكتان للخبيل الذي
ويصدره هاء كما عاينتها
ويطأ على الطاءات غير ملامس
ويكون حول الكل^(٣) خط دائر
واذبح عليه الطير والطخه به
بالسندروس وباللبان ومنيعه
من أخمر أو أخضر لا^(٤) أزرق
ويشده خيطان صوف أبيض

(١) وفي النسخة الباريسية : البرابي .

(٢) ونسخة أخرى : والشكل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : واقصد عقب .

(٤) وفي النسخة الباريسية : أخضر أو .

وَالطَّلَعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ بَيَّنُوا وَيَكُونُ بَدْءُ^(١) الشَّهْرِ غَيْرَ مُبِيرٍ
وَالْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ التَّذْيِيرِ
يَعْنِي أَنْ تَكُونَ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنْ هَذِهِ
الْقَصِيدَةُ مِنْ تَمْوِيهَاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ^(٢) فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ
عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي التَّخْرِفَةُ^(٣) وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالِدُورَ
الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ الْخُفْرَ وَيَضْعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي
يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفٍ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ
(وَيَعْتُونَ عَلَى كُبْرَاهِ)^(٤) ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ
لَا يُعْبَرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ الْعُقَايِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِجَلِّ الطَّلَاسِمِ
وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدَوْهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَغِثُ لِمَا
يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ وَيَبْنَهُمْ فِي ذَلِكَ
أَصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يَلْبَسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتَلَوْنَهُ^(٥) مِنْ
خُفْرٍ وَبُخُورٍ وَذَبِجٍ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ
لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبْرٍ وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تَوْجَدُ لِكُنْهَا فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى
وَجْهِ الْإِتْفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَضْدِ إِلَيْهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعْمُ بِهِ الْبُلُوى حَتَّى
يُدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَخْتُمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي
الْحَدِيثِ . وَالرَّكَازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا
يُوجَدُ بِالْعُثُورِ وَالْإِتْفَاقِ لَا بِالْقَضْدِ وَالطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ اخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ
بِالْأَعْمَالِ السَّخْرِيَّةِ فَقَدْ بَالِغٌ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصَبُ عَلَيْهِ الْأَدْلَةَ وَالْأَمَارَاتِ لِمَنْ
يَنْتَبِغِيهِ . وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى دُخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ

(١) وفي النسخة الباريسية : بدر .

(٢) وفي النسخة الباريسية : المتخرفين .

(٣) وفي النسخة الباريسية : المخرفة .

(٤) وفي نسخة أخرى : ويبعثونه على اكتراء .

(٥) وفي نسخة أخرى : يتناولونه .

والآفاق؟ هذا يُناقض قصد الإخفاء. وأيضاً فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع. ومن اختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن ينقص إخفاءه بالكليّة عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكليّة ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه. وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفرة؟ فأعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن. والعمران يُظهرها بالأعمال الإنسانيّة وتزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وزيّماً انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه^(١). والعمران الذي يستدعي له فإن نقص المال في المغرب وأفريقيّة فلم ينقص بلاد الصقالبيّة والإفرنج وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين. وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوقرها أو ينقصها. مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجواهر أعظم مما يسرع إلى غيره. وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والنفاء ما يذهب بأعينها لأقرب وقت. وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ ألف^(٢) أو يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انتقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم تقرّوا على ذلك في قبورهم فكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها كثيراً من الأوقات. أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرّمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من

(١) وفي النسخة الباريّة: أمواضه.

(٢) وفي النسخة الباريّة: منذ ألفين اثنين وفي نسخة أخرى منذ ألف.

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقَبِيْطِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السَّنِيْنَ مَطْنَةٌ لِرُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا . فَلِذَلِكَ عَنِي أَهْلُ مِصْرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَطَالِبِ لِرُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا . حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضُرِبَتْ الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرَ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ . وَصَدَرَتْ ضَرْبِيَّةٌ عَلَى مَنْ يَشْتَعِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَقْمِيِّ وَالْمُهَوِّسِيْنَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ الدَّرِيْعَةَ إِلَى الْكُشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ^(١) بِاسْتِخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخَيْبَةِ فِي جَمِيْعِ مَسَاعِيْمِهِمْ نَعُوْذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ^(٢) مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتَلَى بِهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْصَرِفُ عَنِ طَرِيقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغُلُ بِالْمَحَالَاتِ وَالْمَكَادِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

الفصل الخامس

في أن الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُطُوَّةَ فِي جَمِيْعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَاراً وَثَرْوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّرْلِفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالنَّاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيْعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ فَتَحْصُلُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيْعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تُبَدَلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمَلُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ فَتَتَوَفَّرُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ . فَهُوَ بَيْنَ قِيَمِ الْأَعْمَالِ يَكْتَسِبُهَا وَقِيَمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الضَّرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ . وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيْرَةٌ فَفَيْدُ الْغِنَى لِأَقْرَبِ وَقِيْتٍ وَيَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَاراً وَثَرْوَةً . وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا

(١) وفي النسخة الباريسية : والزرع

(٢) وفي النسخة الباريسية : من دفع إلى شيء .

يَكُونُ يَسَارَهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهَوْلَاءَ هُمْ أَكْثَرُ التَّجَارِ . وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ . وَمِمَّا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتَقَدَ الْجَمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالِاعْتِمَالَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنِي إِلَّا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيَمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمُعَوْنَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ . رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ . وَفِي الْبُدُو يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْفَلْحِ وَالتَّجْرِ وَكُلِّ هُوَ قَاعِدٌ يَمْتَنِلُهُ لَا يَبْرَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأْتَلُ الْغِنَى مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَيَعْجَبُ مَنْ لَا يَفْطَنُ لِهَذَا السَّرِّ فِي حَالِ ثَرَوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من أسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قَدَّرَ أَحَدٌ عَطْلًا^(١) عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ قَائِدَ الْكَسْبِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرْفِهِ يَبِينُ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيَمَتِهِ . وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نَمُو كَسْبِهِ أَوْ تَقْصَانُهُ . وَقَدْ بَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّ الْجَاهَ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ . وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عَوَاضًا عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ^(٢) فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ . وَتَصِيرُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمَتِهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغِنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ . ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِّعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرْتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ

(١) وفي النسخة الباريسية : عاطل .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من كثير الاعراض .

يَنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ^(١) وَفِي السُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بَيْنَ أَوْلَادِهِ جَنْسِيهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةً اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يَمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشَهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ النُّوعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَبَقَاؤُهُ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ بَيْنَ أَوْلَادِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَضُحُّ بِقَاؤُهُ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النُّوعِ وَلَمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ إِنَّمَا تَصُدُرُ بِالفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ لَا بِالطَّبْعِ . وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ فَيَتَمَعَّنُ حَمَلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرَهُ أَوْلَادُهُ النُّوعَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا النُّوعِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاءَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَوْلَادِهِ جَنْسِيهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ بِالقَهْرِ وَالْعَلْبِيَّةِ لِيَجْمَعَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالذَّاتِ وَالتَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ ، لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وَجُودُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَفْعُ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ . وَهَذَا مَعْنَى وَقَوْلِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ فَتَفْهَمُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقِ^(٢) أَهْلِ الْعُمُرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ الطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي الْجَاءِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاءُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَسَّعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطُّورِ

(١) وفي النسخة الباريسية : غالبة .

(٢) ورد في لسان العرب : « السساوت طباق بعضها على بعض . وكل واحد من الطباق طبقة . والطبق

والطبقة . الفقرة حيث كانت . قيل : هي ما بين الفقرتين وجمعها طباق .

الَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ . فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَّسِعًا كَانَ الْكُسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ
كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا فَمِثْلُهُ . وَفَاقِدُ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارَةً إِلَّا بِمَقْدَارِ
عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنَسَبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَأَيًّا فِي تَنَمِيَّتِهِ كَأَكْثَرِ التُّجَّارِ وَأَهْلِ الْفِلَاحَةِ فِي
الْغَالِبِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ
يَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يُرْمَقُونَ الْعَيْشَ
تَرْمِيمًا وَيُدَافِعُونَ^(١) ضَرُورَةَ الْفَقْرِ مُدَافِعَةً . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُتَمَرِّعٌ^(٢) وَأَنَّ
السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجْلَهَا
وَأَنَّ بَادِلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُنْعَمِينَ وَإِنَّمَا يَبْدُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَدْلُهُ بَيْنَ غَالِيَةِ
وَعَزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُنْتَفِعِيهِ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ الْعِزِّ وَالْمُلُوكُ وَالْأَ
فِيَتَمَدَّرُ حُصُولُهُ . فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ الْخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ
الْمُحْصَلِ لِلْسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نَجِدُ
الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرْفُعِ وَالشَّمَمِ لَا يَخْضَلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي
التَّكْسِبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكِبَرَ وَالتَّرْفُعَ
مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَخْضَلُ مِنْ تَوْهَمِ الْكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى
بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالِمِ الْمُتَبَحَّرِ فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ
الشَّاعِرِ الْبَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلِّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ
فَيَحْدُثُ لَهُ تَرْفَعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ
عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرِ يُعْبَرُونَ^(٣) بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ رِجَالِ آبَائِهِمْ فِي
الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوَرَاتِهِمْ عَنْهُمْ . فَهُمْ
مَتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحِيلَةِ وَالْبَصْرِ وَالتُّجَّارِبِ
بِالْأُمُورِ^(٤) قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِيَاجًا إِلَيْهِ . وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ

(١) وفي نسخة أخرى ، يدفعون . (٢) وفي النسخة الباريية ، متوزع .

(٣) وفي النسخة الباريية ، يقترون . وفي نسخة أخرى يعشرون

(٤) وفي النسخة الباريية ، أهل الحنكة والتجارب والبصر بالأمور .

الأصناف كُلُّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى
مِنْهُمْ وَيَسْتَضِعُّونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفُضْلَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَتَكِفُّ أَحَدُهُمْ عَنِ
الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَفَهًا . وَيَحَاسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ
إِيَاءَهُ بِمَقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْفَدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ
ذَلِكَ . وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءِ
عَظِيمٍ مِنْ إِيْجَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِيَابَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ . وَيَخْضَلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنْ
النَّاسِ لِمَا فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ التَّأَلُّهِ . وَقُلُّ أَنْ يَسَلَّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ
وَالْتَرَفُّعِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعَلِيَّةِ وَالْإِسْطِطَالَةِ . وَهَذَا كُلُّهُ فِي
ضَمَنِ الْجَاهِ . فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ
النَّاسُ بِهَذَا التَّرَفُّعِ وَلَمْ يَخْضَلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقِدَ الْجَاهَ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
الطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ الْمَقْتِ وَمَا يَخْضَلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ الْقُعُودِ عَنْ
تَعَاهُدِهِمْ وَغَشْيَانِ^(١) مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ فِي خِصَاصَةٍ وَقَفَرُ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ
بِقَلِيلٍ . وَأَمَّا الثَّرْوَةُ فَلَا تَخْضَلُ لَهُ أَصْلًا . وَمِنْ هَذَا اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَامِلَ فِي
الْمَعْرِفَةِ مَخْرُومٌ مِنَ الْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رَزَقَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَأَقْتَطِعَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ
الْحَظِّ وَهَذَا مَعْنَاهُ . وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسْرَلُهُ . وَاللَّهُ الْمُقَدِّرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ . وَلَقَدْ بَقِعَ
فِي الدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ^(٢) الْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ السُّفَلَةِ وَيَنْزِلُ
كَثِيرٌ مِنَ الْعَلِيَّةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلِ إِذَا بَلَغَتْ نَهَائِتَهَا^(٣) مِنَ التَّغْلِبِ
وَالْإِسْتِيْلَاءِ انْفَرَدَ مِنْهَا مَنْبَتُ الْمَلِكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَسَسُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ
وَأِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبِ دُونَ مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ حَوْلَهُ . فَإِذَا
اسْتَمَرَّتِ الدُّوَلَةُ وَسَمَّخَ الْمَلِكُ تَسَاوَى حِينُودٌ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلٌّ مَنِ انْتَمَى
إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنُصِيحَةٍ وَاضْطَنْعَهُ السُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مِهْمَاتِهِ .

(١) غشى المكان ، أناه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من أجل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : غايتها .

فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السُّوقَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِحَدِّهِ وَنُضْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ
بُوجُوهَ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَّتِهِ وَأَهْلِ
نَسَبِهِ ، حَتَّى يُرْسِخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيُنْظِمَهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْضُلُ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌّ
عَظِيمٌ مِنَ السُّعَادَةِ وَيُنْتَظَمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أُنْبَاءِ قَوْمِهَا
الَّذِينَ ذَلَّلُوا أَصْفَانَهُمْ^(١) وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِّبِينَ بِمَا كَانَ لَا بَائِسِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَثَارِ
لَمْ تَسْمَعْ^(٢) بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِأَثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضَامِ الدَّوْلَةِ
بِسَبِيهِ فَيَمْتَقُّهُمْ السُّلْطَانُ لِدَلِكِ وَيُبَاعِدُهُمْ . وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ الَّذِينَ
لَا يَعْتَدُونَ بِقَدِيمٍ وَلَا يَنْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ . إِنَّمَا دَابُّهُمْ الْخُضُوعُ لَهُ وَالتَّمَلُّقُ
وَالِإِعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَعَّ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَارِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ
الْوُجُوهُ وَالْخَوَاطِرُ^(٣) بِمَا يَحْضُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ^(٤) السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَتَّقَى
نَاشِئَةَ الدَّوْلَةِ^(٥) فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّرْفَعِ وَالِإِعْتِدَادِ بِالْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا
مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لِهَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ . وَهَذَا
أَمْرٌ طَبِيعِيُّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ الْمُضْطَنِّعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل السابع

في أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة
والخطابة والاذان

ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ قِيمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَّفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ
إِلَيْهَا . فَإِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمَرَانِ عَامَّةً الْبَلَوَى بِهِ كَانَتْ قِيمَتُهَا أَكْثَرَ

(١) وفي نسخة أخرى ، صعايبها .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الخواص .

(٣) وفي نسخة أخرى ، من ميل .

(٤) وفي نسخة الباريسية ، ناشئة السلطان .

وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تَضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ
وَأِنَّمَا يَخْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ . وَإِنْ اخْتِيَجَ إِلَى الْقَتِيَا
وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَضْطِرَارِ وَالْعُمُومِ فَيَقَعُ الْأِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ
فِي الْأَكْثَرِ . وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ^(١) مِنَ النَّظَرِ فِي
الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي
قَرَّرْنَاهُ . لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّينِ وَالْمَرَاسِمِ
الشَّرْعِيَّةِ لَكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضُرُورَةِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ فَلَا يَصْحُحُ فِي
قِسْمِهِمْ^(٢) إِلَّا الْقَلِيلُ . وَهُمْ أَيْضًا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعَزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا
يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرَعُ
أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبَضَائِعِ^(٣) الشَّرِيفَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ
الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ^(٤) . بَلْ وَلَا يَسْعَهُمْ ائْتِدَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهَمُّ
بِمَعْرِزٍ عَنْ ذَلِكَ ، فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ . وَلَقَدْ بَاخَتْهُ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ
فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْزَاقٌ مُخْرَقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ^(٥) الدَّوَالِيقِ بِدَارِ الْمَأْمُونِ
تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدُّخْلِ وَالْخُرْجِ وَكَانَ فِيهَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ الْقَضَاةِ وَالْأَيْمَةِ
وَالْمُؤَدَّنِينَ فَوَقَفْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَ مِنْهُ صِحَّةُ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ مِنْ أَسْرَارِ
اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو
وذلك لأنه أصيل^(١) في الطبيعة وبسيط في منجأه ولذلك لا تجده ينتحله أحد

(١) وفي نسخة أخرى ، بما له .

(٢) وفي نسخة أخرى ، قسمهم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، الصنائع .

(٤) وفي نسخة أخرى ، التدبير .

(٥) وفي النسخة الباريية ، حسابات . (٦) وفي النسخة الباريية ، أصل .

مِنْ أَهْلِ الْخَصْرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنَ الْمُتَرْفِينِ . وَيَخْتَصُّ مُنْتَحِلَهُ بِالْمَنْدَلَةِ
 قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَقَدْ رَأَى السُّكَّةَ يَبْغِضُ دُورَ الْأَنْصَارِ ، « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا
 دَخَلَهُ الدُّلُ » وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهُ . وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ بَابَ مَا يُحْذَرُ مِنْ
 عَوَاقِبِ الْإِسْتِغَالِ بِأَلَّةِ الزَّرْعِ أَوْ تَجَاوُزِ الْحَدِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ . وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ الْمُفْضَى إِلَى التَّحْكُمِ وَالْيَدِ الْعَالِيَةِ^(١) فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَائِسًا
 بِمَا تَتَنَاوَلُهُ أَيْدِي الْقَهْرِ وَالْإِسْتِطَالَةِ . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ
 الرِّكَاتُ مَغْرَمًا » إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعُضُوضِ الْفَاهِرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ
 وَنِسْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُتَمَوَّلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمَلُوكِ
 وَالذُّوْلِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل التاسع .

في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعْلَمُ أَنَّ التَّجَارَةَ مَحَاوَلَةُ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السَّلْعِ بِالرُّخْصِ وَبَيْعِهَا
 بِالْغَلَاءِ أَيَّامَ كَانَتْ السَّلْعَةُ مِنْ دَقِيقٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ قَمَاشٍ . وَذَلِكَ الْقَدْرُ
 النَّبَاطِيُّ يُسَمَّى رِبْحًا . فَالْمَحَاوَلُ لِذَلِكَ الرَّبْحِ إِذَا أَنْ يَخْتَرِنَ السَّلْعَةَ وَيَتَخَيَّنَ بِهَا
 حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ وَإِنَّمَا بَانَ يَنْقُلُهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ
 تَنْفَقُ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ
 بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التُّجَّارِ لَطَلَبُ الْكُشْفِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي
 كَلِمَتَيْنِ : اشْتِرَاءُ الرُّخِصِ وَبَيْعُ الْغَالِي . فَقَدْ حَصَلَتِ التَّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى
 الْمَعْنَى الَّتِي قَرَّرْنَا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي النسخة الباريسية ، العالية .

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب

حرفها

قَدْ قَدَّمْنَا^(١) أَنَّ مَعْنَى التَّجَارَةِ تَنْمِيَةَ الْمَالِ بِشَرَاءِ الْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةَ بَيْعِهَا بِأَعْلَى مِنْ ثَمَنِ الشَّرَاءِ إِمَّا بِإِنْتِظَارِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ أَوْ نَقْلِهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقَ وَأَعْلَى أَوْ بَيْعِهَا بِالْغَلَاءِ عَلَى الْأَجَالِ . وَهَذَا الرِّبْحُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ يَسِيرًا إِلَّا أَنَّ الْمَالَ إِذَا كَانَ كَثِيرًا عَظِمَ الرِّبْحُ لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ . ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هَذِهِ التَّنْمِيَةِ الَّذِي هُوَ الرِّبْحُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شَرَاءِ الْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا . وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي تَقَاضِي أَمَانَتِهَا . وَأَهْلُ النُّصْفَةِ قَلِيلٌ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعِشِّ وَالتَّطْفِيفِ الْمُجْحِفِ بِالْبَضَائِعِ وَمِنَ الْمَطْلِ فِي الْأَمَانِ الْمُجْحِفِ بِالرِّبْحِ . كَتَعْطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ . وَمِنَ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحِتِ لِرَأْسِ الْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَّقَيْدُ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ . وَغَنَى الْحُكَّامِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ ، فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالًا صَعْبَةً . وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذَلِكَ التَّافِهِ مِنَ الرِّبْحِ إِلَّا بِعَظْمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ . أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَاشَى رَأْسَ مَالِهِ . فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى الْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِالْحِسْبَانِ شَدِيدِ الْمُمَاحَكَةِ مَقْدَامًا عَلَى الْحُكَّامِ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النُّصْفَةِ بِجُرْأَتِهِ مِنْهُمْ وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرَعُ بِهِ . يُوقَعُ لَهُ الْهَيْبَةُ عِنْدَ الْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ الْحُكَّامَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلَتِهِ^(٢) فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ النُّصْفَةَ فِي مَالِهِ طَوْعًا^(٣) فِي الْأَوَّلِ وَكَرْهًا فِي الثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقْدُ الْجَاهِ مِنَ الْحُكَّامِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْإِخْتِرَافَ بِالتَّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعْرَضُ مَالُهُ لِلضِّيَاعِ وَالذَّهَابِ وَيَصِيرُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ (لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ

(١) وفي نسخة أخرى ، قد تقدم لنا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، غرماه .

(٣) وفي نسخة أخرى ، واستخلاص ماله منهم طوعاً .

وخصوصاً الرِّعَاءَ وَالبَّاعَةَ شَرَهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ سِوَاهُمْ مُوثَبُونَ عَلَيْهِ .
وَلَوْلَا وَازِعُ الْأَحْكَامِ لَأَصْبَحَتْ أَمْوَالُ النَّاسِ نَهْبًا (١) « وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وَذَلِكَ أَنَّ التُّجَّارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يِعَانُونَ البَيْعَ وَالشَّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ
المُكَايَسَةِ ضَرُورَةً فَإِنْ اقْتَصِرَ عَلَيْهَا اقْتَصِرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَغْنِي خُلُقَ
المُكَايَسَةِ بَعِيدَةً عَنِ المُرُوءَةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا المُلُوكُ وَالأَشْرَافُ . وَأَمَّا إِنْ اسْتُرْذِلَ
خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ المُمَاحَكَةِ وَالعِشِّ وَالخَلَايَةِ
وَتَعَاهِدِ الأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ عَلَى الأَيْمَانِ رِذًّا وَقَبُولًا فَأَجْدِرُ بِذَلِكَ الخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي
عَايَةِ المَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ الإِخْتِرَافَ بِهَذِهِ
الجُرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يَكْتَسِبُ مِنْ هَذَا الخُلُقِ . وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الخُلُقِ
وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النِّادِرِ بَيْنَ الوُجُودِ وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ الأَوَّلِينَ وَالأَخِيرِينَ .

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التَّاجِرُ البَصِيرُ بِالتَّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السَّلْعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ العِنِيِّ
وَالفَقِيرُ وَالسُّلْطَانُ وَالسُّوقَةُ إِذْ فِي ذَلِكَ نَفَاقُ سَلْعَتِهِ . وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ نَقْلَهُ بِمَا يَخْتَاجُ

(١) وفي النسخة الباريسية : « لأن الناس في الغالب متطلعون إلى ما في أيدي الناس . ولولا وازع أحكام

ما سلم لأحد شيء مما في يده . خصوصاً الباعة وسفلة الناس ورعايعهم » .

إِلَيْهِ الْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَدَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشَّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ
لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سَوْقَهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحَهُ . وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ
الْمُخْتِاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقَلُ الْوَسْطُ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السَّلْعِ
إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمْ الْأَقْلُ . وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَشَدَّ فِي
الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ جُهْدَهُ فَبِهِ نَفَاقُ سِلْعَةٍ ^(١) أَوْ كَسَادَهَا
وَكَذَلِكَ نَقَلَ السَّلْعَ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ
أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحاً وَأَكْفَلَ بِخِوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السِّلْعَةَ الْمُنْقَوْلَةَ
حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْفَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقْلُ حَامِلُوهَا
وَيَعِزُّ وَجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَّتْ أَمْنَانِهَا . وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ
وَالطَّرِيقُ سَابِلاً بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَمْنَانِهَا وَلِهَذَا
تَجِدُ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُوَلَعُونَ بِالدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ أَزْفَةَ النَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالاً
لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَاعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ الضَّعِيفَةِ الْمُخْطِرَةِ بِالْخَوْفِ وَالْمَعْطَشِ .
لَا يُوَجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدْلَاءُ الرُّكْبَانِ فَلَا يَزْتَكِبُ
خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ سِلْعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا
فَتُخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ وَكَذَلِكَ سَلَمْنَا لَدَيْهِمْ . فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرَعُ
إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ
السُّقَّةِ أَيْضاً . وَأَمَّا الْمُرَدَّدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبِلْدَانِهِ فَمَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ
وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكثَرَةِ السَّلْعِ وَكثَرَةِ نَاقِلِيهَا « وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتُّجَّارِيَّةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ احْتِكَارَ الزَّرْعِ لِتَحْيِينِ
أَوْقَاتِ الْغَلَاءِ مَشْهُومٌ . وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالتَّلْفِ وَالْخُسْرَانِ . وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) وفي نسخة أخرى : سلعة .

أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُونَ إِلَى مَا يَبْدُلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَارًا
 فَتَبْقَى النَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النَّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ^(١) كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ
 يَأْخُذُهُ مَجَانًا وَلَعَلَّهُ الَّذِي ائْتَمَّرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ مَجَانًا فَالنَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعْيَةٍ فِي الْفَدْرِ فَهُوَ
 كَالْمَكْرَهِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَيْبَعَاتِ لَا اضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا
 يَبْتَغِيهِمْ عَلَيْهَا التَّنَمُّنُ فِي الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْدُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحَرَصٍ . وَلَا
 يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أُعْطَوْهُ فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عَرَفَ بِالِاخْتِكَارِ تَجْتَمِعُ الْقَوَى
 النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .
 وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشِيخَةِ الْمَغْرِبِ : أَخْبَرَنِي
 شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ : حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي
 سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِيبِيُّ وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ الْأَلْقَابِ
 الْمَخْرُجِيَّةِ لِجِرَائِيَّتِهِ قَالَ فَاطَّرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ : مِنْ مَكْسِرِ الْخَمْرِ . فَاسْتَضْحَكَ
 الْحَاضِرُونَ مِنْ أَضْحَائِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ . فَقَالَ : إِذَا كَانَتْ
 الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا فَأَخْتَارَ مِنْهَا مَالًا تَتَابَعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلٌّ أَنْ يَبْدُلَ
 فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبَ مَسْرُورٌ بِوُجُودَاتِهِ غَيْرُ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقٌ بِهِ نَفْسُهُ
 وَهَذِهِ مَلَاخِظَةٌ غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ الصُّدُورُ .

الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ الْكُسْبَ وَالْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَا إِنَّمَا هُوَ بِالصَّنَائِعِ أَوْ التَّجَارَةِ .
 وَالتَّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ الْبَضَائِعِ وَالسَّلْعِ وَادِّخَارُهَا . يُتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ بِالزِّيَادَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، شر .

فِي أُنْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحاً . وَيَخْضَلُ مِنْهُ الْكَسْبُ وَالْمَعَاشُ لِلْمُحْتَرِفِينَ بِالتَّجَارَةِ
 دَائِماً فَإِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي سِلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَتَمَوْلٍ عَلَى
 الْحُمْلَةِ وَلَمْ يَخْضَلْ لِالتَّاجِرِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ فَسَدَ الرِّيحُ وَالنَّمَاءُ بِطَوِيلِ تِلْكَ الْمُدَّةِ
 وَكَسَدَتْ سُوقُ ذَلِكَ الصَّنْفِ وَلَمْ يَخْضَلِ التَّاجِرُ إِلَّا عَلَى الْعَنَاءِ فَقَعَدَ التُّجَّارُ عَنِ
 السَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَوَّلًا بِالزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَدِيمَ
 رُخْصَهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ الْمُحْتَرِفِينَ ^(١) بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ الْفَلْحِ وَالزَّرَاعَةِ لِقِلَّةِ الرِّيحِ
 فِيهِ وَنَدَارَتِهِ ^(٢) أَوْ فَقْدِهِ . فَيَفْقِدُونَ النَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعْوَدُونَ
 بِالْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ .
 وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَسَادَ حَالِ الْمُحْتَرِفِينَ أَيْضاً بِالطَّحْنِ وَالخَبْرِ وَسَائِرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّرَاعَةِ
 مِنَ الْحَرْثِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ مَأْكُولاً . وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ الْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنَ
 السُّلْطَانِ عَلَى ^(٣) أَهْلِ الْفَلْحِ زَرْعاً فَإِنَّهَا تَقِلُّ جِبَابَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنِ إِقَامَةِ
 الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي (هِيَ بِسَبَبِهَا وَمَطْلُبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا) ^(٤) فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ
 وَكَذَا إِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي السُّكَّرِ أَوْ الْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ
 الْمُحْتَرِفُونَ عَنِ التَّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا حَالُ الْمَلْبُوسَاتِ إِذَا اسْتَدِيمَ فِيهَا الرَّخْصُ أَيْضاً
 فَإِذَا الرَّخْصُ الْمَفْرُطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ الْمُحْتَرِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنْفِ الرَّخِيسِ وَكَذَا
 الثَّمَلَاءُ الْمَفْرُطُ أَيْضاً . وَإِنَّمَا مَعَاشُ النَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي التَّوَسُّطِ مِنْ ذَلِكَ وَسُرْعَةَ حَوَالَةِ
 الْأَسْوَاقِ وَعَلِمَ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ . وَإِنَّمَا يُخَمَدُ
 الرَّخْصُ فِي الزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ الْمَيْبِعَاتِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ
 مِنْ بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ . وَالْعَالَةَ مِنَ الْخَلْقِ هُمْ الْأَكْثَرُ فِي الْعُمَرَانِ فَيَعْمُ الرِّفْقُ بِذَلِكَ
 وَيَرْجِحُ جَانِبَ الْقَوْتِ عَلَى جَانِبِ التَّجَارَةِ فِي هَذَا الصَّنْفِ الْخَاصِّ « وَاللَّهُ الرَّزَّاقُ ذُو
 الْقُوَّةِ الْمَتِينِ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

(١) وفي نسخة أخرى ، فإذا استديم رخصه كيف تفسر أحوال المحترفين به .

(٢) وفي نسخة أخرى ، ونزارته . (٣) وفي نسخة أخرى ، عند .

(٤) وفي نسخة أخرى ، هم بسببها ويرتزقون من السلطان عليها ويقطع عنهم الرزق .

الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

فقد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البئع والشراء وجلب
 الفوائد والأرباح ولا بُد في ذلك من المكائسة والمماحكة والتخذلق وممارسة
 الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة . وهذه الأوصاف نقص^(١) من الذكاء
 والمروءة وتجرح^(٢) فيها لأن الأفعال لا بُد من عود آثارها على النفس . فأفعال
 الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن
 وترسخ إن سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها بما ينطبع من
 آثارها المنمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الأفعال . وتتفاوت هذه الآثار
 بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالفا لأشراق
 الباعة أهل الغش والخلاية والخديعة والفجور في الأيمان^(٣) إقراراً وإنكاراً . كانت
 رذاعة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعده عن المروءة واكتسابها
 بالجملة . والأفلا بد له من تأثير المكائسة والمماحكة في مروءته . وفقدان ذلك
 منهم في الجملة . ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم
 يترعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك . فهم^(٤) نادر وأقل من النادر .
 وذلك أن يكون المال قد يوجد^(٥) عنده دفعة بنوع غريب أو ورثة عن أحد من
 أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه طهوراً وشهرة
 بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من
 وكلائه وحشميه . ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره

(١) وفي نسخة أخرى : تفض .

(٢) وفي نسخة أخرى : الإيمان .

(٣) وفي نسخة أخرى : فيهم .

(٤) وفي نسخة أخرى : توفر .

(٥) وفي نسخة أخرى : توفر .

وَاتخافه فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ الْخُلُقِ بِالْبُعْدِ عَنْ مَعَانَاةِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ .
فَتَكُونُ مَرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأُبْعَدَ عَنْ تِلْكَ الْمُحَاجَاةِ (١) إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثارِ تِلْكَ
الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيائِكَ الْوُكَلَاءِ
وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذْرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ
« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم (٢)

إِغْلَمَ أَنَّ الصَّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَيَكُونُهُ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِيٌّ
مَخْسُوسٌ . وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَخْسُوسَةُ فَتَقْلِبُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعِبَ لَهَا وَأَكْمَلَ .
لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَخْسُوسَةِ أَيْمٌ فَائِدَةٌ وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ
تُحْضَلُ عَنِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتَكَرَّرُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرَسَخَ صُورَتُهُ . وَعَلَى
نِسْبَةِ الْأَصْلِ تَكُونُ الْمَلَكَةُ . وَتَقْلُبُ الْمَعَانِيَةَ أَوْعِبَ وَأَيْمٌ مِنْ تَقْلِبِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ .
فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الْخَبَرِ . وَعَلَى قَدْرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ الْمُعَلِّمِ يَكُونُ حَدَقُ
الْمُعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطَ وَمِنْهَا الْمَرْكَبُ .
وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ وَالْمَرْكَبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ .
وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوْلَى . وَإِنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي
تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى تَقْلِبِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ لِنَدْوِكَ نَاقِصًا . وَلَا
يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمَرْكَبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالِاسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا
عَلَى التَّنْذِيرِ حَتَّى تَكْمُلَ . وَلَا يَحْضَلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْضَلُ فِي أَرْزَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذَا
خَرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا
بُدْلَةَ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ . وَلِهَذَا تَجِدُ الصَّنَائِعَ فِي الْأُمُورِ الصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوْجَدُ مِنْهَا

(١) وفي نسخة أخرى . المخرجات . (٢) وفي النسخة الباريسية . للعلم .

إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل . وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة . ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحداثة وأمثالها . ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك . ومن الثالث الجندية وأمثالها . والله أعلم .

الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدُن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تخصيص الأوقات من الحنطة وغيرها . فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش . ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري . وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتائق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة . وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار . وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها . وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جعلتها التائق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع

أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخرار وصانغ
وأمثال ذلك . وقد تشبه هذه الأصناف إذا استبحر العُمران إلى أن يوجد فيها كثير
من الكمالات والتائق فيها في العناية وتكون من وجوه المعاش في المضر لمستحلبها .
بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل
الدهان والصفار والحمامي والطباخ والشعاع^(١) والهزاس ومعلم الغناء والرقص
وقرع الطبول على التوقيع . ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب
وتجليدها وتضحيها فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من
الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد إذا كان العُمران
خارجاً عن الحد كما بلغنا عن أهل مضر أن فيهم من يعلم الطيور المعجم والخمر
الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهاهم قلب الأغنيان وتعليم الجداء والرقص
والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من
الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب . لأن عُمران أمصاره لم يبلغ عُمران مضر
والقاهرة . أدام الله عُمرانها بالمسلمين . والله الحكيم العليم .

الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول
أمد

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعُمران والأوان^(٢) . والعوائد
إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال .
وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها . ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت
في الحضارة لما تراجع عُمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في

(١) وفي نسخة أخرى : السجاج .

(٢) وفي نسخة أخرى : الوام أي البيت الدافئ .

غيرها من الأمصار المُستَحْدِثَةِ العُمُرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي الوُفُورِ وَالكَثْرَةِ وَمَا
 ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ القَدِيمَةِ العُمُرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ الأَحْقَابِ
 وَتَدَاوُلِ الأَحْوَالِ وَتَكَرُّرِهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغِ الغَايَةَ بَعْدَ . وَهَذَا كَالْحَالِ فِي الأَنْدَلُسِ لِهَذَا
 العَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ
 مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ أَمْصَارِهَا كَالْمَبَانِي وَالطَّبِيخِ وَأَصْنَافِ العِنَاءِ وَاللَّهْوِ مِنَ الآلَاتِ
 وَالْأَوْتَارِ وَالرَّقْصِ وَتَنْصِيدِ الفُرْشِ فِي القُصُورِ . وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ وَالْأَوْضَاعِ فِي البِنَاءِ
 وَصُورِ الآبِيَةِ مِنَ المَعَادِنِ وَالخَرْفِ وَجَمِيعِ المَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ الوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ
 الصَّنَائِعِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ وَعَوَائِدُهُ . فَنَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا . وَنَجِدُ
 صَنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصْبَةِ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَظٌّ مُتَمَيِّزٌ بَيْنَ جَمِيعِ
 الأَمْصَارِ . وَإِنْ كَانَ عُمُرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ . وَالكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمُرَانَ غَيْرِهَا مِنْ
 بِلَادِ العُدُوَّةِ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ رُسُوحِ الحِضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوحِ الدُّوَلَةِ
 الأَمْوِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ القُوْطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا . فَبَلَغَتْ
 الحِضَارَةُ فِيهَا مَبْلَغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قَطْرٍ إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ العِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرٍ أَيْضًا
 لِطُولِ أَمَادِ الدُّوَلِ فِيهَا فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَكَمُلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى
 الإِسْتِجَادَةِ وَالتَّمْيِيقِ . وَبَقِيَتْ صِنْعَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ العُمُرَانِ لَا تَفَارِقُهُ إِلَى أَنْ
 يَنْتَقِضَ بِالكُلِّيَّةِ حَالُ الصَّنِيعِ إِذَا رَسَخَ فِي الثُّوبِ . وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تُونَسٍ فِيمَا حَصَلَ
 فِيهَا بِالحِضَارَةِ مِنَ الدُّوَلِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَالْمَوْحِدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اسْتَكْمَلَ لَهَا فِي
 ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ دُونَ الأَنْدَلُسِ . إِلَّا أَنَّهُ مُنْضَاعِفٌ
 بِرُسُومِ مَنِهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرٍ لِقُرْبِ المَسَافَةِ بَيْنَهُمَا وَتَرْدُدِ المَسَافِرِينَ مِنْ
 قَطْرِهَا إِلَى قَطْرِ مِصْرٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ عُصُورًا فَيُنْقَلُونَ مِنْ عَوَائِدِ
 تَرَفِهِمْ وَمُحْكَمِ صَنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ الإِسْتِحْسَانِ . فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ
 مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرٍ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَحْوَالِ الأَنْدَلُسِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِيهَا مِنْ
 شَرْقِ الأَنْدَلُسِ حِينَ الجَلَاءِ لِعَهْدِ المَائَةِ السَّابِعَةِ . وَرَسَخَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالٌ وَإِنْ

كَانَ عُمْرَانَهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . إِلَّا أَنْ الصُّبْغَةَ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحْوَلُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا . وَكَذَا نَجِدُ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَرَائِشَ وَقَلَمَةَ ابْنِ حَمَادٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ . وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ آثَارًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَمْحُورِ فِي الْكِتَابِ « وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَعُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَانًا لِأَنَّهُ كَسْبُهُ وَمِنَهُ مَعَاشُهُ . إِذْ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَضْرَفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ قِيَمَةٌ فِي مِضْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ . وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا النَّفَاقُ كَانَتْ حِينئِذٍ الصَّنَاعَةُ بِمَثَابَةِ السَّلْعَةِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتَجَلِبُ لِلْبَيْعِ . فَتَجْتَهِدُ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ لِتَعْلَمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةَ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشَهُمْ . وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ تَنْفَقْ سَوْقَهَا وَلَا يُوجَّهَ قَصْدٌ إِلَى تَعْلَمِهَا . فَاخْتَصَّتْ بِالتَّرَكِ وَفَقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ . وَلِهَذَا يُقَالُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ » بِمَعْنَى أَنْ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيَمَتُهُ أَيْ قِيَمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ . وَأَيْضًا فَهُنَا سِرٌّ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فِيهِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتَوَجَّهَ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا . وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ . فَمَا نَفَقَ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرًا ضَرُورَةً . وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سَوْقُهُمْ بِنَاقِيَةٍ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ .

الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع

وذلك لما بيننا أن الصنائع إنما تستجاذ إذا احتيج إليها وكثر طالبيها . وإذا ضمفت أحوال المضر وأخذ في الهرم بانتفاض عمرانه وقلة ساكنيه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الإقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توايع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها ، أو يموت ولا يكون خلف منه . فيذهب رسم تلك الصنائع جملة . كما يذهب النقاشون والصواغ^(١) والكتاب والنساج وأمثالهم من الصنائع^(٢) لحاجات الترف . ولا تزال الصناعات في التناقص إلى أن تضمحل . والله الخلاق العليم وسبحانه وتعالى .

الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أغرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري . وما يدعوا إليه من الصنائع وغيرها . والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها ، لأنهم أغرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه . حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر ، والإغراق في البدو ، مفقودة لديهم بالجملة ، ومفقودة مزاعيها ، والزغال المهينة لنتاجها . ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة . حتى تجلب إليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم

(١) وفي نسخة الصواغون .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الصناعات .

النُصْرَانِيَّةُ ، كَيْفَ اسْتَكْبَرَتْ فِيهِمُ الصَّنَائِعُ وَاسْتَجْلَبَتْهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ . وَعَجَمَ
 الْمَغْرِبَ مِنَ الْبَرْبَرِ مِثْلَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوحِهِمْ فِي الْبِدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابِ مِنَ
 السِّنِينَ . وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا . فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ
 لِذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ الْأَمَاكِنِ ^(١) مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ نَسِجِهِ ، وَالْجِلْدِ فِي
 حُرْزِهِ وَدَبِغِهِ . فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ لِعُمُومِ الْبَلْوَى بِهَا وَكَوْنِ
 هَذَيْنِ أَغْلَبِ السَّلْعِ فِي قَطْرِهِمْ ، لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَالِ الْبِدَاوَةِ . وَأَمَّا التَّشْرِيقُ فَقَدْ
 رَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مُلْكِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالتَّبَبِطِ وَالْقَبِطِ وَبَنِي
 إِسْرَائِيلَ وَيُونَانَ وَالرُّومِ أَحْقَابًا مُتَطَاوِلَةً ، قَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحِضَارَةِ ، وَمِنْ
 جُمْلَتِهَا الصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَا . فَلَمْ يُمْحَ رَسْمُهَا . وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالْبَحْرَيْنِ وَعَمَّانُ
 وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَ الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مَلَكَهَ الْأَفَا مِنْ السِّنِينَ فِي أُمَّةٍ كَثِيرِينَ ^(٢)
 مِنْهُمْ . وَاخْتَطُوا أَمْصَارَهُ وَمُدَنَهُ وَبَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ
 وَالْعَمَالِقَةَ وَحَنِيئَةَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَالتَّبَايِعَةَ وَالْأَذْوَاءَ فَطَالَ أَمَدُ الْمَلِكِ وَالْحِضَارَةِ
 وَاسْتَحْكَمَتْ صِنْفَتُهَا وَتَوَفَّرَتْ الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ ، فَلَمْ تَبَلْ يَبْلَى الدَّوْلَةَ كَمَا قَدَّمْنَا .
 فَبَقِيَتْ مُسْتَحْدَةٌ حَتَّى الْآنَ . وَاخْتَصَّتْ بِذَلِكَ لِلْوَطَنِ ، كَصِنَاعَةِ الْوَشْيِ وَالنَّصْبِ
 وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ الشِّيَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ
 خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثاني والعشرون

فِيمَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يَجِيْدُ بَعْدَ فِي مَلَكَةٍ أُخْرَى
 وَمِثَالُ ذَلِكَ الْخِيَّاطُ إِذَا أَحَادَ مَلَكَةَ الْخِيَّاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا
 يَجِيْدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةَ النَّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلَى لَمْ تَسْتَحْكِمْ بَعْدَ وَلَمْ
 تَرَسَخْ صِنْفَتُهَا . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَالْوَأْنِ فَلَا تَرْدِحُ

(١) وفي نسخة أخرى ، إلا ما كان . (٢) وفي نسخة أخرى ، في أمة كثيرة .

دَفْعَةً . وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا
لِحُصُولِهَا . فَإِذَا تَلَوْنَتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا
الِاسْتِعْدَادُ بِاللُّوْنِ الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى أضعف .
وهذا بينٌ يشهدُ له الوجودُ . فقلُّ أن تجدَ صاحبَ صنَاعَةٍ يُحكِمُهَا ثُمَّ يُحكِمُ مِنْ
بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِحَادَةِ . حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ
الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهَمُّ بِهَذِهِ الْمَثَانِيَةِ . وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَاتٍ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ
وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلُّ أَنْ يُجِيدُ مَلَكَاتٍ عِلْمٍ أُخْرَى عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ
طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَمَبْنِي سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ
وَتَلَوْنِهِ بِلَوْنِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ
لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى أمهات الصنائع

إِغْلَمَ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي
الْعُمُرَانِ . فَهِيَ بِحَيْثُ تَشُدُّ عَنِ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُّ . إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ
ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمُرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ ^(١) فَتَخْصُصُهَا بِالذِّكْرِ وَتَتْرُكُ مَا سِوَاهَا . فَأَمَّا
الضَّرُورِيُّ فَالْفَلَاحَةُ وَالْبِنَاءُ وَالْخِيَاطَةُ وَالنَّجَارَةُ وَالْحَيَاكَةُ . وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ
بِالْمَوْضِعِ ^(٢) فَكَالتَّوْلِيدُ وَالْكِتَابَةُ وَالْوَرَاقَةُ وَالْغِنَاءُ وَالطَّبُّ . فَأَمَّا التَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا
ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ وَعَامَّةُ الْبَلَوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتَبْتِغُ غَالِبًا .
وَمَوْضُوعَهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ . وَأَمَّا الطَّبُّ فَهُوَ حِفْظُ الصَّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ
وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّغُ عَنِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ ، وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ .
وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْوَرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمَقْبِدَةٌ لَهَا

(١) وفي نسخة أخرى ، الموضوع .

عن النسيانِ ومبلغه ضمائر النفس إلى التبعيد الغائب ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني . وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع . وكل هذه الصنائع الثلاث دأب إلى مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها . وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب . وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي . والله أعلم بالصواب .

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها ازديادها وعلاج نباتها وتعميده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك . وتخصيل أشباهه ودواعيه . وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً إذ يمكن وجوده من دون القوت . ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبندو . إذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا تقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها لأن أحوالهم كلها ثانية على البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها . والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد .

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل ولكن^(١) والماوى للأبدان في المدن . وذلك أن الإنسان لما

(١) وفي النسخة الباريسية ، لكن .

جِبَلٍ عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ . لَا بُدَّ أَنْ يُفَكَّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ
الْحَرِّ وَالْبَرْدِ كَاتِحَاذِ الْبُيُوتِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالسَّقْفِ وَالْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا ^(١)
وَالْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ فِي هَذِهِ الْجِبَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذَلِكَ
بِعَتَدَالِ أَهَالِي ^(٢) الثَّانِي وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ
فَيُعْتَدُونَ عَنِ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ أَفْكَارِهِمْ عَنِ إِذْرَاكِ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَبْدُرُونَ
لِلْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ الْمُعَدَّةِ مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ ^(٣) . ثُمَّ الْمُعْتَدِلُونَ وَالْمُتَّخِذُونَ الْبُيُوتِ
لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بِحَيْثُ يَتَنَاكُرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَخْشَوْنَ
طُرُقَ ^(٤) بَعْضِهِمْ بَعْضًا بَيَاتًا فَيَخْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ مَاءٍ أَوْ أَسْوَارِ
تَحُوطِهِمْ ^(٥) وَيَصِيرُ جَمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمَضْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحَكْمُ مِنْ دَاخِلِ
يَدْفَعُ ^(٦) بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَخْتَاجُونَ إِلَى الْإِتِّصَافِ ^(٧) وَيَتَّخِذُونَ الْمَعَاوِلَ
وَالْحُصُونِ لَهُمْ وَلَمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ
وَكِبَارِ الْقَبَائِلِ . ثُمَّ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الْبِنَاءِ فِي الْمَدِينِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ
وَيُضْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ مِرَاجَ هَوَائِهِمْ وَاخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَكَذَا
حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةَ
الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْغُرَفِ الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وُلْدِهِ وَحَشْمِهِ وَعِيَالِهِ
وَتَابِعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُدْرَانَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْحَمُ بَيْنَهَا بِالْكَلْسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ
وَالْحِصْنَ وَيَبَالِغُ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالتَّنْجِيدِ وَالتَّنْمِيقِ إِظْهَارًا لِلْبَسْطَةِ بِالْعِنَايَةِ فِي شَأْنِ

(١) وفي النسخة الباريسية : « لا بد له أن يفكر في موانع اذابة الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذوات

الحيطان والسقف المائلة بكونه من جهاتها » .

(٢) وفي نسخة أخرى : « والبشر مختلفون في هذه الجبلية الفكرية التي هي معنى الإنسانية . فالمتقيون

فيها . ولو على التفاوت . يتخذون ذلك باعتدال كأهل الإقليم . . . » .

(٣) وفي النسخة الباريسية : « وأما أهل الأول والسابع فيعمدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور أفكارهم

عن كيفية العمل في الصنائع الإنسانية . فيأوون إلى الغيران والكهوف . كما يتناولون الأغذية من غير علاج ولا
نضج » .

(٤) وفي نسخة أخرى : ويخشى من طروق . (٥) وفي نسخة أخرى : بإدارة مياه الأسوار التي تحيطهم

(٦) وفي نسخة أخرى : يحوطهم فيها الحكام يدافع . . .

(٧) وفي نسخة أخرى : إلى الاعتصام من العدو . . .

الماوى . وَيَبْنِيءُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلاِخْتِرَانِ لِأَقْوَاتِهِ وَالْإِسْطِبْلَاتِ
لِرَبْطِ مُقَرَّبَاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُنُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ^(١) كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي
مَفْئَاظِهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِيءُ الدُّوَابَّ وَالْبُيُوتَ^(٢) لِنَفْسِهِ وَسَكْنِهِ وَوَلَدِهِ لَا يَبْنِيءُ
مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ خَالِهِ عَنْهُ وَاقْتِصَارِهِ عَلَى الْكِنِّ^(٣) الطَّبِيعِيِّ لِلْبَشَرِ وَبَيْنَ ذَلِكَ
مَرَاتِبٌ غَيْرُ مَنْحَصِرَةٍ وَقَدْ يُخْتَجَّاجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضاً عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
الدُّوَلِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّهْيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ وَيَبَالِغُونَ فِي إِتْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ
مَعَ الْإِحْكَامِ بِتَبَلُّغِ الصَّنَاعَةِ مَبَالِغِهَا . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تُحْصَلُ الدُّوَاعِي
لِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَيْهِ
إِذِ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةُ لَا بِنَاءَ فِيهَا . وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ حِطَائِرَ مِنَ الْقَصَبِ
وَالطِّينِ أَوْ يَأْوُونَ إِلَى الْكُهُوفِ وَالغَيْرَانِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا
مُتَفَاوِتُونَ ، فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ الْقَاصِرُ . ثُمَّ هِيَ تَتَنَوَّعُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً فَمِنْهَا
الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْجَدَةِ أَوْ بِالْأَجْرِ يُقَامُ بِهَا الْجُدْرَانُ مُلْصَقاً بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
بِالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يُفْقَدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ
خَاصَّةً تُقَامُ مِنْهُ حِيطَانٌ يُتَّخَذُ لَهَا لَوْحَانٍ مِنَ الْخَشَبِ مُقَدَّرَانِ طَوِلاً وَعَرْضاً
بِاخْتِلَافِ الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ . وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيُنْصَبَانِ عَلَى أُسَاسٍ
وَقَدْ يُوعَدُ مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأُسَاسِ وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا
بِأَذْرُعٍ مِنَ الْخَشَبِ يُرْبَطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدْرِ^(٤) . وَيَسُدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ
ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْلَطاً^(٥)
بِالْكِلْسِ وَيُرَكَّزُ بِالْمَرَاكِزِ الْمُعْلَدَةِ حَتَّى يَنْعَمَ رَكْزُهُ وَيَخْتَلِطُ أَجْزَاؤُهُ بِالْكِلْسِ ثُمَّ

(١) وفي النسخة البارسية ، والغاشية .

(٢) وفي النسخة البارسية ، والبويت .

(٣) الكين ، وقاء كل شيء وستره .

(٤) وفي نسخة أخرى ، الجدل .

(٥) وفي نسخة أخرى ، مختلطاً .

يُرَادُ التَّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِيَهُ ذَلِكَ الْخَلَاءُ بَيْنَ اللُّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ
أَجْزَاءُ الْكِلْسِ وَالتَّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا . ثُمَّ يُعَادُ نَضْبُ اللُّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ (١)
وَيُرَكِّزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيُنْتَظَمَ الْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ
الْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّابِيَّةَ وَصَانِعُهُ الطُّوَابِ . وَمِنْ
صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ تُجَلَّلَ الْحَيْطَانُ بِالْكِلسِ بَعْدَ أَنْ يُحْلَ بِالمَاءِ وَيُخَمَّرُ أَسْبُوعًا
أَوْ أَسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَغْتَدِلُ مِرَاجِحَهُ عَنِ إِفْرَاطِ النَّارِيةِ الْمُفْسِدَةِ لِلْإِلْحَامِ . فَإِذَا تَمَّ
لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عِلَاهُ (٢) مِنْ فَوْقِ الْحَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ . وَمِنْ صَنَائِعِ
الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يَمُدَّ الخَشْبَ الْمُحْكَمَةَ النَّجَارَةَ أَوْ السَّادِجَةَ عَلَى حَائِطِي
الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَاحَ كَذَلِكَ مَوْصُولَةً بِالدَّسَائِرِ وَيُضَبُّ عَلَيْهَا التَّرَابُ وَالْكِلسُ
وَيَسْتُ (٣) بِالْمَرَازِكِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيَعَالَى عَلَيْهَا الْكِلسُ كَمَا
يَعَالَى عَلَى الْحَائِطِ . وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجَعُ إِلَى التَّنْمِيقِ وَالتَّرْزِيقِ كَمَا يُضَعُّ
مِنْ فَوْقِ الْحَيْطَانِ الْأَشْكَالَ الْمُجَسِّمَةَ مِنَ الْحِصِّ يُخَمَّرُ بِالمَاءِ ثُمَّ يَرْجَعُ جَسَدًا (٤)
وَفِيهِ بَقِيَّةُ الْبَلَلِ . فَيَشْكَلُ عَلَى التَّنَاسُبِ تَخْرِيمًا بِمِثَاقِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ
رَوْنَقٌ وَرَوَاءٌ . وَرُبَّمَا عُولِي عَلَى الْحَيْطَانِ أَيْضًا بِقِطْعِ الرُّخَامِ أَوْ الْأَجْرَ أَوْ الْخَرْفِ أَوْ
بِالصُّدْفِ أَوْ السَّبِجِ يُفْضَلُ أَجْزَاءُ مُتَجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتَوْضَعُ فِي الْكِلسِ عَلَى نِسْبِ
وَأَوْضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ الْحَائِطُ لِلْعِيَانِ . كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّيَاضِ الْمُتَمَنَّمَةِ . إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بِنَاءِ الْجِنَابِ وَالصُّهَارِيحِ لِسَفْحِ (٥) المَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ
الرُّخَامِ الْقَوْرَاءِ الْمُحْكَمَةَ الْخَرِطُ بِالْفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا لِنَيْعِ المَاءِ الْجَارِي إِلَى
الصُّهْرِيحِ يُجَلِّبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ
الْبِنَاءِ . وَتَخْتَلِفُ الصَّنَاعُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَدَقِ وَالْبَصْرِ وَيَعْظُمُ عُمْرَانُ

(١) وفي نسخة أخرى : على الصورة الأولى .

(٢) وفي نسخة أخرى : علاه .

(٣) وفي نسخة أخرى : ويبلط .

(٤) وفي النسخة الباريسية : ثم يرفع مجسداً .

(٥) وفي نسخة أخرى : لسج .

الْمَدِينَةِ وَيَتَسَّعُ فَيَكْثُرُونَ . وَرُبَّمَا يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هَؤُلَاءِ فَيَمَّا هُمْ أَنْبَصِرُ بِهِ
 مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْمَدِينِ لِكَثْرَةِ (١) الْإِزْدِحَامِ وَالْمَعْرَانِ
 يَتَشَاخُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ وَمِنْ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا
 يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحَيْطَانِ . فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ
 حَقٌّ . وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضاً فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرِيقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَلَاتِ
 الْمُسْرِيَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدْعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاةِ
 لِتَضَائِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدْعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالِ (٢) حَائِطِهِ خَشْيَةَ سُقُوطِهِ
 وَيَخْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهِدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَخْتَاجُ إِلَى
 قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرْضَةِ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا تَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ
 لِمُنْفَعَتِهَا . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصْرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ
 وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدَلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَايِدِ وَالْقَمَطِ وَمَرَائِزِ الْخَشَبِ وَمِثْلِ الْحَيْطَانِ
 وَاعْتِدَالِهَا وَقِسْمِ الْمَسَاكِينِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيْبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ
 مَجْلُوبَةٍ وَمَرْفُوعَةٍ بِحَيْثُ لَا تُضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحَيْطَانِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ . فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْخُبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ
 بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِإِغْتِنَابِ الدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا . فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ
 وَكَمَالَهَا . إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا . فَلِذَلِكَ عِنْدَمَا
 تَكُونُ الدُّوْلَةُ بَدْوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قَطْرِهَا . كَمَا وَقَعَ
 لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ
 بِالشَّامِ . فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفِعْلَةِ الْمَهْرَةَ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ
 مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ (٣) لَهُ غَرَضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 أَشْيَاءَ مِنَ الْهِنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحَيْطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِحْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الْإِزْتِفَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى : الكثيرة .

(٢) وفي نسخة أخرى : اعتلال .

(٣) وفي النسخة الباريسية : بمن كمل له غرضه .

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصْرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ . وَكَذَلِكَ فِي جِرِّ الْأَثْقَالِ بِالْهِنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجِزُ قَدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هِنْدَسِيَّةِ تَصْيِيرِ الثَّقِيلِ عِنْدَ مَعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفاً فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ كَلْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأُصُولِ هِنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ السِّيَاكِلِ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَأَنَّ أَيْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعِظَمِ الْجِسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحَيْلِ الْهِنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا . فَتَفَهَّمْ ذَلِكَ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْعُمَرَانِ وَمَادَّتُهَا الْخَشْبُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلْأَدَمِيِّ فِي كُلِّ مَكُونٍ مِنَ الْمَكُونَاتِ مَنَافِعَ تَكْمُلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا الشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْحَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحَدٍ . وَمِنْ مَنَافِعِهَا اتِّخَاذُهَا خَشْباً إِذَا بَسَّتْ وَأَوَّلُ مَنَافِعِهِ أَنْ يَكُونَ وَقُوداً لِلنَّيْرَانِ فِي مَعَاشِهِمْ وَعَصِيّاً لِلِاتِّكَاءِ وَالذُّودِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَدَعَائِمِ لِمَا يُخْشَى مِثْلَهُ مِنْ أَثْقَالِهِمْ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ فَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الْعُمْدَ وَالْأَوْتَادَ لِخِيَامِهِمْ وَالْحُدُوجَ لظِعَائِنِهِمْ وَالرِّمَاحَ وَالْقِسِيَّ وَالسَّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَالسَّقْفَ لِبُيُوتِهِمْ وَالْأَغْلَاقَ لِأَبْوَابِهِمْ وَالْكَرَاسِيَّ لِجُلُوسِهِمْ . وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ فَالْخَشْبِيَّةُ مَادَّةٌ لَهَا وَلَا تَصِيرُ إِلَى الصُّورَةِ الْخَاصَّةِ بِهَا إِلَّا بِالصَّنَاعَةِ . وَالصَّنَاعَةُ الْمُتَكَفِّلَةُ بِذَلِكَ الْمُحْضَلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُورِهَا هِيَ النِّجَارَةُ عَلَى اخْتِلَافِ رَتَبِهَا . فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ الْخَشْبِ أَوَّلًا : إِمَّا بِخَشْبٍ أَضْعَفَ مِنْهُ أَوْ الْوَاجِ .

ثُمَّ تَرْكَبُ تِلْكَ الْفَضَائِلَ بِحَسَبِ الصُّورِ الْمَطْلُوبَةِ . وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُحَاوِلُ
 بِصُنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ الْفَضَائِلِ بِالِانْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءُ لِذَلِكَ الشُّكْلِ
 الْمَخْصُوصِ . وَالْقَائِمُ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ النَّجَّارُ وَهُوَ ضَرْبٌ فِي الْعُمَرَانِ . ثُمَّ إِذَا
 عَظُمَتِ الْحَضَارَةُ وَجَاءَ التَّرَفُ وَتَأَنَّقَ النَّاسُ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ
 أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْسِيٍّ أَوْ مَاعُونٍ ، حَدَثَ التَّائِقُ فِي صِنَاعَةِ ذَلِكَ وَاسْتِجَادَتِهِ بِغَرَائِبٍ مِنْ
 الصَّنَاعَةِ كَمَا لَيْسَتْ مِنَ الضَّرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلِ التَّخْطِيطِ فِي الْأَبْوَابِ وَالْكَرَاسِيِّ
 وَمِثْلِ تَهْيِئَةِ الْقِطْعِ مِنَ الْخَشَبِ بِصِنَاعَةِ الْخَرْطِ يُحْكَمُ بَزِينِهَا وَتَشْكِيلِهَا ثُمَّ تُؤَلَّفُ
 عَلَى نِسْبٍ مُقَدَّرَةٍ وَتُلَخَّمُ بِاللِّسَائِرِ فَيَتَبَدُّو لِرَأْيِ^(١) الْعَيْنِ مُلْتَحِمَةً وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا
 اخْتِلَافُ الْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُبٍ . يُصْنَعُ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يَتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ فَيُجْعَلُ أَتَقَى
 مَا يَكُونُ . وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَلَاتِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْخَشَبِ مِنْ
 أَيِّ نَوْعٍ كَانَ . وَكَذَلِكَ قَدْ يُحْتَاجُ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي إِنْشَاءِ الْمَرَائِبِ الْبَحْرِيَّةِ ذَاتِ
 الْأَلْوِاجِ وَاللُّسْرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَتْ عَلَى قَالِبِ الْحَوْتِ وَاعْتَبَارِ سَبْحِهِ فِي
 الْمَاءِ بِقَوَادِمِهِ وَكُلِّكَلِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ الشُّكْلُ أَعْوَنَ لَهَا فِي مُضَادَمَةِ الْمَاءِ وَجَعَلَ لَهَا
 عَوْضَ الْحَرَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلسَّمَكِ تَحْرِيكَ الرِّيَّاحِ . وَرُبَّمَا أَعِينَتْ بِحَرَكَةِ
 الْمَقَادِيفِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى أَضَلِّ^(٢) كَبِيرِ
 مِنَ الْهَنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ
 الْإِحْكَامِ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا وَتَنَاسُبِ
 الْمَقَادِيرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ . وَلِهَذَا كَانَتْ أُمَّةُ الْهَنْدَسَةِ الْيُونَانِيُّونَ
 كُلُّهُمْ أُمَّةٌ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ أَوْقَلِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأَصُولِ فِي الْهَنْدَسَةِ
 نَجَّارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ . وَكَذَلِكَ أَبُلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْمَخْرُوطَاتِ وَمِيلَاوُسُ
 وَغَيْرُهُمْ . وَفِيمَا يُقَالُ : أَنَّ مُعَلِّمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا
 أَنْشَأَ سَفِينَةَ النُّجَاةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُعْجِزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ . وَهَذَا الْخَبْرُ وَإِنْ كَانَ

(١) وفي نسخة أخرى . بالدستار فتبدو لرأى .

(٢) وفي نسخة أخرى . جزء .

مَمَكِنَا أَعْنِي كَوْنَهُ نَجَارًا إِلَّا أَنْ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنَ التَّنْقِيلِ عَلَيْهِ لِتَبَعِدِ الْأَمَادِ . وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهِ أَعْلَمُ الْإِشَارَةَ إِلَى قَدَمِ النَّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصُحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجُعِلَ كَأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ تَعَلَّمَهَا . فَتَقْتَضِيهِمْ أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي الْخَلِيقَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُعْتَدِلِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ فِي الدَّفءِ كَالْفِكْرِ فِي الْكَيْنِ . وَيَخْضَلُ الدَّفءُ بِاشْتِمَالِ الْمَنْسُوجِ لِلْوَقَائِيَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ . وَلَا بُدَّ لِذَلِكَ مِنَ الْخَامِ الْغَزْلِ حَتَّى يَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا ، وَهُوَ النَّسِجُ وَالْحِيَاكَةُ . فَإِنْ كَانُوا بِأَدِيَّةٍ اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَالُوا إِلَى الْحِضَارَةِ فَصَلُّوا تِلْكَ الْمَنْسُوجَةَ قِطْعًا يَقْدِرُونَ مِنْهَا ثَوْبًا عَلَى الْبَدَنِ بِشَكْلِهِ وَتَعَدُّدِ أَعْضَائِهِ وَاخْتِلَافِ نَوَاجِيهَا . ثُمَّ يَلْتَمُونَ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطْعِ بِالْوَصَائِلِ حَتَّى تَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا عَلَى الْبَدَنِ وَيَلْبَسُونَهَا . وَالصَّنَاعَةُ الْمُحْصَلَةُ لِهَذِهِ الْمَلَامَةِ هِيَ الْخِيَاطَةُ .

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ ضَرُورَتَانِ فِي الْعُمَرَانِ لِمَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرَّفْهِ (١) فَالْأُولَى لِنَسِجِ الْغَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَالْقَطْنِ إِسْدَاءً فِي الطُّوْلِ وَالْخَامَ فِي الْعَرْضِ وَإِحْكَامًا لِذَلِكَ النَّسِجِ بِالِالْتِحَامِ الشَّدِيدِ ، فَيَسِمُ مِنْهَا قِطْعَ مَقْدَرَةٍ ، فَمِنْهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ لِلِاشْتِمَالِ ، وَمِنْهَا الشِّيَابُ مِنَ الْقَطْنِ وَالْكَتَّانِ لِلْبَاسِ . وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَّةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنْسُوجَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ ، تَفْضُلُ بِالْمِقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ تَلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعَ بِالْخِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ وَضَلًا أَوْ تَنْبِيئًا أَوْ تَفْسُحًا (٢) عَلَى حَسَبِ نَوْعِ الصَّنَاعَةِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ

(١) وفي النسخة الباريية ، من الدَّفءِ .

(٢) وفي نسخة أخرى : أَوْ تَنْبِيئًا .

بِالْعُمَرَانِ الْحَضْرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَفْتُونَ عَنْهَا وَإِنَّمَا يَشْتَمِلُونَ الْأَنْوَابَ
 اشْتِمَالًا . وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَامِيهَا بِالْحِيَاظَةِ لِلْبَاسِ مِنْ مَذَاهِبِ
 الْحَضَارَةِ وَفُنُونِهَا . وَتَفْهَمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَحْرِيمِ الْمَخِيطِ فِي الْحَجِّ لِمَا أَنَّ مَشْرُوعِيَةَ الْحَجِّ
 مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبْذِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى « كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ
 مَرَّةٍ ، حَتَّى لَا يَعْلُقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ ، لَا طَيْبًا وَلَا نِسَاءً وَلَا
 مَخِيطًا وَلَا خُفًّا ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّنَتْ ^(١) بِهَا نَفْسُهُ
 وَخَلَقَهُ . مَعَ أَنَّهُ يُفْقِدُهَا بِالمَوْتِ ضُرُورَةً . وَإِنَّمَا يَجِيءُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْمَخْشَرِ
 ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ . وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ
 ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ . سُبْحَانَكَ مَا أَزْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ
 هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصَّنِعَتَانِ قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلِيقَةِ لِمَا أَنَّ الدَّفْعَ صُرُورِيًّا
 لِلْبَشَرِ فِي الْعُمَرَانِ الْمُعْتَدِلِ . وَأَمَّا الْمُنْحَرَفُ إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَخْتَاجُ أَهْلَهُ إِلَى دَفْعِهِ .
 وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ أَنَّهُمْ عَرَاةٌ فِي الْعَالِبِ . وَلَقَدَّمُ هَذِهِ
 الصَّنَائِعَ يَنْسِبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ . وَرُبَّمَا يَنْسَبُونَهَا
 إِلَى هِرْمَسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمَسَ هُوَ إِدْرِيسُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ .

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ المَوْلُودِ الْإدْمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ
 الرُّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ . ثُمَّ مَا يُضْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى
 مَا نَذَكُرُ . وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأُمُورِ لِمَا أَنَّهُنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى
 عَوْرَاتِ بَعْضٍ . وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَابِلَةُ . اسْتَعْمِرَ فِيهَا مَعْنَى الْإِعْطَاءِ

(١) وفي نسخة أخرى : تلوئت .

وَالْقَبُولِ كَأَنَّ النَّفْسَاءَ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُهُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ لِمَكْنِهِ هِيَ تِسْعَةٌ أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ الزُّرُوعِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ عَلَيْهِ الْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ . وَرُبَّمَا مَرَّقَ بَعْضَ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضُّغْطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالْإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا الْآمُ يَشْتَدُّ لَهَا الْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلُقِ فَتَكُونُ الْقَائِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ بِغَمْرِ الظَّهْرِ وَالْوَرَكَيْنِ وَمَا يُخَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاقُ بِذَلِكَ فِعْلُ الدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينَ وَتَسْهِيلِ مَا يَضَعُ مِنْهُ بِمَا يُمَكِّنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةِ . ثُمَّ إِنْ أُخْرِجَ الْجَنِينَ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَذَى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمَعَاهُ . وَتِلْكَ الْوَصْلَةُ عَضْوٌ فَضِلِّي لِتَغْذِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَائِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَتَّعَدَى مَكَانَ الْفَضْلَةِ وَلَا تُضِرُّ بِمَعَاهُ وَلَا يَرْحِمُ أُمَّهُ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَيِّْ أَوْ بِمَا تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ الْأَنْبَعَالِ . ثُمَّ إِنْ الْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الضِّيقِ وَهُوَ رَطْبُ الْعِظَامِ سَهْلُ الْإِنْعِطَافِ وَالْإِنْشَاءِ فَرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ التَّكْوِينِ وَرَطْوِيَةِ الْمَوَادِّ فَتَتَنَاوَلُهُ الْقَائِلَةُ بِالْغَمْرِ وَالْإِضْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضِعِهِ الْمُقَدَّرَ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقَهُ سَوِيًّا . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرُاجِعُ النَّفْسَاءَ وَتُخَاذِيهَا بِالْغَمْرِ وَالْمَلَايِنَةِ لِخُرُوجِ أَعْشِيَةِ الْجَنِينَ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا . وَيُخْشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تَرُاجِعَ الْمَاسِكَةَ خَالَتِهَا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ وَهِيَ فَضَلَاتٌ فَتَتَغَفَّنُ وَيَسْرِي عَفْنُهَا إِلَى الرَّحِمِ فَيَقَعُ الْهَلَاكُ فَتُخَاذِرُ الْقَائِلَةَ هَذَا وَتُحَاوِلُ فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ الْأَغْشِيَةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ فَتَمْرُخُ ^(١) أَعْضَاءَهُ بِالْأَذْهَانِ وَالذَّرُورَاتِ ^(٢) الْقَائِلَةُ لِتَشُدُّهُ وَتُجَفِّفُ رَطُوبَاتِ الرَّحِمِ وَتُحَنِّكُهُ لِرَفْعِ لَهَاتِهِ وَتُسَمِّعُهَا لِاسْتِفْرَاحِ نَطُوفِ دِمَاعِهِ وَتَغْرِغْرُهُ بِاللَّمْعِ لِدَفْعِ السُّدِّدِ مِنْ مِعَاةٍ وَتَجْوِيفِهَا عَنِ

(١) تمرخ : تدخن (قاموس)

(٢) الذرورات ، ج اذرة وهو ما يذر في العين أو الجرح من دواء

الإلتصاق . ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق
 رحمها من ألم الانفصال ، إذ المولود إن لم يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين في
 الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم
 القطع . وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط
 في الخروج . وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها . وكذلك
 ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجد من أبصر
 بها من الطبيب الماهر . وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن
 إنساني بالقوة فقط . فإذا جاوز الفصال صار بدناً إنسانياً بالفعل فكانت حاجته
 حينئذ إلى الطبيب أشد . فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع
 الإنساني . لا يتم كون أشخاص في الغالب دونها . وقد يعرض لبعض أشخاص
 النوع الاستغناء عن هذه الصناعة . إما يخلق الله ذلك لهم معجزة وحرقة للعادة
 كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود
 ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة . فأما شأن المعجزة من ذلك فقد
 وقع كثيراً . ومنه ما روي أن النبي ﷺ ولد مشروراً مختوناً واضعاً يديه على
 الأرض شاخصاً يبصره إلى السماء . وكذلك شأن عيسى في المهيد وغير ذلك . وأما
 شأن الإلهام فلا يتكرر . وإذا كانت الحيوانات العجم تختص بفرائب الإلهامات
 كالنحل وغيرها فما ظنك بالإنسان المفضل عليها . وخصوصاً بمن اختص
 بكرامة الله . ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الثدي أوضح شاهد على
 وجود الإلهام العام لهم . فشان العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به . ومن هنا
 يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع
 واستحالة انقطاع المكوّنات . وخصوصاً في النوع الإنساني . وقالوا : لو انقطعت
 أشخاص لا استحالة وجودها بعد ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم
 كون الإنسان إلا بها . إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين

الفِصَالِ ^(١) لَمْ يَتِمَّ بِقَاوِئِهِ أَضْلًا . وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ الْفِكْرِ مُتَمَتِّعٌ لِأَنَّهَا تَمَرَّتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ . وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَعَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوَّدَهُ ثَانِيًا لِاقْتِضَاءِاتِ فَلَکِّيَّتِهِ وَأَوْضَاعِ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمَزَاجِهِ بِحَرَارَةِ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَفِيضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلَهَامًا لِتَرْبِيَّتِهِ وَالْحَنُوقَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَجُودُهُ وَفِصَالُهُ . وَأُطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرَّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا رِسَالَةَ حَيٍّ بِنِ يَقْظَانَ . وَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ . فَإِنَّ دَلِيلَهُ مُبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعَلَّةِ الْمُوجِبَةِ . وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّكَلُّفِ . ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَا جَدْلًا فَعَايَةً مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ أَطْرَادَ وَجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخَلْقِ الْإِلَهَامِ لِتَرْبِيَّتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ . وَمَا الصُّرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ ؟ وَإِذَا كَانَ الْإِلَهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَنَاعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوْلًا . وَخَلْقِ الْإِلَهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكَلَّا الْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبُطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا لِمَا قَرَّرْتَهُ لَكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج إليها في الحواضر

والأمنصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمنصار لما عرف من فائدتها فإن تمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم . وأعلم أن أضل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال عليه السلام في الحديث الجامع للطب وهو قوله : « المَعْدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ وَالْحَمِيَةُ

(١) وفي النسخة الباريسية ، الانفصال .

رَأْسُ الدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ البَرْدَةُ « فَأَمَّا قَوْلُهُ المِعْدَةُ بَيَّنَّتِ الدَّاءَ فَهوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ الحِمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ فَالْحِمِيَّةُ الجُوعُ وَهُوَ الإِخْتِمَاءُ مِنَ الطَّعَامِ . وَالمَعْنَى أَنَّ الجُوعَ هُوَ الدَّوَاءُ العَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ البَرْدَةُ ^(١) » فَمَعْنَى البَرْدَةِ إِذْخَالَ الطَّعَامَ عَلَى الطَّعَامِ فِي المِعْدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ الأَوَّلِ . وَشَرَحَ هَذَا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِالعِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِالأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ القُوَى الهَاضِمَةَ وَالعَازِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مُلَائِمًا لِأَجْزَاءِ البَدَنِ مِنَ اللَّحْمِ وَالعَظْمِ . ثُمَّ تَأْخُذُهُ النَّامِيَّةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا . وَمَعْنَى الهَضْمِ طَبْخُ العِذَاءِ بِالحَرَارَةِ العَرِيضِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءًا بِالفِعْلِ مِنَ البَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ العِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي الفَمِ وَلاَكْتَهُ الأَشْدَاقُ أَثَرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا وَقَلِبَتْ مِرْاجِحَةً بَعْضُ الشَّيْءِ . كَمَا نَرَاهُ فِي اللُّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغًا فَتَرَى مِرْاجِحَهَا غَيْرَ مِرْاجِ الطَّعَامِ ثُمَّ يَحْصُلُ فِي المِعْدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ المِعْدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوسًا وَهُوَ صَفْوُ ذَلِكَ المُطْبُوخِ وَتُرْسَلُهُ إِلَى الكَبِدِ وَتُرْسَلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي المِعَى ثِقَلًا يَنْفِذُ إِلَى المَخْرَجِينَ . ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ الكَبِدِ ذَلِكَ الكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا عَيْطًا ^(٢) وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ الطَّبْخِ هِيَ الصَّفْرَاءُ . وَتُرْسَبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ السُّودَاءُ وَيَقْصُرُ الحَارُّ العَرِيضِيُّ بَعْضُ الشَّيْءِ عَنِ طَبْخِ الغَلِيظِ مِنْهُ فَهُوَ البَلْغَمُ . ثُمَّ تُرْسَلُهَا الكَبِدُ كُلُّهَا فِي العُرُوقِ وَالجُدَاوِلِ . وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ الحَالِ ^(٣) العَرِيضِيُّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ الدَّمِ الخَالِصِ يُخَارَ حَارًّا رَطْبًا يُمِدُّ الرُّوحَ الحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ النَّامِيَّةُ مَاخُذَهَا فِي الدَّمِ فَيَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ غَلِيظَةً عِظَامًا . ثُمَّ يُرْسَلُ البَدَنُ مَا يَفْضَلُ عَنِ حَاجَاتِهِ مِنْ ذَلِكَ فَصَلَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ العَرَقِ وَالمُعَابِ وَالمَخَاطِ وَالدَّمْعِ . هَذِهِ صُورَةُ العِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ لَحْمًا . ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ الأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ الحُمِيَّاتُ . وَسَبَبُهَا أَنَّ الحَارَّ العَرِيضِيَّ قَدْ يَضْعَفُ عَنِ تَمَامِ ^(٤) النُّضِجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ

(٢) الخالص الطري (قاموس) .

(١) التخمه .

(٣) وفي نسخة أخرى ، الحار .

(٤) وفي نسخة أخرى ، إتمام .

هذه ، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج ، وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول فيستقل^(١) به الحار الغريزي ويترك الأول بحالة أو يتوزع عليهما فيقصُر عن تمام الطبخ والنضج . وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه . وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة . وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو . فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدَّمع واللُعاب إن اقتدر على ذلك . وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتترايد مع الأيام . وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط . وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي السمماة في بدن الإنسان بالحمى . واختبر^(٢) ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضاً . كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها . فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث . وهذه الحميات علاجها^(٣) يقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم يتناول^(٤) الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه . وذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص ، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن ، إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها . وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له . هذه كلها جماع الأمراض . وأصلها في الغالب من الأغذية وهذا كله مرفوع إلى الطبيب . ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضرة والأمصار أكثر . ليخصب عيشهم وكثرة ماكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيتهم

(٢) وفي نسخة أخرى : واعتبر .

(١) وفي نسخة أخرى ، فيستقل .

(٣) وفي نسخة أخرى ، علاجات .

(٤) وفي نسخة أخرى ، ثم تناوله .

لِتَنَالُهَا . وَكَثِيرًا مَا يَخْلُطُونَ بِالْأَغْذِيَةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاكِهِ ، رَطْبًا
وَيَابَسًا فِي سَبِيلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبِيخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ . فَرُبَّمَا
عَدَدْنَا فِي الْيَوْمِ (١) الْوَاحِدِ مِنَ الْأَنْوَاعِ الطَّبِيخِ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ
لِلْغِذَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ . وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا (٢) عَنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ . ثُمَّ إِنَّ
الْأَهْوِيَّةَ فِي الْأَمْصَارِ تَفْسُدُ بِمُخَالَطَةِ الْأَيْخِرَةِ الْعَفْنَةِ مِنْ كَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ . وَالْأَهْوِيَّةُ
مَنْشُطَةٌ لِلزَّوْجِ وَمَقْوِيَّةٌ بِنَشَاطِهَا الْأَثَرِ الْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ فِي الْهَضْمِ . ثُمَّ الرِّيَاضَةُ
مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ فِي الْغَالِبِ وَادْعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّيَاضَةُ
شَيْئًا وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ أَثْرًا . فَكَانَ وَقُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ
وَقُوعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَّلَتْهُمْ قَلِيلٌ فِي الْغَالِبِ
وَالْجُوعُ أَغْلَبُ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْخُبُوبِ حَتَّى ضَارَّ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً . وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جَبَلَةٌ
لَا تَسْتَمْرَارُهَا . ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجُمْلَةِ . وَعِلَاجُ الطَّبِيخِ بِالتَّوَابِلِ
وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْحِضَارَةِ الَّذِينَ هُمْ بِمَعْرَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَالُونَ أَغْذِيَتَهُمْ
بَسِيطَةً بَعِيدَةً عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيُقَرِّبُ مِزَاجَهَا مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ . وَأَمَّا أَهْوِيَّتُهُمْ
فَقَلِيلَةٌ الْعَفْنُ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا أَهْلِينَ . أَوْ لِاخْتِلَافِ الْأَهْوِيَّةِ إِنْ
كَانُوا ظَوَاعِنَ . ثُمَّ إِنَّ الرِّيَاضَةَ مَوْجُودَةً فِيهِمْ لِكثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ
الصَّيْدِ أَوْ طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِمَهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسُنُ بِذَلِكَ كُلَّهُ الْهَضْمُ
وَيَجُودُ وَيُنْفَقُ إِذْ خَالَ الطَّعَامُ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْرَجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ
الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ إِلَى الطَّبِّ . وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ يَوْجِهِ . وَمَا
ذَلِكَ إِلَّا لِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ لُوْاحْتِيجَ إِلَيْهِ لَوْجِدَ . لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ
يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ « سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

(١) وفي نسخة أخرى ، اللوت .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بعيداً .

الفصل الثلاثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي
النَّفْسِ . فَهُوَ ثَانِي رَتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ اللَّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذْ الْكِتَابَةُ مِنْ
خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانَ . وَأَيْضاً فِيهَا تَطَّلِعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ
وَتَتَأَدَّى بِهَا الْأَغْرَاضَ إِلَى الْبِلَادِ^(١) الْبَعِيدَةِ فَتَقْضِي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْئِنَةَ
الْمُبَاشَرَةِ لَهَا وَيُطَّلِعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَصُحُفِ الْأَوْلِيَيْنِ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ
عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فِيهَا شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ وَالْمَنَافِعِ . وَخُرُوجُهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ
الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدْرِ الْإِجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَاقُيِ فِي
الْكَمَالَاتِ وَالطَّلِبِ لِذَلِكَ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ .
وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا شَائِنٌ وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا نَجِدُ أَكْثَرَ الْبَنُو أُمَّتَيْنِ
لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ خَطُّهُ قَاصِراً أَوْ قِرَاءَتُهُ غَيْرَ
نَافِذَةً . وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانِهَا عَنِ الْحَدِّ أْبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَلَ
طَرِيقاً لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا . كَمَا يُخَكِّي لَنَا عَنْ مِضْرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بِهَا
مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ يُلْقُونَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ قَوَائِينَ وَأَحْكَاماً فِي وَضْعِ كُلِّ
حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَتَعْتَصِدُ لَدَيْهِ رَتْبَةُ الْعِلْمِ وَالْحِسِّ
فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أُنْمِ الْوُجُوهِ . وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ وَوُفُورِهَا
بِكثْرَةِ الْعُمُرَانِ وَإِنْفِسَاحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بِالْغَا مَبَالِغَةً مِنَ الْإِحْكَامِ
وَالِإِتْقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَاعَةِ لِمَا بَلَغَتْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ وَهُوَ الْمُسَمَّى
بِالْخَطِّ الْحَمِيرِيِّ . وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْحِيرَةِ لِمَا كَانَ بِهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ الْمُنْذِرِ نُسْبَاءُ
التَّبَاعَةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُجَدِّدِينَ لِمُلْكِ الْعَرَبِ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ . وَلَمْ يَكُنِ الْخَطُّ

(١) وفي نسخة أخرى ، البلد

عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَاعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ
 الْحِضَارَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَلِكَ . وَمِنَ الْحِيَرَةِ لِقِنَةِ أَهْلِ
 الطَّائِفِ وَقَرَيْشٍ فِيمَا ذَكَرَ . وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحِيَرَةِ هُوَ سَفِيَانُ بْنُ
 أُمِيَّةَ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمِيَّةَ وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ . وَهُوَ قَوْلٌ مُمَكِّنٌ وَأَقْرَبُ
 مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ إِيَادِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعًا وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ يَعِيدُ لِأَنَّ إِيَادًا وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ
 الْبِدَاوَةِ . وَالْخَطُّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْحَضَرِيَّةِ . وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى
 الْخَطِّ وَالْقَلَمِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ
 بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لَقَّنُوهُا مِنَ الْحِيَرَةِ وَلَقَّنَهَا أَهْلُ الْحِيَرَةِ مِنَ التَّبَاعَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ
 الْأَلْيَقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ التَّكْمِلَةِ لِابْنِ الْأَبَّارِ عِنْدَ التَّعْرِيفِ بِابْنِ فَرُوحِ
 الْفَيْرُزَانِيِّ الْقَاسِيِ الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 فَرُوحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَنْعَمَ . عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 عَبَّاسٍ : يَا مَعْشَرَ قَرَيْشٍ ، خَبِّرُونِي عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ، هَلْ كُنْتُمْ تَكْتَبُونَهُ
 قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ تَجْمَعُونَ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ وَتَفْرُقُونَ مِنْهُ مَا افْتَرَقَ
 مِثْلَ الْأَيْفِ وَاللَّامِ وَالْمِيمِ وَالنُّونِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَ تَمَوْهَ ؟ قَالَ : مِنْ
 حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ حَرْبُ ؟ قَالَ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ .
 قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ
 أَخَذَهُ أَهْلُ الْأَنْبَارِ ؟ قَالَ : مِنْ طَارِيءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ
 ذَلِكَ لَطَارِيءُ ؟ قَالَ : مِنْ الْخُلُجَانِ بْنِ الْقَسَمِ كَاتِبِ الْوَحْيِ لِيَهُودِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ . وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

أَفِي كُلِّ عَامٍ سَنَةً تُحَدِّثُونَهَا وَرَأَيْ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ يُعْبَرُ
 وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ تَسْبِنَا بِهَا جُرْهُمُ فِيمَنْ يُسَبُّ وَحَمِيرُ

انتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة . وزاد في آخره ، حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حمير في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد الوشني عن أبي عمر الطلعنكي بن أبي عبد الله بن مفرح . ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس ، عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن خشير بن عمر بن أيوب المغافري التونسي عن بهلول بن عبدة الحمي عن عبد الله بن فروخ . انتهى .

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمتنون من تعلمها إلا بإذنهم . ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإثقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر . وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول . وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومضر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإثقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وأنظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رؤسومهم ما اقتضته أقيسة رؤوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه . كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويُسَمَّى رسمه خطأ أو صوابا . وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فأتبع ذلك وأثبت رسما ونسب العلفاء بالرسم على مواضعه . ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل

مِنْ مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأُصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يَتَخَيَّلُ بَلْ لِكُلِّهَا وَجْهٌ . يَقُولُونَ فِي
 مِثْلِ زِيَادَةِ الْأَلْفِ فِي لَا أَدْبَحْتَهُ ، إِنَّهُ تَنْبِيْهٌ عَلَى أَنْ الدُّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْبَاءِ فِي
 بَأْيِدِ إِنَّهُ تَنْبِيْهٌ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا أَضِلُّ لَهُ إِلَّا التَّحْكُمُ
 الْمُخَصُّ . وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اعْتِقَادَهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيْهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْهَمِ
 النِّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ . وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالًا فَتَزَهُوهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا
 إِلَيْهِمُ الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَغْلِيْلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ
 بِصَحِيْحٍ . وَاعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذْ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدْنِيَّةِ
 الْمَعَاشِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ . وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ وَلَيْسَ بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ
 لَا يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ
 وَيَحْسَبُ الْعُمْرَانِ وَالْتَعَاوُنِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ
 كَانَ ﷺ أَمِيًّا وَكَانَ ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزِهِهِ عَنِ
 الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمْرَانِ كُلِّهَا . وَلَيْسَتْ الْأَمِيَّةُ كَمَالًا فِي
 حَقِّهَا نَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رَبِّهِ وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ
 كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ فَإِنَّ الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزَهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا .

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا الْأَمْصَارَ وَمَلَكُوا الْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ
 وَاجْتَاغَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابَةِ اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمُوهُ وَتَدَاوَلُوهُ
 فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةَ رُتْبَةً مِنَ الْإِثْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا
 كَانَتْ دُونَ الْغَايَةِ . وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ . ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي
 الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ وَافْتَتَحُوا أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسَ وَاخْتَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتْ
 الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا اسْتَبْحَرَتْ فِي الْعُمْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ
 الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَالَفَتْ أَوْضَاعَ الْخَطِّ بِبَغْدَادَ أَوْضَاعَهُ بِالْكُوفَةِ ، فِي الْمَيْلِ إِلَى إِجَادَةِ
 الرُّسُومِ وَجَمَالِ الرُّوْنُقِ وَحُسْنِ الرِّوَاءِ . وَاسْتَحْكَمَتْ هَذِهِ الْمَخَالَفَةُ فِي الْأَمْصَارِ إِلَى أَنْ
 رَفَعَ رَأْيَتَهَا بِبَغْدَادَ عَلِيُّ بْنُ مَقْلَةَ الْوَزِيرِ . ثُمَّ تَلَاهُ فِي ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ . الْكَاتِبِ

الشهير بإبن النواب . ووقف سنه تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها .
 وبمدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة . حتى انتهت إلى المبائنة . ثم
 ازدادت المخالفة بعد تلك القصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه .
 حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي . ووقف سنه تعليم
 الخط عليهم وانتقل ذلك إلى مصر . وخالفت طريقة العراق بغض الشيء ولقنها
 العجم هنالك . وظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مبائنة .

وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الأفريقي المعروف رسمه القديم
 لهذا العهد . ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتخيير^(١) ملك الأندلس بالأمويين
 فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي
 كما هو معروف الرسم لهذا العهد . وطما بحر العمران والحضارة في الدول
 الإسلامية في كل قطر . وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب
 وأجيد كتبها وتجليدها^(٢) وملئت بها القصور والخزائن الملوكة بما لا كفاء له
 وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه . ثم لما انحلت نظام الدولة الإسلامية
 وتناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدموس الخلافة فانتقل شأنها من الخط
 والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها بها نافقة لهذا العهد وله^(٣)
 بها معلمون يرسمون لتعليم^(٤) الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة
 بينهم فلا يلبث المتعلم أن يخكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد
 لقنها حسنا وحنق فيها ذرابة وكتابا وأخذها قوانين علمية^(٥) فتجىء أحسن
 ما يكون . وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها
 ومن خلفهم من البربر . وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في غدة المغرب

(٢) وفي النسخة البارسية . تجليدها .

(١) وفي نسخة أخرى . وتميز .

(٣) وفي نسخة أخرى . للخط .

(٤) وفي نسخة أخرى . للمعلم .

(٥) وفي نسخة أخرى . عملية .

وأفريقيّة من لدن الدولة الممتونيّة إلى هذا العهد . وشازكوا أهل العُمران بما لديهم من الصنائع وتعلّقوا بأذيال الدولة فقلّب خطهم على الخط الأفريقيّ وعفى عليه ونسى خط القيزوان والمهديّة بنسيان عوائدهما وصنائعهما . وصارت خطوط أهل أفريقيّة كلّها على الرسم الأندلسيّ بتونس وما إليها لتوفّر أهل الأندلس بها عند الحاليّة من شرقي الأندلس . وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرّسوا بحوارهم . إنّما كانوا يغدّون على دار الملك بتونس فصار خط أهل أفريقيّة من أحسن خطوط أهل الأندلس حتى إذا تقلّص ظلّ الدولة الموحديّة بغض الشيء وتراجع أمر الحضارة والتزّج بتراجع العُمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومهُ وجُهل فيه وجه التعلّم بفساد الحضارة وتناقص العُمران . وبقيت فيه آثار الخط الأندلسيّ تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدّمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيفسر مخوها وحصل في دولة بني مرّين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسيّ لغرب جزارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعملهم إيّاهم سائر الدولة . ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره . كأنه لم يُعرف . فصارت الخطوط بأفريقيّة والمغربيين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمُتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتضخيف وتغيير الأشكال الخطيّة عن الجودة حتى لا تكاد تُقرأ إلا بعد عشر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه .

وللأستاذ أبي الحسن عليّ بن هلال الكاتب البغداديّ الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط^(١) على رويّ الرءاء يذكر فيها صناعة الخط وقوادها من أحسن ما كتب في ذلك . رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلّم هذه الصناعة . وأولّها :

(١) هذه القصيدة من بحر الكامل وليس من بحر البسيط .

يَا مَنْ يُرِيدُ إِجَادَةَ التَّحْرِيرِ
إِنْ كَانَ عَزَمَكَ فِي الْكِتَابَةِ صَادِقًا
أَعِدْ مِنَ الْأَقْلَامِ كُلَّ مُتَقَبِّ
وَإِذَا عَمَدْتَ لِبَرِيَّةٍ فَتَوَخَّهْ
انظُرْ إِلَى طَرَفِيهِ فَاجْعَلْ بَرِيَّةً
وَاجْعَلْ لِجَلْفَتَيْهِ قَوَامًا عَادِلًا

وَالشُّقَّ وَسَطِهِ لِيَبْقَى بِرِيَّةً
حَتَّى إِذَا أَيَقَنْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ
لَا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أُبَوِّحَ بِسِرِّهِ
لَكِنَّ جُمْلَةً مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ
وَالْبِقَ دَوَاتِكَ بِالذُّخَانِ مُدَبَّرًا
وَأَضِيفَ إِلَيْهِ قَفْرَةٌ قَدْ صَوْلَتْ
حَتَّى إِذَا مَا حَمِرَتْ فَأَعْمِدْ إِلَى
فَاكْسِيهِ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمِعْضَارِ كُنِي
ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْثِيلَ ذَا بَيْتٍ صَابِرًا
إِبْدَاءً بِهِ فِي اللَّوْحِ مُنْتَفِيًا لَهُ
لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدَى تَخْتَطُّهُ
فَالْأَمْرُ يَضَعَبُ ثُمَّ يَرْجِعُ هِينًا
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَتَ مَا أَمَلْتَهُ
فَانشُكِرْ آلِهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ
وَارْعَبْ لِكَلْمِكَ أَنْ تَخْطُبَ بِنَانِهَا
فَجَمِيعُ فِعْلِ الْمَرْءِ يَلْقَاهُ عَدَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْخَطَّ بَيَانٌ عَنِ الْقَوْلِ وَالْكَلامِ . كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ وَالْكَلامَ بَيَانٌ عَمَّا فِي

النفس والضمير من المعاني ، فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة .
قال الله تعالى ، « خلق الإنسان ، علمه البيان » ^(١) وهو يشتمل بيان الأدلة
كلها . فالخط المجوّد كماله أن تكون دلالته واضحة . بإبانة حروفه المتواضعة
وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميز عن الآخر . إلا ما اضطلع عليه
الكتاب من إضال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض . سوى حروف اضطلخوا
على قطعها . مثل الألف المتقدمة في الكلمة . وكذا الزاء والزاي والدال والذال
وغيرها . بخلاف ما إذا كانت متأخرة . وهكذا إلى آخرها . ثم إن المتأخرين من
الكتاب اضطلخوا على وصل كلمات . بعضها ببعض . وحذف حروف معروفة
عندهم . لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهؤلاء كتاب دواوين
السلطان وسجلات القضاة . كأنهم انفردوا بهذا الإضلاج عن غيرهم . لكثرة
موارد الكتابة عليهم . وشهرة كتاباتهم وإحاطة كثير من ذونهم بمصطلحهم فإن
كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فيسني أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان
ما استطاعوه . وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي . لأنهما بمنزلة واحدة من عدم
التواضع عليه . وليس يغدر في هذا القدر . إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال
والجيوش . لأنهم مطلوبون يكتمان ذلك عن الناس فإنة من الأشرار السلطانية
التي يحب إخفاؤها . فيبالغون في رسم اضطلاع خاص بهم . ويصير بمثابة
المعنى . وهو الإضلاج على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب
والفواكه والطيور والأزاهير . ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة
يضطلع عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة . وربما وضع الكتاب
للعثور على ذلك . وإن لم يضعوه أولاً . قوانين بمقاييس إستخرجوها لذلك
بمداركهم يسمنونها فك المعنى . وللناس في ذلك دواوين مشهورة . والله العليم
الحكيم .

(١) آية ٣ و ٤ من سورة الرحمن .

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كَانَتْ عِنَايَةٌ قَدِيمًا بِالدَّوَابِّ الْعِلْمِيَّةِ وَالسَّجَلَاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا وَتَضْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ وَالضَّبْطِ . وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ الدَّوَلَةِ وَتَوَابِعِ الْحَضَارَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِذَهَابِ الدَّوَلَةِ وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَحْرٌ زَاخِرٌ بِالْعِرَاقِ وَالْأَنْدَلُسِ إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْعُمَرَانِ وَاتَّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوَلَةِ وَتَفَاقِ أَسْوَاقِ ذَلِكَ لَدَيْهِمَا . فَكَثُرَتِ التَّالِيفُ الْعِلْمِيَّةُ وَالدَّوَابِّ وَحَرَصَ النَّاسُ عَلَى تَنَاقُلِهَا فِي الْآفَاقِ وَالْأَعْصَارِ فَانْتَسَخَتْ وَجَلَدَتْ . وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ الْوَرَّاقِينَ الْمَعَانِينَ لِلانْتِسَاحِ وَالتَّضْحِيحِ وَالتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْكُتُبِيَّةِ وَالدَّوَابِّ وَاخْتَصَّتْ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ الْعُمَرَانِ . وَكَانَتْ السَّجَلَاتُ أَوْلَى ، لِانْتِسَاحِ الْعُلُومِ وَكُتُبِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْإِقْطَاعَاتِ . وَالصُّكُوكِ فِي الرُّقُوقِ الْمُهَيَّأَةِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْجِلْدِ لِكَثْرَةِ الرِّفِّهِ وَقِلَّةِ التَّالِيفِ صَدَرَ الْمِلَّةِ كَمَا نَذَرْنَا . وَقِلَّةِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ فَانْتَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرِّقِّ تَشْرِيفًا لِلْمَكْتُوبَاتِ وَمَيْلًا بِهَا إِلَى الصَّحَّةِ وَالْإِنْتِقَانِ . ثُمَّ طَمَأَ بَحْرُ التَّالِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ وَضَاقَ الرِّقُّ عَنْ ذَلِكَ . فَأَشَارَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ الْكَاعِدِ وَصَنَعَهُ وَكُتِبَ فِيهِ رَسَائِلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ . وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ صَحْفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ . وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ . ثُمَّ وَقَفَتْ عِنَايَةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَابِّ الْعِلْمِيَّةِ وَتَضْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ الْمُسْنَدَةِ إِلَى مَوْلَيْهَا وَوَضْعِهَا لِأَنَّ الشَّأْنَ الْأَهْمُ مِنَ التَّضْحِيحِ وَالضَّبْطِ فَبِذَلِكَ تُسَنَدُ الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِهَا وَالْفُتْيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْمُجْتَهِدِ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا . وَمَا لَمْ يَكُنْ تَضْحِيحُ الْمُتَوَنِّبِينَ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مُدَوِّنِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فُتْيَا . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ .

حَتَّى لَقَدْ قُصِرَتْ فَائِدَةُ الصَّنَاعَةِ الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَمَرَتْهَا
الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ وَحُسْنِهَا وَمُسْنِدِهَا وَمُرْسِلِهَا وَمَقْطُوعِهَا
وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضُوعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَمَخَّضَتْ زُبْدَةً فِي ذَلِكَ ^(١) الْأَمَهَاتُ الْمُتَلَقَّاتُ
بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأُمَّةِ . وَصَارَ الْقَضَى إِلَى ذَلِكَ لِعَوَا مِنْ الْعَمَلِ . وَلَمْ يَبْقَ ثَمَرَةُ الرِّوَايَةِ
وَالِاسْتِغْنَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَصْحِيحِ تِلْكَ الْأَمَهَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ
لِلْفَتْنِيَا ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنَ الدُّوَاوِينِ وَالتَّالِيفِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَأَتَّصَلَ سِنْدُهَا بِمَوْلَيْهَا لِيَصِحَّ
النَّقْلُ عَنْهُمْ ، وَالِإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ . وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالمَشْرِيقِ وَالْأَنْدَلُسِ مُعْبَدَةً
الطَّرِيقِ وَاصِحَّةَ الْمَسَالِكِ . وَلِهَذَا نَجَدُ الدُّوَاوِينِ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ
عَلَى غَايَةِ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالِإِحْكَامِ وَالصَّحَّةِ . وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
أَصُولٌ عَتِيقَةٌ تُشْهَدُ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَهْلُ الْأَفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنِ
وَيَشُدُّونَ عَلَيْهَا يَدَ الصَّنَائَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالمَغْرِبِ
وَأَهْلِهِ لِانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرِّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عُمَرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ
وَصَارَتِ الْأَمَهَاتُ وَالدُّوَاوِينُ تُنْسَخُ بِالْخَطِّ الْيَدَوِيِّ تُنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَرَبْرِ
صَحَائِفُ مُسْتَعْجَمَةٌ بِرَدَاةِ الْخَطِّ وَكثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّضْحِيفِ فَتَسْتَفْلِقُ عَلَى مُتَصَفِحِهَا
وَلَا يَحْضَلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَأَيْضاً فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْفَتْنِيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَغْرُوبَةِ غَيْرُ مَرْوِيَّةٍ عَنْ أُيْمَةِ الْمَنْذَهَبِ وَإِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ تِلْكَ
الدُّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ . وَتَبِعَ ذَلِكَ أَيْضاً مَا يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أُيْمَتِهِمْ مِنْ
التَّالِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الصَّنَائِعِ الْوَافِيَةِ بِمَقَاصِدِهِ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا
الرُّسْمِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْإِمْحَاءِ ^(٢) وَهِيَ الْإِضْمِحْلَالُ فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ
يَنْقَطِعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ صِنَاعَةَ
الرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالمَشْرِيقِ وَتَصْحِيحُ الدُّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَدِئِهِ
لِنَفَاقِ اسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدُ . إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، تِلْكَ

(٢) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، الْأَنْهَاءُ

في الاتساح هنالك إنما هو للعجم وفي خطوطهم . وأما النسخ بمصر ففسد كما
فسد بالمغرب وأشد . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب
منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيماً عند قطعه فيكون نغمة . ثم تؤلف
تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب
وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات . وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن
الأصوات تتناسب . فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من
أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع بخروجها^(١) من
البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوداً عند السماع بل للملذوذ
تركيب خاصة وهي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو
مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات
أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها^(٢) لذة
عند السماع . فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف منها المزمار ويسمونه الشبابة
وهي قصبه جوفاء بأبخاش في جوانبها مغدودة ينفخ فيها فتصوت . فيخرج
الصوت من جوفها على سداده من تلك الأبخاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع
من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضماً متعارفاً حتى تحدث النسب بين
الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلذ السمع بإدراكها للتناسب الذي

(١) وفي نسخة أخرى ، يخرجها .

(٢) وفي نسخة أخرى ، فتزيد بها .

ذَكَرْنَاهُ . وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَلَةِ الْمَزْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزَّلَامِيُّ وَهُوَ شَكْلُ الْقَصَبَةِ
مَنْحَوْتَةَ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الخَشَبِ جَوْفَاءً مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ
مُنْفَرَدَتَيْنِ ^(١) كَذَلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوَصَّلُ فَيَنْفِذُ النِّفْخَ
بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتَصَوَّتْ بِنَغْمَةٍ خَادَّةٍ يُجْرَى فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ
الْأَبْخَاشِ بِالأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرَى فِي الشَّبَابِيَةِ . وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ الزَّمْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ
الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نَحَاسٍ أَجْوَفٌ فِي مِقْدَارِ الذَّرَاعِ يَتَسَعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ انْفِرَاجٌ
مَخْرَجِهِ فِي مِقْدَارِ دُونَ الكَفِّ فِي شَكْلِ بَرِيِّ القَلَمِ . وَيُنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي
الرِّيحُ مِنَ القَمِّ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ نُحِينًا دَوْنًا وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ . وَتَقْطَعُ
نَغْمَةً مِنْهَا كَذَلِكَ بِالأَصَابِعِ عَلَى التَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْدُودًا . وَمِنْهَا الآتُ الأُوتَارُ وَهِيَ
جَوْفَاءٌ كُلُّهَا إِمَّا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الكُرَّةِ مِثْلِ المِرْبِطِ ^(٢) وَالرَّبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلِ
مَرْبِيعٍ كَالْقَانُونِ تُوَضَعُ الأُوتَارُ عَلَى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةٌ فِي رَاسِهَا إِلَى دَسْرِ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ
شَدُّ الأُوتَارِ وَرِخْوَتُهَا عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا . ثُمَّ تَقْرَعُ الأُوتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ
بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِالشَّمْعِ وَالكَنْدَرِ . وَيَقْطَعُ
الصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ اليَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ نَقْلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلَى وَتَرٍ . وَاليَدُ اليُسْرَى مَعَ ذَلِكَ
فِي جَمِيعِ آلَاتِ الأُوتَارِ تَوْقِعُ بِأَصَابِعِهَا عَلَى أَطْرَافِ الأُوتَارِ فِيمَا يَقْرَعُ أَوْ يَحْكُ
بِالْوَتَرِ فَتَحْدُثُ الْأَصْوَاتُ مُنَاسِبَةً مَلْدُودَةً . وَقَدْ يَكُونُ القِرْعُ فِي الطُّسُوتِ
بِالقُضْبَانِ أَوْ فِي الأَعْوَادِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ يَحْدُثُ عَنْهُ التِّدَادُ
بِالمُسْمُوعِ . وَلِنُبَيِّنَ لَكَ السَّبَبَ فِي اللُّذَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ العِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللُّذَّةَ كَمَا
تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِذْرَاكُ المَلَائِمِ وَالمَخْسُوسِ إِنَّمَا تَذْرُكُ مِنْهُ كَيْفِيَّتُهُ . فَإِذَا كَانَتْ
مُنَاسِبَةً لِلْمَذْرُوكِ وَمَلَائِمَةً كَانَتْ مَلْدُودَةً . وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً كَانَتْ
مُؤَلِّمَةً . فَالْمَلَائِمُ مِنَ الطَّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتَهُ حَاسَةً الذُّوقِ فِي مِرَاجِحِهَا وَكَذَا
المَلَائِمُ مِنَ المَلْمُوسَاتِ وَفِي الرِّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِرَاجِ الرُّوحِ القَلْبِيِّ البُخَارِيِّ لِأَنَّهُ

(١) وفي نسخة أخرى ، منفردتين .

(٢) وفي نسخة أخرى ، البربط .

الْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ الْخَاسَّةُ . وَلِهَذَا كَانَتْ الرِّيَاحِينَ وَالْأَزْهَارُ الْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ
 رَائِحَةً وَأَشَدَّ مَلَامَةً لِلرُّوحِ لِعَلْبَةِ الْحَرَارَةِ فِيهَا الَّتِي هِيَ مِزَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ . وَأَمَّا
 الْمُرْتَبَاتُ وَالْمَسْمُوعَاتُ فَالْمَلَامَةُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهِيَ
 أَنْسَبُ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُّ مَلَامَةً لَهَا . فَإِذَا كَانَ الْمُرْتَبِيُّ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ
 وَتَخَاطِيطِهِ الَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ الْخَاصَّةُ مِنْ
 كَمَالِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرِكٍ . كَانَ ذَلِكَ
 حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا لِلنَّفْسِ الْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَمِذُ بِإِدْرَاكِ مَلَامَتِهَا . وَلِهَذَا تَجِدُ الْعَاشِقِينَ
 الْمُسْتَهْتَرِينَ ^(١) فِي الْمَحَبَّةِ يُعْبَرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعَشْقِهِمْ بِامْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ
 بِرُوحِ الْمَحْبُوبِ . وَفِي هَذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ اتِّخَاذُ الْمَبْدَأِ وَإِنْ كَانَ
 مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّخَاذًا فِي الْبَدَاءَةِ . يَشْهَدُ لَكَ بِهِ
 اتِّخَاذُ كَمَا فِي الْكَوْنِ وَمَعْنَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا
 تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ . فَتَوَدُّ أَنْ يَمْتَرِجَ بِمُشَاهَدَاتٍ ^(٢) فِيهِ الْكَمَالُ لِتَتَّجِدَ بِهِ . بَلْ تَرُومُ
 النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَهْمِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّخَاذُ الْمَبْدَأِ وَالْكَوْنِ . وَلَمَّا
 كَانَ أَنْسَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبَهَا إِلَى أَنْ يُدْرِكَ ^(٣) الْكَمَالُ فِي تَنَاسُبِ
 مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلَةُ الْإِنْسَانِيِّ فَكَانَ إِدْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطِيطِهِ وَأَصْوَاتِهِ
 مِنَ الْمَدْرَكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ . فَيَلْهَجُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمُرْتَبِيِّ أَوْ
 الْمَسْمُوعِ بِمَقْتَضَى الْفِطْرَةِ . وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً
 لَا مُتَنَافِرَةً . وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ وَالْجَهْرِ وَالرُّخَاوَةِ وَالشَّدَّةِ
 وَالْقَلْفَلَةِ وَالضُّغْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ لَهَا الْحُسْنَ .
 فَأَوَّلًا ، أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدَّةٍ دَفْعَةً بَلْ بِتَدْرِيجٍ ، ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ ،
 وَهَكَذَا إِلَى الْمِثْلِ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْسِطِ الْمَغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ . وَتَأَمَّلْ هَذَا مِنْ

(١) وفي نسخة أخرى ، المستهترين .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بما شاهدت .

(٣) وفي نسخة أخرى ، مدرك .

افتتاح^(١) أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه . وثانياً : تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نضفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه ، على حسب ما يكون التنقل متناسباً على ما حصره أهل الصناعة^(٢) . فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذودة . ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك . وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار . وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقمهم وتناسب نغماتهم . ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يشوي في معرفته ولا كل الطبائع^(٣) توافق صاحبها في العمل به إذا علم . وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم . وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه . وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يختلف في خطره إذ صناعة الغناء مبينة للقرآن بكل وجه لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في مواضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره ، وأمثال ذلك . والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا تتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين . واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضاً . وتقديم الرواية^(٤) متعين قراراً من تفسير الرواية المنقولة في القرآن ، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن

(١) وفي نسخة أخرى : استفتاح .

(٢) أي أهل صناعة الموسيقى .

(٣) وفي نسخة أخرى : الطبايع .

(٤) وفي نسخة أخرى : التلاوة .

بِوَجْهِ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينَ البَّسِيطَ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ المِضْمَارِ بِطَبِيعِهِ
كَمَا قَدَّمَاهُ فَيَرَدُّ أَصَوَاتَهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يَدْرِكُهَا العَالِمَ بِالعِنَاءِ وَغَيْرِهِ وَلَا
يَنْبَغِي ذَلِكَ بِوَجْهِ وَإِنَّمَا المَرَادُ مِنْ اخْتِلَافِهِمُ التَّلْحِينَ البَّسِيطَ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ
صَاحِبُ المِضْمَارِ بِطَبِيعِهِ كَمَا قَدَّمَاهُ . فَيَرَدُّ أَصَوَاتَهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يَدْرِكُهَا
العَالِمَ بِالعِنَاءِ وَغَيْرِهِ . وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ بِوَجْهِ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ . هَذَا هُوَ مَحَلُّ
الْخِلَافِ . وَالظَّاهِرُ تَنْزِيهِ القُرْآنِ عَنِ هَذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى
لأنَّ القُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ يَذْكَرُ المَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامُ التَّنَازُلِ بِإِذْرَاكِ الحَسَنِ
مِنَ الأَصْوَاتِ . وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا
قَوْلُهُ ﷺ : « لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » فَلَيْسَ المَرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ
والتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ القِرَاءَةِ وَالإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ الحُرُوفِ
والتَّنَطُّقِ بِهَا . وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى العِنَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِي العُمُرَانِ إِذَا تَوَقَّرَ
وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الحَاجِيِّ . ثُمَّ إِلَى الكَمَالِيِّ . وَتَفَنَّنُوا فِيهِ . فَتَحَدَّثُ هَذِهِ
الصَّنَاعَةُ . لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَعَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُهَيِّمَةِ مِنْ
المَعَاشِ وَالْمَنْزَلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الفَارِغُونَ عَنِ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ تَفَنَّنُوا فِي مَذَاهِبِ
المَلذُودَاتِ . وَكَانَ فِي سُلْطَانِ العَجَمِ قَبْلَ المِئَةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ
وَمُدُنِهِمْ . وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ . حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ الفَرَسِ
اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ . وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ
وَمَجَامِعَهُمْ وَيُعَنُونَ فِيهَا . وَهَذَا شَأْنُ العَجَمِ لِهَذَا العَهْدِ فِي كُلِّ أَقْصٍ مِنْ أَقَائِهِمْ .
وَمَمْلَكِيَّةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ . وَأَمَّا العَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوْلَا فَنُ الشُّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الكَلَامَ
أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ نَيْسَبِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا المُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ . وَيَفْضَلُونَ
الكَلَامَ فِي تِلْكَ الأَجْزَاءِ تَفْصِيلاً يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلاً بِالإِفَادَةِ . لَا يَتَعَطَّفُ
عَلَى الآخِرِ . وَيُسَمَّوْنَهُ النِّبْتِ . فَتِلْكَ الطَّبَعُ بِالتَّجْرِئَةِ أَوْلَا . ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الأَجْزَاءُ فِي
المَقَاطِعِ وَالْمَبَادِيءِ . ثُمَّ بِتَادِيَةِ المَعْنَى المَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ الكَلَامِ عَلَيْهَا . فَلَمْ يَجُوعَا

بِهِ فَاقْتَنَزَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ بِخَطِّ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لغيرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ . بِهَذَا
 التَّنَاسُبِ . وَجَعَلُوهُ دِيوانًا لِأَخْبَارِهِمْ وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحْكَأً لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ
 المَعَانِي وَإِجَادَةِ الأسَالِيِبِ . وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ
 الأجزاء وَالمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الأَصْوَاتِ كَمَا
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ المَوْسِيقَى . إِلا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ
 يَتَنَحَّلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً . وَكَانَتِ البِدَاوَةُ أَغْلَبَ نَجَلِهِمْ . ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الجِدَاةُ
 مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبِلِهِمْ وَالْفَتَيَانِ فِي فِضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَعُوا الأَصْوَاتِ وَتَرَنَمُوا . وَكَانُوا
 يُسْمُونَ التَّرْنَمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ القِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالغَيْنِ
 المُعْجَمَةِ وَالبَاءِ المَوْحَدَةِ . وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ بِالعَايِرِ وَهُوَ
 البَاقِي أَي بِأَحْوَالِ الآخِرَةِ . وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النِّعَمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً
 كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ العُمْدَةِ وَغَيْرُهُ . وَكَانُوا يُسْمُونَهُ السَّنَادَ . وَكَانَ
 أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُمْسِي بِالدَّفِّ وَالمِزْمَارِ
 فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَحْفُفُ الحُلُومَ . وَكَانُوا يُسْمُونَ هَذَا التَّهْرَجَ وَهَذَا البَسِيطَ كُلَّهُ مِنْ
 التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَتَعَدُّ أَنْ تَتَفَطَّنَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ شَأْنِ البَسَائِطِ
 كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ العَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ . فَلَمَّا جَاءَ
 الإِسْلَامُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ العَجَمِ وَعَلِمُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنْ
 البِدَاوَةِ وَالعِضَاضَةِ عَلَى العَالِ الَّذِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ عِضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ
 أَحْوَالِ الفِرَاعِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا . وَلَمْ يَكُنْ
 المَلْدُودُ عِنْدَهُمْ إِلا تَرْجِيعَ القِرَاءَةِ^(١) وَالتَّرْنَمَ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ ذِيذُنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ .
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمُ الرِّفَّةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غِنَائِهِمُ الأَمَمِ صَارُوا إِلَى
 نِصَارَةِ العَيْشِ وَرِقَّةِ الحَاشِيَةِ وَاسْتَحْلَاءِ الفِرَاعِ . وَافْتَرَقَ المَغْنُونُ مِنَ الفَرَسِ وَالرُّومِ
 فَوَقَعُوا إِلَى الجِجَارِ وَصَارُوا مَوَالِيً لِلعَرَبِ وَعَنَّوا جَمِيعًا بِالعِيدَانِ وَالبَطْنَائِيرِ

(١) وفي نسخة أخرى : ترجيع القرآن .

والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم . وظهر
 بالمدينة نسيط الفارسي وطويس وسائب بن جابر^(١) مولى عبيد الله بن جعفر
 فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر . ثم أخذ عنهم مقبذ وطبقته
 وابن شريح^(٢) وأنظاره . وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني
 القيس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد .
 وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد
 وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في المجلس والقضبان والأشعار التي
 يترنم بها عليه . وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى
 بالكرج^(٣) وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقيية يلبسها
 الشوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكروون ويفرون ويتشاقفون^(٤) وأمثال ذلك
 من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو . وكثر
 ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه
 زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غير أنه فلق بالحكم بن
 هشام بن عبيد الرحمن الداخل أمير الأندلس . فبالغ في تكريمه وركب للقاءه
 وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجزايات وأحله من دولته وتعمائه بمكان .
 فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف . وطما منها
 بأشبيلية بخر زاجر وتناقل منها بعد ذهاب غصارتها إلى بلاد العذوة بأفريقية
 والمغرب . وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص
 دولتها . وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير
 وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح . وهو أيضاً أول ما ينقطع من
 العمران عند اختلاله وتراجعيه . والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : سائب وحائر . وفي النسخة الباريسية خائر مولى عبد الله بن جعفر .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن شريح .

(٣) وفي نسخة أخرى : الكرج . (٤) أي يلعبون بالسلاح .

الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة . وأن
خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات
أولاً . ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً
مخضاً فتكون ذاتاً روحانية ويستكمل حينئذ وجودها . فوجب لذلك أن يكون
كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً^(١) والصنائع أبداً يحصل عنها وعن
ملكيتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة . فلهذا كانت الحكمة في التجربة تفيد
عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل
ومعاشرة أبناء الجنس وتخصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين
واعتبار آدابها وشرائطها . وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة
عقل . والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك لأنها تشتمل على العلوم
والأنظار بخلاف الصنائع . وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى
الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في
النفس فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل . ما دام ملتبساً بالكتابة وتتعود النفس
ذلك دائماً . فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر
العقلي الذي يكتسب^(٢) العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون
زيادة عقل ويحصل به قوة^(٣) فطنة وكيس في الأمور لما تعودوه من ذلك
الانتقال . ولذلك قال كسرى في كتابه لما راهم يتلك الفطنة والكيس فقال :
« ديوانه أي شياطين وجنون . قالوا ، وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة

(١) وفي النسخة الباريسية ، عقلاً مزيداً .

(٢) وفي نسخة أخرى ، يكتب به .

(٣) وفي نسخة أخرى ، مزيد .

وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحُسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحُسَابِ نَوْعَ تَصْرُفٍ فِي الْعَدَدِ بِالضَّمِّ
وَالْتَفْرِيقِ يُخْتِاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى
الْعَقْلِ . وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا . وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ . قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

الباب السادس

من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك
كله

من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق

فَالْمُقَدِّمَةُ فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ الْبَشَرُ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَاهْتَدَى بِهِ
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَالنَّظَرُ فِي مَعْبُودِهِ ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ
الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِهِ . فَصَارَ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي طَاعَتِهِ وَمُلْكُ قُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ بِهِ عَلَى
كَثِيرٍ خَلْقِهِ .

الفصل الأول

في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنْ الْحِسِّ
وَالْحَرَكَةِ وَالغِذَاءِ وَالْكَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَالِاجْتِمَاعِ الْمُهَيَّءِ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ

وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ صَلَاحِ أَخْرَآءِهِ . فَهُوَ مُنْكَرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتَرُ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلِ اخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ . وَعَنْ هَذَا الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَّمَآءُ مِنَ الصَّنَائِعِ . ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ بَلِ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَشْتَدُّ عَلَيْهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاقِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِدْرَاكِ أَوْ أَخَذَهُ مِنْ تَقْدِمِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيَلْقُنُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيَحْرُصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ . ثُمَّ إِنْ فَكَّرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْرُضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إلْحَاقَ الْعَوَارِضِ بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْرُضُ لِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ عِلْمًا مَخْصُوصًا . وَتَشَوُّفُ نَفُوسِ أَهْلِ الْجِبَالِ النَّاشِئِ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ فَيَفْرَعُونَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ التَّعْلِيمُ مِنْ هَذَا . فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثاني

في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدِثَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةِ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِيهِ وَقَوَاعِيدِهِ وَالْوُقُوفَ عَلَى مَسَائِلِهِ وَاسْتِنْبَاطَ فُرُوعِهِ مِنْ أَصُولِهِ . وَمَا لَمْ تَحْضُرْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الْحَدِثُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْمُتَنَاوِلِ خَاصِلًا . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . لِأَنَّا نَجِدُ فِهُمُ الْمَسْأَلَةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعْيِهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ^(١) عِلْمًا وَبَيْنَ الْعَالِمِ النَّخْرِيرِ . وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوْ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . وَالْمَلَكَاتُ

(١) وفي نسخة أخرى : يُحْضِرُ .

كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ سِوَاةَ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ أَوْ فِي الدِّمَاجِ مِنَ الْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَالْحِسَابِ .
وَالجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَةٌ فَتَقْتَرِبُ إِلَى التَّعْلِيمِ . وَلِهَذَا كَانَ السُّنْدُ فِي التَّعْلِيمِ فِي كُلِّ
عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مَشَاهِيرِ الْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَرًا عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أَفْقٍ وَجِيلٍ .
وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ صِنَاعَةٌ اخْتِلَافِ الْإِصْطِلَاحَاتِ فِيهِ . فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ
الْأَيْمَةِ الْمَشَاهِيرِ إِصْطِلَاحٍ فِي التَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ
الْإِصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ . وَإِذْ لَوْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ لَكَانَ وَاحِدًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ . أَلَا
تَرَى إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ إِصْطِلَاحُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا
أَصُولُ الْفِقْهِ وَكَذَا الْعَرَبِيَّةِ وَكَذَا كُلِّ عِلْمٍ يُتَوَجَّهُ ^(١) إِلَى مَطَالَعَتِهِ تَحْدُ الْإِصْطِلَاحَاتِ
فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالَفَةً فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ . وَالْعِلْمُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَإِذَا
تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ سُنْدَ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
بِاخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ . وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ
وَفِقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَقَرْطَبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيْ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
وَاسْتَبْحَرَ عُمُرَانُهُمَا وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أُسُوقٌ نَافِئَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ . وَرَسَخَ
فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِإِمْتِنَادِ عَضُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحِضَارَةِ . فَلَمَّا خَرِبَتَا انْقَطَعَ
التَّعْلِيمُ مِنَ ^(٢) الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَرَاكِشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا .
وَلَمْ تَرَسَخِ الْحِضَارَةُ بِمَرَاكِشَ لِبِدَاوَةِ الدُّوَلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا
بِمَبْدئِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحِضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْل . وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدُّوَلَةِ
بِمَرَاكِشَ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ زَيْتُونِ لِعَهْدِ
أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ فَأَذْرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ .
وَخَذَقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ يَعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمُ حَسَنٍ . وَجَاءَ عَلَى
أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَعْنِبِ الدُّكَّالِيُّ . كَانَ ارْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ
فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مَفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهَا

(١) وفي النسخة الباريية ، يحتاج . (٢) وفي النسخة الباريية ، عن المغرب .

أهل تونس . واتصل سنّد تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام ، شارح بن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه . فإنة قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة في مجالس باغياتها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم . ثم ارتحل من زاوّة في آخر المائة الشايعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم . وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والثقليات . ورجع إلى المغرب يعلم كثير وتعليم مفيد . ونزل ببجاية واتصل سنّد تعليمه في طليتها . وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشدالي^(١) من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها . وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل . وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقنيران ولم يتصل سنّد التعليم فيهم ففسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة فتق^(٢) اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرآتها . فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوناً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم . ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تحد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده . وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به . وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك . ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدراس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين . وهذه المدة بالمدراس على المتعارف

(١) وفي نسخة أخرى : المشد إلى وهو تحريف والمشد إلى نسبة إلى مشدالة من قبائل زوارة في المغرب .

(٢) وفي نسخة أخرى : قوة .

هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مُبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من
تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم
خاصة لا مما سوى ذلك . وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت
عنائتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين . ولم يبق من
رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب . اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم
فانحفظ بحفظه . وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين . وأما العقليات فلا
أثر ولا عين . وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو
على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعاشيتهم أكثر من شغلهم بما بعدها .
والله غالب على أمره . وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة
وبخوره زاخرة لاتصال العمران الموقور واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار
العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن
الله تعالى قد أزال منها بأمصار أعظم من تلك . وانتقل العلم منها إلى عراق العجم
بخراسان ، وما وراء النهر من المشرق . ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب . فلم
تنزل موقورة وعمرانها متصلًا وسند التعليم بها قائمًا . فأهل المشرق على الجملة
أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع . حتى إنه ليظن كثير من رحالة
أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم^(١) على الجملة أكمل من عقول
أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كياساً يفطرتهم الأولى . وأن نفوسهم الناطقة
أكمل يفطرتها من نفوس أهل المغرب . ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في
حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم
والصنائع وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار
الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع
فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وإنما الذي فضل به أهل

(١) أي عقول أهل المشرق .

المشرق أهل المغرب هو ما يَخْصُلُ في النَّفسِ مِنْ آثارِ الحِصَارَةِ مِنَ العَقْلِ المَزِيدِ
 كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّنَائِعِ ، وَنَزِيدُهُ الآنَ شَرْحاً وَتَحْقِيقاً . وَذَلِكَ أَنَّ الحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي
 أَحْوَالِهِمْ فِي المَعَاشِ وَالْمَسْكِينِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ
 وَعَادَاتِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ . فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقَفُ عِنْدَهَا فِي
 جَمِيعِ مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ^(١) بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكِ حَتَّى كَانَتْهَا حُدُودٌ لَا تَتَعَدَى .
 وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَنَائِعٌ يَتَلَقَّاهَا الآخِرُ عَنِ الأوَّلِ مِنْهُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبَةٌ
 يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى النَّفسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلاً جَدِيداً تَشْتَعِدُّ بِهِ لِقبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى
 وَيَتَهَيَّأُ بِهَا العَقْلُ بِسُرْعَةٍ الإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ
 مِصْرَ عَايَاتٍ لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الحَضَرَ الإنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ العُجْمَ مِنْ
 المَاشِيِ وَالطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ الكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَفْرَبُ نَوْرُهَا وَيَعْفِزُ أَهْلُ
 المَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا فَضْلاً عَنْ تَعْلِيمِهَا وَحُسْنِ المَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ
 الأَحْوَالِ العَادِيَّةِ يَزِيدُ الإنْسَانَ ذَكَاةً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكثْرَةِ المَلَكَاتِ
 الحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ . إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالإِدْرَاكَاتِ . وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنْ
 المَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْساً لِمَا يَرْجِعُ إِلَى النَّفسِ مِنَ الأَثَارِ العِلْمِيَّةِ فَيَطْنُهُ
 العَامِيُّ تَفَاوُتاً فِي الحَقِيقَةِ الإنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . أَلَا تَرَى إِلَى أَهْلِ الحَضَرَ مَعَ أَهْلِ
 البَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الحَضْرِيَّ مُتَحَلِّياً بِالدَّكَاةِ مُمْتَلِئاً مِنَ الكَيْسِ حَتَّى إِنَّ البَدْوِيَّ
 لَيَطْنُهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِإِجَادَتِهِ فِي
 مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي العَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ الحَضْرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ البَدْوِيُّ . فَلَمَّا
 امْتَلَأَ الحَضْرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ
 المَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نَفْسَ أَهْلِ البَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفَطْرَتِهَا وَجِبَلَتِهَا عَنْ
 فَطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ البَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رَتْبَةٍ مِنَ الفَهْمِ
 وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفَطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الحَضَرَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ رَوْنَقُ

(١) وفي نسخة أخرى يتكسبون .

الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لهُمَا آثاراً تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَكَذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنَّ الْمُعْطَلُونَ فِي بَدَايَةِ الرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمَهُ وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

الفصل الثالث

في ان العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ . وَعَلَى نِسْبَةِ عُمُرَانِهَا فِي الْكَثْرَةِ وَالْقَلْبَةِ وَالْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ . فَمَتَى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمُرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ انصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ . وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي الْقَرْيِ وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفَقْدَانِ الصَّنَائِعِ فِي أَهْلِ الْبَدْوِ . كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرَّحَلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا . وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقَرْطَبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَالبَصْرَةَ وَالكُوفَةَ لَمَّا كَثُرَ عُمُرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ . كَيْفَ زَحَرَتْ فِيهَا بِحَارَ الْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا فِي اضْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَاسْتِنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرَبُوا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا الْبِتَّأَخِرِينَ . وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا وَابْتَدَعَتْ سُكَّانُهَا انطوى ذَلِكَ الْبَسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةٌ . وَقَدَّ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ . وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَنَحْنُ لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمُرَانَهَا مُسْتَبْحِرَةٌ وَحَضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آفَافٍ مِنَ السِّنِينَ . فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا

تَعْلِيمِ الْعِلْمِ . وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مَائَتَيْنِ مِنْ
السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا . وَذَلِكَ أَنَّ أَمْرَاءَ
التُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّقِّ أَوْ الْوَلَاءِ وَلَمَّا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنَكَبَاتِهِ . فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ
بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالزَّوَايَا وَالرُّبُطِ ^(١) وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمُغَلَّةَ يَجْمَلُونَ فِيهَا
شِرْكَاءَ ^(٢) لِوَالِدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ
وَالْتِمَاسِ الْأَجُورِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ . فَكَثُرَتْ الْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ الْغَلَاتُ
وَالْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جِرَاتِهِمْ مِنْهَا وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي
طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارِهَا . وَاللَّهِ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ تَخْصِيلاً
وَتَعْلِيماً هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ : صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ ، وَصِنْفٍ
تَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ . وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلَسْفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ
أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا
وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقْفَهُ ^(٣) نَظْرَهُ وَيَحْتَهُ ^(٤) عَلَى
الصُّوَابِ مِنَ الْخَطِإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ . وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ
الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنْدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الْوَأَضِعِ الشَّرْعِيِّ . وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ

(١) جمع رباط ، الحصن أو المكان الذي يرباط فيه الجيش . والأنسب كلمة رباطات وهي المعاهد البنية

والموقوفة للقراء .

(٢) الشرك ، الحصة .

(٣) قوله ، حتى يقفه نظره . يستعمل وقف متعدياً فتقول ، وقفته على كذا أي اطلمته عليه . قاله نصر

(٤) وفي نسخة أخرى ، بحثه .

إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الجادثة المتعاقبة
 لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي . إلا
 أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقلي فرجع هذا
 القياس إلى النقل لتفرعه عنه . وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من
 الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم
 التي تهيئها للإفادة . ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة
 وبه نزل القرآن . وأصناف هذه العلوم الثقيلة كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن
 يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من
 الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر بالكتاب ببيان
 ألفاظه أولاً وهذا هو علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي
 جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم
 بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعاداتهم
 ليتقوا الوثوق بأخبارهم يعلم^(١) ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك . وهذه هي
 علوم الحديث . ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني
 يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه . وبعد هذا تحصل الثمرة
 بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه . ثم إن التكليف منها
 بدني . ومنها قلبي . وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يُعتقد .
 وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الخير والنعيم والعذاب
 والقدر . والحجاج عن هذه الأدلة العقلية هو علم الكلام . ثم النظر في القرآن
 والحديث لا بد أن تتقدم العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف . فمنها
 علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب حسبما نتكلم عليها . وهذه العلوم
 الثقيلة كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد

(١) وفي نسخة أخرى . ويعمل .

فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَهِيَ مُشَارَكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ التَّبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ
الشَّرْعِيَّةُ ^(١) الْمُنَزَّلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا . وَأَمَّا عَلَى
الْخُصُوصِ فَمَبْأِينَا لِجَمِيعِ الْمِلَلِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا . وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَلِ
فَمَهْجُورَةٌ وَالنُّظْرُفُ فِيهَا مَحْظُورٌ . فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظْرِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ غَيْرِ
الْقُرْآنِ . قَالَ ﷺ : « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذُوبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي
أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهْنَا وَاللَّهْكُمُ وَاحِدٌ » وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي يَدِ عَمَرَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : « أَلَمْ آتِكُمْ
بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ؟ وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومُ
الشَّرْعِيَّةَ قَدْ نَفَقَتْ أَسْوَاقَهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَأَنْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ
النَّاظِرِينَ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَدَّتِ الْإِضْطِلَاحَاتُ وَرَبَّتِ الْفُنُونُ
فَجَاءَتْ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِي الْحُسْنِ وَالتَّنْمِيْقِ . وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رِجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ
وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّغْلِيمُ . وَاخْتَصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ
مِنْهَا حَسَبًا نَذَكُرُهُ الْآنَ عِنْدَ تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ . وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ
الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَانْقِطَاعِ سِنْدِ الْعِلْمِ وَالتَّغْلِيمِ كَمَا قَدَّمْنَا فِي
الْفَضْلِ قَبْلَهُ . وَمَا أَذْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالَ
التَّغْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الصُّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمَرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ
وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْحِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ . وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ وَيَبْدِئُهُ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ .

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفْتَيْهِ الْمُصْحَفِ . وَهُوَ
مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي

(٢) وفي نسخة أخرى : علوم الشريعة .

بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدايتها . وتقول ذلك واشتهر إلى أن استقرت
منها سنع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانساب إلى من اشهر
بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السنع أصولاً للقراءة . وربما زيد
بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسنع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في
النقل . وهذه القراءات السنع معروفة في كتبها . وقد خالف بعض الناس في تواتر
طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط . وليس ذلك عندهم بقادح في
تواتر القرآن . وأباه الأكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها
كالمند والتسهيل^(١) لعدم الوقوف على كيفيته بالسنع وهو الصحيح . ولم يزل القراء
يتداولون هذه القراءات وبروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب
من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً وتناقله الناس بالمشرق
والأندلس في جيل بعد جيل . إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى
العامريين وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاة
المنصور بن أبي العامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء
بحضرته فكان سهمه في ذلك وافراً . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دائمة
والجزائر الشرقية فنفت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من
العناية بسائر العلوم عموماً وبالقرارات خصوصاً . فظهر لعنه أبو عمرو الداني
وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها . وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت
تأليفه فيها . وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب
التيسير له . ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن
فيرة^(٢) من أهل شاطبة فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك
كله في قصيدة لفر فيها أسماء القراء بحروف (ا ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر

(١) وفي نسخة أخرى . والتسهيل .

(٢) ورد ذكره في كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي وهو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعييني أبو

محمد الشاطبي إمام القراء وكان ضريباً .

عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَتَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا . فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا
الْفَنَّ اسْتِيعَابًا حَسَنًا وَعَنَى النَّاسَ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ^(١) الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى
الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ الْقِرَاءَاتِ فَنُّ
الرِّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمُضْحَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيئَةُ لِأَنَّ فِيهِ
حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ كَزِيَادَةِ الْبَاءِ فِي بَابِ
وَزِيَادَةِ الْأَلِفِ فِي لَا أَدْبَحْنَهُ وَلَا أَوْضَعُوا وَالْوَاوِ فِي جَزَاءِ الطَّالِمِينَ وَحَذْفِ الْأَلِفَاتِ
فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رَسَمَ فِيهِ مِنَ التَّاءَاتِ مَمْدُودًا ، وَالْأَضْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى
شَكْلِ الْهَاءِ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هَذَا الرِّسْمِ الْمُضْحَفِيِّ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ .
فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ اخْتِيجَ إِلَى حَضْرَتِهَا ، فَكَتَبَ النَّاسُ
فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتَبِهِمْ فِي الْعُلُومِ . وَانْتَهَتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرِو الدَّانِيِّ الْمَذْكُورِ
فَكَتَبَ فِيهَا كُتُبًا مِنْ أَشْهَرِهَا ، كِتَابَ الْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ . وَنَظَمَهُ
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رِوِيِّ الرَّاءِ وَوَلَعَ النَّاسَ بِحِفْظِهَا . ثُمَّ
كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرِّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ، ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سَلِيمَانَ بْنُ
نَجَّاحٍ مِنْ مَوَالِي مَجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ^(٢) أَبِي عَمْرِو الدَّانِيِّ وَالْمَشْتَهَرِ
بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نَقَلَ بَعْدَهُ خِلَافَ آخَرَ فَنَظَمَ الْخِرَازُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ
بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى الْمُقْنِعِ خِلَافًا كَثِيرًا ، وَعَزَاهُ لِناقِلِهِ .
وَاشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ ، وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا . وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ
وَأَبِي عَمْرِو وَالشَّاطِبِيِّ فِي الرِّسْمِ .

(وأما التفسير) . فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم
فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه . وكان ينزل جملاً
جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع . ومنها ما هو

(١) وفي النسخة الباريسية ، للولد .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، وهو تلميذ .

فِي الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ ، وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا
 مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخًا لَهُ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُبَيِّنُ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ
 تَعَالَى : « لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ » (١) فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ الْمُجْمَلُ وَيُمَيِّزُ
 النَّاسِخَ مِنَ الْمُنْسُوخِ وَيُعَرِّفُهُ أَصْحَابَهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نَزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى
 الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ . كَمَا عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إِنَّهَا
 نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ
 أَجْمَعِينَ . وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ . وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا
 بَيْنَ الصُّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ عُلُومًا وَدُونَتِ الْكُتُبُ فَكَتَبَ
 الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنَقَلَتِ الْأَثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى
 الطَّبْرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالتَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ
 يَكْتُبُوهُ مِنَ الْأَثَارِ . ثُمَّ صَارَتِ عُلُومُ اللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً (٢) مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ
 اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِيِبِ فَوَضِعَتِ الدُّوَاوِينَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ
 كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا كِتَابٍ فَتَنَوَسَى ذَلِكَ وَصَارَتْ
 تُتَلَقَى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ . فَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ
 وَعَلَى مِنْهَاجِ بِلَاغَتِهِمْ . وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ ، تَفْسِيرِ نَقْلِيٍّ مُسْتَبَدٍّ إِلَى الْأَثَارِ
 الْمُنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمُنْسُوخِ وَأَسْبَابِ النُّزُولِ وَمَقَاصِدِ الْآيِ .
 وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي
 ذَلِكَ وَأَوْعَوْا ، إِلَّا أَنْ كُتِبَتْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْعَثِّ وَالسِّمِينِ وَالْمَقْبُولِ
 وَالْمَرْدُودِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا عَلَبَتْ
 عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ . وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ
 الْبَشَرِيَّةُ (٣) فِي أَسْبَابِ الْمَكُونَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ
 أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ

(١) سورة النحل (من الآية ٤٤) .

(٢) وفي نسخة أخرى ، صناعة .

(٣) وفي النسخة الباريية ، النفوس الإنسانية .

مِنَ النَّصَارَى . وَأَهْلَ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا يَدَيِ الْيَهُودِيَّةِ . فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتِطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَدَثَانِ وَالْمَلَا حِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَفْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ . فَاثْمَلَاتِ التَّفَاسِيرِ مِنَ الْمُنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ^(١) فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَيَتَحَرَّى فِي الصَّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ . وَتَسَاهَلُ الْمَفْسُورُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمَلَأُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ . وَأَضَلُّهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ ، وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِيَّتِهِمْ وَعَظَمَتِ أَعْدَارُهُمْ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ ، فَتَلَقَّيْتُ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْجِيسِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَطِيَّةَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ الْمُنْحَى . وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشْهُورٍ بِالْمَشْرِقِ .

وَالصَّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى اللِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَالبَّلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَهْلِيَّةِ . وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّفْسِيرِ قَلٌّ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ الْأَوَّلِ إِذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ . وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ اللِّسَانُ وَعِلْمُهُ صِنَاعَةً^(٢) . نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَرْقُ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكَشَافِ لِلرَّمْخَشَرِيِّ^(٣) مِنْ أَهْلِ خَوَارِزْمِ الْعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِعْتِرَالِ فِي الْعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِالْحِجَاجِ عَلَى

(١) وفي النسخة الباريصة ، من المنقولات عنهم . (٢) وفي نسخة أخرى ، صناعات .

(٣) (١) ورد في معجم البلدان ، خوارزم ليس لسا للمدينة إنما هو اسم للناحية بحملتها وورد في كتاب

الأعلام للزركلي ، الرمزخشري ولد في رمزخسر من قرى خوارزم .

مذاهبهم الفاسدة حيث تفرض له في آي القرآن من طرق البلاغة . فصار ذلك
 للمحققين من أهل السنة أنحراف عنه وتخذير للجُمهور من مكامنه مع إقرارهم
 برُسوخ قديمه فيما يتعلّق باللسان والبلاغة وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على
 المذاهب السنية مُحسناً للحجاج عنها فلا جرم إنّه مأمونٌ من غوائله فلتفتنهم
 مطالعة لغزاية فنونه في اللسان . ولقد وصل إلينا في هذه العُصور تأليف لبغض
 العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم شرح فيه كتاب
 الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزييفها^(١) ويبيّن
 أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه^(٢) المعتزلة
 فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم
 عليهم .

الفصل السادس

في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه
 ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده
 وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها . قال تعالى : « ما ننسخ
 من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »^(٣) (ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإن كان
 عاقاً للقرآن والحديث إلا أن الذي في القرآن منه إندرج في تفاسيره وبقي ما كان
 خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه . فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعدّر
 الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ) .
 ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها . قال الزهري : « أغنيا

(١) وفي النسخة البارسية ، وأدلته يزيفها .

(٢) وفي النسخة البارسية ، لا على مذهب المعتزلة .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٦

الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْسُوخِهِ .
 وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ . (وَمِنْ عُلُومِ الْأَحَادِيثِ ^(١) النَّظَرُ فِي
 الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ
 الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقَهُ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ فَيُجْتَمَدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُحْصَلُ ذَلِكَ الظَّنُّ وَهُوَ بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ
 بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الَّذِينَ لِيَتَعَدَّ إِلَيْهِمْ وَبِرَأْيِهِمْ
 مِنَ الْجَرَحِ وَالْعَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ . وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ
 هَؤُلَاءِ النَّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُثُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ وَاحِدًا وَاحِدًا .
 وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتْ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنَّ يَكُونُ الرَّاوي لَمْ يَلْقَ الرَّاوي
 الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
 فَحَكِيمٌ ^(٢) يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدَّ الْأَسْفَلَ . وَيُخْتَلَفُ فِي الْمَتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
 أَيْمَةِ الشَّانِ . وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ . مِثْلُ
 الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذَّ وَالْغَرِيبَ . وَغَيْرَ
 ذَلِكَ مِنْ أَلْفَايِهِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ . وَبَوُؤُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَتَقَلُّوا مَا فِيهِ مِنْ
 الْخِلَافِ لِأَيْمَةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوَفَاقِ . ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ الرَّوَايَةِ ^(٣) بَعْضُهُمْ عَنْ
 بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مَنَاقِلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رَتْبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنْ
 الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ . ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي الْأَفَاطِ تَقَعُ فِي مَتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ
 غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَضْهِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ . هَذَا
 مَعْظَمُ مَا يُنظَرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ تَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصْرِ
 السُّلْفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ
 بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي

(١) وفي نسخة أخرى ، الحديث .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، إلى طريقتين يحكم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، الرواة .

أَعْضَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي أَعْضَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمْتَنَ فِي الصَّحَّةِ لِاسْتِبْدَادِهِمْ^(١) فِي شُرُوطِ النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَافِيهِمْ عَنِ قَبُولِ الْمَجْهُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ^(٢) وَسَنَدُ^(٣) الطَّرِيقَةِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَالِمِ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصْحَابُهُ مِثْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ بَكِيرٍ وَالْقُضَيْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَفِي آخِرِينَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ . وَكَانَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ هَذَا الْأَمْرِ نَقْلًا صَرَفًا شَمَّرَ لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا . وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمَوْطِئِ أَوْدَعَهُ أَصُولَ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ . ثُمَّ عُنِيَ الْحَافِظُ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِ الْأَحَادِيثِ

(١) وفي نسخة أخرى : لاستبداهم .

(٢) إن المصنوع بين (١) ورد في النسخة الباريية على شكلين ، ورد في الشرح كما في نختنا هذه . وورد في المتن على الوجه التالي : ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسائهم وكيفية أخذ بعضهم عن بعض وأحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم . وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجود العمل بالخير الثابت عن رسول الله ﷺ وذلك بشرط أن يغلب على الظن صدقه . فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن . وذلك بالنظر في أسانيد الحديث بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والانتقان والبراءة من السهو والغفلة . بوصف عدول الأمة لهم بذلك . ثم تفاوت مراتبهم فيه . ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض . بسماع الراوي من الشيخ أو قراءته عليه أو سماعه يقرأ عليه . وكتابة الشيخ له أو مناولته أو اجازته في الصحة والقبول منقول عنهم . وأعلى مراتب القبول عندهم الصحيح ثم الحسن . وأدون مراتبها الضعيف . ويشتمل على المرسل والمنقطع والفصل والعلل والشاذ والغريب والمتكرر ؛ فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجتمعوا عليه . وذلك شأنهم في الصحيح ؛ فمنه ما اجتمعوا على قبوله وصحته . ومنه ما اختلفوا فيه . وبينهم في تفسير هذه الألقاب اختلاف كثير ثم اتبعوا ذلك بالكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق . ووضعوا لهذه الفصول كلها قانونا كفيلا يبين تلك المراتب والألقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها . وأول من وضع في هذا القانون من فحول أئمة الحديث أبو عبد الله الحاكم وهو الذي هذب وأظهر محاسنه . وتوالت فيه مشهورة . ثم كتب أئمتهم فيه من بعده . واشتهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمر بن الصلاح . كان في أوائل المائة السابعة وتلاه محي الدين النووي بمثل ذلك . والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها أو ردها . واعلم أن رواية السنة من الصحابة والتابعين معروفون في أوصار الإسلام . منهم بالحجاز وبالكوفة والبصرة ثم بالشام ومصر . والجميع معروفون ومشهورون في أعصارهم . وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة . لاستبداهم في شروط النقل من العدالة والضبط . بتجافيتهم عن قبول المستورين المجهولة أحوالهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : وسيد .

وَأَسَانِيدُهَا الْمُخْتَلِفَةُ . وَرُبَّمَا يَقَعُ إِسْنَادُ الْحَدِيثِ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رِوَاةٍ
 مُخْتَلِفِينَ وَقَدْ يَقَعُ الْحَدِيثُ أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَ
 عَلَيْهَا . وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ إِمَامَ الْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَّجَ
 أَحَادِيثَ السُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرِيقِ الَّتِي لِلْجِجَارِيِّينَ
 وَالْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ . وَاعْتَمَدَ مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَرَّرَ
 الْأَحَادِيثَ يَسُوقُهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذَلِكَ الْبَابِ الَّتِي تَضُمُّنُهُ الْحَدِيثَ فَتَكَرَّرَتْ
 لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةِ ^(١) الْأَلْفِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ . مِنْهَا
 ثَلَاثَةُ أَلْفٍ مُتَكَرِّرَةٌ وَفَرَقَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ عَلَيْهَا مُخْتَلِفَةً فِي كُلِّ بَابٍ . ثُمَّ
 جَاءَ الْإِمَامُ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَأَلْفَ مُسْنَدَهُ
 الصَّحِيحَ . حَذَا فِيهِ حَنُو الْبُخَارِيُّ فِي نَقْلِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ الْمُتَكَرَّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ
 الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَتَرَاجِمِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبَا
 الصَّحِيحَ كُلَّهُ . وَقَدْ اسْتَدْرَكَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ
 وَأَبُو عِيْسَى التُّرْمُذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ
 وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْعَمَلِ إِمَّا مِنَ الرَّتَبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ
 كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ الَّذِي دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلْسُّنَّةِ
 وَالْعَمَلِ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْعِلْمِ وَهِيَ أَمَهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي
 السُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجَعُ إِلَى هَذِهِ فِي الْأَغْلِبِ . وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ
 وَالْإِضْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ عَنْهَا النَّاسُخُ وَالْمَنْسُوخُ فَيُجْعَلُ
 فَنًا بِرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ مَشْهُورَةٌ ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ . وَقَدْ
 أَلَّفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَكْثَرُوا . وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ وَأَمْتِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَاكِمُ وَتَأْلِيفُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَدَّبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ . وَأَشْهَرُ كِتَابِ
 لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَهْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَتَلَاةِ

(١) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحرره نصر .

مُحِبِّي الدِّينِ النَّوْبِيِّ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَغْرَاهُ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا يُحْفَظُ بِهِ
السُّنَنُ الْمُنْقُولَةُ عَنِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ . وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنْ
الْأَحَادِيثِ وَاسْتِدْرَاكِهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةَ عَلَى
تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاخُقِ عَصُورِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يَلِغِفُلُوا شَيْئاً مِنَ السُّنَّةِ أَوْ
يَتْرَكُوهُ حَتَّى يَغْتَرَّ عَلَيْهِ الْمَتَأَخَّرُ . هَذَا يَعِيدُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرَفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ
إِلَى تَصْحِيحِ الْأَمَّاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرِّوَايَةِ عَنْ مُصَنِّفِيهَا وَالنُّظْرَ فِي أَسَانِيدِهَا
إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ
الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا . وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَمَّاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً فَاسْتَضَعَبَ النَّاسَ
شَرْحَهُ وَاسْتَفْلَقُوا مَنَحَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ
وَرِجَالِهَا مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أحوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ .
وَلِذَلِكَ يُحْتَاجُ إِلَى إِعْطَانِ النَّظْرِ فِي التَّفْقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يَتَرَجِّمُ التَّرْجَمَةَ وَيُورِدُ
فِيهَا الْحَدِيثَ بِسَنَدٍ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَتَرَجِّمُ أُخْرَى وَيُورِدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ
لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْمَعْنَى الَّتِي تَرَجَّمُ بِهِ الْبَابَ . وَكَذَلِكَ فِي تَرَاجِمِهِ وَتَرَاجِمِهِ إِلَى أَنْ
يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَاخْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ
يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يَوْفِ حَقَّ الشَّرْحِ كَاتِبِينَ بَطَالٍ وَابْنَ الْمُهَلَّبِ وَابْنَ التَّيْنِ
وَنَحْوِهِمْ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيراً مِنْ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : شَرَحَ كِتَابَ
الْبُخَارِيِّ دَيْنٌ عَلَى الْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ يَوْفِ مَا يَجِبُ لَهُ مِنْ
الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبُوا
عَلَيْهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى تَفْصِيلِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى
شَرْطِهِ وَأَكْثَرَ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ . وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ فَهْمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ
شَرْحًا وَسَمَاءً (الْمَعْلَمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ) اشْتَمَلَ عَلَى عِيُونٍ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَقُنُونٍ مِنْ
الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَّاهُ إِكْمَالَ الْمَعْلَمِ وَتَلَاهُمَا مُحِبِّي

الدِّينَ النَّوَوِيَّ بِشَرْحِ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحاً وَافِياً . وَأَمَّا
 كُتُبُ السُّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا اخَذَ الْفُقَهَاءُ فَأَكْثَرَ شَرْحَهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا
 مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ
 عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ
 السُّنَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ
 وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنْزِلُهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَهَا بِذُنُوعِهَا وَعَرَفُوهَا . وَلَمْ يَبْقَ
 طَرِيقٌ فِي تَضْحِيحِ مَا يَصُحُّ مِنْ قَبْلُ . وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ
 الْأَحَادِيثَ بِطَرِيقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ
 يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَلْبٌ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
 الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ الْمُخَدَّثُونَ امْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَبِلُوا
 أُسَانِيدَهَا فَقَالَ : « لَا أَعْرِفُ هَذِهِ وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فَلَانَ » . ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ
 الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَنْزِلٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقْرَبُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ . وَاعْلَمْ
 أَيْضاً أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْتَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ فَأَبُو
 حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوِهَا
 وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ الْمَوْطِ^(١) وَعَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةٍ حَدِيثٍ أَوْ
 نَحْوِهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ
 مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ تَقَوَّلَ بَعْضُ الْمُبْغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنْ مِنْهُمْ
 مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قُلْتُ رِوَايَتَهُ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقِدِ فِي
 كِبَارِ الْأَيْمَةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤَخَذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ
 مِنَ الْحَدِيثِ فَيَتَعَمَّنُ عَلَيْهِ طَلْبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَالْجِدُّ وَالشَّمِيرُ فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الدِّينَ عَنْ
 أَصُولِ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلِغِ لَهَا . وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديثه أولها ٥٠٠ ثانياً ٧٠٠ ثالثاً ألف

ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الجوريني .

الرّواية لأجل المطاعن التي تعرّضه فيها والعلل التي تعرّض في طرقها سيّما
والجرح مقدّم عند الأكثر فيؤدّ به الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك
فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فنقل روايته لضعف الطرق .
هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار
الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر .
والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدّد في شروط الرواية والتحمّل وضعف
رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسى . وقلت من أجلها رواية فقل
حديثه . لأنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك . ويدل على أنه من
كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً
وقبولاً . وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسّعوا في الشروط وكثر حديثهم
والكل عن اجتهاد وقد توسّع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم .
وروى الطحطاوي^(١) فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل
الصحيحين لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها
بين الأمة كما قالوه . وشروط الطحطاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور
الحال وغيره فلهاذا قدّم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شروطه
عن شروطهم . ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة
الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها . فلا تأخذك ريبة في ذلك
فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم . والله
سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور .

(١) وفي نسخة أخرى . الطحطاوي .

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفِقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر^(١) والنهي والكراهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه. وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم. ولا بد من وقوعه ضرورة. فإن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضات ألفاظها لكثير من معانيها وخصوصاً الأحكام الشرعية اختلف بينهم معروف. وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً. فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص. وما كان منها غير ظاهر في المنصوص^(٢) فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها إشارات^(٣) للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم. ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتياً ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم. وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومثابه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي ﷺ أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم. وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية. فاخص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرائبه يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة. ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط

(١) وفي نسخة أخرى، والحظر.

(٢) وفي نسخة أخرى، النصوص.

(٣) وفي نسخة أخرى، مشاركات.

وَكَمَّلَ الْفِقْهَ وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَّلُوا بِاسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَاءِ . وَانْقَسَمَ
 الْفِقْهَ فِيهِمْ إِلَى طَرِيقَتَيْنِ : طَرِيقَةَ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةَ
 أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ أَهْلُ الْحِجَازِ . وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلًا فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَاهُ
 فَاسْتَكْشَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ . وَمُقَدَّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي
 اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ
 وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَتَكَرَّرَ الْقِيَاسُ طَائِفَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمْ
 الظَّاهِرِيُّ . وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ ^(١) كُلَّهَا مُنْخَصِرَةً فِي النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ
 الْجَلِيَّ وَالْعِلَّةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ . لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ نَصٌّ عَلَى الْحُكْمِ فِي جَمِيعِ
 مَخَالِفَاتِهِ . وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا . وَكَانَتْ هَذِهِ
 الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَذَاهِبُ الْجُمْهُورِ الْمُشْتَهَرَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ . وَشَدُّ أَهْلِ الْبَيْتِ
 بِمَذَاهِبِ ابْتِدَعُوهَا وَفَقِهُ انْفَرَدُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ
 بِالْقُدْحِ . وَعَلَى قَوْلِهِمْ بَعْضَةُ الْأَيْمَةِ وَرَفَعِ الْخِلَافَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصُولٌ
 وَاهِيَةٌ وَشَدُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَخْتَفِلْ ^(٢) الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ بَلْ أَوْسَعُوهَا
 جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقُدْحِ . فَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرُوي كُتُبَهُمْ وَلَا أَثَرِ لَشَيْءٍ
 مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ . فَكُتِبَ الشَّيْعَةَ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ ^(٣) قَائِمَةً فِي
 الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ . وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتُبٌ وَتَأْلِيفٌ وَآرَاءٌ فِي
 الْفِقْهِ غَرِيبَةٌ . ثُمَّ دُرِسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ الْجُمْهُورِ عَلَى
 مُنْتَحَلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمَجْلُودَةِ ^(٤) وَرَبِّمًا يَعْكِفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ مِمَّنْ
 تَكَلَّفَ بِانْتِحَالِ مَذْهَبِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ يَرُومُ أَخْذَ فِقْهِهِمْ مِنْهَا وَمَذْهَبِهِمْ فَلَا يَخْلُو
 بِطَائِلٍ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرَبِّمًا عُدَّ بِهَذِهِ النُّحْلَةَ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : مدارك للشرع .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولم يحفل .

(٣) وفي نسخة أخرى : دولهم .

(٤) وفي النسخة الباريسية : في الكتب المجلدة .

البِدْعَ بِنَقْلِهِ ^(١) الْعِلْمَ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى غُلُوبِ رِثِيَّتِهِ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَمَهْرَ فِيهِ
 بِاجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ . وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ
 الْمُسْلِمِينَ فَنَقِمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتِهْجَانًا وَإِنْكَارًا . وَتَلَقَّوْا كُتُبَهُ
 بِالْإِغْفَالِ وَالتُّرْكِ حَتَّى إِتْنَاهَا لِيُخَصَّرَ بَيْنَهَا بِالْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ
 الْأَحْيَانِ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ .
 فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأِمَامُهُمُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ
 ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَهْلُ جَلْدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكُ
 وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامَهُمْ مَالِكُ ابْنِ أَنَسِ الْأَصْبَحِيِّ إِمَامَ دَارِ
 النَّجْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُتْرِكِ آخَرَ لِلْأَحْكَامِ غَيْرَ الْمُدَارِكِ
 الْمُعْتَبَرَةَ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفُسُونَ ^(٢) عَلَيْهِ مِنْ
 فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضُرُورَةٌ لِيَدِينَهُمْ وَأَقْتِدَائِهِمْ . وَهَكَذَا إِلَى الْجَبَلِ
 الْمُبَاشِرِينَ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ الْأَخِيذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ
 الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ . وَظَنَّ كَثِيرٌ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ فَأَنْكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ
 لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ
 الْإِتْفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّينِيِّ عَنِ اجْتِهَادٍ . وَمَالِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَعْتَبِرْ عَمَلَ أَهْلِ
 الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا السَّمْعَى وَإِنَّمَا اعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ
 اتَّبَاعِ الْجِبَلِ بِالْمُشَاهَدَةِ لِلْجِبَلِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
 وَضُرُورَةُ اقْتِدَائِهِمْ بِعَيْنِ ذَلِكَ يَعْمُ الْمَلَّةُ ^(٣) ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَبْوَابِ بِهَا
 مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتْفَاقِ الْجَامِعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ . إِلَّا أَنَّ اتَّفَاقَ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى ، بتلقيه .

(٢) وفي نسخة أخرى ، يتفقون .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، (تعين ذلك نعم المسئلة) وهو تحريف .

الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى
مُشاهدة من قبلهم . ولو ذُكرت المسألة في باب فعل النبي ﷺ وتقريره أو مع
الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان
التيق بها ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي
رحمهما الله تعالى . رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي
حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص
بمذهب . وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه . وجاء من بعدهما
أحمد بن حنبل رحمه الله . وكان من عليّة المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب
الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف
التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم . وسد الناس
باب الخلاف وطرقه لما كثرت تشعب الاضطلاحات في العلوم . ولما عاق عن
الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناده ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق
بإريه ولا يدينه فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من
اختص به من المقلدين . وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم
ينق إلا نقل مذاهبهم . وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد توضيح
الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم لفقهِه غير هذا . ومدعي
الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبيه مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على
تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة . فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعده مذهبه عن
الاجتهاد وأصاليته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ينقض . وأكثرهم بالشام
والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً
بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن . وكان لهم ببغداد صولة وكثرة حتى كانوا
يتواقفون مع الشيعة في نواحيها . وعظمت الفتنة من أجل ذلك ثم انقطع ذلك عند
استيلاء التتر عليها . ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام . وأما أبو حنيفة فقلده

الْيَوْمَ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا . وَلَمَّا
 كَانَ مَذْهَبُهُ أَحْصَى بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيذُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي
 الْعَبَّاسِ فَكَثُرَتْ تَالِيْفُهُمْ وَمُنَاطَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ ،
 وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَنْطَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ تَبِينُ أَيْدِي النَّاسِ . وَبِالْمَغْرِبِ
 مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَلَّاحِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا .
 وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمَقْلَدُوهُ بِمِصْرَ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ
 وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَقَاسَمُوا الْحَنْفِيَّةَ فِي الْفُتُوَى وَالتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ .
 وَعَظُمَتْ مَجَالِسُ الْمُنَاطَرَاتِ بَيْنَهُمْ وَشُجِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ
 اسْتِدْلَالَاتِهِمْ . ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ . وَكَانَ الْإِمَامُ
 مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ
 مِنْهُمْ . وَكَانَ مِنْ تَلْمِيذِهِ بِهَا : الْبُيُوطِيُّ وَالْمَزْنِيُّ وَغَيْرُهُمْ . وَكَانَ بِهَا مِنَ الْمَالِكِيَّةِ
 جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ الْمَوَازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ
 الْخَارِسِيُّ بْنُ مَسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شُعْبَانَ وَأَوْلَادِهِ . ثُمَّ انْقَرَضَ
 فِقْهُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوُلِ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ النَّبِيَّتِ وَتَلَاشَى
 مِنْ سِوَاهُمْ ^(١) وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ مِنْ بَغْدَادَ . آخِرَ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ عَلَى
 مَا أَعْلَمُ . مِنَ الْحَاجَةِ وَالتَّقْلِيْبِ فِي الْمَعَاشِ . فَتَأَذَّنَ خُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِإِكْرَامِهِ .
 وَأَظْهَرَ فَضْلَهُ نَعِيماً عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِي إِطْرَاحِ مِثْلِ هَذَا الْإِمَامِ . وَالْإِعْتِبَاطِ بِهِ .
 فَتَفَقَّتْ سُوقُ الْمَالِكِيَّةِ بِمِصْرَ قَلِيلاً . إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى
 يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ فَذَهَبَ مِنْهَا فِقْهُ أَهْلِ النَّبِيَّتِ وَعَادَ فِقْهُ الْجَمَاعَةِ
 إِلَى الظُّهُورِ بَيْنَهُمْ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ
 إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَتَفَقَّتْ سُوقُهُ وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْحَلَبَةِ الَّتِي
 رَبَّيَتْ فِي ظِلِّ الدُّوَلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ بِالشَّامِ وَعَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضاً . ثُمَّ ابْنُ

(١) وفي نسخة أخرى . وكاد من سواهم يتلاشوا ويذهبوا .

الرُّفْعَةُ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ الدِّينِ بْنِ دَقِيقِ الْعَيْدِ ثُمَّ تَقِيُّ الدِّينِ الشُّبْكِيِّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ
انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقَيْنِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ
أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ الْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ^(١) . وَأَمَّا مَالِكُ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَنْهَبِهِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي
غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ لِمَا أَنْ رَخَلْتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ
وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ . وَالْمَدِينَةُ يَوْمئِذٍ دَارُ الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنْ
الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ . وَشَيْخُهُمْ يَوْمئِذٍ وَإِمَامُهُمْ
مَالِكُ وَشَيْوْخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ . فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ . وَأَيْضًا فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى
أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ الْحِضَارَةَ الَّتِي لِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى
أَهْلِ الْحِجَازِ أَمِيلٌ لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ . وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ .
وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ الْحِضَارَةِ وَتَهْدِيمُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ . وَلَمَّا صَارَ
مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى الْاجْتِهَادِ
وَالْقِيَاسِ فَاحْتَأَجُوا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ الْاِسْتِنَاءِ بَعْدَ
الْاِسْتِنَادِ إِلَى الْأَصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ . وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَ
رَاسِخَةٍ يُقْتَدِرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقِ وَاتَّبَعَ مَذْهَبَ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا
مَا اسْتَطَاعُوا . وَهَذِهِ الْمَلَكَ هِيَ عِلْمُ الْفِقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا
مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ افْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ . فَكَانَ
بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ابْنِ خُوَيْرِزْمَنْدَاةٍ وَابْنِ اللَّبَّانِ^(٢)

وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ الْأَنْبَهَرِيُّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ^(٣) بْنِ الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدِ
الْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ . وَكَانَ بِمِصْرَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكِّمِ

(١) وفي نسخة أخرى ، فهو اليوم كبير الشافعية بمصر . لا بل كبير العلماء من أهل العصر .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، ابن اللطاب .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، أبو الحسن .

وَالْحَارِثُ بْنُ مَسْكِينٍ وَطَبَقْتُهُمْ وَرَحَلَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى اللَّيْثِيُّ .
وَلَقِيَ مَالِكًا . وَرَوَى عَنْهُ كِتَابَ الْمَوْطَأِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَصْحَابِهِ . وَرَحَلَ بَعْدَهُ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَطَبَقْتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي
الْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ الْوَاضِحَةِ . ثُمَّ دَوَّنَ الْعَتَبِيُّ مِنْ تَلَامِيذِهِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ .
وَرَحَلَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ فَكَتَبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ انْتَقَلَ
إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ . وَكَتَبَ عَلَى ابْنِ الْقَاسِمِ ^(١) فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ
يَكْتَابُهُ وَسَمَّى الْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ ، فَقَرَأَ بِهَا سُخْنُونَ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ
ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ابْنَ الْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ الْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ
كَثِيرٍ مِنْهَا . وَكَتَبَ سُخْنُونَ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَأَثَبَتْ مَا رَجَعَ عَنْهُ مِنْهَا وَكَتَبَ
لَأَسَدٍ ^(٢) وَأَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ سُخْنُونَ فَأَيْفَ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا
مُدَوَّنَةَ سُخْنُونَ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ اخْتِلَافِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى
الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ . وَعَكَّفَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى
الْوَاضِحَةِ وَالْعَتَبِيَّةِ . ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى
بِالْمُخْتَصَرِ وَالْحَصَّةِ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ الْبَرَادِعِيُّ مِنْ فَهْمَاءِ الْقَيْرَوَانِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى
بِالتَّهْدِيبِ وَاعْتَمَدَهُ الْمَشِيخَةُ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكَوْا مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ
اعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا . وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ
الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأَمْهَاتِ بِالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ وَالْجَمْعِ فَكَتَبَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ
عَلَى الْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَابْنِ مُخْرَزِ التُّونِسِيِّ
وَابْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ
ابْنِ رُشَيْدٍ وَأَمْثَالِهِ . وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي الْأَمْهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ
وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ التَّوَادِرِ فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ الْمَذَاهِبِ وَقَرَعَ الْأَمْهَاتِ كُلَّهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية ، وكتب عن ابن القاسم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وكتب معه ابن القاسم إلى أمد أن يحو من أسديته ما رجع عنه .

هذا الكتاب وتقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار
 المذهب المالكي في الأقفين إلى انقراض دولة قرظبة والقيروان . ثم تمسك بهما
 أهل المغرب بعد ذلك (إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه
 طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج
 للمذهب . وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين
 وابن المبشر وابن النهش وابن الرشيقي وابن شاس . وكانت بالإسكندرية في
 بني عوف وبني سنيد وابن عطاء الله . ولم أدر عن أخذها أبو عمرو بن
 الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور
 فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ولما جاء كتابه إلى المغرب أجز المائة
 السابعة ^(١) عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصاً أهل بجاية لما كان

(١) الموجود بين القوسين ورد في النسخة الباريسية كما يلي :

وتميزت للمذهب المالكي ثلاث طرق : للقرويين وكبيرهم سحنون الآخذ عن أبي القاسم . وللقرطبيين
 وكبيرهم ابن حبيب . الآخذ عن مالك ومطرف وابن الماحشون وأصغ . وللعراقيين وكبيرهم القاضي إسماعيل
 وأصحابه . وكانت طريقة المصريين تابعة العراقيين وأن القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المائة
 الرابعة وأخذ أهلها عنه . وكانت للطريقة المالكية بمصر من لدن الحارث بن مسكين وابن مسير وابن الليث
 وابن رشيق وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه أهل البيت . وأما طريقة العراقيين . فكانت مهجورة عند
 أهل القيروان والأندلس لبعدها وخفاء مدرستها وقلة اطلاعهم على ماخذهم فيها . والقوم أهل اجتهاد . وأن كان
 خاصاً . لا يرون التقليد ولا يرضونه طريقاً . وكذلك نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين فيما
 لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه . ثم امتزجت الطرق بعد ذلك ورحل أبو بكر الطرطوشي من
 الأندلس في المائة السادسة . ونزل البيت المقدس وأوطنه . وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية ومزجوا طريقة
 الأندلسية بطريقتهم المصرية . وكان من جملة أصحابه الفقيه سنده صاحب الطراز وأصحابه . وأخذ عنهم جماعة .
 كان منهم بنو عوف وأصحابه . وأخذ عنهم أبو عمر بن الحاجب وبعده شهاب الدين القرافي . واتصل ذلك في تلك
 الأمصار . وكان فقه الشافعية أيضاً قد انقراض بمصر منذ دولة العبيديين من أهل البيت . فظهر بعدهم في الفقهاء
 الذين جددوه : الرافعي فقيه خراسان منهم . وظهر بالشام محي الدين النووي من تلك الحلية ثم امتزجت طريقة
 المغاربة من المالكية أيضاً بطريقتهم العراقيين . من لدن الشرماسحي . كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية
 والمصرية . فبنى المستنصر العباسي أبو المعتمد وابن الظاهر مدرسته ببغداد واستدعاها لها من خلفاء العبيديين
 الذين كانوا يؤمنون بالقاهرة فأذنوا له في الرحيل إليه . فلما قدم ببغداد ولاء تدرسي المستنصرية . وأقام هنالك إلى
 أن استولى هولوكو على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة . وخلص من تيار تلك التركة وخلا سبيله .
 فغاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد ابغا . وتلخصت طرق هؤلاء المصريين بمتزجة بطرق المغاربة كما =

كَبِيرٌ مَشِيخَتُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الزُّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ . فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصِرَهُ ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَأَنْتَشَرَ بِقَطْرِ بَحَايَةَ فِي تَلْمِيذِهِ ، وَمِنْهُمْ أَنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَهُ الْفَقْهَ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارِسُونَهُ لِمَا يُوَثِّرُ عَنِ الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِيهِ . وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ ، كَأَبْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَأَبْنِ رَشِيدٍ ^(١) وَأَبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلَّتِيهِمْ فِي الْإِحَادَةِ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوَرَاثَةِ وَتَضْحِيحِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصَحُّ بِإِعْتِبَارِ فُرُوضِهَا الْأَصُولِ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا . وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَأَنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَخْتَاجُ إِلَى حِسَبِ تَضْحِيحِ ^(٢) الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ جَمِيعًا فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ . وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَكْثَرِ . وَيَقْدَرُ مَا تَخْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتَ وَجْهَيْنِ مِثْلُ أَنْ يُقْرَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكَرَهُ الْآخَرَ فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ . وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السَّهَامِ ثُمَّ تُقَسَّمُ الشَّرْكَةُ عَلَى نِسْبِ سِهَامِ الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ . وَكُلُّ ذَلِكَ يَخْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ

== ذكرناه في مختصر أبي عمر ما يجب . بذكر فقه الباب في مسائل المتفرقة . وبذكر الأقوال في كل مسألة على تعدادها

فجاء كالبرنامج للمذهب . ولما ظهر بالمغرب آخر المائة السابعة

(١) وفي النسخة الباريسية ، ابن راشد .

(٢) وفي نسخة أخرى ، حساب بصح .

غالباً فيه وجعلوه فنا مفرداً . وللناس فيه تاليف كثيرة أشهر ما عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الخوفاي ثم الجعدي ومن متأخري أفرقيئة ابن النمر^(١) الطرابلسي وأمثالهم . وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلمهم فيه تاليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين . وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية . ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملأون بها تاليفهم . وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغزائته وقلة وقوعه فهو يفيد الميران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه . وقد يحتاج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة . والذي يظهر أن هذا المحل^(٢) يعيد وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكوينية في العبادات والعادات والموارث وغيرها . وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية . وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم^(٣) الشريعة كلها يعني هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشيء للفقهاء

(١) وفي النسخة البارسية : ابن النمر .

(٢) وفي نسخة أخرى : المحمل

(٣) وفي نسخة أخرى : علوم .

عِنْدَ حَدُوثِ الْفُتُونِ وَالْإِضْطِلَاحَاتِ . وَلَمْ يَكُنْ صَدْرَ الْإِسْلَامِ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا إِلَّا عَلَى عُمُومِهِ مُشْتَقًّا مِنَ الْفُرُوضِ الَّذِي هُوَ لُغَةً التَّقْدِيرُ أَوْ الْقَطْعُ . وَمَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ الْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَا . وَهِيَ حَقِيقَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصَرِهِمْ فَهُوَ الْبَيِّنُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل التاسع

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِغْلَمُ أَنْ أَصُولَ الْفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَجْلَهَا قَدْرًا وَأَكْثَرَهَا فَائِدَةً وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّالِيفُ ^(١) . وَأَصُولُ الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ ثُمَّ السُّنَّةُ الْمُنْبِيَّةُ لَهُ . فَعَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَتَلَقَّى مِنْهُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفَعَلِهِ بِخَطَابِ شَفَاهِيٍّ لَا يَخْتَاجُ إِلَى نَقْلِ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَاسٍ . وَمِنْ بَعْدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَدَّرَ الْخَطَابُ الشَّفَاهِيُّ وَانْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ . وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ . وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ثُمَّ يُنَزَّلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى التَّكْبِيرِ عَلَى مُخَالَفِيهِمْ . وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ مُسْتَنَدٍ لِأَنَّ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدْلَةِ بِعَضْمَةِ الْجَمَاعَةِ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ . ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طَرِيقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا . وَيُنَاطِرُونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ .

(١) وفي نسخة أخرى : التكاليف .

وَتَسْلِيمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدَرْجْ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا ثَبَتَ وَالْحَقُّوَهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ ، تَصَحُّحِ تِلْكَ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْمُثَلَّثَيْنِ ، حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ . وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدِلَّةِ . وَاتَّفَقَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُودٌ . وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَدَلَّةٌ أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا ، لُضْعْفِ مَدَارِكِهَا وَشُدُودِ الْقَوْلِ فِيهَا . فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظَرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدَلَّةً . فَأَمَّا الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْمُعْجَزَةُ الْفَاطِمَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي نَقْلِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِاحْتِمَالِ . وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا ، مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْقِذِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ إِلَى التَّوَاحِي بِالأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ آمِرًا وَنَاهِيًّا . وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَلِاتِّفَاقِهِمْ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مُخَالَفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأُمَّةِ . وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَا . هَذِهِ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ . ثُمَّ إِنَّ الْمُنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طَرِيقِ النُّقْلِ وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ لِتَتَمَيَّزَ الْحَالَةُ الْمُحْصَلَةُ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ وَجُوبِ الْعَمَلِ بِالْخَيْرِ . وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ قَوَاعِدِ الْفَنِّ . وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا مَعْرِفَةَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُضُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي دَلَالَةِ ^(١) الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعْنَايِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً . وَالْقَوَانِينُ اللَّسَانِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النُّحُوِّ وَالتَّصْرِيفِ وَالبَيَانِ . وَحِينَ

(١) وفي نسخة أخرى ، دلالات

كَانَ الْكَلَامُ ^(١) مَلَكَهٖ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَانِينًا وَلَمْ يَكُنْ الْفِقْهُ حِينِيذٍ
يُخْتَاغُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَمَلَكَهٖ . فَلَمَّا فَسَدَتْ الْمَلَكَهٖ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَبِدَهَا
الْجَهَابُذَةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ يَنْقُلُ صَحِيحًا وَمَقَابِيِسَ مُسْتَنْبِطِيَةً صَحِيحَةً وَصَارَتْ
عُلُومًا يُخْتَاغُ إِلَيْهَا الْفَقِيهَةُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى
خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدَلَّتْهَا
الْخَاصَّةُ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهُوَ الْفِقْهُ . وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ
عَلَى الْأَطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ
وَيَهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَضَلَّ أَهْلَ الشَّرْعِ وَجَهَابُذَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ
قَوَانِينًا لِهَذِهِ الْاسْتِفَادَةِ . مِثْلُ أَنَّ اللَّغَةَ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا وَالْمُشْتَرِكُ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ
مَعَا وَالْوَاوُ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ
فِيْمَا عَدَاهَا ؟ وَالْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ أَوْ النَّذْبِ وَاللَّفْظُ أَوْ التَّرَاخِي وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي الْفَسَادَ
أَوْ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُخْمَلُ عَلَى الْمُقَيَّدِ ؟ وَالنَّصُّ عَلَى الْعِلَّةِ كَافٍ فِي التَّمَعُّدِ أَمْ
لَا ^(٢) ؟ وَأَمْثَالُ هَذِهِ . فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ . وَلِكُونِهَا مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ
كَانَتْ لِعَوِيَّةٍ . ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ
الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيَمَاقَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتِحُ ^(٣) الْوُصْفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى
الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْمَحَلِّ أَوْ وُجُودُ ذَلِكَ
الْوُصْفِ فِي الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مَعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى مِنْ
تَوَابِعِ ذَلِكَ كُلِّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (وَاعْلَمْ) أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنَ الْفُنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ فِي
الْمِلَّةِ وَكَانَ السَّلْفُ فِي غَنِيَّةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يُخْتَاغُ فِيهَا
إِلَى أَزِيدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلَكَهٖ اللَّسَانِيَّةِ . وَأَمَّا الْقَوَانِينُ الَّتِي يُخْتَاغُ إِلَيْهَا فِي
اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخَذَ مَعْظَمَهَا . وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا

(١) وفي النسخة الباريسية : اللسان .

(٢) وفي النسخة الباريسية : في التعدي أولاً .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتصحیح .

يَخْتاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ النَّقْلِ وَخُبْرَتِهِمْ بِهِمْ . فَلَمَّا انْقَرَضَ
السُّلْفُ وَذَهَبَ الصُّدْرُ الْأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَا مِنْ قَبْلُ اخْتِاجَ
الْفُقَهَاءِ وَالْمُخْتَبِرِينَ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنْ
الْأَدِلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنَأْتِي بِرَأْسِهِ سَمُوهُ أَصُولِ الْفِقْهِ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهِ
الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوْامِرِ
وَالنَّوَاهِي وَالْيَبَانَ وَالْخَبَرَ وَالنَّسْخَ وَحُكْمَ الْعِلَّةِ الْمُنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ . ثُمَّ كَتَبَ
فَقَهَاءَ الْخَفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا . وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ
أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا أَمَسَ بِالْفِقْهِ وَالْيَقَ بِالْفُرُوعِ لِكثْرَةِ الْأَمْثَلَةِ
مِنْهَا وَالشَّوَاهِدِ وَبِنَاءِ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى النَّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ يَجْرَدُونَ
صُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَنِ الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمَكْنَ لِأَنَّهُ غَالِبٌ
فَنُونِهِمْ وَمَقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْخَفِيَّةِ فِيهَا الْيَدُ الطَّوْلَى مِنَ الْغُوصِ عَلَى
النَّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالنَّقَاطِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ مَا أَمَكْنَ . وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ
الدُّبُوسِيُّ مِنْ أَثْمَتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعِ مِنْ جَمِيعِهِمْ وَتَمَّمَ الْأَبْحَاثَ وَالشُّرُوطَ
الَّتِي يُخْتِاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتْ صِنَاعَةَ أَصُولِ الْفِقْهِ بِكَمَالِهِ وَتَهَدَّبَتْ مَسَائِلُهُ
وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعِنَى النَّاسَ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ . وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ
فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابَ الْبُرْهَانِ لِأَمَامِ الْحَرَمِيِّ وَالْمُسْتَصْفَى لِلْفِرْزَالِيِّ وَهُمَا مِنْ
الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابَ الْعَهْدِ^(١) لِعَبِيدِ الْجَبَّارِ وَشَرْحَهُ الْمُعْتَمَدُ لِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ
وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ . وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ . ثُمَّ لَخَّصَ هَذِهِ الْكُتُبَ
الْأَرْبَعَةَ فَخَلَّانَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمَتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَعْرُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ فِي
كِتَابِ الْمَخْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمِدِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ . وَاخْتَلَفَتْ طَرِيقَتُهُمَا فِي
الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ . فَابْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَدِلَّةِ
وَالْإِحْتِجَاجِ وَالْأَمِدِيُّ مَوْلَعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ . وَأَمَّا كِتَابُ

(١) وفي النسخة الباريعة . كتاب العهد

المُحْصُولُ فَاخْتَصَرَهُ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجِ
الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَ شِهَابُ الدِّينِ الْقِرَافِيُّ مِنْهُمَا مَقَدِّمَاتٍ
وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابِ صَغِيرِ سَمَاءِ التَّنْقِيحَاتِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ
الْمِنْهَاجِ . وَعَنِي الْمُبْتَدِئُونَ بِهَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا
كِتَابُ الْإِحْكَامِ لِلْإِمْدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلِخُصَّةِ أَبُو عَمَرَ بْنِ الْحَاجِبِ
فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ . ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابِ آخَرَ تَدَاوُلَهُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ
وَعَنِي أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَيَمْتَطَّلِعَتِهِ وَشَرَحَهُ وَحَصَلَتْ زُبْدَةُ طَرِيقَةِ
الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْحَنْفِيَّةِ فَكَتَبُوا فِيهَا
كَثِيرًا وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابِيَةٍ فِيهَا . لِلْمُقَدِّمِينَ تَأْلِيفُ أَبِي زَيْدِ الدَّبُّوسِيِّ وَأَحْسَنُ
كِتَابِيَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا تَأْلِيفُ سَيِّفِ الْإِسْلَامِ الْبَزْدَوِيِّ مِنْ أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ
وَجَاءَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ مِنْ فَقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبَزْدَوِيِّ
فِي الطَّرِيقَتَيْنِ وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعَهَا وَأَيْمَةٌ
الْعُلَمَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوُلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثًا . وَأَوْلَعَ كَثِيرٌ مِنَ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرْحِهِ .
وَالْحَالُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ
التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنِّهِ
وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(وأما الخلافات) . فاعلم أن هذا الفقه المُسْتَنْبَطُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ كَثْرَ فِيهِ
الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِينَ بِاخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافًا لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ لِمَا
قَدَّمَاهُ . وَاتَّسَعَ ذَلِكَ فِي الْمِلَّةِ اتِّسَاعًا عَظِيمًا وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يَقْلُدُوا مَنْ شَاءُوا
مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ مِنْ
حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ اقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنْعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ
الْإِجْتِهَادِ لِمُضْعِيقَتِهِ وَتَشَعُّبِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِاتِّصَالِ الزَّمَانِ وَافْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ
عَلَى سِوَى هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ . فَأَقِيمَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْأَرْبَعَةُ أَصُولَ الْمِلَّةِ

وَأَجْرِي الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مَجْرَى الْخِلَافِ فِي
النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْفَقْهِيَّةِ . وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَاطَرَاتُ فِي تَصْحِيحِ كُلِّ
مِنْهُمْ مَذْهَبِ إِمَامِهِ تَجْرِي عَلَى أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى
صِحَّةِ مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ وَأَجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ
مِنْ أَبْوَابِ الْفِقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ الْخِلَافُ بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ
أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ
الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمُنَاطَرَاتِ بَيَانٌ مَاخِذٌ
هُوَ لِأَهْلِ الْأَيْمَةِ وَمَشَارَاتٌ اخْتِلَافِيَّةٌ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ . كَانَ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْعُلَمَاءِ
يَسْمَى بِالْخِلَافِيَّاتِ . وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى
سِتْنَابِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا
لِلْاسْتِنْبَاطِ وَصَاحِبَ الْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ
أَنْ يَهْدِمَهَا الْمُخَالَفُ بِأَدْلَتِهِ . وَهُوَ لِعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَاخِذِ الْأَيْمَةِ
وَأَدْلَتِهِمْ وَمَرَانٌ ^(١) الْمَطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ فِيمَا يَرُومُونَ الْإِسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ .
وَتَأَلِيفُ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأَلِيفِ الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ
أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفَتْ فَهَمَّ لِذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَأَمَّا
الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مَعْتَمِدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ نَظَرٍ وَأَيْضًا فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ وَهُمْ
بَادِيَةٌ غُفْلٌ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ . وَلِلْفِرَازِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ
وَلِأَبِي بَكْرٍ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ كِتَابُ التَّلْخِيصِ جَلَبَهُ مِنَ الْمَشْرِقِ . وَلِأَبِي زَيْدٍ
الدُّبُوسِيِّ كِتَابُ التَّغْلِيْقَةِ وَلَا بِنِ الْقِصَارِ مِنْ شُيُوخِ الْمَالِكِيَّةِ غَيْرُونَ الْأَدْلَةَ وَقَدْ جَمَعَ
ابْنُ السَّاعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ جَمِيعَ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْفِقْهِ الْخِلَافِيِّ
مُدْرَجًا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ .

(وأما الجدال) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب

(١) وفي النسخة الباريية ، وميزان .

الْفِقْهِيَّةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ
 الْمُتَنَاطِرِينَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسَلُ عِنَانُهُ فِي الْإِخْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
 صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطِئاً فَاحْتِجَاجُ الْأُئِمَّةِ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ
 الْمُتَنَاطِرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَبَدِّلِ وَالْمُجِيبِ
 وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً^(١) مُنْقَطِعاً وَمَحَلٌّ
 اعْتِرَاضِهِ أَوْ مَعَارِضَتِهِ وَأَيْنَ نَجِبُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ .
 وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ
 بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ سِوَاةَ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ . وَهِيَ طَرِيقَتَانِ
 طَرِيقَةُ الْبَزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ
 وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ
 اسْتِدْلَالٌ . وَهُوَ مِنَ الْمَنَاجِحِ الْحَسَنَةِ وَالْمُعَالِطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ . وَإِذَا
 اعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ أَشْبَهَ بِالْقِيَاسِ الْمُعَالِطِيِّ وَالسُّوفِسْطَائِيِّ .
 إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدِلَّةِ وَالْأَقْيَسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً يَتَحَرَّى فِيهَا طَرُقَ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا
 يَنْبَغِي . وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ . وَضَعَ الْكِتَابَ
 الْمُسَمَّى بِالْإِزْشَادِ مُخْتَصِراً وَتَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا
 عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسَلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ التَّالِيفُ . وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْهُجُورَةٌ
 لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأُمُصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةٌ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) وفي نسخة أخرى . مخصوصاً .

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْجِجَاجَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُتَبَدِّعَةِ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ عَنِ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ . وَسِرُّ هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ . فَلَنَقْدِمُ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ الطَّرِيقِ وَالْمَأْخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ ^(١) وَفِيمَا يُنظَرُ وَيُشِيرُ إِلَى خُدُوثِهِ فِي الْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَتَقُولُ : إِنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْخَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سِوَاءَ كَانَتْ مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ سَبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَدِثٌ أَيْضاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ سَبَابٍ أُخْرَى وَلَا تَرَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي ارْتِقَائِهَا تَنْفَسُخُ وَتَنْضَاعُفُ ^(٢) طَوَّلاً وَعَرْضاً وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِذْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا . فَإِذَا لَا يَخْصِرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْمُحِيطُ سَيِّمًا الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ سَبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودَ وَالْإِرَادَاتِ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقُصْدِ إِلَيْهِ . وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنِ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضاً . وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ سَبَابُ قُصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ سَبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ . إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا . إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنِ مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَعَايَاتِهَا . وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ

(١) أي علم الكلام .

(٢) وفي نسخة أخرى : تنضاعف فتفسخ .

وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَحْصُورَةَ لِلنَّفْسِ وَتَحْتِ طَوْرِهَا .
وَأَمَّا التَّصَوُّرَاتُ فَبِنِطَاقِهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا
تَذَرُكَ الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ الْإِحَاطَةِ . وَتَأْمَلُ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ
النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحْلُو^(١) مِنْهُ بَطَائِلُ
وَلَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَةٍ . قَالَ اللَّهُ : « ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وَرَبَّمَا انْقَطَعَ فِي
وُقُوفِهِ عَنِ الْإِرْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُودُ بِاللَّهِ
مِنَ الْجِرْمَانِ وَالْخُسْرَانِ الْمَيِّينِ . وَلَا تُحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرَّجُوعَ عَنْهُ فِي
قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنٌ يَحْضُلُ لِلنَّفْسِ وَصِبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي
الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةِ لَا نَعْلَمُهَا . إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا . فَلَنَتَحَرَّزَ مِنْ ذَلِكَ
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً . وَأَيْضاً فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا
مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِاقْتِرَانِ الشَّاهِدِ بِالِاسْتِنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ .
وَحَقِيقَةُ التَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ . « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » . فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَالْغَائِبَاتِ جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا
وَمُوجِدِهَا لِتَرْسُخِ صِفَةِ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ أَعْرَفُ
بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِاطِّلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِجْسِ . قَالَ ﷺ : « مَنْ
مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ فَقَدِ
انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَبَّحَ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا
وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِالْخَبِيَةِ . فَلِذَلِكَ نَهَانَا
الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْأاً أَحَدٌ »^(٢) وَلَا تَتَّقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ
أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ

(١) لم يحل بطائل أي لم يظفر ولم يستفد منه (لسان العرب)

(٢) سورة الإخلاص

وَسَفِهَ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِيءِ رَأْيِهِ مُنْخَصِرٌ فِي
 مَدَارِكِهِ لَا يَغْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ . الْأَتْرَى الْأَصَمُّ
 كَيْفَ يَنْخَصِرُ الْوُجُودَ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ
 عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ . وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضاً يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْتَبَاتِ وَلَوْلَا
 مَا يَرُدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَضْرِهِمْ وَالْكَافَّةُ لَمَا أَقْرَأُوا بِهِ
 لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ
 إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ سُئِلَ الْحَيَوَانَ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَائِطَةً لَدُنِيهِ
 بِالْكُلِّيَّةِ فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرِ مُدْرِكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا
 مَخْلُوقَةٌ مُحَدَّثَةٌ وَخَلَقَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . وَالْحَضْرُ مُجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ
 نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . فَاتُّمَّ إِدْرَاكُكَ وَمُدْرِكَاتُكَ فِي الْحَضْرِ وَاتَّبِعْ
 مَا أَمَرَكَ الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهَوَ أُخْرَصَ عَلَى سَعَادَتِكَ وَاعْلَمْ بِمَا
 يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ طُورٍ فَوْقَ إِدْرَاكِكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعُ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ
 بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَامُهُ يَقِينَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا .
 غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَرَى بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةَ وَحَقِيقَةَ السُّبُوءِ وَحَقَائِقَ
 الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلُّ مَا وَرَاءَ طُورِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مَحَالٍ . وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ
 رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الذَّهَبُ فَطَمَعُ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا
 لَا يُدْرِكُ . عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا
 يَتَعَدَّى طُورَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذُرَاتِ الْوُجُودِ
 الْحَاصِلِ مِنْهُ . وَتَتَنَطَّنُ فِي هَذَا الْغَلِطِ وَمَنْ يَقْدَمُ الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أُمُثَالِ هَذِهِ
 الْقَضَايَا وَقُصُورِ فَهْمِهِ وَاضْمِحْلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ
 فَلَعَلَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزْتَ فِي الْارْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِنَا وَوُجُودِنَا خَرَجْتَ عَنْ أَنْ
 تَكُونَ مُدْرِكَةً فَيَضِلُّ الْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ . فَإِذَا التَّوْحِيدُ هُوَ
 الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَلِكَ إِلَى خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا

إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمُنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ
 صُدُورُنَا عَنْهُ لَا غَيْرَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا نَقَلَ عَنْ بَعْضِ الصَّادِقِينَ : « الْعَجْزُ عَنِ
 الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكٌ » . ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ
 تَصْدِيقٌ حُكْمِيٌّ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ
 تَتَكَيَّفُ بِهَا النَّفْسُ كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضاً حُصُولُ مَلَكَتِهِ
 الطَّاعَةِ وَالْإِتْقَانِ وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْمُرِيدُ
 السَّالِكُ رَبَّانِيًّا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ
 وَالْإِتِّصَافِ . وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرَفُ بِهِ وَيَذَكِّرُ مَاخُذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ
 لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّغَهُ وَاسْتَشَفَّ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلاً
 عَنِ التَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْحَنُوءِ وَالصَّدَقَةِ . فَهَذَا
 إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ مَقَامَ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْضَلْ لَهُ مَقَامَ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ .
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْضَلُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى مَقَامَ آخَرَ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا . فَمَتَى
 رَأَى يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الشُّوَابَ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ
 يَصْبِرُ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ . ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عِلْمُكَ
 بِالتَّوْحِيدِ مَعَ اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنَى مِنْ
 الْعِلْمِ الْحَاصِلِ قَبْلَ الْإِتِّصَافِ . وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِغَاوِلٍ عَنْ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ
 الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرُ مِرَاراً غَيْرَ مُنْخَصِرَةً فَتَرْسُخَ الْمَلَكَتِ وَيَحْضَلُ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ
 وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ . فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْمُجَرَّدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلٌ
 الْجَدْوَى وَالنَّفْعُ وَهَذَا عِلْمٌ أَكْثَرُ النَّظَارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِيُّ النَّاشِءُ عَنِ
 الْعَادَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ
 اعْتِقَادَهُ فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلَهُ مِنْ

العبادات فالكَمالُ فيها في حصولِ الإِتصافِ والتَّحقُّقِ بها . ثم إنَّ الإقبالَ على العباداتِ والمواظبةَ عليها هو المَحْضَلُ لهذه الثمرةِ الشريفة . قال ﷺ : « في رأسِ العباداتِ جعلتُ قرّةَ عيني في الصلَاةِ » فإنَّ الصلَاةَ صارتْ له صفةً وحالاً يجدُ فيها منتهى لذاته وقرّةَ عينه وأين هذا من صلَاةِ الناسِ ومن لهم بها ؟ « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » ^(١) اللهمَّ وَفَّقْنَا « واهدنا الصراطَ المُستقيمَ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالِّينَ » ^(٢) فقد تبيّنَ لك من جميعِ ما قررناه أن المطلوبَ في التكاليفِ كُلِّها حصولُ ملكةٍ راسخةٍ في النفسِ يتحصَّلُ ^(٣) عنها علمٌ اضطراريٌّ للنفسِ هو التوحيدُ وهو العقيدةُ الإيمانيةُ وهو الذي تحصَّلَ به السعادةُ وأن ذلك سواءً في التكاليفِ القلبيةِ والبديئيةِ . ويتفهمُ منه أن الإيمانَ الذي هو أصلُ التكاليفِ وينبوعها هو بهذه المثابةِ ذو مراتبٍ . أولها التصديقُ القلبيُّ الموافقُ للسانِ وأغلاها حصولُ كيفيةٍ من ذلك الاعتقادِ القلبيِّ وما يتبعه من العملِ مسئوليةً على القلبِ فيستتبعُ الجوارحَ . وتندرجُ في طاعتها جميعُ التصرفاتِ حتى تنخرطَ الأفعالُ كُلُّها في طاعةِ ذلك التصديقِ الإيمانيِّ . وهذا أرفعُ مراتبِ الإيمانِ وهو الإيمانُ الكاملُ الذي لا يقارفُ المؤمنُ معه صغيرةً ولا كبيرةً إذ حصولُ الملكةِ ورُسوخها مانعٌ من الإنحرافِ عن مناهجهِ طرفةً عينٍ قال ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ » وفي حديثِ هرقلَ لما سألَ أبا سفيانَ بنَ حربٍ عن النبيِّ ﷺ وأحواله فقال في أصحابه : « هل يرتدُّ أحدٌ منهم سُخطاً ليدينه بعد أن يدخلَ فيه ؟ قال : لا ! قال : وكذلك الإيمانُ حين تخالطُ بشائسته القلوبُ . ومعناه أن ملكةَ الإيمانِ إذا استقرَّتْ عسرتْ على النفسِ مخالفتها شأنَ الملكاتِ إذا استقرَّتْ فإنها تحصَّلُ بمثابةِ الجبلةِ والفترةِ وهذه هي المرتبةُ العاليةُ من الإيمانِ وهي في المرتبةِ الثانيةِ من العظمةِ .

(١) سورة الماعون ، الآية ٤ و ٥ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ و ٦ .

(٣) وفي نسخة أخرى : ينشأ .

لأن العظمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنية حصولاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم . وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف . وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه . مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان وأن تطوع رمضان من الإيمان والخياء من الإيمان . والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي . وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه . فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت . وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبته لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عبدة الكفر والفيصل^(١) بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه . وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم . واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بالسنتنا وهي العقائد التي تفررت في الدين . قال عليه السلام حين سئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام . ولنشر إليها مجملة لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول . اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رزاه الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الإيمان نجائنا عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا بكنهه حقيقة هذا الخالق المعبود وهو إذ ذاك متمتر على إدراكنا ومن فوق طورنا . فكلفنا أولاً : اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة

(١) وفي النسخة الباريسية : الفاصل .

الْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا لَمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنِ
 صِفَاتِ النَّقْصِ وَإِلَّا لِشَابَةِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالِاتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانِعِ
 ثُمَّ اعْتِقَادِ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ تَتِمُّ الْأَفْعَالُ شَاهِدَ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الْإِتِّحَادِ ^(١) وَالْخَلْقُ
 وَمُرِيدٌ وَإِلَّا لَمْ يَخْصُصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَالْإِرَادَةُ
 حَادِثَةٌ . وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِنَايَتِهِ بِالِإِيحَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرِ فَإِنَّ ^(٢)
 كَانَ عَبَثًا فَهَوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمِدِيُّ بَعْدَ الْمَوْتِ . ثُمَّ اعْتِقَادِ بَعَثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ
 هَذَا الْمَعَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا
 فِي الْإِيثَاءِ ^(٣) بِذَلِكَ وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ . وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّبِيِّمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ . هَذِهِ
 أَمْهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدْلِيَّتِهَا الْعَقْلِيَّةِ وَأَدْلِيَّتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ .
 وَعَنْ تِلْكَ الْأَدْلَةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأُئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ
 ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ أَكْثَرَ مَشَارَهَا مِنَ الْآيِ الْمَتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى
 الْخِصَامِ وَالتَّنَاطُرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةِ إِلَى النُّقْلِ . فَحَدَّثَ بِذَلِكَ عِلْمٌ
 الْكَلَامِ . وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُحْمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ
 بِالتَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سَلُوبٌ ^(٤) كَلَّمَا
 وَصْرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجِبَ الْإِيمَانُ بِهَا . وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَكَلَامِ الصَّخَايَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا . ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى
 قَلِيلَةٌ تَوْهَمُ التَّشْبِيهَ مَرَّةً فِي الذَّاتِ وَأُخْرَى فِي الصِّفَاتِ . فَأَمَّا السَّلَفُ فَغَلَبُوا أَدْلَةَ
 التَّنْزِيهِ لِكَثْرَتِهَا وَوُضُوحِ دَلَالَتِهَا . وَعَلِمُوا اسْتِحَالَةَ التَّشْبِيهِ . وَقَضُوا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ
 كَلَامِ اللَّهِ فَأَمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِخَبْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : الإيحاد .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولو كان للعناء ، صرف .

(٣) وفي نسخة أخرى : الإيتاء .

(٤) السلوب من التوق ، التي القت ، ولدها لغير تصاد . وظيفه سلوب وسلب أي سلبت ولدها (لسان

العرب) وهذا بمعنى ينقص التأويل .

الْكَثِيرِ مِنْهُمْ : إقْرَأُوهَا كَمَا جَاءَتْ أَيِ آمَنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَلَا تَعَرَّضُوا
 لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا لِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ ائْتِلَاءً . فَيَجِبُ الْوَقْفُ وَالْإِدْعَانُ لَهُ . وَشُدُّ
 لِعَضْرِهِمْ مُبْتَدَعَةً اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ الْآيَاتِ وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ . فَفَرِيقٌ أَشْبَهُوا^(١)
 فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ فَوَقَعُوا فِي التَّجْسِيمِ
 الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ أَيِ التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٌ لِأَنَّ
 مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي النِّقْصَ وَالْإِفْتِقَارَ . وَتَغْلِيْبُ آيَاتِ السُّلُوبِ فِي التَّنْزِيهِ
 الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٌ أَوْلَى مِنَ التَّعْلُقِ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الَّتِي لَمَّا
 عَنَّا غُنِيَّةً وَجَمَعَ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهَا ثُمَّ يَفْرُونَ مِنْ شِنَاعَةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ جِسْمٌ
 لَا كَالْأَجْسَامِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ بَدَافِعِ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمَعَ بَيْنَ نَفْيِ وَإِثْبَاتِ
 إِنْ كَانَا بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ الْجِسْمِ . وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوْا الْمَعْقُولِيَّةَ
 الْمُتَعَارِفَةَ فَقَدْ وَافَقُونَا فِي التَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لَفْظِ الْجِسْمِ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ .
 وَيَتَوَقَّفُ مِثْلُهُ عَلَى الْأَذْنِ . وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى التَّشْبِيهِ فِي الصِّفَاتِ كِاثِبَاتِ الْجِهَةِ
 وَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالصُّوْبِ وَالْحَرْفِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَالْقَوْلُومُ إِلَى التَّجْسِيمِ فَنَزَعُوا
 مِثْلَ الْأَوَّلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتٌ لَا كَالْأَصْوَاتِ جِهَةٌ لَا كَالْجِهَاتِ نَزُولٌ لَا كَالنُّزُولِ
 يَعْنُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ . وَانْدَفَعَ ذَلِكَ بِمَا انْدَفَعَ بِهِ الْأَوَّلُ . وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ
 إِلَّا اِعْتِقَادَاتِ السُّلْفِ وَمَذَاهِبُهُمْ وَالِإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لِئَلَّا يَكْرَهُ^(٢) النَّفْيُ عَلَى
 مَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ . وَلِهَذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ
 الرَّسَالَةِ لِأَبِي زَيْدٍ وَكِتَابِ الْمُخْتَصِرِ لَهُ وَفِي كِتَابِ الْحَافِظِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ
 وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَحُومُونَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى . وَلَا تَغْمُضُ عَيْنُكَ عَنِ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى
 ذَلِكَ فِي غُضُونِ كَلَامِهِمْ . ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِالتَّدْوِينِ
 وَالبَحْثِ فِي سَائِرِ الْأَنْحَاءِ وَأَلَّفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي التَّنْزِيهِ حَدِيثًا بِدَعَا الْمُعْتَرِلَةَ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : أشبهوا .

(٢) يعود .

تعميم هذا التنزيه في أي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي صفة الإرادة فلزمهم نفي القدر لأن معناه سبق الإرادة للكائنات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام . وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر . وقضوا بنفي الكلام لشبهه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق وذلك بدعة صرح السلف بخلافها . وعظم ضرر هذه البدعة ولقننا بعض الخلفاء عن أئمتهم فحصل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم إيسار^(١) كثير منهم ودمأؤهم . وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطريقتين ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف . وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريقي النقل والعقل . ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتخسين والتقيح وكمل العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والشواب والعقاب . وألحق بذلك الكلام في الإمامية لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان^(٢) وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج

(١) بمعنى أموال وفي نسخة أخرى إيسار .

(٢) وفي كتاب الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي (أصل الشيعة وأصولها) ما يلي :

الإمامة . قد أبنائك ان هذا هو الأصل الذي امتازت به الامامية واختلفت عن سائر فرق المسلمين . وهو فرق جوهرية أصلي . وما عداه من الفروق فرعية عرضية . كالفروق التي تقع بين أئمة الاجتهاد عندهم كالحنفي والشافعي وغيرها . وعرفت أن مرادهم بالإمامة كونها منصباً إلهياً يختاره الله سابق علمه بعباده كما يختار النبي . ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه ويأمرهم باتباعه . ويعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بأن ينص على علي وينصبه معلماً للناس من بعده . وكان النبي يعلم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد =

عَنِ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ . وَكَذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ . وَقَضَارَى أَمْرِ الْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ
مُضْلِحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تُلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ فَلِذَلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْفَنِّ وَسَمَّوْا
مَجْمُوعَهُ عِلْمَ الْكَلَامِ ، إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صَرَفٌ وَلَيْسَتْ
بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ . وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْحَوْضَ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ الْكَلَامِ
النَّفْسِيِّ . وَكَثُرَ اتِّبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَاقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ
كَابِنٍ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي
طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَبَهَا وَوَضَعَ الْمَقْدِمَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدْلَةُ وَالْأَنْظَارُ
وَذَلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخَلَاءِ . وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَأَنَّهُ
لَا يَنْقَى زَمَانَيْنِ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أُدْلَتُهُمْ . وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا
لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وَجُوبِ اعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بَطْلَانَ الدَّلِيلِ
يُؤَدِّنُ بِيَطْلَانِ الْمَدْلُولِ . وَجَمَلَتْ ^(١) هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ
النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ صَوْرَ الْأَدْلَةِ فِيهَا بَعْضُ الْأَخْيَانِ ، عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ
الصَّنَاعِيِّ لِسَدَاجَةِ الْقَوْمِ وَلِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا الْأَدْلَةُ وَتُعْتَبَرُ بِهَا
الْأَقْيَسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ
الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَكَانَتْ
مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ . ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ مِنَ أُمَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ
إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِي فَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ فِيهِ . ثُمَّ
لِخُصَّةٍ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِمْ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

= من الإيمان واليقين بنزاهة النبي وعصمته عن الهوى والعرض . ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه ،
« يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . فلم يبدأ من الامتثال بعد هذا
الانذار الشديد فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غديرهم فنادى وجلهم يسمعون ، « ألسنت أولى
بالمؤمنين من أنفسهم » فقالوا اللهم نعم » فقال ، « من كنت مولاه فهذا علي مولا » إلى آخر ما قال . ثم أكد ذلك
في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً . وإشارة ونصحاء حتى أدى الوظيفة وبلغ عند الله العذرة (ص ١٠٧ - ١٠٨)
(طبعة دار البحار - بيروت) .

(١) وفي نسخة أخرى : كملت .

عُلُومٌ^(١) الْمُنْطِقِي فِي الْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ
 وَمَعْيَارٌ لِلأَدْلَةِ فَقَطُّ يُسَبَّرُ بِهِ الأَدْلَةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا . ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ
 الْقَوَاعِدِ وَالْمُقَدَّمَاتِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ لِلأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبُرَاهِينِ الَّتِي
 أَدَلَّتْ إِلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا أَنْ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ
 وَالْإِلَهِيَّاتِ . فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْمُنْطِقِ رَدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بَطْلَانَ
 الْمَذْبُولِ مِنْ بَطْلَانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي
 مَضْطَلِحِهِمْ مَبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ الأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا
 الرَّدَّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ
 لِتَنَاسُبِ الْكَثِيرِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُتَبَدِّعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ
 عَلَى هَذَا الْمَنْحَى الْعَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَتَبِعَهُ الإِمَامُ ابْنُ الْحَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَّوْا أثرَهُمْ
 وَاعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ ثُمَّ تَوَعَّلَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ
 وَالتَّبَسُّعِ عَلَيْهِمْ شَأْنَ الْمَوْضُوعِ فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِدًا مِنْ اشْتِبَاهِ الْمَسَائِلِ
 فِيهِمَا . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ
 وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْبَارِيءِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ نَوْعٌ اسْتِدْلَالِيٌّ غَالِبًا . وَالْجِسْمُ الطَّبِيعِيُّ
 الَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ الْفَيْلَسُوفُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ . إِلاَّ أَنَّ
 نَظْرَهُ فِيهَا مُخَالَفٌ لِنَظَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ
 وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ . وَكَذَا نَظَرُ الْفَيْلَسُوفِ فِي الإِلَهِيَّاتِ
 إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِذَاتِهِ وَنَظَرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ
 حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْجِدِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ
 الْعَقَائِدُ الإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرَضِهَا صَاحِبِهَا مِنَ الشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا
 بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ فَتَرْفَعُ الْبِدْعَ وَتَزُولُ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ^(٢) عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ

(١) وفي نسخة أخرى : علم .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشبه .

حَالِ الْفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدْرُجُ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ صَدْرًا بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرُضُ
 الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهَضُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ عِلْمِيَّةً مَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ
 الْفَنِّ وَأَنَّهُ لَا يَغْدُوهُ . وَلَقَدْ اخْتَلَطَتِ الطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالتَّبَسُّتِ
 مَسَائِلِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدُ الْفَنِّيِّينَ مِنَ الْآخَرِ . وَلَا
 يَخْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبَيْضَاوِيُّ فِي الطُّوَالِجِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ
 عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَأْلِيفِهِمْ . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا بَعْضُ طَلِبَةِ الْعِلْمِ
 لِلإِطْلَاقِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحِجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ فِيهَا . وَأَمَّا مُحَاذَاةُ
 طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا
 كِتَابُ الإِرْشَادِ وَمَا حَذَا حُدُوهُ . وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرُّدِّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ
 يَكْتُبُ الْغَزَالِيَّ وَالْإِمَامَ ابْنَ الْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِلإِصْطِلَاحِ الْقَدِيمِ
 فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الإِخْتِلَافِ فِي الْمَسَائِلِ وَالإِتْبَاسِ فِي الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ
 الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ
 الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ الْمُلْحَدَةُ وَالْمُبْتَدِعَةُ قَدْ انْقَرَضُوا
 وَالْأَيْمَةُ ، مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَفَوْنَا شَأْنَهُمْ فِيمَا كَتَبُوا وَدَوَّنُوا وَالْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ إِنَّمَا اخْتَجَّوْا
 إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا . وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُ تَنْزَةِ الْبَارِيءِ عَنْ كَثِيرٍ
 مِنْهَا مَاتِهِ وَإِطْلَاقِهِ ^(١) وَلَقَدْ سَأَلْتُ الْجُنَيْدَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ
 يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ فَقِيلَ : قَوْمٌ يُنْزَهُونَ اللهُ بِالْأَدِلَّةِ عَنْ صِفَاتِ
 الْحُدُوثِ وَسِمَاتِ النُّقْصِ . فَقَالَ : « نَفِي الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ »
 لَكِنَّ فَائِدَتَهُ فِي أَحَادِ النَّاسِ وَطَلِبَةِ الْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَخْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ
 الْجَهْلُ بِالْحُجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر^(١)

إعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة، كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها، التي هي المعدن والنبات والحيوان. وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بمقصودها، متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها، فمنها منتظم مرتب، وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منتظم ولا مرتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر. وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع، فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلاجل الترتيب بين الحوادث لا بد من التفتن بسببه أو علته أو شرطه، وهي على الجملة مبادئه، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخراً ولا المتأخر متقدماً. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنه، وقد يرتقي ذلك أو ينتهي. فإذا انتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي انتهى إليه الفكر، فكان أول عمله. ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته. مثلاً: لو فكر في إيجاد سقف، يكنه انتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعّمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر. ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، وهو آخر العمل.

وهذا معنى قولهم: (أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل)، فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المراتب لتوقف بعضها على

(١) هذا الفصل غير موجود في طبعة بولاق وبعض الطباعات الأخرى. نقلناه عن الطبعة الباريسية
نحقيق وردت بعد: «فصل في الفكر الإنساني».

بعض. ثم يشرع في فعلها. وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير. وهو آخرها في العمل. وأولها في العمل هو المسبب الأول وهو آخرها في الفكر. ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الإنتظام في الأفعال البشرية.

وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل. إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة خلية من الربط لأنه لا يكون إلا بالفكر. ولما كانت الحواس المغتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة، وغير المنتظمة إنما هي تبع لها. اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها، فكانت مسخرة للبشر. واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث، بما فيه. فكان كلة في طاعته وتسخره. وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة^(١)» فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها. ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى. واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج؛ فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق. لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع. لكنه مثال يختدي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

(١) من آية (٣١) من سورة البقرة.

الفصل الثاني عشر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه^(١)

إِنَّكَ تَسْمَعُ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ قَوْلَهُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَدْنِيٌّ الطَّبِيعِ . يَذْكُرُونَهُ فِي إِثْبَاتِ النَّبُؤَاتِ وَغَيْرِهَا . وَالنَّسْبَةُ فِيهِ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ عِنْدَهُمْ كِنَايَةٌ عَنِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ . أَنَّهُ لَا تَمَكُّنُ حَيَاةَ الْمُنْفَرِدِ مِنَ الْبَشَرِ . وَلَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا مَعَ أَنْبَاءِ جِنْسِهِ . وَذَلِكَ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِكْمَالِ وُجُودِهِ وَحَيَاتِهِ . فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ أَبَدًا بِطَبِيعِهِ . وَتِلْكَ الْمَعَاوَنَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الْمَفَاوِضَةِ أَوَّلًا . ثُمَّ الْمَشَارَكَةِ وَمَا بَعْدَهَا . وَرَبَّمَا تَفْضِي الْمُعَامَلَةَ عِنْدَ اتِّخَادِ الْأَعْرَاضِ إِلَى الْمُنَازَعَةِ وَالْمَشَاجِرَةِ فَتَنْشَأُ الْمُنَافَرَةُ وَالْمُؤَالَفَةُ . وَالصَّدَاقَةُ وَالْعَدَاوَةُ . وَيُؤَوَّلُ إِلَى الْحَرْبِ وَالسَّلْمِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى أَيْ وَجْهِ اتَّفَقَ . كَمَا بَيْنَ الْهَمَلِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ؛ بَلْ لِلْبَشَرِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْ أَنْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَتَرْتِيبِهَا بِالْفِكْرِ . كَمَا تَقَدَّمَ . جَعَلَ مُنْتَظِمًا فِيهِمْ . وَيَسَّرَهُمْ لِإِتْقَاعِهِ عَلَى وُجُوهٍ سِيَاسِيَّةٍ وَقَوَانِينِ حَكْمِيَّةٍ . يُنَكِّبُونَ فِيهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ إِلَى الْمَصَالِحِ . وَعَنِ الْحَسَنِ إِلَى الْقَبِيحِ . بَعْدَ أَنْ يَمَيِّزُوا الْقَبَائِحَ وَالْمَفْسَدَةَ . بِمَا يَنْشَأُ عَنِ الْفِعْلِ مِنْ ذَلِكَ عَنِ تَجْرِبَةٍ صَحِيحَةٍ ؛ وَعَوَائِدَ مَعْرُوفَةٍ بَيْنَهُمْ ؛ فَيَفَارِقُونَ الْهَمَلَ مِنَ الْحَيَوَانِ . وَتَظْهَرُ عَلَيْهِمْ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ فِي أَنْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَبَعْدَهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ .

هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَحْضُلُ بِهَا ذَلِكَ لَا تَبْعُدُ عَنِ الْحَسَنِ كُلِّ الْبُعْدِ وَلَا يَتَعَمَّقُ فِيهَا النَّاطِرُ ؛ بَلْ كُلُّهَا تُدْرِكُ بِالتَّجْرِبَةِ وَبِهَا يُسْتَفَادُ . لِأَنَّهَا مَعَانٍ جَزْئِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَحْسُوسَاتِ وَصَدِيقَهَا وَكَذِبُهَا . يَظْهَرُ قَرِيبًا فِي الْوَاقِعِ ؛ فَيَسْتَفِيدُ طَالِبُهَا حُصُولَ الْعِلْمِ بِهَا مِنْ ذَلِكَ . وَيَسْتَفِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ الْقَدْرَ الَّذِي يَسَّرَ لَهُ مِنْهَا مَقْتَنِيصًا لَهُ بِالتَّجْرِبَةِ بَيْنَ الْوَاقِعِ فِي مُعَامَلَةِ أَنْبَاءِ جِنْسِهِ . حَتَّى يَتَعَيَّنَ لَهُ مَا يَجِبُ

(١) نقل هذا الفصل أيضا عن الطبعة الباريسية .

وَيُنْبِغِي . فِعْلاً وَتَرْكاً . وَتَحْضُلُ فِي مَلَائِسَةِ الْمَلَكَةِ فِي مُعَامَلَةِ أِبْنَاءِ جَنْسِهِ . وَمَنْ تَتَّبِعَ ذَلِكَ سَائِرَ عُمْرِهِ حَصَلَ لَهُ الْعُثُورُ عَلَى كُلِّ قَضِيَّةٍ . وَلَا بُدَّ بِمَا تَسَعَهُ التَّجْرِبَةُ مِنَ الزَّمَنِ . وَقَدْ يَسْهَلُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ تَحْصِيلَ ذَلِكَ فِي أَقْرَبِ زَمَنِ التَّجْرِبَةِ . إِذْ قَلَدَ فِيهَا الْآبَاءَ وَالْمَشِيخَةَ وَالْأَكَابِرَ . وَلَقَّنَ عَنْهُمْ وَوَعَى تَعْلِيمَهُمْ ؛ فَيَسْتَفْنِي عَنْ طُولِ الْمَعَانَاتِ فِي تَتْبِعِ الْوَقَائِعِ وَاقْتِنَاصِ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ بَيْنِهَا . وَمَنْ فَقَدَ الْعِلْمَ فِي ذَلِكَ وَالتَّقْلِيدَ فِيهِ أَوْ أَعْرَضَ عَنْ حُسْنِ اسْتِمَاعِهِ وَاتِّبَاعِهِ . طَالَ عَنَاؤُهُ فِي التَّادِيْبِ بِذَلِكَ ؛ فَيَجْرِي فِي غَيْرِ مَأْلُوفٍ وَيُذْرِكُهَا عَلَى غَيْرِ نَسِيَةٍ ؛ فَتُوجَدُ آدَابُهُ وَمُعَامَلَاتُهُ سَيِّئَةً الْأَوْضَاعِ بَادِيَةِ الْخَلَلِ . وَيَفْسُدُ حَالُهُ فِي مَعَاشِهِ بَيْنَ أِبْنَاءِ جَنْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ ؛ « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدُهُ أَدَّبَهُ الزَّمَانُ » . أَيُّ مَنْ لَمْ يُلَقِّنِ الْآدَابَ فِي مُعَامَلَةِ الْبَشَرِ مِنْ وَالِدِيهِ - وَفِي مَعْنَاهُمَا الْمَشِيخَةُ وَالْأَكَابِرُ - . وَيَتَعَلَّمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ . رَجَعَ إِلَى تَعْلِيمِهِ بِالطَّبِيعِ مِنَ الْوَأَقِعَاتِ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ ؛ فَيَكُونُ الزَّمَانُ مُعَلِّمَهُ وَمُؤَدِّبَهُ لِضُرُورَةِ ذَلِكَ بِضُرُورَةِ الْمُعَاوَنَةِ الَّتِي فِي طَبِيعِهِ .

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ، وَهُوَ يَحْضُلُ بَعْدَ الْعَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ الَّذِي تَقَعُ بِهِ الْأَفْعَالُ كَمَا بَيَّنَّا . وَبَعْدَ هَذَيْنِ مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ النَّظَرِيِّ الَّذِي تَكْفُلُ بِتَفْسِيرِهِ أَهْلُ الْعُلُومِ ؛ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ .

الفصل الثالث عشر

في علوم البشر وعلوم الملائكة

إِنَّا نَشْهَدُ فِي أَنْفُسِنَا بِالْوُجُودِ الصَّحِيحِ وَجُودَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمَ ؛ أَوْلَاهَا ، عَالَمُ الْحِسِّ ، وَنَعْتِسِرُهُ بِمَدَارِكِ الْحِسِّ الَّذِي شَارَكْنَا فِيهِ الْحَيَوَانَاتِ بِالْإِذْرَاكِ . ثُمَّ نَعْتَسِرُ الْفِكْرَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْبَشَرُ فَتَعَلَّمْنَا مِنْهُ وَجُودَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلِماً ضَرْوَرِيّاً بِمَا بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ مَدَارِكِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ مَدَارِكِ الْحِسِّ ؛ فَتَرَاهُ عَالِماً آخَرَ فَوْقَ

عَالَمِ الْحِسِّ . ثُمَّ نَسْتَدِلُّ عَلَى عَالَمِ ثَالِثٍ فَوْقَنَا بِمَا نَجِدُ فِيْنَا مِنْ آثَارِهِ الَّتِي تُلْقَى فِي
أَفْعِدَتِنَا كَالْإِرَادَاتِ وَالْوَجْهَاتِ ، نَحْوَ الْحَرَكَاتِ الْفِعْلِيَّةِ ، فَتَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ فَاعِلًا
يَبْعَثُنَا عَلَيْهَا مِنْ عَالَمٍ فَوْقَ عَالَمِنَا وَهُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ وَالْمَلَائِكَةِ . وَفِيهِ ذَوَاتٌ مُدْرَكَةٌ
لِوُجُودِ آثَارِهَا فِيْنَا مَعَ مَا تَبَيَّنْنَا وَبَيَّنَّهَا مِنَ الْمَغَايِرَةِ . وَرُبَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ
الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَذَوَاتِهِ بِالرُّؤْيَا وَمَا نَجِدُ فِي النَّوْمِ ، وَيُلْقَى إِلَيْنَا فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ
الَّتِي نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا فِي الْيَقَظَةِ ، وَتَطَابِقُ الْوَاقِعِ فِي الصَّحِيحَةِ مِنْهَا ، فَتَعْلَمُ أَنَّهَا
حَقٌّ وَمِنْ عَالَمِ الْحَقِّ . وَأَمَّا أَضْغَاتُ الْأَخْلَامِ فَصُورٌ خَيَالِيَّةٌ يَخْزِنُهَا الْإِدْرَاكُ فِي
الْبَاطِنِ وَيَجُولُ فِيهَا الْفِكْرُ بَعْدَ الْعَيْشَةِ عَنِ الْحِسِّ . وَلَا نَجِدُ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ
الرُّوحَانِيِّ بُرْهَانًا أَوْضَحُ مِنْ هَذَا ، فَتَعْلَمُهُ كَذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا نَدْرِكُ لَهُ تَفْصِيلًا .

وَمَا يَزْعُمُهُ الْحُكَمَاءُ الْإِلَهِيُّونَ فِي تَفْصِيلِ ذَوَاتِهِ وَتَرْتِيبِهَا ، الصَّمَمَاءُ عِنْدَهُمْ
بِالْعُقُولِ . فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَتَقَيَّنِي لِإِخْتِلَالِ شَرْطِ الْبُرْهَانِ النَّظَرِيِّ فِيهِ . كَمَا
هُوَ مَقْرَّرٌ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْمَنْطِقِ . لِأَنَّ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ تَكُونَ قَضَايَاهُ أَوْلِيَّةً ذَاتِيَّةً .
وَهَذِهِ الذُّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ مَجْهُولَةٌ الذَّاتِيَّاتِ ، فَلَا سَبِيلَ لِلْبُرْهَانِ فِيهَا . وَلَا يَبْقَى لَنَا
مُدْرِكٌ فِي تَفْصِيلِ هَذِهِ الْعَوَالِمِ إِلَّا مَا نَقْتَسِبُهُ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ الَّتِي يُوضِحُهَا الْإِيمَانُ
وَيُحْكِمُهَا . وَأَعْتَقَدُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ فِي مُدْرِكِنَا عَالَمِ الْبَشَرِ ، لِأَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ مُشْهُودٌ فِي
مَدَارِكِنَا الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ . وَيَشْتَرِكُ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ وَفِي عَالَمِ
الْعَقْلِ وَالْأَرْوَاحِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ ذَوَاتُهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَوَاتِهِ ، وَهِيَ ذَوَاتٌ مُجْرَدَةٌ عَنِ
الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَادَّةِ ، وَعَقْلٌ صَرَفٌ يَتَّحِدُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالْعَاقِلُ وَالْمَعْقُولُ ، وَكَأَنَّهُ ذَاتٌ
حَقِيقَتُهَا الْإِدْرَاكُ وَالْعَقْلُ ، فَعُلُومُهُمْ حَاصِلَةٌ دَائِمًا مُطَابِقَةٌ بِالطَّبِيعِ لِمَعْلُومَاتِهِمْ
لَا يَفْعُ فِيهَا خَلَلٌ الْبَتَّةُ .

وَعِلْمُ الْبَشَرِ هُوَ حُصُولُ صُورَةِ الْمَعْلُومِ فِي ذَوَاتِهِمْ بَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ حَاصِلَةً . فَهُوَ
كُلُّهُ مَكْتَسَبٌ ، وَالذَّاتُ الَّتِي يَحْضُلُ فِيهَا صُورُ الْمَعْلُومَاتِ وَهِيَ النَّفْسُ مَادَّةٌ
هَيُولَانِيَّةٌ تَلْبَسُ صُورَ الْوُجُودِ بِصُورِ الْمَعْلُومَاتِ الْحَاصِلَةِ فِيهَا شَيْئًا شَيْئًا ، حَتَّى

تُسْتَكْمَلُ ، وَيَصْحُحُ وُجُودُهَا بِالْمَوْتِ فِي مَادَّتِهَا وَصُورَتِهَا . فَأَلْمَطْلُوبَاتُ فِيهَا مُتْرَدِّدَةٌ
بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإثْبَاتِ دَائِمًا ، يَطْلُبُ أَحَدُهُمَا بِالْوَسْطِ الرَّابِطِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ . فَإِذَا
خَصَلَ وَصَارَ مَعْلُومًا افْتَقَرَ إِلَى بَيَانِ الْمُطَابَقَةِ ، وَرُبَّمَا أَوْضَحَهَا الْبُرْهَانُ الصِّنَاعِيُّ .
لَكِنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ . وَلَيْسَ كَالْمُعَايِنَةِ الَّتِي فِي عُلُومِ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ يَنْكَشِفُ
ذَلِكَ الْحِجَابُ فَيَصِيرُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ بِالْعَيَانِ الْإِذْرَاكِيِّ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْبَشَرَ جَاهِلٌ
بِالطَّيْعِ لِلتَّرَدُّدِ فِي عِلْمِهِ ، وَعَالِمٌ بِالْكَسْبِ وَالصِّنَاعَةِ لِتَحْصِيلِهِ الْمَطْلُوبَ بِفِكْرَةٍ
الشُّرُوطِ الصِّنَاعِيَّةِ . وَكَشَفَ الْحِجَابَ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَاضَةِ بِالِإِذْكَارِ
الَّتِي أَفْضَلُهَا صَلَاةٌ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَبِالتَّنَزُّهِ عَنِ الْمُتَنَاوَلَاتِ الْمَهْمَةِ
وَرَأْسُهَا الصُّومُ ، وَبِالْوَجْهِةِ إِلَى اللَّهِ بِجَمِيعِ قَوَاهِ . وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

الفصل الرابع عشر

في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إِنَّا نَجِدُ هَذَا الصِّنْفَ مِنَ الْبَشَرِ تَعْتَرِيهِمْ حَالَةٌ إِلَهِيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنِ مَنَازِعِ الْبَشَرِ
وَأَحْوَالِهِمْ فَتَغْلِبُ الْوَجْهَةَ الرُّبَانِيَّةَ فِيهِمْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فِي الْقَوَى الْإِذْرَاكِيَّةِ وَالنُّزُوعِيَّةِ
مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْفُضْضِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْبَدَنِيَّةِ ، فَتَجِدُهُمْ مُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْأَحْوَالِ
الرُّبَانِيَّةِ ، مِنْ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ لِلَّهِ بِمَا يَقْتَضِي مَعْرِفَتَهُمْ بِهِ ، مُخْبِرِينَ عَنْهُ بِمَا
يُوحَى إِلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، مِنْ هِدَايَةِ الْأُمَّةِ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَسُنَنِ مَعْهُودٍ مِنْهُمْ
لَا يَتَبَدَّلُ فِيهِمْ كَأَنَّهُ جِبَلَةٌ فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا الْكَلَامُ فِي الْوَحْيِ أَوَّلُ
الْكِتَابِ فِي فَضْلِ الْمُنْذَرِكِينَ لِلْغَيْبِ . وَبَيَّنَّا هُنَالِكَ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ فِي عَوَالِمِهِ
الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ عَلَى تَرْكِيبِ طَبِيعِيٍّ مِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا مُتَّصِلَةٌ كُلُّهَا اتِّصَالًا
لَا يَنْخَرِمُ . وَأَنَّ الذَّوَاتِ الَّتِي فِي آخِرِ كُلِّ أَقْفٍ مِنَ الْعَوَالِمِ مُسْتَعِدَّةٌ لِأَنَّ تَنْقَلِبَ إِلَى
الذَّاتِ الَّتِي تَجَاوَزُهَا مِنَ الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى ، اسْتِعْدَادًا طَبِيعِيًّا ، كَمَا فِي الْعُنَاصِرِ

الجسمانيَّة البسيطة ، وكما في النخل والكرم من آخر أرق النبات مع الحزبون
والصدف من أرق الحيوان وكما في القردة التي استجمع فيها الكينس والإدراك مع
الإنسان صاحب الفكر والروية . وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أرق من
العوالم هو معنى الإتصال فيها .

وفوق العالم البشري عالم روحاني . شهدت لنا به الآثار التي فينا منه ، بما
يعطينا من قوى الإدراك والإرادة فدوات العلم العالم إدراك صرف وتعقل محض .
وهو عالم الملائكة ؛ فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداد
للإنسلاخ من البشرية إلى الملكية . لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من
الأوقات . وفي لمحة من اللحاح . ثم تراجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملكية
ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر . وهذا هو معنى الوحي وخطاب
الملائكة . والأنبياء كلهم مَطُورُونَ عليه . كأنه جبلَةٌ لهم ويعالجون في ذلك
الإنسلاخ من الشدة والغطيط ما هو معروف عنهم . وعلومهم في تلك الحالة علم
شهادة وعيان . لا يلحقه الخطأ والزلل . ولا يقع فيه الغلط والوهم . بل المطابقة
فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة . عند مفارقة هذه الحالة
إلى البشرية . لا يفارق علمهم الوضوح . استصحاباً له من تلك الحالة الأولى . ولما
هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها . يتردد ذلك فيهم دائماً إلى أن تكمل هداية
الأمّة التي بعثوا لها . كما في قوله تعالى : « إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنّما
إلهم إله واحد . فاستقيموا إليه واستغفروه » . فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك
أول الكتاب . في أصناف المدرّكين للغيب . يتضح لك شرحه وبيانه . فقد
بسطناه هنالك بسطاً شافياً . والله الموفق .

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قَدْ بَيَّنَّا أَوَّلَ هَذِهِ الْفُضُولِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَيَّزَهُ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ ، يُوقَعُ بِهِ أَعْمَالُهُ عَلَى انْتِظَامٍ وَهُوَ الْعَقْلُ التَّمْيِيزِيُّ أَوْ يَقْتَنِصُ بِهِ الْعِلْمَ بِالْأَزْاءِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مِنْ أُنْبَاءِ جِنْسِهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ؛ أَوْ يَخْصُلُ بِهِ فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ غَائِباً وَشَاهِداً ، عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ النَّظْرِيُّ . وَهَذَا الْفِكْرُ إِنَّمَا يَخْصُلُ لَهُ بَعْدَ كَمَالِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ ، وَيَبْدَأُ مِنَ التَّمْيِيزِ ؛ فَهُوَ قَبْلَ التَّمْيِيزِ خُلُوٌّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْحُمَلَةِ ، مَعْدُودٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، لِأَجْلِ بَمَبْدئِهِ فِي التَّكْوِينِ ، مِنَ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ . وَمَا حَصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَدَارِكِ الْحِسِّ وَالْأَفئِدَةِ الَّتِي هِيَ الْفِكْرُ . قَالَ تَعَالَى فِي الْاِمْتِنَانِ عَلَيْنَا ، « وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفئِدَةَ » فَهُوَ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى قَبْلَ التَّمْيِيزِ هَيُولاً فَقَطْ ، لِجَهْلِهِ بِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ . ثُمَّ تَسْتَكْمِلُ صُورَتَهُ بِأَلِمْ الَّذِي يَكْتَسِبُهُ بِأَلَانِهِ ، فَكَمَلَ ذَاتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي وُجُودِهَا . وَأَنْظَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى مَبْدَأُ الْوَحْيِ عَلَى نَبِيِّهِ « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أَيُّ أَكْسَبَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلاً لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَقَةً وَمُضْغَةً فَقَدْ كَشَفَتْ لَنَا طَبِيعَتَهُ وَذَاتَهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ الذَّاتِيِّ وَالْعِلْمِ الْكَسْبِيِّ وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَقَرَّرُ فِيهِ الْاِمْتِنَانُ عَلَيْهِ بِأَوَّلِ مَرَاتِبِ وُجُودِهِ ، وَهِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ . وَحَالَتَاهُ الْفِطْرِيَّةُ وَالْكَسْبِيَّةُ فِي أَوَّلِ التَّنْزِيلِ وَمَبْدَأُ الْوَحْيِ . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة

وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات
إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا مُحَمَّدًا ﷺ يَدْعُونَا إِلَى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ
بِالنَّعِيمِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ ، يُخَاطِبُنَا فِيهِ
بِالتَّكْلِيفِ الْمَقْضِيَةِ بِنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ فِي خِلَالِ هَذَا الْخِطَابِ ، وَمِنْ ضَرُورَاتِهِ ،
ذَكَرَ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَأَسْمَاءَهُ ، لِيُعْرِفُنَا بِذَاتِهِ ، وَذَكَرَ الرُّوحَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِنَا ، وَذَكَرَ
الْوَحْيَ وَالْمَلَائِكَةَ ، الْوَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسُلِهِ إِلَيْنَا . وَذَكَرَ لَنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَإِنْذَارَاتِهِ
وَلَمْ يُعَيِّنْ لَنَا الْوَقْتَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ . وَثَبَّتَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حُرُوفًا مِنَ الْهَجَاءِ
مَقْطَعَةً فِي أَوَائِلِ بَعْضِ سُورِهِ ، لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى فَهْمِ الْمُرَادِ بِهَا . وَسَمَى هَذِهِ الْأَنْوَاعَ
كُلَّهَا مِنَ الْكِتَابِ مُتَشَابِهًا . وَذَمَّ عَلَى اتِّبَاعِهَا فَقَالَ تَعَالَى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ ^(١) » وَحَمَلَ الْعُلَمَاءُ مِنْ سَلَفِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ
الْمُحْكَمَاتِ هِيَ الْمُبَيِّنَاتُ الثَّابِتَةُ الْأَحْكَامَ . وَلِذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ :
الْمُحْكَمُ الْمُتَّضِعُ الْمَعْنَى . وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ فَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ . فَقِيلَ هِيَ الَّتِي
تَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَفْسِيرٍ يُصَحِّحُ مَعْنَاهَا ، لِتَعَارُضِهَا مَعَ آيَةٍ أُخْرَى أَوْ مَعَ الْعَقْلِ ،
فَتَخْفَى دَلَالَتُهَا وَتَشْتَبِهُ . وَعَلَى هَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « الْمُتَشَابِهَةُ يَوْمُنُ بِهِ وَلَا يَعْمَلُ
بِهِ » وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَكْرَمَةُ : « كُلَّمَا سَوَى آيَاتِ الْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ مُتَشَابِهَةً »

(١) الآية من سورة آل عمران .

وَعَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ ، « الْمُتَشَابِهُ ، مَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلَ إِلَى عِلْمِهِ ، كَشُرُوبِ السَّاعَةِ وَأَوْقَاتِ الْإِنذَارَاتِ وَحُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ « هَذِهِ أُمُّ الْكِتَابِ » أَيْ مَعْظَمُهُ وَغَالِبُهُ وَالْمُتَشَابِهُ أَقْلُهُ ، وَقَدْ يَرُدُّ إِلَى الْمُحْكَمِ . ثُمَّ ذَمُّ الْمُتَشَبِّهِينَ لِلْمُتَشَابِهِ بِالتَّأْوِيلِ أَوْ بِحَمْلِهِ عَلَى مَعَانٍ لَا تَفْهَمُ مِنْهَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الَّذِي خُوِطِبْنَا بِهِ . وَسَمَّاهُمْ أَهْلَ زَيْغٍ ، أَيْ مِثْلَ عَنِ الْحَقِّ مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّانِقَةِ وَجَهْلَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ . وَأَنَّ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ قَضَدُ الْفِتْنَةِ الَّتِي هِيَ الشَّرْكَ أَوْ اللَّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوْ قَضَدًا لِتَأْوِيلِهَا بِمَا يَشْتَهُونَهُ فَيَقْتَدُونَ بِهِ فِي بَدْعَتِهِمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِتَأْوِيلِهَا وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ فَقَالَ : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . ثُمَّ أَتَى عَلَى الْعُلَمَاءِ بِالْإِيمَانِ بِهَا فَقَطَّ . فَقَالَ : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ . وَلِهَذَا جَعَلَ السَّلَفُ وَالرَّاسِخُونَ مُسْتَأْنَفًا ، وَرَجَحُوهُ عَلَى الْعَطْفِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ أَبْلَغُ فِي الشَّئِ وَمَعَ عَطْفِهِ إِنَّمَا يَكُونُ إِيمَانًا بِالشَّاهِدِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ حِينَئِذٍ فَلَا يَكُونُ غَيْبًا . وَيَعْضُدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا » وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ فِيهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ لِلْبَشَرِ . إِنَّ الْأَلْفَاطَ اللَّغَوِيَّةَ إِنَّمَا يُفْهَمُ . مِنْهَا الْمَعَانِي الَّتِي وَضَعَهَا الْعَرَبُ لَهَا ، فَإِذَا اسْتَحَالَ إِسْنَادُ الْخَبَرِ إِلَى مُخْبِرٍ غَنَى جَهْلُنَا مَدْلُولِ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ ، وَإِنْ جَاءَنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَوُضِنَا عِلْمَهُ إِلَيْهِ وَلَا نَشْعَلُ أَنْفُسَنَا بِمَدْلُولِ نَلْتَمِسُهُ ، فَلَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى ذَلِكَ . وَقَدْ عَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْقُرْآنِ ، فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ » . فَاخْذَرُوهُمْ . هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ . وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الْأَفَاطُ مِثْلُ ذَلِكَ مُحْمَلًا عِنْدَهُمْ مُحْمَلِ الْآيَاتِ لِأَنَّ الْمَنْتَبِعَ وَاحِدٌ .

وَإِذَا تَقَرَّرَتْ أَصْنَافُ الْمُتَشَابِهَاتِ عَلَى مَا قُلْنَا . فَلنَرْجِعْ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا . فَأَمَّا مَا يَرْجِعُ مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرُوهُ إِلَى السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَأَوْقَاتِ الْإِنذَارَاتِ وَعَدَدِ الزَّبَانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . فَلَيْسَ هَذَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ فِيهِ

لَفْظٌ مُجْمَلٌ وَلَا غَيْرُهُ وَإِنَّمَا هِيَ أَرْمَنَةٌ لِحَادِثَاتِ اسْتَأْثَرِ اللَّهُ بِعِلْمِهَا بِنَصِّهِ ^(١) فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ . وَقَالَ : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ » . وَالْعَجَبُ مِمَّنْ عَدَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ . وَأَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَحَقِيقَتُهَا حُرُوفُ الْهَجَاءِ وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً . وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدِ الْعَايَةِ فِي الْإِعْجَازِ . لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ مُؤَلَّفٌ مِنْهَا . وَالْبَشْرُ فِيهَا سِوَاءٌ . وَالتَّفَاوُتُ مُوجُودٌ فِي دَلَالَتِهَا بَعْدَ التَّأْلِيفِ . وَإِنْ عَدَلَ عَنِ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الدَّلَالََةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّمَا يَكُونُ بِنَقْلِ صَحِيحٍ . كَقَوْلِهِمْ فِي طِه . إِنَّهُ نِدَاءٌ مِنْ طَاهِرٍ وَهَادِي وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ مُنْعَدَّرٌ . فَيُجِئُ الْمُتَشَابِهَ فِيهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَأَمَّا الْوَحْيُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وَالْجِنُّ . فَاسْتَبَاهَا مِنْ حَاءِ دَلَالَتِهَا الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُتَعَارِفَةٍ ؛ فَجَاءَ التَّشَابُهَ فِيهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَقَدْ أَحَقَّ بَعْضُ النَّاسِ بِهَا كُلَّ مَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالذُّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُوطِ . وَمَا هُوَ بِخِلَافِ الْعَوَائِدِ الْمَأْلُوفَةِ . وَهُوَ غَيْرُ بَعِيدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ الْجُمْهُورَ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَيْهِ . وَسَيِّمُوا الْمُتَكَلِّمُونَ فَقَدْ عَيَّنُوا مَحَامِلَهَا عَلَى مَا تَرَاهُ فِي كُتُبِهِمْ . وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ إِلَّا الصِّفَاتُ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ . مِمَّا يُوهِمُ ظَاهِرُهُ نَقْصًا أَوْ تَعْجِيزًا . وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ مِنْ بَعْدِ السَّلَفِ الَّذِينَ قَرَرْنَا مَذَاهِبَهُمْ . وَتَنَازَعُوا وَتَطَرَّقَتِ الْبِدْعُ إِلَى الْعَقَائِدِ . فَلنَشِرْ إِلَى بَيَانِ مَذَاهِبِهِمْ وَإِثَارِ الصَّحِيحِ مِنْهُ عَلَى الْفَاسِدِ فَنَقُولُ . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » ؛ إَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ . قَادِرٌ . مُرِيدٌ . حَيٌّ . سَمِيعٌ . بَصِيرٌ . مُتَكَلِّمٌ . جَلِيلٌ . كَرِيمٌ . جَوَادٌ . مُنْعِمٌ . عَزِيزٌ . عَظِيمٌ . وَكَذَا أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْوَجْهَ وَالْقَدَمَ وَاللِّسَانَ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ؛ فَمِنْهَا مَا يَقْتَضِي صِحَّةَ الْوَهْمِيَّةِ . مِثْلَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ . ثُمَّ الْحَيَاةُ الَّتِي هِيَ شَرْطُ جَمِيعِهَا ؛ وَمِنْهَا مَا هِيَ صِفَةٌ كَمَالٍ . كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلامِ ؛ وَمِنْهَا مَا يُوهِمُ النِّقْصَ كَالِاسْتِثْوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْمَجِيءِ .

(١) كذا . وفي نسخة . بعينه .

وَكَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْمُحَدَّثَاتِ . ثُمَّ أَخْبَرَ الشَّارِعُ أَنَّا نَرَى
 رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ . لَا نَضَامُ فِي رُؤْيَيْهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ .
 فَأَمَّا السُّلْفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأُتْبِتُوا لَهُ صِفَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْكَمَالِ
 وَفَوُضُوا إِلَيْهِ مَا يُوْهِمُ النِّقْصَ سَاكِتِينَ عَنْ مَذَلُولِهِ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ .
 وَجَاءَ الْمُعْتَزِلَةُ فَأُتْبِتُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ أَحْكَاماً ذَهَبِيَّةً مُجَرَّدَةً ؛ وَلَمْ يَشْتُوا صِفَةَ تَقْوَمِ
 بِدَائِهِ . وَسَمُّوا ذَلِكَ تَوْحِيداً ، وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ خَالِقاً لِأَفْعَالِهِ ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا قُدْرَةُ
 اللَّهِ تَعَالَى . سَيِّمُوا الشَّرُورَ وَالْمَعَاصِيَ مِنْهَا ؛ إِذْ يَمْتَنِعُ عَلَى الْحَكِيمِ فِعْلُهَا . وَجَعَلُوا
 مَرَاغَةَ الْأَصْلِحِ لِلْعِبَادِ وَاجِبَةً عَلَيْهِ . وَسَمُّوا ذَلِكَ عَدْلًا . بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَوْلَى يَقُولُونَ
 يَنْفِي الْقَدْرَ . وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ مُسْتَأْنَفٌ يَعْلَمُ حَدِيثَ وَقُدْرَةَ وَإِرَادَةَ كَذَلِكَ . كَمَا وَرَدَ
 فِي الصَّحِيحِ . وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو تَبَرَّأَ مِنْ مَعْبِدِ الْجُهَنِيِّ وَأَصْحَابِهِ الْقَائِلِينَ
 بِذَلِكَ . وَانْتَهَى نَفْيُ الْقَدْرِ إِلَى وَاصِلِ بْنِ عَطَاءِ الْغَزَالِيِّ . مِنْهُمْ . تَلْمِيزُ الْحَسَنِ
 الْبَصْرِيِّ . لِعَبْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . ثُمَّ أَخْرَأَ إِلَى مَعْمَرِ السُّلَمِيِّ . وَرَجَعُوا عَنْ
 الْقَوْلِ بِهِ . وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو الْهَيْدِيلِ الْعَلَّافُ . وَهُوَ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ . أَخَذَ الطَّرِيقَةَ عَنْ
 عُثْمَانَ بْنِ خَالِدِ الطَّوِيلِ عَنْ وَاصِلِ . وَكَانَ مِنْ نَفَاتِ الْقَدْرِ . وَاتَّبَعَ رَأْيَ الْفَلَسَفَةِ
 فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ لِظُهُورِ مَذَاهِبِهِمْ يَوْمئِذٍ .

ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ . وَقَالَ بِالْقَدْرِ . وَاتَّبَعُوهُ . وَطَالَعَ كُتُبَ الْفَلَسَفَةِ وَشَدَّدَ
 فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِعْتِرَالِ . ثُمَّ جَاءَ الْجَاحِظُ وَالْكَعْبِيُّ وَالْجُبَابِيُّ .
 وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تُسَمَّى عِلْمَ الْكَلَامِ ؛ إِذَا لَمَّا فِيهَا مِنَ الْحِجَاجِ وَالْجِدَالِ . وَهُوَ الَّذِي
 يُسَمَّى كَلَاماً ؛ وَإِنَّمَا أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ نَفْيُ صِفَةِ الْكَلَامِ . فَلِهَذَا كَانَ الشَّافِعِيُّ
 يَقُولُ ؛ حَقُّهُمْ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَيُطَافَ بِهِمْ . وَقَرَّرَ هَؤُلَاءِ طَرِيقَتَهُمْ وَأُتْبِتُوا
 مِنْهَا وَرَدُّوا . إِلَى أَنْ ظَهَرَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ وَنَظَرَ بَعْضَ مَشِيخَتِهِمْ فِي
 مَسَائِلِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلِحِ ؛ فَرَفَضَ طَرِيقَتَهُمْ . وَكَانَ عَلَى رَأْيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْفَلَّاسِيِّ وَالْحَرِثِ ابْنِ أَسَدِ الْمُحَاسِنِيِّ مِنْ أَتْبَاعِ

السلف وعلى طريقة السنة . فأيد مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبتت الصفات
 لقائمة بذات الله تعالى ، من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع
 وتصحح المعجزات للأنبياء . وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر لأنها
 وإن أوهم ظاهراً النقص بالصوت والحرف الجسمانيين ، فقد وجد للكلام عند
 العرب مذلول آخر غير الحروف والصوت . وهو ما يدور في الخلد . والكلام حقيقة
 فيه دون الأول ؛ فثبتوها لله تعالى وانتفى إيهام النقص . وأثبتوا هذه الصفة قديماً
 عامة تتعلق بشأن الصفات الأخرى . وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بذات
 الله تعالى ، وهو الكلام النفسي والمحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقرورة
 بالأصوات . فإذا قيل قديم ، فالمراد الأول ؛ وإذا قيل مقرورة ، مسموع . فلذالة
 القراءة والكتابة عليه . وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث
 عليه . لأنه لم يسمع من السلف قبله . لا إنه يقول أن المصاحف المكتوبة
 قديمة ؛ ولا أن القراءة الجارية على السنة قديمة . وهو شاهدها محدثة . وإنما
 منعه من ذلك الورع الذي كان عليه . وأما غير ذلك فإنكاراً للضروريات . وحاشاه
 منه . وأما السمع والبصر . وإن كان يوهم إدراك الجارحة . فهو يدل أيضاً لغة على
 إدراك المسموع والمبصر . ويتنفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما .
 وأما لفظ الاستواء والمجيء والنزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك ،
 فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها . على
 طريقة العرب . حيث تتعدر حقائق الألفاظ . فيرجعون إلى المجاز . كما في قوله
 تعالى « يريد أن ينقض » وأمثاله . طريقة معروفة لهم غير منكورة ولا مبتدعة .
 وحملهم على هذا التأويل . وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التقييض أن جماعة
 من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتكبوا^(١) في محمل هذه
 الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى . مجهولة الكيفية . فيقولون في

(١) كذا . ومقتضى سياق العبارة : ارتكبوا .

« استوى على العرش » تثبت له استواء ، بحيث مدلول اللفظة ، فراراً من تعطيله . ولا تقول بكنيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب ، من قوله « ليس كمثله شيء » سبحانه الله عما يصفون ، تعالى الله عما يقول الظالمون . لم يلد ولم يولد » ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء ، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن ، وهو جسماني . وأما تعطيل الذي يشنعون بالزامه ، وهو تعطيل اللفظ ، فلا محذور فيه . وإنما المحذور في تعطيل الآلة . وكذلك يشنعون بالزام التكليف بما لا يطاق ، وهو تموية . لأن الشابة لم يقع في التكليف . ثم يدعون أن هذا مذهب السلف ، وحاشا لله من ذلك . وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها . وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك : « إن الاستواء معلوم الثبوت لله » وحاشاه من ذلك . لأنه يعلم مدلول الاستواء . وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة ، وهو الجسماني ، وكنيفيته أي حقيقته . لأن حقائق الصفات كلها كنيئات ، وهي مجهولة الثبوت لله . وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء . وأنها لما قال لها النبي ﷺ : أين الله ؟ وقالت في السماء . فقال اغتفها فإنها مؤمنة . والنبي ﷺ لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله ، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر ، أن الله في السماء ، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمشابه من غير كشف عن معناه . والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار . ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل « ليس كمثله شيء » وأشباهه . ومن قوله ، « وهو الله في السموات وفي الأرض » ، إذ الموجود لا يكون في مكانين . فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره . ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين ، والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني

مِنْهَا . وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ . وَقَدْ دَرَجَ عَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنْهُمُ
 وَنَافَرَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْحَنْفِيَّةَ . وَرَفَضُوا عَقَائِدَهُمْ فِي ذَلِكَ .
 وَوَقَعَ بَيْنَ مُتَكَلِّمِي الْحَنْفِيَّةِ بِبُخَارَى وَبَيْنَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ
 مَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَأَمَّا الْمَجَسَّمَةُ فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي إِثْبَاتِ الْجِسْمِيَّةِ . وَأَنَّهَا
 لَا كَالْأَجْسَامِ . وَلَفْظُ الْجِسْمِ لَهُ يَثْبُتُ فِي مَنْقُولِ الشَّرْعِيَّاتِ . وَإِنَّمَا جَرَّاهُمْ عَلَيْهِ
 إِثْبَاتُ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ ، فَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَيْهِ ، بَلْ تَوَعَّلَوْا وَأَثَبَتُوا الْجِسْمِيَّةَ ، يَزْعُمُونَ
 فِيهَا مِثْلَ ذَلِكَ وَيُنزِّهُونَهُ بِقَوْلِ مُتَنَاقِضِ سَفْسَافٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ ، « جِسْمٌ
 لَا كَالْأَجْسَامِ » . وَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْعَمِيقُ الْمَحْدُودُ وَغَيْرُ هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ
 أَنَّهُ الْقَائِمُ بِالذَّاتِ أَوْ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَاصْطِلَاحَاتٌ لِلْمُتَكَلِّمِينَ
 يُرِيدُونَ بِهَا غَيْرَ الْمَذْلُومِ اللَّغَوِيِّ . فَلِهَذَا كَانَ الْمَجَسَّمَةُ أَوْغَلَ فِي الْبِدْعَةِ بَلْ
 وَالْكَفْرِ . حَيْثُ أَثَبَتُوا لِلَّهِ وَضْعًا مُوهَمًا يُوهِمُ النِّقْضَ لَهُمْ يَرِدُ فِي كَلَامِهِ ، وَلَا كَلَامِ
 نَبِيِّهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَذَاهِبِ السُّلْفِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ السُّنِّيَّةِ وَالْمُحَدِّثِينَ
 وَالْمُبْتَدِعَةَ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْمَجَسَّمَةَ بِمَا أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ . وَفِي الْمُحَدِّثِينَ غَلَاةٌ يُسْمَوْنَ
 الْمُشَبَّهَةَ لِتَضْرِيحِهِمْ بِالتَّشْبِيهِ ، حَتَّى إِنَّهُ يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ ، ائْتَفُونِي مِنْ
 اللَّحْيَةِ وَالْفَرْجِ وَسَلُّوا عَمَّا بَدَأَ لَكُمْ مِنْ سِوَاهِمَا . وَإِنْ لَمْ يَتَأَوَّلْ ذَلِكَ لَهُمْ ، بِأَنَّهُمْ
 يُرِيدُونَ حَصْرَ مَا وَرَدَ مِنْ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ الْمُوهَمَةِ ، وَحَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ الْمُحْمَلِ الَّذِي
 لِأَيْمَتِهِمْ ، وَإِلَّا فَهُوَ كَفْرٌ صَرِيحٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَكُتِبَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَشْخُونَةً بِالْحِجَاجِ
 عَلَى هَذِهِ الْبِدْعِ ، وَبَسِطَ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِالْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ . وَإِنَّمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَلِكَ إِيمَاءً
 يَتَمَيَّزُ بِهِ فُضُولُ الْمَقَالَاتِ وَجَمَلُهَا . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ
 لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

وَأَمَّا الظُّوَاهِرُ الْحَقِيقَةُ الْأَدِلَّةُ وَالذَّلَالَةُ . كَالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ وَالْجِنِّ
 وَالْبُرْزَخِ وَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالذَّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُوطِ ، وَسَائِرُ مَا هُوَ مُتَعَدِّرٌ عَلَى الْفَهْمِ
 أَوْ مُخَالِفٌ لِلْعَادَاتِ ، فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَشْعَرِيَّةُ فِي تَفَاصِيلِهِ ، وَهُمْ

أَهْلُ السُّنَّةِ ، فَلَا تُشَابِهُ ، وَإِنْ قُلْنَا فِيهِ بِالتَّشَابِهِ ، فَلَنُوضِحَ الْقَوْلَ فِيهِ بِكَشْفِ
الْحِجَابِ عَنْهُ فَنَقُولُ ، إِنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَالَمَ الْبَشَرِيَّ أَشْرَفَ الْعَوَالِمِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ،
وَأَرْفَعَهَا ، وَهُوَ وَإِنْ اتَّحَدَتْ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ فَلَهُ أَطْوَارٌ يُخَالِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا
الْآخَرَ بِأَحْوَالٍ تَخْتَصُّ بِهِ حَتَّى كَأَنَّ الْحَقَائِقَ فِيهَا مُخْتَلِفَةً .

فَالطُّورُ الْأَوَّلُ ، عَالَمَةُ الْجِسْمَانِيَّاتِ بِحِسِّهِ الظَّاهِرِ وَفِكْرِهِ الْمَعَاشِيَّ وَسَائِرِ
تَصَرُّفَاتِهِ الَّتِي أُعْطَاهُ إِيَّاهَا وَجُودُهُ الْحَاضِرُ .

الطُّورُ الثَّانِي ، عَالَمُ النَّوْمِ ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْخَيَالِ بِإِنْفَادِ تَصَوُّرَاتِهِ جَائِلَةً فِي بَاطِنِهِ
فَيُذَكِّرُ مِنْهَا بِحَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الْأَزْمِنَةِ وَالْإِمْكِنَةِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ
الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَيُشَاهِدُهَا فِي إِمْكَانِ لَيْسَ هُوَ فِيهِ ، وَيُحَدِّثُ لِلصَّالِحِ مِنْهَا الْبَشَرِيَّ بِمَا
يَتَرَقَّبُ مِنْ مَسَرَّاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .
وَهَذَانِ الطُّورَانِ عَامَانِ فِي جَمِيعِ أَشْخَاصِ الْبَشَرِ ، وَهَمَا مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَدَارِكِ كَمَا
تَرَاهُ .

الطُّورُ الثَّلَاثُ ، طُّورُ النُّوَّةِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِإِشْرَافِ صُنْفِ الْبَشَرِ بِمَا خَصَّصَهُ اللَّهُ
بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَتَنْزِيلِ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ ، وَتَكْلِيفِهِمْ بِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ
فِي أَحْوَالِ كُلِّهَا مُعَايِرَةً لِلأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَةِ .

الطُّورُ الرَّابِعُ ، طُّورُ الْمَوْتِ الَّذِي تَفَارِقُ أَشْخَاصُ الْبَشَرِ فِيهِ حَيَاتَهُمُ الظَّاهِرَةَ
إِلَى وَجُودِ قَبْلِ الْقِيَامَةِ يُسَمَّى الْبُرْزَخَ يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ وَيَعْدُبُونَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ
يُفْضَلُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا فِي الْجَنَّةِ أَوْ
فِي النَّارِ .

وَالطُّورَانِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدُهُمَا وَجَدَانِيَّ ، وَالطُّورُ الثَّلَاثُ النَّبَوِيُّ شَاهِدُهُ
الْمُعْجَزَةُ وَالأَحْوَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالطُّورُ الرَّابِعُ شَاهِدُهُ مَا تَنْزَلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ
مِنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَعَادِ وَأَحْوَالِ الْبُرْزَخِ وَالْقِيَامَةِ ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي بِهِ ،

كَمَا نَبَّهَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ . فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْبُعْثَةِ . وَمِنْ أَوْضَحِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّتِهَا أَنَّ
أَشْخَاصَ الْإِنْسَانِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَجُودٌ آخَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرُ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ يَتَلَقَّى
فِيهِ أَحْوَالًا تَلِيْقُ بِهِ . لَكَانَ إِجَادَةُ الْأَوَّلِ عَبَثًا . إِذَ الْمَوْتُ إِذَا كَانَ عَدَمًا كَانَ مَالٌ
الشَّخْصِ إِلَى الْعَدَمِ . فَلَا يَكُونُ لَوْجُودِهِ الْأَوَّلِ حِكْمَةً . وَالْعَبَثُ عَلَى الْحَكِيمِ مُحَالٌ .
وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الْأَرْبَعَةُ . فَلِنَأْخُذْ فِي بَيَانِ مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ فِيهَا كَيْفَ
تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَيِّنًا يَكْشِفُ لَكَ عَوْرَ الْمَشَاهِيهِ . فَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ
فَوَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا . وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ^(١) » . فَهَيْهَذَا الْمَدَارِكُ يَسْتَوْلِي عَلَى
مَلَكَاتِ الْمَعَارِفِ وَيَسْتَكْمِلُ حَقِيقَةَ إِنْسَانِيَّةِ وَيُوفِي حَقَّ الْعِبَادَةِ الْمُفْضِيَّةِ بِهِ إِلَى
النَّجَاةِ .

وَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الثَّانِي . وَهُوَ طُورُ النَّوْمِ . فَهِيَ الْمَدَارِكُ الَّتِي فِي الْحِسِّ
الظَّاهِرِ بَعِيْنِهَا . لَكِنْ لَيْسَتْ فِي الْجَوَارِحِ كَمَا هِيَ فِي الْبِقَطَّةِ . لَكِنْ الرَّأْيُ يَتَيَقَّنُ
كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ فِي نَوْمِهِ لَا يَشْكُ فِيهِ وَلَا يَرْتَابُ . مَعَ خُلُوِّ الْجَوَارِحِ عَنِ الْإِسْتِعْمَالِ
الْعَادِي لَهَا . وَالنَّاسُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْحَالِ فَرِيقَانِ : الْحُكَمَاءُ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الصُّورَ
الْخَيَالِيَّةَ يَدْفَعُهَا الْخَيَالُ بِحَرَكَةِ الْفِكْرِ إِلَى الْحِسِّ الْمَشْتَرِكِ الَّذِي هُوَ الْفَضْلُ
الْمَشْتَرِكُ بَيْنَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ وَالْحِسِّ الْبَاطِنِ . فَتَصَوَّرُ مَحْسُوسَهُ بِالظَّاهِرِ فِي
الْحَوَاسِّ كُلِّهَا . وَيُشَكِّلُ عَلَيْهِمْ هَذَا بِأَنَّ الْمَرَائِي الصَّادِقَةَ الَّتِي هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ
مِنَ الْمَلِكِ أَثْبَتَ وَأَرْسَخَ فِي الْإِدْرَاكِ مِنَ الْمَرَائِي الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ . مَعَ أَنَّ الْخَيَالِ
فِيهَا عَلَى مَا قَرَّرُوهُ وَاحِدٌ .

الْفَرِيقُ الثَّانِي : الْمُتَكَلِّمُونَ . أَجْمَلُوا فِيهَا الْقَوْلَ . وَقَالُوا : هُوَ إِدْرَاكِ يَخْلُقُهُ
اللَّهُ فِي الْحَاسَةِ فَيَقَعُ كَمَا يَقَعُ فِي الْبِقَطَّةِ . وَهَذَا الْيَقِينُ . وَإِنْ كُنَّا لَا نَتَصَوَّرُ كَيْفِيَّتِهِ .

(١) آية ٧٨ من سورة النحل .

وَهَذَا الْإِدْرَاكُ النَّوْمِيُّ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى مَا يَتَعَبَقُ بَعْدَهُ مِنَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ فِي الْأَطْوَارِ .

وَأَمَّا الطَّوْرُ الثَّلَاثُ . وَهُوَ طَوْرُ الْأَنْبِيَاءِ . فَالْمَدَارِكُ الْحِسِّيَّةُ فِيهَا مَجْهُولَةٌ الْكَيْفِيَّةُ عِنْدَ وَجْدَانِيَّتِهِ عِنْدَهُمْ بِأَوْضَحٍ مِنَ الْيَقِينِ . فَيَرَى النَّبِيُّ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ . وَيَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنْهُ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَيَرَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ . وَالْعَرْشَ وَالْكَرْسِيَّ . وَيَخْتَرِقُ السَّمَوَاتِ السَّنْعَ فِي إِسْرَائِيهِ وَيَرْكَبُ الْبِرَاقَ فِيهَا . وَيُلْقَى النَّبِيِّنَ هُنَالِكَ . وَيُصَلِّيَ بِهِمْ . وَيَذَرُكَ أَنْوَاعَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ . كَمَا يَذَرُكَ فِي طَوْرِهِ الْجِسْمَانِيِّ وَالنَّوْمِيِّ . يَعْلَمُ ضَرُورِيَّ تَخْلُقَهُ اللَّهُ لَهُ . لَا بِالْإِدْرَاكِ الْعَادِيِّ لِلْبَشَرِ فِي الْجَوَارِحِ . وَلَا يَلْتَفِتُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا مِنْ تَنْزِيلِهِ أَمْرَ النَّبُوءَةِ عَلَى أَمْرِ النَّوْمِ فِي دَفْعِ الْخَيَالِ صَوْرَةَ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ هُنَا أَشَدُّ مِنَ الْكَلَامِ فِي النَّوْمِ . لِأَنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ طَبِيعَةً وَاحِدَةً كَمَا قَرَّرْنَا . فَيَكُونُ عَلَى هَذَا حَقِيقَةُ الْوَحْيِ وَالرُّؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ وَاحِدَةً فِي يَقِينِهَا وَحَقِيقَتِهَا . وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ عَلَى مَا عَلِمْتَ مِنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَأَنَّهَا كَانَتْ بِمُدَّةِ الْوَحْيِ وَمَقْدَمَتِهِ . وَيَشْعُرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ رُؤْيَةٌ^(١) فِي الْحَقِيقَةِ . وَكَذَلِكَ خَالَ الْوَحْيِ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ كَانَ يَضَعُبُ عَلَيْهِ وَيَقَاسِي مِنْهُ شِدَّةً كَمَا هِيَ فِي الصَّحِيحِ . حَتَّى كَانَ الْقُرْآنُ يَنْزَلُ عَلَيْهِ آيَاتٍ مُقَطَّعَاتٍ . وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَ عَلَيْهِ (بَرَاءَةٌ)^(٢) فِي غَزْوَةِ (تَبُوكِ) جُمْلَةً وَاحِدَةً . وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ . فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَنْزِيلِ الْفِكْرِ إِلَى الْخَيَالِ فَقَطْ . وَمِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ . لَمْ يَكُنْ يَبِينُ هَذِهِ الْحَالَاتِ فَرْقًا . وَأَمَّا الطَّوْرُ الرَّابِعُ . وَهُوَ طَوْرُ الْأَمْوَاتِ فِي بَرَزَخِهِمُ الَّذِي أَوْلَهُ الْقَبْرِ . وَهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْبَدَنِ . أَوْ فِي بَعْثِهِمْ عِنْدَمَا يَرْجَعُونَ إِلَى الْأَجْسَامِ . فَمَدَارِكُهُمُ الْحِسِّيَّةُ مَوْجُودَةٌ . فَيَرَى الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ الْمَلَكَانِ يَسْأَلَانِيهِ . وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بِعَيْنِي رَأْسِهِ .

(١) كَذَا . وَفِي نَسْخَةٍ : دُونَهُ .

(٢) هِيَ السُّورَةُ التَّاسِعَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَهِيَ سُورَةُ (التَّوْبَةِ) .

وَيَرَى شُهُودَ الْجَنَازَةِ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَخَفَقَ نَعَالَهُمْ فِي الْإِنْصِرَافِ عَنْهُ ، وَيَسْمَعُ مَا يَذْكُرُونَهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ مِنَ تَقْرِيرِ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى قَلْبِ بَدْرٍ^(١) ، وَفِيهِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَنَادَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ . فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَتُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْجَيْفِ ؟ فَقَالَ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ . مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعُ مِنْهُمْ لِمَا أَقُولُ . ثُمَّ فِي الْبُعْثَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَايِنُونَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ - كَمَا كَانُوا يُعَايِنُونَ فِي الْحَيَاةِ - مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَعَذَابِ النَّارِ عَلَى مَرَاتِبِهِ . وَيَرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيَرُونَ رَبَّهُمْ . كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ : إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ . وَهَذِهِ الْمَدَارِكُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ حَسِيَّةٌ مِثْلَهَا . وَتَقَعُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ كَمَا قُلْنَا . وَسِرَّ هَذَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ تَنْشَأُ بِالْبَدَنِ وَبِمَدَارِكِهِ ، فَإِذَا فَارَقَتْ الْبَدْنَ بِنَوْمٍ أَوْ بِمَوْتٍ أَوْ صَارَ النَّبِيُّ حَالَةَ الْوَحْيِ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَائِكِيَّةِ ، فَقَدْ اسْتَضَبَّحَتْ مَا كَانَ مَعَهَا مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الْجَوَارِحِ ، فَيَذْرُكُ بِهَا فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ أَيَّ إِذْرَاكِ شَاءَتْ مِنْهَا ، أَرْفَعُ مِنْ إِذْرَاكِهَا ، وَهِيَ فِي الْجَسَدِ . قَالَهُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ صُورَةً تَبْقَى لَهَا ، بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ فِيهَا الْعَيْنَانِ وَالْأَذْنَانِ وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ الْمُدْرَكَةِ أَمْثَالًا لَهَا . كَانِ فِي الْبَدَنِ وَصُورًا .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّمَا يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَلَكَاتِ الْخَاصِلَةِ مِنْ تَضْرِيْفِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فِي بَدَنِهَا زِيَادَةً عَلَى الْإِذْرَاكِ . فَإِذَا تَفَطَّطَتْ لِهَذَا كُلِّهِ عَلِمَتْ أَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكِ مَوْجُودَةٌ فِي الْأَطْوَارِ الْأَرْبَعَةِ ، لَكِنْ لَيْسَ عَلَى مَا كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا هِيَ تَخْتَلِفُ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ بِحَسَبِ مَا يُعْرَضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ . وَيُشِيرُ الْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى ذَلِكَ إِشَارَةً مُجْمَلَةً بِأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ فِيهَا عِلْمًا ضَرُورِيًّا بِتِلْكَ الْمَدَارِكِ ، أَيَّ

(١) كان ذلك أثر انتهاء وقعة بدر الكبرى التي أظهر الله بها دين الإسلام على المشركين . انظر ابن

خلدون ط دار الكتاب اللبناني - بيروت م ٣ ص ٧٤٤ - ٧٤٦ .

مَدْرِكُ كَانَ . وَيَعْتُونَ بِهِ هَذَا الْقَدْرَ الَّذِي أَوْضَحْنَاهُ . وَهَذِهِ نُبْذَةٌ أَوْمَانًا بِهَا إِلَى مَا يُوضِحُ الْقَوْلَ فِي الْمُتَشَابِهِ . وَلَوْ أَوْسَعْنَا الْكَلَامَ فِيهِ لَقَصْرَتِ الْمَدَارِكُ عَنْهُ . فَلَنَفْرَعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْهَدَايَةِ وَالْفَهْمِ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَكِتَابِهِ . بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْحَقُّ فِي تَوْحِيدِنَا . وَالظَّفَرُ بِنَجَاتِنَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

الفصل السابع عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِلَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةً الْحَقِّ وَالْهَدَايَةِ وَأَصْلَهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنِ زُخْرِفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا . وَالزُّهْدُ فِيمَا يُقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْفِرَادُ عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخُلُوةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ . فَلَمَّا فَشَا الْإِقْبَالُ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ عَلَى الْعِبَادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَّصِفَةِ . وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْإِسْمِ اشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ . وَمِنْ قَالَ اشْتِقَاقَهُ مِنَ الصَّفَاءِ أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ . قَالَ : وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَصُّوا بِلَبْسِهِ . قُلْتُ : وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْعَالَمِ مُخْتَصُّونَ بِلَبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لَبْسِ فَأَخِرِ الثِّيَابِ إِلَى لَبْسِ الصُّوفِ فَلَمَّا اخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبِ الزُّهْدِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصُّوا بِمَا خَذَ مَدْرَكَةَ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَ بِالْإِذْرَاقِ وَالْإِذْرَاقُ نَوْعَانِ : إِذْرَاقٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالْوَهْمِ وَإِذْرَاقٌ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقُبْضِ

وَالْبَسْطُ وَالرِّضَى وَالنَّفْسَ وَالصَّبْرَ وَالشُّكْرَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . فَالرَّوْحُ الْعَاقِلُ
وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنْشَأُ^(١) مِنْ إِذْرَاكَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأُحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا
الْإِنْسَانَ . وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْفَرْحُ وَالْحُزْنُ عَنْ
إِذْرَاكِ الْمَوْلِمِ أَوْ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ . وَكَذَلِكَ
الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ
الْمُجَاهَدَةِ . وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسُخُ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا
أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا تَكُونَ صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ
كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَامَاتِ . وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلسَّعَادَةِ . قَالَ ﷺ
« مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فَالْمُرِيدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرَقِّيِ فِي
هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلَهَا كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا . وَتَنْشَأُ
عَنْهَا الْأُحْوَالُ وَالصِّفَاتُ نَتَائِجٌ وَثَمَرَاتٌ . ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ
التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ . وَإِذَا وَقَعَ تَقْصِيرٌ فِي النَّبِيحَةِ أَوْ خَلَلَ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا آتَى مِنْ قِبَلِ
التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ . وَكَذَلِكَ فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ . فَلِهَذَا
يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ
النَّتَائِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرْوَرِيٌّ وَقُصُورُهَا مِنَ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ . وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ
بِنُذُوقِهِ وَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ . وَلَا يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ
الْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَتْهَا شَامِلَةً . وَغَايَةُ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوعِ أَنَّهُمْ
يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفَقِيهِ فِي الْأَجْزَاءِ وَالْإِمْتِنَانِ . وَهَؤُلَاءِ يَبْتَخِثُونَ
عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيَطَّلِعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ لَا . فَظَهَرَ
أَنَّ أَضْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالتَّرُوكِ وَالكَلَامِ فِي هَذِهِ
الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْضُلُ عَنِ الْمُجَاهَدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ مَقَامًا يَتَرَقَّى مِنْهَا

(١) وفي النسخة الباريسية : فالعنى العاقل والتصرف في البدن ينشأ .

إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واضطلاحات في ألفاظ تدور بينهم
إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة . فإذا عرّض من المعاني ما هو غير
متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه . فلهذا اختص هؤلاء
بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه . وصار
علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام
الغائمة في العبادات والعادات والمعاملات . وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه
المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأدواق والمواجد العارضة في طريقها
وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في
ذلك . فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير
وغير ذلك . كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع
ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والتترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة
والشهرزودي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم . وجمع الغزالي رحمه الله بين
الأمريين في كتاب الإخياء فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم
وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً
مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور
الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه
والأصول وغير ذلك . ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف
حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء
منها . والروح من تلك العوالم . وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس
الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه
وتجدد نشؤه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو
وتزويد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً . ويكشف حجاب الحس . ويتم
وجود النفس الذي لها من ذاتها . وهو عين الإدراك . فيتعرض حينئذ للمواهب

الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ وَالْفَتْحِ الْإِلَهِيِّ وَتَقَرَّبَ ذَاتُهُ فِي تَحْقِيقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْقِ
الْأَعْلَى أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ . وَهَذَا الْكُشْفُ كَثِيراً مَا يَعْزِضُ لِأَهْلِ الْمَجَاهِدَةِ فَيَذَرُكَونَ مِنْ
حَقَائِقِ الْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذَلِكَ يُذَرُكَونَ كَثِيراً مِنَ الْوَأَقَاعَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا
وَيَتَصَرَّفُونَ بِهَمِّهِمْ وَقُوَى نَفْسِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طُوعَ إِرَادَتِهِمْ .
فَالْعُظْمَاءُ مِنْهُمْ لَا يَغْتَبِرُونَ هَذَا الْكُشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ
شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالتَّكَلِّمِ فِيهِ بَلْ يَعُدُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَحْنَةً وَيَتَعَوَّدُونَ مِنْهُ
إِذَا هَاجَمَهُمْ . وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَاهِدَةِ وَكَانَ
حَظُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ أَوْفَرَ الْحُظُوظِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ . وَفِي فَضَائِلِ
أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيراً مِنْهَا . وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ
الطَّرِيقَةِ مِمَّنْ اشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ الْقَشِيرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبَعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ تَعْبِهِمْ .
ثُمَّ إِنَّ قَوْماً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ انْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كُشْفِ الْحِجَابِ وَالْكَلامِ فِي
الْمَدَارِكِ الَّتِي وَرَاءَهُ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُ الرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي
إِمَاتَةِ الْقُوَى الْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ الرُّوحِ الْعَاقِلِ بِالذِّكْرِ حَتَّى يَحْضَلَ لِلنَّفْسِ إِذْرَاكُهَا
الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نَشْوَتِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ قَدْ
انْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا جَيْبِيذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ الْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنْ
الْعَرْشِ إِلَى الطُّشِّ . هَكَذَا قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ
صُورَةَ الرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكُشْفَ لَا يَكُونُ صَاحِباً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ
نَاشِئاً عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ لِأَنَّ الْكُشْفَ قَدْ يَحْضُلُ لِصَاحِبِ الْجُوعِ وَالْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
هُنَاكَ اسْتِقَامَةٌ كَالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُرتَاضِينَ . وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا الْكُشْفَ
النَّاشِئَ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ الْمِرْآةَ الصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مَقْعَرَةً وَحُدُودِي
بِهَا جِهَةٌ الْمَرْتَبِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مَعْوِجاً عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ . وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً
تَشَكَّلُ فِيهَا الْمَرْتَبِيُّ صَاحِباً . فَالْإِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَالْإِنْسِاطِ لِلْمِرْآةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ
فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمَّا عَنِيَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْكُشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ

الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكُرسي وأمثال ذلك . وقصرت مدارك من لم يُشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجهتهم في ذلك . وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم . وليس البرهان والدليل ينافع في هذا الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات .

تفصيل وتحقيق ، يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء الحديث والفقه أن الله تعالى مبين لمخلوقاته . ويقع للمتكلمين أنه لا مبين ولا متصل . ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه . ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ، أو بمعنى أنه هو عينها ، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً . فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها ، حتى تتضح معانيها فنقول ، إن المبانيئة تقال لمعنيين :

أحدهما المبانيئة في الحيز والجهة ، ويقال به الإتصال . ونشعر هذه المقابلة على هذه التقييد بالمكان إما صريحاً وهو تجسيم ، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة . وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المبانيئة ، فيحتمل غير هذا المعنى . ومن أجل ذلك أنكروا المتكلمون هذه المبانيئة وقالوا ، لا يقال في الباري أنه مبين لمخلوقاته ، ولا متصل بها ، لأن ذلك إنما يكون للمتخيزات . وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الإتصاف بالمعنى وضده ، فهو مشروط بصحة الإتصاف أولاً ، وأما مع امتناعه فلا . بل يجوز الخلو عن المعنى وضده ، كما يقال في الجماد ، لا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي . وصحة الإتصاف بهذه المبانيئة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها . والباريء سبحانه منزّه عن ذلك . ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال : « ولا يقال في الباري مبين للعالم ولا متصل به ، ولا داخل فيه ولا خارج عنه . وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه . بناء على وجود الجواهر غير المتخيزة . وأنكرها

الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ مُسَاوَاتِنَهَا لِلْبَارِيءِ فِي أَحْصِ الصِّفَاتِ . وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي عِلْمِ
الْكَلَامِ .

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ لِلْمُبَايَنَةِ ، فَهُوَ الْمُعَايِرَةُ وَالْمُخَالَفَةُ فَيُقَالُ : الْبَارِيءُ مَبَايِنٌ
لِمَخْلُوقَاتِهِ فِي ذَاتِهِ وَهُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَيُقَابِلُهُ الْإِتْحَادُ وَالْإِمْتِزَاجُ
وَالْإِخْتِلَاطُ . وَهَذِهِ الْمُبَايَنَةُ هِيَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ كُلِّهِمْ مِنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ
الشَّرَائِعِ وَالْمُبْتَكَلِمِينَ وَالْمُتَصَوِّفَةَ الْأَقْدَمِينَ كَأَهْلِ الرِّسَالَةِ وَمَنْ نَحَا مِنْحَاهُمْ . وَذَهَبَ
جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ صَيَّرُوا الْمَدَارِكَ الْوُجْدَانِيَّةَ عِلْمِيَّةً نَظْرِيَّةً ،
إِلَى أَنَّ الْبَارِيءَ تَعَالَى مُتَّحِدًا بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي هُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَرُبَّمَا زَعَمُوا أَنَّهُ
مَذْهَبُ الْفَلَاسِفَةِ قَبْلَ أَرِسْطُو ، مِثْلَ أَفْلَاطُونِ وَسُقْرَاطِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقِينُهُ
الْمُتَكَلِّمُونَ حَيْثُ يَنْقَلِبُونَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ عَنِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَيُحَاوِلُونَ الرَّدَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
ذَاتَانِ ، تَتَنَفَّى إِحْدَاهُمَا ، أَوْ تَنْدَرِجُ أُخْرَى فِي الْجُزْءِ ، فَإِنَّ تِلْكَ مُعَايِرَةٌ صَرِيحَةٌ ، وَلَا
يَقُولُونَ بِذَلِكَ . وَهَذَا الْإِتْحَادُ هُوَ الْحُلُولُ الَّذِي تَدْعِيهِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، وَهُوَ أَعْرَبُ لِأَنَّهُ حُلُولٌ قَدِيمٌ فِي مُحَدِّثٍ أَوْ اتِّحَادُهُ بِهِ . وَهُوَ أَيْضًا عَيْنُ
مَا تَقُولُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي الْأَيْمَةِ . وَتَقْرِيرُ هَذَا الْإِتْحَادِ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى
طَرِيقَيْنِ :

الْأَوَّلَى ، أَنَّ ذَاتَ الْقَدِيمِ كَائِنَةٌ فِي الْمُحَدِّثَاتِ مَحْسُوسِيَّاتٍ وَمَعْقُولِيَّاتٍ ، مُتَّحِدَةٌ بِهَا
فِي الْمُتَصَوِّرِينَ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَظَاهِرٌ لَهُ ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَيْهَا ، أَيْ الْمَقْدَمُ لِوُجُودِهَا ،
بِمَعْنَى لَوْلَاهُ كَانَتْ عَدَمًا وَهُوَ رَأَى أَهْلَ الْحُلُولِ .

الثَّانِيَّةُ ، طَرِيقُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ وَكَانَتْهُمْ اسْتَشْعَرُوا مِنْ تَقْرِيرِ أَهْلِ
الْحُلُولِ الْغَيْرِيَّةِ الْمُنَافِيَّةِ لِمَعْقُولِ الْإِتْحَادِ ، فَتَفَوَّهَا بَيْنَ الْقَدِيمِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي
الذَّاتِ وَالْوُجُودِ وَالصِّفَاتِ . وَغَالَطُوا فِي غَيْرِيَّةِ الْمَظَاهِرِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ
بِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهِيَ أَوْهَامٌ . وَلَا يُرِيدُونَ الْوَهْمَ الَّذِي هُوَ قَسِيمُ
الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنَّهَا كُلُّهَا عَدَمٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَوُجُودٌ فِي الْمُدْرَكِ

البشري فقط . ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم . لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقره بعد ، بحسب الإمكان . والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال ، كما في المدارك البشرية ، غير مفيد ، لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية ، وإنما هي حاصلة للإنبياء بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدائيتهم . وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال . وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض .

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوجودانية التي هي مظهر^(١) الأحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير . ويسمون هذا الصدور بالتجلي . وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه ، « كنت كنزاً مخفياً فأخبئت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني » وهذا الكمال في الإيجاد المنتزل^(٢) في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية^(٣) والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكامل من أهل الملة المحمدية . وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية . ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك . ثم عالم العناصر . ثم عالم التركيب . هذا في عالم الرثق فإذا تجلت فهي

(١) وفي النسخة الباريسية ، مصدر .

(٢) وفي نسخة أخرى ، المشترك .

(٣) وفي نسخة أخرى ، والحضرة العمادية وفي النسخة الباريسية ، والحضرة العمانية .

فِي عَالَمِ الْفَتْقِ . وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبَ أَهْلِ التَّجَلِّي وَالْمُظَاهِرِ وَالْحَضْرَاتِ
 وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ^(١) أَهْلَ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُوضِهِ وَإِنْفِلَاقِهِ وَبَعْدَ
 مَا نَبَّيْنَا كَلَامَ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ^(٢) وَالْوَجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ . وَرَبُّمَا أَنْكَرَ
 بِظَاهِرِ الشَّرْعِ . هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
 الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيٌ أَغْرَبٌ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعْقِلِهِ وَتَفَارِيعِهِ . يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ
 قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادِّهَا . وَالْعُنَاصِرُ إِنَّمَا
 كَانَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَاذَتْهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وَجُودُهَا . ثُمَّ إِنَّ
 الْمُرَكَّبَاتِ فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ . كَالْقُوَّةِ
 الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى الْعُنَاصِرِ بِهَيُولَاهَا وَزِيَادَةُ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ
 تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ وَزِيَادَةُ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ
 الْفَلَكَ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ . وَكَذَا الدُّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَامِعَةُ
 لِلْكَلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي انْبَثَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّئِهَا
 وَجُزْئِيَّةٌ وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ . لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ
 الْخِفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكَلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الدَّاتِ
 الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ وَالْإِعْتِبَارُ هُوَ الْمَفْصَلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ
 الْحَيَوَانِيَّةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ بِكُونِهَا . فَتَارَةٌ يُمَثِّلُونَهَا بِالْجِنْسِ مَعَ
 النَّوعِ . فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَا وَتَارَةٌ بِالْكَلِّ مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ . وَهُمْ
 فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكَثْرَةِ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمْ
 الْوَهْمُ وَالْخِيَالُ . وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّ
 حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَبِيهَةٌ بِمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وَجُودَهَا
 مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا غَدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً بِوَجْهِ . وَكَذَا عِنْدَهُمْ
 الْمَوْجُودَاتُ الْمَحْسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْجِسِيِّ . بَلْ وَالْمَوْجُودَاتُ

(١) وفي نسخة أخرى : يقدر .

(٢) وفي النسخة الباريبة ، صاحب المشاهد .

الْمُعْقُولَةُ وَالْمُتَوَهِّمَةُ أَيْضاً مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْعَقْلِيِّ فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْضَلُ
 كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ . فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ
 يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ وَاللِّينُ بَلْ
 وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ . إِنَّمَا وَجَدَتْ لَوْجُودِ الْحَوَاسِّ الْمُدْرِكَةِ
 لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمُدْرِكِ
 فَقَطْ فَإِذَا قَدِّمْتَ الْمُدْرِكَ الْمَفْضَلَةَ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِذْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَا
 لَا غَيْرُهُ . وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَدَّمَ الْحِسَّ الظَّاهِرَ فَقَدَّ كُلَّ
 مَحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يُفْضَلُهُ لَهُ الْخَيَالُ . قَالُوا ، فَكَذَا الْيَقِظَانُ إِنَّمَا
 يَعْتَبِرُ تِلْكَ الْمُدْرَكَاتِ كُلَّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قَدَّرَ فَقَدَّ مُدْرِكِهِ
 فَقَدَّ التَّفْصِيلَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمُوهَّمُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُدْرِكِ
 الْبَشَرِيِّ . هَذَا مُلْخَصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ
 السُّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ يَبْقِينَا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ
 أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمُظْلَمَةِ وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا . وَالْإِنْسَانُ
 قَاطِعٌ بِذَلِكَ وَلَا يَكْبِيرُ أَحَدٌ نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُصَوِّفَةِ
 الْمُتَأَخَّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ الْكَشْفِ رَبِّمَا يَعْضُ لَهُ تَوْهْمٌ هَذِهِ الْوَحْدَةِ
 وَيُسَمَّى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ
 وَيَعْبُرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفُرْقِ وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِ الْمُحَقِّقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ
 مِنْ عَقِيَّةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقِيَّةٌ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وَقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخَسَّرُ
 صَفَقَتَهُ فَقَدَّ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخَّرِينَ مِنَ الْمُصَوِّفَةِ
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكَشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ تَوَعَّلَوْا فِي ذَلِكَ فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى
 الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَمَلَأُوا الصُّحُفَ مِنْهُ مِثْلَ النَّهْرِيِّ فِي كِتَابِ
 الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرِهِ . وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ سَبْعِينَ وَتَلْمِيزُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ
 وَابْنُ الْفَارِضِ وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قِصَائِدِهِمْ . وَكَانَ سَلَفُهُمْ مُخَالِطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ الدَّائِنِينَ أَيْضاً بِالْحُلُولِ وَالْهَيْبَةِ الْأَيْمَةِ مِنْهُباً لَمْ يُعْرِفْ
 لِأَوْلَاهُمْ فَأَشْرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ . وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُمْ وَتَشَابَهَتْ
 عَقَائِدُهُمْ . وَظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقَطْبِ وَمَعْنَاهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ .
 يَزْعَمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبِضَهُ اللَّهُ . ثُمَّ
 يُورِثُ مَقَامَهُ لِآخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ
 الْإِشَارَاتِ فِي فَضُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا فَقَالَ : « جُلُّ جَنَابِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شِرْعَةً لِكُلِّ
 وَارِدٍ أَوْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ » . وَهَذَا كَلَامٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ .
 وَلَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطَايَا وَهُوَ بَعِيْنُهُ مَا تَقُولُهُ الرَّافِضَةُ وَدَانُوا
 بِهِ . ثُمَّ قَالُوا بِتَرْتِيبِ وَجُودِ الْإِبْدَالِ بَعْدَ هَذَا الْقَطْبِ كَمَا قَالَهُ الشَّيْعَةُ فِي النُّقْبَاءِ .
 حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا أَسْنَدُوا لِنَبَسِ خِرْقَةِ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَضْلاً لَطَرِيقَتِهِمْ وَنَحْلَتِهِمْ رَفَعُوهُ
 إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً . وَالْأَفْعَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ
 يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِتَخْلِيَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لِنَبَسٍ وَلَا حَالٍ . بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
 وَعَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَزْهَدَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَكْثَرَهُمْ عِبَادَةً . وَلَمْ
 يُخْتَصَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثِّرُ عَنْهُ فِي الْخُصُوصِ بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ
 أَسْوَةً فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْمُجَاهَدَةِ .

تَشْهَدُ بِذَلِكَ سَيْرُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ . نَعَمْ إِنْ الشَّيْعَةُ يُخَيَّلُونَ بِمَا يَنْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ
 اخْتِصَاصَ عَلِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِالْفَضَائِلِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ذَهَاباً مَعَ
 عَقَائِدِ الشَّيْعِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ . وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْمُتَصَوِّفَةَ بِالْعِرَاقِ . لَمَّا ظَهَرَتْ
 الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ . وَظَهَرَ كَلَامُهُمْ فِي الْإِمَامَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ .
 فَاقْتَبَسُوا مِنْ ذَلِكَ الْمُوزَانَةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَجَعَلُوا الْإِمَامَةَ لِسَيَانَةِ الْخَلْفِ فِي
 الْإِنْتِقَادِ إِلَى الشَّرْعِ . وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَقَعَ اخْتِلَافٌ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرْعِ . ثُمَّ
 جَعَلُوا الْقَطْبَ لِتَعْلِيمِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ . وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ تَشْبِيهاً
 بِالْإِمَامِ فِي الظَّاهِرِ وَأَنْ يَكُونَ عَلَى وَرَائِهِ فِي الْبَاطِنِ وَسَمُوهُ قُطْباً لِمَدَارِ الْمَعْرِفَةِ

عَلَيْهِ ، وَجَعَلُوا الْأَبْدَالَ كَالنَّقَبَاءِ مُبَالِغَةً فِي التَّشْبِيهِ فَتَأْمَلْ ذَلِكَ .

يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ هَوْلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا شَخَّنُوا كُتُبَهُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِسَلَفِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِيهِ كَلَامٌ بِنَفْيِ أَوْ إِثْبَاتٍ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُودٌ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .

تَذْيِيلٌ . وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُجْلِبَ هُنَا فَضْلاً مِنْ كَلَامِ شَيْخِنَا الْعَارِفِ كَبِيرِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ ، أَبِي مَهْدِي عَيْسَى بْنِ الزِّيَاتِ كَانَ يَقَعُّ لَهُ أَكْثَرُ الْأَوْقَاتِ عَلَى أُبْيَاتِ الْهَرَوِيِّ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ تُوهِمُ الْقَوْلَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ أَوْ يَكَادُ يُصْرِحُ بِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ :

مَا وَحَدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَدَهُ جَاحِدٌ
تَوْحِيدٌ مَنْ يُنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ تَشْبِيهًُ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِثْبَاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِأَحَدٍ

فَيَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْعُدْرَةِ : « اسْتَشْكَلَ النَّاسُ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْجُمُودِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَحَدَ الْوَاحِدَ وَلَفْظِ الْإِلْحَادِ عَلَى مَنْ نَعْتَهُ وَوَصَفَهُ . وَاسْتَبَشَّرُوا هَذِهِ الْأُبْيَاتِ وَحَمَلُوا قَائِلَهَا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَخَفُّوهُ . وَنَحْنُ نَقُولُ عَلَى رَأْيِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنَّ مَعْنَى التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ بِشُبُوتِ عَيْنِ الْقِدَمِ وَأَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنِّيَّةٌ وَاحِدَةٌ . وَقَدْ قَالَ أَبُو سَعِيدِ الْجَزَارِيُّ مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ ، الْحَقُّ عَيْنٌ مَا ظَهَرَ وَعَيْنٌ مَا بَطَّنَ . وَيُرْوَنُ أَنَّ وَقُوعَ التَّعَدُّدِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَجُودَ الْاِثْنَيْتِيَّةِ . وَهُمْ بِإِعْتِبَارِ حَضْرَاتِ الْحِسِّ بِمَنْزِلَةِ صُورِ الضَّلَالِ وَالصِّدَا وَالْمَرْأَى . وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَى عَيْنِ الْقِدَمِ ، إِذَا اسْتَشْبَحَ فَهُوَ عَدَمٌ . وَهَذَا مَعْنَى : كَانَ اللَّهُ ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ كَانَ عِنْدَهُمْ . وَمَعْنَى قَوْلِ كَبِيرِ الَّذِي صَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ ، « الْأَكْلُ شَيْءٌ ، مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » . قَالُوا ، فَمَنْ وَحَدَ وَنَعْتُ ، فَقَدْ قَالَ بِمَوْجِدٍ مُخَدَّبٍ ، هُوَ نَفْسُهُ ، وَتَوْحِيدٍ مُخَدَّبٍ هُوَ فِعْلُهُ ، مُوجُودٌ قَدِيمٌ ، هُوَ مَعْبُودٌ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ انْتِفَاءً عَنِ الْخُدُوثِ ، وَعَيْنُ الْخُدُوثِ ، الْآنَ ثَابِتَةٌ
 بَلْ مُتَعَدَّةٌ ، وَالتَّوْحِيدُ مَجْهُودٌ وَالدَّعْوَى كَادِبَةٌ ، كَمَنْ يَقُولُ لِغَيْرِهِ ، وَهَذَا مَعَا فِي
 بَيْتٍ وَاحِدٍ ، لَيْسَ فِي الْبَيْتِ غَيْرُكَ ، فَيَقُولُ الْآخَرُ بِلِسَانِ خَالِهِ ، لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا
 لَوْ عُدِمَتْ أَنْتَ ! وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي قَوْلِهِمْ : « خَلَقَ اللَّهُ الزَّمَانَ » هَذِهِ
 الْأَفَاطُ تَنَاقُضُ أَصُولَهَا لِأَنَّ خَلْقَ الزَّمَانِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الزَّمَانِ وَهُوَ فِعْلٌ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ
 فِي الزَّمَانِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَ ذَلِكَ ضَيْقُ الْعِبَارَةِ عَنِ الْحَقَائِقِ وَعَجْزُ اللَّغَاتِ عَنِ تَأْدِيَةِ
 الْحَقِّ فِيهَا وَبِهَا ، فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ الْمَوْحَدَ هُوَ الْمَوْحَدُ ، وَعَدَمَ مَا سِوَاهُ جُمْلَةً ، صَحَّ
 التَّوْحِيدُ حَقِيقَةً ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ « لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهَ » وَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ
 وَحَدَّ الْحَقُّ مَعَ بَقَاءِ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ : « حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ
 الْمُقْرَبِينَ » . لِأَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ التَّقْيِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالشَّفَعِيَّةِ ، وَمَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ
 الْجَمْعِ كَانَ فِي حَقِّهِ نَقْصًا ، مَعَ عِلْمِهِ بِمَرْتَبَتِهِ ، وَأَنَّهُ تَلَيْسَ تَسْتَلْزِمُهُ الْعُبُودِيَّةُ
 وَيَزِمُّهُ الشُّهُودُ وَيُطَهَّرُ مِنْ دَنَسِ خُدُوثِهِ عَيْنُ الْجَمْعِ ، وَأَعْرَقَ الْأَصْنَافِ فِي هَذَا
 الزَّرْعِ الْقَائِلُونَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَمَدَارُ الْمَعْرِفَةِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ إِلَى
 الْوَاحِدِ ، وَإِنَّمَا صَدَرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ النَّاطِقِ عَلَى سَبِيلِ التَّخْرِيطِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّفْطِينِ
 لِمَقَامِ أَعْلَى تَرْتَفَعُ فِيهِ الشَّفَعِيَّةُ وَيَحْضُلُ التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ عَيْنًا لَا خَطَابًا ، وَعِبَارَةٌ ،
 فَمَنْ سَلَّمَ اسْتِرَاحَ وَمَنْ نَارَعَتْهُ حَقِيقَةُ أَنْسَ بِقَوْلِهِ ، كُنْتُ سَمِعَهُ وَبَصَرَهُ ، وَإِذَا عَرَفْتَ
 الْمَعَانِي لَا مَشَاحَةَ فِي الْأَفَاطِ ، وَالَّذِي يُفِيدُهُ هَذَا كُلُّهُ تَحَقُّقُ أَمْرٍ فَوْقَ هَذَا الطَّوْرِ ،
 لَا نَطْقُ فِيهِ وَلَا خَبِرَ عَنْهُ ، وَهَذَا الْمَقْدَارُ مِنَ الْإِشَارَةِ كَافٍ ، وَالتَّعَمُّقُ فِي مِثْلِ هَذَا
 حِجَابٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ فِي الْمَقَالَاتِ الْمَعْرُوفَةِ ، اِنْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ أَبِي مَهْدِي
 الزِّيَّاتِ ، وَتَقَلَّتْهُ مِنْ كِتَابِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي الْمَحَبَّةِ ، وَسَمَّاهُ
 التَّعْرِيفُ بِالْحَبِّ الشَّرِيفِ ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ شَيْخِنَا أَبِي مَهْدِي مِرَارًا ، إِلَّا أَنِّي
 رَأَيْتُ رُسُومَ الْكِتَابِ أَوْعَى لَهُ ، لِطَوْلِ عَهْدِي بِهِ ، وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَتْيَا انْتَدَبُوا لِلرُّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ

المقالات وأمثالها وشملوا بالكبير سائر ما وقع لهم في الطريقة . والحق أن كلامهم
معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع : أحدها الكلام على المجاهدات وما
يخصل من الأدواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال لتخصل تلك الأدواق
التي تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه . وثانيها الكلام في الكشف
والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي
والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وترتيب
الألوان في صدورها عن موجودها وتكونها كما مر . وثالثها التصرفات في العوالم
والأكوان بأنواع الكرامات ، ورأيها الفاظ موهمة الطاهر صدرت من الكثيرين من
أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمُنكر
ومحسن ومتأول . فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يخلص من الأدواق
والمواجيد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فامر لا مدفع فيه
لأحد وأدواتهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة . وأما الكلام في كرامات
القوم وأخبارهم بالمعنيات وتصرفهم في الكائنات فامر صحيح غير منكر . وإن
مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق . وما احتج به الأستاذ أبو
إسحاق الإسفرائيني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد قرئ
المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق
ما جاء به . قالوا : ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة
المعجزة على الصديق عقلية فإن صفة نفسها التصديق . فلو وقعت مع الكاذب
لتبدلت صفة نفسها وهو محال . هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه
الكرامات وإنكارها نوع مكابرة . وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك
وهو معلوم مشهور . وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب
صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم وفقد
الوجدان عندهم بمنزلة عن أدواتهم فيه . واللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم

مِنْهُ لِأَنَّهَا لَمْ تَوْضَعْ إِلَّا لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ . فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَنْعَرِضَ
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَتْرُكُهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ
 الْكَلِمَاتِ عَلَى التَّوَجُّهِ الْمَوْافِقِ لظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً . وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ
 الْمُؤَهَّمَةُ الَّتِي يُعْبَرُونَ عَنْهَا بِالسُّطُوحَاتِ وَيُوَاحِدُهُمْ بِهَا أَهْلُ الشَّرْعِ فَاعْلَمْ أَنَّ
 الْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبِيَّةٍ عَنِ الْحِسِّ وَالْوَارِدَاتِ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى يَنْطَلِقُوا
 عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبِ الْغَيْبِيَّةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْمَجْبُورُ مَعْدُورٌ . فَمَنْ عَلِمَ
 مِنْهُمْ فَضْلَهُ وَاقْتِدَاؤَهُ حَمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ
 الْمُوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفَقْدَانِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ وَأَمْثَالِهِ . وَمَنْ لَمْ
 يَعْلَمْ فَضْلَهُ وَلَا اشْتَهَرَ فَمَوْأخَذٌ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَّبِعْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا
 عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ . وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ
 فَمَوْأخَذٌ أَيْضًا . وَلِهَذَا أَقْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكَابِرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْجِلَاحِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي
 حُضُورِهِ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَغْلَامُ الْمِلَّةِ
 الَّذِينَ أُشْرْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النَّوْعُ مِنَ
 الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُمْهُمُ الْإِتْبَاعُ وَالْإِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا . وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ
 أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفْرُونَ مِنْهُ وَيَرُونَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمَحَنِ وَأَنَّهُ
 إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ
 الْإِنْسَانِ . وَعَلَّمَ اللَّهُ أَوْسَعَ وَخَلَقَهُ أَكْبَرَ وَشَرِيعَتَهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكَ فَلَا يَنْطَلِقُونَ بِشَيْءٍ
 مِمَّا يُدْرِكُونَ . بَلْ حَظَرُوا الْخَوْضَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ
 أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ
 الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا . وَهَكَذَا
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن عشر

في علم تعبير الرؤيا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ الْعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا . وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلْفِ . وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ ^(١) وَالْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلِاِكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلَامِ الْمُعْتَبَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ . وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا . فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ ثَبُتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ . وَقَالَ ﷺ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » . وَقَالَ : « لَمْ يَنْتَقِ مِنَ الْمُنْشَرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ » . وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِيَ الصُّبْحَ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْفَتَلَ ^(٢) مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا ؟ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ . وَأَمَّا السَّبَبُ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُدْرَكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبُخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبَعَثُ مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ اللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي الشَّرْيَاطِينِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَيَبِ تَكْمُلُ أَعْمَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا . فَإِذَا أَدْرَكَهُ الْمَلَلُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي الْإِحْسَاسِ بِالْحَوَاسِ الْخَمْسِ وَتَضْرِيفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَعَشَى سَطَحَ الْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذَلِكَ لِمَعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا

(١) وفي النسخة الباريسية : في الملل والأمم .

(٢) وفي نسخة أخرى : انتقل .

وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب . ثم إن هذا الروح القلبي هو مطيئة للروح العاقل من الإنسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الإدراك . وإنما يمنع من تعلقه^(١) للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه . فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك . فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللاتية من عالمه . وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع به إلى بدنه . إذ هو ما دام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية . والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال . فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال . وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس إلى المقبول والخيال واسطة بينهما . ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي إلى الحسي . والخيال أيضاً واسطة . هذه حقيقة الرؤيا . ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الأحلام الكاذبة فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم . ولكن إن كانت تلك الصور مستنزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا . وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام .

واعلم أن للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصحتها وتشهد بصحتها فيستشعر

(١) وفي نسخة أخرى - تعلقه .

الرائي البشارة من الله مما ألقى إليه في نومه ، فمنها سرعة انتباه الرائي عندما
 يدرك الرؤيا ، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة ولو كان مستغرقاً في
 نومه ، لتقل ما ألقى عليه من ذلك الإدراك فيفر من تلك الحالة إلى حالة الحس
 التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه ، ومنها ثبوت ذلك الإدراك
 ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه ، فلا يتخللها سهو ولا نسيان .
 ولا يحتاج إلى إحصائها بالفكر والتذكر ، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه .
 ولا يغرب عنه شيء منها ، لأن الإدراك النفساني ليس بزمني ولا يلحقه
 ترتيب ، بل يدركه دفعة في زمن فرد . وأضعاف الأخلام زمانية ، لأنها في القوى
 الدماغية يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه . وأفعال
 البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر . ويعرض
 النسيان العارض للقوى الدماغية . وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست
 بزمانية ، ولا ترتيب فيها . وما ينطبع فيها من الإدراكات فينتطبع دفعة واحدة في
 أقرب من لمح البصر . وقد تبقى الرؤيا بعد الإنتباه حاضرة في الحفظ أياماً من
 العمر ، لا تشد بالعقلة عن الفكر بوجه إذا كان الإدراك الأول قوياً ، وإذا كان
 إنما يتذكر الرؤيا بعد الإنتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهية إليها ، وينسى
 الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة . وإنما هي من
 أضعاف الأخلام . وهذه العلامات من خواص الوحي . قال الله تعالى
 لَنبِيِّهِ ﷺ « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه
 فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في
 الصحيح . قال ﷺ « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » فلخواصها
 أيضاً نسبة إلى خواص النبوة ، بذلك القدر ، فلا تستبعد ذلك ، فهذا وجه الحق .
 والله الخالق لما يشاء .

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال

فَصُورُهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بَعْضُ الشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ
مَعْنَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ الْخَيَالُ بِصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ الْعِدَاوَةَ فَيُصَوِّرُهَا
الْخَيَالُ فِي صُورَةِ الْحَيَّةِ . فَإِذَا اسْتَيْقِظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوْ
الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمَعْبَرُ بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةٌ مَخْسُوسَةٌ وَأَنَّ
الْمُدْرَكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرَائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ الْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مَثَلًا : هُوَ
السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَنْسَابُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ
يَنْسَابُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعَظَمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهِنَّ أَوْعِيَةٌ
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَمِنَ الْمَرْتَبِيِّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لَجَلَابِئِهَا وَوُضُوحِهَا
أَوْ لِقَرَبِ الشَّبِيهِ ^(١) فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرَكَ وَشَبِيهِهِ . وَلِهَذَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ الرَّوْيَا ثَلَاثًا :
رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ . فَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ هِيَ
الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلِكِ هِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى
التَّعْبِيرِ ^(٢) وَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَيَالَ إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ
الرُّوحَ مُدْرَكَةً . فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنِ الْحِسُّ أَدْرَكَهُ
قَطُّ مِنَ الْقَوَالِبِ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ شَيْئًا فَلَا يُمْكِنُ مِنْ وُلْدِ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانَ
بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا
يُصَوِّرُ لَهُ الْخَيَالَ أَمْثَالَ هَذِهِ فِي شَبْهِهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَذَارِكِهِ الَّتِي هِيَ
الْمَشْمُوعَاتُ وَالْمَشْمُومَاتُ . وَلِيَتَحَفَّظَ الْمَعْبَرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَرُبَّمَا اخْتَلَطَ بِهِ التَّعْبِيرُ
وَفَسَدَ قَانُونُهُ . ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ التَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَانِينِ كَلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا الْمَعْبَرُ عِبَارَةَ
مَا يَقْضَى عَلَيْهِ . وَتَأْوِيلُهُ كَمَا يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ
يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْهَمِّ
وَالْأَمْرِ الْفَادِحِ . وَمِثْلُ مَا يَقُولُونَ : الْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْعَدُوِّ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ

(١) وفي نسخة أخرى : النسبة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : إلى تأويل .

يَقُولُونَ : هِيَ كَاتِبٌ سِرٌّ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : تَدُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ وَأَمثالُ ذَلِكَ . فَيَحْفَظُ الْمُعَبِّرُ هَذِهِ الْقَوَائِنَ الْكُلِّيَّةَ ، وَيُعَبِّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْقَرَائِنُ الَّتِي تَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَائِنِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِالرُّؤْيَا . وَتِلْكَ الْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي الْيَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي النَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمُعَبِّرِ بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السُّلْفِ . وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَيْرِينَ فِيهِ مِنْ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَائِنِ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَلْفَ الْكِرْمَانِيِّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَلْفَ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ وَأَكْثَرُوا . وَالْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْرَوَانِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَيْرَوَانِ مِثْلَ الْمُتَمِّعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ الْإِشَارَةِ لِلْسَّالِمِيِّ مِنْ أَنْفَعِ الْكُتُبِ فِيهِ وَأَخْضَرَهَا . وَكَذَلِكَ كِتَابُ الْمَرْقَبَةِ الْعَلِيَّاءِ لِابْنِ رَاشِدٍ مِنْ مَشِيخَتِنَا بِتُونِسَ . وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيءٌ بِنُورِ النُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسِبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَلِكُونِهَا كَانَتْ مِنْ مَذَارِكِ الْوَحْيِ كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ .

الفصل التاسع عشر

في العلوم العقلية وأصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَبِهَا غَيْرُ مُخْتَصَبَةٌ بِمِلَّةٍ بَلْ يُوَجِّهُ النَّظْرَ^(١) فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْمَلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَذَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا . وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمُرَانُ الْخَلِيقَةِ . وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومَ : الْأَوَّلُ عِلْمُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ الذَّهْنَ عَنِ الْخَطَأِ فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْهُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْخَاصَةِ الْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ الْخَطَأِ مِنَ الصَّوَابِ . فِيمَا يَلْتَمِسُهُ النَّاطِرُ فِي

(١) وفي نسخة أخرى ، يوجد النظر .

(الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا)^(١) لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ نَفِيًا وَثُبُوتًا بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ . ثُمَّ النَّظَرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْمَحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمُنْصَرِفَةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْأَجْسَامِ الْفَلَكَيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَالنَّفْسُ الَّتِي تَتَّبِعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَيُسَمَّى هَذَا الْفَنُّ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّانِي مِنْهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمَّوْنَ الْعِلْمَ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا . وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ النَّاطِرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى التَّعَالِيمِ . أَوَّلُهَا : عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . إِمَّا الْمُنْفَصِلَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمُتَّصِلَةَ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السُّطْحُ . أَوْ ذُو أبعادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ الْجِسْمُ التَّعْلِيمِيُّ . يَنْظَرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْضُرُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ . وَثَانِيًا عِلْمُ الْأَرْتَمَاطِيْقِيِّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْضُرُ لِلِكَمِّ الْمُنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْمَعْدَدُ وَيُؤَخِّدُ لَهٗ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَارِضِ اللَّاحِقَةِ . وَثَالِثًا عِلْمُ الْمَوْسِقِيِّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ نَسَبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغْمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاْحِينِ الْغِنَاءِ . وَرَابِعًا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلاكِ وَحَضْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعْدُدُهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السِّيَارَةِ وَالثَّابِتَةِ وَالْقِيَامِ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الْمَشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا . فَهَذِهِ أَصُولُ الْعُلُومِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ : الْمَنْطِقُ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَالْأَرْتَمَاطِيْقِيُّ أَوَّلًا ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِقِيُّ ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَنْفَرَعُ عَنْهُ . فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ وَالْفَرَائِضِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَرْيَاخُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ^(٢) حَرَكَاتِ الْكُوكَبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قَصِدَ ذَلِكَ (وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظَرُ فِي

(١) وفي النسخة الباريسية : في التصورات والتصديقات الذاتية والعرضية .

(٢) وفي نسخة أخرى : حسابات .

النُّجُومِ عَلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ) (١) وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا .
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ غَنِيَ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ الْأَمْتَانِ الْعَظِيمَتَانِ فِي
الدَّوْلَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَالرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقَ الْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى
مَا بَلَّغْنَا لِمَا كَانَ الْعُمَرَانُ مُؤَفَّورًا فِيهِمْ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصْرُهُ لَهُمْ
فَكَانَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ . وَكَانَ لِلْكَلْدَانِيِّينَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ
مِنَ السَّرِّيَانِيِّينَ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْقَبْطِ عِنَايَةً بِالسَّخْرِ وَالنَّجَامَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ
الطَّلَاسِمِ (٢) وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْأَمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَاخْتَصَّ بِهَا الْقَبْطُ وَطَمَسَ
بِخَرِّهَا فِيهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي الْمَثَلِ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ السَّحْرَةِ وَمَا تَقَلَّه
أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ شَأْنِ الْبَرَّازِيِّ (٣) بِصَعِيدِ مِصْرَ . ثُمَّ تَتَابَعَتِ الْمِلَلُ بِحَظَرِ ذَلِكَ
وَتَخْرِيمِهِ فُدْرَسَتْ عُلُومُهُ وَبَطِلَتْ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُتَّحِلُوا هَذِهِ
الصَّنَائِعِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا . مَعَ أَنَّ سُيُوفَ الشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنْ
اخْتِبَارِهَا . وَأَمَّا الْفَرَسُ فَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَنَظَائِقُهَا مُتَّسِعًا
لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ مِنَ الضَّخَامَةِ وَاتِّصَالَ الْمُلْكِ . وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ إِنَّمَا
وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ حِينَ قَتَلَ الْإِسْكَندَرُ دَارًا وَعَلَبَ عَلَى مَمْلَكَةِ الْكِنِيزِيَّةِ فَاسْتَوْلَى
عَلَى كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِمْ . إِلَّا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا افْتَتَحُوا بِلَادَ فَارِسَ . وَأَصَابُوا مِنْ كُتُبِهِمْ
وَصَخَائِفِ عُلُومِهِمْ مِمَّا لَا يَأْخُذُهُ الْحَضَرُ وَلَمَّا فُتِحَتْ أَرْضُ فَارِسَ وَوَجَدُوا فِيهَا كُتُبًا
كَثِيرَةً كَتَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي شَأْنِهَا وَتَنْقِيلِهَا
لِلْمُسْلِمِينَ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ اطَّرَحُوهَا فِي الْمَاءِ . فَإِنْ يَكُنْ مَا فِيهَا هَدًى فَقَدْ
هَدَانَا اللَّهُ بِأَهْدَى مِنْهُ وَإِنْ يَكُنْ ضَلَالًا فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ . فَطَّرَحُوهَا فِي الْمَاءِ أَوْ فِي
النَّارِ وَذَهَبَتْ عُلُومُ الْفَرَسِ فِيهَا عَنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْنَا . وَأَمَّا الرُّومُ فَكَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنْهُمْ
لِيُونَانَ أَوْلَى وَكَانَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ بَيْنَهُمْ مَجَالٌ رَحْبٌ وَحَمَلَهَا مَشَاهِيرُ مِنْ رِجَالِهِمْ مِثْلُ

(١) وفي نسخة أخرى : ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية .

(٢) وفي النسخة الباريبية : من التأثيرات والطلسمات .

(٣) وفي نسخة أخرى : البرابي .

أساطين الحكمة وغيرهم . واختص فيها المشاءون منهم أصحاب الرواق بطريقة
 حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا .
 واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط
 الدن . ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر
 الأفروديسي . وتامسطيون وغيرهم . وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي
 غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم . وكان أرسطو في هذه العلوم
 قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وشهرة . وكان يسمى المعلم الأول فطارة في العالم ذكر .
 ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقيصرية وأخذوا يدين النصرانية هجروا تلك
 العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها . وبقيت في صحتها ودواوينها مخلدة
 باقية في خزائنها ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم . ثم جاء الله
 بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاة له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه
 للأمم . وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبخج^(١) من
 السلطان والدولة وأخذ الحضارة^(٢) بالخط الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفننوا
 في الصنائع والعلوم . تشوقوا إلى الإطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من
 الأساقفة والاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها .
 فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة
 فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات . فقرأها المسلمون وأطلعوا
 على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها . وجاء المأمون بعد ذلك
 وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحل فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل
 على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث
 المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب . وعكف عليها النظر من أهل الإسلام
 وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها . وخالفوا كثيراً من آراء المعلم

(١) وفي النسخة الباريسية : انتج .

(٢) وفي نسخة أخرى : وأخذوا من الحضارة .

الأول واختصوه بالرّد والقبول لوقوف الشهرة عنده . ودوتوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم . واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثيرون على اتّحال التعاليم وما ينصاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات . ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق ومسلمة بن أحمد المخريطي من أهل الأندلس وتلميذه . ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخله واشتهرت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقتلوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه . ولو شاء الله ما فعلوه . ثم إن المغرب والأندلس لما ركبت ريح العمران بهما وتناقضت العلوم بتناقضه اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجدّها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة . ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على بيع^(١) من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم . ولقد وقفت بمصر على تاليف في المعقول متعدّدة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشتهر بسعيد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم . وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعاً على العلوم الحكيمية وقدماً عاليّة في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء . كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة وما إليها من العنوة الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متعدّدة ومجالس تعليمها متعدّدة ودواوينها جامعة موفورة وطلبتها متكثرة^(٢) والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار .

(١) وفي النسخة الباريسية ، على نهج . وفي نسخة أخرى ، على شبح .

(٢) وفي نسخة أخرى ، ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكثرون .

الفصل العشرون

في العلوم العددية

وَأُولَهَا الْأَرْتَمَاطِيْقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّالِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي أَوْ بِالتَّضْعِيفِ مِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بِعَدَدٍ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرْفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ لَجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ وَمِثْلُ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ عِدَّةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرْدًا مِثْلُ الْأَفْرَادِ^(١) عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أُولُهَا نِصْفَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفَ ثَالِثِهَا الْخ. أَوْ يَكُونُ أُولُهَا ثُلْثَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلْثَ ثَالِثِهَا الْخ. فَإِنْ ضَرَبَ الطَّرْفَيْنِ أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ كَضَرْبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ. وَمِثْلُ مَرْبِعِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرْدًا وَذَلِكَ مِثْلُ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ اثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٍ فَثَمَانِيَةٍ فَسِتَّةَ عَشَرَ وَمِثْلُ مَا يَحْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمُثَلَّثَاتِ الْعَدَدِيَّةِ وَالْمُرَبَّعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وَضِعَتْ مُتتَالِيَةً فِي سَطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مُثَلَّثَةً. وَتَتَوَالَى الْمُثَلَّثَاتُ هَكَذَا فِي سَطْرِ تَحْتَ الْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مِثْلِكِ ثَلَاثِ الضَّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُرَبَّعَةً. وَتَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُرَبَّعِ مِثْلِكِ^(٢) الضَّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا. وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاعِ وَيَحْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ. فَبِئْسَ عَرْضِهِ الْأَعْدَادُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُرَبَّعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الْخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ بِالْعَامَا بَلِغٌ وَتَحْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضِ طُولًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ اسْتَقْرِيَتْ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَزَوْجِ

(١) وفي نسخة أخرى، الأعداد.

(٢) وفي النسخة الباريسية، مثل الضلع.

الْفَرْدُ وَزَوْجُ الزَّوْجِ وَالْفَرْدُ فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهَا حَوَاصُّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضْمُنُهَا هَذَا الْفَرْقُ
 وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ . وَهَذَا الْفَرْقُ أَوَّلُ أَجْزَاءِ التَّعْلِيمِ وَأَنْبَتُهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ
 الْحِسَابِ . وَلِلْحُكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ . وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرَجُونَهُ فِي
 التَّعْلِيمِ وَلَا يَفْرَدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ . فَعَلَّ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَغَيْرِهِ
 مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَأَمَّا الْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعْتُهُ فِي
 الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ
 الْحِسَابِيَّةِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَغَيْرِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ . (وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ صِنَاعَةُ الْحِسَابِ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ
 الْأَعْدَادِ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ . فَالضَّمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ .
 وَبِالتَّضْعِيفِ تُضَاعَفُ عَدْدًا بِأَحَادٍ عَدِيدٍ آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ
 فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدِيدٍ مِنْ عَدِيدٍ وَمَعْرِفَةَ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْضِيلُ
 عَدِيدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا مُحْصَلَةٌ وَهُوَ الْقِسْمَةُ . وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الضَّمُّ
 وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ . وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدِيدٍ إِلَى عَدِيدٍ وَتِلْكَ
 النِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا . وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدْدُ
 الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدْدُ الْمُرْتَبِعُ . فَإِنَّ تِلْكَ الْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا
 الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ حَادِثَةٌ اِحْتِجَاجٌ إِلَيْهَا لِلْحِسَابِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَأَلَّفَ
 النَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي الْأَمْصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ
 عِنْدَهُمْ الْإِبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَّصِحَةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ عَنْهَا فِي الْغَالِبِ
 عَقْلٌ مُضِيءٌ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ . وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَّعْلِيمِ الْحِسَابِ أَوَّلَ أَمْرِهِ
 إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الصَّدْقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ الصَّنَائِعِ وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ فَيَصِيرُ
 ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصَّدْقُ وَيَلْزَمُهُ مَذْهَبًا . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ الْمُبْسُوطَةِ فِيهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ . وَلَا بِنِ الْبِنَاءِ الْمَرَاكِشِيِّ فِيهِ تَلْخِيصٌ
 ضَاطِعٌ لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابِ سَمَاءِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَعْلَقٌ عَلَى

الْمُبتدِيء بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدرَكنا
 المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك . وسأوق فيه المؤلف رحمه الله كتاب
 فقه الحساب . لابن منيم والكمال للأخذب . ولخص براهينها وغيرها عن
 اصطلاح الحروف فيها إلى عِلل معنوية ظاهرة . هي سرُّ الإشارة بالحروف
 وزبنتها . وهي كلها مُستغلقة . وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان
 ببيان^(١) علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها . وإذا قصد شرحها فإنما
 هو إعطاء العِلل في تلك الأعمال . وفي ذلك من العسر على الفهم مالا يوجد في
 أعمال المسائل فتأمل . والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين . (ومن
 فروعه الجبر والمقابلة) . وهي صناعة يُستخرج بها العدد المجهول من قبل
 المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك . فاضطلخوا فيها على أن
 جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب . أولها العدد لأنه به
 يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه وثانيها الشيء لأن
 كل مجهول فهو من جهة إنبامه شيء وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في
 المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمر منهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس في
 المضروبين . ثم يقع العمل المفروض في المسألة فتخرج إلى معادلة بين مختلفين
 أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويخبرون ما فيها من الكسر
 حتى يصير صحيحاً . ويخطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن حتى يصير إلى
 الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال . فإن كانت
 المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول إنبامه بمعادلة العدد ويتعين .
 والمال وإن عادل الجذور فيتعين يمدتها . وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين
 أخرج العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الإثنين وهي منهمة فيعينها
 ذلك الضرب المفضل . ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين . وأكثر ما انتهت

(١) وفي نسخة أخرى : شان .

الْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةً أَوْ مُرَكَّبَةً
 تَجِيءُ سِتَّةً . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَازِمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ
 شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ . وَجَاءَ النَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ . وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السَّتُّ مِنْ أَحْسَنِ
 الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ . وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ
 شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْقُرَشِيِّ . وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ بَعْضَ أَئِمَّةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنْهَى
 الْمُعَامَلَاتِ ^(١) إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ السَّتِّ الْأَجْنَاسِ . وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ
 وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَأَتْبَعَهُ بِبَرَاهِينِ هِنْدَسِيَّةٍ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْمَعَامَلَاتُ) . وَهُوَ تَصْرِيفُ الْحِسَابِ فِي
 مُعَامَلَاتِ الْمُدْنِ فِي الْبَيْعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزُّكُوتِ وَسَائِرِ مَا يَغْرُضُ فِيهِ الْعَدَدُ
 مِنَ الْمَعَامَلَاتِ يُصْرَفُ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابِ ^(٢) فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ وَالْكَسْرِ
 وَالصَّحِيحِ وَالْجُذُورِ وَغَيْرِهَا . وَالغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ
 الْمِرَانِ وَالذُّرِّيَّةِ بِتَكَرُّرِ الْعَمَلِ حَتَّى تَرُوسَخَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ . وَأَهْلُ
 الصَّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَأَلَّفَ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ
 الرَّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تَلْمِيزِ مَسْلَمَةَ الْمَجْرِبِيَّيْ
 وَأُمَّثَالِيهِمْ . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْفَرَائِضُ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَضْحِيحِ السَّهَامِ
 لِذَوِي الْفُرُوضِ فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَأَنْكَسَرَتْ سَهَامُهُ عَلَى
 وَرِثَتِهِ أَوْ زَادَتْ الْفُرُوضُ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا وَتَرَاحِمَهَا عَلَى الْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ
 إِقْرَارٌ وَإِنْكَارٌ مِنْ بَعْضِ الْوَرِثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيِّنُ بِهِ سَهَامَ الْفَرِيضَةِ
 مِنْ كَمْ تَصَحُّ وَسَهَامِ الْوَرِثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصْحَحًا حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ الْوَارِثِينَ مِنْ
 الْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سَهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سَهَامِ الْفَرِيضَةِ . فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ
 جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكُسْرُهُ وَجَذْرُهُ ^(٣) وَمَعْلُومُهُ وَمَجْهُولُهُ وَتَرْتَبُ عَلَى تَرْتِيبِ

(١) وفي نسخة أخرى : المعادلات .

(٢) وفي نسخة أخرى : تصرف في ذلك صناعتنا الحساب .

(٣) وفي نسخة أخرى : كسوره وجذوره .

أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ الْفَقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا . فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفَقْهِ
وَهُوَ أَحْكَامُ الْوَرَاثَةِ^(١) مِنَ الْفُرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّضْيِيرُ
وَعَبْرُ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَضْحِيحُ السُّهْمَانِ بِإِعْتِبَارِ
الْحُكْمِ الْفَقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْعُلُومِ . وَقَدْ يُورَدُ أَهْلِهَا أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا
مِثْلُ الْفَرَائِضِ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَعَبْرُ ذَلِكَ . وَعِنْدِي أَنَّ
ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لِأَنَّ فَرَائِضَ
الْوَرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقْلُ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثَلَاثُ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ
فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْفَنِّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَأَوْعَبُوا وَمَنْ أَحْسَنَ التَّالِيفِ فِيهِ
عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمَخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ
الْخَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمَّرِ وَالْجَعْفَرِيِّ وَالصُّرَدِيِّ^(٢) وَغَيْرِهِمْ . لَكِنْ الْفَضْلُ لِلْخَوْفِيِّ
فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا . وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ
الشُّطْبِيِّ كَبِيرَ مَشِيخَةٍ فَاسَ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ . وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَالِيفٌ عَلَى
مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ ، وَرُسُوحِ قَدَمِهِ ، وَكَذَا لِلْحَنْفِيَّةِ
وَالْحَنَابِلَةِ . وَمَقَامَاتُ النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ
لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : الوراثة .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، والضوذي .

الفصل الحادي والعشرون

في العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية . مثل أن كل مثلث فرواياه مثل قائمتين . ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية . ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان . ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك . والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين . فمنها لحنين بن إسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الخجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة . أزيغ في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجدور وخمس في المجسمات . وقد اختصره الناس اختصارات^(١) كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء . أفرد له جزءاً منها اختصه به . وكذلك ابن الصلت في كتاب الإقتصار وغيرهم . وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق . واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيب وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون : « من لم يكن مهندساً

(١) وفي نسخة أخرى : مختصرات .

فَلَا يَدْخُلْنَ مَنْزِلَنَا » وَكَانَ شَيْوَحْنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : « مُمَارَسَةُ عِلْمِ الْهِنْدِسَةِ لِلْمُفَكِّرِ بِمَثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثُّوْبِ الَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ الْأَقْدَارُ وَيُنْقِيهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَذْرَانِ » . وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيْبِهِ وَانْتِظَامِهِ . (وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْفَنِّ الْهِنْدِسَةُ الْمَخْصُوصَةُ بِالْأَشْكَالِ الْكُرْوِيَّةِ وَالْمَخْرُوطَاتِ) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرْوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ لِثَاوَدُوسِيُوسَ وَمِيْلَاوُشَ فِي سَطُوحِهَا وَقَطُوعِهَا وَكِتَابَ ثَاوَدُوسِيُوسَ مُقَدِّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيْلَاوُشَ لِتَوْقُفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ . وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لَمَنْ يُرِيدُ الْخَوْضَ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ . فَالْكَلَامُ فِي الْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْضُرُ فِيهَا مِنَ الْقَطُوعِ وَالذُّوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْحَرَكَاتِ كَمَا نَذَكَّرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ الْكُرْوِيَّةِ سَطُوحِهَا وَقَطُوعِهَا . وَأَمَّا الْمَخْرُوطَاتُ فَهِيَ مِنْ فُرُوعِ الْهِنْدِسَةِ أَيْضًا . وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيْمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْمَخْرُوطَةِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقَطُوعِ وَيَبْرَهِنُ عَلَى مَا يَعْضُرُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ هِنْدِسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ . وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلَ النَّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ التَّمَائِيلُ الْغَرِيبَةُ وَالْهَيَاكِلُ النَّادِرَةُ وَكَيْفَ يَتَخَيَّلُ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَنَقْلِ الْهَيَاكِلِ بِالْهِنْدَامِ وَالْمِيخَالِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ كِتَابًا فِي الْحِيلِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيلِ الْمُسْتَظْرَفَةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ . وَرُبَّمَا اسْتَعْلَقَ عَلَى الْفُهُومِ لَصُعُوبَةِ بَرَاهِينِ الْهِنْدِسِيَّةِ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . (وَمِنْ فُرُوعِ الْهِنْدِسَةِ الْمَسَاحَةُ) وَهُوَ فَنٌّ يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مَقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذْ قُوِيَسَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَيَخْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْطِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْفُنْدَنِ وَبَسَاتِينِ الْغِرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرْضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ . (الْمُنَاطَرَةُ مِنْ فُرُوعِ الْهِنْدِسَةِ) وَهُوَ

عَلَّمَ يَتَّبِعُنُ بِهِ سَبَابَ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصْرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ
 إِدْرَاكَ الْبَصْرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطِ شُعَاعِي رَأْسُهُ نَقْطَةُ الْبَاصِرِ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِيُّ . ثُمَّ يَقَعُ
 الْغَلَطُ كَثِيراً فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيراً وَالْبَعِيدِ صَغِيراً . وَكَذَا رُؤْيَةُ الْأَشْتَاكِ الصَّغِيرَةِ
 تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطأً
 مُسْتَقِيماً وَالسَّلْقَةَ ^(١) دَائِرَةً وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . فَيَتَّبِعُنُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَسْبَابَ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتَهُ
 بِالْبَرَاهِينِ الْهِنْدُسِيَّةِ وَيَتَّبِعُنُ بِهِ أَيْضاً اخْتِلَافَ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ
 الْعُرُوضِ ^(٢) الَّذِي يَتَّبِعُنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٍ مِنْ
 أَمْثَالِ هَذَا . وَقَدْ أَلَّفَ فِي هَذَا الْفَنِّ كَثِيراً مِنَ الْيُونَانِيِّينَ . وَأَشْهُرُهُمْ مِنْ أَلْفٍ فِيهِ مِنَ
 الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ . وَلِغَيْرِهِ أَيْضاً تَأْلِيفٌ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا .

الفصل الثاني والعشرون

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكُوكَبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُحَرِّكَةِ وَالْمُنْتَحِرَةِ . وَيُسْتَدَلُّ
 بِكَيْفِيَّاتِ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالِ وَأَوْضَاعِ الْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهَذِهِ الْحَرَكَاتِ
 الْمَحْسُوسَةِ بِطَرَقِ هِنْدُسِيَّةٍ . كَمَا يُبْرَهَنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مَبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكَ
 الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْتِبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالِاسْتِقَامَةِ
 لِلْكَوكَبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةً دَاخِلَ فَلَكَهَا الْأَعْظَمِ وَكَمَا
 يُبْرَهَنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكُوكَبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْرَهَنُ عَلَى تَعَدُّدِ
 الْأَفْلَاقِ لِلْكَوكَبِ الْوَاحِدِ بِتَعَدُّدِ الْمَيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِدْرَاكَ الْمَوْجُودِ مِنَ
 الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرُّضْدِ فَإِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْتِبَالِ

(١) ورد في لسان العرب: « ابن شميل، السلق القاع المطنن المستوي لا شجر فيه. ولم ترد في لسان

العرب كلمة سلق ولملها محرفة عن السلق. وفي النسخة الباريسية، والشعلة.

(٢) هي خطوط العرض بخلاف خطوط الطول.

والإدبار به . وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك . وكان اليونانيون يفتنون بالرضد كثيراً ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكواكب المعين . وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابفة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس . وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل . وكان في أيام المأمون شيء منه وصنع هذه الآلة المعروفة للرضد المسماة ذات الحلق . وشرع في ذلك فلم يتم . ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الأضداد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات بإتصال الأقطاب . وأن مطابفة حركة الآلة للرضد بحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب . وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة بل إنما تعطي أن هذه الصور والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركات . وأنت تعلم أنه لا يتعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين وإن قلنا إن الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم . ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس . وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حقيقه شراح الكتاب . وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء . ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس وابن السمع وابن أبي الصلت في كتاب الإقتصار . ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قريبها وحذف براهين الهندسية . والله علم الإنسان ما لم يعلم . سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين . (ومن فروعه علم الازياج ^(١)) . وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع

(١) وفي النسخة الباريسية . حساب الازياج . وفي نسخة أخرى حساب الزيج .

الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حساب حركاتها على تلك القوانين
 المستخرجة من كتب الهيئة . ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في
 معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج
 والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضمنها في
 جدول مرتبة تسهلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج . ويسمى استخراج مواضع
 الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً . وللناس فيه تاليف
 كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني^(١) وابن الكماد . وقد عول المتأخرون
 لهذا العهد بالمغرب على زيح منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس في أول المائة
 السابعة . ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد . وأن يهودياً كان بصقلية
 ماهراً في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان ينبعث إليه بما يقع في
 ذلك^(٢) من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقه
 مبنية على ما يزعمون . ولغضة ابن البناء في آخر سماه المنهاج قولع به الناس لما
 سهل من الأعمال فيه وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبني عليها
 الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان
 من الملك والدول والموالييد البشرية والكوائن الحادثة كما نبينه بعد وتوضح فيه
 أدلتهم إن شاء الله تعالى . والله الموفق لما يحبهُ ويرضاه لا معبود سواه .

(١) قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر الحمددين .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، بما يصح له من ذلك . .

الفصل الثالث والعشرون

في علم المنطق

وهو قوانين يُعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة^(١) للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك لأن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس . وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات . وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقه صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلّي . ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقه وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه . ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً . وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها . ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما . ثم ينظر بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالی وهو الجوهر فلا يجد كلياً يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد . ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم ، إما تصوراً للماهيات ويعنى به إدراك ساذج من غير حكم معه وإما تصديقاً أي حكماً بثبوت أمر لأمر فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كهيئة منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً . وغايتها في الحقيقة راجعة إلى التصور لأن فائدة ذلك إذا حصل إنما هي معرفة حقائق

(١) وفي نسخة أخرى : المعروفة

الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكيم . وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقترض ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية لتمييز الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطقي . وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جملاً ومفترقاً مفترقاً . ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو فهذب مباحثه^(١) ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكيمية وفتحتها . ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابة المخصوص بالمنطقي يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة^(٢) في مادته . وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء . فمئها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبيعته ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيدته وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن . وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة . ويقال للنظر الأول إنه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطقي ثمانية : الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات . والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة . والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة . ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية . ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين المذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك . وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب

(١) وفي النسخة الباريسية ، مناحيه .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، وخمسة .

المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين
بهذا الكتاب . والخامس ، كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام
الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته
لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك . وفي
هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس
القضايا . والسادس ، كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد آلاف الحق
ويغالب به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليُعرف به القياس المغالطي
فيحذر منه . والسابع ، كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور
وخملمهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات . والثامن ،
كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو
النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية . هذه هي كتب
المنطقي الثمانية عند المتقدمين . ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة
ورببت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق
للماهيات في الخارج ، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفضل والنوع
والخاص والعرض العام . فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن
فصارت تسعاً وترجمت كلها في الملة الإسلامية . وكتبها وتداولها (١) فلاسفة
الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة
الأندلس . ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها . ثم
جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطقي وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس
ثمرته وهي الكلام في الحدود والرُسوم نقلوها من كتاب البرهان . وحذفوا كتاب
المقولات لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات . وألحقوا في كتاب العبارة
الكلام في العكس (٢) . وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من

(١) وفي نسخة أخرى تناولها

(٢) فن الموضوعات المنطقية

تَوَاجِعِ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا بِنِعْضِ الْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ
لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدَقُوا النَّظَرَ فِيهِ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ
الْكِتَابُ الْخَمْسَةُ ، الْبُرْهَانُ وَالْجَدَلُ وَالْخِطَابَةُ وَالشُّعْرُ وَالسُّفْسُطَةُ . وَرُبَّمَا يُلِمُّ
بَعْضُهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا إِمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَن لَمْ تَكُنْ هِيَ الْمُهْمُ الْمُعْتَمَدُ فِي الْفَنِّ . ثُمَّ
تَكَلَّمُوا فِيهَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَبِحِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَنٌّ بِرَأْسِهِ
لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ . وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْإِمَامُ فَخْرُ
الَّذِينَ بَنِي الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الَّذِينَ الْخَوْنِجِيُّ وَعَلَى كُتْبِهِ مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ
لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابٌ كَشَفَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ طَوِيلٌ وَاخْتَصَرَ فِيهَا
مُخْتَصَرَ الْمَوْجِزَ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرَ الْجَمَلِ فِي قَدْرِ أَرْبَعَةِ أَوْزَاقٍ أَخَذَ
بِمَجَامِعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ . وَهَجَرَتْ كُتُبُ
الْمُتَقَدِّمِينَ وَطَرَفَهُمْ كَأَن لَمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمَنْطِقِ وَفَائِدَتِهِ كَمَا قُلْنَا .
وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ .

إِعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْفَنَّ قَدْ اشْتَدَّ النِّكَيرُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ مُتَقَدِّمِي السَّلَفِ
وَالْمُتَكَلِّمِينَ . وَبَالَغُوا فِي الطَّعْنِ عَلَيْهِ وَالتَّخْذِيرِ مِنْهُ . وَحَظَرُوا تَعَلُّمَهُ وَتَعْلِيمَهُ .
وَجَاءَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنِ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ . فَسَامَحُوا فِي
ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ . وَأَكْبَّ النَّاسُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ يَوْمئِذٍ إِلَّا قَلِيلًا . يَجْنَحُونَ فِيهِ
إِلَى رَأْيِ الْمُتَقَدِّمِينَ . فَيَنْفِرُونَ عَنْهُ وَيُبَالِغُونَ فِي إنْكَارِهِ . فَلْتَبَيَّنْ لَكَ نُكْتَةُ الْقُبُولِ
وَالرَّدِّ فِي ذَلِكَ . لَتَعَلَّمْ مَقَاصِدَ الْعُلَمَاءِ فِي مَذَاهِبِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا وَضَعُوا
عِلْمَ الْكَلَامِ لِنُصْرِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ . كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي ذَلِكَ
يَأْدِلُّهُ خَاصَّةً وَذَكَرُوهَا فِي كُتُبِهِمْ كَالدَّلِيلِ عَلَى حَدْثِ الْعَالَمِ بِإِثْبَاتِ الْأَعْرَاضِ
وَحُدُوثِهَا . وَامْتِنَاعِ خُلُوقِ الْأَجْسَامِ عَنْهَا . وَمَا لَا يَخْلُو عَنْ الْحَوَادِثِ حَادِثٌ .
وَكَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ بِدَلِيلِ التَّمَانِعِ . وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْقَدِيمَةِ بِالْجَوَامِعِ الْأَرْبَعَةِ
إِلْحَاقًا لِلْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ . وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنْ أَدْلَتِهِمُ الْمَذْكُورَةِ فِي كُتُبِهِمْ . ثُمَّ مَرَّرُوا تِلْكَ

الأدلة يتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد والزمن
الفرد والخلاء بين الأجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات . وأن
العرض لا يبقى زمنين وإثبات الحال وهي صفة لموجود ، لا موجودة ولا معدومة
وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة . ثم ذهب الشيخ أبو
الحسن ، والقاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحاق إلا أن أدلة العقائد منمكسة
بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها . ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة
العقائد والقدح فيها قدح في العقائد لإتنائها عليها . وإذا تأملت المنطق وجدته
كله يدور على التركيب العقلي ، وإثبات الكلي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه
الكلي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس ، التي هي الجنس والنوع والفضل
والخاصة والعرض العام . وهذا باطل عند المتكلمين . والكلي الذاتي عندهم
إنما اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه ، أو حال عند من يقول بها فتبطل
الكليات الخمس والتعريف المنبني عليها . والمقولات العشر . ويبطل العرض
الذاتي . فتبطل بطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل
المواضع التي هي لباب كتاب الجدل . وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين
الطرفين في القياس ، ولا يبقى إلا القياس الصوري ، ومن التعريفات المساوية في
الصادقية على أفراد المخمود . لا يكون أعم منها ، فيدخل غيرها . ولا أحص
فيخرج بعضها . وهو الذي يعبر عنه النجاة بالجمع والمنع والمتكلمون بالتردد
والعكس ، وتنهيد أركان المنطق جملة . وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق
أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما
مر . فلماذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدة
بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي يبطل . والمتأخرون من لدن الغزالي لما
أنكروا انعكاس الأدلة ، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله . وصح
عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلياتها

في الخارج ، قضا بأن المنطق غير منافي للعقائد الإيمانية . وإن كان منافياً
لبنغض أدلتها ، بل قد يستدلون على إنبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية .
كنفي الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأغراض وغيرها ، ويستدلون من أدلة
المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي . ولم
يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه . وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما
لهذا العهد . فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء وما أخذهم فيما يذهبون إليه . والله
الهادي والموفق للصواب .

الفصل الرابع والعشرون

في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في
الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعين
وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد
والبرق والصواعق وغير ذلك . وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في
الإنسان والحيوان والنبات . وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت
مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها مستتبعين لها
بالبيان والشرح وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم
السبعة للفلسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجا وفي كتاب الإشارات وكأنه
يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول براهيه فيها . وأما ابن رشد فلخص
كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف . وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه
هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة . ولأهل المشرق عناية بكتاب
الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الاميدي وشرحه

أَيْضاً نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيِّ المَعْرُوفِ بِخِوَاجَهٍ مِنْ أَهْلِ المَشْرِقِ ^(١) وَبَحَثَ مَعَ الإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الخامس والعشرون

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطَّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ فَيَحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ الصِّحَّةِ وَبُرْءَ المَرَضِ بِالأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ المَرَضُ الَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عَضْوٍ مِنْ أَغْضَاءِ البَدَنِ وَأَسْبَابِ تِلْكَ الأَمْرَاضِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الأَدْوِيَةِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْزِجَةِ الأَدْوِيَةِ وَقَوَاهَا وَعَلَى المَرَضِ بِالأَعْلَامَاتِ المُؤَدِّنِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلًا ، فِي السَّجِيَّةِ وَالفَضَلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَازِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا المُدْبِرَةُ فِي خَالَتِي الصِّحَّةِ وَالمَرَضِ . وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يَحَازِيهَا وَيُعِينُهَا بِغَضِّ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ المَادَّةِ وَالفَضْلِ وَالسَّنِّ وَيُسَمَّى العِلْمُ الجَامِعُ لِهَذَا كِلِهِ عِلْمَ الطَّبِّ . وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضُ الأَعْضَاءِ بِالكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا ، كَالعَيْنِ وَعِلَلِهَا وَأَكْخَالَهَا . وَكَذَلِكَ أَحَقُّوا بِالفنِّ مِنْ مَنَافِعِ الأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا المَنْفَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَغْضَاءِ البَدَنِ الحَيَوَانِيِّ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلاَّ أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ . وَإِمَامٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الأَقْدَمِينَ جَالِينُوسٌ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقَالِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَعَلُّبٍ ^(٢) وَمَطَاوَعَةٍ اغْتِرَابٍ . وَتَأَلِيفُهُ فِيهَا هِيَ الأَمْهَاتُ الَّتِي

(١) وفي النسخة الباريسية ، من أهل العراق . ومقتضى السياق : المعروف بين أهل العراق بخواجه والذكور ولد بطوس من أعمال ايران وتوفي في بغداد (كتاب الاعلام لخير الدين الزركلي) ج ١

(٢) وفي النسخة الباريسية : تعلق

اقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ . وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أئِمَّةً جَاءُوا مِنْ
 وَرَاءِ الْغَايَةِ مِثْلَ الرَّازِيِّ وَالْمَجُوسِيِّ وَابْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ
 وَأَشْهُرُهُمْ ابْنُ زُهْرٍ . وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لَوْقُوفِ
 الْعُمَرَانَ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحِضَارَةُ وَالتَّرَفُ كَمَا
 نَبَّيْنَهُ بَعْدَ . وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانَ طِبٌّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ الْأُمَرِ عَلَى تَجْرِيَةِ
 قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَازِئاً عَنْ مَشَايخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ . وَرُبَّمَا يَصْحُ مِنْهُ
 الْبُعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الْمِزَاجِ . وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ
 مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءٌ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ .
 وَالطَّبُّ الْمَنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ ^(١) مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ
 أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ . وَوَقَعَ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ
 الَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبَلَةٌ لَا مِنْ جِهَةٍ أَنْ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعَمَلِ .
 فَإِنَّهُ ﷺ إِنَّمَا يُعْثُ لِيُعَلِّمَنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ
 الْعَادِيَّاتِ . وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ
 دُنْيَاكُمْ » . فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ
 الْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّهْمُ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمِلَ عَلَى جِهَةِ
 التَّبَرُّكِ وَصَدَّقَ الْعَقْدَ الْإِيمَانِيَّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الطَّبِّ
 الْمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسَلِ
 وَنَحْوِهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصُّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي النسخة الباريسية : في النبوات .

الفصل السادس والعشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشُوءُهُ بِالسَّقْيِ وَالْعِلَاجِ وَتَعْفُذُهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ^(١) وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ النَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الكَوَاكِبِ وَالنَّهَائِكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السَّحْرِ فَقَطَّمَتْ عِنَايَتَهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَتُرْجَمُ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفَلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةٌ لِعُلَمَاءِ النَّبَطِ مُشْتَمِلَةٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ . وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْمِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السَّحْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَخْظُورًا فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَغْرُضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَذَفُوا الْكَلَامَ فِي الْفَنِّ الْآخَرَ مِنْهُ جُمْلَةً . وَاخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَامِ كِتَابَ الْفَلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا . نَقَلَ مِنْهُ مُسَلِّمَةٌ فِي كُتُبِهِ السَّحْرِيَّةِ أُمَّهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَكُرُهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السَّحْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَكُتِبَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْفَلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكَلَامَ فِي الْغِرَاسِ وَالْعِلَاجِ وَحَفِظَ النَّبَاتِ مِنْ حَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَغْرُضُ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ وَهِيَ مُوجُودَةٌ .

(١) وفي نسخة أخرى ، بالسقي والعلاج واستجادة النبات وصلاحيه الفضل وتعاوده بما يصلحه ويثمه من

ذلك كله .

الفصل السابع والعشرون

في علم الإلهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الوجودِ الْمُطْلَقِ فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالوَحْدَةِ وَالكَثْرَةِ وَالوُجُوبِ وَالإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِيءِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا^(١) ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعَمُونَ أَنَّهُ يُوقَفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الوجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ . وَسَيَأْتِي الرُّدُّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ . وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ . وَكُتِبَ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ . وَلِخُصَّةِ^(٢) ابْنِ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَكَذَلِكَ لِخُصَّةِ^(٣) ابْنِ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمْ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ لِشْتِرَاكِهَمَا فِي الْمَبَاحِثِ . وَتَشَابَهَ مَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلُهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنَّا وَاحِدًا قَدَّمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ اتَّبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَاعَيْهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَاعَيْهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمَبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ . وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَلِطًا بِمَسَائِلِ الْجُحْمَةِ وَكُتِبَتْ مَحْشُورَةٌ بِهَا كَأَنَّ الْفَرَضَ مِنْ مَوْضُوعَيْهَا وَمَسَائِلِهَا وَاحِدٌ . وَالتَّبَسُّسُ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدٌ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السُّلْفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعِ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا

(١) وفي النسخة الباريسية ، وترتيبها .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، ولخصها (والضمير يعود إلى الكتب) .

(٣) الضمير يعود إلى كتب المعلم الأول .

تغويل عليه بمعنى أنها لا تثبت إلا به فإن العقل مغزول عن الشرع وأنظاره وما
تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها فالتعليل^(١)
بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجة عقلية
تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا
أن مداركهم فيها عقلية . وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها
السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين . وذلك أن مدارك صاحب الشريعة
أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية فهي فوقها ومحيطه بها
لاستمدادها من الأنوار الإلهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك
المحاط بها . فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن تقدمه على مداركنا ونثق به
دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نتمد ما أمرنا به
اعتقاداً وعلماً ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه .
والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإخاد في معارضات العقائد السلفية
بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك
الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات
والإلهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار
المتكلمين . فاعلم ذلك لتمييز به بين الفنيين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في
الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وإنما جاء
الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء
لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو رد على الملجدين والمطلوب
مفروض الصديق معلومه . وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين
بالمواجد أيضاً فخلطوا مسائل الفنيين بفنهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها مثل
كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدانية وغير ذلك . والمدارك في هذه

(١) وفي نسخة أخرى : ليعلم .

الْفُنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَغَايِرَةً مُخْتَلِفَةً وَأَبْعَدَهَا مِنْ جِنْسِ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكِ الْمُتَصَوِّفَةِ
لَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفْرُونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانَ يَعِيدُ عَنِ الْمَدَارِكِ
الْعِلْمِيَّةِ وَأَبْحَاثِهَا^(١) وَتَوَابِعَهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ وَنَبَّيْنَاهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ
مُسْتَقِيمٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصُّوَابِ .

الفصل الثامن والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ تَقْتَدِرُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ بِهَا عَلَى التَّأْتِيَرَاتِ فِي
عَالَمِ الْعَنَاصِرِ إِمَّا بِغَيْرِ مَعِينٍ أَوْ بِمَعِينٍ مِنَ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السَّحْرُ
وَالثَّانِي هُوَ الطَّلَسْمَاتُ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مِنْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لِمَا فِيهَا مِنْ
الضَّرْرِ وَلَمَّا يُشْتَرَطُ فِيهَا مِنَ الْوَجْهِةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كُوكَبٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا
كَالْمُفْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ . إِلَّا مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأَمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبْلَ نُبُوءَةِ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ وَالْكَلدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا
الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيداً لِلَّهِ وَتَذْكِيراً بِالْجَنَّةِ
وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ
مِنَ الْقَبِطِ وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا التَّالِيفُ وَالْإِنَارُ وَلَمْ يُتَرْجَمَ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا
إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلَ الْفِلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ
وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوَضَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْضَاعَ مِثْلَ مَصَاحِفِ الْكُوكَابِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ
طَمْطَمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ الدَّرَجِ وَالْكَوكَابِ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ ظَهَرَ بِالشَّرْقِ جَابِرُ بْنُ
حَيَّانَ كَبِيرُ السَّحْرَةِ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي
زَبَدَتِهَا وَاسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا غَيْرَهَا مِنَ التَّالِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، وأبحاثها

السِّمِّيَاءُ^(١) لَأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لَأَنَّ إِحَالَةَ الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ كَمَا نَذَكُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ جَاءَ مُسَلِّمَةُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَخْرِيطِيُّ إِمَامَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّخْرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ وَهَدَّبَهَا وَجَمَعَ طَرَفَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلْتَقَدَّمْ هُنَا مُقَدِّمَةٌ يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ السَّحْرِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنُّوعِ لَا تَوْجَدُ فِي الصِّنْفِ الْآخَرَ . وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجِبِلَّةً لِصِنْفِهَا فَنفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ مَلِكًا فِي تِلْكَ اللَّمَخَةِ الَّتِي أَنْسَلَخَتْ فِيهَا . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْوَحْيِ كَمَا مَرَّ فِي مَوْضِعِهِ . وَهِيَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مُحَصَّلَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ . وَمَا يَتَسَعُ^(٢) فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَنَفُوسِ السَّحْرَةِ لَهَا خَاصَةٌ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَالتَّأثيرِ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ . فَأَمَّا تَأثيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدٌ إِلَهِيٌّ وَخَاصِيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَنَفُوسُ الْكَهَنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمَغْيِبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ . وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تَوْجَدُ فِي الْآخَرَ . وَالنَّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا فَأَوْلُهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْفَلَاسِفَةُ السَّحْرَ وَالثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مَزَاجِ الْأَفْلَاكِ أَوْ الْعُنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ الطَّلَسْمَاتِ وَهُوَ أضعْفُ رُتْبَةً مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَأثيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ . يَعْمَدُ صَاحِبُ هَذَا التَّأثيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْخَيَالَاتِ

(١) وفي النسخة الباريبية : الكيمياء .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتسع .

وَالْمُحَاكَاةَ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِبِينَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ
 الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّائُونَ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . كَمَا
 يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ
 وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ الْفَلَسَافَةِ الشُّعُودَةَ أَوِ الشُّعْبَذَةَ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ
 تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنَ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ
 وَرِيَاضَةِ السَّحْرِ كُلِّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفلاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ
 وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فِيهِ لِذَلِكَ وَجَهَةٌ إِلَى غَيْرِ
 اللَّهِ وَسُجُودَهُ لَهُ . وَالْوَجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ فَلِهَذَا كَانَ السَّحْرُ كُفْرًا وَالْكَفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ
 وَأَسْبَابِهِ كَمَا رَأَيْتَ . وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ هُوَ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ
 عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِتَضَرُّفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفُسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالتَّكْلِ حَاصِلٌ
 مِنْهُ . وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السَّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ
 الْأَخِيرَةُ الثَّلَاثَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ
 تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةَ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ
 لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ الْأَخِيرَةِ . فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ
 الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اسْتِبْهَاهِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السَّحْرِ
 لَا مَرْتَبَةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأثيرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ . قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ
 بِيَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
 فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ » (١) . وَسَحْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ
 سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمُشَاقَبَةٍ وَجَفَّ طَلْعَةً وَدَفَنَ فِي بئرِ ذَرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي
 الْمَعْوَدَتَيْنِ : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » (٢) قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « كَانَ

(١) سورة البقرة من الآية ١٠٢

(٢) سورة الفلق الآية الرابعة

لا يقرأ على عقدة من تلك العقدة التي سحر فيها إلا انحلت . وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر زمان بعثه موسى عليه السلام أسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البراري^(١) بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعين من تصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق . ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينفض من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام سوء ويفقد على ذلك المعنى في سبب أعدده لذلك تفاؤلا بالعقد والزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفيه في فعله ذلك استشعارا للجزيمة بالعزم . ولتلك النية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتزول عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر . وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متحرق . ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض . وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحنت^(٢) قلبه ويقع ميتا وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء . وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة . وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحاية وهي رك ر ف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحاية أن

(١) وفي نسخة أخرى ، البراري .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، فينخب .

أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث ورابع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعديد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابّة . ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثرأ في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان^(١) أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظراً مؤدّة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر . ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه أغني المحبوب ما أذري الأكثر كميّة أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك من التالف العظيم بين المتحابين مالا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر . قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة . وكذا طابع الأسد ويسمى أيضاً طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب (هند إضع) صورة أسد شائلاً ذنبه عاضاً على خصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منساية من رجله إلى قبالة وجهه فاعرة فاهاً فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب . ويتحىن برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس . فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار الميثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران مخلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه . وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم . ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة . وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظراً صاحب العاشر لصاحب الطالع نظراً مؤدّة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب . فزعموا أن

(١) وفي نسخة أخرى : مثالان .

له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم . وأمثال ذلك كثير . وكتاب
الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفائها
وكمال مسائلها وذكر لنا أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتاباً في ذلك سماه
بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه . والإمام لم يكن
من أئمة هذا الشأن فيما نطن ولعل الأمر بخلاف ذلك . وبالمغرب صنف من
هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت
أولاً أنهم يسيرون إلى الكساء أو الجلد فينخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج
فتنبعج . ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر
بفج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليغطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية
خوفاً على أنفسهم من الحكام . لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك
وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك لروحانيات الجن
والكواكب . سطررت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية^(١) يتدارسونها وأنهم
بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم
إنما هو فيما سوى الإنسان الحر^(٢) من المتاع والحيوان والرفيق ويعبرون عن ذلك
بقولهم إنما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر
الممتلكات هذا ما زعموه . وسألت بعضهم فأخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة
موجودة وقفنا على الكثير منها وعائنتها من غير ريب في ذلك . هذا شأن السحر
والطلسمات وأثارهما في العالم فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد
أن اثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واشتدوا على وجود الأثر للنفس
الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنيتها على غير المجري الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل
آثار عارضة من كيفية الأزواج تارة كالسحونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن

(١) وفي النسخة البارية : الخزيرية .

(٢) وفي النسخة البارية : الانسان والجن .

جِهَةِ التَّصَوُّرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ التَّوَهُّمِ . فَإِنَّ الْمَاشِيَّ عَلَى
 حَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السُّقُوطِ سَقَطَ بِلا شَكٍّ . وَلِهَذَا
 تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْوَدُونَ أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ بِالدَّرْزَةِ عَلَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا
 التَّوَهُّمُ فَتَحْدِثُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفِ الْحَائِطِ وَالْحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السُّقُوطَ .
 فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوُّرِهَا لِلسُّقُوطِ مِنْ أَجْلِ التَّوَهُّمِ . وَإِذَا
 كَانَ ذَلِكَ أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ
 يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نَسَبْتُهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ الشُّوعِ مِنَ
 التَّأثيرِ وَاحِدَةً لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي الْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَثَبَّتَ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي سَائِرِ
 الْأَجْسَامِ . وَأَمَّا التَّفَرُّقَةُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلْسَمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السَّحْرَ لَا يَخْتَاجُ
 السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى مُعَيَّنٍ وَصَاحِبِ الطَّلْسَمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكُوكَبِ وَأَسْرَارِ
 الْأَعْدَادِ وَخَوَاصِّ الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الْفَلَكَ الْمُؤَثَّرَةِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ
 الْمُجْتَمِعُونَ وَيَقُولُونَ : السَّحْرُ اتِّخَاذُ رُوحِ بَرُوحٍ وَالطَّلْسُمُ اتِّخَاذُ رُوحِ بَحْسَمٍ وَمَعْنَاهُ
 عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَالطَّبَائِعُ الْعُلُويَّةُ هِيَ
 رُوحَانِيَّاتُ الْكُوكَبِ وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِالنَّجَامَةِ . وَالسَّاحِرُ
 عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسَحْرِهِ بَلْ هُوَ مَفْطُورٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْجِبَلَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ
 الشُّوعِ مِنَ التَّأثيرِ . وَالْفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ وَالسَّحْرِ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ قُوَّةُ إِبْرَاهِيمَ تَبَعَتْ
 عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ التَّأثيرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ . وَالسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ
 ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَيَقُوَّةِ النَّفْسَانِيَّةِ وَيَأْمَدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا
 الْفَرْقُ فِي الْمَعْقُولِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَبْدِلُ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقَةِ
 بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ الْمُعْجَزَةِ لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ
 وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَخِّصَةِ ^(١) لِلْخَيْرِ وَالتَّحْدِي بِهَا عَلَى دَعْوَى النُّبُوَّةِ . وَالسَّحْرُ إِنَّمَا يُوْجَدُ
 لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنَ التَّفَرِيقِ بَيْنَ الزُّوجَيْنِ وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ

(١) وفي النسخة الباريسية : المتمخضة .

وأمثال ذلك . وللنفوس المتمحصة للشر . هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلهيين ، وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معذوداً من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونخلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في الممدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله ^(١) وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر لا يأتيها لأنه متقيد فيما يأتيه يذرة للأمر الإلهي . فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق ورُبما سلب حاله . ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر . وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا به يافكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن . وكذلك لما أنزل على النبي ﷺ في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد . قالت عائشة رضي الله عنها ، « فكان لا يقرأها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت » . فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره بالهمة الإيمانية وقد نقل المؤرخون أن زركش ^(٢) كاويان وهي زانية كسرى كان فيها الوفق الميئسي العدي منسوجاً بالذهب في أوضاع ^(٣) فلكية رصدت لذلك الوفق . ووجدت الرأية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم . وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوقاف مخصوص بالغلب في الحروب وأن الرأية التي يكون فيها أو معها لا تنزرم أصلاً . إلا أن هذه غارضا الممدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله ﷺ وتمسكهم بكلمة الله فأنحل معها كل عقيد سحري ولم يثبت ويطل ما كانوا يفعلون . وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً مخطوراً . لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا

(١) وفي النسخة الباريية : بكلمة التوحيد .

(٢) وفي النسخة الباريية : درفش .

(٣) وفي النسخة الباريية : طوالع .

الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ آخِرْتَنَا أَوْ فِي مَعَاشِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَانَا وَمَا لَا يَهْمُنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ أَوْ نَوْعٌ ضَرَرَ كَالسَّحْرِ الْخَاصِلِ ضَرَرُهُ بِالْوُقُوعِ وَيُلْحَقُ بِهِ الطَّلَسْمَاتُ لِأَنَّ أَثَرَهُمَا وَاحِدٌ وَكَالنَّجَامَةِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ ضَرَرَ بِاعْتِقَادِ التَّأْيِيرِ فَتَقْسُدُ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ الْأُمُورِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ مَحْظُورًا عَلَى نِسْبَتِهِ فِي الضَّرَرِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَهْمًا عَلَيْنَا وَلَا فِيهِ ضَرَرٌ فَلَا أَقْلٌ مِنْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ . فَجَعَلَتِ الشَّرِيعَةُ تَابَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَالشَّعْوَذَةَ بَابًا وَاحِدًا لِمَا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِالْحَظَرِ وَالتَّحْرِيمِ . وَأَمَّا الْفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسَّحْرِ فَالَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحَدِّيِّ وَهُوَ دَعْوَى وَقُوعِهَا عَلَى وَفْقِ مَا ادَّعَاهُ . قَالُوا : وَالسَّاحِرُ مَضْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّحَدِّيِّ فَلَا يَتَّعُ مِنْهُ . وَوُقُوعُ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرٌ مَقْدُورٌ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكُذْبِ لاسْتَحَالَ الصَّادِقُ كَاذِبًا وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذَا لَاتَّعَ الْمُعْجِزَةُ مَعَ الْكَاذِبِ بِإِطْلَاقٍ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نِهَائِهِ الطَّرْفَيْنِ . فَالسَّاحِرُ لَا يَصُدِّرُ مِنْهُ الْخَيْرَ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَصَاحِبُ الْمُعْجِزَةِ لَا يَصُدِّرُ مِنْهُ الشَّرَّ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ وَكَأَنَّهُمَا عَلَى طَرَفَيْ النَّقِيضِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَمَنْ قَبِيلَ هَذِهِ التَّأْيِيرَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ وَهُوَ تَأْيِيرٌ مِنْ نَفْسِ الْمَعْيَانِ عِنْدَمَا يَسْتَحْسِنُ بِعَيْنِهِ مَذْرُوعًا مِنَ الذُّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ وَيَفْرَطُ فِي اسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْإِسْتِحْسَانَ حَسَدٌ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّنْ اتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ . وَهُوَ جِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ أَغْنَى هَذِهِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ التَّأْيِيرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَنَّ صُدُورَهُ فِطْرِيٌّ جِلْبِيٌّ لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَرْجِعُ اخْتِيَارًا صَاحِبِهِ وَلَا يَكْتَسِبُهُ . وَسَائِرُ التَّأْيِيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يَكْتَسِبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةٌ صُدُورُهَا وَلِهَذَا قَالُوا : الْقَاتِلُ بِالسَّحْرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ

يُقْتَلُ وَالْقَاتِلُ بِالْعَيْنِ لَا يُقْتَلُ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ
يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ فِي صُدُورِهِ عَنْهُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْغُيُوبِ وَمُطَّلَعٌ عَلَى مَا فِي
السَّرَائِرِ .

الفصل التاسع والعشرون

علم أسرار الحروف

وَهُوَ الْمُسَمَّى لِهَذَا الْعَهْدِ بِالسِّمِّيَا . نُقِلَ وَضَعَهُ مِنَ الطَّلَسْمَاتِ إِلَيْهِ فِي
اصْطِلَاحِ أَهْلِ التَّصْرِيفِ مِنَ الْمُتَّصِفَةِ ، فَاسْتَعْمَلَ اسْتِعْمَالَ الْعَامِّ فِي الْخَاصِّ . وَحَدَّثَ
هَذَا الْعِلْمُ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ صَدْرِ مِنْهَا . وَعِنْدَ ظُهُورِ الْعِلَاقَةِ مِنَ الْمُتَّصِفَةِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى
كَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ ، وَظُهُورِ الْخَوَارِقِ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَالتَّصْرِفَاتِ فِي عَالِمِ الْعُنَاصِرِ ،
وَتَدْوِينِ الْكُتُبِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ ، وَمَرَاغِمِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْوُجُودِ عَنِ الْوَاحِدِ وَتَرْتِيبِهِ .
وَزَعَمُوا أَنَّ الْكَمَالَ الْإِسْمَائِيَّ مَظَاهِرُهُ أَرْوَاحُ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَأَنَّ طِبَائِعَ
الْحُرُوفِ وَأَسْرَارَهَا سَارِيَّةٌ فِي الْأَسْمَاءِ ، فَهِيَ سَارِيَّةٌ فِي الْأَكْوَانِ عَلَى هَذَا النِّسْطَامِ .
وَالْأَكْوَانُ مِنْ لَدُنِ الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارِهِ وَتُعْرَبُ عَنْ أَسْرَارِهِ ، فَحَدَّثَ
لِذَلِكَ عِلْمَ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ ، وَهُوَ مِنْ تَفَارِيعِ عِلْمِ السِّمِّيَا لَا يُوقَفُ عَلَى مَوْضُوعِهِ وَلَا
تَحَاطُّ بِالْعَدَدِ مَسْأَلَةٌ . تَعَدَّدَتْ فِيهِ تَأْلِيفُ الْبُونِيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمَا مِمَّنْ اتَّبَعَ
آثَارَهُمَا . وَحَاصِلُهُ عِنْدَهُمْ وَثَمَرَتُهُ تَصْرِفُ النُّفُوسِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي عَالِمِ الطَّبِيعَةِ
بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَسْرَارِ
السَّارِيَّةِ فِي الْأَكْوَانِ .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي سِرِّ التَّصْرِيفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ ^(١) بِمَا هُوَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ

(١) علق الهوريثي على هذه العبارة بقوله بر ترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشاركة .
ومنها الغزالي . كما أن الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف . فان الصاد عندهم بستين والصاد بتسعين والسين
المهملة بثلاثمائة والطاء بثمانمائة والغين بثسمائة والشين بألف . هـ .

لِلْمِزَاجِ الَّذِي فِيهِ ، وَقَسَمَ الْحُرُوفَ بِقِسْمَةِ الطَّبَائِعِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ كَمَا لِلْعُنَاصِرِ .
وَاخْتَصَّتْ كُلُّ طَبِيعَةٍ بِصِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ يَقَعُ التَّصْرُفُ فِي طَبِيعَتِهَا فِعْلاً وَانْفِعَالاً
بِذَلِكَ الصِّنْفِ ؛ فَتَنَوَّعَتِ الْحُرُوفُ بِقَانُونِ صِنَاعِي يُسَمُّونَهُ التَّكْسِيرَ إِلَى نَارِيَّةٍ
وَهَوَائِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَتُرَابِيَّةٍ عَلَى حَسَبِ تَنَوُّعِ الْعُنَاصِرِ . فَأَلْفٌ لِلنَّارِ وَالْيَاءُ لِلْهَوَاءِ
وَالْجِيمُ لِلْمَاءِ وَالدَّالُ لِلتُّرَابِ . ثُمَّ تَرَجَعُ كَذَلِكَ عَلَى التَّوَالِي مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعُنَاصِرِ
إِلَى أَنْ تَنْفَدَ . فَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ النَّارِ حُرُوفٌ سَبْعَةٌ ؛ الْأَلْفُ وَالْبَاءُ وَالطَّاءُ وَالْمِيمُ وَالْفَاءُ
وَالسَّيْنُ وَالدَّالُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ الْهَوَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً ؛ الْبَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ وَالضَّادُ
وَالتَّاءُ وَالطَّاءُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةٌ ؛ الْجِيمُ وَالزَّيَّ وَالْكَافُ وَالضَّادُ
وَالْقَافُ وَالثَّاءُ وَالغَيْنُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ التُّرَابِ أَيْضاً سَبْعَةٌ ؛ الدَّالُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ
وَالغَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْحَاءُ وَالشَّيْنُ .

وَالْحُرُوفُ النَّارِيَّةُ لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ وَلِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَرَارَةِ حَيْثُ تُطَلَّبُ
مُضَاعَفَتُهَا . إِمَّا حَسّاً أَوْ حُكْماً . كَمَا فِي تَضْعِيفِ قُوَى الْمَرِيخِ فِي الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ
وَالْفَتْكِ . وَالْمَائِيَّةُ أَيْضاً لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْحَارَّةِ مِنْ حُمَيَاتٍ وَغَيْرِهَا . وَتَضْعِيفِ
القُوَى الْبَارِدَةِ حَيْثُ تُطَلَّبُ مُضَاعَفَتُهَا حَسّاً أَوْ حُكْماً . كَتَضْعِيفِ قُوَى الْقَمَرِ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ سِرَّ التَّصْرُفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ لِلنَّسْبَةِ الْعَدَدِيَّةِ ؛ فَإِنَّ حُرُوفَ
أَبْجَدٍ دَالَّةٌ عَلَى أَعْدَادِهَا الْمُتَعَارِفَةِ وَضِعاً وَطَبِيعاً فَبَيَّنَّا مِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ الْأَعْدَادِ
تَنَاسُبَ فِي نَفْسِهَا أَيْضاً ؛ كَمَا بَيَّنَّ الْبَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ لِدَلَالَتِهَا كُلِّهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ
كُلٌّ فِي مَرْتَبَتِهِ ؛ فَالْبَاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْأَحَادِ ، وَالْكَافُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ
الْعَشْرَاتِ ، وَالرَّاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ . وَكَالَّذِي بَيَّنَّا وَبَيَّنَّ الدَّالُ وَالْمِيمُ
وَالتَّاءُ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَرْبَعَةِ ، وَبَيَّنَّ الْأَرْبَعَةَ وَالْإِثْنَيْنِ نِسْبَةَ الضَّعْفِ . وَخَرَجَ لِلْأَسْمَاءِ
أَوْفَاقٌ كَمَا لِلْأَعْدَادِ يَخْتَصُّ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ بِصِنْفٍ مِنَ الْأَوْفَاقِ الَّذِي
يُنَاسِبُهُ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الشَّكْلِ أَوْ عَدَدُ الْحُرُوفِ . وَامْتَرَجَ التَّصْرُفُ مِنَ السِّرِّ الْحَرْفِيِّ

وَالسِّرَّ الْعَدَدِيَّ لِأَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَهُمَا . فَأَمَّا سِرُّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ هَذِهِ
 الْحُرُوفِ وَأَمْرِجَةِ الطَّبَائِعِ ، أَوْ بَيْنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ ، فَأَمْرٌ غَسِيرٌ عَلَى الْفَهْمِ ، إِذْ
 لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ وَالْقِيَاسَاتِ ، وَإِنَّمَا مُسْتَنْدَهُمْ فِيهِ الذُّوقُ وَالْكَشْفُ . قَالَ
 الْبُونِي ، وَلَا تَظُنُّ أَنَّ سِرَّ الْحُرُوفِ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ . وَإِنَّمَا هُوَ
 بِطَرِيقِ الْمُشَاهَدَةِ وَالتَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ . وَأَمَّا التَّصْرُفُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ
 وَالْأَسْمَاءِ الْمُرَكَّبَةِ فِيهَا وَتَأَثُّرِ الْأَكْوَانِ عَنْ ذَلِكَ فَأَمْرٌ لَا يُنْكَرُ لِشُبُوتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ
 تَوَاتُرًا . وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ تَصْرُفَ هَؤُلَاءِ وَتَصْرُفَ أَصْحَابِ الطَّلْسِمَاتِ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ
 كَذَلِكَ ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الطَّلْسِمِ وَتَأَثِيرَهُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ أَهْلُهُ أَنَّهُ قُوَى رُوحَانِيَّةٌ مِنْ جَوْهَرِ
 الْقَهْرِ ، تَفْعَلُ فِيمَا لَهُ رُكْبَ فِعْلٍ غَلْبِيٍّ وَقَهْرٍ ، بِأَسْرَارِهِ فَلَكَيَّةٍ وَنَسَبِ عَدَدِيَّةٍ
 وَبُخُورَاتِ جَالِبَاتِ لِرُوحَانِيَّةِ ذَلِكَ الطَّلْسِمِ ، مُشْدُودَةٍ فِيهِ بِالْهَيْمَةِ ، فَائِدَتُهَا رَبْطُ
 الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالْخَمِيرَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ هَوَائِيَّةٍ
 وَأَرْضِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَنَارِيَّةٍ حَاصِلَةٍ فِي جُمْلَتِهَا ، تُخَيَّلُ وَتَصْرُفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَى ذَاتِهَا
 وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا . وَكَذَلِكَ الْإِكْسِيرُ لِلْأَجْسَامِ الْمَعْدِنِيَّةِ ، كَالْخَمِيرَةِ تَقْلِبُ الْمَعْدِنِ
 الَّذِي تَسْرِي فِيهِ إِلَى نَفْسِهَا بِالْإِحَالَةِ . وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ ، مَوْضُوعُ الْكَيْمِيَاءِ جَسَدٌ فِي
 جَسَدٍ لِأَنَّ الْإِكْسِيرَ أَجْزَاؤُهُ كُلُّهَا جَسَدَانِيَّةٌ . وَيَقُولُونَ ، مَوْضُوعُ الطَّلْسِمِ رُوحٌ فِي
 جَسَدٍ لِأَنَّهُ رَبْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَالطَّبَائِعُ السُّفْلِيَّةُ جَسَدٌ
 وَالطَّبَائِعُ الْعُلُويَّةُ رُوحَانِيَّةٌ . وَتَحْقِيقُ الْفَرْقِ بَيْنَ تَصْرُفِ أَهْلِ الطَّلْسِمَاتِ وَأَهْلِ
 الْأَسْمَاءِ ، بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّصْرُفَ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ
 وَالْهَيْمِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مُحِيطَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَحَاكِمَةٌ عَلَيْهَا بِالذَّاتِ ، إِلَّا
 أَنَّ تَصْرُفَ أَهْلِ الطَّلْسِمَاتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِنزَالِ رُوحَانِيَّةِ الْأَفْلاكِ وَرَبْطِهَا بِالصُّورِ أَوْ
 بِالنَّسَبِ الْعَدَدِيَّةِ ، حَتَّى يَحْصَلَ مِنْ ذَلِكَ نَوْعٌ مِزَاجٌ يَفْعَلُ الْإِحَالَةَ وَالْقَلْبَ
 بِطَبِيعَتِهِ ، فِعْلُ الْخَمِيرَةِ فِيمَا حَصَلَتْ فِيهِ . وَتَصْرُفُ أَصْحَابِ الْأَسْمَاءِ إِنَّمَا هُوَ بِمَا
 حَصَلَ لَهُمْ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْكَشْفِ مِنَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ وَالْإِمْدَادِ الرِّبَائِيِّ ، فَيَسْخَرُ

الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية . ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها . لأن مدده أعلى منها .

ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك . وأهون بها وجهة ورياضة . بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى . وليست لفضد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب . وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض . كرامة من كرامات الله لهم . فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت . الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف . واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات . وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السبب في المشهور . كأن إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات ، بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة . وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاتته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بقوات الخلوص في الوجهة . وليس له في العلوم الاصلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة . وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب . فيعين لذكر الأسماء الحسنى . أو ما يرسم من أوقافها . بل ولسائر الأسماء . أوقافاً تكون من خطوط الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم . كما فعله اليوناني في كتابه الذي سماه الأنماط . وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية . وهي برزخية الكمال الأسمانى . وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة . وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة . فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة . وتلقى تلك المناسبة تقليداً . كأن عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم . بل هو أوثق منه كما قلناه . وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكب بقوى الدغوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب . إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب

الأسماء من الإطلاع في حال المشاهدة . وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم
السحرية . من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات . من جواهر وأعراض
ودواب ومعان . والحروف . والأسماء من جملة ما فيه .

فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه . ويتنون على ذلك مباني غريبة
منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو . كما فعله مسلمة المجرطي في
الغاية . والظاهر من حال التوني في أنماطه أنه اغتبر طريقتهم . فإن تلك
الأنماط إذا تصفحتها . وتصفحت الدعوات التي تضمنتها . وتقسيمها على ساعات
الكواكب السبعة . ثم وقفت على الغاية . وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها .
وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب . ويسونها قيامات الكواكب . أي
الدعوة التي يقام له بها . شهد له ذلك . إما بأنه من مادتها . أو بأن التناسب
الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله . « وما أوتيتم من العلم
إلا قليلا » . وليس كل ما حرمة الشارع من العلوم بمنكر الثبوت . فقد ثبت أن
السحر حق مع خطره . لكن حسبنا من العلم ما علمنا .

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأخوية من الأسئلة .
بازتباطات ش بين الكلمات - حرفية . يوهمون أنها أصل في معرفة
ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية . وإنما هي شبه المعاينة والمسائل
السيالية . ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأوراد . وأعجبه زائرجة العالم
للستيني . وقد تقدم ذكرها . وتبين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزائرجة
بذائرتها وجدولها المكتوب حولها . ثم تكشف عن الحق فيها وأنها ليست من
الغيب . وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط . وقد أشرنا إلى
ذلك من قبل . وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة إلا أننا
تحررنا أصح النسخ منها في ظاهر الأمر . والله الموفق بمنه . وهي هذه .

يَقُولُ سُبَيْتِي وَيَحْمَدُ رَبَّهُ
مُحَمَّدَ الْمُبْعُوثِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَا
الْأَهْدِيهِ زَايِرِجَةَ الْعَالَمِ الَّذِي
فَمَنْ أَحْكَمَ الْوَضْعَ فَيَحْكُمُ جِسْمَهُ
وَمَنْ أَحْكَمَ الرِّبْطَ فَيَدْرِكُ قُوَّةَ
وَمَنْ أَحْكَمَ التَّصْرِيفَ يَحْكُمُ سِرَّهُ
وَفِي عَالِمِ الْأَمْرِ تَرَاهُ مُحَقِّقًا
فَهَذِي سَرَائِرُ عَلَيْكُمْ بِكْتِمِهَا
فَطَاءٌ لَهَا عَرْشٌ وَفِيظٌ نَقُوشِنَا
وَنَسَبٌ دَوَائِرُ كُنْسَبَةِ فَلَكِيهَا
وَأَخْرَجَ لِأَوْتَارِهَا وَازْسَمَ حُرُوفَهَا
أَقَمَ شَكْلَ زِيْرِهِمْ وَسَوَّ بِيُوتَهُ
وَحَصَلَ عُلُومًا لِلطَّبَاعِ مَهْنِدِسًا
وَسَوَّ لِمُوسِيقَى وَعَلِمَ حُرُوفِهِمْ
وَسَوَّ دَوَائِرِهَا وَنَسَبَ حُرُوفَهَا
أَمِيرٌ لَنَا فَهُوَ نَهَايَةُ دَوْلَةِ
وَقَطْرٍ لِأَنْدَلُسِ فَايُنَ لِهَوْدِهِمْ
مُلُوكٌ وَفَرَسَانٌ وَأَهْلٌ لِحِكْمَةِ
وَمَهْدِي تَوْحِيدِ بَتُونِسِ حُكْمِهِمْ
وَأَقْسَمَ عَلَى الْقَطْرِ وَكُنْ مَتَفَقِدًا
فَقَنَسَ وَبَرَشْنُونَ الرَّاءِ حَرْفِهِمْ
مُلُوكٌ كَنَاوَةَ ذَلُوا لِقَافِهِمْ
فَهِنْدُ حَبَاشِيٍّ وَسِنْدُ فِهْرِمِسْ

مُصَلٌّ عَلَى هَادٍ إِلَى النَّاسِ أَرْسِلَا
وَيَرْضَى عَنِ الصُّخْبِ وَمِنْ لَهُمْ تَلَا
تَرَاهُ بِحَيْكُمِ وَيَالْعَقْلَ قَدْ خَلَا
وَيَدْرِكُ أَحْكَامًا تَدْبَرُهَا الْعِلَا
وَيُدْرِكُ لِلتَّقْوَى وَلِلْكَلِّ حَصْلَا
وَيَعْقِلُ نَفْسَهُ وَصَحَّ لَهُ الْوَلَا
وَهَذَا مَقَامٌ مِنَ الْأَذْكَارِ كَمَلَا
أَقَمَهَا دَوَائِرَ وَلِلْحَاءِ عَدْلَا
بِنَظْمِ وَنَشْرٍ قَدْ تَرَاهُ مُجْدُولَا
وَازْسَمَ كَوَاكِبًا لِأَدْرَاجِهَا الْعِلَا
وَكَوَّرَ بِمِثْلِهِ عَلَى حَدِّ مَنْ خَلَا
وَحَقَّقَ بِهَامِيهِمْ وَنَوَّرَهُمْ جَلَا
وَعَلِمَا لِمُوسِيقَى وَالْأَرْبَاعِ مَثَلَا
وَعَلِمَ بِآلَاتِ فَحَقَّقَ وَحَصَلَا
وَعَالِمَهَا أَطْلَقَ وَالْإِقْلِيمِ جَدُولَا
زَنَاتِيَّةِ آبَتِ وَحُكْمٌ لَهَا خَلَا
وَجَاءَ بَنُو نَصْرٍ وَظَفَرُهُمْ تَلَا
فَإِنْ شِئْتَ نَضِبُهُمْ وَقَطْرُهُمْ خَلَا
مُلُوكٌ وَبِالشَّرْقِ بِالْأَوْفَاقِ نَزَلَا
فَإِنْ شِئْتَ لِلرُّومِ فَبِالْحَرِّ شَكَلَا
وَإِفْرَنْسِيَّتِهِمْ ذَالَ وَبِالطَّاءِ كَمَلَا
وَإِعْرَابُ قَوْمِنَا بِتَرْفِيقِ أَعْمَلَا
وَفَرَسٌ طَطَارِيٍّ وَمَا بَعْدَهُمْ طَلَا

فَقَيَّصَرُهُمْ جَاءَ وَيَزْدَجُرُهُمْ
 وَعَبَّاسُ كُلُّهُمْ شَرِيفٌ مُعْظَمٌ
 فَإِنْ شِئْتَ تَدْقِيقُ الْمُلُوكِ وَكُلُّهُمْ
 عَلَى حُكْمِ قَانُونِ الْخُرُوفِ وَعَلِمَهَا
 فَصَنَ عِلْمَ الْعُلُومِ تَعَلَّمَ عَلِمْنَا
 فَيَرْسُخُ عِلْمُهُ وَيَعْرِفُ رَبَّهُ
 وَحَيْثُ أَتَى اسْمٌ وَالْعَرُوضُ يَشْقُهُ
 وَتَأْتِيكَ أَحْرَفُ فَسَوْ لَضْرِبِهَا
 فَمَكَّنْ بِتَنْكِيرِ وَقَابِلِ وَعَوَّضَنْ
 وَفِي الْعَقْدِ وَالْمَجْزُورِ يَعْرِفُ غَالِبًا
 وَاخْتَرِ لِمَطْلَعِ وَسَوِيهِ رُتْبَةً
 وَيُدْرِكُهَا الْمَرْءُ فَيَبْلُغُ قَصْدَهُ
 إِذَا كَانَ سَعْدٌ وَالْكَوَاكِبُ اسْعَدَتْ
 وَإِقْبَاعُ دَالِهِمْ بِمَرْمُوزِ ثَمَّةٍ
 وَأَوْتَارُ زِيرِهِمْ فَلِلْحَاءِ بِمِهِمْ
 وَأَدْخَلَ بِأَفْلَاكِ وَعَدَلَ بِجَدُولِ
 وَجَوَّزَ شُدُودَ النُّورِ تَجْرِي وَمِثْلَهُ
 فَاصِلٌ لِدِينِنَا وَأَصْلٌ لِفَقِهِنَا
 فَادْخُلْ لِفِسْطَاطِ عَلَى الْوُفْقِ جَذْرَهُ
 فَتَخْرُجْ أُنْيَاتًا وَفِي كُلِّ مَطْلَبِ
 وَتَفْنِي بِخَضْرَاهَا كَذَا حُكْمَ عَدِهِمْ
 فَتَخْرُجْ أُنْيَاتًا وَعِشْرُونَ ضَعْفَتْ
 تَرِيكَ صَنَائِعًا مِنَ الضَّرْبِ أَكْمَلْتَ

لِكَافٍ وَقَبْطِيهِمْ بِلَامِهِ طُولًا
 وَلَكِنْ تَرَكِي بِنَا الْفِعْلِ عَطْلًا
 فَخْتَمَ بِيُوتًا ثُمَّ نَسَبَ وَجَدُولًا
 وَعَلِمَ طَبَائِعَهَا وَكُلُّهُ مِثْلًا
 وَيَعْلَمُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَأَكْمَلًا
 وَعَلِمَ مَلَاجِيرَ بِخَامِيمٍ فَضْلًا
 فَحَكَّمَ الْحَكِيمِ فِيهِ قَطْعًا لِيَقْتَلَا
 وَأَحْرَفَ سَيِّوْنِيهِ تَأْتِيكَ فَيُصَلَا
 بِتَرْنِيمِكَ الْغَالِي لِلْأَجْزَاءِ خَلْجًا
 وَزِدْ لِمَحِ وَصْفِيهِ فِي الْعَقْلِ فَعْمَلًا
 وَاعْكِسْ بِجَذْرِيهِ وَبِالدُّورِ عَدْلًا ؟
 وَتَعْطِي حُرُوفَهَا وَفِي نَظْمِهَا انْجَلَا
 فَحَسْبُكَ فِي الْمَلِكِ وَنَيْلِ اسْمِهِ الْعَلَا
 فَنَسَبَ دَنَادِينَا تَجِدُ فِيهِ مَنَهَلًا
 وَمِثْلَهُمُ الْمُثَلَّثُ بِحِيْمِهِ قَدْ جَلَا
 وَأَرْسَمَ أَبَا جَادَ وَبَاقِيَهُ جَمَلًا
 أَتَى فِي عَرُوضِ الشُّعْرِ عَنْ جُمْلَةٍ مَلَا
 وَعَلِمَ لِنَحُونَا فَاحْفَظْ وَحَصَلَا
 وَسَبَّحْ بِاسْمِهِ وَكَبَّرْ وَهَلَّلَا
 بِنَظْمِ طَبِيعِي وَسِرِّ مِنَ الْعَلَا
 فَعَلِمَ الْفَوَاتِيحُ تَرَى فِيهِ مَنَهَلًا
 مِنَ الْأَلْفِ طَبِيعِيًّا فَيَا صَاحِ جَدُولًا
 فَصَحَّ لَكَ الْمُنَى وَصَحَّ لَكَ الْعَلَا

وَسَجَّعَ بِزَيْرِهِمْ وَأَثْنِي بِنُقْرَةٍ أَقْمَهَا دَوَائِرَ الزَّيْرِ وَحَصَلَا
 أَقْمَهَا بِأَوْفَاقٍ وَأَصْلًا لِعَدَدَا مِنْ أَسْرَارِ أَحْرَفِهِمْ فَعَذَبَهُ سِلْسِلَا
 ٤٣ ك ١ ك وك ح واه عم له ر لاسع ك ط ا ل م ن ح ع ف و ل

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها
 وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج

طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء

أَيَا طَالِبًا لِلطَّبِّ مَعَ عِلْمِ جَابِرِ وَعَالِمِ مَقْدَارِ المَقَادِيرِ بِالْوَلَا
 إِذَا شِئْتَ عِلْمَ الطَّبِّ لَا بُدَّ نِسْبَةً لِأَحْكَامِ مِيزَانِ تَضَادِفِ مَنْهَلَا
 فَيُشْفَى عَلَيْكُمْ وَالْأَكْسِيرُ مُحَكَّمٌ وَأَمْزَاجٌ وَضَعِكُمْ يَبْضُجِحُ أَنْجَلَا

الطب الروحاني

وَشِئْتَ إِيلاوش ٥٦٥ م وَدَهْنَهُ بِحَلَا لِبِهْرَامِ بَرَجِيسٍ وَسَبْعَةَ أَكْمَلَا
 لِتَحْلِيلِ أَوْجَاعِ البُورَادِ صَحْحُوا كَذَلِكَ وَالتَّرْكِيبِ حَيْثُ تَنْقَلَا

كد منع مهم ٣٥٥ وهج ٦ صح لهاى و لم ح ١١ وهج وى سكره لال ح مهبت
 ٣٣٣ ع ع مى مر ح ح ٢٢٤٢ ل ك عا عر .

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيتهم

وَعَلَّمَ مَطَارِيحَ الشُّعَاعَاتِ مُشْكَلًا وَضَلَعَ قَسِيهَا بِمَنْطِقَةِ جَلَا
 وَلَكِنْ فِي حَجِّ مَقَامِ إِمَامِنَا وَيَبْدُو إِذَا عَرَضَ الكَوَاكِبِ عَدَلَا
 بَدَالَ مَرَاكِزِ بَيْنِ طُولٍ وَعَرْضِهَا فَمَنْ أَذْرَكَ المَعْنَى عَلَا ثُمَّ فَوْضَلَا
 مَوَاقِعَ تَرْبِيعٍ وَسَهِّ مُسْقِطًا لِتَسْدِيسِهِمْ تَثْلِيثُ بَيْتِ النَّبِيِّ تَلَا

يزاد لتربيع وهذا قياسه يقينا وجذره وبالعين أعمالا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعة أنجلا

اختص صح ص ٨٤ ع ٨ س وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله
ولم ير أعجب منه .

مقامات الملوك المقام الأول ه المقام الثاني

ع ع والمقام الرابع للح المقام الخامس لاي المقام السادس بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجمع وتابع الجر التام

الاتصال والانفصال

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السؤال عن الملوك

مقام الأول نورعه ي مقام بها ه حج لا

الانفعال الروحاني والانقياد الرباني

أيا طالب السر لتهيل ربه لدى أسمائه الحسنی تصادف منهلأ
تطيمك أختيار الأنام بقلبيهم كذلك ريسهم وفي الشمس أعمالا

وَمَا قَلْبُهُ حَقّاً وَفِي الْغَيْرِ أَهْمَلَا
 أَقْوَلْسُهُ غَيْرِكُمْ وَنَصْرُكُمْوَا اجْتَلَى
 وَدِيناً مَتِيناً أَوْ تَكُنْ مَتَوَصَّلاً
 وَفِي سِرِّ بَسْطَامِ أَرَاكَ مَسْرَبَلَا
 كَذَا قَالَتْ الْهِنْدُ وَصُوفِيَّةُ الْمَلَا
 وَمَا حَكَمَ صَنَعٌ مِثْلَ جَبْرِيلَ أَنْزَلَا
 وَيَوْمَ الْخَمِيسِ الْبَدَأَ وَالْأَحَدُ أَنْجَلَى
 وَفِي اثْنَيْنِ لِلْحَسَنِ تَكُونُ مَكْمَلَا
 أَرَاكَ بِهَا مَعَ نِسْبَةِ الْكُلِّ أَعْطَلَا
 وَعُودٌ وَمِصْطَكِي بِخُورٍ تَحْضَلَا
 وَالْإِخْلَاصَ وَالسَّيِّعَ الْمِثْلَانِي مَرْتَلَا

تَرَى عَامَةً النَّاسِ إِلَيْكَ تَقَيَّدُوا
 طَرِيقَكَ هَذَا السَّيْلَ وَالسَّبَلَ الَّذِي
 إِذَا شِئْتَ تَحِيَا فِي الْوُجُودِ مَعَ التَّقَى
 كَذِي النَّوْنِ وَالْجَنِيْدِ مَعَ سِرِّ صَنْعَةٍ
 وَفِي الْعَالَمِ الْعُلُوي تَكُونُ مُحَدَّثَا
 طَرِيقَ رَسُولِ اللَّهِ بِالْحَقِّ سَاطِعٌ
 فَبَطْشِكَ تَهْلِيلٌ وَقَوْسِكَ مَطْلَعٌ
 وَفِي جَمْعَةٍ أَيْضاً بِالْأَسْمَاءِ مِثْلَهُ
 وَفِي طَائِهِ سِرٌّ فِي هَائِهِ إِذَا
 وَسَاعَةً سَعِدَ شَرْطُهُمْ فِي تَقْوَشِهَا
 وَتَلَوُ عَلَيْهَا آخِرَ الْحَشْرِ دَعْوَةً

(اتصال أنوار الكواكب) بلعاني لاهي ي لا ظ غ لدسع ق صح م ف و ي

وَكُلُّ بَرَأْسِكَ وَفِي دَعْوَةٍ فَلَا
 وَاتْلُو إِذَا نَامَ الْأَنْبَاءُ وَرَتَلَا
 هِيَ الْآيَةُ الْعُظْمَى فَحَقَّقْ وَحْضَلَا
 وَتَدْرِكُ أَسْرَاراً مِنَ الْعَالَمِ الْعَلَا
 وَبَاخَ بِهَا الْحَلَاجَ جَهراً فَأَعْقَلَا ؟
 إِلَى أَنْ رَقَى فَوْقَ الْمُرِيدِينَ وَاعْتَلَى
 وَلَازِمَ لِذَكَارٍ وَضَمَّ وَتَنَقَّلَا
 عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الْعُلُومِ مُحْضَلَا

وَفِي يَدِكَ الْيُمْنَى حَدِيدٌ وَخَاتَمٌ
 وَآيَةٌ حَشْرٍ فَاجْعَلِ الْقَلْبَ وَجْهَهَا
 هِيَ السَّرُّ فِي الْأَكْوَانِ لِأَشْيَاءَ غَيْرِهَا
 تَكُونُ بِهَا قُطْباً إِذَا جَدْتَ خِدْمَةً
 سَرِي بِهَا نَاجِيٍّ وَمَعْرُوفٍ قَبْلَهُ
 وَكَانَ بِهَا الشَّبْلِيُّ يَدَابُ دَائِماً
 فَصَفَّ مِنَ الْأَدْنَسِ قَلْبِكَ جَاهِداً
 فَمَا نَالَ سِرَّ الْقَوْمِ إِلَّا مُحَقَّقٌ

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق

وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة وأئمة

الانفعال الطبيعي

لبرجيس في المحيية الوفق صرفوا	بقزدير أو نحاس الخلط أكملنا
وقيل بفضة صحيحاً رأيتة	فجعلك طالعاً خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر	وجعلك للقبول شمسة أصلا
ويومته والبخور عوداً لهيهم	ووقت لساعة ودعوتة ألا
ودعوتة بغاية فهي أعملت	وعن طسيمان دعوة ولها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها	بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفاً بدالٍ ولأمنها	وذلك وفق للمربع حصلا
إذا لم يكن يهوى هواك دلالتها	فدال لبيدو واو زينب معطلا
فحسن لبائه وبائهم إذا	هواك وباقيهم قليلة جملا
وتنقش مشاكل بشرط لوضعهم	وما زدت أنسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلها سوا	فبوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقداً	أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف ونيف	فباطنها سرٌ وفي سرها انجلا

فصل في المقامات النهائية

لك الغيب صورة من العالم العلأ	وتوجدها دار أو ملبسها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه	بنشر وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق	فيحكى إلى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها	وعند تجليها لبسطام أخذلا

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول الله

منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدة الدرج . وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار . وتناسب العمل من استخراج الأخراف من بيت القصيد .

(تنبيه) - تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول ، حروف عربية تنقل على هيئاتها ، وحروف برسم الفبار . وهذه تتبدل ، فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأوتار عن أربعة ، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات ، وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ، ومنها حروف برسم الزمام كذلك ، غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية ، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة . ولها نسبة من خمسة بالعربي ، فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم ، فاختصروا من الجدول بيوتاً خالية . فمتى كانت أصول الأوتار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول ، وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العامر منها .

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصول ، عدة حروف الأول حساب أدوارها بعد طرحها ، إثني عشر إثني عشر ، وهي ثمانية أحرف في الكامل وستة في الناقص أبداً . ومعرفة درج الطالع وسُلطان البرج ، والدور الأكبر الأصلي ، وهو واحد أبداً . وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي ، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج . وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضرورية في أربعة ، تكون إثني عشر دوراً . ونسبة هذه الثلاثة

الأدوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية . كل نشأة لها ابتداء . ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية . ثم إنها من ضرب ستة في اثنين . فكان لها نشأة . يظهر ذلك في العمل . ويتبع هذه الأدوار الإثني عشر نتائج . وهي في الأدوار . إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة .

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزاوية ، هل هي علم قديم . أو مُخَدَث يطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار ؟ ثم حروف السؤال . فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء . وثالثة وتر رأس الدلو إلى حد المركز . وأضفنا إليه حروف السؤال . ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين . وأكثر ما تكون ستة وتسعين . وهي جملة الدور الصحيح . فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين . ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين . بأن يسقط جميع أدواره الإثني عشرية . ويحفظ ما خرج منها وما بقي . فكانت في سؤالنا سبعة أدوار . الباقي تسعة . أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنتي عشرة درجة . فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور .

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث . ثم تثبت الطالع وهو واحد . وسُلطان الطالع وهو أربعة . والدور الأكبر وهو واحد . واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال . واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية . وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة . فهذه سبعة أصول . فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس . مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً . وإن زاد على اثني عشر طرح أدواراً . وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية . وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع . يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول . وتعد متوالياً خمساً أدواراً . وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة . وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي . فوقع العدد في عملنا

على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار. فصرنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة. وهو عدد الدور الأول. فأثبتته واجمع ما بين الضلعين: القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول. وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها. فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وأدخل بعدد ما في الدور الأول. وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعما فيه. وهي ثمانية. ماراً إلى جهة اليسار. فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب. وإنما هو إذن حرف تاء أربعمائة برسم الزمام. فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد. واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر. أدخل بها في حروف الأوتار. وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد. ومن هذا القانون تدرى كم تدور الحروف في النظم الطبيعي. وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر. أضفها بمثلها تكون ستة وعشرين. أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعل ذلك يكون نظم الحروف الأول. ثم ثلاثة وعشرون مرتين. ثم اثنان وعشرون مرتين. على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً. ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية. الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة. فاضع في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول وعلم عليه. وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر. ثم بخمسة. ولا تعد الخالي. والدور عشرون. فوجدنا حرف تاء خمسمائة. وإنما هو نون لأن دورنا في مرتبة العشرات. فكانت الخمسمائة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئتين. فأثبت نونا ثم أدخل بخمسة أيضاً من أوله. وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً. فقهر العدد واحداً يقع على

خَمْسَةَ ، أَضِفْ لَهَا وَاحِدًا لِسَطْحِ تَكُنْ سِتَّةَ . اثْبِتْ وَاوًا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ
أَرْبَعَةَ ، وَأَضِفْهَا لِلثَّمَانِيَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ ضَرْبِ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ تَبْلُغْ إِثْنَيْ
عَشَرَ ، أَضِفْ لَهَا الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي وَهُوَ خَمْسَةٌ تَبْلُغْ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ مَا لِلدَّوْرِ
الثَّانِي . فَدَخَلْنَا بِسَبْعَةِ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ . فَوَقَعَ الْعَدَدُ عَلَى وَاحِدٍ . اثْبِتْ
الْأَلْفَ وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ وَأَسْقِطْ مِنْ حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ عِدَّةَ
الْخَارِجِ مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي . وَضَعِ الدَّوْرَ الثَّالِثَ وَأَضِفْ خَمْسَةَ إِلَى ثَمَانِيَةٍ تَكُنْ ثَلَاثَةَ
عَشَرَ . الْبَاقِي وَاحِدٌ . انْقُلِ الدَّوْرَ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةٍ بِوَاحِدٍ وَأَدْخِلْ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ
بِثَلَاثَةِ عَشَرَ . وَخُذْ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْعَدَدُ وَهُوَ (ق) وَعَلِّمْ عَلَيْهِ . وَأَدْخِلْ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ
فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ وَأَثْبِتْ مَا خَرَجَ ، وَهُوَ سَيْنٌ ، وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . ثُمَّ
أَدْخِلْ مِمَّا يَلِي السِّينَ الْخَارِجَةَ بِالْبَاقِي مِنْ دَوْرٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَهُوَ وَاحِدٌ . فَخُذْ مِمَّا
يَلِي حَرْفَ سَيْنٍ مِنَ الْأَوْتَارِ فَكَانَ (ب) اثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَهَذَا
يُقَالُ لَهُ : الدَّوْرُ الْمَعْطُوفُ . وَمِيزَانُهُ صَحِيحٌ . وَهُوَ أَنْ تُضَعَّفَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بِمِثْلِهَا .
وَتُضَيَّفَ إِلَيْهَا الْوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ تَبْلُغْ سَبْعَةَ وَعِشْرِينَ . وَهُوَ حَرْفُ بَاءٍ
الْمُسْتَخْرَجِ مِنَ الْأَوْتَارِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَأَدْخِلْ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ ،
وَانظُرْ مَا قَابِلُهُ مِنَ السُّطْحِ وَأَضِعْفُهُ بِمِثْلِهِ . وَرَدَّ عَلَيْهِ الْوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ ثَلَاثَةِ
عَشَرَ ، فَكَانَ حَرْفُ جِيمٍ . وَكَانَتْ لِلْجُمْلَةِ سَبْعَةَ . فَذَلِكَ حَرْفُ زَايٍ فَاتَّبِعْنَاهُ وَعَلَّمْنَا
عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَمِيزَانُهُ أَنْ تُضَعَّفَ السَّبْعَةَ بِمِثْلِهَا وَرَدَّ عَلَيْهَا الْوَاحِدَ الْبَاقِي
مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ يَكُنْ خَمْسَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ الْخَامِسُ عَشَرَ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ وَهَذَا آخِرُ
أَدْوَارِ الثَّلَاثِيَّاتِ . وَضَعِ الدَّوْرَ الرَّابِعَ وَلَهُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ بِإِضَافَةِ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ
السَّابِقِ . فَاضْرِبِ الطَّالِعَ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ . وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْعَمَلِ فِي الْبَيْتِ
الْأَوَّلِ مِنَ الرَّبَاعِيَّاتِ .

فَاضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَاضْعُدْ بِتِسْعَةٍ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةٍ وَأَدْخِلْ بِتِسْعَةٍ
مِنْ دَوْرِ الْحَرْفِ الَّذِي أَخَذْتَهُ آخِرًا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . فَالتَّاسِعُ حَرْفُ رَاءٍ . فَاتَّبِعْتَهُ

وَعَلِمَ عَلَيْهِ . وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ يَتَسَعَةَ وَأَنْظَرَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ يَكُونُ
(ج) ، فَهَرَمُ الْعَدَدِ وَاحِدًا يَكُونُ أَلِفٌ وَهُوَ الثَّانِي مِنْ حَرْفِ الرَّاءِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ
فَأَثْبَتَهُ وَعَلِمَ عَلَيْهِ . وَعَدَّ مِمَّا يَلِي الثَّانِي تِسْعَةَ يَكُونُ أَلِفٌ أَيْضًا أَثْبَتَهُ وَعَلِمَ عَلَيْهِ
وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفٍ مِنَ الْأَوْتَارِ . وَأَضْعَفَ تِسْعَةَ بِمِثْلِهَا تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ . أَدْخَلَ بِهَا
فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى حَرْفِ رَاءِ ، أَثْبَتَهَا وَعَلِمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ثَمَانِيَةَ
وَأَرْبَعِينَ . وَأَدْخَلَ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى (س) أَثْبَتَهَا وَعَلِمَ
عَلَيْهَا إِثْنِينَ . وَأَضْفَ إِثْنِينَ إِلَى تِسْعَةَ تَكُونُ أَحَدَ عَشَرَ . أَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ
بِأَحَدِ عَشَرَ تَقَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ أَلِفٌ أَثْبَتَهَا وَعَلِمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ . وَضَعُ الدُّوْرَ الْخَامِسَ
وَعَدْتَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ . إِضْعَدَ بِخَمْسَةَ فِي ضَلَعِ ثَمَانِيَةَ وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ
مِنَ الْأَوْتَارِ وَأَضْعَفَ خَمْسَةَ بِمِثْلِهَا . وَأَضْفَهَا إِلَى سَبْعَةَ عَشَرَ عَدَدِ دَوْرِهَا الْجُمْلَةَ سَبْعَةَ
وَعِشْرُونَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى (ب) أَثْبَتَهَا وَعَلِمَ عَلَيْهَا إِثْنِينَ
وِثْلَاثِينَ وَأَطْرَحَ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ إِثْنِينَ الَّتِي هِيَ فِي أَسْ إِثْنِينَ وَثْلَاثِينَ الْبَاقِي خَمْسَةَ
عَشَرَ . أَدْخَلَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى (ق) أَثْبَتَهَا وَعَلِمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ وَعِشْرِينَ .
وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِسِتِّ وَعِشْرِينَ تَقَفَ عَلَى إِثْنِينَ بِالْعَبَارِ . وَذَلِكَ حَرْفُ
(ب) أَثْبَتَهُ وَعَلِمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ . وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَضَعُ
الدُّوْرَ السَّادِسَ . وَعَدْتَهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ . الْبَاقِي مِنْهُ وَاحِدٌ . فَتَبَيَّنَ إِذْ ذَاكَ أَنَّ دَوْرَ النُّظْمِ
مِنْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ . فَإِنَّ الْأَدْوَارَ خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ وَسَبْعَةَ عَشَرَ وَخَمْسَةَ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ
وَوَاحِدًا ، فَأَضْرَبَ خَمْسَةَ فِي خَمْسَةَ تَكُنْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ . وَهُوَ الدُّوْرُ فِي نَظْمِ
الْبَيْتِ . فَاتَّقَلَّ الدُّوْرُ فِي ضَلَعِ ثَمَانِيَةَ بِوَاحِدٍ . وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ
بِثَلَاثَةِ عَشَرَ كَمَا قَدَّمَاهُ . لِأَنَّهُ دَوْرٌ ثَانٍ مِنْ نَشْأَةِ تَرْكِيبِيَّةِ ثَانِيَةِ ، بَلْ أَضْفْنَا الْأَرْبَعَةَ
الَّتِي مِنْ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ الْخَارِجَةَ عَلَى حُرُوفِ (ب) مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ إِلَى الْوَاحِدِ
تَكُونُ خَمْسَةَ . تُضَيَّفُ خَمْسَةَ إِلَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ الَّتِي لِلدُّوْرِ تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ . أَدْخَلَ
بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ وَخَذَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ وَهُوَ أَلِفٌ ، أَثْبَتَهُ وَعَلِمَ عَلَيْهِ مِنْ

بَيِّتِ الْقَصِيدِ اثْنَيْ عَشَرَ وَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ . وَمِنْ هَذَا الْجَدْوَلِ تَنْظُرُ
أَحْرَفَ السُّؤَالِ ، فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدْهُ مَعَ بَيِّتِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ
حُرُوفِ السُّؤَالِ لِيَكُونَ دَاخِلًا فِي الْعَدَدِ فِي بَيِّتِ الْقَصِيدِ ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِكُلِّ حَرْفٍ
بَعْدَ ذَلِكَ مُنَاسِبًا لِحُرُوفِ السُّؤَالِ ، فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدْهُ إِلَى بَيِّتِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ
وَعَلِّمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَضِفْ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مَا عَلَّمْتَهُ عَلَى حَرْفِ الْأَلْفِ مِنَ الْأَحَادِ ، فَكَانَ
إِثْنَيْنِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةَ عَشْرِينَ . أَدْخِلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ تَقِفْ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ،
أَثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيِّتِ الْقَصِيدِ ، سِتَّةَ وَتَسْعِينَ وَهُوَ نِهَائَةُ الدَّوْرِ فِي الْحَرْفِ
الْوَتْرِيِّ . فَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ وَضَعْ الدَّوْرَ السَّابِعَ ، وَهُوَ إِبْتِدَاءُ لِمُخْتَرَعِ
ثَانٍ يَنْشَأُ مِنَ الْإِخْتِرَاعَيْنِ . وَلِهَذَا الدَّوْرُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ ، تُضِيفُ لَهَا وَاحِدًا تَكُونُ
عَشْرَةً لِلنَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ . وَهَذَا الْوَاحِدُ تَرْيِدُهُ بَعْدَ إِلَى إِثْنَيْ عَشَرَ دَوْرًا ، إِذَا كَانَ مِنْ هَذِهِ
النَّسْبَةِ ، أَوْ تَنْقُصُهُ مِنَ الْأَصْلِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ . فَاصْعَدْ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةِ
وَتَسْعِينَ وَأَدْخِلْ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِعَشْرَةِ تَقِفْ عَلَى خَمْسِمَائَةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَمْسُونَ ،
نُونَ مُضَاعَفَةٌ بِمِثْلِهَا ، وَتِلْكَ (ق) أَثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيِّتِ الْقَصِيدِ إِثْنَيْنِ
وَخَمْسِينَ ، وَأَسْقِطْ مِنْ إِثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ إِثْنَيْنِ ، وَأَسْقِطْ تِسْعَةَ الَّتِي لِلدَّوْرِ ، الْبَاقِي
وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ ، فَأَدْخِلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ تَقِفْ عَلَى وَاحِدِ أَثْبِتْهُ . وَكَذَلِكَ
أَدْخِلْ بِهَا فِي بَيِّتِ الْقَصِيدِ تَجِدْ وَاحِدًا ، فَهَذَا مِيزَانُ هَذِهِ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ فَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ
بَيِّتِ الْقَصِيدِ عَلَامَتَيْنِ . عَلَامَةٌ عَلَى الْأَلْفِ الْأَخِيرِ الْمِيزَانِيِّ ، وَأُخْرَى عَلَى الْأَلْفِ
الْأُولَى فَقَطْ ، وَالثَّانِيَةُ أَرْبَعَةٌ وَعَشْرُونَ وَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ ، وَضَعْ الدَّوْرَ
الثَّامِنَ وَعَدَدَتَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ ، أَدْخِلْ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ وَأَدْخِلْ فِي
بَيِّتِ الْقَصِيدِ بِخَمْسَةِ تَقِفْ عَلَى عَيْنٍ بِسَبْعِينَ ، أَثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا . وَأَدْخِلْ فِي
الْجَدْوَلِ بِخَمْسَةِ ، وَخُذْ مَا قَابِلَهَا مِنَ السَّطْحِ ، وَذَلِكَ وَاحِدٌ ، أَثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ
الْبَيِّتِ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَسْقِطْ وَاحِدًا مِنْ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ لِلْأَسِ الثَّانِيِ وَأَضِفْ
إِلَيْهَا خَمْسَةَ ، الدَّوْرِ . الْجُمْلَةُ إِثْنَانِ وَخَمْسُونَ . أَدْخِلْ بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ تَقِفْ

على حرف (ب) عِبَارِيَّةٌ وَهِيَ مُرْتَبَةٌ مِثْبِئِيَّةٌ لِتَرَايِدِ الْعَدَدِ ، فَتَكُونُ مَائَتَيْنِ وَهِيَ
حَرْفُ رَاءٍ ، أُثْبِتَهَا وَعَلَّمْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْقَصِيدِ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ ، فَانْتَقَلَ الْأَمْرُ مِنْ سِتِّهِ
وَتِسْعِينَ إِلَى الْإِتْبَاءِ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ ، فَأَضِيفُ إِلَى أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ خَمْسَةَ ،
الدَّوْرُ ، وَأَسْقِطُ وَاحِدًا تَكُونُ الْجُمْلَةُ ثَمَانِيَةَ وَعِشْرِينَ ، أَدْخُلُ بِالنِّصْفِ مِنْهَا فِي بَيْتِ
الْقَصِيدِ تَقِفُ عَلَى ثَمَانِيَةَ ، أُثْبِتُ (٢) وَعَلَّمْتُ عَلَيْهَا وَضَعُ الدَّوْرَ التَّاسِعَ ، وَعَدَدُهُ ثَلَاثَةُ
عَشْرٍ الْبَاقِي وَاحِدٌ ، إِضْعُدُ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ بِوَاحِدٍ ، وَلَيْسَتْ نِسْبَةُ الْعَمَلِ هُنَا كَنِسْبَتِهَا
فِي الدَّوْرِ السَّادِسِ لِتَضَاعُفِ الْعَدَدِ ، وَلِأَنَّهُ مِنَ النِّشَاءِ الثَّانِيَةِ ، وَلِأَنَّهُ أَوَّلُ الثَّلَاثِ
الثَّلَاثِ مِنْ مُرَبَّعَاتِ الْبُرُوجِ وَآخِرِ السِّتِّ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُثَلَّثَاتِ ، فَأَضْرِبُ ثَلَاثَةَ عَشْرَ
الَّتِي لِلدَّوْرِ فِي أَرْبَعَةٍ الَّتِي هِيَ مُثَلَّثَاتُ الْبُرُوجِ السَّابِقَةِ ، الْجُمْلَةُ إِثْنَانِ وَخَمْسُونَ ،
أَدْخُلُ بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ تَقِفُ عَلَى حَرْفِ إِثْنَيْنِ عِبَارِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِثْبِئِيَّةٌ
لِتَجَاوِزَهَا فِي الْعَدَدِ عَنْ مُرْتَبَتِي الْأَحَادِ وَالْعَشْرَاتِ ، فَأُثْبِتُهُ مَائَتَيْنِ رَاءٍ ، وَعَلَّمْتُ عَلَيْهَا
مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَضِيفُ إِلَى ثَلَاثَةِ عَشْرَ ، الدَّوْرُ ، وَاحِدَ الْأَسِّ ،
وَأَدْخُلُ بِأَرْبَعَةَ عَشْرَ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ ، فَعَلَّمْتُ عَلَيْهَا ثَمَانِيَةَ وَعِشْرِينَ ،
وَاطْرَحُ مِنْ أَرْبَعَةَ عَشْرَ سَبْعَةَ يَبْقَى سَبْعَةَ إِضْرِبُ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَدْخُلُ
بِسَبْعَةَ تَقِفُ عَلَى حَرْفِ لَامٍ ، أُثْبِتُهُ وَعَلَّمْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيْتِ ، وَضَعُ الدَّوْرَ الْعَاشِرَ وَعَدَدُهُ
تِسْعَةٌ ، وَهَذَا اِبْتِدَاءُ الْمُثَلَّثَةِ الرَّابِعَةِ ، وَأَضْعُدُ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ بِتِسْعَةٍ ، تَكُونُ خَلَاءً ،
فَأَضْعُدُ بِتِسْعَةَ ثَانِيَةَ تَصِيرُ فِي السَّابِعِ مِنَ الْإِتْبَاءِ ، إِضْرِبُ تِسْعَةَ فِي أَرْبَعَةٍ لَصُعُودِنَا
بِتِسْعَتَيْنِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تُضْرَبُ فِي إِثْنَيْنِ ، وَأَدْخُلُ فِي الْجَدْوَلِ بِسِتِّهِ وَثَلَاثَيْنِ تَقِفُ
عَلَى أَرْبَعَةٍ زَمَامِيَّةٌ وَهِيَ عَشْرِيَّةٌ ، فَأَخَذْنَاهَا أَحَادِيَّةً لِقَلَّةِ الْأَدْوَارِ ، فَأُثْبِتُ حَرْفَ
دَالٍ ، وَإِنْ أَضَفْتُ إِلَى سِتِّهِ وَثَلَاثَيْنِ وَاحِدَ الْأَسِّ كَانَ حَدُّهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ، فَعَلَّمْتُ
عَلَيْهَا ، وَلَوْ دَخَلْتُ بِالتَّسْعَةِ لَا غَيْرَ مِنْ ضَرْبِ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ لَوَقَّفْتُ عَلَى ثَمَانِيَةَ ،
فَاطْرَحُ مِنْ ثَمَانِيَةَ أَرْبَعَةَ الْبَاقِي أَرْبَعَةٌ وَهُوَ الْمَقْصُودُ ، وَلَوْ دَخَلْتُ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ
بِثَمَانِيَةَ عَشْرَ الَّتِي هِيَ تِسْعَةٌ فِي إِثْنَيْنِ لَوَقَّفْتُ عَلَى وَاحِدِ زَمَامِيٍّ وَهُوَ عَشْرِيٌّ ، فَاطْرَحُ

منه إثنين تَكَرَّرَ التسعة . الباقِي ثَمَانِيَّةٌ نِصْفُهَا الْمَطْلُوبُ . وَلَوْ دَخَلَتْ فِي صَدْرِ
الْجَدْوَلِ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ بِضَرْبِهَا فِي ثَلَاثَةِ لَوْقَعَتِ عَلَى عَشْرَةِ زَمَانِيَّةٍ ، وَالْعَمَلُ
وَاحِدٌ . ثُمَّ أَدْخَلَ بِتِسْعَةٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ وَأَثْبَتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ أَلْفٌ ، ثُمَّ اضْرَبَ
تِسْعَةً فِي ثَلَاثَةِ الْبَيْتِ هِيَ مُرَكَّبٌ تِسْعَةَ الْمَاضِيَةِ وَأَسْقِطَ وَاحِدًا وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ
الْجَدْوَلِ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ . وَأَثْبَتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ مَائَتَانِ بِحَرْفِ رَاءٍ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْتِ الْقَصِيدِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ . وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ وَضَعِ الدَّوْرَ الْحَادِي
عَشَرَ وَلَهُ سَبْعَةٌ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةٌ . إضْعُدْ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَّةٍ بِخَمْسَةِ وَتَحَسَّبْ مَا تَكَرَّرَ
عَلَيْهِ الْمَشْيُ فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ ، وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِخَمْسَةِ تَقِفْ عَلَى خَالٍ ؛ فَخُذْ
مَا قَابِلَهُ مِنَ السُّطْحِ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَأَدْخَلَ بِوَاحِدٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ تَكُنْ سِينٌ . أَثْبَتَهُ
وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةً . وَلَوْ يَكُونُ الْوَقْفُ فِي الْجَدْوَلِ عَلَى بَيْتِ غَامِرٍ لِأَثْبَتْنَا الْوَاحِدَ
ثَلَاثَةً . وَأَضْعَفَ سَبْعَةَ عَشَرَ بِمِثْلِهَا وَأَسْقِطَ وَاحِدًا وَأَضْعَفَهَا بِمِثْلِهَا وَزِدْهَا أَرْبَعَةَ تَبْلُغُ
سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأُوتَارِ تَقِفْ عَلَى سِتَّةٍ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَضْعَفَ
خَمْسَةَ بِمِثْلِهَا . وَأَدْخَلَ فِي الْبَيْتِ تَقِفْ عَلَى لَامٍ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا عَشْرِينَ ، وَاضْرَبَ
عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ . وَضَعِ الدَّوْرَ الثَّانِي عَشَرَ وَلَهُ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدٌ .
إضْعُدْ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَّةٍ بِوَاحِدٍ ، وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْأَدْوَارِ وَآخِرُ الْإِخْتِرَاعَيْنِ وَآخِرُ
الْمُرَبَّعَاتِ الثَّلَاثِيَّةِ وَآخِرِ الْمُثَلَّثَاتِ الرَّبَاعِيَّةِ . وَالْوَاحِدُ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ يَقَعُ عَلَى
ثَمَانِينَ زَمَانِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ آخَاذُ ثَمَانِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مَعْنَا مِنَ الْأَدْوَارِ إِلَّا وَاحِدٌ ؛ فَلَوْ زَادَ
عَنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ مَرَبَّعَاتِ إِثْنَيْ عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةً مِنْ مُثَلَّثَاتِ إِثْنَيْ عَشَرَ لَكَانَتْ (ح) ،
وَإِنَّمَا هِيَ (د) ؛ فَأَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ أَرْبَعَةً وَتِسْعِينَ ؛ ثُمَّ انظُرْ
مَا نَاسَبَهَا مِنَ السُّطْحِ تَكُنْ خَمْسَةً . أَضْعَفَهَا بِمِثْلِهَا لِلْأَسِّ تَبْلُغُ عَشْرَةً ، أَثْبَتَ (ي)
وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَانظُرْ فِي أَيِّ الْمَرَاتِبِ وَقَعَتْ ؛ وَجَدْنَاهَا فِي الرَّابِعَةِ ، دَخَلْنَا بِسَبْعَةٍ فِي
حُرُوفِ الْأُوتَارِ ، وَهَذَا الْمَدْحَلُ يُسَمَّى التَّوْلِيدَ الْحَرْفِيَّ فَكَانَتْ (ف) ، أَثْبَتَهَا
وَأَضْفَ إِلَى سَبْعَةٍ وَاحِدِ الدَّوْرِ ، الْجُمْلَةُ ثَمَانِيَّةٌ . أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأُوتَارِ تَبْلُغُ (س)

أثبتها وعلم عليها ثمانية . واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور ، فإنها
آخر مربعات الأوتار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين ، أدخل بها في بيت القصيد
وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون ، وهو نهاية الدور
الثاني في الأوتار الحرفية . واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الأولى
ولها تسعة . وهذا العدد يناسب أبداً الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أوتاراً
وذلك تسعة . فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف
الأوتار . وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين .
فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألفاً . أثبتة وعلم عليه ستة وتسعين . وإن
ضربت تسعة التي هي أوتار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على
تسعين . والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك . واضعد في ضلع ثمانية
يتسعة وأدخل في الجدول يتسعة تبلغ إثني زمامية . واضرب تسعة فيما ناسب من
السطح . وذلك ثلاثة . وأضف لذلك تسعة . عدد الأوتار الحرفية . وأطرح واحداً
الباقي من دور إثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ، أدخل بها في البيت تبلغ خمسة .
فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وأدخل في صدر الجدول بثمانية عشر . وخذ ما في
السطح وهو واحد . أدخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبتة وعلم عليه .
واضرب على حرفين من الأوتار . وضع النتيجة الثانية ولها تسعة عشر الباقي
خمس . فاضعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين
تبلغ خمسة عشر . أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة .
وأدخل ستة عشر في بيت القصيد تبلغ (ت) أثبتة وعلم عليه أربعة وستين .
وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين . وزد واحداً الباقي من الدور الثاني
عشر يكن تسعة . أدخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية . وانظر ما في
السطح تجد واحداً أثبتة وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت .
وأدخل يتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات . فأثبت (لام) وعلم

عَلَيْهِ وَضَعَ النَّيْجَةَ الثَّلَاثَةَ وَعَدَّهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدًا . فَأَنْقَلَ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةٍ
بِوَاحِدٍ وَأَضْفُ إِلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ الثَّلَاثَةَ الزَّائِدَةَ عَلَى التَّسْعِينَ . وَوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ
الثَّانِي عَشَرَ تَبْلُغُ سَبْعَةَ عَشَرَ . وَوَاحِدَ النَّيْجَةَ تَكُنْ ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ . أَدْخُلْ بِهَا فِي
حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَكُنْ لَأَمَّا أُثْبِتْهَا فَهَذَا آخِرُ الْعَمَلِ .

وَالْمِثَالُ فِي هَذَا السُّؤَالِ السَّابِقِ : أَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الزَّائِرَجَةَ عَلِمَ مُخَدِّثٌ أَوْ
قَدِيمٌ . يَطَالِعُ أَوَّلَ دَرَجَةِ مِنَ الْقَوْسِ ، أُثْبِتْنَا حُرُوفَ الْأَوْتَارِ ، ثُمَّ حُرُوفَ السُّؤَالِ .
ثُمَّ الْأَصُولِ . وَهِيَ عِدَّةُ الْحُرُوفِ ثَلَاثَةٌ وَتَسْعُونَ أَذْوَارَهَا سَبْعَةُ الْبَاقِي مِنْهَا تِسْعَةٌ .
الطَّالِعُ وَاحِدٌ . سُلْطَانُ الْقَوْسِ أَرْبَعَةٌ . الدَّوْرُ الْأَكْبَرُ وَاحِدٌ . دَرَجَةُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ
إِثْنَانِ . ضَرْبُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ ثَمَانِيَّةٌ ، إِضَافَةُ السُّلْطَانِ لِلطَّالِعِ خَمْسَةٌ
بَيَّتَ الْقَصِيدُ .

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الأوتار ، ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع
ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و
ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي .

(حروف السؤال) ا ل ز ا ي ر ج ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م الدور الأول
٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس
١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥
الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور
الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة
١٣ الباقي ١ .

۲۱	ذ	۶	هـ ع ح و ۶۶ فی ای ۶
۲۲	ن	۱	س
۲۳	غ	۲	و
۲۴	ر	۳	ا
۲۵	ا	۴	ل
۲۶	ی	۵	ع
۲۷	ب	۶	ظ
۲۸	ش	۷	ی
۲۹	ك	۸	م
۳۰	ض	۹	ا
۳۱	ب	۱۰	ل
۳۲	ط	۱۱	ن
۳۳	هـ	۱۲	ل
۳۴	ا	۱۳	ق
۳۵	ل	۱۴	ح
۳۶	ج	۱۵	ز
۳۷	د	۱۶	ت
۳۸	م	۱۷	ف
۳۹	ث	۱۸	ص
۴۰	ل	۱۹	ن
۴۱	ا	۲۰	ا

فوزاوسن رراساب ارقاع ارض حرح لدارس الدی و س ر
ادم ن ال ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف روح الودس ادر رس ره ال درى س وان س دروا ب لا ام رب والال عال .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِبَةِ مِنْ زَايِرِجَةِ الْعَالَمِ مَنْظُومَةً . وَلِلْقَوْمِ طَرَائِقُ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ الزَّايِرِجَةِ يَسْتَخْرِجُونَ بِهَا أَجْوِبَةَ الْمَسَائِلِ غَيْرَ مَنْظُومَةٍ . وَعِنْدَهُمْ أَنَّ السِّرَّ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مَنْظُومًا مِنَ الزَّايِرِجَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مَرْجُهُمْ بَيِّنَتِ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ وَهُوَ : سَوَّالُ عَظِيمِ الْخَلْقِ الْبَيِّنَتِ ، وَلِذَلِكَ يُخْرَجُ الْجَوَابُ عَلَى رَوِيهِ . وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْأُخْرَى فَيَخْرُجُ الْجَوَابُ غَيْرَ مَنْظُومٍ . فَمِنْ طَرَائِقِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِبَةِ مَا نَنْقُلُهُ عَنْ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ .

٢ - فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

إِعْلَمْ أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنْ هَذِهِ الْحُرُوفُ أَضَلُّ الْأَسْئَلَةِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا تَسْتَنْتِجُ الْأَجْوِبَةَ عَلَى تَجَزِئَتِهِ بِالْكَلِيَّةِ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا كَمَا تَرَى وَاللَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ا و ل ا ع ظ س ال م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا .

وَقَدْ نَظَّمَهَا بَعْضُ الْفُضَلَاءِ فِي بَيِّنَتٍ جَعَلَ فِيهِ كُلَّ حَرْفٍ مَشْدُودٍ مِنْ حَرْفَيْنِ وَسَمَاءَ الْقُطْبِ فَقَالَ :

سَوَّالُ عَظِيمِ الْخَلْقِ حَزَتْ فَصَنَ إِذْنُ غَرَائِبِ شَكِّ ضَبْطُهُ الْجَدِّ مِثْلًا

فَإِذَا أَرَدْتَ اسْتِئْتِاجَ الْمَسْئَلَةِ فَاحْذَفْ مَا تَكَرَّرَ مِنْ حُرُوفِهَا وَأَثَبْتَ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ اخْذَفْ مِنَ الْأَصْلِ وَهُوَ الْقُطْبُ لِكُلِّ حَرْفٍ فَضَّلَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ حَرْفًا يَمَائِلُهُ ، وَأَثَبْتَ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ امْرُجِ الْفَضْلَيْنِ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ تَبْدَأُ بِالْأَوَّلِ مِنَ

ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرَى كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أَسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ ، وَآخِذَةً
 مَا يَلِي الْأَوْتَادَ وَكَذَلِكَ السَّوَاقِطُ لِأَنَّ نِسْبَتَهَا مُضْطَرِبَةٌ . وَهَذَا الْخَارِجُ هُوَ أَوَّلُ رُتَبِ
 السُّرِّيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُ مِنْهَا أَسُوسَ الْمُؤَلَّدَاتِ ، يَبْقَى أَسُ عَالَمِ
 الْخَلْقِ بَعْدَ عُرُوضِهِ لِلْمُدَدِ الْكُونِيَّةِ ، فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمُجْرَدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ
 عُنَاصِرُ الْأُمْدَادِ ، يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ ، وَتَطْرَحُ أَوَّلُ رُتَبِ السُّرِّيَانِ مِنْ
 مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ يَبْقَى عَالَمُ التَّوَسُّطِ . وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَوَالِمِ الْأَكْوَانِ الْبَسِيطَةِ
 لَا الْمَرْكَبَةِ . ثُمَّ تَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى ،
 فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رُتَبِ السُّرِّيَانِ ، ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْأُمْدَادِ الْأَصْلِيَّ
 يَبْقَى ثَالِثُ رُتَبَةِ السُّرِّيَانِ ، فَتَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ أَيْدَاءً فِي رَابِعِ
 مَرْتَبَةِ السُّرِّيَانِ ، يَخْرُجُ أَوَّلُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ
 التَّفْصِيلِ ، وَالثَّالِثُ فِي الثَّالِثِ يَخْرُجُ ثَالِثُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالرَّابِعُ فِي الرَّابِعِ
 يَخْرُجُ رَابِعُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ . فَتَجْمَعُ عَوَالِمَ التَّفْصِيلِ وَتَحْطُ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ ، تَبْقَى
 الْعَوَالِمُ الْمُجْرَدَةُ ، فَتَقْسِمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجِزءُ الْأَوَّلُ ، وَيُقَسَّمُ الْمُتَكَسِّرُ
 عَلَى الْأَفْقِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْجِزءُ الثَّانِي ، وَمَا انْكَسَرَ فَهُوَ الثَّالِثُ ، وَيَتَعَيَّنُ الرَّابِعُ
 هَذَا فِي الرَّبَاعِيِّ . وَإِنْ شِئْتَ أَكْثَرَ مِنَ الرَّبَاعِيِّ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْ عَوَالِمِ التَّفْصِيلِ وَمِنْ
 رُتَبِ السُّرِّيَانِ وَمِنْ الْأَوْفَاقِ بَعْدَ الْحُرُوفِ . وَاللَّهُ يُرْشِدُنَا وَإِيَّاكَ . وَكَذَلِكَ إِذَا قَسَمَ
 عَالَمَ التَّجْرِيدِ عَلَى أَوَّلِ رُتَبِ السُّرِّيَانِ خَرَجَ الْجِزءُ الْأَوَّلُ مِنْ عَالَمِ التَّرْكِيبِ ،
 وَكَذَلِكَ إِلَى نِهَائِهِ الرُّتَبَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عَالَمِ الْكُونِ . فَافْهَمْ وَتَدَبَّرْ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ
 الْمُبِينُ .

وَمِنْ طَرِيقِهِمْ أَيْضًا فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ ، قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ : إِعْلَمْ
 أَيُّدُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ بِرُوحٍ مِنْهُ ، أَنَّ عِلْمَ الْحُرُوفِ جَلِيلٌ يَتَوَصَّلُ الْعَالَمُ بِهِ لِمَا
 لَا يَتَوَصَّلُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَ الْعَالَمِ ، وَلِلْعَمَلِ بِهِ شَرَائِطُ تَلْتَزِمُ . وَقَدْ
 يَسْتَخْرِجُ الْعَالَمُ أَسْرَارَ الْخَلِيقَةِ وَسَرَائِرَ الطَّبِيعَةِ ، فَيَطَّلِعُ بِذَلِكَ عَلَى نَتِيجَتِي

الْفَلْسَفَةِ ، أَعْنَى السِّمِّيَا وَأَخْتَهَا ، وَيَرْفَعُ لَهُ حِجَابَ الْمَجْهُولَاتِ وَيَطْلَعُ بِذَلِكَ عَلَى
مَكْنُونِ حَبَايَا الْقُلُوبِ . وَقَدْ شَهِدَتْ جَمَاعَةٌ بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ ، مِمَّنْ اتَّصَلَ بِذَلِكَ ،
فَأَظْهَرَ الْغَرَائِبَ وَخَرَقَ الْعَوَائِدَ وَتَصَرَّفَ فِي الْوُجُودِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مَلَكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ الْإِحْتِهَادَ وَحُسْنَ الْمَلَكَةِ مَعَ الصَّبْرِ ، مِفْتَاحُ كُلِّ
خَيْرٍ ، كَمَا أَنَّ الْخُرْقَ وَالْعَجَلَةَ رَأْسُ الْحِرْمَانِ ، فَأَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ قُوَّةَ كُلِّ
حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْفَائِيطُوسِ أَعْنَى أَنْبِجَدَ إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ ، وَهَذَا أَوَّلُ مَدْخَلٍ مِنْ عِلْمِ
الْحُرُوفِ ، فَانظُرْ مَا لِدَلِكِ الْحَرْفِ مِنَ الْأَعْدَادِ ، فَمِلْكَ الدَّرَجَةُ الَّتِي هِيَ مُنَاسِبَةٌ
لِلْحَرْفِ هِيَ قُوَّتُهُ فِي الْجِسْمَانِيَّاتِ . ثُمَّ أَضْرِبِ الْعَدَدَ فِي مِثْلِهِ تَخْرُجُ لَكَ قُوَّتُهُ فِي
الرُّوحَانِيَّاتِ وَهِيَ وَتَرَهُ . وَهَذَا فِي الْحُرُوفِ الْمَنْقُوطَةِ لَا يَتِمُّ بَلْ يَتِمُّ لِغَيْرِ
الْمَنْقُوطَةِ ، لِأَنَّ الْمَنْقُوطَةَ مِنْهَا مَرَاتِبٌ لِمَعَانٍ يَأْتِي عَلَيْهَا الْبَيَانُ فِيمَا بَعْدُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الْحُرُوفِ شَكْلًا فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ أَعْنَى
الْكُرْسِيِّ ، وَمِنْهَا الْمُتَحَرِّكُ وَالسَّاكِنُ وَالْعُلُويُّ وَالسُّفْلِيُّ كَمَا هُوَ مَرْقُومٌ فِي أَمَاكِنِهِ مِنْ
الْجَدَاوِلِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الزِّيَارِجِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوَى الْحُرُوفِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ ، الْأَوَّلُ وَهُوَ أَقْلَاهَا قُوَّةٌ تَظْهَرُ بَعْدَ
كِتَابَتِهَا ، فَتَكُونُ كِتَابَتُهُ لِعَالَمِ رُوحَانِيٍّ مَخْصُوصٍ بِذَلِكَ الْحَرْفِ الْمَرْسُومِ ، فَمَتَى
خَرَجَ ذَلِكَ الْحَرْفُ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ وَجَمَعَ هِمَّةً كَانَتْ قَوَى الْحُرُوفِ مُؤَثَّرَةً فِي عَالَمِ
الْأَجْسَامِ . الثَّانِي قُوَّتُهَا فِي الْهَيْئَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَذَلِكَ مَا يَصْدُرُ عَنْ تَصْرِيفِ
الرُّوحَانِيَّاتِ لَهَا ، فَهِيَ قُوَّةٌ فِي الرُّوحَانِيَّاتِ الْعُلُويَّاتِ ، وَقُوَّةٌ شَكْلِيَّةٌ فِي عَالَمِ
الْجِسْمَانِيَّاتِ . الثَّلَاثُ وَهُوَ يَجْمَعُ الْبَاطِنُ ، أَعْنَى الْقُوَّةَ النَّفْسَانِيَّةَ عَلَى تَكْوِينِهِ ،
فَتَكُونُ قَبْلَ النُّطْقِ بِهِ صُورَةً فِي النَّفْسِ ، بَعْدَ النُّطْقِ بِهِ صُورَةً فِي الْحُرُوفِ وَقُوَّةٌ فِي
النُّطْقِ .

وَأَمَّا طَبَائِعُهَا فَهِيَ الطَّبِيعِيَّاتُ الْمُنْسُوبَةُ لِلْمَتَوْلِّدَاتِ فِي الْحُرُوفِ وَهِيَ الْحَرَارَةُ

وَالْيَبُوسَةُ ، وَالْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالْيَبُوسَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالرُّطُوبَةُ ، فَهَذَا سِرُّ
الْعَدَدِ الْيَمَانِيِّ ، وَالْحَرَارَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالنَّارِ وَهُمَا ، (ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س
ق ث ظ) ، وَالْبُرُودَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْمَاءِ (ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ)
وَالْيَبُوسَةُ جَامِعَةٌ لِلنَّارِ وَالْأَرْضِ (ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض) ^(١) فَهَذِهِ
نِسْبَةُ حُرُوفِ الطَّبَائِعِ وَتَدَاخُلُ أَجْزَاءُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ . وَتَدَاخُلُ أَجْزَاءُ الْعَالَمِ فِيهَا
عُلُويَاتٌ وَسُفْلِيَّاتٌ بِأَسْبَابِ الْأَمْهَاتِ الْأُولَى . أَغْنَى الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعُ الْمُتَفَرِّدَةُ ،
فَمَتَى أُرِدَّتْ اسْتِخْرَاجُ مَجْهُولٍ مِنْ مَسْئَلَةٍ مَا ، فَحَقَّقْ طَالِعَ السَّائِلِ أَوْ طَالِعَ مَسْئَلَتِهِ
وَاسْتَنْطِقْ حُرُوفَ أَوْتَارِهَا الْأَرْبَعَةَ : الْأُولَى وَالرَّابِعَةَ وَالسَّابِعَةَ وَالْعَاشِرَةَ مُسْتَوِيَةً
مُرْتَبَةً ، وَاسْتَخْرِجْ أَعْدَادَ الْقَوَى وَالْأَوْتَارِ كَمَا سَنُبَيِّنُ . وَاحْمِلْ وَأَنْسُبْ وَاسْتَنْتِجْ
الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الْمَطْلُوبُ . إِمَّا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ أَوْ بِالْمَعْنَى . وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ
مَسْئَلَةٍ تَقَعُ لَكَ . بَيَانُهُ : إِذَا أُرِدَّتْ أَنْ تَسْتَخْرِجَ قَوَى حُرُوفِ الطَّلَاعِ . مَعَ إِسْمِ السَّائِلِ
وَالْحَاجَةِ ، فَاجْمَعْ أَعْدَادَهَا بِالْجُمْلِ الْكَبِيرِ ، فَكَانَ الطَّلَاعُ الْحَمَلُ رَابِعُهُ السَّرْطَانُ
سَابِعُهُ الْمِيزَانُ عَاشِرُهُ الْجَدِيُّ . وَهُوَ أَقْوَى هَذِهِ الْأَوْتَادِ . فَاسْقِطْ مِنْ كُلِّ بُرْجٍ حَرْفِي
التَّعْرِيفِ . وَانظُرْ مَا يَخْصُ كُلَّ بُرْجٍ مِنَ الْأَعْدَادِ الْمُنْطَقَةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي دَائِرَتِهَا .
وَاحْذِفْ أَجْزَاءَ الْكَسْرِ فِي النِّسْبِ الْإِسْتِنْطَاقِيَّةِ كُلِّهَا وَأَثْبِتْ تَحْتَ كُلِّ حَرْفٍ
مَا يَخْصُهُ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ أَعْدَادَ حُرُوفِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ وَمَا يَخْصُهَا كَالأُولَى . وَارْسِمِ
ذَلِكَ كُلَّهُ أَحْرَفًا وَرَتَّبْ الْأَوْتَادَ وَالْقَوَى وَالْقَرَائِنَ سَطْرًا مُمْتَزَجًا . وَكَسِّرْ وَأَضْرِبْ
مَا يُضْرِبُ لِاسْتِخْرَاجِ الْمَوَازِينِ . وَاجْمَعْ وَاسْتَنْتِجْ الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الضَّمِيرُ
وَجَوَابُهُ . مِثَالُهُ إِفْرَضْ أَنَّ الطَّلَاعَ الْحَمَلُ كَمَا تَقَدَّمَ . تُرْسِمُ (ح م ل) ، فَلِلْحَاءِ مِنْ
الْعَدَدِ ثَمَانِيَّةٌ لَهَا النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثَّمْنُ (د ب ا) الْمِيمُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ أَرْبَعُونَ . لَهَا
النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثَّمْنُ وَالْعَشْرُ وَنِصْفُ الْعَشْرِ إِذَا أُرِدَّتِ التَّدْقِيقُ (م ك ي ه د ب)
اللَّامُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ ثَلَاثُونَ . لَهَا النِّصْفُ وَالثَّلَاثَانُ وَالثَّلَاثُ وَالْخُمْسُ وَالسُّدُسُ وَالْعَشْرُ

(١) علق البهري هنا بقوله ، لعل هذه عبارة بعض الشاركة . لأن هنا ترتيب للشاركة . لا ترتيب

(ك ي و ه ج) . وَهَكَذَا تَفْعَلُ بِسَائِرِ حُرُوفِ الْمَسْئَلَةِ وَالْإِسْمِ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ يَقَعُ لَكَ . وَأَمَّا اسْتِخْرَاجُ الْأَوْتَارِ فَهِيَ أَنْ تَقْسِمَ مَرَّةً كُلَّ حَرْفٍ عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوجَدُ لَهُ . مِثَالُهُ ، حَرْفُ (د) لَهُ مِنَ الْأَعْدَادِ أَرْبَعَةٌ مَرَبُّعًا سِتَّةٌ عَشَرَ ، إِقْسِمَهَا عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوجَدُ لَهَا وَهُوَ اِثْنَانِ يَخْرُجُ وَتَرَا لِدَالِ ثَمَانِيَّةٍ . ثُمَّ تَضَعُ كُلَّ وَتَرٍ مُقَابِلًا لِحَرْفِهِ . ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النِّسْبَ الْعُنْصُرِيَّةَ . كَمَا تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ الْإِسْتِنطَاقِ ، وَلَهَا قَاعِدَةٌ تَطْرُقُ فِي اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ طَبَعِ الْحُرُوفِ وَطَبَعِ الْبَيْتِ الَّذِي يَحُلُّ فِيهِ مِنَ الْجَدْوَلِ كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ لِمَنْ عَرَفَ الْإِضْطِلَاحَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ عَنْ عَلِيلٍ لَمْ يَعْرِفْ مَرَضَهُ مَا عَلَّمَهُ . وَمَا الْمَوْافِقُ لِزَيْرِهِ مِنْهُ ، فَمَرَّ السَّائِلُ أَنْ يُسَمِّيَ مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى إِسْمِ الْعِلَّةِ الْمَجْهُولَةِ . لِتَجْعَلَ ذَلِكَ الْإِسْمَ قَاعِدَةً لَكَ . ثُمَّ اسْتَنْطَقَ الْإِسْمَ مَعَ إِسْمِ الطَّالِعِ وَالْعُنْصُرِ وَالسَّائِلِ وَالْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ إِنْ أَرَدْتَ التَّحْقِيقَ فِي الْمَسْئَلَةِ . وَإِلَّا اِقْتَصَرْتَ عَلَى الْإِسْمِ الَّذِي سَمَّاهُ السَّائِلُ ، وَفَعَلْتَ بِهِ كَمَا نَبَّيْنَا . فَأَقُولُ مِثْلًا ، سَمَى السَّائِلُ فَرَسًا فَأُثِبَتِ الْحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ مَعَ أَعْدَادِهَا الْمُنْطَقَةِ . بَيَانُهُ ، أَنْ لِلْفَاءِ مِنَ الْعَدَدِ ثَمَانِينَ وَلِهَا (م ك ي ح ب) ثُمَّ الرَّاءُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ مَائَتَانِ (ق ن ك ي) ثُمَّ السِّينُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ سِتُونَ وَلِهَا (م ل ك) فَالْوَاوُ عَدَدٌ تَامٌ لَهُ (د ج ب) وَالسِّينُ مِثْلُهُ وَلِهَا (م ل ك) . فَإِذَا بَسَطْتَ حُرُوفَ الْأَسْمَاءِ وَجَدْتَ عُنْصُرَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ ، فَأَحْكُمُ لِأَكْثَرِهِمَا حُرُوفًا بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْآخِرِ . ثُمَّ أَحْمِلْ عَدَدَ حُرُوفِ غَنَاصِرِ إِسْمِ الْمَطْلُوبِ وَحُرُوفِهِ دُونَ بَسْطِ . وَكَذَلِكَ إِسْمُ الطَّالِبِ وَأَحْكُمُ لِلْأَكْثَرِ وَالْأَقْوَى بِالْغَلْبَةِ .

وَصِفَةُ قَوَى اسْتِخْرَاجِ الْغَنَاصِرِ (١)

فَتَكُونُ الْغَلْبَةُ هُنَا لِلتَّرَابِ وَطَبَعُهُ الْبُرُودَةُ ، وَالْيَبُوسَةُ طَبَعُ السُّودَاءِ ، فَتَحْكُمُ

(١) بياض بالأصل مقدار ثلاثة أسطر .

على المريض بالسوداء . فإذا ألفت من حُرُوفِ الإِسْتِنطَاقِ كَلَاماً على نِسْبَةِ تَقْرِيْبِيَّةٍ خَرَجَ مَوْضِعُ الوَجْعِ في الخَلْقِ ، وَوِوَافِقُهُ مِنَ الأَدْوِيَةِ حُقْنَةُ ، وَمِنَ الأَشْرِيَةِ شَرَابُ اللُّيْمُونِ . هَذَا مَا خَرَجَ مِنْ قَوَى أَعْدَادِ حُرُوفِ إِسْمِ فَرَسٍ وَهُوَ مِثَالٌ تَقْرِيْبِيٌّ مُخْتَصَرٌ . وَأَمَّا إِسْتِخْرَاجُ قَوَى العُنَاصِرِ مِنَ الأَسْمَاءِ العِلْمِيَّةِ فَهُوَ أَنْ تُسَمَّى مَثَلًا مُحَمَّدًا ، فَمُتْرَسِمٌ أَحْرَفُهُ مَقْطَعَةٌ ، ثُمَّ تَضَعُ أَسْمَاءَ العُنَاصِرِ الأَرْبَعَةَ على تَرْتِيبِ الفَلَكِ ، يُخْرَجُ لَكَ مَا فِي كُلِّ عُنْصُرٍ مِنَ الحُرُوفِ وَالْعَدَدِ . وَمِثَالُهُ :

تاري	ترايي	هواني	ماني
١١١	ب ب ب	ح ح ح ح ح ح ح	د د د د د
٠٠٠	و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	س س س س س س س	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ث ث ث	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ط ط ط	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فَتَجِدُ أَقْوَى هَذِهِ العُنَاصِرِ مِنْ هَذَا الإِسْمِ المَذْكُورِ عُنْصُرَ المَاءِ ، لِأَنَّ عَدَدَ حُرُوفِهِ عِشْرُونَ حَرْفًا ، فَجَعَلْتُ لَهُ العُلْبَةَ على بَقِيَّةِ عُنَاصِرِ الإِسْمِ المَذْكُورِ . وَهَكَذَا يَفْعَلُ بِجَمِيعِ الأَسْمَاءِ . حِينَئِذٍ تُضَافُ إِلَى أَوْتَارِهَا ، أَوْ لِلْوَتْرِ المَنْسُوبِ لِلطَّالِعِ في الزَايِرِجَةِ ، أَوْ لِلْوَتْرِ المَنْسُوبِ لِمَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ ، الَّذِي جَعَلَهُ قَاعِدَةً لِمَنْزَجِ الأَسْبَلَةِ وَهُوَ هَذَا ،

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا وهو وتر مشهور لإستخراج المجهولات ، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه . وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية . وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعا ممتزجا بالفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير .

وَعِدَّةُ حُرُوفِ هَذَا الْوَتْرِ أَعْنَى الْبَيْتِ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا . لِأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مُشَدَّدٌ مِنْ حَرْفَيْنِ .

ثُمَّ تَحْدَفُ مَا تَكَرَّرَ عِنْدَ الْمَزْجِ مِنَ الْحُرُوفِ وَمِنَ الْأَصْلِ ، لِكُلِّ حَرْفٍ فَضْلٌ مِنَ الْمَسْئَلَةِ حَرْفٌ يَمَائِلَةٌ . وَتَثَبَّتِ الْفَضْلَيْنِ سَطْرًا مُمْتَرَجًا بَعْضُهُ بِنَعْضِ الْحُرُوفِ . الْأَوَّلُ مِنْ فَضْلَةِ الْقُطْبِ وَالثَّانِي مِنْ فَضْلَةِ السُّوَالِ ، حَتَّى يَتِمَّ الْفَضْلَتَانِ جَمِيعًا . فَتَكُونُ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ ، فَتُضِيفُ إِلَيْهَا خَمْسَ نُونَاتٍ لِيَكُونَ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ ، لِتَعْدَلَ بِهَا الْمَوَازِينِ الْمَوْسِيقِيَّةِ . ثُمَّ تَضَعُ الْفَضْلَةَ عَلَى تَرْتِيبِهَا فَإِنْ كَانَ عَدَدُ الْحُرُوفِ الْخَارِجَةِ بَعْدَ الْمَزْجِ يُوَافِقُ الْعَدَدَ الْأَصْلِيَّ قَبْلَ الْحَدْفِ فَالْعَمَلُ صَحِيحٌ . ثُمَّ عَمَّرَ بِمَا مَزَجْتَ جَدُولًا مُرَبَّعًا يَكُونُ آخِرُ مَا فِي السُّطْرِ الْأَوَّلِ أَوْلَ مَا فِي السُّطْرِ الثَّانِي .

وَعَلَى هَذَا النَّسَقِ حَتَّى يَعُودَ السُّطْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ . وَتَتَوَالَى الْحُرُوفُ فِي الْقَطْرِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَرَكَةِ . ثُمَّ تُخْرَجُ وَتَرُ كُلُّ حَرْفٍ كَمَا تَقَدَّمَ تَضَعُهُ مَقَابِلًا لِحَرْفِهِ . ثُمَّ اسْتَخْرَجَ النَّسَبَ الْعُنْصُرِيَّةَ لِلْحُرُوفِ الْجَدُولِيَّةِ ، لِتَعْرِفَ قُوَّتَهَا الطَّبِيعِيَّةَ وَمَوَازِينَهَا الرُّوحَانِيَّةَ وَعَرَائِزَهَا النَّفْسَانِيَّةَ وَأَسُوسَهَا الْأَصْلِيَّةَ مِنَ الْجَدُولِ الْمَوْضُوعِ لِذَلِكَ . وَصِفَةُ اسْتِخْرَاجِ النَّسَبِ الْعُنْصُرِيَّةِ هُوَ أَنْ تَنْظُرَ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنَ الْجَدُولِ مَا طَبِيعَتُهُ وَطَبِيعَةُ الْبَيْتِ الَّذِي حَلَّ فِيهِ ، فَإِنْ اتَّفَقَتْ فَحَسَنٌ ، وَإِلَّا فَاسْتَخْرَجَ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ نِسْبَةً . وَيَتَسَعُ هَذَا الْقَانُونُ فِي جَمِيعِ الْحُرُوفِ الْجَدُولِيَّةِ . وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ قَوَائِمَهُ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي دَوَائِرِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ . ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرُ كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أَسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَاحْذَرِ مَا يَلِي الْأَوْتَادَ . وَكَذَلِكَ السَّوَاقِطُ لِأَنَّ نِسْبَتَهَا مُضْطَرِبَةٌ . وَهَذَا الَّذِي يَخْرُجُ لَكَ هُوَ أَوْلُ مَرَاتِبِ السَّرِيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُطُ مِنْهَا أَسُوسَ الْمُؤَلَّدَاتِ يَبْقَى أَسُوسُ عَالَمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكُونِيَّةِ . فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمُجَرَّدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ عُنَاصِرُ الْإِمْدَادِ ، يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ . وَتَطْرَحُ أَوْلُ رَتَبِ السَّرِيَانِ مِنْ

مجموع العناصر يبقى عالم التوسط . وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة . ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى . فتحميل عليه أول رتب السريان . ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان . ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل . والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل . وكذلك الثالث والرابع . فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل . يبقى العوالم المجردة ، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول . ومن هنا يطرد العمل في التامة . وله مقامات في كتب ابن وحشية والبونى وغيرهما . وهذا التذبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية ، وعليه مدار وضع الزياج الخرفية والصنعة الإلهية والنيراجات الفلسفية . والله الملمهم وبه المستعان وعليه التكلان . وحسبنا الله ونعم الوكيل

الفصل الثلاثون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلمهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن . ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وحميد الذائب منها بالتكليس وإمهاء الصلب بالقهر والصلاة وأمثال ذلك . وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير . وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة

بِالِاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ مِنَ الْفِعْلِ مِثْلَ الرِّضَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَالنُّخَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى
 بِالنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَبًا إِثْرِيضًا . وَيَكُونُ عَنْ ذَلِكَ الْإَكْسِيرِ إِذَا الْغَزُوا فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ
 بِالرُّوحِ وَعَنِ الْجِسْمِ الَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِالْجَسَدِ . فَشَرَحَ هَذِهِ الْاضْطِلَاحَاتَ وَصُورَةَ
 هَذَا الْعَمَلِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقْلِبُ هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْمُشْتَعِدَّةَ إِلَى صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
 هُوَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ . وَمَا زَالَ النَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَرُبَّمَا يُعْزَى
 الْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا . وَإِمَامُ الْمَدُونِيِّينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ
 يَخْضُونَهَا بِهِ فَيَسْمُونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَيْبَةَ بِالْأَلْفَاظِ .
 وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مَقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا فِيهَا . وَالطُّغْرَائِيُّ مِنْ
 حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمُنَاطِرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنْ
 الْحُكَمَاءِ . وَكُتِبَ فِيهَا مَسَلَمَةُ الْمَجْرِيطِيِّ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَةٌ الَّتِي سَمَّاهُ
 رَثْبَةَ الْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِينًا لِكِتَابِهِ الْآخَرَ فِي السُّحْرِ وَالطَّلَسَمَاتِ الَّتِي سَمَّاهُ غَايَةَ
 الْحَكِيمِ . وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ
 يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَجْمَعِ . وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ
 وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَأْلِيْفِهِمْ هِيَ الْفَازُ يَتَعَدَّرُ فَهْمُهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعَانَ اضْطِلَاحَاتِهِمْ فِي
 ذَلِكَ . وَنَحْنُ نَذَكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْأَلْفَاظِ . وَلَا بِنِ الْمُعْغِرِيِّ مِنْ
 أُمَّةٍ هَذَا الشَّانِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ مِنْ أُبْدَعِ مَا يَجِيءُ فِي الشُّعْرِ
 مَلْفُوزَةٌ كُلُّهَا لُغَزُ الْأَحَاجِي وَالْمُعَانَايَةِ فَلَا تَكَادُ تَفْهَمُ . وَقَدْ يَنْسَبُونَ لِلْفَزَائِيَّ رَحْمَةَ
 اللَّهِ بَعْضَ التَّأْلِيفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالِيَةَ لِيَقِفَ
 عَنْ خَطِّهَا مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ . وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ فِيهَا
 لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ رَيْبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ أَنَّ خَالِدًا مِنْ
 الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةَ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ يَعِيدُ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ لَهُ
 بِصِنَاعَةِ غَرِيبَةٍ الْمَنْحَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمُرَكَّبَاتِ وَأَمْرَجَتِهَا وَكُتِبَ
 النَّاطِرِينَ فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ وَلَمْ تَتَرَجَّمِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ

يَكُونُ خَالِدٌ بْنُ يَزِيدٍ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشَبُّهُ بِاسْمِهِ فَمُمْكِنٌ . وَأَنَا
أَقُولُ لَكَ هُنَا رِسَالَةٌ أَبِي بَكْرٍ بَيْنَ بَشْرُونَ لِأَبِي السَّمُوحِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا
مِنْ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ فَيَسْتَدِلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ
حَقُّهُ مِنَ التَّامُّلِ قَالَ ابْنُ بَشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ خَارِجَ عَنِ الْغَرَضِ ،
« وَالْمَقْدَمَاتُ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ وَاقْتَصَصَ جَمِيعَهَا أَهْلُ
الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ الْمَعَادِنِ وَتَخْلُقِ الْأَحْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَطَبَاعِ الْبِقَاعِ
وَالْأَمَاكِنِ فَمِنَعْنَا اشْتِهَارَهَا مِنْ ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنَعَةِ مَا يُحْتَاجُ
إِلَيْهِ فَتَبْدَأُ بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا ، يَنْبَغِي لِطُلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلًا ثَلَاثَ
خِصَالٍ : أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ ؟ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ تَكُونُ ؟ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفٍ تَكُونُ ؟
فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نَهَائِتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا
الْبُحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالِاسْتِدْلَالُ عَنْ تَكْوِينِهَا فَقَدْ كَفَيْتَاكَ بِمَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ
الْإِكْسِيرِ . وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِبِذَلِكَ الْبُحْثُ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي
يُمْكِنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مَوْجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ
الْأَرْبَعِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ ابْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ انْتِهَاءً وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ
بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنْ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تَعَالِجٌ وَتُدْبِرُ وَهِيَ الَّتِي
تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تَعَالِجٌ وَلَا تُدْبِرُ لِأَنَّهَا فِيهَا
بِالْقُوَّةِ فَقَطُّ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنَ تَفْصِيلُهَا لِاسْتِعْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ وَفَضْلُ قُوَّةِ
الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ . فَيَنْبَغِي لَكَ وَقَفَّكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ الْمُنْفَصِلَةِ
الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يُدْبِرُ مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالتَّنْقِيَةِ
وَالْتَكْلِيسِ وَالتَّنْشِيفِ وَالتَّقْلِيلِ فَإِنْ مِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأَصُولَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ هَذِهِ
الصَّنَعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفِرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ
يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يَكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارِكَةٌ غَيْرُهُ
فَصَارَ فِي التَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَسُمِّيَ حَجْرًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِيَّةَ

أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه وإدخال النفس عليه ؟ وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها ؟ فإن لم تقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك ؟ فإن هذا هو المطلوب فأفهم . وأعلم أن الفلاسفة كلهم مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه . وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لأنه لا حياة فيه ولا نور . وإنما ذكرت الجسد والنفس لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورية التي بها يفعل العظام والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها . وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الأعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكان خالداً باقياً . فسبحان مدبر الأشياء تعالى . وأعلم أن الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة إلى الانتهاء وليس لها إذا صارت في هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركيبت كما قلناه آنفاً في الإنسان لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسّمه بعد أن كانت طبائع مفردة بأعيانها . فيا عجباً من أفاعيل الطبائع إن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتمامها فلذلك قلت قوياً وضعيفاً . وإنما وقع التعبير والفناء في التركيب الأول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للإتفاق . وقد قال بعض الأولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء . وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم إلى الوجود لأنه ما دام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء . والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة . فإذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لأنه قد صار

فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذَلِكَ إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ
 اخْتِلَاطِ الْعَلِيظِ وَإِنَّمَا أَرِيدُ بِذَلِكَ التَّشَاكُلَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ
 بِأَشْكَالِهَا . وَذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَقَ وَأَيْسَرَ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ
 الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْعَلِيظَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ . وَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَجْسَادَ أَهْوَى
 وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى أَنَّ الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ
 مِنَ الْكَيْرِيَّتِ وَالزَّرْبِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَرْوَاحِ فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي
 بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكَيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا لِرَجَّةِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا
 لِإِفْرَاطِ غَلِيظَتِهَا وَتَلَزُّجِهَا . فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوْلَى
 خَلْقِهَا . وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا النَّارُ أَتَبَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا
 فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَصَيَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ
 أَجَلُ مَا تَعْرِفُهُ . أَقُولُ إِنَّمَا أَتَبَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ لِاسْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا . وَإِنَّمَا اسْتَعَلَتْ
 لِكثْرَةِ رَطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تَشَاكِلُ
 النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَعْتَنِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى . وَكَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُجُودِ النَّارِ
 إِلَيْهَا لِقَلَّةِ تَلَزُّجِهَا وَعَلِيظَتِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ مِنْ
 أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفُهُ مُتَّحِدٌ بِكَثِيفِهِ لِطَوْلِ الطَّبِيخِ اللَّيِّنِ الْمَازِجِ
 لِلْأَشْيَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مِتْلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ
 وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضِ عَلَى غَيْرِ التَّخْلِيلِ وَالْمُؤَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ الْإِنْضِمَامُ وَالتَّدَاخُلُ
 مُجَاوِزَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهَّلَ بِذَلِكَ افْتِرَاقَهُمَا كَالْمَاءِ وَالذَّهْنِ وَمَا أَشَبَّهُمَا . وَإِنَّمَا
 وَصَفْتُ ذَلِكَ لِتُسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ شَافِيًا
 فَقَدْ أَخَذْتَ حَطَّكَ مِنْهَا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ طَبَائِعُ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مُؤَافِقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُفْضَلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِدٌ بِتَدْبِيرِ
 وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفَيْلَسُوفُ ، إِنَّكَ إِذَا

أحكمت تذيير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً فقد أحكمت ما أردت
إحكامه وقوامه إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع
عنها ووقع في الخطأ . واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائنها على
ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه
حينما جرى لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاور وحل
الأجساد لا يكون بغير الأرواح فافهم هذا القول . واعلم هذا الله أن
هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينقص وهو الذي يقلب
الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة . وليس كل جسد يحل
خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة . وإنما حله بما يوافقه ويدفع عنه
حرق النار . حتى يزول عن الغلظ . وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن
تنقلب من اللطافة والغلظ . فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف
ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مضاد
في أوله فلا خير فيه . واعلم أن الباردة من الطبائع هو يبس الأشياء ويعقد
رطوبتها والحرار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وإنما أفردت الحر والبرد
لأنهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه
تحدث الأجسام وتتكون وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد لأن البرد ليس
له نقل الأشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة . ومتى ضعفت علة الكون وهو
الحرارة لم يتم منها شيء أبداً كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم
برد أحرقتة وأهلكته . فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى
به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار . ولم يخدر الفلاسفة أكبر شيء إلا من
النيران المحرقة . وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها
ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتذبيرهم وإنما عملهم إنما هو
مع النار أولاً وإليها يصير أخيراً فلذلك قالوا : إياكم والنيران المحرقات . وإنما

أرادوا بذلك نفى الآفات التي معها فتجمع على الجسد أفتين فتكون أسرع لهلاكه .
وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط
بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته . وأعلم أن الحكماء
كلها ذكرت ترداد الأرواح على الأجساد مزاراً ليكون ألزم إليها وأقوى على قتال
النار إذا هي باشرت عند الإلفة أغني بذلك النار العنصرية فأعلمه . ولنقل الآن
على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم
من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن
ومنهم من زعم أنه في الجميع . وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى اشتقاقها
ومناظرة أهلها عليها لأن الكلام يطول جداً وقد قلت فيما تقدم إن العمل يكون
في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فريد أن تعلم من
أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني إن الصنع كله أخذ
صنعين ، إما صنع جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو
مضمحل منتقص التركيب ، والصنع الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى
جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى
نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان
الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان . فإذا كان هذا هكذا فنقول إن العمل
لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات وبزهان ذلك أنهما مطبوعان على
الغذاء وبه قوامهما وتامهما . فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة
والقوة ولذلك قل حوض الحكماء فيه . وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث
ونهايتها وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً والنبات يستحيل حيواناً والحيوان
لا يستحيل إلى شيء هو الطف منه إلا أن ينعكس راجعاً إلى العلف وأنه أيضاً
لا يوجد في العالم شيء تتعلق فيه الروح الحية غير الروح الطف ما في العالم ولم
تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها . فأما الروح التي في النبات فإنها

بَسِيرَةً فِيهَا غَلِظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَعْرِفَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ لِغَلِظِهَا وَغَلِظِ جَسَدِ
النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ لِغَلِظِهِ وَغَلِظِ رُوحِهِ . وَالرُّوحُ الْمُتَحَرِّكَةُ الْطُفُّ مِنَ
الرُّوحِ الْكَامِنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَحَرِّكَةَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ وَالتَّنْقِيلُ وَالتَّنْفُسُ وَلَيْسَ
لِلْكَامِنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَخَدَهُ . وَلَا تَجْرِي إِذَا قَيْسَتْ بِالرُّوحِ الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ
عِنْدَ الْمَاءِ . كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانَ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ
وَأَيْسَرُ . فَيَتَّبِعِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنْ يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا يَخْشَى
فِيهِ عَسْرًا . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا مِنَ الْأَمْهَاتِ الَّتِي هِيَ
الطَّبَائِعُ وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مُتَيَسِّرُ الْفَهْمِ فَلِذَلِكَ قَسَمَتْ
الْحُكَمَاءُ الْعِنَاصِرَ وَالْمَوَالِيدَ أَقْسَامًا حَيَّةً وَأَقْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فَاعِلًا
حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا . وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الذَّائِبَةِ
وَفِي الْعَقَاقِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَدُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَعِيلُ حَيًّا وَمَا
كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا انْفَصَلَ مِنْهَا
طَبَائِعَ أَرْبَعًا حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَوْهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ . فَلَمْ
يَجِدُوا لَوْفَقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ فَضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ
الْحَجَرِ الَّذِي فِي الْحَيَوَانَ فَبَحَثُوا عَنْ جَنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَذَبْرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ
مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا . وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَاقِيرِ
وَخَلْطِهَا ثُمَّ تَفْصَلُ بَعْدَ ذَلِكَ . فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفَصِلُ بِنَعْضِ هَذِهِ الْفُضُولِ
مِثْلَ الْأَشْنَانِ^(١) وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَمِنْهَا أَجْسَادُ وَأَرْوَاحُ وَأَنْفَاسُ إِذَا مَرَجَتْ وَذَبْرَتْ كَانَ
مِنْهَا مَا لَهُ تَأْيِيرٌ . وَقَدْ ذَبْرْنَا كُلَّ ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانَ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَتَدْبِيرُهُ
أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . فَيَتَّبِعِي لَكَ أَنْ تَعْلَمْ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانَ وَطَرِيقُ
وُجُودِهِ . إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ الْطُفُّ مِنْهُ

(١) الإشنان ، ما تفصل به الأيدي من الحمض . والأشنة شيء نباتي يتكون على الشجر والصخور

(القلوس)

كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ . وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ اللَّطِيفَ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ
 جَوْهَرِهِ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفِ فَوَجِبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةُ وَالرَّقَّةُ . وَكَذَا هَذَا الْحَجَرُ
 الْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانَ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ
 طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرَهُ فَافْتَرَاهُمْ هَذَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَهَالَةِ
 وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ . فَقَدْ أُخْبِرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرُ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أَبِينُ لَكَ
 وَجُوهَ تَدَايِيرِهِ حَتَّى يَكْمُلَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْإِنصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 سُبْحَانَهُ . . .

(التدبير على بركة الله) خَذَ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدَعَهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصَّلَ
 طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعِ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّنْعُ فَإِذَا
 عَزَلْتَ الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخِذْ
 الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثُّفْلُ^(١) فَاعْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ النَّارُ عَنْهُ
 سَوَادُهُ وَيَزُولَ غِلْظُهُ وَجَفَاؤُهُ وَيَبِيضُهُ تَبْيِيضًا مُحْكَمًا وَطَيِّبْ عَنْهُ فَضُولَ الرُّطُوبَاتِ
 الْمُسْتَحِجَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً أَبْيَضَ لَا ظِلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَ . ثُمَّ
 اعْمُدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ الْأُولَى الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِ وَكَرِّزْ
 عَلَيْهَا الْغُسْلَ وَالتَّضْعِيدَ حَتَّى تَلْطَفَ وَتَرَقَّ وَتَصْفَوْ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ
 عَلَيْكَ فَايْدًا بِالتَّرْكِيبِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا
 بِالتَّرْوِيجِ وَالتَّعْفِينِ فَأَمَّا التَّرْوِيجُ فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْفِينُ فَهُوَ
 التَّمْشِيَةُ وَالسَّخْقُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ
 وَلَا تَقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الْإِمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ
 وَتَقْوَى الرُّوحُ عَلَى مَقَابِلَةِ النَّارِ وَتَضَبَّرُ عَلَيْهَا وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ
 وَالدَّبِيبِ فِيهَا . وَإِنَّمَا وَجَدَ ذَلِكَ بَعْدَ التَّرْكِيبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَخْلُوقَ لَمَّا أَرْدَوْجَ
 بِالرُّوحِ مَا رَجَعَهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِشَاكِلِهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا

(١) الثفل، ما يستقر في أسفل الشيء، من كدرة (القاموس)

وَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَفْرَضَ لِلرُّوحِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالشُّبُوتِ وَمَا
يَفْرَضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ الْإِمْتِزَاجِ . وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا
بِخِدْمَةِ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْآخَرِينَ أَغْنَى الرُّوحُ وَالْجَسَدُ
وَصَارَتْ هِيَ وَهَمَا شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ
طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا لَقِيَ هَذَا الْمُرَكَّبَ الْجَسَدَ الْمَخْلُولَ وَالْحَاحَ عَلَيْهِ النَّارُ
وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبِيَّةِ عَلَى وَجْهِهِ ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَخْلُولِ . وَمِنْ شَأْنِ
الرُّطُوبِيَّةِ الْإِشْتِعَالُ وَتَعَلَّقَ النَّارُ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتْ النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ
بِالنَّفْسِ مُمَازَجَةَ الْمَاءِ لَهَا . فَإِنَّ النَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِالذَّهْنِ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا .
وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ . فَإِذَا أَلْحَتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ تَطْيِيرَهُ
حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَابِسُ الْمُمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنْعَهُ مِنَ الطَّيْرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ عِلَّةً
لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الذَّهْنِ وَالذَّهْنُ عِلَّةً لِثَبَاتِ الصَّنِيعِ وَالصَّنِيعُ عِلَّةً لِظُهُورِ
الذَّهْنِ وَأَظْهَرَ الذَّهْنِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا . فَهَذَا هُوَ
الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ . وَهَذِهِ التَّضْعِيَّةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي
سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءَ بَيِّنَةً وَإِيَّاهَا يَفْنُونَ لَا بَيِّنَةَ الدَّجَاجِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ تَسْمَعْهَا
بِهَذَا الْإِسْمِ لِغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهْتُهَا . وَلَقَدْ سَأَلْتُ مُسَلِّمَةً عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ
غَيْرِي فَقُلْتُ لَهُ ، أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتُ الْحُكْمَاءَ مُرَكَّبَ
الْحَيَوَانَ بَيِّنَةً ؟ اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ ، بَلْ لِمَعْنَى
غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى
الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَوْهَا بَيِّنَةً ؟ فَقَالَ ، لِشَبَّهْتُهَا وَقَرَأْتِيهَا مِنَ الْمُرَكَّبِ فَفَكَّرْتُ
فِيهِ فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ لَكَ مَعْنَاهُ . فَتَبَقَّيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُفَكَّرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى
مَعْنَاهُ . فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكْرِ وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بَعْضِي وَهَزَّنِي
هَزَّةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي ، يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ لِلنَّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ
إِمْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ انْجَلَّتْ عَنِّي الظُّلْمَةُ وَأَضَاءَ لِي نُورٌ قَلْبِي

وَقَوِي عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَتَهَضَّتْ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا
 هِنْدِسِيًّا يُبْرَهُنُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ مُسَلِّمَةً . وَأَنَا وَاضِعُهُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ .
 مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ إِلَى مَا فِي
 الْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كِنْسِيَّةً مَا فِي الْمَرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ
 طَبِيعَةِ النَّارِ . وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْأُخْرَيَانِ ، الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ ، إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ
 مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ
 هَزُوحٌ فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا نَأْخُذُ أَقْلَ طَبَائِعِ الْمَرْكَبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ
 إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تُنَشَفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ
 الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا . وَكَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ رَمْزًا وَلَكِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ . ثُمَّ تُحْمَلُ
 عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةَ أَمْثَالٍ . ثُمَّ تُحْمَلُ
 عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّذْيِيرِ مِثْلًا مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ
 فَيَكُونُ الْجَمِيعُ ثَمَنَةَ أَمْثَالِ الْيُبُوسَةِ بِالْقُوَّةِ . وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضَلْعَيْنِ مِنَ الْمَرْكَبِ
 الَّذِي طَبِيعَتُهُ مُحِيطَةٌ بِسَطْحِ الْمَرْكَبِ طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلًا الضَّلْعَيْنِ الْمُحِيطَيْنِ
 بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ الْمَاءِ وَطَبِيعَةَ الْهَوَاءِ وَهَمَا ضِلْعًا (ا ح د) وَسَطْحَ (ا ب ج د) وَكَذَلِكَ
 الضَّلْعَانِ الْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ ضِلْعًا (ه ز و ح) فَأَقُولُ
 إِنَّ سَطْحَ (ا ب ج د) يُنْسَبُ سَطْحَ (ه ز و ح) طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذَلِكَ
 (ب ج د) مِنْ سَطْحِ الْمَرْكَبِ . وَالْحُكْمَاءُ لَمْ تُسَمِّ شَيْئًا بِاسْمِ شَيْءٍ إِلَّا لِشَبْهِهِ بِهِ .
 وَالْكَلِمَاتُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُتَعَقَّدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ
 الْعُلُوبِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أُخْرِجَ سَوَادُهُ وَقُطِعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِرَ
 بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ نُحَاسِيًّا وَالْمَغْنِيسِيَّا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَجَمَّدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ
 الطَّبِيعَةُ الْعُلُوبِيَّةُ الَّتِي تَسْتَحِجُّ فِيهَا الْأَرْوَاحَ لِتَقَابَلَ عَلَيْهَا النَّارُ وَالْفَرْفَرَةُ لَوْنٌ أَحْمَرٌ
 قَانٍ يُخَيِّدُهُ الْكَيَانُ . وَالرُّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٌ الشُّخُوصُ وَلَكِنَّهَا
 مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ . فَالْوَاحِدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَيْزَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَةُ نَفْسَانِيَّةٌ

وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة
قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها وهي الماسكة الروحانية
والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما . وأما سائر الباقيات فمبتدعة ومخترة ، الإناس
على الجاهل ، ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها . فهذا جميع ما سألته
عنه وقد بعثت به إليك مفصلاً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام . انتهى
كلام ابن بشرور وهو من كبار تلاميذ مسلمة المغربي شيخ الأندلس في علوم
الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده . وأنت ترى كيف صرف
الفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألفاظ التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك
دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو
الحق الذي يفضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم
الطبيعة ، إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت
النفوس شريرة فاجرة . فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في
مكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوة السحرية . ولا بد له مع ذلك عندهم
من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو
الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها ، كما وقع لسحرة فرعون
في الجبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب
والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجول للأمطار وغير ذلك . ولما كانت هذه
تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من
أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة . ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحووا هذا
المنحى ولهذا كان كلامهم فيه الغاراً خذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر
 وأنواعه لا أن ذلك يرجع إلى الضنانية بها كما هو رأي من لم ينهت إلى التحقيق في
 ذلك . وانظر كيف سمي مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر
 والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه

لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بغض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات . ومن كلامه في الفئتين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية . والله العليم الخبير .

الفصل الحادي والثلاثون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن . وضررها في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها . وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأفيسية العقلية وأن توضيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فإنها بغض من مدارك العقل . وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة . فبتحوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطقي . ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع . وهذه مجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل . ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معانٍ أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معانٍ أخرى وهي التي اشتركت بها . ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية . وهذه

الْمَجْرَدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيْفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ
 لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْتَوَانِي . فَإِذَا نَظَرَ الْعَاكِرُ فِي هَذِهِ الْمَعْقُولَاتِ
 الْمَجْرَدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ . كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذَّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ
 وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِتَحْصُلِ تَصَوُّرِ الْوُجُودِ تَصَوُّراً
 صَاحِبِهَا مُطَابِقاً إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَاحِبِ كَمَا مَرَّ . وَصِنْفُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ
 تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النَّهَائِيَّةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ
 عَلَيْهِ فِي الْبِدَائِيَّةِ وَالتَّغْلِيْبُ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ التَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا
 التَّصْدِيقُ وَسِيْلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ الْمُنْطَقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ التَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ
 التَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَيَمْنَعُنِي الشُّعُورُ لَا يَمْنَعُنِي الْعِلْمُ التَّامُّ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ
 أَرِسْطُو ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ
 الْحِسِّ بِهَذَا النِّظَرِ وَتِلْكَ الْبِرَاهِينُ . وَخَاصِلُ مَذَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا
 آتَى إِلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي فَرَعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَشَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ
 بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى إِدْرَاكُهُمْ قَلِيلاً فَشَعَرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ
 الْحَرَكَةِ وَالْحِسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحْسَوْا مِنْ قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ . وَوَقَّفَ
 إِدْرَاكُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِيِّ السَّمَاوِيِّ بِنُحُورٍ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ . وَوَجِبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكَ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ أَنَّهُوَ ذَلِكَ
 نِهَائِيَّةً عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ الْعَشْرُ . تَسَعُ مَفْضَلَةٌ ذَوَاتُهَا جَمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلٌ مُفْرَدٌ وَهُوَ
 الْعَاشِرُ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا النُّحُورِ مِنَ الْقَضَاءِ مَعَ
 تَهْدِيْبِ النَّفْسِ وَتَخْلُقِهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَبْرُدْ شَرْعٌ
 لِتَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِثْلِهِ إِلَى الْمَحْمُودِ
 مِنْهَا وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا التَّبَهُّجَةُ
 وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النِّعَمِ وَالْمَذَابِ
 فِي الْآخِرَةِ إِلَى خَبِيْطِ لَهْمٍ فِي تَفَاصِيْلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ . وَإِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ

الذِي حَصَلَ مَسَائِلُهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حَجَجَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَخْقَابِ هُوَ
أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونٍ وَهُوَ مُعَلِّمُ
الإِسْكَانْدَرِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ عَلَى الإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ
تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْدُوبَةً وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَاسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ نَسْطَهَا وَلَقَدْ
أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ مَا شَاءَ لَوْ تَكْفَّلَ لَهُ بِقَضِيهِمْ فِي الإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ
فِي الإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذَوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِلَّا فِي
الْقَلِيلِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُتِبَ أَوْلَيْكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرَجَّمَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ
اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ
مِنْ أَضَلِّهِ اللهُ مِنْ مُتَّحِلِي الْعُلُومِ وَجَاءُوا غَنَمًا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلٍ مِنْ تَفَارِيحِهَا
وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَضْرَ الْفَارَابِيُّ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو
عَلِيٍّ بِنُ سَيْنَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ الْمُلْكِ مِنْ بَنِي بُيُوتِهِ بِأَضْبَهَانَ
وغيرَهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِاطِّلَ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ . فَأَمَّا
إِسْنَادُهُمُ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَاكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي التَّرْقِيِ إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ
قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رَبِّ خَلْقِ اللهِ فَالْوَجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ « وَيَخْلُقُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ » وَكَأَنَّهُمْ فِي إِقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطْ وَالْعُقْلَةَ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمِثَالِيَّةِ
الطَّبِيعِيِّينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الْمُفْرَضِينَ عَنِ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ
الْمُفْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللهِ شَيْءٌ . وَأَمَّا الْبُرَاهِينُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا
عَلَى مُدْعِيَاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِغْيَارِ الْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فِيهَا قَاصِرَةٌ
وغيرُ وَاقِفِيَّةٌ بِالْفَرَضِ . أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ
الطَّبِيعِيِّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ الْمَطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ النَّتَائِجِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ
بِالْحُدُودِ وَالْأَقْسِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ غَيْرَ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامَ
ذَهْنِيَّةً كَلِيَّةً عَامَّةً وَالْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخَّصَةٌ بِمَوَادِّهَا . وَلَقَدْ فِي الْمَوَادِّ
مَا يَمْنَعُ مَطَابَقَةَ الذَّهْنِيِّ الْكَلْمِيِّ لِلْخَارِجِيِّ الشَّخْصِيِّ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْجِسْمُ

مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ الْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ الْيَقِينُ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا ؟ وَرُبَّمَا
 يَكُونُ تَصَرُّفُ الذَّهْنِ أَيْضًا فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ الْمُطَابِقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِالصُّورِ
 الْخَيَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَابِي الَّتِي تَجْرِيدهَا فِي الرُّبُوبَةِ الثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ
 حِينَئِذٍ يَقِينِيًّا بِمِثَالِةِ الْمَحْسُوسَاتِ إِذِ الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابِقَةِ الْخَارِجِ
 لِكَمَالِ الْإِنطِبَاقِ فِيهَا فَتَسَلَّمَ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيهِمْ فِي ذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا
 الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَغْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الطَّبِيعِيَّاتِ
 لَا تُهْتَمُّ فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجِبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا . وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ
 الَّتِي وَرَاءَ الْحِسِّ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَعَلِمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ
 فَإِنَّ ذَوَاتَهَا مَجْهُولَةٌ رَاسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدهُ
 الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمَكِّنٌ فِيهَا هُوَ مُذْرِكٌ لَنَا .
 وَنَحْنُ لَا نَذْرِكُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ حَتَّى نَجْرِدَ مِنْهَا مَا هِيَ آخَرَى بِحِجَابِ الْحِسِّ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأْتِي لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُذْرِكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى
 الْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا
 وَخُصُوصًا فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وَجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا
 وَصِفَاتِهَا فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ . وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُوهُمْ حَيْثُ
 ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمْكِنُ الْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهَا
 أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً . وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفْلَاطُونُ ، إِنَّ الْإِلَهِيَّاتِ لَا يُوَصَّلُ فِيهَا إِلَى أَيِّنِينَ ^(١)
 وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْأَخْلَاقِ ^(٢) وَالْأَوَّلَى يَغْنِي الطَّنَّ ، وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْضُلُ بَعْدَ التَّعَبِ
 وَالنُّصَبِ عَلَى الطَّنِّ فَقَطُّ فَيَكْفِينَا الطَّنُّ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِيَهْدِيهِ الْعُلُومُ
 وَالْإِسْتِفْهَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ الْيَقِينِ فِيهَا وَرَاءَ الْحِسِّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ
 وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السُّعَادَةَ فِي إِذْرَاكِ

(١) وفي نسخة أخرى : يقين .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالأحق .

الموجودات على ما هي عليه يتلك البراهين فقول مزيّف مردود وتفسيره أن
الإنسان مركّب من جزءين أحدهما جسماني والآخر رُوخاني مُنتزج به ولكل
واحد من الجزءين مدارك مُختصة به والمُدرك فيهما واحد وهو الجزء الرُوخاني
يُدرك تارة مدارك رُوخانية وتارة مدارك جسمانية إلا أن المدارك الرُوخانية
يُدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ
والحواس . وكل مُدرك فله ائْتِهاج بما يُدركه . واعتبره بحال الصبي في أول
مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يئْتِهاج بما يُبصره من الضوء وبما
يسمعه من الأصوات فلا شك أن الإئْتِهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير
واسطة يكون أشدّ وألذ . فالنفس الرُوخانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها
بغير واسطة حصل لها ائْتِهاج ولذّة لا يُعبّر عنهما وهذا الإدراك لا يحصل بنظر
ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الجسم ونسيان المدارك الجسمانية
بالجملة . والمتصوفة كثيراً ما يُغنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه
البهجة فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفکر من
الدماغ ويحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغِب والموانع
الجسمانية يحصل لهم بهجة ولذّة لا يُعبّر عنهما . وهذا الذي زعموه بتقدير
صحيته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم . فأما قولهم إن البراهين والأدلة
العقلية مُحصلة لهذا النوع من الإدراك والائْتِهاج عنه فباطل كما رأيت إذ البراهين
والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفکر
والذکر . ونحن نقول إن أول شيء نغنى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه
القوى الدماغية كلها لأنها منازعة له قاذحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب
الشفاء والإشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد للقص من تأليف أرسطو وغيره
يُعبّر أوراقتها ويخونق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم
أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها . ومُستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو

وَالْفَارِيبِي وَابْنِ سِينَا أَنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ
 حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ . وَالْعَقْلُ الْفَعَالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ
 عَنْهَا الْحِسُّ مِنْ رُتَبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ
 الْعِلْمِيِّ وَقَدْ رَأَيْتَ فِسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرْسَطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ وَالْإِدْرَاكِ
 إِدْرَاكَ النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَيَغْيِرُ وَاسِطَةً وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ
 الْحِسِّ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبُهْجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ
 بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضاً لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَبْتَنُّ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحِسِّ مُدْرِكاً آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ
 غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِّجُ بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ ائْتِهَاجاً شَدِيداً وَذَلِكَ لَا يَقَعُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ
 السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ وَلَا بُدَّ بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَأْدِ الَّتِي لِتِلْكَ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
 إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
 مَا كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ
 مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَمَا فَسَادَ ذَلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يَسْتَوْفَى
 إِدْرَاكُهُ بِجَمَلِيَّتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جَسْمَانِيًّا . وَالَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَا مِنْ
 مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى الْجَسْمَانِيَّةَ أَدْرَكَ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا لَهُ
 مُخْتَصِماً يَصْنَفُ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا عَلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامِّ
 الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَبْتَهِّجُ بِذَلِكَ النَّخْوِ مِنَ الْإِدْرَاكِ
 ائْتِهَاجاً شَدِيداً كَمَا يَبْتَهِّجُ الصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ الْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ نُشُوءِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ
 ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا بِهَا الشَّارِعُ إِنْ لَمْ
 نَعْمَلْ لَهَا ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تَوَعَدُونَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِتَهْدِيدِ
 نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمَلَائِسَةِ الْمُخْمُودِ مِنَ الْخَلْقِ وَمَجَانِبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ
 ائْتِهَاجَ لِلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ
 الرُّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ
 الْجَسْمَانِيَّةِ وَالْوَانِيَا . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَمَنْ وَرَاءَ الْإِدْرَاكَاتِ

الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة
 الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين . وأما ما وراء
 ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال
 والأخلاق فأمراً لا يحيط به مدارك المدركين . وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي
 ابن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه : إن المعاد الروحاني وأحواله هو
 مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية مخفوفة
 ووثيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة . وأما المعاد الجسmani وأحواله فلا
 يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقّة
 المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها . فهذا العلم كما رأيت غير وافي
 بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها . وليس له
 فيما علمنا إلا ثمرّة واحدة وهي شخّذ الذهن في ترتيب الأدلّة والحجج لتحصيل
 ملكة الجودة والصواب في البراهين . وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه
 الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطيقية وقولهم بذلك في علومهم
 الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكيمية من الطبيعيات والتعاليم
 وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشرطها على ملكة
 الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم
 فهي أضح ما علمناه من قوانين الأنظار . هذه ثمرّة هذه الصناعة مع الإطلاع على
 مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرراً جنده
 معاطبها وليكن نظراً من ينظر فيها بعد الإمتلاء من الشرعيات والإطلاع على
 التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من
 معاطبها . والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه . وما كنا لنهتدي لولا أن
 هدانا الله .

الفصل الثاني والثلاثون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومختمة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية . فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن . وأذوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم . وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله . ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتأبيعهم من الخلق . وأما بتلخيص ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا حجده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمرجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القناه^(١) وسائر أفعاله . ثم قال . ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مفتح للنفس والثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير

(١) فواكه القناه . فواكه الأشجار المغروسة في الحفر .

الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكواكب
 عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف
 مضادته . ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال
 التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى
 النير الأعظم . وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر .
 والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به
 النطف والبرز فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه
 المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كيفيات البرز
 والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما . قال ، وهو مع ذلك ظني وليس
 من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة
 الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء . هذا محصل كلام
 بطليمس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره . ومنه يتبين ضعف
 مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة
 أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه . والقوى
 النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء المنصري هو القابل ثم إن
 القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمليتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في
 الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي
 تميز بها صنف من النوع وغير ذلك . فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل
 العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط
 مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحسب يحصل عنده الظن
 بوقوع الكائن . والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن
 ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أذراجها عن الظن إلى
 الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تغرضه آفة وهذا معوز

لِما فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ حَسْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعَهَا وَلِما أَنْ
اِخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ . وَمُدْرَكَ بَطْلِيمَسُ فِي إِثْبَاتِ الْقُوَى
لِلْكَوَاكِبِ الْخَمْسَةِ بِقِيَّاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُدْرَكَ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ
الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهَا فَقُلَّ أَنْ يُشَمَّرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النُّقْصَانِ مِنْهَا
عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ
الْفَنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ . ثُمَّ إِنَّ تَأْيِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيْمَا تُحْتَمَى بِاطِلَ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي
بَابِ التَّوْحِيدِ أَنْ لَا فاعِلَ إِلَّا اللهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَاحْتِجَّ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ
الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَيْبٌ عَنِ الْبَيَّانِ مِنْ أَنْ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبِّبَاتِ مَجْهُولُ الْكَيْفِيَّةِ
وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقْضَى بِهِ فِيْمَا يَظْهَرُ بِأَدْيَاءِ الرَّأْيِ مِنَ التَّأْيِيرِ فَلَعَلَّ اسْتِنَادَهَا
عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْيِيرِ الْمُتَعَارِفِ . وَالْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطْتَ جَمِيعَ
الْكَائِنَاتِ عُلُوًّا وَسُفْلًا سِيْمًا وَالشَّرْعَ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَبْتَرِزُ مِمَّا
سِوَى ذَلِكَ . وَالنُّبُوءَاتُ أَيْضًا مُنْكَرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْيِيرَاتِهَا . وَاسْتِقْرَاءُ الشَّرْعِيَّاتِ
شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخَسِّفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ
وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي . فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا فَذَلِكَ
كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ . فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ وَضَعْفُ مَدَارِكِهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِّ
فِي الْعُمُرَانِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصِّدْقُ مِنْ
أَحْكَامِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ اتَّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَغْلِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيَلْتَمَسُ بِذَلِكَ مَنْ
لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظُنُّ اِطْرَادَ الصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَيَقَعُ فِي رَدِّ
الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا . ثُمَّ مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا
يَتِمَّتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ مِنْ تَطَاوُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُرْتَبِصِينَ بِالدُّوَلَةِ إِلَى الْفَتْكِ
وَالنُّوْرَةِ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْطَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ

العُمرانِ لما يَنشأ عنها مِنَ المَضارِّ في الدِّينِ والدُّولِ . ولا يَفدَحُ في ذلكِ كَوْنُ
 وُجودِها طَبِيعِيًّا لِلبَشَرِ بِمَقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ . فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ
 مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمَكِّنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا
 فَيَتَعَيَّنُ السَّمِيُّ فِي اكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ . هَذَا هُوَ
 الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ . وَلْيَعْلَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ
 صَاحِبَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمَةِ تَخْصِيلَ عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتْهَا بَلْ إِنْ
 نَظَرَ فِيهَا نَاطِرٌ وَظَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَإِنَّ
 الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النُّظَرَ فِيهَا فَقَدَ الْاجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِقِرَاءَتِهَا وَالتَّحْلِيْقِ
 لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يَطَالَعُ كُتُبَهَا
 وَمَقَالَاتِهَا فِي كِشْرِ بَيْتِهِ مُسْتَسْرَأً عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ الصَّنَاعَةِ
 وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَاعْتِيَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْضُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ ؟ وَنَحْنُ نَجِدُ
 الْفِئَةِ الَّتِي عَمَّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَّلَتْ مَآخِذَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَكَفَ الْجُمْهُورُ
 عَلَى قِرَائَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطَوَّلِ الْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ الْمَجَالِسِ
 وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْدُثُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ . فَكَيْفَ يُعْلَمُ
 مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سُدُّ الْخَطَرِ وَالتَّخْرِيمُ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَفْبُ
 الْمَآخِذِ مُحْتَاجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّخْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَقُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حُدْسٍ وَتَخْمِينِ
 يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّاطِرِ فَاذِنِ التَّخْصِيلَ وَالْحَدِّقُ فِيهِ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا . وَمَدْعَى ذَلِكَ
 مِنَ النَّاسِ مَرْدُودَةٌ عَلَى عَقِيهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِعَرَايَةِ الْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمَةِ
 وَقَلَّةِ حَمَلَتِهِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ صِحَّةُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالغَيْبِ فَلَا
 يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَغْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ
 عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَحَاصِرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ
 إِرْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرُّوحِيُّ مِنْ شِعْرَاءِ أَهْلِ
 تُونِسِ :

أَسْتَفِيرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ
أَصْبَحُ فِي تُونِسَ وَأَمْسِي
الْخَوْفَ وَالْجُوعَ وَالْمَنَايَا
وَالنَّاسَ فِي مَرِيَّةٍ وَحَرْبٍ
فَأَحْمَدِي يَرَى عَلِيًّا
وَأَخْرَجَ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا
يَا رَاصِدَ الْخُنُسِ الْجَوَارِي
مَطَلْتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ
مَرَّ حَمِيسَ عَلَى حَمِيسٍ
وَنَضَفَ شَهْرَ وَعَشْرَ ثَانٍ
وَلَا نَرَى غَيْرَ زُورِ قَوْلٍ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا
رَضِيَتْ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السُّوَارِي
يُقَضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي
ضَلَّتْ عَقُولُ تَرَى قَدِيمًا
وَحَكَمْتَ فِي الْوُجُودِ طَبِيعًا
لَمْ تَرَ حُلُومًا إِزَاءَ مَرٍّ
اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَذْرِي
وَلَا الْهَيُولَى الَّتِي تُنَادِي
وَلَا وُجُودَ وَلَا أَنْعَادًا
وَالْكَسْبُ لَمْ أَذْرِ فِيهِ إِلَّا

قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالنَّهَاءُ
وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
يُخْبِدُهَا الْهَرَجُ وَالْوَبَاءُ
وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ
حَلَّ بِهِ الْهَلْكَ وَالنُّوَاءُ
بِهِ إِلَيْكُمْ صَبَا رِخَاءُ
يَقْضِي لِعَبْدِيهِ مَا يَشَاءُ
مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّمَاءُ
أَنْتُمْ الْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ
وَجَاءَ سَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ
وَتَالَتْ ضَمَّةُ الْقَضَاءُ
أَذَاكَ جَهْلٌ أَمْ أزدْرَاءُ
أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
حَسْبُكُمْ الْبَدْرُ أَوْ دُكَاةُ
إِلَّا عَبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى اقْتِضَاءُ
مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ
يُخْبِدُهُ الْمَاءُ وَالنَّهَوَاءُ
تَغْدُوهُمْ تَرْبَةً وَمَاءُ
مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ
مَا لِي عَنْ صُورَةِ عِرَاءُ
وَلَا ثُبُوتَ وَلَا انْتِفَاءُ
مَا جَلَبَ الْبَيْعَ وَالشَّرَاءُ

وَأِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي	مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءَ
إِذْ لَا أَفْصُولَ وَلَا أَصُولَ	وَلَا جِدَالَ وَلَا رِيَاءَ
مَا تَبِعَ الصُّدْرَ وَاقْتَفَيْنَا	يَا حَبِذَا كَانَ الْأَقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ	وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْهَذَا
يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي	أَشْعَرِي الصَّيْفُ وَالشَّتَاءُ
لَمْ أَجْزْ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرِّ	وَالْخَيْرِ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعاً	فَلَسْتُ أَغْصَى وَلِي رَجَاءُ
وَإِنِّي نَحْتُ حُكْمَ بَارِ	أَطَاعَةَ الْعَرْشِ وَالشَّرَاءُ
لَيْسَ انْتِصَارٌ بِكُمْ وَلَكِنْ	أَتَاخُ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءُ
لَوْ حَدَّثَ الْأَشْعَرِي عَمَّنْ	لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمْ بِأَنِّي	مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل الثالث والثلاثون

في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن
انتحالها

إِغْلَمَ أَنْ كَثِيراً مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنِ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
الصَّنَائِعِ وَيَتَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنْ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَدِئِهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَابِعِ وَالْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ
الْحُكْمِ وَخَسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي النِّفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى النَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَالْعَطْبِ آخِراً إِذَا
ظَهَرَ عَلَى خَبِيئَةٍ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعاً . وَإِنَّمَا أَطْمَعُهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَا أَنْ
الْمَقَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْعِلَاجِ
صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَباً وَالنَّخَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمَكِّنَاتِ عَالَمِ

الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته
وفي المادة الموضوعية عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة
أو الدُّم أو الشُّغْر أو البَيْض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك . وجملة التدبير عندهم
بعد تعيين المادة أن تمهي بالفهر على حجر صلب أملس وتُسقى أثناء إمتائها بالماء
وتبغذ أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في
انقلابها إلى المعدن المطلوب . ثم تجفف بالشمس من بعد الشقي أو تطبخ بالنار
أو تصعد أو تكلس لاستخراج ماؤها أو ترابها فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم
تدبيره على ما اقتضته أصول صنفته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسُمونه
الإكسير ويزعمون أنه إذا أقي على الفضة المحمأة بالنار عادت ذهباً أو النحاس
المحمى بالنار عاد فضة على ما قصد به في عمله . ويزعم المحققون منهم أن ذلك
الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص
والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقبله إلى صورتها
ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب
العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في
المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء . وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه
من المعادن يصرفه إليهما ويقبله إلى صورتها . هذا محصل زعمهم على الجملة
فتجدهم عاكفين على هذا العلاج ينتفون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه
وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم
لعوزها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعنى . كتأليف جابر بن حيان
في رسائله السمين ومسئمة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطفرائي
والمغبري في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يخلون من بعد هذا كله
بطائل منها . ففاوضت يوماً شيخنا أبا البركات التليفي^(١) كبير مشيخة

(١) وفي نسخة أخرى : التليفي

الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها فتصفحة طويلاً ثم رده إلى
وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود إلى نبيته إلا بالخبيبة . ثم منهم من يقتصر في
ذلك على الدلسة فقط . إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو
خلطهما على نسبة جزير أو جزءين أو ثلاثة أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن
بالصناعة مثل تبييض النحاس وتلييسه بالزوق المصعد فيجيه جسماً معدنياً
شبيهاً بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع
دلتهم^(١) هذه سكة يهربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على
الجمهور بالخلاص . وهؤلاء أحسن الناس حرفة وأشواهم عاقبة لتلييسهم بسرقة
أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب
ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شر من السارق . ومعظم هذا الصنف لدينا
بالمغرب من طلبية البربر المنتهدين بأطراف البقاع ومساكن الأعمار يأوون إلى
مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة
والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش . ثم
يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون
إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما
لديهم . ولا يزالون كذلك في ائتفاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم
بلغوا الغاية في الجهل والرذالة والاختراف بالسرقة ولا حاسم لملتهم إلا اشتداد
الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن
فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة . والسلطان مكلف
بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها . وأما من انتحل هذه الصناعة
ولم يرض بحال الدلسة بل اشتتكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين
ونقودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى

(١) الدلس (يفتح الدال وسكون اللام) الخديعة والدلة بضم الدال الظلمة (لسان العرب) .

النِضَّة بِذَلِكَ النُّخُو مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَمَّا مَعَ هَؤُلَاءِ مُتَّكِلَمٌ
 وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ . مَعَ أَنَا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَذَا الْفَرَضُ
 أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ ^(١) وَالصَّلَايَةِ
 وَالتَّضْمِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَائِيرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا . وَيتَنَاقَلُونَ فِي
 ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْفَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ
 بِاسْتِمَاعِهَا وَالْمُقَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَلِيفِينَ الْمُغْرَمِينَ
 بِوَسَاوِسِ الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمَعَايِنَةِ أَنْكَرُوهُ
 وَقَالُوا إِنَّمَا سَمِعْنَا وَلَمْ نَر . هَكَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اتِّخَالَ هَذِهِ
 الصَّنِيعَةَ قَدِيمٌ فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَلِنُنْقِلُ
 مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ ثُمَّ نَتَلَوُهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ التَّحْقِيقِ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ
 فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ عَلَى حَالِ الْمَعَادِنِ السَّبْعَةِ
 الْمُنْطَرِقَةِ وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالرِّضَاصُ وَالْقَصْدِيرُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ
 وَالْحَارَصِينُ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِالْفُضُولِ وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ
 بِخَوَاصِّ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ ؟ فَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو النَّصْرِ
 الْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ اخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ
 بِالْكَيفِيَّاتِ مِنَ الرُّطُوبِيَّةِ وَالْيَبُوسِيَّةِ وَاللِّينِ وَالصَّلَايَةِ وَالْأَلْوَانِ مِنَ الصَّفْرَةِ وَالْبَيَاضِ
 وَالسُّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذَلِكَ النَّوْعِ الْوَاحِدِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ
 عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِالْفُضُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ
 بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَضْلٌ وَجِنْسٌ شَأْنَ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ . وَبَنَى أَبُو نَصْرٍ
 الْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اتِّفَاقِهَا بِالنَّوْعِ إِمَّاكَانَ انْتِقَالًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِإِمَّاكَانِ
 تَبَدُّلِ الْأَغْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجِهَا بِالصَّنِيعَةِ . فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ كَانَتْ صِنَاعَةُ الْكِيمِيَاءِ

(١) الفهر ، الحجر قدر ما يدق به الجوز ونحوه . وقيل هو حجر يملأ الكف (لسان العرب) وهنا تعني

عِنْدَهُ مُمَكِّنَةٌ سَهْلَةٌ الْمَأْخِذُ . وَبَنَى أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اخْتِلَافِهَا
بِالنُّوعِ إِنكَارَ هَذِهِ الصَّنِيعَةِ وَاسْتِحَالَةَ وُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَا سَبِيلَ بِالصَّنَاعَةِ
إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمَقْدَرُهَا وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْفُضُولُ مَجْهُولَةٌ
الْحَقَائِقِ رَأْسًا بِالتَّصَوُّرِ فَكَيْفَ يُحَاوَلُ انْقِلَابُهَا بِالصَّنِيعَةِ . وَغَلَطَ الطُّفْرَائِيُّ مِنْ
أَكَابِرِ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ . وَرَدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ التَّذْيِيرَ وَالْعِلَاجَ لَيْسَ فِي
تَخْلِيْقِ الْفَضْلِ وَإِبْدَاعِهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ الْمَادَّةِ لِقَبُولِهِ خَاصَّةً . وَالْفَضْلُ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ الْإِعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ كَمَا يُفِيضُ النُّورُ عَلَى الْأَجْسَامِ بِالصُّقْلِ
وَالْإِمْنَاءِ . وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذَلِكَ إِلَى تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ : « وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَشَرْنَا عَلَى
تَخْلِيْقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ الْجَهْلِ بِفُضُولِهَا مِثْلَ الْعَقْرَبِ مِنَ التُّرَابِ وَالنِّتَنِ وَمِثْلَ
الْحَيَاتِ الْمُتَكَوِّنَةِ مِنَ الشُّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْفِلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ النُّحْلِ إِذَا
فَقَدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ الْبَقْرِ . وَتَكْوِينِ الْقَصَبِ مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ الظُّلْفِ وَتَضْيِيرِهِ
سُكْرًا بِحَشْوِ الْقُرُونِ بِالصَّسْلِ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الْفُلْجِ لِلْقُرُونِ فَمَا الْمَانِعُ إِذَا مِنَ الْعُثُورِ
عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . فَتَتَّخِذُ مَادَّةً تُضَيِّفُهَا لِلتَّذْيِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا
اسْتِعْدَادٌ أَوَّلٌ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . ثُمَّ تُحَاوَلُهَا بِالْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا
الِاسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ فَضْلِهَا » . انْتَهَى كَلَامُ الطُّفْرَائِيِّ بِمَعْنَاهُ . وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ
عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحٌ . لَكِنْ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَأْخِذٌ آخَرَ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ
اسْتِحَالَةُ وُجُودِهَا وَبُطْلَانُ مُزْعَمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّفْرَائِيُّ وَلَا ابْنُ سِينَا . وَذَلِكَ أَنَّ
حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالِاسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا
مَوْضُوعًا وَيَحَاوِلُونَ فِي تَذْيِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَذْيِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ حَتَّى
أَحَالَتَهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْفِعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ . لِأَنَّهُ
تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ إِنَّمَا
يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفِ وَثَمَانِينَ مِنَ السِّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا
تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكَيفِيَّاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ ضَرُورَةً عَلَى

مَا قَلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ يِعْلَاجِهِمْ ذَلِكَ حُصُولُ صُورَةٍ مِرَاجِيئَةٍ لِتِلْكَ الْمَادَّةِ تُصَيِّرُهَا
 كَالْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجَ الْأَفَاعِيلَ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِكْسِيرُ
 عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلُودَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ اجْتِمَاعِ
 الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِئَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ امْتِرَاجُهَا
 فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْعَالِبِ عَلَى الْكُلِّ . وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُفْتَرَجٍ مِنَ الْمَوْلُودَاتِ مِنْ حَرَارَةٍ
 غَرِيْبِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ الْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ؛ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ مِنْ
 اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَانْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
 غَايَتِهِ . وَانظُرْ شَأْنَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعُلْقَةِ ثُمَّ الْمَضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ
 الْجَنِينِ ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نِهَائِهِ . وَنَسَبُ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرٍ تَخْتَلِفُ فِي
 مَقَادِيرِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَالْأَلْكَانُ الطُّورُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ
 الْغَرِيْبِيَّةُ فِي كُلِّ طَوْرٍ مُخَالِفَةٌ لَهَا فِي الطُّورِ الْآخِرِ . فَانظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ
 فِي مَعْدِنِهِ مِنَ الْأَطْوَارِ مِنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ
 صَاحِبَ الْكَيْمِيَاءِ إِلَى أَنْ يُسَاقِقَ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيُخَادِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ
 وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ . وَمِنْ شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَبَدًا تَصَوُّرُ مَا يُفْضَدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ
 الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحِكْمَاءِ أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوَّلُ الْعَمَلِ . فَلَا بُدَّ
 مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ فِي أَحْوَالِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَنَسَبِهَا الْمُتَفَاوِئَةِ فِي كُلِّ طَوْرٍ
 وَاخْتِلَافِ الْحَارِّ الْغَرِيْبِيِّ عِنْدَ اخْتِلَافِهَا وَمَقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ
 مِنْ مِقْدَارِ الْقُوَى الْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ مَقَامَهُ حَتَّى يُخَادِيَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي
 الْمَعْدِنِ أَوْ تَعُدُّ لِبَعْضِ الْمَوَادِّ صُورَةَ مِرَاجِيئَةٍ كَصُورَةِ الْخَمِيرَةِ لِلْخَبْزِ وَتَفْعَلُ فِي هَذِهِ
 الْمَادَّةِ بِالنَّاسِبَةِ لِقُوَاهَا وَمَقَادِيرِهَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَخْصُرُهَا الْعِلْمُ الْمَحِيطُ
 وَالْعُلُومُ الْبَشَرِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالٌ مَنْ يَدَّعِي حُصُولَهُ عَلَى الذَّهَبِ بِهَذِهِ
 الصَّنْعَةِ بِمِثَالِهِ مَنْ يَدَّعِي بِالصَّنْعَةِ تَخْلِيْقَ إِنْسَانٍ مِنَ الْعَنِيِّ . وَنَحْنُ إِذَا سَأَلْنَا لَهُ
 الْإِحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنَسَبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّةِ تَخْلِيْقِهِ فِي رَحِمِهِ وَعَلِمَ ذَلِكَ عِلْمًا

مُحَصَّلًا بِتَفَاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشُدُّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنِ عِلْمِهِ سَلَمْنَا لَهُ تَخْلِيْقَ هَذَا الْإِنْسَانِ
وَأَتَى لَهُ ذَلِكَ . وَلِنَقْرُبَ هَذَا الْبُرْهَانَ بِالِاخْتِصَارِ لَيْسَهْلَ فَهْمُهُ فَتَقُولُ ، حَاصِلُ
صِنَاعَةِ الْكِيْمِيَاءِ وَمَا يَدْعُوْنَهُ بِهَذَا التَّدْبِيْرِ أَنَّهُ مُسَاوِقَةُ الطَّبِيْعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْفِعْلِ
الصَّنَاعِيِّ وَمَخَادَاتِهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيْقُ مَادَّةٍ بِقُوَى
وَأَفْعَالٍ وَصُوْرَةٍ مِرَاجِيئِيَّةٍ تَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ فِعْلًا طَبِيْعِيًّا فَتَضَيِّرُهُ وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُوْرَتِهَا .
وَالْفِعْلُ الصَّنَاعِيُّ مُسْبُوقٌ بِتَصَوُّرَاتٍ أَحْوَالِ الطَّبِيْعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصُدُ مُسَاوِقَتَهَا
أَوْ مَخَادَاتِهَا أَوْ فِعْلِ الْمَادَّةِ ذَاتِ الْقُوَى فِيهَا تَصَوُّرًا مُفْضَلًا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . وَتَلْكَ
الْأَحْوَالُ لَا نِهَآيَةَ لَهَا وَالْعِلْمُ الْبَشْرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا ذُوْنَهَا وَهُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ
يَقْصُدُ تَخْلِيْقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ . هَذَا مُحَصَّلُ هَذَا الْبُرْهَانِ وَهُوَ أَوْثَقُ
مَا عَلِمْتَهُ وَلَيْسَتْ الْإِسْتِحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْفُضُولِ كَمَا رَأَيْتَهُ وَلَا مِنَ الطَّبِيْعَةِ إِنَّمَا هُوَ
مِنْ تَعَدُّرِ الْإِحَاطَةِ وَقُصُورِ الْبَشْرِ عَنْهَا . وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَيْنَا بِمَعْرُوفٍ عَنْ ذَلِكَ وَلَهُ
وَجْهٌ آخَرٌ فِي الْإِسْتِحَالَةِ مِنْ جِهَةِ غَايَتِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْحَجْرَيْنِ
وَنَدْوَرَهُمَا أَنَّهُمَا قِيَمٌ لِمَكَاسِبِ النَّاسِ وَمَثْمُولَانِيهِمْ . فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِالضَّنْعَةِ
لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَكَثُرَ وَجُودُهُمَا حَتَّى لَا يَخْضَلَ أَحَدٌ مِنْ اقْتِنَائِهِمَا عَلَى
شَيْءٍ . وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ أَيْضًا وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيْعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ فِي
أَفْعَالِهَا وَتَتْرَكِبُ الْأَعْوَصَ وَالْأَبْعَدَ . فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي يَزْعُمُونَ
أَنَّهُ صَحِيْحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيْعَةِ فِي مَعْدِنِهَا أَوْ أَقْلُ زَمَانًا لِمَا تَرَكَّتُهُ الطَّبِيْعَةُ
إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكْتَهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلُقُهُمَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ الطُّغْرَاءِ فِي
هَذَا التَّدْبِيْرِ بِمَا عَشَرَ عَلَيْهِ مِنْ مَفْرَدَاتٍ لِأَمْثَالِهِ فِي الطَّبِيْعَةِ كَالْمَعْرَبِ وَالنَّخْلِ وَالْحَيَّةِ
وَتَخْلِيْقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيْحٌ فِي هَذِهِ أَدَى إِلَيْهِ الْعَثُورُ كَمَا زَعَمَ . وَأَمَّا الْكِيْمِيَاءُ فَلَمْ يُنْقَلِ
عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ أَنَّهُ عَشَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُتَّحِلُّوْهَا يَخْبِطُونَ
فِيهَا عَشْوَاءً إِلَى هَلْمٍ جَرًا وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَآذِبَةِ . وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ تَلْمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنَوَّقَلَ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَضَمَّنَ تَضَدِيْقَهُ

صِحَّة الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِكْسِيرَ
بِمَثَابَةِ الْخَمِيرَةِ . وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يُحِيلُ مَا يَخْضَلُ قَبِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّ
الْخَمِيرَةَ إِنَّمَا تَقْلِبُ الْعَجِينَ وَتُعِدُّهُ لِلنَّهْضِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ
بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ . وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدِنِ إِلَى مَا هُوَ
أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ وَالتَّكْوِينُ أَضْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يَقَاسُ
الْإِكْسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ . وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وَجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ
الْحُكَمَاءُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ
وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا تَتِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ . وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ
فِيهَا مِنْ مَنَحَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَحَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّخَرِيَّةِ وَسَائِرِ
الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْعُلَّاجِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلِمَةَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشْبِهُ
ذَلِكَ . وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُثْبَةِ الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَنَحَى . وَهَذَا كَلَامُ جَابِرِ فِي
رِسَالَتِهِ وَنَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجَمَلَةِ فَأَمْرُهَا عِنْدَهُمْ
مِنْ كَلِمَاتِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ عَنْ حُكْمِ الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ
وَالْحَيَوَانَ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشْبًا أَوْ حَيَوَانًا فِيمَا عَدَا مَجْرَى تَخْلِيْقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ
ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِزْفَادِ مَا وَرَاءَ
عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْكِيمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَيَعَ مَالُهُ
وَعَمَلُهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصَّنَاعِيِّ التَّدْبِيرَ الْعَقِيمَ لِأَنَّ نِتْلَهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ
وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَامْتِنَاءِ الْهَوَاءِ وَالنُّفُودِ فِي
كَشَائِفِ الْأَجْسَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيْقِ
الطَّيْرِ وَنَحْوِهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ تَعَالَى : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي » ^(١) وَعَلَى ذَلِكَ فَسَيَلُ تَيْسِيرُهَا
مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا . فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ

(١) سورة المائدة من الآية ١١٠

مُعَاوَةً . وَرُبَّمَا أَوْتِيهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِتْيَاءَهَا فَلَا تَبِمُ فِي يَدِ غَيْرِهِ . وَمِنْ هَذَا
الْبَابِ يَكُونُ عَمَلُهَا سِحْرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ
الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجِزَةً أَوْ كِرَامَةً أَوْ سِحْرًا . وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا الْغَارَا
لَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةَ مِنْ عِلْمِ السُّحْرِ وَأَطْلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي
عَالَمِ الطَّبِيعَةِ . وَأُمُورُ خَرَقِ الْعَادَةِ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ وَلَا يَفْضُدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا . وَاللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى التَّمَسُّقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِتِّخَالِهَا هُوَ كَمَا
قُلْنَا الْعَجْزُ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ وَإِتِّغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وَجُوهِ الطَّبِيعِيِّ
كَالْفِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَسْتَضَعِبُ الْعَاجِزُ إِتِّغَاءَهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرُومُ الْحُصُولَ
عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهِ غَيْرِ طَبِيعِيِّ مِنَ الْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِهَا . وَأَكْثَرُ مَنْ
يَعْنَى بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا
وَاسْتِحْثَالِهَا . فَإِنَّ ابْنَ سِينَا الْقَائِلَ بِاسْتِحْثَالِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزْرَاءُ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ
الْيَغْنَى وَالثَّرْوَةِ وَالْفَارَابِيُّ الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يَعْزُزُهُمْ أَدْنَى
بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ . وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النُّفُوسِ الْمَوْلَعَةِ بِطَرَفِهَا
وَإِتِّخَالِهَا . وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَتِهِ كَثْرَةُ التَّالِيفِ
وَإِخْتِلَافُ الإِضْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّدُ طَرَفِهَا ثُمَّ مُطَابَقَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيزِ
بِاسْتِحْضَارِ ذَلِكَ . وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيُحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا
كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمَرَاعَاةِ طَرَفِهَا . وَلَا يَفِي عُمْرَهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا
تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا بُدَّ ذُونَ رُتْبَةِ التَّحْصِيلِ . وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي

الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْكِتَابِ الْمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفِيهِئَةِ
 مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَابْنِ بَشِيرٍ وَالتَّنْبِيهَاتِ وَالْمُقَدِّمَاتِ وَالْبَيَانِ
 وَالتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ ابْنِ الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَاجُ
 إِلَى تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْفَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقُرْطُوبِيَّةِ وَالْبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطَرِيقِ
 الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحَاطَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ الْفَتْيَا وَهِيَ كُلُّهَا
 مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالِبٌ بِاسْتِحْضَارِ جَمِيعِهَا وَتَمْيِيزِ مَا يَنْبَغُهَا
 وَالْعَمْرُ يَنْقُضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا . وَلَوْ اقْتَصَرَ الْمُعَلِّمُونَ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْمَسَائِلِ
 الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ الْأَمْرُ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ التَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَأْخُذُهُ قَرِيبًا
 وَلَكِنَّهُ ذَاةً لَا يَرْتَفِعُ لِاسْتِقْرَارِ الْعَوَائِدِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ كَالطَّبِيعَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ نَقْلَهَا
 وَلَا تَحْوِيلَهَا وَيُمَثَّلُ أَيْضًا عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سَيِّبَوِيهِ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ
 وَطَرِيقِ الْبُصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَالْبَغْدَادِيِّينَ وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطَرِيقِ
 الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ابْنِ الْحَاجِبِ وَابْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ
 كَيْفَ يُطَالَبُ بِهِ الْمُتَعَلِّمُ وَيَنْقُضِي عُمُرَهُ دُونَهُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي الْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا فِي
 الْقَلِيلِ النَّادِرِ مِثْلِ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ
 صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ يُعْرَفُ بِابْنِ هَاشِمٍ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا أَنَّهُ اسْتَوَلَى
 عَلَى غَايَةِ مَنْ مَلَكَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَةَ لَمْ تَحْضَلْ إِلَّا لِسَيِّبَوِيهِ وَابْنِ جَنِّي وَأَهْلِ طَبَقَتَيْهِمَا
 لِعَظَمِ مَلَكَتِهِ وَمَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ أَصُولِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَفَارِيعِهِ وَحَسَنَ تَصَرُّفِهِ فِيهِ . وَذَلَّ
 عَلَى أَنْ الْفَضْلَ لَيْسَ مُنْخَصِرًا فِي الْمُتَقَدِّمِينَ سَيِّمًا مَعَ مَا قَدَّمَناهُ مِنْ كَثْرَةِ الشَّوَاعِبِ
 بِتَعَدُّدِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرِيقِ وَالتَّأْلِيفِ وَلَكِنْ فَضَّلَ اللَّهُ يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ . وَهَذَا نَادِرٌ مِنْ
 نَوَادِرِ الْوُجُودِ وَالْإِظْهَارِ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمُرَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ
 بِتَخْصِيلِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مَثَلًا الَّذِي هُوَ آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي
 الْمَقْصُودِ الَّذِي هُوَ الثَّمَرَةُ ؟ وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والقاء ما سواها

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الْبَشْرِيَّةَ خَزَائِنُهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ
الْإِدْرَاكِ الَّذِي يُعِيدُهَا ذَلِكَ الْفِكْرَ الْمَحْضَلُ لَهَا ذَلِكَ بِالتَّصَوُّرِ لِلْحَقَائِقِ أَوَّلًا ، ثُمَّ
بِالْبَيِّنَاتِ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَّةِ لَهَا أَوْ نَفْسِهَا عَنْهَا ثَانِيًا ، إِمَّا بِغَيْرِ وَسْطٍ أَوْ بِوَسْطٍ ، حَتَّى
يَسْتَنْتِجَ الْفِكْرُ بِذَلِكَ مَطَالِبَةَ الَّتِي يُغْنَى بِإِبْتِنَاتِهَا أَوْ نَفْسِهَا . فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ مِنْ ذَلِكَ
صُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي الضَّمِيرِ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهَا لِأَخْرَجَ ، إِمَّا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ
الْمُفَاوِضَةِ ، تَضَقُّلُ الْأَفْكَارِ فِي تَضْجِيحِهَا . وَذَلِكَ الْبَيَانُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِبَارَةِ ، وَهِيَ
الْكَلَامُ الْمَرْكَبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فِي عَضْوِ اللِّسَانِ مُرَكَّبَةً مِنَ
الْحُرُوفِ ، وَهِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْمُقَطَّعَةِ بِعَضَلَةِ اللِّهَاءِ وَاللِّسَانِ لِتَبْيِينِ بِهَا
ضَمَائِرَ الْمُتَكَلِّمِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَهَذِهِ رُتْبَةٌ أُولَى فِي الْبَيَانِ عَمَّا فِي
الضَّمَائِرِ ، وَإِنْ كَانَ مُعْظَمُهَا وَأَشْرَفُهَا الْعُلُومَ ، فِيهِ شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَا يَنْدَرِجُ فِي
الضَّمِيرِ مِنْ خَبَرٍ أَوْ إِنْشَاءٍ عَلَى الْعُمُومِ . وَبَعْدَ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيَانِ رُتْبَةٌ ثَانِيَّةٌ
يُودَى بِهَا مَا فِي الضَّمِيرِ ، لَمَنْ تَوَارَى أَوْ غَابَ شَخْصَةً وَبَعْدَ ، أَوْلَمَنْ يَأْتِي بَعْدَ وَلَمْ
يَعَاصِرْهُ وَلَا لِقِيَهُ . وَهَذَا الْبَيَانُ مُنْحَصَرٌ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهِيَ رُقُومٌ بِالْيَدِ تَدُلُّ أَشْكَالَهَا
وَصُورَهَا بِالتَّوَاضُعِ عَلَى الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ حُرُوفًا بِحُرُوفٍ وَكَلِمَاتٍ بِكَلِمَاتٍ ، فَصَارَ
الْبَيَانُ فِيهَا عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ بِوَاسِطَةِ الْكَلَامِ الْمُنْطَقِيِّ ، فَلِهَذَا كَانَتْ فِي الرُّتْبَةِ
الثَّانِيَّةِ وَاحِدًا ، فَسُمِّيَ هَذَا الْبَيَانُ . يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ،
فَهُوَ أَشْرَفُهَا . وَأَهْلُ الْعُنُونِ مُعْتَنُونَ بِإِيدَاعِ مَا يَخْصَلُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ ذَلِكَ فِي
بَطُونِ الْأَوْرَاقِ بِيَدِهِ الْكِتَابَةِ . لِتَعْلَمَ الْفَائِدَةُ فِي حُصُولِهِ لِلْغَائِبِ وَالْمُتَأَخَّرِ ، وَهَؤُلَاءِ
هُمْ الْمُؤَلَّفُونَ . وَالتَّالِيفُ بَيْنَ الْعَوَالِمِ الْبَشْرِيَّةِ وَالْأُمَّمِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَثِيرٌ ، وَمُنْتَقَلَةٌ فِي
الْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ وَالْمَلَلِ وَالْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ .

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْفَلْسَفِيَّةُ ، فَلَا اخْتِلَافَ فِيهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَأْتِي عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ ، فِيمَا تَقْتَضِيهِ الطَّبِيعَةُ الْفِكْرِيَّةُ ، فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا وَفَلَكيَّتِهَا وَغَضْرِيَّتِهَا وَمَجْرَدِهَا وَمَادَّتِهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ لَا تَخْتَلِفُ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ لِاخْتِلَافِ الْمِلَلِ ، أَوْ التَّارِيخِيَّةِ لِاخْتِلَافِ خَارِجِ الْخَبَرِ ، ثُمَّ الْكِتَابَةُ مُخْتَلِفَةٌ بِاضْطِلَاحَاتِ الْبَشَرِ فِي رُسُومِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ قَلَمًا وَخَطًا ، فَمِنْهَا الْخَطُّ الْحِمِيرِيُّ ، وَيُسَمَّى الْمُسْنَدَ ، وَهُوَ كِتَابَةُ حِمِيرٍ وَأَهْلِ الْيَمَنِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ يُخَالَفُ كِتَابَةَ الْعَرَبِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ مُضَرَ ، كَمَا يُخَالَفُ لُغَتَهُمْ ، وَإِنَّ الْكُلَّ عَرَبِيًّا ، إِلَّا أَنَّ مَلَكَةَ هَوْلَاءَ فِي اللِّسَانِ وَالْعِبَارَةِ غَيْرُ مَلَكَةِ أَوْلِيكَ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا قَوَانِينٌ كَثِيرَةٌ مُسْتَقْرَأَةٌ مِنْ عِبَارَتِهِمْ غَيْرُ قَوَانِينِ الْآخَرِينَ ، وَرُبَّمَا يَغْلُطُ فِي ذَلِكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَلَكَاتِ الْعِبَارَةِ ، وَمِنْهَا الْخَطُّ السُّرْيَانِيُّ ، وَهُوَ كِتَابَةُ النَّبِطِ وَالْكَلْدَانِيِّينَ ، وَرُبَّمَا يَزْعُمُ بَعْضُ أَهْلِ الْجَهْلِ أَنَّهُ الْخَطُّ الطَّبِيعِيُّ لِقَدَمِهِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَقْدَمَ الْأُمَمِ ، وَهَذَا وَهَمْ ، وَمَذْهَبٌ غَامِيٌّ ، لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا بِالطَّبِيعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَسْتَمِرُّ بِالْقَدَمِ وَالْمَرَانِ حَتَّى يَصِيرَ مَلَكَةَ رَاسِخَةً ، فَيَطْبُنُّهَا الْمَشَاهِدُ طَبِيعِيَّةً كَمَا هُوَ رَأْيٌ كَثِيرٌ مِنَ الْبُلْدَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَقُولُونَ ، الْعَرَبُ كَانَتْ تَعْرَبُ بِالطَّبِيعِ وَتَنْطِقُ بِالطَّبِيعِ ، وَهَذَا وَهَمْ ، وَمِنْهَا الْخَطُّ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي هُوَ كِتَابَةُ بَنِي عَابِرِ بْنِ شَالِحٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِنْهَا الْخَطُّ اللَّطِينِيُّ ، خَطُّ اللَّطِينِيِّينَ مِنَ الرُّومِ ، وَلَهُمْ أَيْضًا لِسَانٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ اضْطِلَاحٌ فِي الْكِتَابِ يُعْرَى إِلَيْهَا وَيُخْتَصُّ بِهَا ، مِثْلَ التُّرْكِ وَالْفَرَنْجِ وَالْهِنُودِ وَغَيْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِالْأَقْلَامِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى ، أَمَّا السُّرْيَانِيُّ فَلِقَدَمِهِ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالْعِبْرِيُّ فَلِتَنْزُلِ الْقُرْآنِ وَالنُّوْرَةِ بِهِمَا بِلِسَانِهِمَا ، وَكَانَ هَذَانِ الْخَطَّانِ بَيَانًا لِمَتْلُوهِمَا ، فَوَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِمَنْظُومِهِمَا أَوْلًا وَانْبَسَطَتْ قَوَانِينُ لِاطْرَادِ الْعِبَارَةِ فِي تِلْكَ اللُّغَةِ عَلَى أَشْلُوبِهَا لِتَفْهَمَ الشَّرَائِعَ التَّكْلِيفِيَّةَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الرَّبَّانِيِّ ، وَأَمَّا اللَّطِينِيُّ فَكَانَ الرُّومُ ، وَهَمْ أَهْلُ ذَلِكَ

اللِّسَانِ ، لِمَا أَخَذُوا بِدِينِ النَّضْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنَ التَّوْرَةِ ، كَمَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ
الْكِتَابِ ، تَرَجَّمُوا التَّوْرَةَ وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى لُغَتِهِمْ ، لِيَقْتَنِصُوا مِنْهَا
الْأَحْكَامَ عَلَى أَسْهَلِ الطَّرِيقِ . وَصَارَتْ عِنَايَتُهُمْ بِلُغَتِهِمْ وَكِتَابَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا .
وَأَمَّا الْخُطُوطُ الْأُخْرَى فَلَمْ تَقَعْ بِهَا عِنَايَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِكُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ
اضْطِرَاحِهَا . ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ حَضَرُوا مَقَاصِدَ التَّالِيفِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهَا وَالْغَاءُ
مَا سِوَاهَا ، فَعَدَّوْهَا سَبْعَةً ،

أَوَّلَهَا ، اسْتِنْبَاطُ الْعِلْمِ بِمَوْضُوعِهِ وَتَقْسِيمُ أَسْمَائِهِ وَفُضُولِهِ وَتَتَبُّعُ مَسَائِلِهِ ، أَوْ
اسْتِنْبَاطُ مَسَائِلٍ وَمَبَاحِثٍ تَعْرِضُ لِلْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ وَيَخْرُصُ عَلَى إِيْضَالِهِ بِغَيْرِهِ ، لِتَعْمُ
الْمَنْفَعَةُ بِهِ فَيُودِعُ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ فِي الْمُضْحَفِ ، لَعَلَّ الْمُتَأَخِّرَ يَظْهَرُ عَلَى تِلْكَ
الْفَائِدَةِ ، كَمَا وَقَعَ فِي الْأَصُولِ فِي الْفِقْهِ . تَكَلَّمَ الشَّافِعِيُّ أَوَّلًا فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ
الْلَفْظِيَّةِ وَلِخَصِّهَا ، ثُمَّ جَاءَ الْخَنَفِيَّةُ فَاسْتَنْبَطُوا مَسَائِلَ الْقِيَاسِ وَاسْتَوْعَبُوهَا ، وَانْتَفَعَ
بِذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى الْآنِ .

وَأَثَانِيَّهَا ، أَنْ يَقِفَ عَلَى كَلَامِ الْأَوَّلِينَ وَتَأْلِيْفِهِمْ فَيَجِدُهَا مُسْتَعْلَقَةً عَلَى الْأَفْهَامِ
وَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ فِي فَهْمِهَا فَيَخْرُصُ عَلَى إِبَانَةِ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ عَسَاهُ يَسْتَعْلِقُ عَلَيْهِ ،
لِتَصِلَ الْفَائِدَةُ لِمُسْتَحِقِّهَا . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْبَيَانِ لِكُتُبِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، وَهُوَ
فَضْلٌ شَرِيفٌ .

وَأَثَانِيَّهَا ، أَنْ يَعْتَرِ الْمُتَأَخِّرُ عَلَى غَلْطٍ أَوْ خَطِإٍ فِي كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِمَّنْ اشْتَهَرَ
فُضْلُهُ وَبَعُدَ فِي الْإِفَادَةِ صِيَتُهُ ، وَيَسْتَوْثِقُ فِي ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا مَدْخَلَ
لِلشُّكِّ فِيهِ . فَيَخْرُصُ عَلَى إِيْضَالِ ذَلِكَ لِمَنْ بَعْدَهُ ، إِذْ قَدْ تَعَدَّرَ مَخَوَّهُ وَنَزَعَهُ بِانْتِشَارِ
التَّالِيفِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَعْصَارِ ، وَشُهْرَةِ الْمُؤَلِّفِ وَوُثُوقِ النَّاسِ بِمَعَارِفِهِ ، فَيُودِعُ ذَلِكَ
الْكِتَابَ لِيَقِفَ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا ، أَنْ يَكُونَ الْفَنُّ الْوَاحِدُ قَدْ نَقَصَتْ مِنْهُ مَسَائِلُ أَوْ فُضُولٌ بِحَسَبِ

انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفضوله . ولا يبقى للنقص فيه مجال .

وخامسها ، أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة ، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ، ويجعل كل مسألة في بابها . كما وقع في المدونة من رواية سخون عن ابن القاسم ، وفي العشي من رواية العشي عن أصحاب مالك ، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبيقت العشي غير مهذبة . فوجد في كل باب مسائل من غيره . واشتغلوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده .

وسادسها ، أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فينتبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله . فيفعل ذلك ، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم . كما وقع في علم البيان . فإن عند القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة . تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم ، فكتبت في ذلك تأليفهم المشهورة . وصارت أصولا لفن البيان . ولقنها المتأخرون فأرَبُوا فيها على كل متقدم .

وسابعها ، أن يكون الشيء من التأليف التي هي أمهات للفنون مطولا مسها فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك ، بالإختصار والإيجاز وحذف المتكرر . إن وقع مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول .

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها . وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء .

مِثْلَ انْتِحَالِ مَا تَقَدَّمَ لِغَيْرِهِ مِنَ التَّالِيفِ أَنْ يَنْسِبَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِبَعْضِ تَلْبِيسٍ . مِنْ تَبْدِيلِ الْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِ الْمُتَأَخَّرِ وَعَكْسِهِ . أَوْ يَخَذِفُ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي الْفَنِّ أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ ، أَوْ يُبَدِّلُ الصَّوَابَ بِالْخَطِإِ . أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . فَهَذَا شَأْنُ الْجَهْلِ وَالْقِحَّةِ . وَلِذَا قَالَ أَرِسْطُو . لَمَّا عَدَّدَ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ . وَأَنْتَهَى إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ . وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفَضْلٌ أَوْ شَرٌّ . يَعْني بِذَلِكَ الْجَهْلَ وَالْقِحَّةَ . نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي مَا لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ سُلُوكُهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخَّرِينَ إِلَى اخْتِصَارِ الطَّرِيقِ وَالْإِنْخَاءِ فِي الْعُلُومِ يُوَلِّعُونَ بِهَا وَيُدَوِّنُونَ مِنْهَا بَرْنَامِجًا مُخْتَصَرًا فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى خَضِرِ مَسَائِلِهِ وَأَدْلَتِهَا بِاخْتِصَارٍ فِي الْأَلْفَاظِ وَخَشْوِ الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعْنَايِ الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ . وَصَارَ ذَلِكَ مُخْلًا بِالْبَلَاغَةِ وَعَسِيراً عَلَى الْفَهْمِ . وَرُبَّمَا عَمَدُوا إِلَى الْكُتُبِ الْأَمْهَاتِ الْمَطْوُولَةِ فِي الْفُنُونِ لِلتَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ فَاخْتَصَرُوهَا تَقْرِيْبًا لِلْحِفْظِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَابْنُ مَالِكٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْحَوْنَجِيُّ فِي الْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ . وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِالتَّخْصِيلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ تَخْلِيطًا عَلَى الْمُبْتَدِيِّ بِإِلْقَاءِ الْغَايَاتِ مِنَ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدْ لِقَبُولِهَا بَعْدَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي . ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ بِشُتَعِ الْأَفْظِ الْاِخْتِصَارِ الْعَوِيضَةِ لِلْفَهْمِ بِتَرَاحُمِ الْمَعْنَايِ عَلَيْهَا وَصُعُوبَةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِلِ مِنْ بَيْنِهَا . لِأَنَّ الْأَفْظِ الْمُخْتَصَرَاتِ تَجْعَلُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْبَةً عَوِيضَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حِظٌ صَالِحٌ عَنِ الْوَقْتِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقِبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَخْصُلُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمَطْوُولَةِ لِكثْرَةِ مَا يَقَعُ

في تلك من التكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة . وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأزكبوهم صبغاً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها . « ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له » . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويترعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد^(١) عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة . وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيترفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا معلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات . وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أذكرنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويخضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقللة من العلم ويطلب البوناه بإخضار

(١) وفي نسخة أخرى : يورد .

ذَهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيُخَسِّبُونَ ذَلِكَ مِرَانًا عَلَى التَّغْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَغِي ذَلِكَ
 وَتَخْصِيلَهُ وَيَخْلُطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ ^(١) الْفَنُونِ فِي مَبَادِيهَا وَقَبْلَ أَنْ
 يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنْ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِيحًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ
 أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيْبِ وَالِإِجْمَالِ
 وَالْأَمْثَالِ الْحَسِيَّةِ . ثُمَّ لَا يَزَالُ الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدْرَجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ
 ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالِإِنْتِقَالَ فِيهَا مِنَ التَّقْرِيْبِ إِلَى الْإِسْتِعْبَابِ الَّذِي فَوْقَهُ .
 حَتَّى تَبْمُ الْمَلَكَةُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ ثُمَّ فِي التَّخْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أَلْقِيَتْ
 عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدَائَاتِ وَهُوَ حِينئِذٍ عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَيَعِيدُ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ
 لَهُ كُلُّ ذَهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْحَرَفَ عَنِ
 قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ . وَإِنَّمَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّغْلِيمِ . وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُتَعَلِّمِ أَنْ
 يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكْبَرَ عَلَى التَّغْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ
 قَبُولِهِ لِلتَّغْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُنْتَهِيًا وَلَا يَخْلُطُ مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَعِينَهُ
 مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصِلُ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوْلِي مِنْهُ عَلَى مَلَكَةِ بِهَا يَنْفَعُ فِي غَيْرِهِ . لِأَنَّ
 الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَةٌ مَا فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ اسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ
 نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوضِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى يَسْتَوْلِي عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا
 خَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكَلَالُ وَأَنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَيَبْسُ مِنَ التَّخْصِيلِ
 وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّغْلِيمَ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تَطُولَ عَلَى
 الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيْقِ الْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيْعَةٌ إِلَى النُّسْيَانِ
 وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ بِتَفْرِيْقِهَا . وَإِذَا
 كَانَتْ أَوَائِلَ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ مُجَانِبَةً لِلنُّسْيَانِ كَانَتْ الْمَلَكَةُ أَيْسَرَ
 حُصُولًا وَأَحْكَمَ اِزْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِنْفَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ
 وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تَنَوَّسَى الْفِعْلُ تَنَوَّسِيَتْ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ . وَاللَّهُ عَلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

(١) وفي نسخة أخرى : غرائب .

تَعْلَمُونَ . وَمِنَ الْمَذَاهِبِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاحِيَةِ فِي التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يُخْلَطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَأَنْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخَرِ فَيَسْتَفْلِقَانِ مَعًا وَيَسْتَضِعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ . وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِتَعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَحْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَوْفُوقُ لِلصَّوَابِ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ أَنِّي أَتَحَفُّكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعْلَمِكَ فَإِنَّ تَلَقُّيْنَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفِرْتَ بِكُنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمَ لَكَ مَقْدَمَةً تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ الْإِنْسَانِيَّ طَبِيعَةً مَخْصُوصَةً فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ مُبْتَدِعَاتِهِ وَهُوَ (وَجِدَانُ حَرَكَةٍ لِلنَّفْسِ)^(١) فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ . تَارَةً يَكُونُ مَبْدَأً لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأً لِعِلْمٍ مَا لَمْ يَكُنْ خَاصِلًا بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ . وَقَدْ يُصَوِّرُ طَرَفِيهِ^(٢) يَرُومَ نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ فَيَلُوحُ لَهُ الْوَسْطُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا . أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى تَحْصِيلِ آخَرَ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا وَيَصِيرُ إِلَى الظَّفْرِ بِمَطْلُوبِهِ . هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا الْبَشَرُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . ثُمَّ الصَّنَاعَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ تَصِفُهُ لِتَعْلَمَ سَدَادَةَ مِنْ خَطِيئَةٍ وَأَنَّهَا وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْزُضُ لَهَا الْخَطَأُ فِي الْأَقْلُ مِنْ تَصَوُّرِ الطَّرْفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِمَا مِنْ اشْتِبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي نَظْمِ الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنَّتَاجِ فَتُعِينُ الْمُنْطِقَ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَرْطَةِ هَذَا الْفَسَادِ إِذَا عَرَّضَ . فَالْمُنْطِقُ إِذَا أَمَرَ صِنَاعِيًّا مُسَاقِقًا لِلطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمُنْطَقًا عَلَى صُورَةٍ فَعَلَهَا وَلِكُونِهِ أَمْرًا صِنَاعِيًّا اسْتَفْنِي عَنْهُ فِي الْأَكْثَرِ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ فُحُولِ النُّظَارِ فِي الْخَلِيقَةِ يَحْضُلُونَ عَلَى الْمَطَالِبِ فِي الْعُلُومِ دُونَ صِنَاعَةِ عِلْمِ الْمُنْطِقِ وَلَا سِيَّمًا مَعَ صِدْقِ النِّيَّةِ وَالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ

(١) وفي النسخة الباريسية : فعل حركة في النفس وقوة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : طريقه .

ذَلِكَ أَكْثَرُ مَعْنَى . وَيَسْلُكُونَ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى سَدَادِهَا فَيُنْفِضِي بِالطَّبِيعِ إِلَى حُصُولِ الْوَسْطِ وَالْعِلْمِ بِالْمَطْلُوبِ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنْ دُونِ هَذَا الْأَمْرِ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي هُوَ الْمُنْطَقُ مُقَدِّمَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّعَلُّمِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتُهَا عَلَى الْمَعْنَى الذَّهْنِيَّةِ تَرُدُّهَا^(١) مِنْ مُشَاقَّةِ الرُّسُومِ بِالْكِتَابِ وَمُشَاقَّةِ اللِّسَانِ بِالْخُطَابِ . فَلَا بُدَّ أَيْهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مُجَاوَزَتِكَ هَذِهِ الْحُجْبِ كُلِّهَا إِلَى الْفِكْرِ فِي مَطْلُوبِكَ . فَأَوَّلًا ، دَلَالَةُ الْكِتَابَةِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ وَهِيَ أَخْفَاهَا^(٢) ثُمَّ دَلَالَةُ الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَةِ ثُمَّ الْقَوَائِينُ فِي تَرْتِيبِ الْمَعْنَى لِلِاسْتِدْلَالِ فِي قَوْلِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ . ثُمَّ تِلْكَ الْمَعْنَى مُجْرَدَةٌ فِي الْفِكْرِ اشْتِرَاطًا يُقْتَضَى بِهَا الْمَطْلُوبُ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالْتَعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمَوَاهِبِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ بِسُرْعَةٍ وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْحُجْبَ فِي التَّعَلُّمِ بِسَهُولَةٍ ، بَلْ رُبَّمَا وَقَفَ الذَّهْنُ فِي حُجْبِ الْأَلْفَاظِ بِالْمُنَاقَشَاتِ أَوْ عَثَرَ فِي اشْتِرَاكِ الْأَدْلَةِ بِشَغْبِ الْجِدَالِ وَالشُّبُهَاتِ وَقَعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَخَلَّصُ مِنْ تِلْكَ الْعُمُرَةِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ هَدَاهُ اللَّهُ . فَإِذَا ابْتَلَيْتَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَعَرَضَ لَكَ ازْتِمَاكَ^(٣) فِي فَهْمِكَ أَوْ تَشْغِيبِ الشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ فَاطْرَحْ ذَلِكَ وَانْتَبِذْ حُجْبَ الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقِ الشُّبُهَاتِ وَاتْرِكْ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَاخْلُصْ إِلَى قَضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فَطَرْتَ عَلَيْهِ . وَسَرِّحْ نَظْرَكَ فِيهِ وَفَرِّغْ ذَهْنَكَ فِيهِ لِلْفَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ مِنْهُ وَاصْعَا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا أَكَابِرُ النُّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ بِالظَّفْرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ^(٤) هَذَا الْفِكْرِ وَنَظَرَهُ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَا وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ

(١) وفي النسخة الباريسية : تؤديها .

(٢) وفي النسخة الباريسية : احفظها .

(٣) وفي النسخة الباريسية : ارتياب .

(٤) وفي النسخة الباريسية : من مفيضات .

به إلى قَوْلِ الأَدِلَّةِ وَصَوْرَهَا فَأَفْرَعُهُ فِيهَا وَوَفَّه حَقَّهُ مِنَ القَانُونِ الصَّنَاعِيِّ ثُمَّ أَكْسَهُ
 صُورَ الأَلْفَاظِ وَأَبْرَزَهُ إِلَى عَالَمِ الخَطَابِ وَالمُشَافَهَةِ وَثَبَّتَ العُرَى صَحِيحَ البُنْيَانِ .
 وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ المُنَاقَشَةِ وَالمُشَبِّهَةِ فِي الأَدِلَّةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَتَمَحِيصِ صَوَابِهَا مِنْ
 خَطئِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتِهَا المُتَعَدِّدَةُ وَتَشَابُهَ لِأَجْلِ الوَضْعِ
 وَالإِضْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةٌ الحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ ^(١) إِذَا كَانَتْ
 بِالمُطَبِّعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشُّكِّ وَالإِرتِيَابِ وَتُسَدَّلُ الحُجُبُ عَلَى المَطْلُوبِ
 وَتَقَعُدُ بِالنَّاطِرِ عَنِ تَخْصِيصِهِ . وَهَذَا شَأْنُ الأَكْثَرِينَ مِنَ النُّظَّارِ وَالمُتَأَخِّرِينَ سِيَمَا
 مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عَجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَزَبَطَتْ عَنْ ذَهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شَغَبٌ بِالقَانُونِ
 المُنْطِقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الحَقِّ بِالمُطَبِّعِ فَيَقَعُ فِي الخَيْرَةِ
 بَيْنَ شُبُهَةِ الأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا . وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الحَقِّ
 بِالمُطَبِّعِ إِنَّمَا هُوَ الفِكرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَا إِذَا جُرِّدَ عَنْ جَمِيعِ الأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ
 النَّاطِرُ فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَمَّا المُنْطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِيفْعَلِ هَذَا الفِكرُ
 فَيَسَاوِقُهُ فِي الأَكْثَرِ . فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمْطِرْ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى مَتَى أُعَوِّزَكَ فَهَمُّ
 المَسَائِلِ تُشْرِقُ عَلَيْكَ انْوَارُهُ بِالإِلْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ . وَاللهُ الهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا
 العِلْمُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

الفصل الثامن والثلاثون

فِي أَنَّ العُلُومَ الإِلَهِيَّةَ لَا تَوْسِعُ فِيهَا الأَنْظَارُ وَلَا تَفْرَعُ المَسَائِلُ
 إِعْلَمُ أَنَّ العُلُومَ المُنْتَعَارَةَ بَيْنَ أَهْلِ العُمَرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ ، عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ
 بِالأَدَاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقهِ وَعِلْمِ الكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ
 وَالإِلَهِيَّاتِ مِنَ الفِلسَفَةِ . وَعُلُومٌ هِيَ وَسِيلَةٌ آيَّةٌ ^(٢) لِإِهْدِي العُلُومَ كَالعَرَبِيَّةِ وَالحِسَابِ

(١) وفي النسخة الباريسية : تتميز .

(٢) وفي نسخة أخرى : آلة ووسيلة .

وغيرهما للشروعات كالمَنطِقِ لِلْفَلَسَفَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ آلَةُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدٌ فَلَا خَرَجَ فِي تَوْسِيعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإِضَاحًا لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ . وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا مِثْلَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمَا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ . وَلَا يُوسَعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفْرَعُ الْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرَجٌ لَهَا عَنِ الْمَقْصُودِ إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرُ . فَكَلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ وَصَارَ الْإِسْتِغَالُ بِهَا لُغَوًا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطَوْلِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا . وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لِطَوْلِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهْمٌ وَالْعُمُرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ الْإِسْتِغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعُمُرِ وَشُغْلًا بِمَا لَا يَغْنِي . وَهَذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي صِنَاعَةِ النَّحْوِ وَصِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ الْكَلَامِ فِيهَا وَأَكْثَرُوا مِنَ التَّفَارِيعِ وَالِاسْتِدْلالاتِ بِمَا أَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنِهَا آلَةً وَصَيْرَهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ ^(١) وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا لِذَلِكَ أَنْظَارٌ وَمَسَائِلٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ فِيهِ مِنْ نَوْعِ اللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمِينَ اِهْتِمَامَهُمْ بِالْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ أَكْثَرَ مِنْ اِهْتِمَامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا ^(٢) فَإِذَا قَطَعُوا الْعُمُرَ فِي تَحْصِيلِ الْوَسَائِلِ فَمَتَى يَنْظُرُونَ بِالْمَقَاصِدِ ؟ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُعَلِّمِينَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَبْجِرُوا فِي شَأْنِهَا وَلَا يَسْتَكْثِرُوا مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَنْبَهُوا الْمُتَعَلِّمَ عَلَى الْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقْفُوا بِهِ عِنْدَهُ . فَمَنْ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَعُّلِ وَرَأَى مِنْ نَفْسِهِ قِيَامًا بِذَلِكَ وَكِفَايَةً بِهِ فَلْيُرَقِّ ^(٣) لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَاقِبِ صَغْبًا أَوْ سَهْلًا وَكُلَّ مَيْسَّرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ .

(١) وفي نسخة أخرى ، وصيرها مقصودة بذاتها .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بهذه الآلات والوسائل .

(٣) وفي نسخة أخرى ، فليختر لنفسه .

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

إِغْلَمَ أَنْ تَعْلِيمَ الْوُلْدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ الدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ رُسُوحِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَعْضِ مَثَوْنِ الْأَحَادِيثِ . وَصَارَ الْقُرْآنُ أَضْلَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَلَكَاتِ . وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوحًا وَهُوَ أَضْلُ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ . وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ وَأَسَالِيْبِهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ . وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوُلْدَانِ بِاخْتِلَافِهِمْ بِإِغْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي الْوُلْدَانِ الْإِقْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ . وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمَدَارَسَةِ بِالرُّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافَ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلِطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاةِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهِ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَحْدُثَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ . وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى^(١) الْبَرْبَرِ . أَمَّا الْمَغْرِبُ فِي وُلْدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّبِيثَةِ . وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ^(٢) مَدَارَسَةَ الْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عَمْرِهِ . فَهَمَّ لِذَلِكَ أَقْوَمَ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحَفِظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعَوْنَهُ فِي التَّعْلِيمِ . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَضْلَ ذَلِكَ وَأَشَدَّ وَمَنْعَ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَضْلًا فِي التَّعْلِيمِ . فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوُلْدَانِ رِوَايَةَ الشُّعْرِ فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَائِنِ

(١) وفي النسخة الباريية : من قراء البربر .

(٢) وفي نسخة أخرى : راجع .

العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولا تخصص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه . بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا^(١) بغض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول . وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعدادا إذا وجد المعلم . وأما أهل أفريقيا فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بغض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار^(٢) الولدان إيائه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس . واستقروا بتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك . وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما تبيننا ولا أدري بم عنايتهم منها . والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفرادهم كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجابة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسبح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويتبعه من أهل صنعته . فأما أهل أفريقيا والمغرب فأفادهم الإقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مضروفون عن الإتيان بمثله فهم مضروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاختناء بها . وليس لهم ملكة في غير

(١) شد من العلم ، أخذ . (قاموس)

(٢) وفي نسخة أخرى : استنظار .

أساليبه فلا يخلص لصاحبه ملكة في اللسان العربي وخطه الجمود في العبارات
وقلة التصرف في الكلام . وربما كان أهل أريقيّة في ذلك أخف من أهل المغرب
لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارة العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون
على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن
البلاغة كما سيأتي في فضله . وأما أهل الأندلس فأفادهم الثفنن في التعليم وكثرة
رواية الشعر والترسل ومدايسة العربية من أول العمر . حصول ملكة صاروا بها
أعزف في اللسان العربي . وقصروا في سائر العلوم لبغدهم عن مدايسة القرآن
والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها . فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع أو
مقصر . على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبي ^(١) . ولقد ذهب
القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رخلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم
وأعاد في ذلك وأبداً وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل
الأندلس . قال : « لأن الشعر ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم ^(٢) العربية
في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى
القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة » . ثم قال :
« وبإغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أوامره ^(٣) يقرأ ما لا يفهم
وينصب في أمر غيره أهم ما عليه منه » . ثم قال : « ينظر في أصول الدين ثم
أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه » ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم
علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط . هذا ما أشار إليه
القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه
وهي أثللك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إشاراً
للتبرك والثواب . وخشية ما يفرض للولد في جنون الصبي من الآفات والقواطع

(١) وفي نسخة أخرى ، الصبا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، تقديم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، أول عمره .

عن العلم فيفوتهُ القرآن ، لأنه ما دام في الحجر مُنقاداً للحكم . فإذا تجاوز البلوغ
وانحل من رنقة القمر فرُبما عصفت به رياح الشيبية فألقته بساحل البطالة
فيفتتُمون في زمان الحجر ورنقة الحكم تخصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه . ولو
حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي
ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق . ولكن الله يحكم ما يشاء
لا معقب لحكمه .

الفصل الأربعون

في أن الشدة على المتعلمين مضره بهم

وذلك أن إزهاف الحد بالتعليم مضرٌ بالمنعلم سيما في أصغر الولد لأنه من
سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم
سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاها إلى الكسل
وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط
الأيدي بالقهر عليه وعلمة المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادةً وخلقاً
وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن^(١) وهي الحمية
والمدافة عن نفسه ومنزله . وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسبت النفس عن
اكتساب الفضائل والخلق الجميل فأنقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فازتكس
وعاد في أسنل السافلين . وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها
العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه . ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة
به . وتجد ذلك فيهم استقراة وأنظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق
السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق . وعصر بالخرج^(٢) ومعناه في الاضطلاج

(١) وفي نسخة أخرى : التمدن .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالخرج .

المشهور الثخائب والكيد وسببه ما قلناه . فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدا^(١) عليهما في التأديب . وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين : « لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً » . ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » . حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدر الذي عينه الشرع لذلك أملاك له فإنه أعلم بمصلحته . ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده . قال خلف الأحمر : بعت إلى الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمز إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدنه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتتحة فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تمنع في مسامحته فيستجلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة » . انتهى .

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفصائل : تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً . فعلى

(١) وفي النسخة الباريسية : يشدوا عليهم وفي نسخة أخرى : يستبدوا .

قَدَرِ كَثْرَةَ الشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوحَهَا . وَالِاضْطِلَاحَاتُ أَيْضًا فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ مُخَلِّطَةٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ذَلِكَ إِلَّا مَبَاشَرَتُهُ لِاخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِيهَا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ . فَلِقَاءُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ الْمَشَايخِ يَفِيدُهُ تَمْيِيزَ الْاضْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنَ اخْتِلَافِ طَرِيقِهِمْ فِيهَا فَيَجْرُدُ الْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ أَنَّهَا أَنْخَاءُ تَعْلِيمٍ وَطَرِيقٌ تَوْصِلُ وَتَنْهَضُ قَوَاهُ إِلَى الرُّسُوحِ وَالِاسْتِحْكَامِ فِي الْمَكَانِ ^(١) وَتُصَحِّحُ مَعَارِفَهُ وَتُمَيِّزُهَا ^(٢) عَنْ سِوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِالْمَبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ وَكَثْرَتِهِمَا مِنَ الْمَشِيخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ . وَهَذَا لِمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْعِلْمِ وَالْهِدَايَةَ . فَالرَّخْلَةُ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِاِكْتِسَابِ الْفَوَائِدِ وَالْكَمَالِ بِلِقَاءِ الْمَشَايخِ وَمَبَاشَرَةِ الرَّجَالِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْفُغُوصَ عَلَى الْمَعَانِي وَانْتِزَاعَهَا مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدَهَا فِي الذَّهْنِ . أُمُورًا كَلْبِيَّةً غَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جَيْلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ . وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكَلْبِيَّ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ . وَأَيْضًا يَقِيسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ . فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلِّهَا فِي الذَّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى الْمَطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفُرَاعِ مِنَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ . وَلَا تَصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمَطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَنْتَفِرِعُ مَا فِي الْخَارِجِ عَمَّا فِي الذَّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ

(١) وفي نسخة أخرى ، في الملكات .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، وتصحيح معارفها وتمييزها عن سواها .

عَمَّا فِي الْمَحْفُوظِ مِنْ أَدْلَةِ الْكِتَابِ وَالشُّبْهِ فَتَطَلَّبُ مُطَابَقَةَ مَا فِي الْخَارِجِ لَهَا عَكْسُ
الْأَنْظَارِ^(١) فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَطَلَّبُ فِي صَحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَا فِي الْخَارِجِ . فَهَمَّ
مَتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ الذَّهْنِيَّةَ وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا .
وَالسِّيَاسَةَ يَخْتِاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي الْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا
فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ . وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ الْحَاقِقِ بِشِبْهِهِ أَوْ مِثَالِ وَيُنَاقِ الْكَلْمِ
الَّذِي يَحَاوُلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا . وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ عَلَى الْآخَرِ كَمَا
اشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهَا اخْتَلَفًا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ
تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةَ أَفْرَعُوا ذَلِكَ
فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوَعَ اسْتِدْلَالَاتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي الْعَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ .
وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِأَنَّهِمْ يَنْزِعُونَ بِثَقُوبِ أَذْهَانِهِمْ
إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْغُوصِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْمُحَاكَاةِ فَيَقَعُونَ فِي
الْعَلَطِ . وَالْعَامِيُّ السَّلِيمُ الطَّبَعِ الْمُتَوَسِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنِ ذَلِكَ وَعَدَمِ
اعْتِيَاده إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ
عَلَى مَا اخْتَصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ
الْمَوَادَّ الْمَحْسُوسَةَ وَلَا يَجَاوِزُهَا فِي ذَهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ . قَالَ
الشَّاعِرُ :

فَلَا تَوَعَّلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أُنْبَاءِ حِنْسِهِ
فَيَحْسُنُ مَعَاشَهُ وَتُدْفَعُ أَفَاتُهُ وَمَضَارُهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ . وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .
وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ^(٢) أَنَّ صِنَاعَةَ الْمُنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونِيَّةِ الْعَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِنْتِزَاعِ
وَبُعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمُتَقَوْلَاتِ الشُّوَانِي . وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا

(١) الأصح أن يقول كلمة النظر لأنه لا وجود لكلمة انظار في (لسان العرب) .

(٢) وفي النسخة الباريسية : تعلم .

مَا يُمَانَعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مَرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِيِّ . وَأَمَّا النَّظَرُ فِي
الْمَقْذُولَاتِ الْأُولَى وَهِيَ الَّتِي تَجْرِي بِهَا قَرِيبٌ فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ
الْمَحْسُوسَاتِ خَافِظَةٌ مُؤَدَّنَةٌ بِتَصَدِيقِ انْطِبَاقِهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ
التَّوْفِيقُ .

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ لَا مِنْ
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنْ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ . وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ فِي
نَسَبِهِ فَهُوَ أَعْجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَشِيخَتِهِ مَعَ أَنَّ الْمِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ وَصَاحِبَ شَرِيعَتِهَا
عَرَبِيٌّ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِلَّةَ فِي أَوْلِيَّهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى
أَحْوَالِ السُّنْدَاجَةِ وَالْبِدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ
الرِّجَالُ يَتَقَلَّبُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَا أَخَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنْ
صَاحِبِ الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ . وَالْقَوْمُ يُؤَمِّدُ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّغْلِيمِ وَالتَّأْلِيفِ
وَالتَّدْوِينِ وَلَا دَفَعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتَهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ . وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ
الصُّحَايَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْمُخْتَصِّينَ بِحَمْلِ ذَلِكَ . وَنَقَلَهُ إِلَى الْقُرَاءِ أَيِ
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أُمَّيِّينَ لِأَنَّ الْأُمَّيَّةَ يُؤَمِّدُ صِفَةً عَامَّةً فِي الصُّحَايَةِ بِمَا
كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يُؤَمِّدُ قِرَاءً إِشَارَةً إِلَى هَذَا . فَهَمَّ قِرَاءً لِكِتَابِ اللَّهِ
وَالسُّنَّةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ
الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرُهُ وَشَرْحُهُ . قَالَ ﷺ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ
تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا ، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي » . فَلَمَّا بَعُدَ النَّقْلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ
الرُّشَيْدِ فَمَا بَعُدَ اخْتِجَاعُ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَقْيِيدِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ

احتجج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقيلين^(١) للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتجج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت^(٢) إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذنب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتخل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك خصرية وبعدها العرب وعن سوقها . والحضرة لذلك العبد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يؤمّنون تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحوسينويه والفرسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم . وإنما ربوا في اللسان العربي فاكسبوه بالمربي ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم . وكذا حملت الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي لاتساع الفن بالعراق . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف وكذا حملت علم الكلام وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق يحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . وظهر مصادق قوله عليه السلام : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لئالة قوم من أهل فارس » . وأما العرب الذين أذركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم . والنظر فيه . فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من

(١) وفي النسخة الباريية : الرواة .

(٢) وفي النسخة الباريية : واحتجج .

الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع . والرؤساء أبدأ
يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم
والمولدين . وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون
حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت
العلوم الشرعية غريبة النسيبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسيبتها
وامتن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يعني ولا يجدي
عنهم^(١) في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل^(٢) المراتب الدينية . فهذا الذي
قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم . وأما العلوم العقلية
أيضاً فلم تظهر في العلة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه . واستتر العلم كله
صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتخالها فلم يحملها إلا
المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً . فلم يزل ذلك في الأمصار
الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء
النهر . فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في
حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص
العلم بالأمصار الموقورة الحضارة . ولا أوفر اليوم في الحضارة من مضر فهي أم
العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع . وبقي بعض الحضارة في ما وراء
النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم
والصنائع لا تنكر . وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تاليف وصلت إلينا
إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني . وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد
الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصاية .
فاعتبر ذلك وتأمله ترعجاً في أحوال الخليقة . والله يخلق ما يشاء لا شريك له

(١) وفي نسخة أخرى : عليهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : فصل .

لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان

قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ مَبَاحِثَ الْعُلُومِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَعَانِي الذِّهْنِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ .
مِنْ بَيْنِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَبَاحِثِهَا فِي الْأَلْفَاظِ وَمَوَادِّهَا مِنَ الْأَحْكَامِ
الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلُغَاتِهَا الْمُؤَدِّيَّةُ لَهَا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي الْخِيَالِ ، وَبَيْنَ
الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَهِيَ فِي الذِّهْنِ . وَاللُّغَاتُ إِنَّمَا هِيَ تَرْجُمَانُ عَمَّا فِي الضَّمَائِرِ مِنْ
تِلْكَ الْمَعَانِي ، يُؤَدِّيهَا بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ بِالمُشَافَهَةِ فِي الْمُنَاطَرَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَمُمَازَسَةِ
الْبَحْثِ بِالْعُلُومِ لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِهَا بِطَوْلِ الْمِرَانِ عَلَى ذَلِكَ . وَالْأَلْفَاظُ وَاللُّغَاتُ
وَسَائِطٌ وَحُجُبٌ بَيْنَ الضَّمَائِرِ ، وَرَوَابِطٌ وَخَتَامٌ عَنِ الْمَعَانِي . وَلَا بُدَّ فِي اقْتِنَاصِ
تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَلْفَاظِهَا لِمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَجُودَةِ الْمَلَكَاتِ لِنَظَرِ
فِيهَا ، وَالْأَقْتِنَاصُ عَلَيْهِ اقْتِنَاصُهَا زِيَادَةً عَلَى مَا يَكُونُ فِي مَبَاحِثِهَا الذِّهْنِيَّةِ مِنْ
الِإِعْتِنَاصِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي تِلْكَ الدَّلَالَاتِ رَاسِخَةً ، يَحِثُّ يَتَبَادَرُ الْمَعَانِي
إِلَى ذَهْنِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهَا ، شَأْنُ الْبَيْدِيَّةِ وَالْحِجْلِيِّ ، زَالَ ذَاكَ
الْحِجَابُ بِالْجُمْلَةِ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْفَهْمِ ، أَوْ خَفَّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَعَانَاةٌ مَا فِي الْمَعَانِي
مِنْ الْمَبَاحِثِ فَقَطْ . هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ التَّعْلِيمُ تَلْقِينًا وَبِالْخِطَابِ وَالْعِبَارَةِ . وَأَمَّا إِنْ
اِحْتِاجَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى الدِّرَاسَةِ وَالتَّقْيِيدِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ الرُّسُومِ الْخَطِيَّةِ مِنْ
الدَّوَابِّ بِمَسَائِلِ الْعُلُومِ ، كَانَ هُنَالِكَ حِجَابٌ آخَرُ بَيْنَ الْخَطِّ وَرُسُومِهِ فِي
الْكِتَابِ ، وَبَيْنَ الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ فِي الْخِيَالِ . لِأَنَّ رُسُومَ الْكِتَابِيَّةِ لَهَا دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ عَلَى

الألفاظ الموقولة . وما لم تُعرف تلك الدلالة تَعَدَّتْ مَعْرِفَةُ الْعِبَارَةِ ، وَإِنْ عُرِفَتْ
بِمَلَكَةِ قَاصِرَةٍ كَانَتْ مَعْرِفَتُهَا أَيْضاً قَاصِرَةً ، وَيَزْدَادُ عَلَى النَّاطِرِ وَالْمَتَعَلِّمِ بِذَلِكَ
حِجَابٌ آخَرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِ ، مِنْ تَخْصِيلِ مَلَكَاتِ الْعُلُومِ أُغْوَصُ مِنَ الْحِجَابِ
الْأَوَّلِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ مُسْتَحْكِمَةً ارْتَفَعَتِ الْحُجُبُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْنَى . وَصَارَ إِنَّمَا يَعْنِي فَهْمَ مَبَاحِثِهَا فَقَطْ . هَذَا شَأْنُ الْمَعْنَى مَعَ
الْأَلْفَافِ وَالْخَطِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ لُغَةٍ . وَالْمَتَعَلِّمُونَ لِذَلِكَ فِي الضَّرْفِ أَشَدُّ اسْتِحْكَاماً
لِمَلَكَاتِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ الْعِلْمَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمَّا اتَّسَعَتْ مَلَكَتُهَا وَأَنْدَرَجَتْ الْأَمَمُ فِي طَيْبِهَا وَدَرَسَتْ
عُلُومَ الْأَوَّلِينَ بِنَبْوَتِهَا وَكِتَابِهَا ، وَكَانَتْ أَمِيَّةَ النَّزْعَةِ وَالشَّعَارِ ، فَأَخَذَ الْمُلْكُ وَالْعِزَّةُ
وَسُخْرِيَةُ الْأَمَمِ لَهُمْ بِالْحَضَارَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَصَيَّرُوا عُلُومَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ صِنَاعَةً ، بَعْدَ
أَنْ كَانَتْ تَقْلًا ، فَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الْمَلَكَاتُ ، وَكَثُرَتْ الدَّوَابِ وَالنَّوَابِغُ وَالنَّوَابِغُ ، وَتَشَوَّفُوا إِلَى
عُلُومِ الْأَمَمِ فَتَقَلَّبُوا بِالترَّجِمَةِ إِلَى عُلُومِهِمْ وَأَفْرَعُوهَا فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ ، وَجَرَدُوهَا
مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ إِلَى لِسَانِهِمْ وَأَرَبَوْا فِيهَا عَلَى مَدَارِكِهِمْ ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ
الدَّفَائِرُ الَّتِي بَلَّغَتْهُمُ الْأَعْجَمِيَّةَ نَشِئاً مَنْسِئاً وَطِللاً مَهْجُوراً وَهَبَاءً مَنْشُوراً . وَأَصْبَحَتْ
الْعُلُومُ كُلُّهَا بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَدَوَابِهَا الْمُسَطَّرَةُ بِخَطِّهِمْ ، وَاحْتِجَاقُ الْقَائِمُونَ بِالْعُلُومِ
إِلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ فِي لِسَانِهِمْ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَلْسُنِ ، لَدَرُوسِهَا
وَذَهَابِ الْعِنَايَةِ بِهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ اللُّغَةَ مَلَكَتُ فِي اللِّسَانِ ، وَكَذَا الْخَطُّ صِنَاعَةٌ
مَلَكَتُهَا فِي الْيَدِ ، فَإِذَا تَقَدَّمَتْ فِي اللِّسَانِ مَلَكَتُ الْعُجْمَةِ ، صَارَ مَقْصُراً فِي اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ، لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّ الْمَلَكَتُ إِذَا تَقَدَّمَتْ فِي صِنَاعَةٍ بِمَحَلٍّ ، فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ
صَاحِبُهَا مَلَكَتُ فِي صِنَاعَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . وَإِذَا كَانَ مَقْصُراً فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَدَلَالَتِهَا اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ اغْتِصَاصَ عَلَيْهِ فَهْمُ الْمَعْنَى مِنْهَا كَمَا مَرَّ . إِلَّا أَنْ تَكُونَ
مَلَكَتُ الْعُجْمَةِ السَّابِقَةَ لَمْ تَسْتَحْكِمْ حِينَ انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، كَأَصَاغِرِ أَبْنَاءِ
الْعَجَمِ الَّذِينَ يَرَبُّونَ مَعَ الْعَرَبِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ عُجْمَتَهُمْ ، فَتَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ
كَأَنَّهَا السَّابِقَةُ لَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ تَقْصِيرٌ فِي فَهْمِ الْمَعْنَى مِنَ الْعَرَبِيَّةِ . وَكَذَا

أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي . ولهذا نجد الكثير من
 علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يبدلون عن نقل التفسير من الكتب
 إلى قراءتها ظاهراً يخفون بذلك عن أنفسهم مؤونة بغض الحجب ليقرب عليهم
 تناول المعاني . وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك ، بتمام
 ملكته . وإنه صار له فهم الأقوال من الخط ، والمعاني من الأقوال . كالجيلة
 الراسخة . وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني . وربما يكون الدؤوب على
 التعليم والمران على اللغة . وممارسة الخط يفيضان بصاحبهما إلى تمكن الملكة .
 كما نجد في الكثير من علماء الأعاجم ، إلا أنه في النادر . وإذا قرن بنظيره من
 علماء العرب وأهل طبقة منهم . كان باع العربي أطول وملكته أقوى . لما عند
 المستفهم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يفترض
 ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم . لأن المراد بالعجم هنالك عجم
 النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات
 ومن جعلتها العلوم . وأما عجمة اللغة فليست من ذلك . وهي المرادة هنا . ولا
 يفترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رُسوخ القدم فإنهم إنما
 تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم . والأعجمي المتعلم للعلم
 في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه . ومن غير خطه الذي
 يعرف ملكته . فلماذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه . وهذا عام في جميع أصناف
 أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج . وسائر من ليس
 من أهل اللسان العربي . وفي ذلك آيات للمتوسمين .

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانها أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورة على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام حسنا يتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمنتدأ من الخبر ولولاه لجهد أضل الإفادة . وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإغراب الدال على الإسناد والمُسند والمُسند إليه فإنه تغير بالجمله ولم يبق له أثر . فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

علم النحو

إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده . وتلك العبارة فعل لسانى ناشىء عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم . وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني . مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أغني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى . وليس يوجد ذلك إلا في لغة

العرب . وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من الفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم من مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب . وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » . فصار للحروف في لغتهم . والحركات والهيئات أي الأوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها . إنما هي ملكة في السنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا . فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالقات التي للمستعربين ^(١) . والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها لجنوحها إليه بإعتياد السمع . وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاضطلخوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة . واطلخوا على تسميتها يعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة . ويقال بإشارة علي رضي الله عنه لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففرغ إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة . ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد وكان الناس أحوج ما كان الناس إليها لذهاب تلك الملكة من العرب . فهذب الصناعة وكمل أبوابها . وأخذها عنه سبويه فكمّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع

(١) وفي نسخة أخرى - للمستعربين من العجم

فِيهَا كِتَابَةُ الْمَشْهُورِ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ وَضَعَ أَبُو
 عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الرَّجَاجُ كِتَابًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخْتَوْنَ فِيهَا حَذْوَ
 الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَحَدَّثَ الْخِلَافَ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي
 الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ . وَكَثُرَتِ الْأَدَلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ
 وَتَبَايَنَتِ الطَّرِيقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الْإِخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ
 بِاخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ . وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ
 فِي الْإِخْتِصَارِ فَاخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا تَقَلَّ كَمَا
 فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوْ اقْتِصَارَهُمْ عَلَى الْمَبَادِيءِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ .
 كَمَا فَعَلَهُ الرَّمَخَشَرِيُّ فِي الْمَفْضَلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقَدِّمَةِ لَهُ . وَرَبَّمَا نَظَّمُوا ذَلِكَ
 نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي الْأَرْجُوزَتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنِ مَعْطِيٍّ فِي الْأَرْجُوزَةِ
 الْأَلْفِيَّةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالتَّالِيفُ فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطَرِيقُ
 التَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لِطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَالْكَوْفِيُّونَ
 وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طَرِيقَتُهُمْ كَذَلِكَ . وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةُ تُوَدَّنُ بِالذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنْ النِّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ
 الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُضُورِ دِيْوَانٌ مِنْ مِصْرٍ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ
 الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ الْإِعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفْصَلَةً . وَتَكَلَّمَ
 عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمَفْرَدَاتِ وَالْجُمْلِ وَحَذَفَ مَا فِي الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ
 أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمَغْنِيِّ فِي الْإِعْرَابِ . وَأَشَارَ إِلَى نَكْتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا
 بِأَبْوَابٍ وَقُصُولٍ وَقَوَاعِدٍ انْتَضَمَ سَائِرُهَا فَوْقَهَا مِنْهُ عَلَى عِلْمِ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوقَدْرِهِ فِي
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَوُقُورِ بِيضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ
 الَّذِينَ اقْتَفَوْا أثرَ ابْنِ جَنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَاتَى مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ
 دَالَ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَأَطْلَاعِهِ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .

علم اللفظة

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ بَيَانُ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النُّحُوِّ بِالْإِعْرَابِ وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَائِنُ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَا . ثُمَّ اسْتَمَرَّ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمَلَابَسَةِ الْعَجْمِ وَمَخَالَطَتِهِمْ حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ فَاسْتَعْمِلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ مِثْلًا مَعَ هَجْنَةٍ ^(١) الْمُسْتَفْرِبِينَ ^(٢) فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ الْمُخَالَفَةَ لِصَرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ فَاخْتَبِجَ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّنْذِيرِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَشَمَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أُمَّةِ اللِّسَانِ لِذَلِكَ وَأَمَلُوا فِيهِ الدَّوَاوِينَ . وَكَانَ سَابِقُ الْخَلِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ . أَلَفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَرَ فِيهِ مُرَكَّبَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلَّهَا مِنَ الثَّنَائِيَّةِ وَالثَّلَاثِيَّةِ وَالرُّبَاعِيَّةِ وَالْخَمَاسِيَّةِ وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَتَأْتِي لَهُ حَضْرُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ عِدِيدَةٍ حَاضِرَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نَهَايَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ . لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ كَلِمَةً ثَّنَائِيَّةً . ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّنَائِيَّةُ مَعَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ كَذَلِكَ . ثُمَّ الثَّلَاثُ وَالرُّبَاعُ . ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ مَعَ الثَّمَانِ وَالْعَشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِدًا فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ فَتَجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ وَهُوَ أَنَّ تَجْمَعَ الْأَوَّلُ مَعَ الْأَخِيرِ وَتَضْرِبَ الْمَجْمُوعُ فِي نِصْفِ الْعِدَّةِ . ثُمَّ تَضَاعَفُ لِأَجْلِ قَلْبِ الثَّنَائِيَّةِ لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأَخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرْكِيبِ فَيَكُونُ الْعَارِجُ جُمْلَةَ الثَّنَائِيَّاتِ . وَتَخْرُجُ الثَّلَاثِيَّاتِ مِنْ ضَرْبِ عَدَدِ الثَّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى

(١) الهجنة في الكلام ، العيب والتفح (قاموس)

(٢) وفي نسخة أخرى ، المتفرين

توالي العَدَدِ لِأَنَّ كُلَّ ثُنَائِيَّةٍ يَزِيدُ عَلَيْهَا حَرْفًا فَتَكُونُ ثَلَاثِيَّةً . فَتَكُونُ الثَّنَائِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْبَاقِيَةِ وَهِيَ سِتَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا بَعْدَ الثَّنَائِيَّةِ فَتُجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَيُضْرَبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثَّنَائِيَّاتِ . ثُمَّ تُضْرَبُ الْخَارِجُ فِي سِتَّةٍ . جُمْلَةُ مَقْلُوبَاتِ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ فَيَخْرُجُ مَجْمُوعُ تَرَكَيبِهَا مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ . وَكَذَلِكَ فِي الرَّبَاعِيِّ وَالْخَمَاسِيِّ . فَانْحَصَرَتْ لَهُ التَّرَاكِيِبُ بِهَذَا الْوَجْهِ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِفِ . وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ الْمَخَارِجِ فَبَدَأَ بِحُرُوفِ الْحَلْقِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنْ حُرُوفِ الْحَنَكِ ثُمَّ الْأَضْرَاسِ ثُمَّ الشِّفَةِ وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعِلَّةِ آخِرًا وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوَائِيَّةُ . وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُ الْأَقْصَرُ ^(١) مِنْهَا فَلِذَلِكَ سَمِيَ كِتَابُهُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي تَسْمِيَةِ دَوَابِينِهِمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَهُوَ تَسْمِيَتُهُ بِأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ . ثُمَّ بَيَّنَّ الْمُهْمَلِ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ وَكَانَ الْمُهْمَلُ فِي الرَّبَاعِيِّ وَالْخَمَاسِيِّ أَكْثَرَ لِقَلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ وَلِحَقِّ يَهُ الثَّنَائِيُّ لِقَلَّةِ دَوْرَانِهِ وَكَانَ الْإِسْتِعْمَالُ فِي الثَّلَاثِيِّ أَغْلَبَ فَكَانَتْ أَوْضَاعُهُ أَكْثَرَ لِدَوْرَانِهِ . وَضَمَّنَ الْخَلِيلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ وَاسْتَوْعَبَهُ أَحْسَنَ اسْتِيعَابٍ وَأَوْعَاهُ ^(٢) . وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ الزُّبَيْدِيُّ وَكَتَبَ لِهَشَامِ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَنْدَلُسِ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَاخْتَصَرَهُ مَعَ الْمُحَافِظَةِ عَلَى الْإِسْتِيعَابِ وَحَذَفَ مِنْهُ الْمُهْمَلُ كُلَّهُ وَكَثِيرًا مِنْ شَوَاهِدِ الْمُسْتَعْمَلِ وَلِخَصَّةِ لِلْحِفْظِ أَحْسَنَ تَلْخِيصٍ . وَأَلْفَ الْجَوْهَرِيِّ مِنَ الْمَشَارِقَةِ كِتَابَ الصَّحَاحِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِفِ لِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ فَجَعَلَ الْبِدَاءَةَ مِنْهَا بِالْهَمْزَةِ وَجَعَلَ التَّرْجُمَةَ بِالْحُرُوفِ عَلَى الْحَرْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الْكَلِمَةِ لِإِضْطِرَارِ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ إِلَى أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَجَعَلَ ذَلِكَ بَابًا . ثُمَّ يَأْتِي بِالْحُرُوفِ أَوَّلَ الْكَلِمَةِ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَيْضًا وَيَتْرَجِمُ عَلَيْهَا بِالْفُضُولِ إِلَى آخِرِهَا . وَحَضَرَ اللَّفَّةَ اقْتِدَاءً بِحَضْرِ الْخَلِيلِ . ثُمَّ أَلْفَ

(١) وفي نسخة أخرى ، الأقصر .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وأوعاه .

فِيهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنَ سَيِّدِهِ مِنْ أَهْلِ دَائِنَةَ فِي دَوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابُ
الْمُحَكَّمِ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنَ الْإِسْتِيعَابِ وَعَلَى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ . وَزَادَ فِيهِ
التَّعْرُضُ لِإِسْتِيعَابَاتِ الْكَلِمِ وَتَضَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّوَاوِينِ . وَلِخُصَّةِ
مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ صَاحِبِ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ بِتُونِسَ .
وَقَلَّبَ تَرْتِيبَهُ إِلَى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصَّحَاحِ فِي اعْتِبَارِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ عَلَيْهَا
فَكَانَا تَوَاصِيًا رَحِمَ وَسَلِيلِي أَبُوتَهُ وَلِكِرَاعِ مِنْ أَيْمَةِ اللُّغَةِ كِتَابِ الْمُجِيدِ . وَلَا بِنِ دُرَيْدِ
كِتَابِ الْجُمْهُرَةِ وَلَا بِنِ الْأَنْبَارِيِّ كِتَابِ الزَّاهِرِ هَذِهِ أَصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيمَا عَلَّمْنَا .
وَهُنَاكَ مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفِ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعِبَةٌ لِبَعْضِ الْأَنْبَابِ أَوْ
لِكُلِّهَا . إِلَّا أَنَّ وَجْهَ الْحَضَرِ فِيهَا خَفِيٌّ وَوَجْهَ الْحَضَرِ فِي تِلْكَ جَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ التَّرَاكِيِبِ
كَمَا رَأَيْتَ . وَمِنْ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ أَيْضًا فِي اللُّغَةِ كِتَابُ الرَّمُخْشَرِيِّ فِي الْمَجَازِ
سَمَاءُ أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ يَبِينُ فِيهِ كُلُّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَفِيمَا تَجَوَّزَتْ
بِهِ مِنَ الْمَذَلُولَاتِ وَهُوَ كِتَابُ شَرِيفِ الْإِفَادَةِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْعَرَبُ تَضَعُ الشَّيْءَ عَلَى
الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ فِي الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ أَلْفَاظًا أُخْرَى خَاصَّةً بِهَا فَوْقَ ذَلِكَ عِنْدَنَا .
وَيَبِينُ الْوَضْعَ وَالِاسْتِعْمَالَ وَاحْتِجَاجَ إِلَى فَهْمِهِ فِي اللُّغَةِ عَزِيزُ الْمَأْخِذِ كَمَا وَضَعَ الْأَبْيَضُ
بِالْوَضْعِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ ثُمَّ اخْتَصَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ مِنَ الْخَيْلِ بِالْأَشْهَبِ وَمِنْ
الْإِنْسَانِ بِالْأَزْهَرِ وَمِنْ الْغَنَمِ بِالْأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ اسْتِعْمَالُ الْأَبْيَضِ فِي هَذِهِ كَلِّهَا لِحُنَا
وُخُرُوجًا عَنِ لِسَانِ الْعَرَبِ . وَاخْتَصَّ بِالتَّأْلِيفِ فِي هَذَا الْمَنْحَى الثُّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي
كِتَابٍ لَهُ سَمَاءُ فَهْمِ اللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَأْخُذُ بِهِ اللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ اسْتِعْمَالَ
الْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ . فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي التَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ
اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الْأَدِيبُ فِي فَنِيِّ نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ
خَدْرًا مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لِحُنُهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ فِي مَقْرَدَاتِهَا وَتَرَاجِمِهَا وَهُوَ أَشَدُّ^(١)
مِنَ اللَّحْنِ فِي الْإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ . وَكَذَلِكَ أَلْفُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْأَلْفَاظِ

(١) وفي نسخة أخرى . أشد .

المشتركة وتكفل بحضرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر .
وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمداول من اللغة الكثير
الاستعمال تسهلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت
والفصيح لتغلب وغيرهما . وبغضها أقل لغة من بغض لاختلاف نظرهم في الأهم
على الطالب للحفظ . والله الخلاق العليم لا رب سواه .

فصل ، واعلم أن النقل الذي ثبتت به اللغة . إنما هو النقل عن العرب أنهم
استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني ، لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر ويعيد . ولم
يعرف لأحد منهم . وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله . على
ما عرف استعماله في ماء العنب . باعتبار الإسكار الجامع . لأن شهادة الاعتبار في
باب القياس إنما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله . وليس لنا مثله
في اللغة إلا بالعقل . وهو محكم . وعلى هذا جمهور الأئمة . وإن مال إلى القياس
فيها القاضي وابن سريج وغيرهم . لكن القول بغيره أرجح . ولا تنوهم أن
إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية . لأن الحد راجع إلى المعاني . ببيان أن
مدلول اللفظ المحمول الخفي هو مدلول الواضح المشهور . واللغة إثبات أن اللفظ
كذا . لمعنى كذا . والفرق في غاية الظهور .

علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة . وهو من العلوم اللسانية
لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده . ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن
الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي ، إما تصور مفردات
تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض . والدالة على هذه هي المفردات من
الأسماء والأفعال والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة . ويبدل
عليها بتغيير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات . وهذه كلها هي صناعة

النَّحْوِ . وَيَتَقَى مِنَ الْأُمُورِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالْوَاقِعَاتِ الْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالِ
 الْمُتَخَاطِبِينَ أَوْ الْفَاعِلِينَ وَمَا يَنْتَضِيهِ حَالُ الْمِعْلُ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
 مِنْ تَمَامِ الْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ . وَإِذَا لَمْ
 يَشْتَمَلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ
 عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يُخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ الْإِعْرَابِ وَالْإِبَانَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ (زَيْدٌ
 جَاءَنِي) مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ (جَاءَنِي زَيْدٌ) مِنْ قَبْلِ أَنْ الْمُتَقَدِّمُ مِنْهُمَا هُوَ الْأَهْمُ عِنْدَ
 الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ . جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالْمَجِيءِ قَبْلَ الشَّخْصِ الْمُسْنَدِ
 إِلَيْهِ . وَمَنْ قَالَ : زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالشَّخْصِ قَبْلَ الْمَجِيءِ الْمُسْنَدِ .
 وَكَذَا التَّعْيِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يَنْسَبُ الْمَقَامُ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مِنْهُمْ أَوْ مَعْرِفَةٍ .
 وَكَذَا تَأَكِيدُ الْإِسْنَادَ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا لِقَائِمٌ
 مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْإِعْرَابِ فَإِنَّ الْأَوَّلَ الْعَارِي عَنِ
 التَّأَكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَالِي الذَّهْنِ وَالثَّانِي الْمُوَكَّدُ بِإِنْ يُفِيدُ الْمُتَرَدَّدَ وَالثَّلَاثُ يُفِيدُ
 الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلَفَةٌ . وَكَذَلِكَ تَقُولُ : جَاءَنِي الرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بَعِيْنِهِ جَاءَنِي
 رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَةً وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ . ثُمَّ
 الْجُمْلَةُ الْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبْرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ تَطَابَقُهُ أَوْ لَا . وَإِنْشَائِيَّةٌ وَهِيَ
 الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا . كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ . ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ
 إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ . فَيُشْرِكُ^(١) بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ التَّابِعِ الْمُفْرَدِ نَعْتًا
 وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا بِلَا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ :
 ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ الْإِطْنَابَ وَالْإِنْجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا
 يُرَادُ مَنْطُوقُهُ وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ
 الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ اللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ
 اسْتِعَارَةً . وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ كَثِيرٌ

(١) وفي نسخة أخرى : يَنْزِلُ .

الرَّمَاد^(١) وتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنَ الْجُودِ وَقَرَى الضَّيْفَ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهَا فَبَيَّنَّا دَالَّةً عَلَيْهِمَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْمَفْرُودِ وَالْمَرْكَبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالٌ الْوَاقِعَاتِ جَعَلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاظِ كُلِّ بِحَسَبِ مَا يَفْتَضِيهِ مَقَامُهُ . فَاشْتَمَلَ هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى النَّبْحِ عَنِ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَجَعَلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ ، الصَّنْفِ الْأَوَّلِ يُنَبِّحُ فِيهِ عَنِ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَطَابِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضِيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَلَاغَةِ . وَالصَّنْفِ الثَّانِي يُنَبِّحُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّازِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْكِنَايَةُ كَمَا قَلْنَا وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَيَانِ . وَالْحَقُّوَا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَرْبِيعِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ الْفَظِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْ تَوْرِيئَةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيهَامٍ^(٢) مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ الْبَيْدِيعِ . وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُخْبَثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ وَهُوَ اسْمُ الصَّنْفِ الثَّانِي لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ، ثُمَّ تَلَاخَقَتْ مَسَائِلُ الْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكُتِبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَالْجَاحِظُ وَقَدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا . ثُمَّ لَمْ تَنْزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ مَحْصُ^(٣) الشُّكَاكِيِّ زُبْدَتَهُ وَهَدَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَا أَنْفَاءً مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلْفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَجَعَلَ هَذَا الْفَنِّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ . وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أَمْهَاتٍ هِيَ الْمُنْدَاوَلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ الشُّكَاكِيُّ فِي كِتَابِ التَّبْيَانِ^(٤) وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِصْبَاحِ وَجَلَالُ الدِّينِ الْقُرُونِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيضَاحِ وَالتَّلْخِصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْمًا

(١) وفي نسخة أخرى ، رماد القنود .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بإيهام .

(٣) وفي نسخة أخرى ، محض .

(٤) وفي النسخة الباريسية ، البيان .

مِنَ الْإِيضَاحِ وَالْإِعْنَايَةِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرَ
 مِنْ غَيْرِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَشَارِقَةُ عَلَى هَذَا الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ
 كَمَا لِي فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ وَالصَّنَائِعِ الْكَمَالِيَّةِ تَوْجِدُ فِي وَقُورِ الْعُمَرَانِ . وَالْمَشْرِقُ أَوْفَرُ
 عُمَرَانًا مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . أَوْ نَقُولُ لِإِعْنَايَةِ الْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
 كَتَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ ، وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا الْفَنِّ ، وَهُوَ أَضْلَهُ . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ
 بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمُ الْبَيْدِيَّيَةِ خَاصَّةً ، وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ
 الشُّعْرِيَّةِ ، وَفَرَعُوا لَهُ الْقَابَا بِوَعَدُّوا أَبْوَابًا وَنَوَعُوا أَنْوَاعًا . وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ
 لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَلُوعِ بِتَرْيِينِ الْأَلْفَاظِ . وَأَنْ عِلْمُ الْبَيْدِيَّيَةِ سَهْلُ
 الْمَأْخِذِ . وَضَعَبَتْ عَلَيْهِمْ مَا خَذَ الْبَلَاغَةَ وَالْبَيَانَ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا وَعُمُومِ مَعَانِيهِمَا
 فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا . وَمِمَّنْ أَلَفَ فِي الْبَيْدِيَّيَةِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ ابْنُ رَشِيْقٍ وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ
 مَشْهُورٌ . وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ . وَاعْلَمُ أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا
 الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وِفَاءِ الدَّلَالَةِ مِنْهُ بِجَمِيعِ
 مُقْتَضِيَّاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةٍ وَمَفْهُومَةٍ وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مَعَ الْكَلَامِ فِيمَا
 يُخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي انْتِفَائِهَا وَجُودَةِ رَضِيْفِهَا^(١) وَتَرْكِيْبِهَا وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ الَّذِي
 تَقْصُرُ الْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ . وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْضُ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ بِمُخَالَطَةِ
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكِيَّتِهِ فَيُدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ . فَلِهَذَا كَانَتْ
 مَدَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ
 وَجَهًا بِذَنْتِهِ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مُوجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصْحِيهِ . وَأَخْرُجُ مَا يَكُونُ إِلَى
 هَذَا الْفَنِّ الْمُفَسِّرُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفْلٌ عَنْهُ حَتَّى ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ
 الزَّمَخْشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يَبْدِي
 الْبَعْضُ مِنْ إِعْجَازِهِ فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ
 الْبَيْدِيَّيَةِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ . وَلِأَجْلِ هَذَا يَتَحَامَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وضعها .

السُّنَّةَ مَعَ وَفُورٍ بِضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ
بِفَضِّ الْمُشَارَكَةِ حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِذَنْعَةٍ
فَيُعْرِضُ عَنْهَا وَلَا تَضُرُّ فِي مُعْتَقِدِهِ فَإِنَّهُ يَتَّعِنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظَّفَرِ
بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ . وَاللَّهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ
السَّبِيلِ .

علم الأدب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ
عِنْدَ أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ . وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ . عَلَى أَسَالِيبِ
الْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ . فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاةُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ .
مِنْ شِعْرِ عَالِيهِ الطَّبَقَةِ . وَسَجْعِ مُتَسَاوِي فِي الْإِجَادَةِ . وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْنُوتَةٌ
أَثْنَاءَ ذَلِكَ . مُتَفَرِّقَةٌ . يَسْتَفْرِي مِنْهَا النَّاطِرُ فِي الْعَالِيِّ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ . مَعَ
ذِكْرِ بَعْضِ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا . وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمَهْمِ
مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ وَالْأَخْبَارِ الْعَامَّةِ . وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى
النَّاطِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ بِلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ
لَا تَحْصُلُ الْمَلَكََةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَخْتِاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ
فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حُدَّ هَذَا الْفَنِّ قَالُوا . الْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ
وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَطْرَفُ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ
مِنْ حَيْثُ مُتَوَنَّنًا فَقَطْ . وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ . إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخَّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ بِصِنَاعَةِ الْبِدْعِ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي
أَشْعَارِهِمْ وَتَرْسُلِهِمْ بِالِاضْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاخْتِاجُ صَاحِبِ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى
مَعْرِفَةِ اضْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا . وَسَمِعْنَا مِنْ شَيْوَحْنَا فِي مَجَالِسِ
التَّغْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَائِرُ وَهِيَ : أَدَبُ الْكِتَابِ لِأَنَّ قُتَيْبَةَ
وَكِتَابَ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابَ الْبَيَانِ وَالتَّشْبِيهِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابَ التَّوَادِعِ لِأَبِي عَلِيٍّ

القالي البغدادي . وما سوى هذه الأربعة فتتبع لها وفروع عنها . وكُتِبَ المُخَيِّدِينَ في ذلك كثيرة . وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتاب والفضلاء من الخوارج في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة . وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم . وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتاً التي اختارها المغنون للرشييد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتأريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي نسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها . ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان . والله الهادي للصواب .

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها . وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً . ومعنى الحال

أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ . فَالْمُتَكَلِّمُ مِنَ
الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَةً ^(١) اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
وَأَسَالِيهِمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَغْيِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِعْمَالَ
الْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيَلْقُنُهَا أَوْلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِيِبَ بَعْدَهَا فَيَلْقُنُهَا كَذَلِكَ . ثُمَّ
لَا يَزَالُ سَمَاعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَاسْتِعْمَالِهِ يَتَكَرَّرُ إِلَى
أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ . هَكَذَا تَصَيَّرَتِ الْأَلْسُنُ
وَاللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ
الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبَعِ أَيْ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ
يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِمُخَالَطَتِهِمْ الْأَعَاجِمَ
وَسَبَبَ فَسَادَهَا أَنَّ النَّاشِئَةَ مِنَ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ
أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكثْرَةِ الْمُخَالَطِينَ
لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ
وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِضَةً عَنِ الْأُولَى . وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ
الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَضْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ
الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ . ثُمَّ مَنْ اِكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ
وَعُظْمَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ . وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رِبِيعَةَ وَلُخَمٍ وَجُدَامَ وَعَسَانَ
وَأَيَادَ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبَ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَمَمِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ
تَامَةً الْمَلَكَةَ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ . وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ الْإِحْتِجَاجُ
بِلُغَاتِهِمْ فِي الصُّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) الضمير يعود إلى اللغة . وفي النسخة الباريسية ملكة اللغة

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد . إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضرى أكثر وأغرق . لأن الألفاظ بأغنياتها دالة على المعاني بأغنياتها . ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجاً إلى ما يدل عليه . وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تادية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بالألفاظ تخصها بالوضع . وأما في اللسان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تركيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة أعراب . وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة . ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربى بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربى لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن . وهذا معنى قوله عليه السلام : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً » . واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمير وقد قال له بعض النحاة : « إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم : زيد قائم وإن زيد قائم وإن زيداً قائم والمعنى واحد » . فقال له : إن معانيها مختلفة . فالأول : لإفادة الحالى الذهن من قيام زيد . والثاني : لمن سمعه فتردد فيه . والثالث : لمن عرف بالإضرار على إنكاره فاختلقت الدلالة باختلاف الأحوال . وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد . ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفنة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن

اللسان العربيّ فسَدَ اغْتِبَارًا بِمَا وَقَعَ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنْ فَسَادِ الْإِعْرَابِ الَّذِي
 يَتَذَارَسُونَ قَوَائِنَهُ . وَهِيَ مَقَالَةٌ دَسَّهَا التَّشْيِيعُ فِي طِبَاعِهِمْ وَالْقَاهَا الْقُصُورُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ
 وَالْأَفْنَحُنُ نَجَدَ الْيَوْمَ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَاطِطِ الْعَرَبِ لَمْ تَزَلْ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأُولَى وَالتَّغْيِيرُ
 عَنِ الْمَقَاصِدِ وَالتَّعَاوُنُ فِيهِ بِتَفَاوُتِ الْإِبَانَةِ مُوجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَسَالِيبُ
 اللِّسَانِ وَفُنُونُهُ مِنَ النُّظْمِ وَالنَّثْرِ مُوجُودَةٌ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَفَهُمُ الْخَطِيبُ الْمِضْقَعُ فِي
 مَخَاطَبِهِمْ وَمَجَامِعُهُمْ وَالشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ عَلَى أَسَالِيبِ لُغَتِهِمْ . وَالذُّوقُ الصَّحِيحُ وَالطَّنْبُغُ
 السَّلِيمُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ . وَلَمْ يَفْقَدْ مِنْ أَحْوَالِ اللِّسَانِ الْمُدُونِ إِلَّا حَرَكَاتُ الْإِعْرَابِ فِي
 أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَقَطُ الَّذِي لَزِمَ فِي لِسَانِ مُضَرٍّ طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ وَمَنْهَجًا مَعْرُوفًا وَهُوَ
 الْإِعْرَابُ . وَهُوَ بَعْضُ مِنْ أَحْكَامِ اللِّسَانِ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِلِسَانِ مُضَرٍّ لِمَا فَسَدَ
 بِمُخَالَطَتِهِمْ الْأَعَاجِمَ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِضَرَ وَالْمَغْرِبِ
 وَصَارَتْ مَلَكَتُهُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلًا فَانْقَلَبَ لُغَةٌ أُخْرَى . وَكَانَ الْقُرْآنُ
 مُنْزَلًا بِهِ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مَقْذُوفًا بِلُغَتِهِ وَهُمَا أَضْلَا الدِّينَ وَالْمِلَّةَ فَخَشِيَ تَنَاسِيهِمَا
 وَانْفِلَاقَ الْأَفْهَامِ عَنْهُمَا بِفِقْدَانِ اللِّسَانِ الَّذِي نَزَلَا بِهِ فَاخْتِيجَ إِلَى تَدْوِينِ أَحْكَامِهِ
 وَوَضْعِ مَقَائِسِهِ وَاسْتِنْبَاطِ قَوَائِنِهِ . وَصَارَ عُلَمَاءُ فَضُولِ وَأَبْوَابِ وَمُقَدِّمَاتِ وَمَسَائِلِ
 سَمَاءِ أَهْلِهِ يَعْلَمُ النَّحْوَ وَصِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ فَأُضْبِحَ فَنَّا مَحْفُوظًا وَعُلَمَاءُ مَكْتُوبًا وَسَلَّمًا إِلَى
 فَنَمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَأَمِيًّا^(١) . وَلَعَلَّنَا لَوْ اعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقْرَيْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضُ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ
 أُخْرَى مُوجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَائِينُ تَخْصُهَا . وَلَعَلَّنَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ
 الْمِنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللَّغَاتُ وَمَلَكَاتُهَا مَجَانًا . وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ
 الْمُضَرِّيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْجَمِيْرِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَتَغْيِيرٌ عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ
 اللِّسَانِ الْجَمِيْرِيِّ وَتَصَارِيفُ كَلِمَاتِهِ . تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْأَنْقَالَ الْمَوْجُودَةَ لَدَيْنَا خِلَافًا
 لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءَ اللَّغَةِ الْجَمِيْرِيَّةِ عَلَى

(١) وفي نسخة أخرى . راقيا .

مقاييس اللغة المضريّة وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحنيريّ أنّه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتضاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعوننا إليه . ومما وقع في لغة هذا الجيل العربيّ لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذکور في كتب العربية أنّه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى . وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يحيثون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصاً بهم لا يشاركون فيها غيرهم . حتى إن من يريد التقرب^(١) والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها . وعندهم أنّه إنّما يتميز العربيّ الصريح من الدخيل في العروبية والحصريّ بالنطق بهذه القاف . ويظهر بذلك أنّها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور . وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل معهم من بني كهلان في النطق بهذه القاف أسوة . وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنّها لغة مضر الأولين ولعلها لغة النبيّ ﷺ بعينها قد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أمّ القرآن « إهدنا إلى الصراط

(١) وفي نسخة أخرى : التعرب .

المُسْتَقِيمِ » بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجَيْلِ فَقَدْ لَحِنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ
جَاءَ هَذَا ؟ فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ
وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُمْصَرِّ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ الْفَتْحِ . وَأَهْلُ الْجَيْلِ أَيْضاً لَمْ
يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ . فَهَذَا يُرْجَحُ فِيمَا
يُوجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ . هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجَيْلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً
وَعَرْباً فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ النَّجْدِيِّ
وَالْحَضْرِيِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَافَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْجَيْلِ الْعَرَبِيِّ الْبَدَوِيِّ
هُوَ مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَوْلِيهِمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ . وَأَنْ مَخْرَجَ الْقَافِ مُتَّسِعٌ . فَأَوَّلُهُ مِنْ
أَعْلَى الْخَنْكَ وَأَخْرَهُ مِمَّا يَلِي الْكَافَ . فَالْنُّطْقُ بِهَا مِنْ أَعْلَى الْخَنْكَ هُوَ لُغَةُ
الْأَمْصَارِ ، وَالنُّطْقُ بِهَا مِمَّا يَلِي الْكَافَ هِيَ لُغَةُ هَذَا الْجَيْلِ الْبَدَوِيِّ . وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ
مَا قَالَهُ أَهْلُ النَّبِيِّتِ مِنْ فَسَادِ الصَّلَاةِ بِتَرْكِهَا فِي أُمَّ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ قَهَاءَ الْأَمْصَارِ كُلِّهِمْ
عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ . وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونُوا أَهْمَلُوا ذَلِكَ ، فَوَجْهُهُ مَا قُلْنَا . نَعَمْ نَقُولُ إِنَّ
الْأَرْجَحَ وَالْأَوْلَى مَا يَنْطِقُ بِهِ أَهْلُ الْجَيْلِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّ تَوَاتُرَهَا فِيهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ،
شَاهِدٌ بِأَنَّهَا لُغَةُ الْجَيْلِ الْأَوَّلِ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ . وَيُرْجَحُ ذَلِكَ
أَيْضاً إِذْغَامُهُمْ لَهَا فِي الْكَافِ لِتَقَارُبِ الْمَخْرَجِينَ . وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ
الْأَمْصَارِ مِنْ أَصْلِ الْخَنْكَ ، لَمَا كَانَتْ قَرِيبَةً الْمَخْرَجِ مِنَ الْكَافِ . وَلَمْ تُدْعَمْ . ثُمَّ إِنَّ
أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ ذَكَرُوا هَذِهِ الْقَافَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْكَافِ ، وَهِيَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ
الْجَيْلِ الْبَدَوِيِّ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَجَعَلُوهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ مَخْرَجِي الْقَافِ
وَالْكَافِ . عَلَى أَنَّهَا حَرْفٌ مُسْتَقِلٌّ ، وَهُوَ بَعِيدٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ آخِرِ مَخْرَجِ الْقَافِ
لِاتِّسَاعِهِ كَمَا قُلْنَا . ثُمَّ إِنَّهُمْ يَصْرُحُونَ بِاسْتِنْبَاحِيهِ وَاسْتِقْبَاحِيهِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصْحُ
عِنْدَهُمْ أَنَّهَا لُغَةُ الْجَيْلِ الْأَوَّلِ . وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِتِّصَالِ نَطْقِهِمْ بِهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا
وَرِثُوهَا مِنْ سَلَفِهِمْ جَيْلاً بَعْدَ جَيْلٍ ، وَأَنَّهَا شِعَارُهُمُ الْخَاصُّ بِهِمْ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لُغَةُ
ذَلِكَ الْجَيْلِ الْأَوَّلِ ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ . وَقَدْ يَزْعَمُ زَاعِمٌ أَنْ

هَذِهِ الْقَافُ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْأَمْصَارِ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ لِلعَجَمِ ، وَإِنَّهُمْ يَنْطِقُونَ بِهَا كَذَلِكَ ، فَلَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . وَلَكِنْ الْأَقْيَسُ كَمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ مُتَّسِعُ الْمَخْرَجِ . فَتَقْتَضِي ذَلِكَ . وَاللَّهُ الْهَادِي الْمُبِينُ .

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضرة والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِغْلَمَ أَنْ عَرَفَ التَّخَاطُبَ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيَّنَّ الْحَضَرَ لَيْسَ بِلُغَةٍ مَضْرَ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةٍ أَهْلِ الْجَيْلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ لُغَةِ مَضْرَ وَعَنْ لُغَةِ هَذَا الْجَيْلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لَعْنَدْنَا وَهِيَ عَنِ لُغَةِ مَضْرَ أْبَعَدُ . فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النَّحْوِ لِحْنًا . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي اصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مَبَايِنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلُّغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمُ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَادِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ . وَفَقْدَانُ الْإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَمَّا إِنَّهَا أْبَعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجَيْلِ فَلَأَنَّ الْبُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ الْعَجَمَةِ ^(١) . فَمَنْ خَالَطَ الْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنِ ذَلِكَ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ أْبَعَدُ لِأَنَّ الْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَا . وَهَذِهِ مَلَكَةٌ مُنْتَزَجَةٌ مِنَ الْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ الْمَلَكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ . فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَجَمِ وَيَرْبُونَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَةِ الْأُولَى . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أُفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ . أَمَّا أُفْرِيْقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريبية ، لمخالطة العجم .

العجم يوقور عُمُرَانَهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِضْرٌ وَلَا جَيْلٌ فَغَلَبَتِ الْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةٌ أُخْرَى مُتَمَرِّجَةٌ . وَالْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذَكَرْنَا فِي عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ أَبْعَدُ . وَكَذَا الْمَشْرِقُ لِمَا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أَمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَالتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي الْأَكْرَةِ وَالْفَلَّاحِينَ وَالسُّبْيِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ حَوْلًا وَدَايَاتٍ وَأَطَارًا وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلِكَةِ حَتَّى انْقَلَبَتْ لُغَةٌ أُخْرَى . وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلَالِقَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ . وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلِّهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلُ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةً بِهِمْ تَخَالِفُ لُغَةَ مِضْرَ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِاسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ .

الفصل التاسع والأربعون

في تعليم اللسان المصري

إِغْلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمِصْرِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْجَيْلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مِضْرَ الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنْ امْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَا . إِلَّا أَنَّ اللُّغَاتِ لِمَا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمَكِّنًا شَأْنَ سَائِرِ الْمَلَكَاتِ . وَوَجْهَ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَنْتَعِي هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ السُّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَشْجَاعِهِمْ وَأَشْغَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُؤَلِّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ قُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَنْزِلَةً مِنْ نَشْأٍ بَيْنَهُمْ وَلَقِّنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ . ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحِفْظِهِ مِنْ

أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد
 بكثرتهم رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمناع
 العزب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال .
 والدوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما
 نذكر . وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً
 ونشراً . ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير
 بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها . والله يهدي من يشاء بفضله
 وكرمه .

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم
 والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة
 ومقاييسها خاصة . فهو علم بكيفية لا نفس كيفية . فليست نفس الملكة وإنما
 هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً . مثل أن يقول
 بصير بالخياطة غير محكم لملكته في التفسير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن
 يدخل الخيط في خرت الإبرة ثم يفرزها في لقمي الثوب مجتمعين ويخرجها من
 الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها
 الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ويعطي
 صورة الخبك والتثبيت^(١) والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها . وهو إذا طوِّب
 أن يفعل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً . وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل
 الخشب فيقول . هو أن تضع المنشاز على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر

(١) وفي نسخة أخرى . التثبيت .

قَبَالَتَكَ مُنْسِكَ بِطَرَفِهِ الْآخَرَ وَتَتَعَابَاهُ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحَدَّدَةُ تَقَطَّعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ^(١) الْخَشَبَةِ . وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمُهُ . وَهَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَائِنِ الْإِعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَائِنِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلَيْسَ هُوَ نَفْسَ الْعَمَلِ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جَهَا بَدَةِ النُّحَاةِ وَالْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَائِنِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى ظَلَامَةٍ أَوْ قَضْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِيدُ الْفَنِّينَ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَرْفُوعِ مِنَ الْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَائِنِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . فَمِنْ هَذَا تَعَلَّمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَعِينَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ . وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ الْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بَصِيرًا بِحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقِيٌّ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيَبَوِيهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَائِنِ الْإِعْرَابِ فَقَطْ بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحْضِلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ^(٢) مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَنْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ . وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ الْمَلَكَةِ فَاسْتَوْفَى تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أُنْبَلِغَ فِي الْإِفَادَةِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيَبَوِيهِ مَنْ يَفْعَلُ عَنِ التَّفَطُّنِ لِهَذَا فَيَحْضِلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْضِلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً . وَأَمَّا الْمُخَالِطُونَ لِكِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَارِيَةِ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقَوَائِنِ النُّحَوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ . فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ

(١) وفي النسخة الباريسية ، أسفل

(٢) وفي نسخة أخرى ، على خط

حَصَلُوا عَلَى رَتْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ . وَأَهْلُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 بِالْأَنْدَلُسِ وَمَعْلَمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَخْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ
 فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِيِبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ
 فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ ^(١) النَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى
 تَخْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا . وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا
 صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بَخْشًا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُّهِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ
 الْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَغْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَحُوا مَذْهَبًا ^(٢) مِنْ جِهَةِ الْاِقْتِضَاءِ الذَّهْنِيِّ لَا مِنْ
 جِهَةِ مَحَامِلِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ . فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ
 الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الْجَدَلِ وَبَعْدَتْ عَنْ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَأَفَادَ ذَلِكَ حَمَلَتَهَا فِي
 هَذِهِ الْأَمْصَارِ وَأَفَاقِهَا الْبُعْدُ عَنِ الْمَلَكَةِ بِالْكَلِمَةِ . وَكَأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي كَلَامِ
 الْعَرَبِ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ
 وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ لِلْمَتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تَفِيذُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ . وَتِلْكَ
 الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلٌ لِلتَّعْلِيمِ لَكِنَّهُمْ أَجْرُوهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا
 عِلْمًا بَخْشًا وَبَعُدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا . وَتَعَلَّمُوا مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ
 الْمُنَوَالُ الَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَكَيبَهُمْ فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذَلِكَ مَنزَلَةً مِنْ نَشَأِ
 مَعَهُمْ وَخَالَطِ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ
 الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ .

(١) وفي نسخة أخرى ، فتنتطع .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، معنى .

الفصل الواحد والخمسون

في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم

إعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك . فالمتكلم بلسان العرب والتبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فإذا اتصلت مقاماته^(١) بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحنى مجه وتبا عنه سمعه بأذى فكره . بل وبغير فكر . إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة . فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محلها ظهرت كأنها طبيعة وجيلة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إغراباً وبلاغة أمر طبيعي . ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادية الرأي أنها جيلة وطبع . وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي اشتبها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك . وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي التبليغ إلى وجود النظم

(١) وفي نسخة أخرى : معاناته لذلك

وَحَسَنَ التَّرْكِيبَ الْمُوَافِقَ لِتَرَائِبِ الْعَرَبِ فِي لَعْنَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ
هَذِهِ الْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنِ هَذِهِ السُّبُلِ الْمُعَيَّنَةِ وَالتَّرَاكِيِبِ الْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَلَا
وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَفْتَاذُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ الرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عَرَضَ
عَلَيْهِ الْكَلَامُ حَائِدًا عَنِ اسْلُوبِ الْعَرَبِ وَبَلَغَتْهُمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهَ
وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَفْجِرُ عَنِ الْإِخْتِجَاجِ
لِذَلِكَ كَمَا تَضَنُّعُ أَهْلُ الْقَوَائِنِ النَّحْوِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ
الْقَوَائِنِ الْمُفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ . وَهَذَا أَمْرٌ وَجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ
حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ ، لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صَبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي
جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لَعْنَتَهُمْ وَيُحَكِّمُ شَأْنَ الْإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى
غَايَتِهَا . وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ
وَنَظْمِهِ . وَكَذَلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ
وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطْبَتِهِمْ وَالمُدَاوِمَةِ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يُحْصَلُ الْمَلَكَةُ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ
نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ ^(١) . وَالْقَوَائِنُ بِمَعْرُوفٍ عَنْ هَذَا وَاسْتَعْمِيرَ لِهَذِهِ
الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرَسَّخَ وَتَسْتَقَرُّ اسْمُ الذُّوقِ الَّذِي اضْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ
وَالذُّوقِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ . لَكِنْ لَمَا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ
مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلامِ كَمَا هُوَ مَحَلُّ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتَعْمِيرَ لَهَا اسْمُهُ . وَأَيْضًا
فَهُوَ وَجْدَانِيٌّ اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مَخْصُوسَةً لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذُوقُ . وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ
عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعْجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ إِلَى
النُّطْقِ بِهِ لِمَخَالِطَةِ أَهْلِهِ كَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالمَغْرِبِ
فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الذُّوقُ لِعُضُورِ خُطْبَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ العُمُرِ وَسَبَقَ مَلَكَتُهُ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لَعْنَتُهُمْ أَنْ يَغْتَنُوا
بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرَ بَيْنَهُمْ فِي المَحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ
ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى ، أجيالهم

ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوية . ومن عرف أحكام تلك
 الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء . إنما
 حصل أحكامها كما عرفت . وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والإعتياد
 والتكرير لكلام العرب . فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي
 والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماء مع حصول هذه الملكة لهم
 فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماء في نسبهم فقط . وأما
 العربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا
 بذلك من الكلام على غاية لا شيء ورأها وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين
 نشأوا في أجيالهم حتى أدرکوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وإن كانوا عجماء في
 النسب فليسوا بأعجماء في اللغة والكلام لأنهم أدرکوا الملة في غفوانها واللغة في
 شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة
 والمدازية لكلام العرب حتى استولوا على غايته . واليوم الواحد من العجم إذا
 خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجده تلك الملكة المقصودة من
 اللسان العربي منتحية الآثار . ويجده ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة
 لملكة اللسان العربي . ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم
 بالمدازية والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة
 إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة . وإن فرضنا
 أعجمياً في النسب سليم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه
 الملكة بالحفظ والمدازية فربما يحصل له ذلك لكنه من النذور بحيث لا يخفى
 عليك بما تقرّر . وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول
 هذا الذوق لها وهو غلط أو مغالطة وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك
 القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء . والله يهدي من يشاء إلى
 طريق مستقيم .

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن
اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ
الْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْحَضْرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْمُعْجَمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا
اللسانُ عَنْ مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْحَضَرِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلِهَذَا نَجِدُ
الْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَسَابِقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ . وَتَعْتَقِدُ النَّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ
الْمَسَابِقَةَ بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ
وَكَلَامِ الْعَرَبِ . نَعَمْ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ أَغْرَقَ فِي الْعِجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ لِسَانِ مُضَرَ قَضَرَ بِصَاحِبِهِ عَنِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ
الْمُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهَا لِتَمَكُّنِ الْمُنَافَاةِ ^(١) حِينَئِذٍ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ .
فَأَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَغْرَقَ فِي الْعِجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ
قُصُورٌ تَامَ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ بِالتَّعْلِيمِ . وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ
الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ لَهَ : يَا أَخِي وَمَنْ لَا عِدِمْتُ فَقَدَهُ أَغْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ
كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِفْنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَنَا
الْخُرُوجُ . وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكِلَابِ ^(٢) مِنْ أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بِاطِّلَالٍ لَيْسَ
مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا . وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ
مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ شَبِيهًا بِمَا ذَكَرْنَا . وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ
الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : للمنافاة .

(٢) كالب الرجل كلابا ، أي عاداه جهاراً (قاموس)

مشاهير الشعراء إلا ابن رشيقي وابن شرف . وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين
عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن ماثلة إلى القصور . وأهل الأندلس
أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلأهم من المحفوظات
اللغوية نظماً ونثراً . وكان فيهم ابن خيَّان المؤرخ إمام أهل الصناعة في هذه
الملكة ورافع الرأية لهم فيها وابن عبيد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك
الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين
حتى كان الانقراض والجلأ أيام تغلب النُصرانية . وشغلوا عن تعلم ذلك
وتناقض العُمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقُصرت الملكة فيهم عن شأنها
حتى بلغت الحضيض . وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن مرَّحل من
تلاميذ الطبقة الإشبيلية سنة وكتاب دولة بني الأحمر في أولها . وألقت
الأندلس أفلاذ كبتها من أهل تلك الملكة بالجلأ إلى العُدوة العُدوة الإشبيلية إلى
سنة ومن شرقى الأندلس إلى أفريقية . ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سنَد
تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العُدوة لها وصعوبتها عليهم يعوج السنتهم
ورسوخهم في العُجمة البربرية وهي منافية لما قلناه . ثم عادت الملكة من بعد
ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين^(١) وابن جابر وابن الجياب
وطبقتهم . ثم إبراهيم الساحلي الطريحي^(٢) وطبقتة وقفاهم ابن الخطيب من
بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه . وكان له في اللسان ملكة
لا تدرك واتبع أثره تلميذه من بعده . وبالجملة فشان هذه الملكة بالأندلس
أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم
اللسان ومخافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها . ولأن أهل اللسان
العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم . وليست عجمتهم أضلا للغة

(١) وفي نسخة أخرى . ابن سيرين .

(٢) وفي نسخة أخرى . الطويجي .

أهل الأندلس والبربر في هذه العنوة وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط . وهم منغمسون في بحر عجمتهم ورطاباتهم البربرية فيضعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس . واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبغدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل . فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق . وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم^(١) وأثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر معانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب . وبقي أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد . حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتعلب لهم . وذلك في دولة الديلم والسجوقية . وخالطوا أهل الأمصار وكثروهم فامتلات الأرض بلغاتهم . واستولت العجمة على أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها . وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا أكثرين منه . والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لا رب سواه .

(١) وفي نسخة أخرى : وسير نبيهم ﷺ

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إِغْلَمَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشُّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ . وَفِي النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فَنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي الْكَلَامِ . فَأَمَّا الشُّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ الشُّجْعُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءَهُ بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا . وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْشُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا . بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتِ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعِ يَشْهَدُ الذُّوقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُنْتَهِي مِنْ غَيْرِ التِّزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » . وَقَالَ : « قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ » . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلٌ إِذْ لَيْسَتْ أُسْجَاعًا وَلَا التَّرْمُ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السُّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذُكِرْنَا وَاخْتَصَّتْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلِيَّةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلشُّرْيَا وَلِهَذَا سَمِيَتْ السُّجْعُ الْمَثَانِي . وَانظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَا . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَنُونِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرَ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشُّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ وَالِدُعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَسَالِيبَ الشُّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْشُورِ مِنْ كَثْرَةِ

الأشجاع والتزام التفتية وتقديم النسب بين يدي الأغراض . وصار هذا المنشور
 إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفتقراً إلا في الوزن . واستمر المتأخرون من
 الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا
 الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه
 وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية
 لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه وهو غير
 صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال
 المخاطب والمخاطب . وهذا الفن المنشور المقتضى أدخل المتأخرون فيه أساليب
 الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذية
 وخلط الجذ بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات
 والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب . والتزام التفتية أيضاً من
 اللوذية والتزيين وخلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك
 بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه . والمحمود في المخاطبات السلطانية
 المرسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تشجيع إلا في الأقل النادر . وحيث
 ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى
 الحال فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إنجاز أو
 حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة . وأما إجراء المخاطبات
 السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل
 العصر إلا استيلاء المعجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في
 مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمده في البلاغة وانفساح
 خطوبه^(١) . وولغوا بهذا المسجع يلقفون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على
 المقصود ومقتضى الحال فيه . ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأشجاع

(١) وفي نسخة أخرى . خطوته .

وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ^(١) وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كِتَابَ الْمَشْرِقِ وَشُعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لِيُخْلَوْنَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّضْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجِحُونَ ذَلِكَ الصَّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ . وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنِيَّةِ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُضَادِفُ التَّجْنِيسَ . فَتَأْمُلُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَا لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجابة في فني المنظوم والمنشور معا إلا للأقل
 والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فإذا تسبقت^(٢) إلى محل ملكة
 أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة الأحيقة . لأن تمام^(٣) الملكات وحصولها
 للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر . وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت
 منازعة لها في المادة^(٤) القابلية وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر
 التمام في الملكة وهذا موجود به في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق . وقد
 برهننا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان . فاعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات
 اللسان وهي بمنزلة الصناعة . وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون
 قاصرا في اللسان العربي أبدا . فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية
 لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه . وكذا
 البربري والرومي . والإفرنجي قل أن تجد أحدا منهم محكما لملكة اللسان

(١) وفي نسخة أخرى ، البدعية .

(٢) وفي نسخة أخرى ، سبقت .

(٣) وفي نسخة أخرى ، قبول .

(٤) وفي نسخة أخرى ، في اللغة .

العَرَبِيَّ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْآخِرِ حَتَّى إِنْ طَالِبَ الْعِلْمُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقْصِراً فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسُنَ وَاللِّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ . وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى الْغَايَةِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمَسْمُومُ بِالشُّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ اللِّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشُّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ . فَإِنَّ أَمَكْنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ الْأَلْسُنِ الْآخَرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَالْأَفْلَكُلُ لِسَانِ أَحْكَامٍ فِي الْبَلَاغَةِ تَخْصُهُ . وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفْضَلٌ قِطْعاً قِطْعاً مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْوِزْنِ مُتَّحِدَةٌ فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ وَتَسْمَى كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتاً وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْأَخِيرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيّاً وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةُ الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً . وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَكَيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ . وَإِذَا أَفْرَدَ كَانَ تَاماً فِي بَايِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيهِ^(١) أَوْ رِثَاءٍ فَيُخَرِّصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ . ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ كَلَاماً آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوْطِئَهُ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ وَمَعَانِيَتُهُ إِلَى أَنْ يُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثَّانِيَّ وَيُعْمِدُ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ . كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ التَّشْبِيهِ^(٢) إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَضْفِ الْبَيْدَاءِ وَالطُّلُولِ إِلَى وَضْفِ الرِّكَابِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ

(١) وفي نسخة أخرى . نسيب .

الطَّيِّبِ وَمَنْ وَضَعَ الْمَمْدُوحَ إِلَى وَضْعِ قَوْمِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَمِنَ التَّفْجِيعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرَّثَاءِ
إِلَى التَّأَثُّرِ ^(١) وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَيُرَاعَى فِيهِ اتِّفَاقُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الْوَزْنِ الْوَاحِدِ حَذْرًا
مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّنِيعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ . فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ
أَجْلِ الْمُقَارَنَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . وَلِهَذَا الْمَوَازِينُ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضْمَنُهَا عِلْمُ
الْعَرُوضِ . وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي الطَّنِيعِ اسْتِعْمَلْتَهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ
أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الْبُحُورَ . وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ
بَحْرًا يَمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَاعْلَمْ
أَنَّ فَنَّ الشُّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ . وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ
وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطِيئَتِهِمْ وَأَضْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ
وَحُكْمِهِمْ . وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا . وَالْمَلَكَاتُ الْلسَانِيَّةُ
كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِرْتِيَاضِ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَخْضَلَ شَيْءٌ فِي تِلْكَ
الْمَلَكَةِ . وَالشُّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخِذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ
بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ نَيْبٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَضِلُّحُ
أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيُخْتِاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ تَلَطَّفَ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى
يُفْرَغَ الْكَلَامُ الشُّعْرِيُّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ
وَيُبْرِزُهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ . ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذَلِكَ ثُمَّ يَبْنِي آخَرَ وَيَسْتَكْمِلُ
الْفُنُونَ الْوَاقِيَةَ بِمَقْصُودِهِ . ثُمَّ يَنْسَبُ بَيْنَ الْبَيْتِ فِي مَوَالِدَةٍ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ
بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ . وَلِصُعُوبَةِ مَنَاحِهَا وَعَرَابِيَّةِ فَهِنَّ كَانَ مُحَكَّمًا
لِلْقَرَائِحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَخْذِ الْأَفْكَارِ فِي تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ . وَلَا يَكْفِي
فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ يُخْتِاجُ بِخُصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُحَاوَلَةٍ فِي
رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي اخْتَصَّصَتْهُ الْعَرَبُ بِهَا وَاسْتِعْمَلَهَا فِيهِ . لِنَذْكُرْ هُنَا سُلُوكَ ^(٢)

(١) وفي نسخة أخرى : التأين .

(٢) وفي نسخة أخرى : مدلول لفظة .

الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم . فأعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ به . ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل^(١) المعنى الذي هو وظيفة الإغراب ولا باعتبار إفادته كمال^(٢) المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتهي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإغراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله : « يا دار مئة بالعلياء فالسند » ويكون باستدعاء الضحى للوقوف والسؤال كقوله : « قفا نسأل الدار التي خفت أهلها » . أو باستبكاء الضحى على الطلل كقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » . أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل فتخبرك الرسوم » . ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحياتها كقوله : « حي الديار بجانب العزل »^(٣) . أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

سقى طولهم أجش هزيم وعذت عليهم نضرة^(٤) ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

(١) وفي نسخة أخرى ، كمال .

(٢) وفي نسخة أخرى ، أصل .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، حي الدار بجانب العزل .

(٤) وفي النسخة الباريسية ، روضة .

يَا بَرْقُ طَالِعْ مَنْزِلًا بِالْأَبْرِقِ وَاحِدِ السَّحَابِ لَهَا حِذَاءُ الْأَيْتِقِ^(١)

أَوْ مِثْلِ التَّفْجِيعِ فِي الْجَزَعِ^(٢) بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ .

كَذَا فَلْيَجِلْ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ : « أَرَأَيْتَ مَنْ حُمِلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ
خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي » . أَوْ بِالتَّشْجِيلِ عَلَى الْأَكْوَانِ بِالْمُصِيبَةِ لِفَقْدِهِ كَقَوْلِهِ :

مَنَابِتِ الْعِشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّذَى بِطَوِيلِ الرُّمُحِ وَالْبِنَاعِ

أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٍ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ^(٣) بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ :

أَلْقَى الرِّمَاحَ رَيْبَعَةً بِنِ زِرَارٍ أَوْذَى الرَّذَى بِفَرِيْقِكَ^(٤) الْمِفْوَارِ

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ . وَتَنْتَضِعُ التَّرَاكِيِبُ فِيهِ
بِالْجُمْلِ وَعَبْرِ الْجُمْلِ إِشْرَافِيَّةٌ وَخَبْرِيَّةٌ ، إِسْمِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ ، مُتَّفِقَةٌ ، مَفْضُولَةٌ
وَمَوْضُولَةٌ . عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِيِبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ
الْأُخْرَى . يُعْرَفُ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالْإِزْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالِبِ الْكُلِّيِّ
الْمَجْرُودِ فِي الذَّهْنِ مِنَ التَّرَاكِيِبِ الْمَعْنِيَّةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ ذَلِكَ الْقَالِبُ عَلَى جَمِيعِهَا .
فَإِنَّ مُؤَلَّفَ الْكَلَامِ هُوَ كَالْبِنَاءِ أَوْ النَّسَاجِ وَالصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُنْطَبِقَةَ كَالْقَالِبِ الَّذِي
يُنْتَسِ فِيهِ أَوْ الْمِنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ . فَإِنَّ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ

(١) وفي نسخة أخرى ، الأيتيق .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الرثاء .

(٣) وفي نسخة أخرى ، قريمة .

(٤) وفي نسخة أخرى ، بقريمق .

المِنَوَالِ فِي نَسِجِهِ كَانَ فَاسِداً . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِنَدِكَ لِأَنَّ
 نَقُولَ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ تُفِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيِبِ
 عَلَى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ . وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَرِّدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ
 الْقَوَانِينِ الْإِعْرَابِيَّةِ . وَهَذِهِ الْأَسَالِيبُ الَّتِي نَحْنُ نَقَرُّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ
 إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرَسُّخٌ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُعِ التَّرَاكِيِبِ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِحَرِيَانِهَا عَلَى
 اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتَهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلُ عَلَى مِثَالِهَا وَالِإِحْتِدَاءُ بِهَا فِي كُلِّ
 تَرْكِيِبٍ مِنَ الشُّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ . وَإِنَّ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ مِنَ
 الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيَانِ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصْحُ فِي قِيَاسِ كَلَامِ الْعَرَبِ
 وَقَوَانِينِهِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتِعْمَلُوهُ . وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْهَاءُ مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ
 عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرُجُ صُورَتَهَا تَحْتَ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْقِيَاسِيَّةِ . فَإِذَا نُظِرَ
 فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ وَبِهَذِهِ الْأَسَالِيبِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُصَيِّرُ كَالْقَوَالِبِ كَانَ
 نَظْراً فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَكَيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ . وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ الْمَحْصَلَ
 لِهَذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذَّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ . وَهَذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا
 تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَنْشُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا الْفَنَيْنِ
 وَجَاءُوا بِهِ مَفْضُلاً فِي النَّوعَيْنِ . فَفِي الشُّعْرِ بِالْقِطْعِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَافِي الْمُمَيَّدَةِ
 وَاسْتِقْلَالِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَنْشُورِ يَغْتَبِرُونَ الْمَوَازِنَةَ وَالشَّابِثَةَ بَيْنَ الْقِطْعِ
 غَالِباً وَقَدْ يَقْيِدُونَهُ بِالْأَسْجَاعِ . وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ
 الْعَرَبِ . وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يَنْبِي مُؤَلَّفُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيْفُهُ وَلَا
 يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذَهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمَعْنِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ
 قَالِبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَخْذُو حَذْوَهُ فِي التَّأْلِيفِ كَمَا يَخْذُو الْبِنَاءَ عَلَى الْقَالِبِ وَالنَّسَاجِ
 عَلَى الْمِنَوَالِ . فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مُتَفَرِّداً عَنِ نَظْرِ النُّحُوِّ وَالْبَيَانِيَّ
 وَالْعَرُوضِيَّ . نَعَمْ إِنَّ مَرَاعَاةَ قَوَانِينِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا
 تَحَصَّلَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظْرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ

الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أُسَالِيبَ . وَلَا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . وَإِذَا
 تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلَنُذَكِّرُ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَفَهَّمُ ^(١) حَقِيقَتَهُ
 عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْغَرَضُ . فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ . وَقَوْلُ
 الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَذِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ
 بِصَدْدِهِ وَلَا رَسْمٌ لَهُ . وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ اتَّفَقَ أُبْيَاتُهُ فِي عَدَدِ
 الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِينِ عَلَى التَّوَالِي . وَمِمَّا ثَلَّةُ عَرُوضِ أُبْيَاتِ الشَّعْرِ لِضَرْبِهَا . وَذَلِكَ
 نَظَرٌ فِي وَزْنٍ مُجَدِّدٍ عَنِ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتِهَا . فَتَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ حَدًّا عِنْدَهُمْ . وَنَحْنُ
 هُنَا نَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ بِإِعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوَزْنِ وَالْقَوَالِبِ
 الْخَاصَةِ . فَلَا جَرَمَ أَنْ حَدَّوْهُمُ ذَلِكَ لَا يَضِلُّعَ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِ يَعْطِينَا
 حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ ، الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِيعُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ
 وَالْأَوْصَافِ . الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي
 غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أُسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ . فَقَوْلُنَا
 الْكَلَامُ الْبَلِيعُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا يَخْلُو مِنْ
 هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْعَالِي لَيْسَ بِشَّعْرٍ وَقَوْلُنَا الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَّفِقَةٍ الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ فَضَّلَ
 لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشَّعْرٍ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي
 غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ أُبْيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ
 وَلَمْ يُفْضَلْ بِهِ شَيْءٌ . وَقَوْلُنَا الْجَارِي عَلَى الْأُسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا لَمْ
 يَجْرِمْنَهُ عَلَى أُسَالِيبِ الْعَرَبِ ^(٢) الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ حَيْثُئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ
 مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أُسَالِيبٌ تَخْصُهُ لَا تَكُونُ لِلْمَشْهُورِ . وَكَذَا أُسَالِيبُ الْمَشْهُورِ
 لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأُسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ
 شِعْرًا . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُبُوحِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ

(١) وفي نسخة أخرى ، يفهمنا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الشعر .

يَرُونَ أَنْ نَظَّمَ الْمُتَنَبِّيَّ وَالْمَعْرِيَّ لَيْسَ هُوَ مِنَ الشُّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى
أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فِيهِ . وَقَوْلُنَا فِي الْخَدِّ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فَضَّلْ لَهُ عَنْ شِعْرِ
غَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشُّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ . وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ
لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيْبِ
الْمَخْصُوصَةِ . وَإِذَا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشُّعْرِ فَلَنَرْجِعْ إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ
عَمَلِهِ فَتَقُولُ ، إِغْلَمُ أَنْ لَعَمَلِ الشُّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوْلَاهَا ، الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ
أَيُّ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَيُخْتَارُ
الْمَحْفُوظُ مِنَ الْحُرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيْبِ . وَهَذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقْلُ مَا يَكْفِي
فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْمُحْوَلِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلَ ابْنِ رَبِيعَةَ وَكَثِيرٍ وَذِي الرَّئِمَةِ وَجَرِيرِ
وَأَبِي نُوَاسٍ وَحَبِيبِ وَالْبُخْتَرِيِّ وَالرُّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ . وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ الْأَغَانِي
لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَمَنْ كَانَ
خَالِيًا مِنَ الْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْتُقُ وَالْحَلَاوَةُ إِلَّا كَثْرَةً
الْمَحْفُوظِ . فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ . وَاجْتِنَابُ
الشُّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ . ثُمَّ بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَخْذِ الْقَرِيحَةِ
لِلنَّسِجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَيَالَا كَثَارَ مِنْهُ تَشْتَحِكُمْ مَلَكَتُهُ وَتَرَسَّخَ . وَرُبَّمَا
يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نَسِيَانُ ذَلِكَ الْمَحْفُوظِ لِتَمَحُّي رُسُومِهِ الْحَرْفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ إِذْ هِيَ
صَادِرَةٌ^(١) عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا . فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ
الْأَسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسِجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ .
ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخَلْوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا
الْمَسْمُوعِ لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلَادَةِ السُّرُورِ . ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ
فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامِ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ
ذَلِكَ الْمَنَوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قَالُوا ، وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبَكْرِ عِنْدَ

(١) وفي نسخة أخرى : صَادَةٌ .

الْهُيُوبِ مِنَ النَّوْمِ وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ ^(١) الْجَمَامُ . وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ
 مِنْ بَوَاعِيهِ الْعِشْقَ وَالْإِنْتِشَاءَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُقَدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ
 الَّذِي انْفَرَدَ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَإِعْطَاهُ حَقَّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ .
 قَالُوا . فَإِنْ اسْتَضَمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى وَقْتِ آخَرَ وَلَا يُكْرِهْ نَفْسَهُ
 عَلَيْهِ . وَلِيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضُهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ
 عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعِبَ عَلَيْهِ وَضَعَهَا فِي
 مَحَلِّهَا . فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةٌ قَلْقَةٌ وَإِذَا سَمِعَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ
 فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْتَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسِبَةُ
 فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخُلَاصِ مِنْهُ بِالتَّشْفِيحِ وَالتَّنْقِيدِ وَلَا يَضُنْ
 بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَتَلَمَّحْ الْإِجَادَةَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ
 وَاجْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ . وَالْخَالِصُ
 مِنَ الضَّرُورَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَلْيَتَجَرَّهَا فَإِنَّمَا تَنْزَلُ بِالْكَلَامِ عَنِ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ حَظَرَ
 أَيْمَةُ اللِّسَانِ الْمَوْلَدُ مِنَ ارْتِكَابِ الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْمُدُولِ عَنْهَا إِلَى
 الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ . وَيَجْتَنِبُ أَيْضاً الْمَعْقَدَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ جَهْدَهُ . وَإِنَّمَا
 يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تَسَابِقُ الْفَاطِطَةَ إِلَى الْفَهْمِ . وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي
 الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ . وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ الْفَاطِطَةُ
 طَبَقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوفَى مِنْهَا . فَإِنَّ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَتْ حَشْوًا وَاسْتَعْمِلَ ^(٢)
 الذَّهْنَ بِالْفُغُوصِ عَلَيْهَا فَمَنْعَ الذُّوقَ عَنِ اسْتِيفَاءِ مُذْرَكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . وَلَا يَكُونُ
 الشُّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تَسَابِقُ الْفَاطِطَةَ إِلَى الذَّهْنِ . وَلِهَذَا كَانَ شَيْوَحْنَا
 رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعْجِبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ ^(٣) بِنِ حَفَاجَةِ شَاعِرِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ
 مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعْجِبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيِّ وَالْمَعْرِيِّ

(١) وفي نسخة أخرى : هواء .

(٢) وفي نسخة أخرى : اشغل .

(٣) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي السحاق الخ .

بعدم النسخ على الأساليب العريضة كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق . وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقصر^(١) وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم : النار حارة والسماة فوقنا . وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان . ولهذا كان الشعر في الربائيات والنبويات قليل الإجابة في الغالب ولا يحدق فيه إلا الفحول وفي القليل على العشر^(٢) لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك . وإذا تعدد الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتزاه ويحف^(٣) بالترك والإهمال . وبالجملية فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيح وقد ذكرنا منها ما حصرنا بحسب الجهد . ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك . وهذه نبذة كافية والله المعين . وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها . ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنّه لابن رشيح :

لَمَنْ اللَّهُ صَنَعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا	مِنْ صُنُوفِ الْجَهْلِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤَثِّرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مَبِينَا
وَيَرَوْنَ الْمُحَالَ مَعْنَى صَحِيحًا	وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصُّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَذ	رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سَوَانًا يَلَامُونَ	نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعَذَّرُونَا
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النِّظْمِ	وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا

(١) وفي نسخة أخرى : المقصر .

(٢) وفي نسخة أخرى : العشر .

(٣) وفي نسخة أخرى : يفرغ .

فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهٌ
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسَبُ الْأَمَانِي
فَإِذَا مَا مَدَّخَتْ بِالشُّعْرِ حُرًّا
فَجَعَلَتْ النِّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا
وَتَنَكَّبَتْ مَا يُهْجَعُنْ فِي السَّمْعِ
وَإِذَا مَا عَرَضَتْهُ ^(٢) بِهَجَاءِ
فَجَعَلَتْ التَّضْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءَ
وَإِذَا مَا بَكَتْ فِيهِ عَلَى الْغَا
سَخِلَتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّتْ مَا كَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ غَائِبًا جِئْتَ بِالْوِ
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ
وَأَصْحُ الْقَرِيضِ مَا قَارَبَ النَّظْمَ
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعُ النَّاسَ طُرًّا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي ،

الشُّعْرُ مَا قَوَّمْتُ رِنَعَ صُدُورِهِ
وَرَأَيْتُ بِالْإِطْنَابِ شِعْبَ صَدُوعِهِ
وَشَدَّدْتُ بِالتَّهْدِيدِ أَسْمَ مَتُونِهِ
وَفَتَحْتُ بِالْإِيْجَازِ عَوْرَ عِيُونِهِ

(١) وفي النسخة الباريسية : المسبيننا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، قرضته .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، المرقطينا .

(٤) وفي نسخة أخرى ، لينا .

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ
 وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَاداً مَا جِداً
 أَضْفَيْتَهُ (بِتَفْتُشٍ وَرَضِيَّتِهِ) ^(١)
 فَيَكُونُ جِزْلاً فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ
 وَإِذَا بَكَتْ بِهِ الدِّيَارُ وَأَهْلُهَا
 وَإِذَا أُرِدَتْ كِنَايَةً عَنْ رَبِيبَةٍ
 فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ
 وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ
 فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْنِساً بِدَعَائِهِ
 وَإِذَا نَبَذْتَ إِلَى الدِّيِّ عَلَقَتَهَا
 تَيْمَنَتَهَا بِلطيفِهِ وَرَفِيقِهِ
 وَإِذَا اعْتَذَرْتَ لِسَقَطَةِ أَشْقَطَتِهَا
 فَيَحُولُ ذُنُوبُكَ عِنْدَ مَنْ يَغْتَدُّهُ
 وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
 وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ ذُيُونِهِ
 وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَتَمِينِهِ
 وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
 أُجْرِيَتْ لِلْمَخْرُوجِ مَاءَ شُؤُونِهِ ^(٢)
 بَأَيْتِ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
 يَشُوتُهُ ^(٣) وَظُنُونِهِ بِتَقِينِهِ
 أذْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لِينِهِ
 مُسْتَأْمِناً لِرُوعُونِهِ وَخُرُونِهِ
 إِذْ صَارَ مَتَكَ بِفَاتِنَاتِ شُؤُونِهِ
 وَشَغَفَتَهَا بِخَبِيئِهِ وَكُفْنِهِ
 وَأَشَكَّتْ بَيْنَ مَخِيلِهِ وَمَيْمِينِهِ
 عَتَباً عَلَيْهِ مُطَالِباً بِبَيْمِينِهِ

الفصل السادس والخمسون

فِي أَنْ صِنَاعَةَ النِّظْمِ وَالنَّشْرِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاطِ لَا فِي الْمَعَانِي
 إِعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نِظْماً وَنَشْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاطِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا
 الْمَعَانِي تَنْعَمُ لَهَا وَهِيَ أَضَلُّ . فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النِّظْمِ وَالنَّشْرِ

(١) وفي نسخة أخرى . بنفسيه ورضيته .

(٢) مجاري الدمع .

(٣) وفي نسخة أخرى . بشائه .

إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثَرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَزِيئُهُ عَلَى
 لِسَانِهِ حَتَّى تَشْتَقِرَ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رَبَّى عَلَيْهَا
 فِي جَيْلِهِ وَيَفْرُضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَليِدِ نَشَأَ فِي جَيْلِ الْعَرَبِ وَيُلْقِنُ لَعَنَتَهُمْ كَمَا يُلْقِنُهَا
 الضَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَا قَدَّمْنَا أَنَّ لِللِّسَانِ مَلَكَةً مِنْ
 الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَخْصِيلَهَا بِتَكَرُّرِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْضُلَ شَأْنَ
 الْمَلَكَاتِ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ .
 وَأَيْضًا فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوَّعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى
 فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى تَكْلِيفِ صِنَاعَةٍ فِي تَأْلِيفِهَا وَتَأْلِيفِ الْكَلَامِ لِلعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُخْتَاجُ
 لِلصَّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَا وَهُوَ بِمِثَالِيَةِ الْقَوْلِ لِلْمَعَانِي . فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِي الَّتِي يُفْتَرَفُ
 بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آتِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصُّدْفِ وَالرُّجَاجِ وَالْخَزْفِ وَالْمَاءِ
 وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَتَخْتَلِفُ الْجُودَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا
 لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ . كَذَلِكَ جُودَةُ اللَّفَّةِ وَبِلَاغَتِهَا فِي الْاسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
 طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ . وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا
 وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيْبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ العِبَارَةَ
 عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمِثَالِيَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفَقْدَانِ
 الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَاللَّهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .



الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قلنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر
جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلبه تكون جودة الملكة الحاصلة عنه
للحافظ . فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتايبي
أو ابن المعتز أو ابن هانيء أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل ابن
هارون أو ابن الزيات أو البيهقي أو الصائبيء تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة
في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النسيه أو ترسل
البيساني أو العماد الأصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك للبصير
الناقد صاحب الذوق . وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة
الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما . فبارتقاء المحفوظ في طبقته من
الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة
يتغذيتها . وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في
البشر بالقوة والضعف في الإدراكات . واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها
من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج . فبهذه يتم وجودها
وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على
التدرج كما قدمناه . فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ
الأشجاع والترسيل . والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار .
والفقهية بمخالطة الفقه وتطهير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول .
والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتغطيل الحواس الظاهرة بالخلوة
والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن
وروحه وينقلب ربانياً وكذا سائرهما . وللنفس في كل واحد منها لون تكيف به

وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا
فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جَنْسِهَا إِنَّمَا تَحْضُلُ بِحِفْظِ الْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنْ
الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا
يَسْبِقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِيءُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ
عَنْ أَسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ
لَهَا فِي الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ
الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فِي
كَلَامِهِمْ . وَهَكَذَا نَجِدُ شِعْرَ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ
يَمْتَلِيءُ مِنْ حِفْظِ النُّقِيِّ الْحُرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو
الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ بِالذُّوْلَةِ الْمَرْيُوتِيَّةِ قَالَ : ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا
الْعَبَّاسِ بْنِ شَعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي الْبَصْرِ بِاللِّسَانِ
لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدْتُهُ مَطْلَعُ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا :

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِيِ

فَقَالَ لِي عَلَى الْبِدْيَةِ ، هَذَا شِعْرُ فُقَيْهِ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمَنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ . فَقَالَ ،
مِنْ قَوْلِهِ مَا الْفَرْقُ ؟ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيْبِ كَلَامِ الْعَرَبِ .
فَقُلْتُ لَهُ : اللَّهُ أَبُوكَ إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَأَمَّا الْكُتَابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ
لِتَخْيِرِهِمْ فِي مَحْفُوظِهِمْ وَمَخَالَطَتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيْبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمْ
الْحَيِّدَ مِنَ الْكَلَامِ . ذَاكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمُلُوكِ
بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي الْأَحْمَرِ وَكَانَ الصُّدْرَ الْمُقَدَّمُ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ : أَجِدُ
اسْتِضْعَا بَأُ عَلِيٍّ فِي نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رُمْتَهُ مَعَ بَصْرِي بِهِ وَحَفْظِي لِلْحَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ
مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَقُنُونِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلًا . وَإِنَّمَا أَتَيْتُ
وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي حِفْظِي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ
وَالْقَوَانِينِ التَّالِيفِيَّةِ . فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِبِيِّ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى فِي

الفراءات في الرسم واشتظهنرتهما وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول
 وجملي الخونجي في المنطقي وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في
 المجالس فامتلاً محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استغذت^(١) لها
 بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب تعاقق القريحة عن بلوغها .
 فنظر إلي ساعة مفعباً^(٢) ثم قال : الله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ ويظنرك
 من هذا الفضل وما تقرر فيه سر آخر وهو إغطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من
 العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم .
 فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق
 ونصيب وغيلان ذي الرمة والأخوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة
 الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومخاوراتهم للملوك أرفع
 طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة
 وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومخاوراتهم والطنع السليم
 والدوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء
 الذين أذركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين
 عجز البشر عن الإتيان بمثلثهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها
 نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل
 الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم
 أحسن ديباجة وأضفى رونقاً من أولئك وأرصف مبنى وأعدل تشقيفاً بما استفادوه
 من الكلام العالي الطبقة . وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل
 الذوق والبصر بالبلاغة . ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي
 غرناطة لمهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من

(١) وفي نسخة أخرى : لتعتد .

(٢) وفي نسخة أخرى : متعجبا .

تلاميذ الشلوبيين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوماً ما نال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ؟ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلاً ثم قال لي ، والله ما أدري ، فقلت ، أغرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه . وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت مفعباً ثم قال لي ، يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم . والله خلق الإنسان وعلمه البيان .

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع

وكيف جودة المصنوع أو قصوره

إعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب ، إنما سره وروحه في إفادة المعنى . وأما إذا كان مهملًا فهو كالموات الذي لا عبرة به . وكفالة الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان لأنهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال ، هو فن البلاغة . وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من لغة العرب وصارت كالقوانين . فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المسندين ، بشروط وأحكام هي جل قوانين العربية . وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ، وإضمار وإظهار ، وتقييد وإطلاق وغيرها ، يفيد الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد ، وبالمتمخطين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن ، يسمونه علم المعاني من فنون

البلاغة . فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفاذتها الإسناد جزء من إفاذتها للأحوال المكتتفة بالإسناد . وما قصر من هذه التراكيب عن إفاذة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإغراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات .

ثم يتبع هذه الإفاذة لمقتضى الحال التفتن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات ، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازاً ، إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه . ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفاذة وأشد . لأن في جميعها ظفر بالمدلول من دليله . والظفر من أسباب اللذة كما علمت . ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة ، وسموها بالبيان . وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال ، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها . وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة . واللفظ والمعنى متلازمان متضابقان كما علمت . فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة ، وبهما كمال الإفاذة ، فهو مقصر عن البلاغة ويتحقق عند البلغاء بأصوات الحيوانات المعجم وأجدر به أن لا يكون عربياً ، لأن العربي هو الذي يطابق بإفاذته مقتضى الحال . فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته .

ثم إعلم أنهم إذا قالوا « الكلام المطبوع » فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفاذة مدلوله المقصود منه ، لأنه عبارة وخطاب ، ليس المقصود منه النطق فقط . بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفاذة تامة ، ويدل به عليه دلالة وثيقة . ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضرب من التحسين والتزيين . بعد كمال الإفاذة وكأنها تعطىها رونق الفصاحة من تنسيق الأسجاع ، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه

بِالأقسامِ الْمُخْتَلِفَةِ الأَحْكامِ وَالتَّوْرِيَةِ بِاللفظِ المُشْتَرَكِ عَنِ الخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ ،
والمُطَابَقَةِ بَيْنَ المُتَضَادَاتِ ، لِيَتَقَعَ التَّجَانُّسُ بَيْنَ الأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي ، فَيُخْصَلُ لِلكَلَامِ
رَوْتَقٌ وَلَذَّةٌ فِي الأَسْمَاعِ وَخِلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الإِفَادَةِ .

وَهَذِهِ الصَّنْعَةُ مُوجُودَةٌ فِي الكَلَامِ المُعْجَزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : « وَاللَّيْلُ إِذَا
يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى » ، وَمِثْلُ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » ،
إِلَى آخِرِ التَّقْسِيمِ فِي الآيَةِ . وَكَذَا : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآتَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا » إِلَى آخِرِ
الآيَةِ . وَكَذَا : « هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا » . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذَلِكَ بَعْدَ
كَمَالِ الإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ قَبْلَ وَقُوعِ هَذَا البَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ
الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ ، لَكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرِ
وَأَمَّا الإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَضْدًا ، وَأَتَوْا مِنْهُ بِالمُعْجَازِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ
طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بِنِ أَوْسٍ وَالبُّخْتَرِيُّ وَمُسْلِمُ بِنِ الوَلِيدِ ، فَقَدْ كَانُوا مُوَلِّعِينَ
بِالصَّنْعَةِ ، وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالمُعْجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مَعَانِيهَا بَشَارُ بِنِ
بُرْدٍ وَابْنُ هِرْمَةَ ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي اللِّسَانِ العَرَبِيِّ . ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا
عَمْرُو بِنِ كَلْثُومٍ وَالمُعْتَابِيُّ وَمَنْصُورُ النَّمِيرِيِّ وَمُسْلِمُ بِنِ الوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ
عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبُ وَالبُّخْتَرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ابْنُ المُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى البَدِيعِ وَالصَّنَاعَةِ
أَجْمَعًا . وَلِنَذِكُرُ مِثَالًا مِنَ المَطْبُوعِ الخَالِيِّ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، مِثْلُ قَوْلِ قَيْسِ بِنِ
دَرِيحٍ :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيُوتِ لِعَلِّي
أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا
وَقَوْلٍ كَثِيرٍ .

وَإِنِّي وَتَهْيَامِي بَعْرَةٌ بَعْدَمَا
تَخَلَيْتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّسْتُ
لِكالمُرْتَجِي ظِلَّ العَمَامَةِ كُلِّهَا
تَبَوُّا مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّسْتُ

فَتَأْمَلُ هَذَا الْمَطْبُوعَ ، الْفَقِيْدَ الصَّنْعَةِ ، فِي إِحْكَامِ تَأْلِيْفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيْبِهِ . فَلَوْ
جَاءَتْ فِيهِ الصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا .

وَأَمَّا الْمَصْنُوعُ فَكَثِيْرٌ مِنْ لَدُنِّ بَشَارٍ ، ثُمَّ حَسِيْبٍ وَطَبَقْتُهُمَا ، ثُمَّ ابْنِ الْمُعْتَزِ
خَاتَمِ الصَّنْعَةِ الَّذِي جَرَى الْمَتَأَخَّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مِيْدَانِهِمْ ، وَنَسَجُوا عَلَى مَنَوَالِهِمْ .
وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَاخْتَلَفَتْ اضْطِلَاحَاتُهُمْ فِي الْقَائِيَاتِ ،
وَكَثِيْرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْإِفَادَةِ ، وَأَنَّهَا هِيَ
تُعْطِي التَّخْسِيْنَ وَالرُّوْتُقَ . وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْدِيْعِ ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ
عَنِ الْبَلَاغَةِ . وَلِذَلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي الْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهُوَ رَأْيُ
ابْنِ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لَهُ ، وَأَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ
شُرُوطًا ، مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا اكْتِرَاطٍ فِي مَا يَقْضَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا الْعَفْوُ فَلَا
كَلَامَ فِيهِ لِأَنَّهَا إِذَا بَرُئَتْ مِنَ التَّكْلُفِ سَلِمَ الْكَلَامُ مِنْ غَيْبِ الْاسْتِهْجَانِ ، لِأَنَّ تَكْلُفَهَا
وَمَعَانِيَتَهَا يَصِيْرُ إِلَى الْغَفْلَةِ عَنِ التَّرَاكِيْبِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ ، فَتُحْلَلُ بِالْإِفَادَةِ مِنْ
أَصْلِهَا ، وَتَذْهَبُ بِالْبَلَاغَةِ رَأْسًا . وَلَا يَبْقَى فِي الْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ التَّخْسِيْنَاتِ ، وَهَذَا هُوَ
الْغَالِبُ الْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ . وَأَصْحَابُ الْأَذْوَاقِ فِي الْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلْفِهِمْ
بِهَذِهِ الْفُنُونِ ، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ سِوَاهِ . وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْأَسْتَاذَ أَبَا
الْبَرَكَاتِ الْبَلْفِيْقِيَّ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرِ فِي اللِّسَانِ وَالْقَرِيْحَةِ فِي ذَوْقِهِ يَقُولُ ، إِنَّ
مِنْ أَشْهَى مَا تَقْتَرِحُهُ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أَشَاهِدَ فِي بَعْضِ الْأَيَامِ مَنْ يَنْتَحِلُ فُنُونَ هَذَا
الْبَيْدِيْعِ فِي نَظْمِهِ أَوْ نَثْرِهِ ، وَقَدْ عَوَّقَ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ ، يُحَدِّثُ بِذَلِكَ
تَلْمِيْذَهُ أَنْ يَتَّعَاطُوا هَذِهِ الصَّنْعَةَ ، فَيَكْلَفُونَ بِهَا ، وَيَتَنَاسُونَ الْبَلَاغَةَ . ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ
اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمُ الْإِفْقَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْقَصِيْدِ ، فَتَكْفِي فِي
زِيْنَةِ الشِّعْرِ وَرُوْتِقِهِ . وَالْإِكْتِسَارُ مِنْهَا غَيْبٌ ، قَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ وَغَيْرُهُ . وَكَانَ شَيْخَنَا
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّرِيْفُ السَّنِيْتِيُّ مَنَّاقُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَنْدَلُسِ لَوْقَتِهِ يَقُولُ ، هَذِهِ
الْفُنُونُ الْبَيْدِيْعِيَّةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبَحُ أَنْ يُسْتَكْتَمَرَ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ

مُخَسَّنَاتِ الْكَلَامِ وَمَزِينَاتِهِ ، فَهِيَ بِمَثَابَةِ الْخَيْلَانِ فِي الْوَجْهِ يَحْسُنُ بِالْوَاحِدِ
وَالْإِثْنَيْنِ مِنْهَا ، وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا . وَعَلَى نِسْبَةِ الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ هُوَ الْكَلَامُ الْمَنْشُورُ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرًا الْمَوَازِنَةَ بَيْنَ جُمْلِهِ وَتَرَكَيبِهِ ، شَاهِدَةٌ
مَوَازِنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ ، مِنْ غَيْرِ التَّرَامِ سَجْعٍ وَلَا اكْتِرَابٍ بِصَنْعَةٍ . حَتَّى نَبَّحَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
هَلَالٍ الصَّايِبِيُّ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهٍ ، فَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ وَالتَّقْفِيَةَ وَأَتَى بِذَلِكَ بِالْعَجَبِ .
وَعَابَ النَّاسُ عَلَيْهِ كَلْفَهُ بِذَلِكَ فِي الْمَخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ
فِي مَلُوكِهِ مِنَ الْعُجْمَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ ضَوْلَةِ الْخِلَافَةِ الْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ الْبَلَاغَةِ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ
الصَّنَاعَةُ بَعْدَهُ فِي مَنْشُورِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَنَسِيَ عَهْدَ التَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتْ السُّلْطَانِيَّاتِ
وَالْإِخْوَانِيَّاتِ وَالْعَرَبِيَّاتِ بِالسُّوقِيَّاتِ . وَاخْتَلَطَ الْعَرَعِيُّ بِالنَهْمَلِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ
عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْمَضْمُونُ بِالْمَعَانَاةِ وَالتَّكْلِيفِ ، قَاصِرٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ . لِقَلَّةِ
الْإِكْتِرَابِ فِيهِ بِأَصْلِ الْبَلَاغَةِ ، وَالْحَاكِمِ فِي ذَلِكَ الذُّوقِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

الفصل التاسع والخمسون

في ترفيع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إِعْلَمُ أَنَّ الشَّمْرَ كَانَ دِيْوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحُكْمُهُمْ . وَكَانَ
رُؤْسَاءُ الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ^(١) فِيهِ وَكَانُوا يَقْفُونَ بِسُوقِ عُكَاظِ لِإِنْشَادِهِ وَعَرَضَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِيْبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصْرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ . حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى
الْمُنَافَاةِ فِي تَغْلِيْقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجَّتِهِمْ وَبَيْتِ أَبِيهِمْ
إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ امْرَأَةُ الْقَيْسِ ابْنِ حُجْرٍ وَالنَّايِفَةُ الدُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى
وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبِيدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ
الْمُعَلَّقَاتِ السَّنْعِ^(٢) . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَغْلِيْقِ الشَّمْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ

(١) وفي نسخة أخرى ، متنافسين .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، السبع .

على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها
بالعَلَقَات . ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين
والنبوّة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا
عن الخوض في النظم والنثر زماناً . ثم استقر ذلك وأونس الرشد من العيلة . ولم
ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعة النبي ﷺ وأتاب عليه . فرجعوا
حينئذ إلى دينهم منه . وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قریش لذلك العهد
مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس
فيتفأ لإستماعه فنجباً به . ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة
وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها . ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز
على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويخرضون على استهداء أشعارهم
يطلمعون منها على الأثار والأخبار واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون ولدهم
يحفظها . ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدرأ من دولة بني العباس . وانظر
ما نقله صاحب المقيد في مسامرة الرشيد للأضمعي في باب الشعر والشعراء تجد
ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرُسوخ فيه والعناية بانتخاله والتبصر
بخبيد الكلام وزديته وكثرة محفوظه منه . ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان
لسانهم من أجل العجبة وتقصيرها باللسان وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا
بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبيين معروفهم فقط لا سوى ذلك
من الأغراض كما فعله حبيب والبخترى والمننبيء وابن هانئ ومن بعدهم وهلم
جزأ . فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب^(١) والاستجداء لذهاب المنافع
التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً . وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من
المتأخرين وتغير الحال وأصبح تغاطيه هجئة في الرئاسة ومدمة لأهل المناصب
الكبيرة . والله مقلب الليل والنهار .

(١) وفي نسخة أخرى . للكذبة .

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

إِعْلَمُ أَنَّ الشُّعْرَ لَا يَخْتَصُّ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَقَطُّ بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ لُغَةٍ سِوَاهُ كَانَتْ عَرَبِيَّةً أَوْ عَجَمِيَّةً وَقَدْ كَانَ فِي الْفَرَسِ شُعْرَاءُ وَفِي يُونَانَ كَذَلِكَ وَذَكَرَ مِنْهُمْ أَرِسْطُو فِي كِتَابِ الْمَنْطِقِ أَوْ مِيرُوسَ الشَّاعِرَ وَأَتْنَى عَلَيْهِ . وَكَانَ فِي حَمِيرٍ أَيْضاً شُعْرَاءُ مُتَقَدِّمُونَ . وَلَمَّا فَسَدَ لِسَانُ مُضَرَ وَلَغَتْهُمْ الَّتِي دُونَتْ مَقَابِيِسَهَا وَقَوَائِنُ إِعْرَابِهَا وَفَسَدَتِ اللُّغَاتُ مِنْ بَعْدُ بِحَسَبِ مَا خَالَطَهَا وَمَارَجَهَا مِنَ الْعُجْمَةِ فَكَانَتْ تَحِيلٌ^(١) الْعَرَبُ بِأَنْفُسِهِمْ لُغَةً خَالَفَتْ لُغَةَ سَلْفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فِي الْإِعْرَابِ جُمْلَةً وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَبِنَاءِ الْكَلِمَاتِ . وَكَذَلِكَ الْحَضْرُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ نَشَأَتْ فِيهِمْ لُغَةٌ أُخْرَى خَالَفَتْ لِسَانَ مُضَرَ فِي الْإِعْرَابِ وَأَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ وَالتَّصَارِيفِ وَخَالَفَتْ أَيْضاً لُغَةَ الْجَيْلِ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاخْتَلَفَتْ هِيَ فِي نَفْسِهَا بِحَسَبِ اضْطِرَاحَاتِ أَهْلِ الْأَفَاقِ فَلَأَهْلِ الشَّرْقِ وَأَمْصَارِهِ لُغَةٌ غَيْرُ لُغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ وَتَخَالَفَهُمَا أَيْضاً لُغَةُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَمْصَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشُّعْرُ مَوْجُوداً بِالطَّبْعِ فِي أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ لِأَنَّ الْمَوَازِينَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَعْدَادِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسُّوَاكِينِ وَتَقَابُلِهَا مَوْجُودَةٌ فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ فَلَمْ يَهْجُرِ الشُّعْرُ بِفَقْدَانِ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَ الَّذِينَ كَانُوا فُحُولَهُ وَقُرْسَانَ مِيدَانِهِ حَسْبَمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ . بَلْ كُلُّ جَيْلٍ وَأَهْلٍ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْجِمِينَ وَالْحَضْرُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ يَتَقَاطَبُونَ مِنْهُ مَا يُطَاوِعُهُمْ فِي اتِّخَالِهِ وَرَضْفِ بِنَائِهِ عَلَى مَهْنَعِ كَلَامِهِمْ . فَأَمَّا الْعَرَبُ أَهْلُ هَذَا الْجَيْلِ الْمُسْتَعْجِمُونَ عَنْ لُغَةِ سَلْفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فَيَقْرُضُونَ الشُّعْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي سَائِرِ الْأَعَارِيزِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُهُمُ الْمُشْتَعْرِبُونَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْمَطُولَاتِ مُشْتَمِلَةً

(١) وفي نسخة أخرى : الجليل

على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام . وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون . فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي زاوية العرب في أشعارهم . وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسي . وربما يلحنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية . ثم ينعنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومسكنهم إلى هذا العهد . ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يحيون به معصياً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويته ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرجع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المؤلدين . ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما بنا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره والأفإعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود وللمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع ذالاً على الفاعل والنصب ذالاً على المفعول أو بالعكس وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يظلمح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحة الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر . ويتميز

عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ لَا يَحْرَكَاتِ
الإغْرَابِ .

فَمِنْ أَشْعَارِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بِنُ هَاشِمِ يَبْكِي الْجَازِيَةَ بِنْتُ سَرْحَانَ .
وَيَذْكَرُ ظَعْنَهَا مَعَ قَوْمِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ .

قَالَ الشَّرِيفُ ابْنُ هَاشِمِ عَلِيٍّ
يَغْرُ لِلْإِغْلَامِ أَيْنَ مَا رَأَتْ خَاطِرِي
وَمَاذَا شَكَاةَ الرُّوحِ مِمَّا طَرَا لَهَا
يَحْسَبُ إِنْ قَطَاعَ عَامِرٍ ضَمِيرَهَا
وَعَادَتْ كَمَا خَوَارَةٌ فِي يَدِ غَاسِلٍ
تَجَابِدُوهَا اثْنَيْنِ وَالنَّزْعَ بَيْنَهُمْ
وَبَاتَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ ذَارِفَاتٍ لَشَانِهَا
تَدَارِكُ مِنْهَا النُّجْمَ حَذْرًا وَزَادَهَا
يَصِبُ مِنَ الْقِيَعَانِ مِنْ جَانِبِ الصَّفَا
هَذَا الْغَنَى حَتَّى تَسَايَيْتِ غَزْوَةً
وَنَادَى الْمُنَادِي بِالرَّحِيلِ وَشَدُّوا
وَشَدُّ لَهَا الْأَدْهَمُ دِيَابِ بْنِ غَانِمٍ
وَقَالَ لَهُمْ حَسَنُ بْنُ سَرْحَانَ غَرَّبُوا
وَيَرْكُضُ وَيُبِيدُهُ شَهَامَهُ بِالتَّسَامُحِ
غَدْرَنِي زِيَانُ السَّنِيحِ مِنْ عَبَسِ
غَدْرَنِي وَهُوَ زَعْمَا صَدِيقِي وَصَاحِبِي
وَرَجَعَ يَقُولُ لَهُمْ بِلَالُ بْنُ هَاشِمِ
حَرَامٌ عَلَيَّ بَابُ بَغْدَادِ وَأَرْضُهَا
تَصْدَفُ رُوْحِي عَنْ بِلَادِ ابْنِ هَاشِمِ

تَرَى كَيْدِي حَرَى شَكَّتْ مِنْ زَفِيرِهَا
يَرُدُّ غُلَامَ الْبَدْوِ يَلْوِي غَصِيرِهَا
عِدَاةَ وَزَائِعَ تَلْفَ اللَّهِ خَيْرِهَا
طَوَى وَهَنْدَ جَانِي ذَكِيرِهَا
عَلَى مِثْلِ شَوْكِ الطَّلْحِ عَقَدُوا سِيرِهَا
عَلَى شَوْكِ لَعَةِ وَالْبَقَايَا جَرِيرِهَا
شَبِيهَ دَوَّارِ السَّوَانِي يَدِيرِهَا
مَرُونَ يَجِي مِتْرَاكِبًا مِنْ صِيرِهَا
عَيُونَ وَلِجَازِ الْبَرْقِ فِي غَزِيرِهَا
نَاضَتْ مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى فَقِيرِهَا
وَعَرَجَ عَارِيهَا عَلَى مَسْتَعِيرِهَا
عَلَى أَيْدِي مَاضِي وَلِيْدِ مَقْرَبِ مِيرِهَا
وَسَوَقُوا النُّجُوعَ إِنْ كَانَ أَنَا هُوَ غَفِيرِهَا
وَبِالْيَمِينِ لَا يَجِدُوا فِي مُغِيرِهَا
وَمَا كَانَ يَرْضَى زَيْنَ حَمِيرِ مِيرِهَا
وَأَنَا لِيَهْمَا مِنْ دَرَقَتِي مَا يَدِيرِهَا
بِحَرِّ الْبِلَادِ الْعَطْشَى مَا بَخِيرِهَا
دَاخِلٌ وَلَا عَائِدٌ رَكِيْزُهُ مِنْ نَعِيرِهَا
عَلَى الشَّمْسِ أَوْ حَوْلِ الْغُضَامِ مِنْ هَجِيرِهَا

وباتت نيران العذارى قوادح يلود وبجرجان يشدوا أسيرها
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي رِثَاءِ أَمِيرِ زَنْتَانَةَ أَبِي سَعْدِ الْيَمِينِيِّ مَقَارِعِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَأَرْضِ
الزَّابِ وَرِثَاؤُهُمْ لَهُ عَلَى جِهَةِ التَّهْكُمِ :

تقول فتاة الحي^(١) سعدى وهاضها لها في ظعون الباكرين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه خذ النعت مني لا تكون هبيل
تسراه يعالي وادي ران وفوقه من الربط عساوي بناء طويل
أراه يميل النور من شارع التقا به الواد شرقاً واليراع دليل
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه قد كان لأعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم جراحه كافواه المزاد تسيل
أيا جائراً مات الزناتي خليفه لا ترحل إلا أن يريد رحيل
ألا واش رحلنا ثلاثين مرة وعشراً وستا في النهار قليل

وَمِنْ قَوْلِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَذْكُرُ عَتَاباً وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
مَاضِي بْنِ مَقْرَبٍ :

تبدي ماضي الجبار وقال لي أشكر ما نحنا عليك رضاش
أشكر أعد ما بقي ود بيننا ورانا عريب عربا لابسين نماش
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا كما صادفت طعم الزباد طشاش
أشكر أعد إلى يزيد ملامه ليحدو ومن عمر بلاده عاش
ان كان نبت الشوك يلقح بأرضكم هنا العرب ما زدنا لهن صياش

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ رَحْلَتِهِمْ إِلَى الْغُرَبِ وَعَلَيْهِمْ زَنْتَانَةُ عَلَيْهِ :

وَأَيُّ جَمِيلِ ضَاعَ لِي فِي الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ
وَأَيُّ رَجَالِ ضَاعَ قَبْلِي جَمِيلُهَا

(١) كذا . وفي ب : نقاة الغد .

لقد كنت أنا وياه في زهو بيتنا
وعدت كأني شارب من مدامة
أو مثل شمطامات مظنون كبدها
أثاها زمان السوء حتى تدوحت
كذلك أنا مما لحاني من التوجى
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا
قعسنا سبعة أيام محبوس نجعنا
نظل على حداب الثنايا نوازي
عناني بحجة ما غباني دليلها
من الخمر فهو ما قدر من يميلها
غريباً وهي مدوخه عن قبيلها
وهي بين عربا غافلا عن نزيلها
شاكبي بكيد باديتها زعيلها
وقووا وشداد الحوايا حميلها
واليسدو ما ترفع عمود يقيلها
يظل الجرى فوق النضا ونصيلها

وَمِنْ شِعْرِ سُلْطَانِ بْنِ مُظَفَّرِ بْنِ يَحْيَى مِنَ الرَّوَاوِدَةِ^(١) أَحَدِ بَطُونِ رِيَّاحِ
وَأَهْلِ الرِّيَّاسَةِ فِيهِمْ ، يَقُولُهَا وَهُوَ مُعْتَمَلٌ بِالْمَهْدِيَّةِ فِي سِجْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ
أَبِي خَفْصٍ أَوَّلِ مُلُوكِ أَفْرِيْقِيَّةٍ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ :

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة
يا من لقلب حالف الوجد والأسى
حجازية بدوية عربية
مولعة بالبدو لا تألف القرى
غيات ومشتاها بها كل شتوة
ومرباها عشب الأراضي من الحيا
تشوق شوق العين مما تداركت
وماذا بكت بالما وماذا تناحطت
كأن عروس البكر لاحت ثيابها
فلاة ودهنا واتساع ومنة
ومشروبها من مخض ألبان شولها

حرام على أجنان عيني منامها
وروح هيامي طال ما في سقامها
عداوية ولها بعيد مرامها
سوى عانك الوعسا يؤتي خيامها
ممحونة بيها وبيها صحيح غرامها
يواتني من الخور الخلايا جسمها
عليها من السحب السواري غمامها
عيون غرار المزين عذبا حمامها
عليها ومن نور الأفاحي خزامها
ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
غنيم ومن لحم الجوازي طعامها

(١) كذا . وفي نسخة ، الدواودة .

يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
 وبلا ويحيى ما بلي من رمامها
 ظفرت بأيام مضت في ركامها
 إذا قمت لم تحظ من أيدي سهامها
 زمان الصبا سرجاً وييدي لجامها
 من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
 مطرزة الأجنان باهي وشامها
 بكفي ولم ينسى جدها ذمامها
 وتوهج لا يطفأ من الماء ضرامها
 فني العمر في دار عماني ظلامها
 ويغنى عليها ثم يبدأ غيامها
 إلينا بعون الله يهفو علامها
 ورمحي على كتفي وسيري أمامها
 أحب بلاد الله عندي حشامها
 مقيم بها ما لذ عندي مقامها
 يزيل الصدا والغل عني سلامها
 إذا قاتلوا قوماً سريع انهزامها
 مدى الدهر ما غنى يفينا حمامها
 فذي الدنيا ما دامت لاحد دوامها

تفانت عن الأبواب والموقف الذي
 سقى الله ذا الواذي المشجر بالحيا
 فكافأتها بالودّ مني وليتنى
 ليالي أقواس الصبا في سواعدي
 وفرسي عديد تحت سرجي مشاقة
 وكم من رداح أسهرتني ولم أرى
 وكم غيرها من كاعب مرجحة
 وصفقت من وجدي عليها طريجة
 ونار بخطب الوجد توهج في الحشا
 أيا من وعدتي الوعد هذا إلى متى
 ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة
 بنود ورايات من السعد أقلت
 أرى في الفلا بالعين أطمعان عزوتي
 يجرعا عناق النوق من فوق شامس
 إلى منزل بالجعفرية. للوى
 ونلقى سرة من هلال بن عامر
 بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً
 عليهم ومن هو في حماهم تحية
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى

وَمِنْ أَشْعَارِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ حَمْرَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ شَيْخِ الْكُعُوبِ .
 مِنْ أَوْلَادِ أَبِي اللَّيْلِ . يَغَاتِبُ أَقْتَالَهُمْ أَوْلَادَ مُهَلِّلٍ وَيُحِيبُ شَاعِرَهُمْ شَيْلِ بْنِ
 مَسْكِانَةَ بْنِ مُهَلِّلٍ . عَنْ أُبَيَّاتٍ فَخَّرَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِقَوْمِهِ .

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعاني صاعبها

فنونا من انشاد القوافي عذابها
تحدى بها تام الوشا ملتها بها
محكمة القيعان دابي ودابها
قوارع من شبل وهذي جوابها
فراح يريح الموجهين الغنا بها
سوى قلت في جمهورها ما أعابها
وحمي حماها عادي في حرابها
رصاص بني يحيى وغلاق دابها
وهل ريت من جاللوغى واصطلى بها
وأثنى طفاها جاسراً لا يهابها
لفاس إلى بيت المنى يقتدى بها
فصار وهي عن كبر الاسنة تهابها
رجال بني كعب الذي يتقى بها

غنيت بمعلق الشنا واغتصابها
بأسياف نتناش العدا من رقابها
علينا بأطراف القنا اختضا بها
وزرق كالسنة الحناش انسلابها
تسير السبايا والمطايا ركابها
بلا شك والدنيا سريع انقلابها

فتوق بحوبات مخوف جناها

يريح بها حادي المصاب إذا سعى
محسرة مختارة من نشادها
مغربلة عن ناقد في غضونها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى
اشبل جنينا من حباك طرائفا
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم
لقولك في أم المتين بن حمزة
أما تعلم أنه قامها بعد ما لقي
شهاباً من أهل الأمرياشبل خارق
سواها طفاها أضمرت بعد طفية
واضمرت بعد الطفيتين أن صحت
وبان لوالي الأمر في ذات شحابها
كما كان هو يطلب على ذات جنبت
ومنها في العتاب :

وليدا تعاتبوا أنا أغنى لأنسي
عليّ ونا ندفع بها كل مبضع
فإن كانت الأملاك بغت عرايس
ولا بعدها الارهاف وذبل
بني عمنا ما نرتضي الذل غلمه
وهي عالما بأن المنايا تنيلها

ومنها في وصف الطعائن :

قطعنا قطع البيد لا نخشي العدا

تري العين فيها قل لشبل عرائف
تري أهلها غب الصباح ان يفلها
لها كل يوم في الأرامي قتائل
وكل مهابة محتظيها ربابها
بكل حلوب الجوف ما سد بابها
ورا الفاجر الممزوج عفو رضاها

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ

وطلبك في المنوع منك سفاهة
إذا رأيت أناساً يغلغوا عنك بابهم
وَصُدُّكَ عَنْ صَدِّكَ عَنْكَ صَوَابٌ
ظهور المطايا يفتح الله باب

وَمِنْ قَوْلِ شَيْبَلٍ يَذْكُرُ انْتِسَابَ الْكُعُوبِ إِلَى بُرْجَمٍ :

لشيب وشبان من أولاد برجم جميع البرايا تشتكي من ضهادها

وَمِنْ قَوْلِ خَالِدِ يَعْتَابُ إِخْوَانَهُ فِي مَوَالَةِ شَيْخِ الْمُؤَخِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ بِنِ
تأفراكين المستبد بحجاية السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي اسحق ابن
السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عضرنا :

يقول بلا جهل فتى الجود خالد
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن
تهجست معنا نابها لا لحاجة
وكنت بها كبدي وهي نعم صابنة
تفوهت بادي شرحها عن مارب
بني كعب أدنى الأقربين لدمنا
جبرى عند فتح الوطن منا لبعضهم
وبعضهم ملنا له عن خصيمه
وبعضهم مرهوب من بعض ملكنا
وبعضهم جانا جريحا تسمحت
مقالة قوال وقال صواب
هريجا ولا فيما يقول ذهاب
ولا هرج ينقاد منه معاب
حزينة فكر والحزين يصاب
جرت من رجال في القبيل قراب
بني عم منهم شايب وشباب
مصافاة ود واتساع جناب
كما يعلموا قولي يقينه صواب
جزاعا وفي جو الضمير كتاب
خواطر منها للنزير وهاب

تقهناه حتى ما عنا به سباب
 مراراً وفي بعض المرات يهاب
 غلق عنه في أحكام السقائف باب
 على كره مولى بالقي ودياب
 لهم ما حططنا للفجور نقاب
 نفقنا عليها سبقا ورقاب
 على أحكام والي أمرها له ناب
 بني كعب لاواها الغريم . وطاب
 وقمنا لهم عن كل قيد مناب
 ربيها وخيراته عليه نصاب
 ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
 جماهير ما يغلبوها بجلاب
 ضخام لحزات الزمان تصاب
 والا هلالا في زمان دياب
 إلى أن بان من نار العدو شهاب
 ملامه ولا دار الكرام عتاب
 وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
 ذهل حلمي ان كان عقله غباب
 تمنى يكن له في السماح شعاب
 بالاثبات من ظن القبائح عاب
 وهوب لآلاف بغير حساب
 بروحه ما يحيى بروح سحاب
 لقوا كل ما يستاملوه سراب

وبعضهم نظار فينا بسوء
 رجع ينتهي مما سفها قبيحه
 وبعضهم شاكي من أوغاد قادر
 فصمناه عنه واقتضى منه مورد
 ونحن على دافي المدى نطلب العلا
 وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما
 ومهد من الأملاك ما كان خارجاً
 بردع قروم من قروم قبيلنا
 جرينا بهم عن كل تاليف في العدا
 إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة
 وركبوا السبايا المثنات من أهلها
 وساقوا المطايا بالثرا لا نوا له
 وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر
 وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا
 وكانوا لنا درعاً لكل مهمة
 وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا
 كسوا الحي جلباب البهيم لستره
 كذلك منهم حانس ما دار النبا
 يظن ظنوناً ليس نحن بأهلها
 خطأ هو ومن واثاه في سو ظنه
 فوا عزوتي ان الفتى بومحمد
 وبرحت الأوغاد منه ويحسبوا
 جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع

ولا كان في قلة عطاء صواب
وانه باسهام التلاف مصاب
عليه ويمشي بالفزوع لزاب
خنوج عناز هوأها وقباب
ربوا خلف استار وخلف حجاب
بحسن قوائين وصوت رباب
يطارح حتى ما كأنه شاب
ولنذة مأكول وطيب شراب
من الود إلا ما بدل بحراب
يلجج في اليم الغريق غراب
كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
ويحمار موصوف القنا وجعاب
ندوما ولا يمسي صحيح بناب
غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

وهو لو عطى ما كان للرأي عارف
وان نحن ما نستاملوا عنه راحة
وان ما وطا ترشيش يضيأق وسعها
وانه منها عن قريب مفاصل
وعن فائنات الطرف بيض غوانج
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا
يضلوه عن عدم اليمين وربما
بهم حازله زمه وطوع أوامر
حرام على ابن تافرकिन ما مضى
وان كان له عقل رجيح وفطنة
وأما البدا لا بدها من فياعل
ويحمي بها سوق علينا سلاعه
ويمسي غلام طالب ريح ملكنا
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامه

وَمِنْ شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي غَامِرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحَدِ
بَطُونِ زُعْبَةَ يَعْتَبُ بَنِي عَمِّهِ الْمُتَطَاوِلِينَ إِلَى رِيَاسَتِهِ :

إذا كان في سلك الحرير نظام
و شاء تبارك والضعون تسام
عصاها ولا صننا عليه حكام
تبرم على شوك القناد برام
وبين عواج الكانفات ضرام
أتاهم بمنشار القطيع غشام
إذا كان ينادي بالفراق وخام

محبرة كالدر في يد صانع
أباحها منها فيه أسباب ما مضى
غدامنه لام الحي حيين وانشطت
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينا
والا كأبراص التهامي قوادح
والا لكان القلب في يد قابض
لما قلت سما من شقا البين زارني

بيحيى وحله والقطين لمام
 دجى الليل فيهم ساهر ونيام
 لنا ما بدا من مهرق وكظام
 واطلاق من شرب المها ونعام
 ينوح على اطلال لها وخيام
 بعين سخينا والدموع سجام
 وَسَقَمِي مِنْ أَسْبَابِ إِنْ عَرَفْتَ أَوْهَامِ
 سلام ومن بعد السلام سلام
 دخلتم بحور غامقات دهام
 لها سيلات على الفضا وأكام
 وليس البحور الطاميات تمام
 من الناس عدمان العقول لئام
 قسرار ولا دنيا لهم دوام
 مثل سراب فلاه ما لهم تمام
 مواضع ما هيا لهم بمقام
 ومن زارها في كل دهر وعام
 يذوقون من خمط الكساع مدام
 بكل رديني مطرب وحسام
 عليها من أولاد الكرام غلام
 يظلم يصارع في العنان لجام
 وتولدنا من كل ضيق كظام
 لها وقت وجنات البذور زحام
 وفي سن رمحي للحروب علام

ألا يا ربوع كان بالأمس عامر
 وغيد تداني للخطا في ملاعب
 ونعم يشوف الناظرين التحامها
 وعود باسمها ليدعو لسربها
 واليوم ما فيها سوى اليوم حولها
 وقفنا بها طورا طويلا نسالها
 وَلَا صَخَّ لِي مِنْهَا سِوَى وَحْشٍ خَاطِرِي
 ومن بعد ذاتدى لمنصور بو علي
 وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم
 زواخر ما تنفاس بالعود إنما
 ولا قسمتمو فيها قياسا يدلکم
 وعانوا على هلكاتكم في ورودها
 أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم
 الا غناهمو لو ترى كيف زايمهم
 خلو القنا يبيغون في مرقب العلا
 وحق النبي والبيت وأركانہ العلی
 لبر اللیالی فیہ ان طالت الحیا
 ولا برها تبقى البوادي عواكف
 وكل مسافة كالسد إياه عابر
 وكل كميت يكتعض عض نابه
 وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة
 بالأبطال والقود الهجان وبالقنا
 أتجدني وأنا عقيد تقودها

ونحن كأضراس المواقف بنجمكم
متى كان يوم القحط يا ميرأبو علي
كذلك بوحمو إلى اليسر ابعته
وخل رجالاً لا يرى الضيم جارهم
ألا يقيموها وعقد بؤسهم
وكم ثار طعنها على البدو سابق
فتى ثار قطار الصوى يومنا على
وكم ذا يجيئوا أثرها من غنيمة
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا
عليكم سلام الله من لسن فاهم

حتى يقاضوا من ديون غرام
يلقى سعايا صايرين قدام
وخلى الجياد العاليات تسام
ولا يجمعوا بدهى العدو زفام
وهم عذر عنه دائماً ودوام
ما بين صحاصيح وما بين حسام
لنا أرض ترك الظاعنين زمام
حليف الثنا قشاع كل غيام
غدا طبعه يجدى عليه قيام
ما غنت الورقا وناح حمام

وَمِنْ شِعْرِ عَرَبِ نَمْرِ بِنَوَاحِي خُورَانَ لِامْرَأَةٍ قُتِلَ زَوْجُهَا فَبَعَثَتْ إِلَى أَخْلَافِهِ مِنْ
قَيْسٍ تُغْرِيبُهُمْ بِطَلَبِ ثَأْرِهِ تَقُولُ :

تقول فتاة الحي أم سلامه
تبيت بطول الليل ما تألف الكرى
على ما جرى في دارها وبو عيالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني
أيا حين تسريح الذوائب واللحي

بعين أزع الله من لا رثى لها
موجعة كان الشقا في مجالها
بلحظة عين البين غير حالها
ونمتوا عن أخذ الثار ماذا مقالها
ويبرد من نيران قلبي ذبالها
وبيض العذارى ما حميتوجمالها



(الموشحات والأزجال للأندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي قُطْرِهِمْ وَتَهَدَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفَنُونُهُ وَبَلَغَ التَّنْمِيقُ فِيهِ الْغَايَةَ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ فَنَاءً مِنْهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشِحِ يَنْظِمُونَهُ أَسْمَاطًا أَسْمَاطًا وَأَعْصَانًا وَأَعْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِيضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . وَيَسْمُونَ الْمُتَعَدِّدَةَ مِنْهَا بِنَيْتًا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَافِي تِلْكَ الْأَعْصَانِ وَأَوْرَانِهَا مُتَتَالِيًا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ وَأَكْثَرَ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ أَيْنَاتٍ . وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَعْصَانٍ عَدَدِهَا بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ وَالْمَذَاهِبِ وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْفَصَائِدِ . وَتَجَاوَزُوا فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ . وَكَانَ الْمُخْتَرَعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مُقَدِّمٌ بِنُ مَعَاظِرِ الْفَرِيرِيِّ ^(١) مِنْ شُعْرَاهُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ . وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لِهَذَا مَعَ الْمُتَأَخَّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مَوْشِحَاتُهُمَا . فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقُرَّازِ شَاعِرِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ صَعَادِجِ الْمَرْيَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِي أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ : كُلُّ الْوَشَاحِينَ عِيَالٌ عَلَى عِبَادَةِ الْقُرَّازِ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ :

بَدْرُ تَمْ . شَمْسُ ضَحَا . غُضْنُ نَقَا . مِسْكُ شَمْ
 مَا أْتَمْ . مَا أَوْضَحَا . مَا أَوْزَقَا . مَا أْتَمْ
 لَا جَرَمَ . مَنْ لَمَحَا . قَدْ عَشَقَا . قَدْ حَرَمَ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحَ مِنْ مَعَاصِرِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ . وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى ، القبريري .

(٢) الضمير يعود إلى عبادة .

جَمَاعَةٌ مِنَ الْوُشَاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَشْبِيلِيَّةٍ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اضْطَنَعَ
مَوْشَحَةً وَتَأْتَقُ فِيهَا فَتَقْدَمُ الْأَعْمَى الطَّلِيطِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ
بِقَوْلِهِ ،

صَاحِبُكَ عَنْ جَمَانٍ . سَافِرٌ عَنْ دُرٍّ^(١) ضَاقَ غِنَاهُ الزَّمَانِ . وَحَوَاهُ صُدْرِي

صَرَفَ^(٢) ابْنُ بَيْعِي مَوْشَحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ . وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِي أَنَّهُ سَمِعَ
ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ ، مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحَا عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنُ بَيْعِي حِينَ وَقَعَ لَهُ ،

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ أَطْلَعَةَ الْغَرْبِ . فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ

وَكَانَ فِي عَضْرِهِمَا مِنَ الْمَوْشَحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَبْيَضُ . وَكَانَ فِي
عَضْرِهِمَا أَيْضًا الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ
الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلُوَيْتِ صَاحِبِ سِرْقَسْطَةَ
فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مَوْشَحَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا ،

جَرِدَ الدُّيْلَ أَيْمًا جَرَّ وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ
فَطَرَبَ الْمَمْدُوحُ لِلذِّكْرِ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ ،

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النُّصْرِ لِأَمِيرِ الْعَلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلْحِينَ سَمِعَ ابْنَ تَيْفَلُوَيْتِ صَاحٍ ، وَاطْرَبَاهُ ، وَشَقَّ ثِيَابَهُ
وَقَالَ ، مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفَ بِالْإِيمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ
بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الدُّهَبِ . فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاخْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا
فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ . وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي
بَكْرٍ بْنِ زُهَيْرٍ ذَكَرَ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْيَضَ الْوُشَاحَ الْمُتَقَدِّمَ الذِّكْرَ فَعَصَّ مِنْهُ بَعْضُ
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَعَصُّ مِنْ مَنْ يَقُولُ :

(١) وفي نسخة أخرى : بدر .

(٢) وفي نسخة أخرى : حرق .

مَا لَذَلِي شَرَابٌ رَاحَ « عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصِيلِ » أَضْحَى يَقُولُ ؛
 وَلِلشَّمَالِ « هَبَّتْ فَمَالِ
 مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا » يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا
 بَرْدٌ غَلِيلٌ « صَبُّ عَلِيلٍ
 وَلَا يَزَالُ » فِي كُلِّ حَالٍ

لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَاحِ « إِذَا أَسَا ^(١) فِي الصَّبَاحِ
 مَا لِلشَّمُولِ « لَطَمَتْ خَدَيَّ ؟
 غَصْنُ اغْتِدَالٍ « ضَمُّهُ بُرْذِي
 يَا لِحِظَةِ رُدِّ نُوبَا « وَيَا لِمَاءِ الشَّنِيبَا
 لَا يَسْتَحِيلُ « فِيهِ عَنِّ عَهْدِي
 يَرْجُو الْوَصَالَ « وَهُوَ فِي الصَّدِّ

وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْقَضِي بْنِ
 شَرْفٍ . قَالَ الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ : رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِتَاحِ .
 شَمْسٌ قَارَبَتْ بِسَدْرًا رَاحَ وَنَوْدِيمٌ
 وَابْنُ بَهْرُودَسِ الَّذِي لَهُ :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسَّعُودِ بِاللَّهِ عَوْدِي
 وَابْنُ مُؤَهَّلِ الَّذِي لَهُ :

مَا الْعَيْدُ فِي حَلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٌّ وَطَيْبٌ . وَإِنَّمَا الْعَيْدُ فِي التَّلَاقِي . مَعَ الْحَبِيبِ .

وَأَبُو إِسْحَاقَ الرَّؤِينِيُّ ^(٢) قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ
 يَقُولُ : إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهَيْرٍ ^(٣) وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحُصْنِ
 سَبْتَةَ ؛ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ . وَجَرَّتِ الْمُحَاضِرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ
 مُوشِحَةً وَقَعَ فِيهَا :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي « مِنْ مُقْلَةٍ الْفَجْرُ « عَلَى الصَّبَاحِ
 وَمَعْصَمُ النَّهْرِ « فِي حُلِّ خُضْرٍ « مِنْ الْبَطَاحِ

(١) وفي نسخة أخرى ، إذا أتى . وفي نسخة ثانية إذا انشأ .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الرديني .

(٣) وفي نسخة أخرى ، ابن زهر .

(٤) وفي نسخة أخرى ، حصن لسته .

فَتَحْرَكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ ، اخْتَبِرْ ! قَالَ ، وَمَنْ تَكُونُ ؟
فَعَرَفَهُ ، فَقَالَ ، ازْتَفَعُ فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ
هُوَ لَأَبُو بَكْرٍ بِنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَفْتُ مَوْشِحَاتَهُ وَغَرَّبْتُ ، قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ
سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبَدَعُ وَأَرْفَعُ مَا وَقَعَ لَكَ فِي
التَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ ،

مَا لِلْمَوْلَى مِنْ سَكْرِهِ لَا يُفِيقُ . يَا لَهُ سَكْرَانِ . مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ . مَا لِلْكُتَيْبِ الْمَشُوقِ .
يَنْدُبُ الْأَوْطَانَ .

هل تستعاذ . أيامنا بالخليج . وليالينا
أو نستفاد . من النسيم الأريج . منك دارينا
أو هل يكاذ . حُسنُ المكانِ البهيح . أن يُحيينا ؟
رَوْضُ أَظْلَةٍ . دَوْحٌ عَلَيْهِ أَيْقُ . مُورِقُ الْأَفْنَانِ . وَالْمَاءُ يَجْرِي . وَعَائِمٌ وَغَرِيقُ .
مِنْ جَنَى الرِّيحَانِ .

وَاشْتَهَرَ بَعْدَهُ ابْنُ حَيُّونَ الَّذِي لَهُ مِنَ الرَّجْلِ الْمَشْهُورِ قَوْلُهُ ،

يُفَوِّقُ سَهْمَهُ كُلَّ حِينٍ بِمَا شِئْتَ مِنْ يَدٍ وَعَيْنٍ
وَيُنْشِدُ فِي الْقَصِيدِ :

خَلَقْتَ مَلِيحَ عَلِمْتَ رَامِي فَلَئْسَ تَخْلُ سَاعٍ مِنْ قِتَالِ
وَتَعْمَلُ بِإِذِي الْعَيْنَيْنِ مَتَاعِي مَا تَعْمَلُ يَدِي بِالْبِتَالِ

وَاشْتَهَرَ مَعَهُمَا يَوْمَئِذٍ بَعْرَانَاطَةُ الْمُهْرُ بْنُ الْفَرَسِ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ . وَلَمَّا سَمِعَ
ابْنَ زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

لِلَّهِ مَا كَانَ مِنْ يَوْمٍ بَهِيحٍ بِنَهْرٍ حِمَصٍ عَلَى تِلْكَ الْمُرُوجِ
ثُمَّ انْقَطَعْنَا عَلَى قَمِّ الْخَلِيجِ نَقُضُ فِي حَانِهِ مِسْكَ الْخِتَامِ

عَنْ عَسَجِدَ زَانَهُ صَافِي الْمَدَامِ وَرَدَاءَ الْأَصِيلِ ضَمَّهُ كَفَّ الظَّلَامِ
قَالَ ابْنُ زَهْرٍ : أَيْنَ كُنَّا نَحْنُ عَنْ هَذَا الرِّدَاءِ وَكَانَ مَعَهُ فِي بَلَدِهِ مَطْرَفٌ . أَخْبَرَ
ابْنَ سَعِيدٍ عَنْ وَالِدِهِ أَنَّ مَطْرَفًا هَذَا دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفَرَسِ فَقَامَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ . فَقَالَ ،
لَا تَفْعَلْ ، فَقَالَ ابْنُ الْفَرَسِ : كَيْفَ لَا أَقُومُ لِمَنْ يَقُولُ ،

قُلُوبٌ تَصَابُ بِالْحَاظِ تُصِيبُ فَقُلْ كَيْفَ تَبْقَى بِسِلَا وَجَدٍ
وَبَعْدَ هَذَا ابْنُ حَزْمُونَ بِمَرْسِيَةِ . ذَكَرَ ابْنُ الرَّائِسِ أَنَّ يَحْيَى الْخَزْرَجِيَّ دَخَلَ
عَلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ فَأَنشَدَهُ مَوْشِحَةً لِنَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ حَزْمُونَ : لَا يَكُونُ الْمَوْشِحُ
بِمَوْشِحٍ حَتَّى يَكُونَ عَارِيًا عَنِ التَّكْلِيفِ . قَالَ عَلَى مِثْلِ مَاذَا ؟ قَالَ عَلَى مِثْلِ قَوْلِي ،

يَا هَاجِرِي هَلْ إِلَى الْوَصَالِ مِنْكَ سَبِيلُ
أَوْ هَلْ تَرَى عَنْ هَوَاكَ سَالِي قَلْبُ الْعَالِي

وَأَبُو الْحَسَنِ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ يِفْرَنْاطَةَ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ كَانَ وَالِدِي يَعْجَبُ
بِقَوْلِهِ ،

إِنَّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَخْرًا فِي أَجْمَعِ الْأَفْقِ
فَتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوَرَقِ

أَتْرَاهَا خَافَتْ مِنَ الْفَرْقِ فَبَكَتْ سَخْرَةَ عَلَى الْوَرَقِ

وَأَشْتَهَرَ بِأَشْبِيلِيَّةٍ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفَضْلِ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ عَنْ
وَالِدِهِ ، سَمِعْتُ سَهْلَ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَهُ ، يَا ابْنَ الْفَضْلِ لَكَ عَلَى الْوَشَاحِينَ الْفَضْلُ
بِقَوْلِكَ ،

وَاحْسَرْتَنَا لِزَمَانٍ مَضَى عَشِيَّةً بِأَنَّ النَّهْيَ وَانْقَضَى
وَأَفْرَدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرَّضَى وَبِتُّ عَلَى جِمْرَاتِ الْفَضَى
أَعَانِقُ بِالْمَكْرِ تِلْكَ الطَّلُولِ وَالنَّمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومُ

قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنِ الصَّابُونِيِّ يُنْشِدُ الْأَشْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ الدَّبَّاجَ
مَوْشَخَاتِهِ غَيْرَ مَا مَرَّةً . فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ اللَّهُ ذَرَكٌ . إِلَّا فِي قَوْلِهِ :

قَسَمًا بِالْهَوَى لِنَدَى حِجْرٍ مَا لِلَّيْلِ الْمَشُوقِ مِنْ فَجْرِ
جَمَدِ الصُّبْحِ لَيْسَ يُطْرَدُ مَا لِلَّيْلِ فِيمَا أَظُنُّ غَدًا إِصْحَاحُ يَا لَيْلُ إِنَّكَ الْأَبْدُ
أَوْ قَفَصَتْ قَوَادِمُ النُّسْرِ فَنُجُومُ السَّمَاءِ لَا تُشْرِي
وَمِنْ مَخَاسِنِ مَوْشَخَاتِ ابْنِ الصَّابُونِيِّ قَوْلُهُ :

مَا خَالَ صَبِّ ذِي ضَنْىٍ وَآكْتَابِ
عَامِلُهُ مَحْبُوبُهُ بِاجْتِنَابِ
جَفَا جُفُونِي النَّوْمُ لَكُنِّي
وَذَا الْوَصَالِ الْيَوْمَ قَدْ غَرَّنِي
أَمْرُضُهُ يَا وَيْلَتَاهُ الطَّبِيبِ
ثُمَّ أَقْتَدَى فِيهِ الْكُرَى بِالْحَبِيبِ
لَمْ أَبْكِهِ إِلَّا لَفَقْدِ الْخِيَالِ
مِنْهُ كَمَا شَاءَ وَشَاءَ الْوَصَالِ
بَصُورَةَ الْحَقِّ وَلَا بِالْمُخَالَ
فَلَسْتُ بِاللَّائِمِ مِنْ صَدْنِي

وَاشْتَهَرَ بِبِرِّ أَهْلِ الْعُدُوةِ ابْنُ خَلْفِ الْجَزَائِرِيِّ صَاحِبِ الْمَوْشَخَةِ الْمَشْهُورَةِ .
يَذُ الْأَصْبَاحِ قَدَحَتْ زَنَادِ الْأَنْوَارِ فِي مَجَامِرِ الزَّهْرِ
وَإِنَّ خَرَزَ النَّجَائِيَّ وَلَهُ مِنْ مَوْشَخَةٍ :

ثَغُرَ الزَّمَانِ مُوَافِقَ حَبَاكَ مِنْهُ بِإِتْسَامِ
وَمِنْ مَخَاسِنِ الْمَوْشَخَاتِ لِلْمَتَأَخِّرِينَ مَوْشَخَةُ ابْنِ سَهْلِ شَاعِرِ أَشْبِيلِيَّةٍ وَسَبْتَةَ
مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ :

هَلْ دَرَى ظَبْيِي الْجَمَى أَنْ قَدْ حَمَى
فَهُوَ فِي نَارٍ وَخَفَقَ مِثْلَ مَا
قَلَسَ صَبِّ حَلَهُ عَنْ مَكْنَسِ
لِعَبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ
الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِعَضْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ :

جادك العَيْثُ إِذَا الْعَيْثُ هَمَى
 لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا خَلَمَا
 إِذْ يَقْوَدُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَنَى
 زَمِراً يَبِينُ فِرَادَى وَثَنَا
 وَالْحَيَاقِدُ جَلَّلَ الرُّوضِ سَنَى
 وَرَوَى النُّعْمَانَ عَن مَاءِ السَّمَاءِ
 فَكَسَاةَ الْحُسْنِ ثُوباً مُعَلَّمَا
 فِي لَيَالٍ كَتَمْتَ سِرَّ الْهَوَى
 مَالِ نَجْمِ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
 وَطَرٌّ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سَوَى
 حِينَ لَدَّ النَّوْمُ مِثْلًا^(١) أَوْ كَمَا
 غَارَتْ الشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا
 أَيُّ شَيْءٍ لَامِرِيءٍ قَدْ خَلَصَا
 تَنَهَبَ الْأَزْهَارَ فِيهِ الْفُرْصَا
 فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْحَصَا
 تَبَصَّرَ الْوَرْدَ غَيُوراً بَرَّمَا
 وَتَرَى الْآسَ لَيْبِياً فَمَهَا
 يَا أَهْيَلُ الْحَيِّ مِنْ وَاوِي الْعَضَا
 ضَاقَ عَن وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفَضَا

يَا زَمَانَ الْوُضَلِ بِالْأَنْدَلَسِ
 فِي الْكُرَى أَوْ خَلْسَةَ الْمُخْتَلَسِ
 يَنْقُلُ الْخَطْبُ وَعَلَى مَا يَرْسَمُ
 مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ^(٢) الْمَوْسِمُ
 فَتُغْوِرُ الزَّهْرَ^(٣) فِيهِ تَبَسُّمُ
 كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَن أَنَسٍ ؟
 يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
 بِالذُّجَى لَوْلَا شَمُوسُ الْغُرُرِ^(٤)
 مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعَدَ الْأَثَرُ
 أَنَّهُ مَرَّ كَلْمَجَ الْبَصْرِ
 هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومًا^(٥) الْخَرَسِ
 أَثَرَتْ فِينَا عَيْوُنُ النَّرْجِسِ
 فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
 أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
 وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
 يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
 يَسْرِقُ الدَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ
 وَيَقْلِبِي مَشْكِنًا أَنْتُمْ بِهِ
 لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ

(١) وفي نسخة أخرى : الحجيج .

(٢) وفي نسخة أخرى : الأزهار .

(٣) وفي نسخة أخرى : القدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : شيئاً . نجوم .

فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدَّمَضَى
وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مَغْرَمًا
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
وَبِقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبٌ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبٌ
سَاحِرٌ^(٣) الْمُقْلَةَ مَعْسُولَ اللَّمَى
سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَضْمَى إِذْ رَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوْلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلٌ
حَكَمَ اللَّخْطُ بِهَا فَاحْتَكَمَا
يُنْصَفُ الْمَظْلُومُ مِنْ ظَلَمَا
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
كَانَ فِي اللُّوحِ لَهُ مَكْتَتَبَا
جَلَبَ الِهْمَ لَهُ وَالْوَصْبَا
لَاعَجَ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا
لَمْ يَدْعُ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا الدَّمَا^(٦)

تُنْقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ^(١)
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسٍ
أَفْتَرَضُونَ خَسْرَابَ الْحَبْسِ^(٢)
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ يَعِيدُ
شَقْوَةَ الْمَغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ
جَالٌ فِي النَّفْسِ مَجَالُ النَّفْسِ
بِفُؤَادِي تَبْلِسَةُ الْمُفْتَرَسِ^(٤)
وَفُؤَادُ الصَّبِّ بِالشُّوقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبُ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ
لَمْ يُرَاقِبْ^(٥) فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
وَيَجَازِي الْبِرَّ مِنْهَا وَالْمَسِي
عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ ؟
قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدُ
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ النَّيْسِ
كَبْقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْعَلْسِ

(١) وفي نسخة أخرى : تنقدوا عانذك . الخ وفي النسخة الباريسية ، تمتقوا عانيكم من كربه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : افترضون غفاء الحبس .

(٣) وفي نسخة أخرى ، احور المقله .

(٤) وفي نسخة أخرى : سدد السهم وسمى ورمى ففؤادي نبهة المفترس

(٥) لم يراقب ، أي لم يحاذر الله .

(٦) وفي نسخة أخرى : ذما والذماء ، بقية الروح

سَلِمِي يَا نَفْسَ فِي حُكْمِ الْقَضَا وَاعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابِ
 وَأَتْرُكِي^(١) ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُنْبِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ
 وَأَصْرِي الْقَوْلَ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
 الْكَرِيمِ الْمُنتَهَى وَالْمُنْتَمَى أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ
 يَنْزِلُ النَّصْرَ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يَنْزِلُ الْوَحْيَ بِرُوحِ الْقُدْسِ

وَأَمَّا الْمَشَارِقَةُ فَالْتَكْلُفُ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَانُوهُ مِنَ الْمَوْشِحَاتِ . وَمَنْ أَحْسَنَ
 مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مَوْشِحَةٌ ابْنِ سِنَاءِ الْمَلِكِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَأَوْلَاهَا .

حبیبی ارفع حجاب النور عن العذار
 تنظر المسك على كافور في جلتار
 كللی یا سحَب تيجان الرُبی بالحلی واجعلی

سوارها منعطف الجدول

وَلَمَّا شَاعَ فَنُ التَّوَشِيحِ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ ، لِسَلَاسَتِهِ وَتَنَمِيقِ
 كَلَامِهِ وَتَرْصِيعِ أَجْزَائِهِ ، نَسَجَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَنَظَّمُوا فِي
 طَرِيقَتِهِ بَلْغَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَزِمُوا فِيهَا إِعْرَابًا . وَاسْتَحْدَثُوا فَنَاءَ سَمُوهُ
 بِالزَّجَلِ ، وَالتَّزَمُوا النِّظْمَ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهِمْ . لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَجَاءُوا فِيهِ بِالْفَرَائِبِ
 وَاتَّسَعَ فِيهِ لِلْبَلَاغَةِ مَجَالٌ بِحَسَبِ لُغَتِهِمُ الْمُسْتَعْجِمَةِ .

وَأَوَّلُ مَنْ أَبْدَعَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . الزَّجَلِيَّةُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ قَزَمَانَ ، وَإِنْ كَانَتْ
 قِيلَتْ قَبْلَهُ بِالْأَنْدَلُسِ ، لَكِنْ لَمْ يَظْهَرَ خِلَاهَا ، وَلَا انْتَسَبَتْ مَعَانِيهَا وَاشْتَهَرَتْ
 رِشَاقَتَهَا إِلَّا فِي زَمَانِهِ . وَكَانَ لِعَهْدِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ إِمَامُ الزَّجَالِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ .
 قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ، وَرَأَيْتُ أَرْجَالَه مَرْوِيَّةً يَبْغَدَادَ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِحَوَاضِرِ الْمَغْرِبِ .
 قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنِ جُحْدَرِ الْأَشْبِيلِيِّ ، إِمَامَ الزَّجَالِينَ فِي عَضْرَانَا يَقُولُ ،

(١) وفي نسخة أخرى ، ودعي .

مَا وَقَعَ لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ هَذَا الشَّانِ مِثْلَ مَا وَقَعَ لِابْنِ قَرْمَانَ شَيْخِ الصَّنَاعَةِ . وَقَدْ
خَرَجَ إِلَى مُنْتَزَعِهِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ، فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ تَمَثَّلَ أَسَدٌ مِنْ
رُخَامٍ يُصَبُّ الْمَاءَ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحٍ مِنَ الْحَجَرِ مُتَدَرِّجَةً فَقَالَ :

وَعَرِيشٌ قَدْ قَامَ عَلَى دَكَانٍ	بِحَالِ رِوَاقٍ
وَأَسَدٌ قَدْ ابْتَلَعَ ثَعْبَانَ	مِنْ غَلْظِ سَاقٍ
وَفَتَحَ فَمَهُ بِحَالِ إِنْسَانٍ	بِيهِ الْفِرَاقُ
وَانْطَلَقَ مِنْ ثَمَّ عَلَى الصَّفَاحِ	وَأَلْقَى الصِّيَاحُ

وَكَانَ ابْنُ قَرْمَانَ . مَعَ أَنَّهُ قُرْطُبِيُّ الدَّارِ . كَثِيرًا مَا يَتَرَدَّدُ إِلَى إِسْبِيلِيَّةٍ وَبَيْتَابِ
نَهْرَهَا . فَاتَّفَقَ أَنْ اجْتَمَعَ ذَاتَ يَوْمٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْلَامِ هَذَا الشَّانِ . وَقَدْ رَكِبُوا فِي النَّهْرِ
لِلنُّزْهِةِ . وَمَعَهُمْ غَلَامٌ جَمِيلٌ الصُّورَةِ مِنْ سُرَوَاتِ أَهْلِ الْبَلَدِ وَبُيُوتِهِمْ . وَكَانُوا
مُجْتَمِعِينَ فِي زُرْقٍ لِلصَّيْدِ ؛ فَنَظَّمُوا فِي وَصْفِ الْحَالِ . وَبَدَأَ مِنْهُمْ عَيْسَى الْبَلِيدِيُّ
فَقَالَ :

يَطْمَعُ بِالْخِلَاصِ قَلْبِي وَقَدْ فَاتُوا	وَقَدْ ضَمَنِي عَشَقُوا لَشَهْمَاتُوا
تَرَاهُ قَدْ حَصَلَ مَسْكِينٌ مَحَلَاتُوا	يَغْلُقُ وَكَذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ صَابَاتُوا
تَوْحَشَ الْجَفُونَ الْكَحْلُ إِنْ غَابُوا	وَذِيكَ الْجَفُونَ الْكَحْلُ أَبْلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَمْرٍو بِنِ الْزَاهِرِ الْأَشْبِيلِيِّ :

نَشِبَ وَالْهَوَى مِنْ لَجٍ فِيهِ يَنْشِبُ	تَرَى آيْشَ دَعَاهُ يَشْقَى وَيَتَعَذَّبُ
مَعَ الْعَشَقِ قَامَ فِي الْبَالَوَانِ يَلْعَبُ	وَخَلَقَ كَثِيرٌ مِنْ ذَا اللَّعْبِ مَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُقَرَّبِيُّ الدَّانِيُّ :

نَهَارٌ مَلِيحٌ يَعْجِبُنْ أَوْصَافُوا	شَرَابٌ وَمَلَاخٌ مِنْ حَوْلِي قَدْ طَافُوا
وَالْقَلْبَيْنِ يَقُولُ مِنْ فَوْقِ صَفْصَافُوا	وَالْبُورِيِّ أُخْرَى فُقَلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ مَرَّتَيْنِ :

الحق تريد حديث بقالي عاد
لسنا حيتان ذيك الذي يصطاد
في الواد النزيه والبوري والصيد
قلوب الورى هي في شبكاتو

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ قَرْمَانِ :

إذا شمر كاممو يرميها
وليس مرادو أن يقع فيها
ترى البوري يرشق لذاك الجيها
إلا أن يقبل بدياتو
وكان في عصرهم بشرق الأندلس مخلف الأسود ، وله محاسن من الزجل منها

قَوْلُهُ :

قد كنت منشوب واختشيت النشب
حتى تنظر الخد الشريق البهي
يا طالب الكيميا في عيني هي
وردني ذا العشق لأمر صعب
تنتهي في الخمر إلى أنني
تنظر بها الفضة وترجع ذهب

وَجَاءَتْ بَعْدَهُمْ حَلْبَةٌ كَانَ سَابِقُهَا
الطَّرِيقَةُ ، فَمِنْ قَوْلِهِ فِي زَجَلِهِ الْمَشْهُورِ :

ورذاذ دق ينزل
فترى الواحد يفضض
والنبات يشرب ويسكر
وتريسد تجي إلينا
وشعاع الشمس يضرب
وترى الآخر يذهب
والغصون ترقص وتطرب
ثم تستحي وتهرب

وَمِنْ مَحَاسِنِ أَرْجَالِهِ قَوْلُهُ :

لاح الضيا والنجوم حيارى
شربت ممزوج من قراعا
يامن يلمني كما تقلد
فقم بنا نزع الكسل
أحلى هي عندي من العسل
قلدك الله بما تقول

يقول بان الذنوب تولد وأنه يفسد العقول
 لارض الحجاز مورىكن لك أرشد ايش ما ساقك معي في ذا الفضول
 مر أنت للحج والزيارا ودعني في الشرب منهمل
 من ليس لو قدره ولا استطاع النية أبلغ من العمل
 وظهر بعد هؤلاء بأشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الرجالين في فتح
 ميورقة بالرجل الذي أوله هذا :

من عاند التوحيد بالسيف يمحق أنا بري ممن يعاند الحق
 قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المغمع صاحب الرجل المشهور الذي
 أوله :

يا ليتني ان رأيت حبيبي أقتل اذنو بالرسلا
 ليش أخذ عنق الغزير وسرق فم الحجيلا
 ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب . ثم من بعدهم
 لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة
 الإسلامية غير مدافع . فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس واملاي تجدد ما خلق المال إلا أن يندد
 ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششيري منهم :
 بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول
 ومضى من لم يكن وبقي من لم يزول
 ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعد عنك يا بني أعظم مصايبي وحين حصل لي قربك سببت قاربي

وَكَانَ لِعَصْرِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ بِالْأَنْدَلُسِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ مِنْ أَهْلِ
وَادِي آشٍ ، وَكَانَ إِمَامًا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَهُ مِنْ زَجَلٍ يُعَارِضُ بِهِ مُتَعَلِّيسَ فِي
قَوْلِهِ :

لاح الضياء والنجوم حيارى بقوله :

حل المجون يا أهل الشطارا	مذحلت الشمس في الحمل
تجددوا كل يوم خلاعا	لا تجعلوا بينها ثمل
إليها يتخلعوا في شنبيل	على خضورة ذلك النبات
وحل بغداد واجتياز النيل	أحسن عندي من ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من أربعين ميل	ان مرت الريح عليه وجات
لم تلتق الغبار امارا	ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولاش فيه موضع رقاعا	إلا ونسرح فيه النحل

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الزَّجَلِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ هِيَ فَنُ الْعَامَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الشَّعْرِ ، وَفِيهَا
نَظْمُهُمْ حَتَّى أَنْتَهُمْ لِيَنْظُمُونَ بِهَا فِي سَائِرِ الْبُحُورِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ ، لَكِنْ يُلْفَتُهُمُ الْعَامِيَّةُ
وَيُسَمَّوْنَ الشَّعْرَ الزَّجَلِيَّ مِثْلَ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

دهر لي نعشق جفونك وسنين	وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف يرجع	صنعة السكة بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب	والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصرى للغزو	وأنت تغزو قلوب العاشقين

وَكَانَ مِنَ الْمُجِيدِينَ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمَائَةِ الْأَدِيبِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
الْوَشِيَّ وَلَهُ فِيهَا قَصِيدَةٌ يَمْدَحُ فِيهَا السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ :

طل الصباح قم يا نديمي نشربو	ونضحكو من بعد ما نظر بو
سبيكة الفجر أحكت شفق	في ميلق الليل فقم قلبو

ترى عيارها خالص أبيض نقي
فتنتفق سكتوا عند البشر
فهو النهار يا صاحبي للمعاش
والليل أيضاً للقبل والعناق
جاد الزمان من بعدما كان بخيل
كما جرع مرو فما قد مضى
قال الرقيب يا أدبا إيش ذا
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر
نعشق مليح الا رقيق الطباع
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب
أما الكاس فحرام نعم هو حرام
ويد الذي يحسن حسابه ولم
وأهل العقل والفكر والمجون
ظبي بهي فيها يطفى الجمر
غزال بهي ينظر قلوب الأسود
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكوا
فميم كالخاتم وثغر نقي
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان
وشارب أخضر يريد لاش يريد
يسبل دلال مثل جناح الغراب
على بدن أبيض بلون الحليب
وزوج هندات ما علمت قبلها
تحت العكاكن منها خصر رقيق

فضة هو لكن الشفق ذهبو
نور الجفون من نورها يكسبو
عيش الغني فيه بالله ما أطيبو
على سرير الوصل يتقلبو
ولش ليفلت من يديه عقربو
يشرب بيننو وياكل طيبو
في الشرب والعشق ترى ننجبو
فقلت يا قوم من ذا تتعجبوا
علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
يفض بكرو ويدع ثيبو
على الذي ما يدري كيف يشربو
يقدر يحسن الفاظ أن يجلبوا
يفغر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
وقلبي في جمر الغضى يلهبو
وبالوهم قبل النظر يذهبوا
ويفرحوا من بعدما يندبوا
خطيب الأئمة للقبل يخطبو
قد صفه الناظم ولم يثقبو
من شبهه بالسك قد عيبو
ليالي هجري منه يستغربوا
ما قط راعي للغنم يجلبوا
ديك الصلايا ريت ما أصلبو
من رقتو يخفي إذا تطلبوا

جديد عتبك حق ما أكذبو
من يتبعك من ذا وذا تسلبوا
حين ينظر العاشق وحين يرقبو
في طرف ديسا والبشر تطلبو
وحين تغيب ترجع في عيني تبو
أو الرمل من هو الذي يحسبو
من فصاحة لفظه يتقربو
ومع بديع الشعر ما أكتبو
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
فمن يعدّ قلبي أو يحسبو
الغيث جودو والنجوم منصبو
الاغنيا والجنود حين يركبو
منه بنات المعالي تطيبوا
قاصد ووارد قط ما خيبوا
لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو
من بعد ما كان الزمان خربو
فمع سماحة وجهو ما أسيو
غلاب هو لا شي في الدنيا يغلبو
فليس شيء يعني من يضربو
للسلطنة اختار واستنخبو
يقود جيوشو ويزين موكبو
نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا
يطلعوا في المجد ولا يغربوا

أرق هو من ديني فيما تقول
أي دين بقالي معاك وأي عقل
تحمل ارداف ثقال كالرقيب
ان لم ينفس عدر أو ينقشع
يصير إليك المكان حين تجي
محاسنك مثل خصال الأمير
عماد الأمصار وفضيح العرب
بحمل العلم انفرد والعمل
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه
من السماء يحسد في أربع صفات
الشمس نورو والقمر همتو
يركب جواد الجود ويطلق عنان
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب
نعمتو تظهر على كل من يجيه
قد أظهر الحق وكان في حجاب
وقد بنى بالسر ركن التقى
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة
إذا جيد سيفه ما بين الردود
وهو سمي المصطفى والاله
تراه خليفة أمير المؤمنين
لذي الإمارة تخضع الرؤوس
ببيتته بقى بدور الزمان

وفي المعالي والشرف يبعدوا
والله يقيهم ما دار الفلك
وفي التواضع والحياء يقربوا
وأشرقت شمسه ولاح كوكبو
يا شمس خدر ما لها مغربو

ثُمَّ اسْتَحَدَّتْ أَهْلَ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ فَنَا أَحْرَمَ مِنَ الشَّعْرِ ، فِي آغَارِيضِ مُزْدَوِجَةٍ
وَسُحِّحَ ، نَظْمُوا فِيهِ بِلَفْتِهِمُ الْحَضْرِيَّةَ أَيْضًا وَسَمَّوْهُ عُرُوضَ الْبَلَدِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
بَدَأَهُ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ نَزَلَ بِفَاسٍ يُعْرَفُ بِابْنِ عُمَيْرٍ ، فَنَظَمَ قِطْعَةً
عَرِيقَةَ الْمَوْشِحِ وَلَمْ يَخْرُجْ فِيهَا عَنْ مَذَاهِبِ الْإِعْرَابِ إِلَّا قَلِيلًا مَطْلَعَهَا ،

اني بشاطي النهر نوح الحمام
، السحر يمحو مداد الظلام
ت الرياض والطل فيها افتراق
ع النواعر ينهرق انهراق
الفصون خلخال على كل ساق
، الندى تخرق جيوب الكمام
الصبا يطلى بمسك الغمام
الحمام بين الورق في القضيبي
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب
ولكن بما أحمر وساقو خضيب
جلس بين الأغصان جلسة المستهام
وصار يشككي ما في الفؤاد من غرام
قلت يا حمام احرمت عيني الهجوع
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع
على فرخ طار لي لم يكن لورجوع
كذا هو الوفا وكذا هو الزمام

على الغصن في البستان قريب الصباح
وماء الندى يجري بشجر الاقاح
كثير الجواهر في نحور الجوار
يحاكي ثعابين حلقمت بالثمار
ودار الجميع بالروض دور السوار
ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وجرّ النسيم ذيلو عليها وفاح
قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
قد التف من توبو الجديد في ردا
ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جناحا توسد والتوى في جناح
منها ضمّ منقاره لصدرة وصاح
أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
بلا دمع نبقي طول حياتي ننوح
ألفت البكا والحزن من عهد نوح
انظر جفون صارت بحال الجراح

يقول عناني ذا البكا والنواح
 كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
 ما كان يصير تحتك فروع الغصون
 حتى لا سبيل جملة تراني العيون
 أخفاني نحولي عن عيون اللواح
 ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
 من خوفي عليه ودا النفوس للفؤاد
 طوق العهد في عنقي ليوم التناد
 باطراف البلد والجسم صار في الرماد

وأنتم من بكى منكم إذا تم عام
 قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى
 ولو كان يقلبك ما بقلبي أنا
 اليوم تقاسي الهجر كم من سنا
 ومما كسا جسمي النحول والسقام
 لو جتنى المنايا كان يموت في المقام
 قال لي لو رقدت لاوراق الرياض
 وتخضبت من دمعي وذاك البياض
 أما طرف منقاري حديثو استفاض

فَأَسْتَحْسِنُهُ أَهْلُ فَاسٍ وَوَلَعُوا بِهِ وَنَظَمُوا عَلَى طَرِيقَتِهِ . وَتَرَكُوا الْإِعْرَابَ الَّذِي
 لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ . وَكَثُرَ سَمَاعُهُ بَيْنَهُمْ وَاسْتَفْحَلَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَنَوْعُوهُ أَصْنَافاً إِلَى
 الْمُرْدُوجِ وَالْكَازِي وَالْمَلْعَبَةِ وَالْفَزْلِ . وَاخْتَلَفَتْ أَسْمَاؤُهَا بِاخْتِلَافِ زِدْوَانِهَا
 وَمُلَاحَظَاتِهِمْ فِيهَا . فَمِنْ الْمُرْدُوجِ مَا قَالَهُ ابْنُ شِجَاعٍ مِنْ فَصُولِهِمْ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ
 تَارَا .

يبهي وجوها ليس هي باهيا
 ولسوه الكلام والرتبة العاليسا
 ويصغر عزيز القوم اذ يفقر
 وكاد ينقع لولا الرجوع للقدر
 لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
 ويصغ عليه ثوب فراش صافيا
 وصار يستفيد الواد من الساقيا
 ما يدروا على من يكثر واذ العتاب
 ولو رأيت كيف يرده الجواب

المال زينة الدنيا وعز النفوس
 فها كل من هو كثير الفلوس
 يكبر من كثر مالو ولو كان صغير
 من ذا ينطبق صدري ومن ذاتغير
 حتى يلتجي من هو في قومو كبير
 لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس
 اللي صارت الاذئاب أمام الرؤوس
 ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان
 اللي صار فلان يصبح بو فلان

عشنا. والسلام حتى رأينا عيان
كبار النفوس جدًا ضعاف الاسوس
يروأنهم والناس يروهم تيسوس
أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
هم ناحيا والمجد في ناحيا
وجوه البلد والعمدة الراسيا

وَمِنْ مَذَاهِبِهِمْ قَوْلُ ابْنِ شُجَاعٍ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ مَزْدُوجَاتِهِ ،

تعب من تعب ذا الزمان
ما منهم مليح عاهد الا وخان
يهبوا على العشاق ويتمنعوا
وان واصلوا من حينهم يقطعوا
مليح كان هويتو وشت قلبي معو
ومهدت لو من وسط قلبي مكان
وهون عليك ما يعتريك من هوان
حكمتوا علي وارترضيت بو أمير
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير
ويحتل في مطلو لوان كان
ويمشي بسوق كان ولو باصبهان

اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان عاهدوا خانوا على كل حال
وصيرت من خذي لقدمو نعال
وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
فلا بد من هول الهوى يعتريك
فلو كان يرى حالى اذا يبصرو
مرديه ويتعطس بحال انحرو
ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
عصر في الربيع أو في الليالي يريك
وايش ما يقل يحتاج لو يجيك

حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا .

وَكَانَ مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ الْمُؤَدِّ بْنِ يَتْلِمِسَانَ ، وَكَانَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْقُرَيْبِيَّةِ مِنْ
فَحُولِهِمْ بَزْرَهُونَ مِنْ ضَوَاحِي مَكْنَسَةِ رَجُلٍ يُعْرَفُ بِالْكَفِيفِ ، أُنْدَعُ فِي مَذَاهِبِ
هَذَا الْفَنِّ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا عَلِقَ لَهُ بِمَحْفُوظِي قَوْلُهُ فِي رِخْلَةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ
وَبَنِي مَرِينٍ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ يَصِفُ هَزِيمَتَهُمْ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَيُعْزِيهِمْ عَنْهَا وَيُؤْنِسُهُمْ بِمَا
وَقَعَ لغيرهم بعد أن عيبتهم على عزاتهم إلى إفريقيَّة في ملعبه من فنون هذه الطريقة

يَقُولُ فِي مُفْتَتِحِهَا . وَهُوَ مِنْ أْبْدَعِ مَذَاهِبِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَشْعَارِ بِالْمَقْصِدِ فِي مَطْلَعِ
الْكَلَامِ وَافْتِتَاحِهِ وَيُسَمَّى بَرَاغَةَ الْإِسْتِهْلَالِ :

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها في كل حين. وزمان
ان طعنناه أعظم لنا نصرا وان عصيناه عاقب بكل هوان
إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص :

كن مرعى قل ولا تكن راعي فالراعي عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي للاسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع واذكر بعدهم اذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحرا ودوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغرا وين سارت بوغزايم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زتم وقطعتهم لسو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألکم المتلوف في افريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم ويدع برية الحجاز رغدا
قام قل للسد صادف الجزرا ويعجزشوط بعدما يخفان
ويذف كر دوم تهب في الغبرا أي ما زاد غزالهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا وبلاد الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها إلى غربا طبقا بحدديد أو ثانيا بصفر
لا بد الطير أن تجيب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا لو تقرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدرلسي بعقلك الفحاص وتفكر لي بخاطرك جمعا
ان كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شهر وقيله سبعا
تظهر عند المهيمن القصاص وعلامات تنشر على الصمعا

مجهولين لا مكان ولا امكان
 وكيف دخلوا مدينة القيروان
 قضية سيرنا إلى تونس
 واش لك في اعراب افريقيا القوبس
 الفاروق فاتح القرى المولس
 وفتح من افريقيا وكان
 ونقل فيها تفرق الاخوان
 صرح في افريقيا بهذا التصريح
 وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
 مات عثمان واتقلب علينا الريح
 وبقي ما هو للسكوت عنوان
 اش نعمل في اواخر الازمان
 وفي تاريخ كائنا وكيوانا
 شق وسطيح وابن مرانا
 لجدا وتونس قد سقط بنيانا
 عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
 لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان
 من حضرة فاس إلى عرب دياب
 سلطان تونس وصاحب الأبواب

الا قوم عاريين فلا ستر
 ما يدروا كيف يصوروا كسرا
 امولاي أبو الحسن خطينا الباب
 فقنا كنا على الجريد والزاب
 ما بلغك من عمرفتي الخطاب
 ملك الشام والحجاز وتاج كسرى
 رد ولدت لسو كره ذكرى
 هذا الفاروق مردي الاعوان
 وبقت حمى إلى زمن عثمان
 لمن دخلت غنائمها الديوان
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا
 اذا كان ذا في مدة البرارا
 وأصحاب الحضرة في مكناساتا
 تذكر في صحتها أبياتا
 ان مريم إذا تكف براياتا
 قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا
 قال لي رأيت وأنا بدا أدري
 ويقول لك ما دهى المرينيا
 أراد المولى بموت ابن يحيى

ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْحِيلِ السُّلْطَانِ وَجَيْوشِهِ . إِلَى آخِرِ رَحْلَتِهِ وَتَمَّتْهُيْ أَمْرُهُ . مَعَ
 أَغْرَابِ إِفْرِيقِيَّةٍ . وَأَتَى فِيهَا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ مِنَ الْإِبْدَاعِ . وَأَمَّا أَهْلُ تُونِسَ فَاسْتَحْدَثُوا
 فَنَ الْمَلْعَبَةِ أَيْضاً عَلَى لُغَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ رَدِيءٍ وَلَمْ يَغْلُقْ بِمُخْفُوظِي
 مِنْهُ شَيْءٌ لِرِذَائَتِهِ .

الموشحات والأزجال في المشرق

وَكَانَ لِغَامَةِ بَغْدَادٍ أَيْضاً فَنَ مِنَ الشِّعْرِ يُسْمَوْنَ الْمَوَالِيَا . وَتَحْتَهُ فُنُونٌ كَثِيرَةٌ يُسْمَوْنَ مِنْهَا الْقَوْمَا . وَكَانَ وَكَانَ . وَمِنْهُ مُفْرَدٌ وَمِنْهُ فِي بَيْتَيْنِ . وَيُسْمَوْنَ دَوْنَيْتَ عَلَى الْإِخْتِلَافَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا . وَغَالِبُهَا مُزْدَوِجَةٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أَعْصَانٍ . وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ وَأَتَوْا فِيهَا بِالْغَرَائِبِ . وَتَبَخَّرُوا فِيهَا فِي أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ بِمُقْتَضَى لَعْنَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةِ . فَجَاؤُوا بِالْعَجَائِبِ . وَرَأَيْتُ فِي دِيْوَانِ الصَّفِيِّ الْحَلْبِيِّ مِنْ كَلَامِهِ « أَنَّ الْمَوَالِيَا مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ . وَهُوَ ذُو أَرْبَعَةِ أَعْصَانٍ وَأَرْبَعِ قَوَافٍ . وَيُسَمَّى صَوْتاً وَبَيْتَيْنِ . وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ أَهْلِ وَاسِطِ . وَأَنَّ كَانَ وَكَانَ فَهُوَ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَوْزَانٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي أَشْطَارِهِ . الشُّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْبَيْتِ أَطْوَلُ مِنَ الشُّطْرِ الثَّانِيِ وَلَا تَكُونُ قَافِيَتُهُ إِلَّا مُرَدَّفَةٌ بِحَرْفِ الْعِلَّةِ وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الْبَغْدَادِيِّينَ . وَأَنْشَدَ فِيهِ لَنَا :

بِعَمْرِ الْحَوَاجِبِ حَدِيثُ تَفْسِيرٍ وَمُنُو أُوْبُو . وَأُمُّ الْأَخْرَسِ تُعْرِفُ بِلُغَةِ
الْخُرْسَانِ . « . إِنَّتَهَى كَلَامُ الصَّفِيِّ . وَمِنْ أَعْجَبَ مَا عَلِقَ بِحَفْظِي مِنْهُ قَوْلُ
شَاعِرِهِمْ :

هذي جراحي طريا	والدما تنضح
وقاتلي يا أخيا	في الفلا يمرح
قالوا وناخذ بشارك	قلت ذا أقبح
إلى جرحتي يداويتي	يكون أصلح

ولغيره .

طرقت باب الخبا قالت من الطارق	فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق	رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

ولغيره .

وان شكوت الهوى قالت فدتك المين
ذكرتها العهد قالت لك على دين

تفني عن الخمر والخمار والساقى
خببتها في الحشى طلت من احداقى

كم توجع القلب بالهجران أوّه أح
كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

جودي على بقبلة في الهوى يا مي
ما ظن ذا القطن يغشى فم من هوحى

ماط اللثام تبدي بدر في شرقه
رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ترعى النجوم وبالتسديد اقتانت
وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

عهدي بها وهي لا تأمن على البين
لمن يغاين لها غيري غلام الزين
ولغيره في وُضف الحشيش .

دي خمر صرف التي عهدي بها باقى
قحبا ومن قحبها تعمل على احراقى

يا من وصالو لأطفال المحبة بح
أودعت قلبي حوحو والتصبر بح

ناديتها ومسيبي قد طواني طي
قالت وقد كوت داخل فؤادي كي

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه
اسبل دجى الشعرتاه القلب في طرفه

يا حادي العيس ازجر بالمطاي ازر
وصيح في حيمهم يا من يريد الأجر

عيني التي كنت ارعاكم بها باتت
وأسهم البين صابنتي . ولا فانت

ولغيره .

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر غزال يبلى الاسود الضاريا بالفكر
غصن اذا ما انثنى يسبي البنات البكر وان تهلل فما للبدر عندو ذكر

وَمَنْ الَّذِي يُسْمَوْنَ دُوَيْتَ .

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الاسحار
يا نار أشواقى به فاتقدي ليلاً فعماه يهتدي بالنار

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْضُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ اللَّفَّةَ
وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمَخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحْضَلَ مَلَكَتْهَا كَمَا قُلْنَا فِي اللَّفَّةِ
الْعَرَبِيَّةِ . فَلَا يَشْعُرُ الْأَنْدَلُسِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْمَغْرِبِيُّ
بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ
الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ . لِأَنَّ اللِّسَانَ الْحَضْرِيَّ وَتَرَاقِيئَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَذْرُوكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ لِمَحَاسِنِ الشُّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنْتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ آيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ الْفَرْضِ .

★ ★ ★

وَجَاءَ مُضَلِّياً خَلْفَهُ مِنْهُمْ ابْنُ رَافِعٍ . رَأْسٌ ^(١) شِعْرَاهُ الْمَأْمُونُ ابْنُ ذِي النُّونِ
صَاحِبِ طَلَيْطَلَةٍ . قَالُوا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ابْتِدَائِهِ فِي مَوْشَحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ
يَقُولُ :

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمَ بِأَبْدَعِ تَلْحِينٍ وَسَقَتْ الْمَذَانِبُ رِيَاضَ الْبَسَاتِينِ
وَفِي انْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

تَخَطَّرُ وَلَا ^(٢) تَسْلَمُ عَسَاكَ الْمَأْمُونُ مَرْوَعُ الْكُتَابِ يَخْيِي بَنُ ذِي النُّونِ
ثُمَّ جَاءَتْ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي ذَوْلَةِ الْمُكَلَّمِينَ . فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ . وَسَابِقُ
فَرْسَانِ حَلْبَتِهِمُ الْأَعْمَى الطَّلَيْطَلِي ^(٣) . ثُمَّ يَخْيِي بَنُ بَقِي . وَلِلطَّلَيْطَلِيِّ مِنَ
الْمَوْشُوحَاتِ الْمَهْدِيَةِ قَوْلُهُ :

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ضَبْرِي فِي الْعَالَمِ أَشْجَانِ
وَالرُّكْبُ وَسَطُ الْفَلَا بِالخَرْدِ النَّوَاعِمِ قَدْ بَانَ

خاتمة

وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ
طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَمَا يَغْرُضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً لَهُ .
وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يَغْوُضُ مِنْ مَسَائِلِهِ
عَلَى أَكْثَرِ مَا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ إِخْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَأِنَّمَا عَلَيْهِ تَغْيِينُ مَوْضِعِ
الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فَصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمُتَأَخَّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئاً
فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَكْمُلَ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه ، اتممت هذا الجزء الأول المشتمل على
المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهديب في مدة خمسة أشهر آخرها
منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة . ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به
تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته . وما العلم الا من عند الله العزيز
الحكيم .

(١) وفي النسخة الباريية : منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون .

(٢) وفي النسخة الباريية : وليست .

(٣) وفي النسخة الباريية : التطيلي .

الجزء الأول من تاريخ الأمم والملوك

٧٣	الاقليم الثاني	٣	مقدمة الناشر
٧٥	الاقليم الثالث	٥	مقدمة المؤلف
٨٢	الاقليم الرابع	١٣	المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها
٩٠	الاقليم الخامس	٤٦	الكتاب الأول :
٩٧	الاقليم السادس		في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب وفيه (ستة أبواب)
١٠٠	الاقليم السابع	٥٤	الباب الأول من الكتاب الأول :
١٠٣	المقدمة الثالثة :		في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات
	في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم		المقدمة الأولى :
١٠٨	المقدمة الرابعة :		في أن الاجتماع الانساني ضروري
	في أثر الهواء في أخلاق البشر	٥٧	المقدمة الثانية :
١٠٩	المقدمة الخامسة :		في قسط العمران من الأرض والأشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم
	في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم	٦٣	تكلمة المقدمة الثانية :
١١٥	المقدمة السادسة :		في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك
	في أصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا	٦٧	تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا
١٢٠	حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب	٦٨	الاقليم الأول
١٢٣	الوحي		
١٢٥	الكهانة		
١٢٨	الرؤيا		
١٤٩	الباب الثاني من الكتاب الأول :		
	في العمران البدوي والأمم الوحشية		

في اختلاط الأنساب كيف يقع .	
الفصل الحادي عشر :	١٦٤
في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العvisية .	
الفصل الثاني عشر :	١٦٥
في أن الرياسة على أهل العvisية لا تكون في غير نسبهم .	
الفصل الثالث عشر :	١٦٧
في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العvisية ويكون لغيرهم بالجواز والشبه .	
الفصل الرابع عشر :	١٦٩
في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بانسابهم	
الفصل الخامس عشر :	١٧٠
في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء .	
الفصل السادس عشر :	١٧٢
في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها	
الفصل السابع عشر :	١٧٤
في أن الغاية التي تجري اليها العvisية هي الملك	
الفصل الثامن عشر :	١٧٥
في أن من عواتق الملك حصول الترف وانفاس القبيل في النعم	
الفصل التاسع عشر :	١٧٦
في أن من عواتق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم .	
الفصل العشرون :	١٧٨

والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات .	
الفصل الأول :	١٤٩
في أن أجيال البدو والحضر طبيعية .	
الفصل الثاني :	١٥١
في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي	
الفصل الثالث :	١٥٢
في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والامصار مدد لها .	
الفصل الرابع :	١٥٣
في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة .	
الفصل الخامس :	١٥٥
في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة .	
الفصل السادس :	١٥٧
في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم .	
الفصل السابع :	١٥٩
في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل أهل العvisية .	
الفصل الثامن :	١٦٠
في أن العvisية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه .	
الفصل التاسع :	١٦١
في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم .	
الفصل العاشر :	١٦٣

في ان البوادي من القبائل
والعصائب مغلوبون لاهل الامصار
الباب الثالث من الكتاب الأول : ١٩٣

في الدولة العامة والملك والخلافة
والمراتب السلطانية وما يعرض في
ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد
ومتعمات :
الفصل الأول : ١٩٣

في أن الملك والدولة العامة انما
يحصلان بالقبيل والعصية
الفصل الثاني : ١٩٤

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت
فقد تستغنى عن العصية
الفصل الثالث : ١٩٦

في أنه قد يحدث لبعض اهل
النصاب الملكي دولة تستغنى عن
العصية .
الفصل الرابع : ١٩٧

في ان الدولة العامة الاستيلاء
العظيمة الملك أصلها الدين امان
نبوة أو دعوة حق .
الفصل الخامس : ١٩٨

في ان الدعوة الدينية تريد الدولة في
أصلها قوة على قوة العصية التي
كانت لها من عددها .
الفصل السادس : ١٩٩

في ان الدعوة الدينية من غير عصية
لا تتم .
الفصل السابع : ٢٠٢

في ان كل دولة لها حصة من الممالك
والاوطان لا تريد عليها .

في أن من علامات الملك التنافس
في الخلال الحميدة وبالعكس
الفصل الحادي والعشرون : ١٨١

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان
ملكها أوسع
الفصل الثاني والعشرون : ١٨٢

في أن الملك إذا ذهب عن بعض
الشعوب من أمة فلا بد من عودته
إلى شعب آخر منها ما دامت لهم
العصية .
الفصل الثالث والعشرون : ١٨٤

في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء
بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر
احواله وعوائده .
الفصل الرابع والعشرون : ١٨٥

في أن الامة اذا غلبت وصارت في
ملك غيرها أسرع اليها الفناء
الفصل الخامس والعشرون : ١٨٦

في ان العرب لا يتغلبون الا على
السائط .
الفصل السادس والعشرون : ١٨٧

في ان العرب اذا تغلبوا على أوطان
اسرع اليها الخراب .
الفصل السابع والعشرون : ١٨٩

في أن العرب لا يحصل لهم الملك
الا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو
أثر عظيم من الدين على الحملة
الفصل الثامن والعشرون : ١٨٩

في أن العرب أبعد الامم عن سياسة
الملك .
الفصل التاسع والعشرون : ١٩١

٢٢١	الفصل الثامن عشر : في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها .
٢٢٩	الفصل التاسع عشر : في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي والمصطنعين
٢٣٠	الفصل العشرون : في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول
٢٣٢	الفصل الحادي والعشرون : فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه
٢٣٣	الفصل الثاني والعشرون : في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
٢٣٤	الفصل الثالث والعشرون : في حقيقة الملك واصنافه .
٢٣٦	الفصل الرابع والعشرون : في أن ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر
٢٣٧	الفصل الخامس والعشرون : في معنى الخلافة والامامة
٢٣٩	الفصل السادس والعشرون : في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه .
٢٤٦	الفصل السابع والعشرون : في مذاهب الشيعة في حكم الامامة
٢٥٣	الفصل الثامن والعشرون : في انقلاب الخلافة الى الملك .
٢٦١	الفصل التاسع والعشرون :

٢٠٤	الفصل الثامن : في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة
٢٠٦	الفصل التاسع : في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة .
٢٠٨	الفصل العاشر : في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد .
٢٠٩	الفصل الحادي عشر : في أن من طبيعة الملك الترف
٢١٠	الفصل الثاني عشر : في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون .
٢١٠	الفصل الثالث عشر : في أنه اذا استحكت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على المهزم
٢١٣	الفصل الرابع عشر : في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للشخاص .
٢١٥	الفصل الخامس عشر : في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .
٢١٨	الفصل السادس عشر : في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها .
٢١٩	الفصل السابع عشر : في اطوار الدولة واختلاف أحوالها

الخاتم .	٣٢٦
الطراز .	٣٢٩
الفساطيط والسياج .	٣٣٠
المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة .	٣٣٢
الفصل السابع والثلاثون :	٣٣٤
في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها .	٣٤٤
الفصل الثامن والثلاثون :	٣٤٤
في الجباية وسبب قتلها وكثرتها	٣٤٥
الفصل التاسع والثلاثون :	٣٤٥
في ضرب المكوس أواخر الدولة .	٣٤٦
الفصل الاربعون :	٣٤٦
في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية .	٣٤٩
الفصل الواحد والاربعون :	٣٤٩
في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة .	٣٥٣
الفصل الثاني والاربعون :	٣٥٣
في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية .	٣٥٣
الفصل الثالث والاربعون :	٣٥٣
في أن الظلم مؤذن بخراب العمران .	٣٥٧
الاحتكار .	٣٥٧
الفصل الرابع والاربعون :	٣٥٨
في أن الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم .	٣٦٠
الفصل الخامس والاربعون :	٣٦٠
في انقسام الدولة الواحدة بدولتين	٣٦٢
الفصل السادس والاربعون :	٣٦٢
في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع	٣٦٣
الفصل السابع والاربعون :	٣٦٣

في معنى البيعة	٢٦٢
الفصل الثلاثون :	٢٦٢
في ولاية العهد .	٢٧٢
الفصل الحادي والثلاثون :	٢٧٢
في الخطط الدينية الخلافية	٢٨٠
الحسبة والسكة .	٢٨٢
الفصل الثاني والثلاثون :	٢٨٢
في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء .	٢٨٧
الفصل الثالث والثلاثون :	٢٩٢
في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود	٢٩٢
الفصل الرابع والثلاثون :	٢٩٤
في مراتب الملك والسلطان وألقابها	٢٩٤
الوزارة .	٢٩٩
الحجباية .	٣٠٢
ديوان الاعمال والحجبايات .	٣٠٥
ديوان الرسائل والكتابة .	٣١١
الشرطة .	٣١٢
قيادة الاساطيل :	٣١٨
سفائن الحرب .	٣١٨
الفصل الخامس والثلاثون :	٣١٩
في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول .	٣١٩
الفصل السادس والثلاثون :	٣٢٢
في شارات الملك والسلطان الخاصة به .	٣٢٢
السرير والمنبر والتخت والكرسي .	٣٢٢
السكة .	٣٢٤
مقدار الدرهم والدينار الشرعيين .	٣٢٤

في أن الدول أقدم من المدن
والامصار وانما توجد ثانية عن
الملك .

الفصل الثاني : ٤٢٨

في أن الملك يدعو إلى نزول الامصار
الفصل الثالث : ٤٢٩

في أن المدن العظيمة والهياكل
المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير
الفصل الرابع : ٤٣١

في أن الهياكل العظيمة جداً لا
تستقل بينها الدولة الواحدة
الفصل الخامس : ٤٣٢

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن
وما يحدث إذا غفل عن المراجعة
الفصل السادس : ٤٣٥

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم .
الفصل السابع : ٤٤٦

في أن المدن والامصار بافريقية
والمغرب قليلة .
الفصل الثامن : ٤٤٧

في أن المباني والمصانع في الملة
الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها
والى من كان قبلها من الدول
الفصل التاسع : ٤٤٨

في أن المباني التي كانت تحتطها
العرب يسرع اليها الخراب في الاقل
الفصل العاشر : ٤٤٩

في مبادئ الخراب في الامصار
الفصل الحادي عشر : ٤٥٠

في أن تفاضل الامصار والمدن في
كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

في كيفية طروق الخلل للدولة .

الفصل الثامن والاربعون : ٣٦٧

فصل في اتساع الدولة ، أولاً إلى
نهايته ثم تضايقه واضمحلال
الدولة .

الفصل التاسع والاربعون : ٣٧١

في حدوث الدولة وتجديدها كيف
يقع .
الفصل الخمسون : ٣٧٢

في أن الدولة المستجدة انما تستولي
على الدولة المستقرة بالمطاوله لا
بالمناجزة .

الفصل الحادي والخمسون : ٣٧٢

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع
فيها من كثرة الموتان والجماعات
الفصل الثاني والخمسون : ٣٧٧

في أن العمران البشري لا بد له من
سياسة يتنظم بها أمره .
الفصل الثالث والخمسون : ٣٨٨

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه
الناس في شأنه وكشف الغطاء عن
ذلك .

الفصل الرابع والخمسون : ٣٩٠

في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام
على الملاحم والكشف عن مسمى
الجفر .

الباب الرابع من الكتاب الأول : ٤٢٦

في البلدان والامصار وسائر العمران
وما يعرض في ذلك من الاحوال
وفيه سوابق ولواحق .

الفصل الأول : ٤٢٦

وتغلب بعضهم على بعض	
الفصل الثاني والعشرون :	٤٧٤
في لغات أهل الامصار .	
الباب الخامس من الكتاب الأول :	٤٧٦
في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل .	
الفصل الأول :	٤٧٦
في حقيقة الرزق والكسب وشرحها وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية .	
الفصل الثاني :	٤٧٩
في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه	
الفصل الثالث :	٤٨٠
في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي .	
الفصل الرابع :	٤٨١
في ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي	
الفصل الخامس :	٤٨٧
في ان الجاه مفيد للمال .	
الفصل السادس :	٤٨٨
في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتخلق وان هذا الخلق من أسباب السعادة	
الفصل السابع :	٤٩٢
في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة . والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .	
الفصل الثامن :	٤٩٣

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة	
الفصل الثاني عشر :	٤٥٣
في اسعار المدن .	
الفصل الثالث عشر :	٤٥٦
في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران .	
الفصل الرابع عشر :	٤٥٧
في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفقة والفقير مثل الامصار .	
الفصل الخامس عشر :	٤٥٩
في تأثر العقار والضياح في الامصار وفوائدها ومستغلاتها .	
الفصل السادس عشر :	٤٦٠
في حاجات المتمولين من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة .	
الفصل السابع عشر :	٤٦١
في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها .	
الفصل الثامن عشر :	٤٦٥
في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده .	
الفصل التاسع عشر :	٤٦٩
في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تحرب بخراب الدولة وانقراضها	
الفصل العشرون :	٤٧٢
في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض .	
الفصل الحادي والعشرون :	٤٧٢
في وجود العصيبة في الامصار	

٥٠٦	الفصل العشرون :
	في أن الامصار إذا قاربت الخراب
	انتقصت منها الصنائع .
٥٠٦	الفصل الحادي والعشرون :
	في أن العرب أبعد الناس عن
	الصنائع .
٥٠٧	الفصل الثاني والعشرون :
	فيمن حصلت له ملكة في صناعة
	فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى
٥٠٨	الفصل الثالث والعشرون :
	في الاشارة الى امهات الصنائع
٥١٠	الفصل الرابع والعشرون :
	في صناعة الفلاحة .
	الفصل الخامس والعشرون :
	في صناعة البناء .
٥١٤	الفصل السادس والعشرون :
	في صناعة التجارة .
٥١٦	الفصل السابع والعشرون :
	في صناعة الحياكة والخياطة
٥١٧	الفصل الثامن والعشرون :
	في صناعة التوليد .
٥٢٠	الفصل التاسع والعشرون :
	في صناعة الطب وانها محتاج اليها في
	الحواضر والامصار دون البادية
٥٢٤	الفصل الثلاثون :
	في أن الخط والكتابة من عداد
	الصنائع الانسانية
٥٣٢	الفصل الحادي والثلاثون :
	في صناعة الوراقة .
٥٣٤	الفصل الثاني والثلاثون :
	في صناعة الغناء .

	في ان الفلاحة من معاش المتضعين
	وأهل العافية من البدو .
٤٩٤	الفصل التاسع :
	في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها
٤٩٥	الفصل العاشر :
	في أي اصناف الناس يحترف
	بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها
٤٩٦	الفصل الحادي عشر :
	في ان خلق التجار نازلة عن خلق
	الاشراف والملوك
٤٩٦	الفصل الثاني عشر :
	في نقل التاجر للسلع
٤٩٧	الفصل الثالث عشر :
	في الاحتكار .
٤٩٨	الفصل الرابع عشر :
	في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين
	بالرخص .
٥٠٠	الفصل الخامس عشر :
	في أن خلق التجار نازلة عن خلق
	الرؤساء وبعيدة من المروءة .
٥٠١	الفصل السادس عشر :
	في أن الصنائع لا بد لها من العالم
٥٠٢	الفصل السابع عشر :
	في أن الصنائع انما تكمل بكمال
	العمران الحضري وكثرته .
٥٠٣	الفصل الثامن عشر :
	في أن رسوخ الصنائع في الامصار
	انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .
٥٠٥	الفصل التاسع عشر :
	في أن الصنائع انما تستجد وتكثر
	إذا كثر طالها .

٥٨٠	الفصل العاشر :
	في علم الكلام .
٥٩٢	الفصل الحادي عشر :
	في أن عالم الحوادث العقلية إنما يتم بالفكر .
٥٩٤	الفصل الثاني عشر :
	في العقل التجريبي وكيفية حدوثه
٥٩٥	الفصل الثالث عشر :
	في علوم البشر وعلوم الملائكة .
٥٩٧	الفصل الرابع عشر :
	في علوم الانبياء عليهم الصلاة والسلام
٥٩٩	الفصل الخامس عشر :
	في أن الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب .
٦٠٠	الفصل السادس عشر :
	في كشف الغطاء عن المشابه من الكتاب السنة وما حدث لاجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات .
٦١١	الفصل السابع عشر :
	في علم التصوف .
٦٢٥	الفصل الثامن عشر :
	في علم تعبير الرؤيا .
٦٢٩	الفصل التاسع عشر :
	في العلوم العقلية واصنافها
٦٣٤	الفصل العشرون :
	في العلوم العددية .
٦٣٩	الفصل الحادي والعشرون :
	في العلوم الهندسية .
٦٤١	الفصل الثاني والعشرون :
	في علم الهيئة

٥٤١	الفصل الثالث والثلاثون :
	في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب .
٥٤٢	الباب السادس من الكتاب الأول :
	في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق .
٥٤٢	الفصل الأول :
	في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري .
٥٤٣	الفصل الثاني :
	في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع .
٥٤٨	الفصل الثالث :
	في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتغظم الحضارة .
٥٤٩	الفصل الرابع :
	في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد .
٥٥١	الفصل الخامس :
	في علوم القرآن من التفسير والقراءات
٥٥٦	الفصل السادس :
	في علوم الحديث .
٥٦٣	الفصل السابع :
	في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض
٥٧١	الفصل الثامن :
	في علم الفرائض .
٥٧٣	الفصل التاسع :
	في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات .

٧١٩	الفصل الثالث والثلاثون :
	في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفسد عن انتحالها .
٧٢٧	الفصل الرابع والثلاثون :
	في ان كثرة التأليف في العلوم عاتقة عن التحصيل :
٧٢٩	الفصل الخامس والثلاثون :
	في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والغناء ما سواها .
٧٣٣	الفصل السادس والثلاثون :
	في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم محلة بالتعليم
٧٣٤	الفصل السابع والثلاثون :
	في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته
٧٢٨	الفصل الثامن والثلاثون :
	في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الاظهار ولا تفرع المسائل .
٧٤٠	الفصل التاسع والثلاثون :
	في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه .
٧٤٣	الفصل الأربعون :
	في أن الشدة على المتعلمين مضرة
٧٤٤	الحادي والأربعون :
	في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
٧٤٥	الفصل الثاني والأربعون :
	في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها .

٦٤٤	الفصل الثالث والعشرون :
	في علم المنطق .
٦٤٩	الفصل الرابع والعشرون :
	في علم الطبيعيات .
٦٥٠	الفصل الخامس والعشرون :
	في علم الطب .
٦٥٢	الفصل السادس والعشرون :
	في الفلاحة .
٦٥٣	الفصل السابع والعشرون :
	في علم الآليات .
٦٥٥	الفصل الثامن والعشرون :
	في علوم السحر والطلسمات .
٦٦٤	الفصل التاسع والعشرون :
	علم اسرار الحروف .
٦٧١	الكلام على استخراج نسبة الأوزان
	وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة .
٦٧٦	كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايحة العالم بحول الله
	منقولاً عن لقيناه قائماً عليها
٦٨٧	فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية
٦٩٢	فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية
٦٩٥	الفصل الثلاثون :
	في علم الكيمياء .
٧٠٧	الفصل الحادي والثلاثون :
	في ابطال الفلسفة وفساد متحلها
٧١٤	الفصل الثاني والثلاثون :
	في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها .

في أن أهل الامصار على الاطلاق	٧٤٧	الفصل الثالث والأربعون :
قاصرون في تحصيل هذه الملكة		في ان حملة العلم في الاسلام
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن		اكثرهم العجم
كان منهم ابعد عن اللسان العربي	٧٥٠	الفصل الرابع والأربعون :
كان حصولها له أصعب وأعسر .		في أن العجمة إذا سبقت اللسان
الفصل الثالث والخمسون :	٧٨١	العربي .
في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر		الفصل الخامس والأربعون :
الفصل الرابع والخمسون	٧٧٣	في علوم اللسان العربي .
في أنه لا تتفق الاجادة في فني		٧٥٣ علم النحو .
المنظوم والمنثور معا إلا للأقل .		٧٥٦ علم اللغة .
الفصل الخامس والخمسون :	٧٨٤	٧٥٩ علم البيان .
في صناعة الشعر ووجه تعلمه .		٧٦٣ علم الأدب .
الفصل السادس والخمسون :	٧٩٤	الفصل السادس والأربعون :
في أن صناعة النظم والنثر انما هي		في أن اللغة ملكة صناعية .
في الالفاظ لا في المعاني .		الفصل السابع والأربعون :
الفصل السابع والخمسون :	٧٩٦	في أن لغة العرب لهذا العهد لغة
في أن حصول هذه الملكة بكثرة		مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير .
الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .		الفصل الثامن والأربعون :
الفصل الثامن والخمسون :	٧٩٩	في ان لغة أهل الحضرة والامصار
في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع		قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر .
وكيف جودة المصنوع أو قصوره .		الفصل التاسع والأربعون :
الفصل التاسع والخمسون :	٨٠٣	في تعليم اللسان المضري .
في ترفع أهل المراتب عن انتحال		الفصل الخمسون :
الشعر .		في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة
الفصل الستون :	٨٠٥	العربية ومستغنية عنها في التعليم .
في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا		الفصل الواحد والخمسون :
العهد .		في تفسير الذوق في مصطلح أهل
الموشحات والازجال للاندلس .	٨١٧	البيان وتحقيق معناه وبيان ان لا
خاتمة .	٨٤٠	يحصل غالباً للمستعربين من العجم .
الفهرس	٨٤١	الفصل الثاني والخمسون :
		٧٧٨